

بُونَايِرْتْ فِي مِصْرَ



تأليف: ج. كريستوفر هيرولد
ترجمة: فؤاد اندراوس
مراجعة: د. محمد أحمد أنيس



جونابرت في مله

الافراج الفنل : سهر معطى

المراجعة والاشراف الفنل : عفاف ءوفلق

يونانيرك في مصر



تأليف
الدكتور محمد هيرولد
General Organization of the Alexan-
dria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

مراجعة

الدكتور محمد أحمد أنيس

ترجمة

فؤاد أندراوس



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٦

هذه ترجمة كاملة لكتاب

BONAPARTE IN EGYPT

By

J. CHRISTOPHER HEROLD

الى

كرستوفر ديفد هيرولد

مقدمة المؤلف

لم يكن هدفي حين شرعت في تأليف هذا الكتاب الا أن أروى مغامرة من أشد مغامرات العصور الحديثة اثارة للمشاعر ، متوخيا الصديق في هذه الرواية ما استطعت اليه سبيلا . واذ تقدم العمل في الكتاب لم تفتّر الاثارة ولم تضعف ، ولكن صعوبة الوصول الى الحق واقامة الدليل عليه وضحت أكثر فأكثر . وقد يكون أنسب للمؤلف لو استطاع الوصول الى يقين مستند الى الحقائق في أمر ما وقع من أحداث باستخدامه مختلف الطرق « العلمية » لتحليل حصيلة الشواهد المستقاة من الوثائق . وشهادة الوثائق مهما تبين زيفها يجب ألا تهمل بالطبع ، ولكن ينبغي النظر اليها بغاية الحذر أينما تعارضت مع الادراك الفطري السليم . والمؤرخ كأى عضو متواضع من محلفى المحكمة مضطر ، بعد كل شيء ، الى الاستعانة بفطرته وبما خبر من شئون البشر لاستكمال النقص فيما يعرض له من أقوال متضاربة ، والا كان غيبا .

وقد حاولت بما وسعنى من تدقيق أن أعرض على القارئ الحق « الراجح » وهذا الحق لا يظهر نابليون بوناپرت ولا الجنود والمدنيين الفرنسيين الذين اشتركوا في حملته المصرية في صورة طيبة جدا ، ولكن يجب ألا يكون فى هذا ما يضلّل القارئ فيحسب نابليون ورجاله أكثر من سائر البشر شرا أو أنانية أو ضراوة ، فتاريخ الحملات الاستعمارية قاطبة منذ فتح المكسيك ، اذا درس دراسة صحيحة ، ليس فيه ما يشرف الطرف المتحضر من طرفى الصراع أكثر مما يشرف تاريخ الحملة المصرية الفرنسيين . وليذكر القارئ أن الجنود والمدنيين الفرنسيين الذين شاركوا فى الحملة المصرية كانوا خارجين لتوهم من ثورة هي أشد الثورات التى سجلها التاريخ وحشية . وليس فيما أتوه بمصر أو بسوريا ، حتى فى مععان المعركة ، ما يعدل فى هوله وفظاعته حركة ندت خلال حكم الارهاب عن سيد من « آراس » يصحب سيدتين الى المسرح : وكانت الجيلوتين منصوبة فى مواجهة المسرح ، ونهر صغير من الدماء ينساب فى مصرف لا بد من

عبوره ، وانحنى السيد وغمس أصابعه فى المصرف ، ثم رفع يده والسم يقطر منها قائلا : « ما أجمل وما أبدع ! » .

أما بعد فإن أكبر عملة فى تاريخ حملة بونايرت على مصر كتاب وضعه منذ نصف قرن « المركيز دلاجونكيير » فى خمسة مجلدات تضم أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كبيرة مطبوعة بحروف صغيرة . ومنذ ظهور هذا الكتاب وكل المؤلفين فى هذا الموضوع ينقلون عنه فى غير تحرج ، ولكن أحدا منهم لم يوفه حقه من الاعتراف بالفضل . لا بل ادعى أكثر الكتاب والمؤرخين ، شأنهم على الدوام ، أنهم فعلوا من جديد كل ما فعله لاجونكيير قبلهم ومن أجلهم . وعندى أن المؤرخين يؤلفون الكتب ليستعين بها غيرهم من المؤرخين والكتاب . وأنا على أى حال استعنت كثيرا بكتاب لاجونكيير ، وأعترف بدينى له مؤكدا وفى غير خجل . فلاجونكيير أكثر من قرأت من المؤرخين تدقيقا . وهو لم يصدر حكما على أحد ، ولكن مجلداته الخمسة تؤلف أكمل ملف تطمح فيه محكمة من المؤرخين . واعتقد أن فى وسعى القول بكل اخلاص أننى لم أناقض كتاب لاجونكيير فى أى نقطة فى روايتى . فلقد كان لاجونكيير ضابطا فى الجيش الفرنسى ، ألف كتابه تحت رعاية وزارة الحرب الفرنسية مستندا الى وثائق غير منشورة يفوق عددها ما أتيح لأى كاتب بعده . وانى أؤكد هذه الحقائق لأن وطنية المركيز دلاجونكيير واجترامه لبونايرت لا يرقى اليهما الشك . ومع ذلك فليست بى رغبة فى التستر وراء كتابه ، وأنا أضطلع بكامل المسئولية عن النتائج التى خلصت اليها من الشواهد التى قدمها لى هو وغيره من مصادر كتابى .

كذلك أود الاقرار بدينى للكتاب الممتاز الذى ألفه « أولفر ورنر » واسمه « معركة أبو قير » (*) ، وهو أحدث الكتب فى هذا الموضوع ، وأفضلها وأجزها فى رأى . .

ج . كرسطوفر هيرولد

نيويورك فى اول سبتمبر ١٩٦٢

الفصل الأول

طولون

١

فى الساعة السادسة من صباح ١٩ مايو ١٧٩٨ أصدرت بارجة أمير البحر الفرنسية « لوريان » (أى الشرق) التى يقودها الكابتن كازابيانكا الأمر بالاقلاع الى سفن الأسطول والقافلة التى تجمعت فى ميناء طولون . ومرت نحو مائة وثمانين سفينة خلال الساعات الثمانى التالية أمام لوريان التى كانت تشمخ فوقهن كالحصن بمدافعها ذات الصفوف الثلاثة ، المؤلف كل منها من أربعين مدفعا . ثم راحت سفن الأسطول تمخر العباب فى شىء من المشقة متجهة صوب كورسيكا بعد أن صادفتها ريح نشطة . ولا بد أنه كان مشهدا يبهر الأنفاس ، فقد ضم هذا الأسطول القهار ثلاث عشرة بارجة تحمل فيما بينها ١٠٢٦ مدفعا ، و ٤٢ فرقاطة ومركبا خفيفا وزورق بريد وغيرها من صفار السفن ، و ١٣٠٠ ناقلة من شتى الأنواع ، وعلى ظهر هذه السفن والناقلات نحو ١٧٠٠٠ جندي ، ومثلهم من الملاحين والجنود البحريين ، وأكثر من ألف قطعة من مدفعية الميدان ، و ١٠٠٠٠٠ قطعة من الذخيرة ، و ٥٦٧ عربة ، و ٧٠٠ حصان . وكان المقرر أن ينضم الى الأسطول قبل وصوله الى غايته - التى لا يعرفها غير حفنة من الرجال ثلاث قوافل أصغر منه ، من جنوه وأجاكسيو وشفيتا فكيا ، وبها يبلغ مجموع الرجال زهاء ٥٥٠٠٠ ومجموع السفن قرابة ٤٠٠ (*) . وهذا الأسطول يشغل فى عرض البحر مساحة تتراوح بين ميلين

(*) نضيف هنا توخيا للدقة أن بارجتين من بوارج الأسطول اقلعتا من طولون فى الليلة

السابقة .

وأربعة أنيل أربعة . وحين أتقى دراسيه أمام البقعة التي انتهى إليها مطافه كان مشاهدته من البحر لا يظنون « بحرا » بل سماء ومراكب ، فوقع عليهم خرف تنظيم ووهم بحيم . شيء لا يقدر ، (١) .

كذلك كتب تقولا انترك ، وهو شاعر عربى أرخ لما وقع بعد هذا من أحداث .



وعلى ظهر البارجة لوريان وقف الجنرال بوناپرت ، عضو المجمع العلمى والقائد الأعلى للقوات البرية والبحرية التي تؤلف « الجناح الأيسر لجيش انجلترا » يقب السفن وهي تنساب أمام بارجة القائد وتحييها في أثناء عبورها . وإذا كان انسان يعرف الغرض من تجريد هذه الحملة فهو هذا الانسان . ولكن أحدا من الناس لا يستطيع الى اليوم أن يعرف على التحقيق الدوافع التي حفزته لتولى قيادتها ، وأما هو نفسه لم يعرفها .

كان يودها رجلا قصير القامة شاحب اللون رقيق البدن تبدو قبعته وحذاءه أوسع مما يناسبه . وكانت النساء يكنينه « القط المحتذى » . على أنه كان يحتوى بين جنبيه من الطاقة المكتنزة ما يوحى للمناظر بفكرة النمر المتحفر لثوب لا التل الغريب اللباس ، وكان فى النظرة الهادئة الباردة التي يطالع بها الناس من عينييه الرماديتين صفة تبعث التفانى فى قلوب البعض ، والرعب فى قلوب الجميع ، ولا تبعث الحب فى قلب أحد . وكان قد بلغ فى عاده التاسع والعشرين آنذاك من علو المكانة ، وحقق من المجد والسؤدد فوق ما يطمع أكثر الناس لموحسا فى بلوغه وتحقيقه فى عمره كله ان لم يكن فى أحلامه غلو وشغل . وفى طولون هذه ، وقبل خمس سنوات فقط ، رسا بأفراد أسرته بعد أن طرد من وطنه كورسيكا طرد الحونة المارقين . وهنا ، وبعد هذا الحادث بشهور قليلة فقط ، أصاب اكبتن بوناپرت ضابط المدفعية فجأة قسما متواضعا من الشهرة بعد أن كان نكرة ، وأكسبه الدور الذى لعبه فى انتزاع طولون من الانجليز والملكيين المدافعين عنها الترقية لرتبة قائد اللواء . وهنا شهد « محسوب » أخى روبسبير ، بشعور لا يخلو من التقزز ، مذبة أقرب الى مذابح أكلة لحوم البشر ، فتك فيها « الوطنيون » الثوار بالسكان الملكيين . منذ ذلك التاريخ ، وبعد عشرين ظل فيهما مغمورا وكان عليه خلالهما أن يحيا حياة تدور من الأذهان ذكرى صلاته الماضية باليعاقبة ، نال الخطوة عند حكومة الإدارة التي أنقذ حياتها يوم أمر رجاله بأن يطلقوا مدافعهم على جمهور من المتظاهرين ، وتزوج خليفة سابقة لأحد أعضاء حكومة الإدارة ، وعين قائدا للقوات الفرنسية فى ايطاليا ، فوجد جيشا واهن المزيمة ، جائعا ، مهلهلا قاده من نصر الى نصر ، وفتح أكثر ايطاليا ، وأبرم الصلح مع الامبراطور ، وقضى على جمهورية البندقية ، واستولى على الجزر الأيونية ، ثم قفل ظافرا الى فرنسا وقد ذاع صيته بين الناس

محارباً لا يقهر، وسياسياً أحكم من سنى عمره ، وبطلاً من طراز الأبطال الأقدمين .
قال نقولا الترك يصفه بعد ذلك بقليل في قصيدة يمدح بها بونايرت ودولته :

مقدامها ذو سطوة تهدى الملوك له الوقار
الشهم بونايرت اسد الوغى ذو الاقتدار
من فاق قدرا وارتقى اوج العلا وسما الفخار
مولى شديد البطش من عاداه حل به الدمار
ملك تولى وتبة خضعت له القوم الكبار
قهر الممالك جملة وقضى المراد بما اشار (*)

وهى بلاغة شرقية ، ولكنها تعبر عن الفكرة الشائعة عن بونايرت آنئذ ،
وهى فكرة شارك فيها الغرب الشرق بوجه عام .

وترك الأبطال العاطلين يتسكعون بلا عمل خطر أى خطر . فلما عاد
بونايرت من انتصاراته الإيطالية فى ديسمبر ١٧٩٧ ، كانت حكومة الادارة
سبقت فعينته لقيادة « جيش انجلترا » الذى كان يجمع على ساحل القنال
الانجليزى تمهيدا لغزو الجزر البريطانية . وهناك تضارب فى الأدلة على أنه
فكر ، أو لم يفكر جدياً ، فى وقت من الأوقات ، فى امكان القيام بغزوها
بنجاح ، فاذا كان قد فكر ، فان هذا التفكير كان قصير الأجل (**) . ذلك أنه
بعد جولة تفتيشية سريعة بمناطق تنفيذ الغزو المزعوم قام بها فى فبراير ١٧٩٨ ،
كتب لحكومة الادارة تقريراً يقول فيه ان الموارد العسكرية والمالية المتاحة
ناقصة نقصاً شديداً ، وانه ربما كانت اللحظة المواتية للغزو قد فاتت الى
الأبد ، وان على فرنسا أن تختار بين ثلاث : فاما أن تعقد الصلح مع انجلترا ،
واما أن تغزو هانوفيا بدلاً من الجزر البريطانية ، واما أن تستولى على مصر

(*) القصيدة واردة فى كتاب « ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية
تأليف معلم نقولا التركى » - نشره بباريس المستشرق ديجرانج (١٨٣٩) ، وفى « ديوان المعلم
نقولا الترك » - ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد افرايم البستاني ببيروت (١٩٤٩) .
ونقولا الترك ، ابن يوسف ترك ، (١٧٦٣ - ١٨٢٨) لبنانى كاثوليكي ، ولد بدير القمر
بسوريا ، وتنحدر أسرته من القسطنطينية ، وكان من أتباع الأمير بشير زعيم الدروز ، أوفده الى
مصر ابان الحملة الفرنسية فلبث بدمياط ثلاث سنين يرقب الأحداث ويسجلها ، وعاد بعد خروج
الفرنسيين الى دير القمر . والنصوص الواردة فى هذا الكتاب منقولة عن « مذكرات نقولا الترك »
التي نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت (القاهرة - مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية) .
وللمذكرات قيمتها التاريخية لما فيها من دقة ملاحظة ، وان كانت « لغة العرب لم تكن تماماً لحفيد
اليونان » كما قال ناشر ديوانه ، وهذا واضح فى شعره ، ونثره المسجوع على السواء . (المترجم)
(**) لا شك فى أن الفكرة راودته جدياً بالطبع فى فترة متأخرة ، من ١٨٠٣ حتى أصابته
كارثة « الطرف الأغر » .

فتقطع بذلك شريان الحياة بينها وبين الهند . واستقر الرأي على المشروع
الآخر في ظروف ولأسباب سنراها : ولم يكن المشروع جديدا قط ، ولا
كان بونابرت أول من فكر فيه .

ولا بد أن خطر تدمير الحملة تدميرا تاما كان في ذهن بونابرت وهو يرقب
في هدوء موكب السفن الطويل . فلو أن الانجليز اعترضوا سير الأسطول . ولو
بقوات أقل منه - لكان في ذلك القضاء المبرم على الحملة . ولكنه كان خطرا يرغب
في المغامرة به ، لأنه كان مقامرا وكان جنديا ، وقد حسب حسابه في روية واتزان
برغم أحلام المجد العريض التي ربما ملأت رأسه . كتب « فوفليه دبورين »
سكرتيره الخاص ورفيقه في الفصل أيام الدراسة ، الذي كان حتى في تلك اللحظة
واقفا الى جواره ، يقول في « مذكراته » التي جمعها في شيخوخته كاتب مغمور ،
ان بونابرت حين رحل الى مصر كانت تملأ جنبه أطماع جديرة بالاسكندر الأكبر ،
وقد نقل عنه قوله (٣) « ليست أوروبا سوى تل صغير حقير . كل شيء هنا يبلى
مع الزمن : لقد انقضى ما كسبت من مجد ، وأوروبا الصغيرة هذه لا تتيح مجالا
كافيا للأمجاد . فلا بد اذن من الذهاب الى الشرق : لأن كل مجد عظيم لم يظفر
به أصحابه الا في الشرق » (٤) . وربما كان بونابرت صاحب هذه العبارات
حقا ، ومن المؤكد أنه كان في جميع أطوار حياته يعود الى هذا الموضوع الذي لم
يفتا يطوف بخياله ، ألا وهو فتح الهند . وقد صرح في جزيرة سانت هيلانه بأنه
في ايطاليا استشف لأول مرة ذلك المجد الذي يمكن أن يظفر به . « كنت أشعر
يومها أن الأرض تجري من تحتي كأنني أحمل الى السماء حملا » (٥) . وفي
مصر « شعرت أنني أستطيع الاستسلام للأحلام الزاهية » (٦) .

وقد اعترف لمدام دريموزا اعترافا أكثر تحديدا في السنوات الأولى من
القرن التاسع عشر اذ قال : « في مصر وجدت نفسي وقد تحررت من قيود
حضارة مزعجة . كانت الأحلام تملأ رأسي . . ورأيتني أؤسس دينا ، وأزحف
على آسيا وأنا أمتطي فيلا وعلى رأسي عمامة وفي يدي القرآن الجديد الذي كنت
سأولفه ليلائم حاجاتي . وكنت سأجمع في مشروعاتي بين خبرات العالمين ،
وأسخر لمنفعتي مسرح التاريخ كله ، وأهاجم قوة انجلترا في الهند ، فأجدد بهذه
الفتح الاتصال بأوروبا القديمة . لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر أجمل
فترات حياتي لأنها كانت أحفلها بالأحلام » (٧) . ولا بد لنا من أن نأخذ هذه
التصريحات في شيء كثير من الحذر . ذلك أنه يفرض أن هذه الأحلام قد راودت
بونابرت (ولعلها راودته فعلا) ، فانه لم يكن واثقا قط بأنها ستحقق . وإذا
كان قد اضطلع بفتح مصر ، فان دوافعه كانت أضيق من هذه الأحلام مدى واضبط
منها تقديرا ، ان بقاءه عاطلا بغير نشاط كان الشيء الوحيد الذي سيؤذيه لا محالة ،
ولو كان فتح جرينلند السبيل الوحيد لتوقي هذا العطل لقبل قيادة جيش
جرينلند . ومصر أتاحت له ولا ريب فرصا أكثر إثارة والهاما .

وأيا كانت أفكار بونابرت صباح ذلك اليوم في طولون ، فما من شك في أن الكثرة الغالبة من رجاله البالغ عددهم ٣٤٠٠٠ رجل ، والذين أقلتهم سفنه ، لم يشاطروه أياها . لقد كان البحر ثائرا ، وأصاب دواره كل رجل فيهم تقريبا ، لا سيما من ركب منهم المراكب الصغيرة . ولم يكونوا يعرفون الى أين هم ذاهبون ، ولا كم من الزمن سيمكثون في البحر .

ففي العاشر من شهر مايو ، عقب وصول القائد الأعلى الى طولون ، استعرض جنوده وخطب فيهم قائلا : « أيها الضباط والجنود ، لقد حضرت منذ عامين لأتولى قيادتكم . وكنتم يومها على ساحل ليجوريا تعانون الفاقة والعوز في كل شيء ، حتى لقد بعتم ساعاتكم لتشتروا ما تحتاجون اليه . وقد وعدتكم أن أقضى على هذا الحرمان ، وقدتكم الى ايطاليا ، حيث أعطيتكم كل شيء بسخاء . فهل بررت بوعدى لكم ؟ » .

وتذكر النشرة الرسمية « مونيتور » (٢١ مايو) أن الجنود أجابوا بصيحة واحدة « نعم ! » .

وواصل بونابرت خطابه قائلا « حسنا ، دعوني أخبركم أنكم لم تفعلوا بعد للوطن ، ولا فعل الوطن لكم ، ما فيه الكفاية . واني الآن قائدكم الى بلد تفوقون فيه بأعمالكم المقبلة ما قمتم به الى الآن من أعمال تدهش المعجبين بكم ، وستؤدون للجمهورية خدمات يحق لها أن تنتظرها من جيش لا يقهر . واني أعد كل جندي أن يحصل عند عودته لفرنسا على ما يكفيه لشراء ستة أفدنة من الأرض » (٨) .

ومضى الخطاب على هذا النحو دقيقة أو دقيقتين . تلتها هتافات « تحيا الجمهورية الخالدة » وأناشيد وطنية (*) .

وفي الخطابات التي كتبها ضباط جيش بونابرت وجنوده من مصر شواهد كثيرة على أن كثيرا منهم كانوا يتقبلون في سذاجة شعارات العهد الوطنية . فقد ترك أغلبهم أسرهم وبيوتهم قبل سنوات وانخرطوا في الجيش متطوعين للدفاع عن الجمهورية ضد « الطغاة » ، وكان بعضهم من الشبان الذين جندوا في حركة « التجنيد العامة » . كان يؤمنون بأنهم ناقلون المجد أيا كانت وجهتهم ، لأنهم سيبسطون ظلال الحرية على بلاد أخرى . ولكنهم - باستثناء عدد قليل منهم - كانوا أيضا من قدامى المحاربين في الحملة الايطالية (١٧٩٦ - ٩٧) ، وكان

(*) نشرت « المونيتور » في اليوم التالي تصحيحا للخبر ، فنفت أن بونابرت ألقى هذا الخطاب ، ونشرت خطابا يختلف فيه عن هذا اختلافا تاما . على أن مصادر مستقلة شتى تؤكد أن بونابرت ألقاه فعلا ، وأصبح الوعد بالأفدنة الستة نكتة دائمة يتندر بها الجنود الذين انقشع الوهم عنهم في مصر .

يشوب وطنيتهم ذكرى الغنائم والطعام الكثير والخمر والنساء ، وتوقع الظفر بهذا كله فى وفرة تشرح الصدور . وكانت آمالهم معقودة على هذا أكثر مما انعقدت على رواتبهم التى أزمّن تأخر صرفها منذ غادر بونايرت ايطاليا . لا ريب اذن فى أن وعد بونايرت لرجاله بالغنيمة والمكافآت المادية أثار حماسهم أكثر من أى شىء آخر فى خطابه . ولكن أنى تكون الغنيمة ؟ علم ذلك عند نفر قليل ، وهم صامتون . وقد أدى الجهل المتفشى بالجغرافيا وبالسياسة فى ذلك العهد الى تكهنات عجيبة ؛ على أن الكثرة توقعت أن ترسو الحملة فى نابلى أو صقلية ؛ أما الذين استطاعوا ، بالحكم من الشواهد ، الحدس بأن شرق البحر المتوسط هو مقصد الحملة فكانوا قلة . على أن أهم ما شغلهم الآن وخلال معظم الرحلة الى مالطة ومنها الى الاسكندرية ، هو دوار البحر وسرعان ما ندموا على تركهم البر وركوبهم حين ألفوا أنفسهم محشورين فى السفن حشرا بغير مئونة كافية ، يقيثون و لا يستطيعون تغيير ثيابهم ، وما كان لحلم من الأحلام التى عللوا بها نفوسهم ليكفهم عن هذا الندم . قد تكون الحملة الفرنسية على مصر أزهى الفترات فى حياة نابليون وأحفلها بالأحلام ، ولكنها ولا ريب لم تكن أزهى فترات حياتهم . وبدأ التذمر يسرى فى صفوفهم بمجرد ابحار الأسطول من طولون .

ومع ذلك فالذين ظلوا منهم على قيد الحياة بعد الحملة وعادوا الى أرض الوطن - وهؤلاء لم يبلغوا نصف عددهم إاصلى بعد سنوات ثلاث - كانت لهم ذكريات رافقتهم مدى الحياة . كان فى وسعهم أن يرووا للناس قصصا عن ألوان من الحرمان لا تخطر بالبال ، وعن الرجال يدوس بعضهم بعضا فى وحشية قاتلة ليظفروا بقطرات قليلة من الماء ، وعن المعارك التى خاضوها فى بقاع نائية ضد المماليك والبدو والترك والانجليز والفلاحين المسلحين ، وعن الغنائم والأسلاب الخيالية ، وعن المذابح وهتك الأعراض ، وعن البلاد العجيبة والمناظر الغريبة التى شهدوها - كالأهرام ، وطيبة وجنادل النيل والأماكن المقدسة فى فلسطين - وعن بهاء الشرق وشنقائه ، وعن عواطف الصحراء وسرابها ، وعن الطاعون الذى فتك بأكثر من ألف منهم ، وعن الرمد الذى ذهب ببصر ألف آخر ، وعن البسالة والجلد ، والجشع والأنانية ، والوهن واليأس . وقليل منهم من عادوا بما يكفيهم لشراء ستة أفدنة من الأرض . حقا انه ليندر أن يؤدى قوم أعمالا بطولية كهذه لمثل هذه الدوافع التافهة ، أو لمثل هذه النتائج العقيمة .

٢

من الكتب التى اشتد اقبال أعضاء « مكتبة جمعية نيويورك » على استعارتها عام ١٧٨٩ كتاب البارون « دتوت » المسمى « مذكرات عن الترك والتتار » والمترجم عن الفرنسية ، وهذا دليل على أن الاهتمام بأحوال الدولة العثمانية

المفككة الأصول قد انتشر واستقر في جميع أرجاء العالم أواخر القرن الثامن عشر . أما هذا البارون - وهو ضابط فرنسي من أصل مجري - فكان قبله عمل فترة طويلة مستشارا عسكريا للجيش التركي . واما يتعد أحد صدق أقواله بوصفه مرجعا في شئون الشرق تحديدا جديا غير البارون « مونكلارزن » الذي انتهز فرصة سرد مغامراته لتشكيك في أقوال دتوت ، وكذا ان أهم عاهرة سنكية من سناغوا ، أما أبوه فهو الشيطان نفسه . وأيضا كان الأدر ، فان وزارة الخارجية الفرنسية أوفدت دتوت عام ١٧٧٧ في مهمة سرية لشرقي البحر المتوسط يتحدث عنها في كتابه المذكور حديثا غير صريح .

أما من الناحية الرسمية فقد كلف أن يفحص على المؤسسات التنظيمية والتجارية الفرنسية في شرقي البحر المتوسط . وأما مهمته غير الرسمية فأخطر من هذا ، وهي أن يستطلع امكان الاستيلاء على مصر وإحداثيا مستعمرة فرنسية . لذلك أبحر الى الاسكندرية في صحبة العالم الطبيعي « سويني » على ظهر الفرقاطة « أطلانت » وواصل رحلته الى رشيد في مذوكة دعت بها اليه شيخ البلد ابراهيم بك ، وانطلقت به صعدا في النيل الى القاهرة بكل مظاهر الأبهة الشرقية ، وهناك كانت الفوضى المضاربة أطا بها تظه - وهي تجربة مألوفة لكل انسان تقريبا يصل الى القاهرة في تلك الفترة - وهذا يقضي المقام قليلا من الايضاح .

ذلك أن التحالف التقليدي بين فرنسا والباب العالي يرجع الى عام ١٥٢٦ . حين اتحد فرنسوا الأول وسليمان القانوني ضد بيت هابسبورج - وهي فترة وصلت فيها تركيا ، وأوشكت فرنسا أن تصل فيها ، الى ذروة القوة . وسليم الأول ، أبو سليمان ، هو الذي انتزع مصر وسوريا من سلطان المماليك في عام ١٥١٧ واتخذ لنفسه ولذريته من بعده لقب خليفة المسلمين مستندا الى حجج ومبررات واهية . أما الشروط التي استولى بها سليم على مصر من المماليك فهي - كما قال البارون دتوت في كتابه - في صياحهم أكثر مما هي في صالحه . فقد قرر أن يحكم كل اقليم من أقاليم مصر الأربعة والعشرين من أحد بكوات المماليك أو أمرائهم ، ويشكل هؤلاء البكوات الأربعة والعشرين ديوانا يرأسه الوالي التركي أو الباشا (الملقب بصاحب الخيول الثلاثة) . وكان هدف الحكومة التركية من وراء هذا التنظيم مقتصرا بالجمع على جميع الجزية ، وكان الملاك يجمعونها من الفلاحين ، ثم يسلمون جزءا منها لأقباط ، الذين يسلمون جزءا منها للكشاف ، الذين يسلمون جزءا منها للبكرات ، الذين يسلمون قليلا منها للباشا ، الذي يرسل بالبحر ما بقي منها الباب العالي .

فلما انقضى القرن الثامن عشر كانت السلطة المركزية في الدولة العثمانية قد بلغت من الضعف والوهن مبلغا أصبحت منه حكمة مصر - اذا استثنينا

جمعها للميرى - أضحوكة كبرى ، ومهزلة - دامية في بعض الأحيان - يقوم بأدوارها بكوات الممالك والولاة الترك في احتفالات بهية تتخللها عقوبات تبتز فيها الأعضاء وتشوه الأجساد علانية ، بينما يقف بقية الشعب يرقبون في سخرية يشوبها عدم المبالاة .

وكلمة « مملوك » بالعربية معناها رجل مشترى ، ولم يكن الممالك عبيدا بالمعنى المألوف للكلمة ، (بعكس ما أكده بعضهم غير مرة) وقد وفدوا على مصر أول مرة حوالى عام ١٢٣٠ ، حين اشترى السلطان الأيوبي الحاكم يومئذ نحو ١٢٠٠٠ شاب من جبال القوقاز - أكثرهم من أصل جورجى أو جركسى - ليؤلف منهم صفوة الفرق فى جيشه . وما مضت عشرون سنة حتى استولى الممالك على البلاد ، فقتلوا السلطان أشرف موسى فى عام ١٢٥٢ ، وأقاموا دولتهم التى ظلت تحكم البلاد حتى فتحها العثمانيون فى عام ١٥١٧ ، على أن الفتح العثمانى لم يكسر شوكتهم قط . فبينما كانت سلطة الولاة تتضاءل شيئا فشيئا حتى لتندم أحيانا ، أصبح البكوات ، كل بما اقتنى من ممالك ، سادة البلاد الفعلين وملاك أراضى مصر المأهولة . (أما الصحراء فسادتها غير منازعين هم شيوخ البدو) .

ويمكن أن نعلل نجاح الممالك فى التسلط على مصر مدى خمسة قرون ونصف بخضوع . السكان الوطنيين واستسلامهم من جهة (*) ، وببعد الشقة بين مصر والآستانة ، ولكن كان فى عادات الممالك أنفسهم وتقاليدهم خصائص أعانتهم على الاحتفاظ بقوتهم طويلا على هذا النحو العجيب . كانوا لا يتزوجون إلا نساء من جنسهم - جورجيات أو أرمنيات أو جركسيات - مع أن حريمهم حفل بالسرارى المصريات والنوبيات والحبشييات ، وكانوا لا يعقبون من زوجاتهم إلا نادرا . وعلة هذه الظاهرة من جهة ارتفاع نسبة الوفيات من الأطفال فى مصر ، ولكن أهم من ذلك - من جهة أخرى - ما جرت عليه نساء الممالك من اجهاض أنفسهن للاحتفاظ ما استطعن بحسنهن وسلطانهن على أزواجهن . لذلك كان الممالك يعوضون النقص فى صفوفهم - التى تفاوت عددها بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفا - بشراء غلمان تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ، لا سيما من القوقاز ، يدرّبونهم على فنون القتال . وكان المملوك الشاب يتحرر تلقائيا بمجرد تسلمه قيادة الجند ويصبح من حقه أن يرسل لحيته ، وأن يكون له على الأقل تابعان مسلحان يسمى الواحد منهم « سراجا » ،

(*) من الواضح أن المؤلف لم يدرس تاريخ ثورات المصريين فى العصر المملوكى والعصر العثمانى . وقد أرخ لهذه الثورات بولياك .

Poliak, A. N. «Les Révolutes populaires en Egypte à l'époque des Mameloukes». Revues des Etudes Islamiques, 1934, p. 3.

هؤلاء المماليك المشترون هم الذين كانوا يؤلفون الطبقة الأرستقراطية الحقة ، ويحتقرون النفر القليل من أبناء المماليك الذين وصلوا الى مراكزهم بحكم مولدهم . وهكذا ظل هؤلاء المقاتلون الجراكسة المتعجرفون طبقة منعزلة عن السكان الغافلين يحكمونهم حكما مطلقا ، ويجددون صفوفهم في الوقت نفسه بدم جديد على الدوام . وقد احتفظوا - الى حد كبير - بطابع القوقازيين الجبليين منذ وفدوا على مصر الى أن قضى عليهم في ١٨١١ ، برغم النفر القليل من الروس واليونان والألمان والزنج الذي احتوته صفوفهم .

وعاش البكوات وجنودهم (وكلهم نحو ١٠٠٠٠ رجل) ، الجاهلون بكل شيء الا الفروسية والتقتيل وابتزاز المال ، عيشة الترف والفخفة على حساب باقي السكان ، وهياؤوا لأنفسهم فرصة المران على القتال بما مارسوه في أوقات متفرقة من فن الحرب الرفيع - الحرب مع بعضهم البعض عادة ، ومع الترك أحيانا . ولم يبد أنهم أفادوا بهذه الحياة التي يحيونها انسانا الا أنفسهم . فقد كان البكوات في صراعهم المزمع على السيادة لا يفتأون يؤلفون الأحزاب المتخاصمة ، ويطيحون بعضهم ببعض في تتابع رتيب من الفتن . فاذا تهيأ الجو لانقلاب جديد عقب سلسلة من الدسائس والمؤامرات والخيانات الخفية ، تقاطر البكوات بكشافهم وأتباعهم من الأقاليم على القاهرة وانتزعوها بالبنادق والطبنجات والسيوف والرماح والبلط . ويشهد الفلاحون - وهم يتطلعون من حقولهم حيث يكدون ويكدحون - مواكب الفرسان يخطف بريقها الأبصار ويتلأأ فيها السلاح وتتألق العمائم المزركشة والعباءات الحريرية الفضفاضة . ويعمل هؤلاء على أعداء لا يقلون عنهم في مظهرهم بهاء وتألقا ، فيناوشونهم حيناً ، ثم يدخلون العاصمة دخول الظافرين ، والا مرقوا كالسهام صوب الصعيد حيث يلزمون الهدوء ، حتى تواتيهم الفرصة لاستئناف القتال مرة أخرى . وما من شك في أن بسالة المماليك كانت مذهشة يضرب بها المثل ، ولكن يعدل هذه البسالة براعتهم في التقهقر بسرعة مذهلة اذا رأوا ضرورة لاستخدام هذه البراعة .

ورغبة في تشريف هذه الفوضى المنظمة وتكريمها بخلق اسم الحكومة عليها ، رتب للباشوات الأتراك دور تقليدي فيها . فاذا ولي الباب العالي والياً جديداً على مصر ودخل القاهرة ، ذهب البكوات المماليك للقاءه على الميناء النهري وحيوه باحتفال مهيب ، ثم قادوه من فوره للقلعة حيث يظل سجيناً سجيناً كريماً الى نهاية ولايته . فاذا اندلعت نار الحرب الأهلية بين المماليك احتل الحزب المستولى على القاهرة القلعة وأكره الباشا على اصدار فرمانات لصالح الحزب ، وهو اجراء ثبت غير مرة أنه شكلي لا قيمة له ، كسلطة الباشا سواء بسواء . وقد وصل البارون دتوت الى القاهرة في لحظة نشبت فيها ثورة من هذه الثورات . وكان اثنان من البكوات يتقاسمان السلطة في تلك الفترة .

ابراهيم الذي كان يحمل لقب شيخ البلد ، ومراد أمير الحج (*) - وعاد هذان الرجلان الشهيران مرة أخرى الى تقلد السلطة حين غزا الفرنسيون مصر بعد ذلك بعشرين سنة . وبدأ عقب وصول دتوت أن دولتهما قد دالت ، ذلك أن ابراهيم بك - جريا على العادة - انطلق الى القلعة حالما دنا الثوار ، وأكرم الباشا - وكان صديقا قديما لدتوت - على اصدار فرمان « حكم فيه على العصاة بالنفى » ، ولكنهم لم يبالوا بهذه الشكليات الفارغة ، وأطلقوا النار على أعدائهم ، وبعد أن اشتبكوا معهم أياما في مناوشات كان فيها من الضجيج أكثر مما فيها من سفك الدماء ، أجبروهم على الهروب الى الصعيد (٩) .

فلما هدأت الضجة ، بدأ دتوت تفتيشه على المؤسسات الفرنسية . ثم عهد الى فرنسي يدعى « لالون » بمهمة التجسس على السويس وساحل الدلتا . وقام لالون بمهمته خير قيام ، وعلى أساس مشروعه كتب دتوت تقريره لوزير البحرية الفرنسية . فأبلغ الوزير أن حصون مصر الحربية ضعيفة لا يحسب لها حساب ، وأن في الاستطاعة اتخاذ كريت قاعدة للعمليات الحربية والاستيلاء منها بسهولة على ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وانزال الحملة في خليج أبي قير . وأكد دتوت أن الاستيلاء على مصر لن يكون الا « احتلالا سلميا لبلد أعزل » (١٠) وأنه يرى اذاعة منشور يطمئن الأهالي الى أن الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء ، وحلفاء للسلطان ، ومحررين لهم من ربقة المالك . وحسب التقرير حسابا لكل التفاصيل ، وأشار الى جميع المزايا الاقتصادية والسياسية المترتبة على هذه العملية ، وهون من جميع العقبات التي تعترضها .

وظلت مذكرة دتوت عشرين عاما يتراكم عليها الغبار في وزارة الخارجية الفرنسية ، هي وعدد متزايد من الاقتراحات المماثلة لها . أما الأسباب التي دعت الحكومة الفرنسية الى التردد طوال هذه الأعوام العشرين في تنفيذها برغم هذا الاهتمام المفاجيء بمصر ، والظروف التي انتهت بهذا التنفيذ ، فأسباب معقدة ومنيرة في نفس الوقت .

كان للاستيلاء على مصر مزايا واضحة . فمصر تهيمن على الطرق البرية الى بلاد العرب والهند ، وقد لقي مشروع شق قناة من السويس الى البحر المتوسط ، الذي أوصى به من قبل مهندس تركي في عام ١٥٨٦ ، من اهتمام لويس الرابع عشر ما حمله على أن يقترحه على الباب العالي في ثلاث مناسبات - دون الوصول الى نتيجة في واحدة منها . وكان أمر الثروة الكامنة في مصر ، لا سيما في الدلتا ، معروفا للجميع ، سواء من الروايات اليونانية والرومانية .

(*) كانت تقوم قافلتان كبيرتان للحجاج كل سنة ، احدهما من دمشق والأخرى من القاهرة ، وتنضمآن قبل بلوغهما مكة تحت امرة والى دمشق . (غفل المؤلف عن قافلة الحج اليمنية وقافلة الحج العراقية - المترجم) .

القديمة ، أو من روايات الرحالة المحدثين . كذلك كان من الأمور المعروفة ذلك الإهمال الصارخ الذى انحدر اليه اقتصاد مصر فى عهد المماليك . فلما أتى القرن الثامن عشر كانت التجارة الفرنسية مع مصر تبلغ $\frac{5}{4}$ مليون من الجنيهات فى السنة من الواردات والصادرات ، وهو رقم لا أهمية له ، ومع ذلك فقد كان لفرنسا فى مصر مصلحة أعظم مما كان لأية دولة أوروبية أخرى . كذلك كانت فرنسا أفضل تمثيلا فى مصر من غيرها . فلها قنصل عام يسكن القاهرة ، وقنصليتان فى ثغرى الاسكندرية ورشيد . وقد أنشئت بالقاهرة سنة ١٦٩٨ قنصلية انجليزية ، ولكن التجار الانجليز كانوا أقل عددا من الفرنسيين ، ولم يكن فى منافستهم خطر يذكر حتى آخر القرن الثامن عشر .

لاغربة اذن أن يرحب التجار الفرنسيون الخمسون أو الستون القاطنون مصر ، والمتحدثون بلسان قناصلهم ، بتأييد فرنسى مسلح لهم ، بل باستيلاء فرنسا على مصر دون تردد ، تأميننا لحياتهم ومكاسبهم . فلقد كانوا أكثر تعرضا للأخطار والمضايقات من اخوانهم فى غير مصر من بلاد شرقى البحر المتوسط . كان من الحماقة أن يجازف أحدهم بالخروج دون حراسة مسلحة فى أى مكان خارج القاهرة أو الاسكندرية أو رشيد أو دمياط . والواقع أن علمهم بمصر لم يكدهم يجاوز هذه المدن الأربع ونهر النيل كما تبينت فيما بعد قوات بوناپرت - لشدة أسفها وخيبة أملها - بعد أن اعتمدت الى حد كبير على المعلومات المستقاة من التجار . وكانوا - حتى فى هذه المدن - يلزمون « فنادقهم » ، وهى أبنية مسورة تضم داخلها المخازن والمساكن والحصن . وكان لهم فى القاهرة حتى مسور خاص بهم يقوم على حراسة بواباته جنود من الانكشارية . ولم يكن لمصر آنئذ ذلك الطابع الدولى الذى ساد غيرها من بلاد شرقى البحر المتوسط . واجتمع التعصب الدينى ، والفوضى السياسية ، وغربة بلد هو شريط من الأرض الخضراء يمتد وسط الصحراء الافريقية من البحر المتوسط القديم الى السودان الغامض ، وآثار حضارة قديمة خلع عليها الناس ، حتى الأوروبيون ، جوا من الخرافة - نقول ان هذا كله اجتمع ليلقى فى قلب الأجنبى الغريب شعور الخطر والعزلة الدائمين .

وكثيرا ما كان البكوات المماليك ، الذين لم يعبأوا بما بين فرنسا والسلطان مولاهم الرسمى من تحالف ، يضايقون التجار الفرنسيين ، فكان هؤلاء يستغيثون مرارا وتكرارا بحكومتهم . ولم يكن فى استطاعة الحكومة الفرنسية أن تقدم لهم معونة تذكر . فهى اذا حاولت الاتفاق مع البكوات احتج الباب العالى بأنها تجاهلت سيادته ، واذا عرضت شكواها على الباب العالى أغفل البكوات أى تدابير يتخذها الباب العالى لاسترضاء فرنسا .

ولم يقتصر الأمر على الخطر الذى يهدد حياة الفرنسيين فى مصر ، بل

أن علة وجودهم فيها كان يهددها بشكل متزايد ذلك العدوان المستتر الخبيث من جانب البريطانيين ، الذين لم يتورعوا عن تخطي الباب العالي والاتصال رأسا بالبكوات . وقد روعت باريس وآستانة ، والجالية الفرنسية في القاهرة ، حين علموا بعقد معاهدة تجارية بين البكوات و « وارن هيستنجز » حاكم الهند البريطانية ، وحين ظهر في مصر عدد من العملاء ورسامي الخرائط البريطانيين . صحيح أن البكوات حاولوا التقرب من فرنسا وعرضوا عليها امتيازات مماثلة ، ولكن الحكومة الفرنسية كانت مغلولة اليد بسبب الحلف التركي . وكان « فرجين » وزير الخارجية الفرنسية ، وصديق تركيا ، منذ عهد سفارته بالآستانة ، يقاوم بصفة خاصة جميع المشروعات التي قد تزيد الباب العالي ضعفا على ضعف .

وإذا كانت شكاوى التجار الفرنسيين من البكوات والمماليك والبريطانيين مبررا كافيا في نظرهم لتجريد حملة عسكرية على مصر ، فإن مجرد رعاية مصالح هؤلاء التجار لم يكن كافيا في نظر الحكومة الفرنسية لاعتبار هذا المشروع جديا وممكنا من الناحية العملية . ومع ذلك فإن الدوق « شوازيل » - الوزير السابق لفرجين - جعل من الاستيلاء على مصر أحد المشروعات المحببة الى نفسه في فترة ترجع الى عام ١٧٦٩ . وهدف شوازيل كما شرحه بعد ذلك « تاليران » للمجمع العلمي القومي في يوليو ١٧٩٧ « أن يستعيز عن المستعمرات (الفرنسية) في أمريكا - اذا فقدتها فرنسا - بمستعمرات تغل نفس المحاصيل وتتيح تجارة أوسع » (١١) . وإذا كان فرجين قد رفض مشروع شوازيل وأهمل مذكرة دتوت ، فإنه لم يفعل هذا بدافع الوفاء للباب العالي فحسب ، بل لأن الثورة الأمريكية جعلت ضياع جزر الهند الغربية الفرنسية أقل احتمالا مما كان في أثناء وزارة شوازيل . ولكن هذا الاحتمال أصبح حقيقة مؤكدة تقريبا حين احتلت بريطانيا جزر المارتنيك في أثناء حروب الثورة الفرنسية

وأهم من ذلك في تخفيف المعارضة للمشروع الرأي القائل بأنه اذا لم تستول فرنسا على مصر فسيفعل غيرها ان عاجلا أو آجلا . ومن البديهيات في دنيا الأخلاق والسياسة أن أى عمل خسيس ، اذا أتاه انسان ما ، يكون في نظره أقل خسة مما لو أتاه انسان غيره أقل اخلاصا في نياته الدافعة له الى هذا العمل الخسيس . مثال ذلك أن كاترين الثانية قيصرة روسيا ، وفرديريك الثاني ملك بروسيا - وكلاهما شخصية تستحق اللوم والتقريع على خستها - كانا يقطعان أوصال بولنده ، فبادرت ماريا تريزا امبراطورة النمسا - وهي تبكى سخطا عليهما وحسرة على الفضيلة - وحصلت على شريحة كبيرة لنفسها في هذا التقسيم ، مخافة أن يأخذ الأشرار كل الغنيمة ، ولا ينال الأخيار منها شيئا . وكان يبدو أن الدولة العثمانية ، أو « رجل أوروبا المريض » ، ينتظرها مصير كهذا . فمعقول أنه كلما كبرت الشريحة التي تستطيع فرنسا

اقتطاعها لنفسها من أملاك الدولة قل نصيب أعداء تركيا ، وزاد نصيب أفضل صديقة لها . فاستيلاء فرنسا على أملاك السلطان يكاد في نظرها أن يكون عملا من أعمال الوفاء لأن هذه الأملاك قد تقع في أيدي الروس الهمج ، أو النمساويين المتوحشين ، أو البريطانيين الخونة الغادرين . أما ما حدث فعلا فهو أن الرجل المريض قاوم الموت بعناد شديد ، وظل على قيد الحياة قرنا ونصفا آخر دون أن تقتله عمليات البتر الكثيرة . وكان تنبؤ فرجين بسير المرض من هذه الناحية أدق من تنبؤ شوازيل . ومع ذلك لم يكن ريب في أن الدولة العثمانية تتصدع نتيجة لضغط روسيا والنمسا على شمالها من جهة ، واستقلال ولاياتها البعيدة عنها - وهي الجزائر وتونس وطرابلس ومصر - استقلالاً فعلياً من جهة أخرى . وأعرب الباب العالي نفسه غير مرة عن مخاوفه من نوايا البريطانيين نحو مصر ، وأسف لعجزه أمام البكوات الماليك ، فأوحى هذا لكثير من الفرنسيين بإمكان الظفر بمصر بحجة اسداء يد للباب العالي في الظاهر .

وظل سيل من المذكرات عن المسألة الشرقية يغمر وزارة الخارجية الفرنسية طوال عشرين عاما (١٧٧٠ - ١٧٩٠) . وبعض هذه المذكرات طلبته الحكومة ، ولكن أكثرها أقحم عليها ، وعدد غير قليل منها كتبه أفراد متهوسون ، أما عن مصر فإن جميع المذكرات تقريبا أيدت الاستيلاء عليها وخلعت عليها صورة براقية . فمناخها صحي ، وقدرتها الانتاجية الكامنة لا حد لها ، وأهلها طيعون ، وفي الامكان زراعة محاصيل جديدة فيها كالنيلة وقصب السكر ، ويمكن شق قناة من السويس الى البحر المتوسط ، ويستطيع آلاف الفرنسيين ذوى الجرأة والاقدام أن يستوطنوها ليزرعوا الأرض ويتجروا في بضائعها . أما من الناحية العسكرية فليس في العملية أى مشقة ، وأما الشائعات عن الطاعون والرمد المتوطنين في البلاد فمبالغ فيها ان لم تكن كاذبة ، وهكذا .

وبعض هذه المذكرات كتبها رجال خبروا أحوال مصر خبرة لا بأس بها . وان قل منهم من توخى غاية الصراحة والاخلاص ، ولكن أكثرها كتبه موظفون متحمسون لم يروا مصر اطلاقا ، وانما اعتمدوا على روايات غيرهم ، وكانوا يؤملون كسب رضا رؤسائهم باقتراح سياسات جريئة جديدة .

كان شبح النمسا وقد تسلطت على جميع البلاد من نهر الألب الى النيل يقض مضاجع السياسة حوالى ١٧٨٣ ، تماما كما كان الخوف من ألمانيا وقد بسطت سلطانها حتى بغداد يروع حكومات الدول الغربية قبيل ١٩١٤ . وتضافرت قوى هواة السياسة ومحترفيها في البحث عن وسائل تجنب الانسان هذه الكارثة . ومن الهواة ذوى الخيال الخصب رجل يدعى البارون «دفالدر» اقترح حملة تشترك فيها جيوش فرنسا وهولنده والبندقية لفتح مصر واليمن ومسقط وباقي جزيرة العرب ، ولشق قناة السويس ، ولتقسيم الدولة

العثمانية • أما الكونت دشوازيل - جوفيه ، ولم يكن هاويا ، فكان أقل أصالة ، ولكن يجب أن نقر له بموهبته في الصياغة • فقد كتب يقول : « ان مصر تقع على عتبة دارنا ، ولم تعد ملكا للأتراك ، فالباشا صفر ، ومصر ليست ملكا لأحد » (١٢) • وسنرى أن هذه التأكيدات وردت مرارا وتكرارا ، وبنصها تقريبا ، في الرسائل المتبادلة بين بونايرت وتاليران ، وبينهما وبين حكومة الادارة •

على أن فرجين ثبت على سياسة الوفاء للسلطان برغم ضغوط الحزب المتشيع لفتح مصر • بل انه دعا الدول الأوروبية أن تنضم الى فرنسا في ضمان سلامة الدولة العثمانية • ولكن الامبراطور جوزيف الثاني نفسه عرض مصر على فرنسا ثمنا لاشتراكها في الجريمة ان وافقت على تقسيم تركيا • فاذا كان الرجل الذي أريد حماية مصر من قبضته قد عرضها على حمايتها العتيدين ، فكيف يستطيع هؤلاء الحماة مقاومة الاغراء طويلا ؟

وكانت فرنسا في سنوات الثورة الأولى مشغولة بأمور خطيرة تتصل بحياتها وموتها شغلا منعها من أن تهتم بالمسألة الشرقية ، أو بمصالح التجارة الفرنسية في شرقى البحر المتوسط ، الا اهتماما عارضا • على أنه ما وافى عام ١٧٩٥ حتى كانت الجمهورية قد عقدت الصلح مع أسبانيا وهولنده وبروسيا • وفى عام ١٧٩٦ سحبت بريطانيا أسطولها من البحر المتوسط ، وفى عام ١٧٩٧ كان بونايرت يفاوض النمسا فى عقد الصلح • ولم يبق من أعداء فرنسا فى الميدان سوى انجلترا والبرتغال • وتشاء الظروف أن يتجه الصراع المتصل مع انجلترا ، والمبررات الكثيرة التى قدمها المؤيدون لفكرة الحملة على مصر طوال السنوات العشرين الماضية ، وجهة واحدة • واندمجت النزعتان الوطنية و « التجارية » فأسفر اندماجهما عن وليد هو الامبريالية •

وفى المرحلة الأخيرة من الحملة الإيطالية ، بدأ الجنرال بونايرت - الذى خول سلطة لا حد لها تقريبا فى المفاوضات لعقد الصلح - يحتضن مشروعات تخرج كثيرا عن نطاق مهمته • واتسع أفقه حين قارب الحدود النمساوية • فرأى إيطاليا - التى فرغ لتوه من فتحها ، والتى كان يحتقر شعبها - قليلة القيمة لفرنسا ، وبدأت تتسلط على عقله تلك الحماسة الفكتورية العظمى ، ونعنى بها سحر الشرق الذى أصبح فيما بعد هاجسا للذرايل ونابليون الثالث ووليم الثانى • فكتب لحكومة الادارة فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧ يقول : « ان جزائر كورفو وزنطة وكفالونيا أكثر قيمة لنا من إيطاليا كلها • وأعتقد أننا لو خیرنا لكان خيرا لنا أن نملك هذه الجزائر التى هى مصدر ثروة ورواج لتجارتنا • ان الدولة العثمانية تتصدع ، وامتلاك هذه الجزائر سيمكننا من مساندة الدولة العثمانية الى الحد الممكن ، والا ظفرنا بنصيبنا منها » (١٣) •

والسخرية المستترة وراء هذه السطور جديرة بالاعجاب فى تكاملها .
لقد فرغ الجيش الفرنسى لتوه ، بتضحيات من الجهود والدماء لا تكاد تصدق ،
وباسم الحرية والعدالة ، من تحرير شطر كبير من ايطاليا من نير من سماهم
واضعو الشعارات فى باريس بحكامها الطفاة : هذه الاراضى هى التى يريد
محورها المنتصر أن يردّها لحكامها الطفاة السابقين نظير عدد قليل من الجزر
الصغيرة التى ينفع امتلاكها حفنة من التجار . وان المرء ليتساءل ماذا كان جنود
بونابرت ، فضلا عن الايطاليين المحررين ، يرون فى بطلهم لو أتيح لهم العلم
بأفكاره الباطنة . وأضاف بونابرت لرسالته « ليس بعيدا ذلك اليوم الذى
نقدر فيه ضرورة الاستيلاء على مصر للقضاء على انجلترا قضاء مبرما . ان الدولة
العثمانية الشاسعة التى تعالج سكرات الموت تحملنا على أن نفكر ، ما دام فى
الوقت متسع ، فى التدابير الواجب علينا اتخاذها لصيانة تجارتنا مع شرقى
البحر المتوسط » (١٤) .

وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن بونابرت درس الملفات الموجودة فى
وزارة الخارجية الفرنسية . ولكن من المؤكد أن هذه الأفكار لم تتولد فى عقله
تلقائيا . ففى ٩ أبريل ، أى قبل أن يكتب هذا الخطاب بأربعة أشهر ، التقى
لقاء طويلا برجل يدعى « ريمون فرنييناك » ، وهو دبلوماسى عائد الى باريس من
الاستانة حيث مثل الجمهورية الفرنسية بوصفه وزيرا مفوضا . وكان
فرنييناك قد أخفق فى تحسين العلاقات ، التى غلب عليها التوتر ، بين فرنسا
والباب العالى الذى كان بطبيعة الحال ينفر من الثورة ، وخابت جهود فرنييناك
على الأخص فى حمل الأتراك على اتخاذ تدابير نشيطة ضد البكوات المماليك .
ومع ذلك فقد وفق فرنييناك فى إيفاد مبعوث لاستقصاء الأحوال فى مصر .
وأرسل المبعوث - وهو « دابوا - تانفيل » - وكان رجلا خبيرا بشئون شرقى
البحر المتوسط ، تقريراً الى فرنييناك من أزمير فى سبتمبر ١٧٩٦ انتهى فيه
الى نتائج هى فى الواقع نفس النتائج التى أعرب عنها بونابرت بعد ذلك بعام .
فالدولة العثمانية فى حالة انحلال وفوضى (وهى عبارة فيها غلو شديد) ويستطيع
من يكلف نفسه مشقة الاستيلاء على مصر أن يستولى عليها . وكان أحد التجار
الفرنسيين ، واسمه « شارل ماجاللون » ، وهو قنصل عام بمصر ، قد أرسل
مذكرة مماثلة الى فرنييناك قبل ذلك ، فى يونيو ١٧٩٥ . فلا يعقل إذن أن نعزو
ترديد بونابرت لهذه الأفكار عقب لقائه بفرنييناك الى الصدفة . ومع ذلك يصعب
أن نتبين لم اعتنق الجنرال بونابرت آراء حفنة من التجار وموظفى القنصليات
وتحمس لها ، مع أنه كان واضحا أنهم لا يضمرون الا خسة مصالحهم الخاصة .

ونحن لا نستطيع أبدا أن نجزم بدوافع أى انسان ، ولكن لنا أن نحزرها .
أما بونابرت فأوضح دوافعه الدافع العاطفى . فالحملة الايطالية انتهت ،
والصلح يجرى ابرامه ، والسلطة القنصلية التى حولها له أعضاء الادارة ستنتهى

بعد قليل ، قيعود قائدا فردا بين قواد كثيرين بعد أن كرم ورفع الى مرتبة البطل . ونحن نراه - حتى وهو يجرى مفاوضات الصلح ويرسم خريطة شمالى ايطاليا من جديد - يسخط على العقبات التى تضعها فى طريقه « حضارة مزعجة » وهى عقبات لا يحتمل أن يلقاها فى الشرق . وكان قد فرغ لتوه من تمزيق جمهورية البندقية القديمة، وهى دولة محايدة، وراح يعرضها على النمسا مقابل بلجيكا وشاطيء الراين الأيسر . وكان من نتائج تصفية دولة البندقية اتصاله اتصالا مباشرا بالشئون الشرقية . ولو أن رجلا أوتى خيالا أقل خصوبة من خيال بونابرت لتعذر عليه أن يقاوم اغراء الفرص الجديدة الغريبة وهو يقف فى هذه المدينة البرية البحرية ، مدينة البندقية التى « ملكت يوما زمام الشرق البهى » (١٥) ، سيدا على سيده الأديراتيك ، حيث اختلطت بلاد البلقان واليونان وبيزنطة وشرقى البحر المتوسط ودول شمال افريقيا بالعالم الغربى الذى لا فتنة فيه ، تحت ضباب يتألق فى سماء بلاد غريبة . هنا يبدأ الشرق، الجائزة الوحيدة الخليفة بفاتح بعيد الأحلام .

ولكن ما من حالم أكثر واقعية من الجنرال بونابرت ، فهو كما قال مرة « يقيس أحلامه بمقياس العقل » (١٦) . أضف الى ذلك أنه كان سياسيا بقدر ما كان فاتحا . فهو يعلم بالضبط مزاج حكومة الادارة : فهى تريد المال أولا وقبل كل شئ . ولم تكن الملايين التى جمعها تبرعات حرب من الدول الايطالية سوى قطرة تاهت فى بحر الادارة الذى لا قرار له ، فاذا أريد للحرب مع انجلترا أن تنتهى بالنصر ، أو بالتعادل على الأقل ، فانه يبدو أن محاولة شن هجوم مباشر على الجزر البريطانية محاولة غير عملية ، لأنها أشد الوسائل خطرا ونفقة ، وأقلها وعدا بالمال . أما الوسيلة الأخرى - وهى الاستيلاء على مصر وتهديد الهند - فهى وان لم تكره انجلترا على الركوع ذليلة على ركبتها ، الا أنها أرخص كثيرا ، والأخطار الحربية التى تكتنفها قليلة ، وهى على أسوأ تقدير تضع فرنسا فى موقف يتيح لها مساومة أفضل اذا أتت مفاوضات الصلح . وهى على أية حال تتيح فرصة لجمع مزيد من التبرعات .

وقد سمح نابليون لخياله أن يجمع ، وهو يستعيد ذكريات الماضى ويملى قصة الحملة المصرية ازجاء للوقت فى جزيرة سانت هيلانه ، فقال : « ما الذى يمكن عمله فى هذا البلد الجميل (مصر) خلال خمسين عاما من الرخاء والحكم الصالح ؟ ان الخيال ليرتفع فى هذا المنظر الساحر . فان ألف بوابة من بوابات الرى ستضبط فيضان النيل وتوزع مياهه على كل بقعة فى البلاد . وستشق القنوات لتحمل البلايين الثمانية أو العشرة من ياردات الماء المكعبة التى تضيع كل سنة فى البحر الى أوطأ بقاع الصحراء . . على طول الطريق الى الواحات بل وأبعد منها غربا . . وسيتضاعف السكان أربع مرات بفضل المهاجرين الكثيرين من أعماق افريقيا وبلاد العرب وسوريا واليونان وفرنسا وايطالية

وبولنده والمانيا . وتعود التجارة مع الهند الى طريقها القديم . . فتتحقق سيادة فرنسا على الهند بسيادتها على مصر ، (١٧) .

ومن المعقول أن تطالب مستعمرة لها هذه القوة بالاستقلال ان عاجلا أو آجلا . ولكن هذا الاحتمال لم يروع نابليون . فهو حين خلق امبراطوريته الوهمية ، منحها بسخاء استقلالاً وهمياً ، بل وأكثر من استقلال ، وأكد أنه من الطبيعي أن يحكم العالم من الاسكندرية لا من روما أو الآستانة أو باريس أو لندن أو أمستردام . وأما عن إمكان القيام بهذا المشروع عملياً فإن نابليون لم يكن أقل تفاؤلاً في ازاحة جميع الاعتراضات التافهة . فالمساحة بين القاهرة والسند ليست أكبر منها بين بايون وموسكو . وفي استطاعة ٦٠.٠٠٠ رجل يمتطون ٥٠.٠٠٠ جمل و ١٠.٠٠٠ جواد أن يصلوا الى الفرات بعد أربعين يوماً والى السند بعد أربعة أشهر ، وهناك ينضمون الى قوات السيخ والمهراتا وغيرهما من الشعوب الهندية التواقية الى خلع نير الحكم البريطاني . وبعد أن برهن هذا الحالم على سهولة تنفيذ المشروع أرخى العنان لخياله وانطلق الى المجد الموهوم عدوا « بعد خمسين عاماً تكون الحضارة قد وصل نورها الى قلب افريقيا عن طريق سنار والحبشة ودارفور وفزان ، وتكون عدة شعوب عظيمة قد مكنت من المشاركة في بركات الفنون والعلوم (الغربية) وفي دين الاله الحق - لأنه من يد مصر يجب أن تتلقى شعوب أواسط افريقيا النور والسعادة ، (١٨) (*) .

وليس في وسع المرء الا أن يعجب لهذا الخليط من الأحلام الفاوستية العريضة والهراء الخالص . ومع ذلك فهذا هو الطعام الذي كانت تقتات عليه أحلام السياسة وبناء الدول البعيدى النظر خلال القرن التاسع عشر كله ، ونظرة واحدة الى افريقيا اليوم تدلنا على أنه ليس من الأمور العملية ، في الأجل البعيد ، أن يكون المرء محسناً ومستغلاً في الوقت نفسه .

وقد شخص نابليون في سانت هيلانه أيضاً ، وهو في حال أكثر اتزاناً، تلك الدوافع التي حملت حكومته على المغامرة بالحملة المصرية تشخيصاً أكثر

(*) لم تكن هذه مجرد أحلام طافت بخيال رجل منفى نال منه السام . ففي سنة ١٨٠٨ كتب نابليون الى كولانكور سفيره في روسيا يقول : « أبلغ رومانزوف (وزير الخارجية الروسية) والقيصر [اسكندر الأول] أنني أبحث جدياً تجريد حملة على الهند وتقسيم الدولة العثمانية ، وتنفيذاً لهذا المشروع سأسير جيشاً من ٢٥٠.٠٠٠ روسي ، و ٨٠.٠٠٠ الى ١٠٠.٠٠٠ نمساوي ، و ٣٥.٠٠٠ الى ٤٠.٠٠٠ فرنسي الى آسيا ومنها الى الهند . وليس هناك شيء أيسر من هذه العملية » .

(lecestre, ed. Lettres in édites de Napoléon Ied 1, 144).

انظر

وفي السنة نفسها كتب في خطاب الى وزير بحريته ذكره عن حملة على مصر وضع خطتها وقرر أن تبهر من طولون كما أبحرت حملة ١٧٩٨ .

واقعية • يقول : « كان ضعف حكومة الادارة يتحكم فيها ، فهي لكي تعيش تحتاج الى حالة حرب دائمة، تماما كما يحتاج غيرها من الحكومات للسلام » (١٩) وكان في وسعه أن يضيف الى هذا أنه لم يكن بينه وبين سياسات الادارة وسياسته في هذه الناحية خلاف قط مهما كانت نواحي الخلاف الأخرى بينهما •

في ١٦ يوليو ١٧٩٧ ، بينما كان بونايرت لا يزال في ايطاليا يحلم بالشرق، تقلد وزارة الخارجية في باريس وزير جديد يدين بمنصبه الى حد كبير لحليلته السابقة مدام « دستال » والى صديقها « بارا » ، أعظم أعضاء الادارة الخمسة نفوذا • هذا الرجل هو « شارل - موريس دتاليران » ، أسقف أوتن الذي لم ينصب ، والذي كان قد عاد أخيرا من فيلادلفيا حيث ظل ينتظر نهاية « حكم الارهاب » في فرنسا • وقبل تعيينه بأسبوعين فقط قرأ هذا الأسقف السابق، المتعطش للمنصب السياسي ، على المجمع العلمي الفرنسي بحثا في « المزايا التي تتحقق من الحصول على مستعمرات جديدة في الظروف الراهنة » • في هذا البحث ذكر سامعيه بمشروعات شوازيل الخاصة بمصر ، والواقع أنه كان منذ عهد طويل وثيق الصلة بشوازيل واسع الخبرة بشئون الشرق الأوسط • فلما وصل « مجاللون » القنصل العام بالقاهرة الى باريس عقب تعيين تاليران بقليل ، وجد فيه آذانا صاغية تعطف على مقترحاته • وبعد نحو شهر تلقى تاليران من الجنرال بونايرت خطابا يكاد يتفق نصا والخطاب الذي وجهه لحكومة الادارة : فتركيا آخذة في الانحلال ، والتجارة الفرنسية في حاجة لمزيد من المستعمرات ، ويجب أن تخوض فرنسا الحرب مع انجلترا في الشرق ، وأن تستولي على مصر •

وقد اختلف المؤرخون على أيهما البادئ بالتفكير في المغامرة المصرية ، أهو تاليران أم بونايرت ؟ أما وقد انتهت الحملة بكارثة ، فقد نسب تاليران في سنواته الأخيرة كل الفضل فيها لبونايرت • ولكن الواقع أن جهود تاليران أكثر من جهود بونايرت هي المسئولة عن تصديق الادارة على المشروع • على أن أول من فكر حقا في المشروع هو الدوق دشوازيل المتوفى ، والمتحدثون بلسان المصالح التجارية الفرنسية وراء البحار • ولم يغفل بونايرت نفسه عن الأرباح التي تجنى من المستعمرات • فقد كان لزوجته أملاك في المارتنيك ، أو كذلك كانت تزعم •

وأيا كانت مواطن الضعف في تاليران ، فهو لم يكن بالرجل الحالم • زد على ذلك أنه كان من المتمسكين بصداقة انجلترا ، وكان يكره الحرب • والواقع أنه كان يحتقر أي لون من ألوان النشاط العنيف ، فالأذكاء من الناس يستطيعون أن يسوسوا الأحداث على هواهم دون أقل عنف ظاهر ، وكان أذكى من أكثر معاصريه • وإذا كانت مشروعات بونايرت العريضة قد لقيت هوى

صادقا في نفس تاليران فما ذلك لعرضها . لا بل من المشكوك فيه أنه آمن حقيقة بنفع المستعمرات ، ولكنه كان صادق الولع بالدبلوماسية ، وهي فن الصيد الهادئ في المياه العكرة ، والدولة العثمانية مجال مثالي للصيد . أضف الى ذلك أنه لم يثق قط ببونابرت . فاعطاؤه عملا يؤديه على بعد آلاف الأميال يعفى فرنسا من أحد مثيري المتاعب في الوطن ، ليسمح له اذن بأداء هذا العمل الشاق ، فان نجح فيها ونعمت ، وان أخفق فمرحبا بالخلاص منه . أما بونابرت فقد وجد - لأسباب تختلف عن هذه - أن من مصلحته أن يبتعد عن الوطن . فهو يقدر مزايا الغياب النشيط على الوجود العاطل ، تماما كما قدره يوليوس قيصر حين رحل الى غالة . وكان كقيصر يستطيع أن يعود في اللحظة المناسبة - وقد عاد فعلا .

والرسائل التي تبادلها بونابرت وتاليران بعد ذلك تعطينا فكرة التوافق التام بين نظرتيهما . فقد اقترح الجنرال على الوزير في ١٣ سبتمبر أنه يحسن الاستيلاء على مالطة ، ففرسان مالطة مناوئون للجمهورية وان كان أكثرهم فرنسيين ، ورئيس الطريقة الأكبر الألماني ، والاستيلاء على مالطة يمنع الامبراطور فرنسوا الثاني من ارساء قدمه على الجزيرة واستخدامها قاعدة له ، وستكون الجزيرة ذات قيمة عظيمة للعمليات التالية في شرقي البحر المتوسط . ويمكن فتح مصر بقوة قوامها ٢٥٠٠٠ جندي وعدد من السفن الحربية يتفاوت بين ثمان وعشر ، ولكن ما الأثر الذي ستحدثه الحملة في الباب العالي ؟ وجاء رد تاليران بعد أسبوعين يقول : ان الادارة توافق بونابرت تماما على آرائه عن مالطة . وأما مصر فأفكار الجنرال عنها طريفة مفيدة ، وسيكتب له تاليران مفصلا في موضوعها . على أية حال يجب أن يكون مفهوما أن فرنسا لن تستطيع الاضطلاع بفتح مصر الا لمصلحة السلطان العثماني حماية له من نوايا الروس والانجليز . (ولا حاجة بنا للقول بأن السلطان سليم الثالث لم يحط علما بهذه النوايا الطيبة نحوه) .

كان بونابرت في ذلك الحين مقيما في باسريانو يفاوض النمسا في شروط الصلح الذي عرف فيما بعد بمعاهدة كامبو فورميو ، ويكثر من الحديث في موضوع مصر . وقد احتفظ الجنرال ديزيه ، فاتح الصعيد العتيق ، بذاكرة قيد فيها أحاديثه مع بونابرت . وجاء في المذكرة : « أفكار عن مصر ، مواردها ، مشروع خاص بها ، تقدم الصلح مع النمسا وانجلترا . الابحار من البندقية بقوة من ١٠٠٠٠ جندي (فرنسي) و ٨٠٠٠ بولندي الى مصر . الاستيلاء عليها . فوائده . التفاصيل . بخمس فرق وألفى جواد ، (٢٠) ولكن الذي

حدث أن المشروع قدر له أن يعطل طويلا ، ولم تكن البندقية الميناء الذي شهد
ابحار الحملة (*) .

ولا ريب في أن الحملة الفرنسية - برغم فشل جميع أهدافها - كان لها
نتائج بعيدة شديدة التباين . أما كون حصيلة الموازنة بين هذه النتائج ايجابية
أو سلبية فمسألة يختلف فيها الرأي ، ولكن هذه النتائج على أية حال بعدت
كل البعد عن النتائج التي توقعها الدوق دشوازيل ، كما بعدت نتائج جميع
التجارب الاستعمارية عما توقعه مخطوطها . وأما الحقائق الانسانية التي انطوت
عليها الحملة - وهي المبحث الاساسى لهذا الكتاب - فهي حقائق ، وليس هناك
تناقض أغرب من تناقضها مع أحلام من كانوا العلة فيها من السياسة الخلائق .

٣

إذا كان تاليران قد أحاط الادارة علما بأفكاره عن مصر في خريف ١٧٩٧ ،
فليس هناك شاهد على أنه تلقى منها جوابا مرضيا . . ذلك أن انتصارات
الاسلحة الفرنسية في ايطاليا وألمانيا ، وحالة التمرد في الأسطول الانجليزى ،
ونذر السخط العام في بريطانيا ، فضلا عن ايرلندة ، كل هذا شجع حكومة
الادارة على أن تغلو في الأمل بأن ترى مقاومة انجلترا تنهار بعد قليل . وكان
الفرنسيون قد قطعوا فجأة مفاوضات الصلح التمهيدية مع انجلترا ، وهي التي
جرت في « ليل » في الصيف ، لأن بريطانيا رفضت أن ترد مستعمرة رأس
الرجاء الصالح لحلفائهم الهولنديين . اذن لابد من تسديد ضربة مباشرة الى
الجزيرة البريطانية تؤيدها ثورة في ايرلندة . ونظم جيش لغزو انجلترا ،
وعين الجنرال بونابرت قائدا له ، اذ بدا أنه نسي مصر . وكان كبار الموظفين
في باريس يجتمعون في الوقت نفسه مع قوة مختلطة من المحرضين ومثري
الفتن السويسريين والايطاليين والاييرلنديين . فليس أنسب من اثاره الفتن في
سويسرة والولايات البابوية ، والتدخل بالقوة باسم الحرية ، ومصادرة خزائن
برن وروما المشهورة بكنوزها الخيالية ، والواقع أنه برغم الجهد الكبير الذى
اقتضاه اصطناع الحجج اللازمة ، فان هذا بالضبط ما حدث في الشهور الأولى
من عام ١٧٩٨ . أما الثورة الايرلندية فكانت أقل نجاحا كما سنرى ، ولكن
تكاليفها تحملها الايرلنديون وحدهم تقريبا .

وعاد بونابرت الى باريس في ديسمبر ١٧٩٧ ، وبدا عليه أنه يتحرق.

(*) على أن بونابرت انتفع فعلا بعدد من بوارج البندقية التي استولى عليها .
أما البولنديون الذين أشار اليهم فمحاربون قدامى في قوات كوشيووسكو الذى نفي من
بلاده . وكان في الجيش الفرنسى في مصر نفر غير قليل من المتطوعين البولنديين ، ومنهم الجنرال
زاينشك ضابط الفرسان ، وسولكوفسكى ياور بونابرت .

حماسة لتنفيذ مشروع الغزو ، ولكنه اتخذ في الوقت نفسه مظهر رجل السلام الذي لا يطمع في شيء أكثر من اعتزال الحياة العامة والتفرغ للدرس . وكان قد انتخب قبيل ذلك عضوا في الشعبة الرياضية من المجمع العلمي القومي ، وأعلن أنه ليس هناك انتصارات حقة غير انتصارات العلم على الجهل . ومع ذلك فإن الانتصار الذي كان واضحا أنه يتخذ له العدة هو الانتصار على إنجلترا . وقد وصفه « ولف تون » الذي لقيه في هذه الفترة بأنه رجل مجامل ، بارد ، غامض .

وقبل أن ينتهي فبراير ١٧٩٨ كان مشروع الغزو قد تخلى عنه فجأة ، أو قل عدل وأجل . ذلك أن الأسطول الفرنسي لم يكن كفتا له . ولم تكن أسبانيا وهولندا راغبتين في التعاون فيه . وفي ٩ فبراير سلم مجاللون إلى تاليران مذكرة مطولة عن مصر ، وفي ١٤ منه قدم تاليران خطته لفتح مصر إلى الإدارة ، وفي ٢٣ منه كتب بوناپرت تقريره المقدم بالتشاور إلى الإدارة يجذ فيه التخلي عن مشروع الغزو ويقترح فيما يقترح من حلول بديلة تجريد حملة على مصر . وبعد أسبوع وافقت الإدارة على المشروع . (وقد لام رجال الإدارة بعد ذلك بعضهم بعضا على هذا القرار الذي زعم اثنان منهم على الأقل أنهم عارضاه) . وفي ٥ مارس حرر بوناپرت مذكرة للإدارة أجمل فيها خطته . وفي ١٢ أبريل أصدرت الإدارة سلسلة من القرارات ، فصدرت التعليمات لبوناپرت أن يستولي على مالطة ومصر ، ويطرد الانجليز من مؤسساتهم في الشرق ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويشق برزخ السويس ، ويحسن الأحوال المعيشية للوطنيين في مصر ، ويحتفظ بالعلاقات الطيبة مع الباب العالي . وقدر بوجه عام أن ستة أشهر تكفي لتحقيق الأهداف العاجلة وللتمهيد لتحقيق الأهداف البعيدة ، وعندها يعود الجنرال بوناپرت تاركا خلفه قوات كافية ، فإذا لم توافق إنجلترا على الصلح بشروط مرضية تقلد قيادة القوات المخصصة لغزو بريطانيا العظمى . وفي هذا الوقت تنور إيرلنده بزعامة حزب الإيرلنديين المتحدين . ثم توطد العلاقات في الوقت نفسه ، أثناء حملة بوناپرت على مصر ، مع تبو صاحب سلطان ميسور الذي كان يحارب الانجليز آنشد في الهند ، ويذهب تاليران إلى الآستانة في سفارة شخصية ، لأنه ان كان هناك انسان يستطيع اقناع الباب العالي بأن فرنسا تحتل مصر خدمة لمصالح تركيا فهو تاليران . ولكن الذي حدث أنه قرر في النهاية ألا يذهب - وكان في قراره حكيما - إذا ذكرنا ما حدث بعد قليل للقائم بالأعمال الفرنسي في الآستانة .

وليس هناك شك في أن بوناپرت أكد لمن أقنعهم بمرافقته في هذه المغامرة أنهم عائدون إلى أرض الوطن قبل نهاية ١٧٩٨ . أما أنه اعتقد أنه هو نفسه سيعود قبل ذلك التاريخ فأمر غير محقق . وقد رد على بورين حين سألته كم من الزمن يتوقع أن يغيب ، فقال (في رواية بورين) « بضعة شهور ،

أو ست سنوات • ان الأمر كله يتوقف على سير الأحداث • ساستعمر مصر ،
وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع ، والنساء ، والممثلين • الخ اننا
لم نجاوز بعد التاسعة والعشرين ، وسنبلغ عندها الخامسة والثلاثين ، وهذه
أيضا سن صغيرة • ان ست سنوات تكفينى للذهاب الى الهند لو سارت الأمور
سيرا طبيبا ، (٢١) وفى ظننا أن الشئ الوحيد الذى كان بونابرت يعتمد عليه
اعتمادا أكيدا هو قدرته على استغلال سير الأحداث أيا كان •

كان أمام بونابرت منذ وافقت حكومة الادارة على المشروع المصرى حتى
اليوم الذى عبر فيه الأسطول الفرنسى طولون نحو عشرة أسابيع يجمع فيها
جنوده ويجهزهم ويحشد الناقلات ويعد البوارج للرحلة ويجند البحارة اللازمين
لرفع صفوف الملاحين التى نضبت الى قوتها الكاملة ويختار لجنة من الخبراء
المدنيين ليرافقوا حملته - مهندسين وعلماء واخصائيين فى الطيران وفنانين
وأثريين واقتصاديين وكيميائيين وجراحين وكتابا وموسيقين ومترجمين
وطابعين • لا عجب اذن أن يكون بعض هذا العمل قد أنجز بطريقة عاجلة
ناقصة ، بل العجب أن يكون قد أنجز اطلاقا • على أن السرعة كانت لازمة لمنع
العدو من العلم بهدف هذه الاستعدادات الكبيرة ، وللسيطرة على مصر قبل أن
يوافى فيضان النيل السنوى •

كان فى طبع نابليون أن ينسب لنفسه فضل جميع الأعمال التى يؤديها
له غيره ، وفى طبع المعجبين به أن يصدقوا كلامه • ويؤكد لنا المؤرخون أن
بونابرت أنفق وقته من بداية مارس حتى رحيله عن باريس فى ليلة ٣ مايو
فى نشاط محمود أظهر فيه عبقريته التنظيمية الخارقة • وما من ريب فى أنه
كان مشغولا ، ولكن ليس هناك شئ خارق فى أن يجلس قائد الى مكتبه ويأمر
وحدات جيشه أن تتحرك من مكان الى آخر ، ولو عجز عن هذا لاثبت أنه رجل
غير كفء ، وهو لم يكن كذلك بلا شك • أما الفضل فى سير العمليات المعقدة
فى سرير فيرجع الى أولئك الذين جعلوا من جيش الثورة الفرنسية أداة منظمة
تنظيما جديرا بالاعجاب ، ذكية ، سريعة الاستجابة ، والفضل فيه راجع على
الأخص الى مدير المهمات ناجاك ، موظف البحرية المدنى الذى أشرف على
الاستعدادات فى طولون • وزاد من قيمة الخدمات التى أداها ناجاك أنه كان
حديث عهد بتولى منصب شغله قبله موظف هرم أرعن خلف له تركة حافلة
بالعجز الضخم ، وعمال أرصفة تأخرت رواتبهم شهورا عديدة ، وترك له
فوضى شاملة •

واذا كان فى طبع بونابرت أن ينسب لنفسه كل الفضل ، فانه كان أيضا
يلقى اللوم على غيره فى جميع أخطائه • فلم يفتأ طوال حياته متشبثا بفكرة
خاطئة عن ضباط البحرية الفرنسية مؤداها أنهم ليسوا إلا فئة عبيدة ، شديدة

الاحجام ، مدققة فى التوافه ، لا تفتأ تثير الاعتراضات الفنية ، وتزعم ان كل ما يطلبه مستحيل ، وتجلب الهزيمة بحرصها المفرط . ولو أنه استمع لهؤلاء الضباط لأعفى من الهزيمة فى ووترلو . ومهما يكن من أمر ، فلا ريب فى أن البحرية الفرنسية فى عام ١٧٩٨ كانت فى حال سيئة اذا قيست بالبحرية البريطانية . محقا كانت بعض سفنها ممتازة ، ولكن كثيرا من السفن كان يفتقر الى الترميم ، وكانت صفوف الملاحين قد هبطت دون قوتها هبوطا خطيرا ، وسلاح الضباط نضب (أشد من نضوبه فى الجيش) بسبب الهجرة أثناء حكم الارهاب - ولم يكن من اليسير فى أيام السفن الشراعية أن يدرب ضباط جدد بين عشية وضحاها . وفقدت البحرية الفرنسية فى خمس سنوات ، بين ١٧٩٣ و ١٧٩٧ ، خمسا وثلاثين بارجة واحدى وستين فرقاطة . وكان من الحماقة ارسال قافلة بطيئة مؤلفة من ٤٠٠ سفينة عبر البحر المتوسط ، الذى عاد اليه الأميرال نلسن لتوه بأسطول كبير ، وسنرى أن الذى أنقذ القافلة من الدمار بطؤها ونفاد صبر نلسن . ومع ذلك أمكن ، بفضل نشاط ناجاك وهمته الى حد كبير ، اصلاح البوارج اصلاحا كافيا ، ورفع عدد الملاحين رفعا معقولا الى ما يقرب من قوة الميدان ، وجمع الناقلات - ومعظمها من السفن التجارية الفرنسية والايطالية . ووكل أمر القوة البحرية كلها الى الأميرال الثانى بروى الذى كتب عليه أن يلقي الهزيمة والموت جزاء أمانته وبطولته . وقسم الأسطول أقساما ثلاثة ، أولها تحت امرة بروى نفسه على السفينة لوريان ، وثانيها تحت امرة مساعد الأميرال بلانكيه دشيلا على البارجة لفرانكلن ، وثالثها تحت امرة مساعد الأميرال فيللنيف على البارجة جيوم تل . وقاد القافلة مساعد الأميرال دكرية على الفرقاطة لاديان . أما مساعده الأميرال جانتوم فكان رئيسا لأركان حرب بروى . فى يد هؤلاء الرجال ، وضباطهم ، وملاحيهم السيئى التدريب ، المفتقرين الى النظام ، كان مصير الحملة كلها ، وكان أملهم الوحيد أن يكون الحظ حليفا لهم .

كان جمع القوات البرية مهمة يسيرة بالقياس الى الاستعدادات البحرية . فما ان استقر رأى فى أوائل مارس على تجريد الحملة حتى صدرت الأوامر الى الوحدات التى اختارها بونايرت لتسير الى موانئ الابحار - وهى طولون ، ومرسيليا ، وجنوه ، وأجأكسيو ، وشفيتافكيا (وقد انضمت قافلة مارسيليا الى الأسطول فى ١١ مايو ، أما القوافل الثلاث الأخرى فقد تقرر أن تبحر فرادى وأن تنضم الى القافلة الرئيسية فى عرض البحر) . وكانت الوحدات مشتتة على مسافات بعيدة فى الوقت الذى اختارها فيه بونايرت . فبعضها كان فى سويسرة بعد أن فرغت لتوها من فتحها ، وبعضها الآخر متروك فى شمالى ايطاليا ، وغيرها فى روما حيث خلعت البابا بيوس السادس بوصفه حاكما زمنيا وأقامت جمهورية تحت الحماية الفرنسية ، ووحدات أخرى فى كورسيكا ،

وعدة فرق في شمالي فرنسا بوصفها جزءا من « جيش انجلترا » . هذا التشتيت الواسع لمختلف الوحدات المدعوة يحجب عنا حقيقة ، هي أنها كلها تقريبا كانت جزءا من « جيش ايطاليا » خلال حملة بونابرت ١٧٩٦ - ٩٧ ، أما الوحدات القليلة التي لم تخدم تحت امرته من قبل فقد تقرر تركها حامية في مألطة . وكان طبيعيا أن يفضل بونابرت الرجال الذين أبلوا بلاء حسنا تحت قيادته في أركول ، ولودي ، وكاستليونى ، وريفولى ، والذين يستطيع أن يركن الى ولائهم في حملته الخطرة الجديدة . فكلهم من قدامى المحاربين المحنكين ، وكثير منهم تطوعوا للدفاع عن أرض الوطن في عام ١٧٩٢ وقاتلوا في جيش السامبر - والموز ، وفي جيش الراين ، قبل نقلهم الى ايطاليا . على أن روحهم المعنوية لم تكن عالية بدرجة متماثلة وهم يسرون الى مختلف الموانئ التي أبحروا منها . لقد كانت أول حملة بحرية خرجوا فيها ، ومع أنهم لم يكن لديهم أقل فكرة عن وجهتهم ، فانهم كانوا على بينة من متاعب الرحلة البحرية ومخاطرها ، وارتفعت نسبة الهاربين من الجيش في بعض الفرق أثناء السير الى الموانئ ارتفاعا غير عادى ، ولعلها كانت ترتفع أكثر لو علم الجنود بما يخبئه لهم الغيب ، أو عرفوا كم من الزمن سيتغربون عن بيوتهم ويحرمون من أسباب الحضارة ومن أسرهم وزوجاتهم وخليلاتهم . أضف الى ذلك أن رواتب الجند في كثير من الوحدات ، لا سيما ما كان منها في ايطاليا ، كان قد طال تأخير صرفها ، ولم يصلح مزاج الجنود المواطنين الذين تأخرت رواتبهم منظر مندوبى الجيش وهم يعيشون في ترف على بيع أملاك الحكومة بيعا غير مشروع من جهة ، وعلى الغنائم والرشاوى من جهة أخرى . ولقد ضرب بونابرت على وتر يستجيب له الجند حين أشار في خطابه الى أن الجمهورية لم تعاملهم معاملة انصاف ، وكان وعده لهم بالمكافأة والمجد معا ضرورة سيكولوجية لازمة .

أما المدنيون المرافقون للحملة فكانوا أكثر تفاؤلا من الجنود . وكانت الحملة تضم بالاضافة الى اللجنة العلمية الفنية كما سميت (وهى فى الواقع لم تكن الا لجنة خبراء وفنيين) على الأقل خمسمائة مدنى ، بينهم ستة وعشرون من مندوبى الجيش و ٤٤٥ من الموظفين الاداريين (*) .

كان بونابرت قد عرض وظيفة المراقب المالى العام لقوات الحملة ، أو كبير موظفيها المالىين ، على « هالير » السويسرى الذى شغل مثل هذا المنصب خلال

(*) كانت جميع مصالح الجيش (كالمالية والتموين والمستشفيات .. الخ) الى سنة ١٨٠٧ ، حين أعاد نابليون تنظيم ادارة الجيش ، فى يد سلاح من المندوبين المدنيين الذين ينفذون العمليات بالاستعانة بمتعهدين أهليين . وكانت التعيينات فى سلاح المندوبين هذا سياسية خالصة فى كثير من الأحيان ؛ مثال ذلك أن شقيقى بونابرت جوزف ولوسيان كانا يشغلان منصبين رايحين فى هذا السلاح أثناء حملته على ايطاليا ، وكذلك كان عمه فيش ، الكردينال العتيد ، وكانت رذائل هؤلاء الموظفين هدفا لغضب بونابرت حين يجاوزون فيها الحدود .

الحملة الإيطالية ، على أن هالير كان في تلك اللحظة ينعم في روما بفرص ما كان يحلم بها ، ويسلب خزانة الرجل الذي أطلق عليه الجند اسم « المواطن البابا » .
(وهالير هو الذي رد على بيوس السادس - الشيخ الذي نيف على الثمانين - حين رجاء أن يتركه ليقضى بقية حياته في روما بقوله : ان الموت اذا حضر فميسور أمره في أى مكان ، ثم أمر بنقله الى المنفى) . فلما اعتذر هالير اللبق عن قبول المنصب في أدب ، ولى بدله المواطن بوسيليج ، وكان قد فرغ لتوه من القيام بمهمة دقيقة أوفد فيها الى فرسان مالطة بنجاح كبير كما سنرى .

وكانت الفرقة المدنية تضم أفرادا أقل شأنًا تفتقر اختصاصاتهم في غالب الأحيان الى التّحديد . فكان هناك الطهاة والخدم ، وعلى الأخص نفر من صفار التجار والمتعهدين الذين اذا شموا رائحة الربح لزمو أى جيش أيا كانت وجهته - وهم فئة ما زالت توجد في وقت الحرب على حواشي مراكز التدريب العسكري ، كذلك كان هناك نساء وأطفال كما ذكر نقولا الترك . ولعل بعض الأطفال الذين أشار اليهم كانوا صبيانًا للبحارة وللضباط . وقد كان من حظ صبي الضابط « كازابيانكا » ، الذى كان في التاسعة أو العاشرة من عمره ، أن يشتهر اسمه بفضل ميتة لا داعى لها ، وقصيدة شعر رديئة خاطئة الوقائع (*) ولعل الفرقة كانت تضم الى هؤلاء بعض الصبيان الطبالين . وأبناء صاحبات المطاعم (الكانتينات) والغسالات وما أشبههن . هؤلاء وأمهاتهم كابدوا المشاق كغيرهم ، وبعضهم مات بلا شك ، وان أصر المؤرخون على اغفال شأنهم .

واذا استثنينا الوظائف المصرح لهن رسميا بمرافقة الحملة ، فان النساء كان محظورا عليهن بالأوامر المشددة أن يبحرن مع أزواجهن أو عشاقهن . (ولم يكن من غير المألوف أن تتبع النساء رجالهن في الحملات) . على أن الأوامر لم تكن مجدية تماما . من ذلك أن الجنرال فردييه استطاع أن يصطحب زوجته معه ، وهى امرأة إيطالية لطيفة شديدة الحيوية (٢٢) ، وأفلحت نساء أخريات تنكرن في زى جند في فرق أزواجهن في التسلل الى الناقلات . وبلغ عدد النساء المرافقات للحملة جميعا نحو ٣٠٠ امرأة . وكان في نية بونابرت أن يأتى بالمدينين ، بما فيهم النساء ، الى مصر بعد أن يستقر له فتحها ، ولكنه بعد أن أفسدت البحرية البريطانية عليه خطته أصبح يدين بالشكر لمن أفلح منهم في اصطحاب الحملة متسللات فأشعن المرح في حياتها في القاهرة . وكان شاكرا على الأخص لتلك التابعة الجميلة ، الشقراء ، الشابة ، مدام فوريه ، زوجة الملازم فوريه ، الذى سرعان ما ندم على أخذها معه .

(*) الإشارة الى قصيدة لمسز هيمنز عن موت الصبي ، وهو ابن الكابتن كازابيانكا

كان بيت الجنرال بونابرت في شارع شانترين (الذي سمي بعد عودته من ايطاليا بشارع النصر) أشبه الأشياء بمخدع مومس ، فلم يرق زوجته جوزفين التي كانت تود أن تبعده عن فرنسا لتستطيع شراء قصر لاماليزون (ولم يكن في طاقتها دفع ثمنه) والتمتع بصحبة عشيقها ميسيو شارل ، الذي كانت نخدع في صحبته زوجها المنتصر متنقلة معه في جميع أرجاء ايطاليا .

في هذا الجو الغرامي كان الجنرال بونابرت ، عضو المجمع العلمي ، يعد حملته ، ويحاول التودد لزوجته ، برغم وجود كلبها الصغير (*) ، المكشّر أبدا عن أنيابها ، على كره منه . ولم يكن قد أدرك بعد المدى الكامل لخيانتها (وقد كشف له عنه بعد ذلك في مصر) . ولكن سيل الفواتير المطالبة بأثمان ثيابها وحليها الباهظة ، هذا السيل الذي لم ينقطع كان كافيا لترويعه ، ولم تكن دونه ازعاجا له تلك الحرب المنظمة التي شنتها أسرته على زوجته . اذن فالقيام بحملة ظافرة ثانية ، بما يلزمها من مغام ، ولو لمجرد هذه الدواعي العائلية ، بدا أمرا محتوما . وفرغ الجنرال بكليته ، على قدر ما سمحت شواغله العائلية ، لتنظيم الحملة . وعدد خطابه الرسمية التي كتبها في الفترة بين مارس ومايو ١٧٩٨ ليس كبيرا (**) ، ولكنه أنفق كثيرا من نشاطه في المؤتمرات ، ولم تحفظ لنا جميع خطابه . وكان اصدار الأوامر بتحركات الجنود أمرا يسيرا بالقياس الى مهمة أكثر دقة ، هي المفاوضات اللازمة لتعيين ضباط أركانها وأعضاء اللجنة العلمية التي كان يعلق عليها أهمية مماثلة . أضف الى ذلك أنه صمم على أن يتعلم في أسابيع كل ما ينبغي أن يعرفه الفاتح عن مصر وسوريا وتركيا والاسلام . وقد نجح بطريقته التي تشوبها الفجاجة نجاحا ملحوظا في هذه الجهود كلها .

كان بونابرت في اختياره للقواد الذين يعملون تحت امرته مقيدا باعتبارات امكان الحصول عليهم ، ورغبتهم في العمل تحت قيادة رجل صغير السن بعيد المطامح مثله . وقد صحبه الى مصر (***) سبعة وعشرون من الضباط القواد الواحد والثلاثين الذين اختارهم . ومن هؤلاء اغتيال اثنان ، وجرح في المعارك ثلاثة جراحا قاتلة (ولعل أحدهم انتحر) ، وجرح تسعة ولكنهم عاشوا ، ومات

(*) يعترض المؤرخ المدقق على هذا طبعاً بأن « فورتونيه » وهو الكلب الذي كان بونابرت يشكو منه في رسائله قتله كلب طاهي بونابرت خنقا في أواخر ١٧٩٦ . ولكننا نفترض أن كلبا آخر خلف فورتونيه .

(**) يبلغ عددها ١٨٠ من ٥ مارس الى ١٩ مايو في « رسائل نابليون الاول » وهي بالطبع ناقصة .

(***) ظل الجنرال فوبوا بمالطة فائدا للحامية الفرنسية ، ومكت معه الجنرالان شاني ودينيزل . أما الجنرال باراجيه ديليه فقد أعيد الى فرنسا من مالطة .

اثنان من المرض في مصر . وهذه نسبة عالية جدا للحوادث بين القواد ، ولكن نابليون كان دائما ينظر الى القواد على أنهم قابلون للاستهلاك ، ويريدهم أن يضربوا المثل في البسالة . وكان نحو ثلثيهم قد حاربوا تحت قيادته في إيطاليا . ولكنهم لم يكونوا بحال أبرز قواده . ومن الحقائق الجديدة بالملاحظة أن سبعة وعشرين من الواحد والثلاثين حاربوا في جيش الملكية القديم كما حارب بونابرت - ستة عشر منهم ضباطا واحد عشر جنودا . وقد أصبح ستة من هؤلاء القواد مارشات للامبراطورية فيما بعد ، وأصبح أحدهم ملكا (وهو مورا ، وأبوه فندقى) . وكان خمسة وعشرون منهم أكبر من قائدهم الأعلى وأربعة أصغر منه سنا . وأكبرهم يبلغ السابعة والخمسين وأصغرهم الخامسة والعشرين ، ومتوسط أعمارهم ثمانية وثلاثون عاما - فالقيادة في مجموعها قيادة شابة (*) .

وكان جنود المشاة مقسمين خمس فرق ، يقودها اللواءات ديزيه ، وكليبر ، وباراجيه ديليه (الذى حل محله مينو بعد قليل) ، ورينييه ، وبون . والمعهم ديزيه وكليبر . فأما من حيث كفايتهما في القيادة فهما على الأقل قريعان لبونابرت ، وأما من حيث صفاتهما الانسانية فهما أسمى منه قطعا . ولابد لنا من أن نذكر المزيد عن هذين الرجلين ، وعن مينو الذى اعتنق الاسلام ليتزوج ابنة صاحب صام . وفي أثناء الاستعدادات للحملة أشرف كليبر على مناطق الأبحار في طولون ومرسيليا وجنوه وأجاكسيو . ووكل الى ديزيه أمر التسليح في شفيتا فيكيا . وكان ديزيه يبلغ يومها التاسعة والعشرين ، وكليبر الخامسة والأربعين . وقد كتب لهما أن يموتا في يوم واحد ، بل في ساعة واحدة ، وبينهما مسافة ١٥٠٠ ميل ، أحدهما في ساحة القتال ، والثانى بيد فاعل .

وعين بونابرت لقيادة مدفعيته قائدا كفئا هو « دومارتن » . أما قيادة سلاح المهندسين والاشراف على اللجنة العلمية فقد وكلا الى الجنرال كفاريللى دفالجا ، وكان قد فقد احدى ساقيه في ألمانيا وكتب عليه أن يفقد ذراعا ، وبعدها حياته ، في سوريا . وكان كفاريللى أوثق ضباط الحملة العسكريين صلة ببونابرت دون ريب . أما سلاح الفرسان فقد عقدت قيادته لصنديد من المولدين هو الجنرال « ألكسندر ديما » ، وهو أبو ديما القصاص ، وكان كأنه جيش من ألف رجل ، ولكنه لم يكن قائدا كفئا .

ومن بين ضباط أركان حرب بونابرت ضابط يدعى « دوروك » وقد أصبح فيما بعد « الدوق فريول » ، وهو الرجل الوحيد الذى اعترف ببونابرت

(*) هذه البيانات تصدق بالطبع على تشكيل القيادة في بداية الحملة . ولكن عدة ضباط رفقوا الى رتبة القيادة أثناء الحملة . ورتبة « اللواء » تستعمل في فصول هذا الكتاب ترجمة للرتبة الفرنسية
Général de division

بأنه عاشره صديقا ، والبولندي « سولكوفسكى » ، وهو ضابط لامع كان له قيمة مزدوجة للحملة ، فهو فارس من فرسان مالطة ، وخبير بشئون شرقى البحر المتوسط ، ومجيد للكلام بالعربية ، و « جونو » الذى أصبح فيما بعد الدوق « أبرانتس » ، وكان وثيق الصلة بأسرة بونايرت ، وكروازيه الذى أذله بونايرت بعد ذلك فكان لاذلاله نتائج مؤسفة ، ولويس بونايرت شقيق نابليون ، وقد أصبح فيما بعد ملكا على هولندا ، وهو رجل مصاب بالزهري وبالشذوذ الجنسى ، يزعم أنه أديب ، و « أوجين بوهارنيه » ابن زوجة نابليون ، الذى أصبح فيما بعد حاكما على ايطاليا ولكنه كان يوما فتى فى السابعة عشرة شديد البراءة . ومن هؤلاء مات الأربعة الأولون ميتة قاسية - فقتل دوروك فى ألمانيا ، ومزق سولكوفسكى اربا فى مصر ، وأصيب جونو بالجنون وانتحر فى دلماشيا ، وقتل كروازيه فى سوريا .

ودعا بونايرت الجنرال ألكسندر برتية ، الذى يركن اليه على الدوام ، ليتقلد رئاسة أركان حربه . وكان قد عمل رئيسا لأركان حربه فى الحملة الإيطالية ، وظل فى منصبه هذا حتى عام ١٨١٤ . وقد قيل ان برتية ولد ليكون رئيس أركان حرب - فهو رجل مدقق لا يصيبه الكلل ، ولا مطمع له الا أن يكون رئيسا لأركان حرب نابليون . وكان يعمل فى انسجام تام مع قائده الأعلى بعكس غيره من قواد نابليون الذين كانوا يشعرون دائما أن سيدهم يستهين بهم . وكافأه نابليون بامارة نيو شاتل ، وبلقب دوق وجرام ، وزوجه أميرة بافاريا . وقد كتب عليه هو أيضا أن يلقي خاتمة قاسية لحياته . ذلك أنه حين عجز عن الانضمام الى نابليون خلال المائة يوم ، وقع ميتا على الرصيف من شرفته فى بافاريا ، بعد أن أطل على عرض لجيوش الحلفاء فى طريقها لقتال فرنسا .



ومع أن اختيار العلماء والفنيين وكل الى الجنرال كفاريللى والكيميائى الكبير برتولليه ، فكان المواطن بونايرت عضو المجمع العلمى (الشعبة الرياضية) شارك فيه فيه بنصيب نشيط جدا . ولم يكن دائما موقفا تماما . مثال ذلك أن المواطن « لانجليه » أمين المكتبة الأهلية ، وأستاذ العربية والتركية والفارسية والصينية والمنشوية ، أعرب عن رفضه الدعوة لمرافقة حملة حربية مجهولة المقصد فى عنف يكاد يكون هستيريا ، وأصر على أن مكانه فى شارع ريشليو لا فى خيمة فى العراء . فحل محله آخر الأمر المستشرق « فنتور » ، وهذا أيضا لم يعد .

وكان المواطن « مونج » ، وهو من أعظم الشخصيات تعددا فى الكفايات فى تاريخ العلم ، أقل كرها من لانجليه لهذه المهمة ، ولكنه كان يهرب زوجته .

كان جاسبار مونج يناهز الثانية والخمسين في عام ١٧٩٨ . وقد تعهد هذه الابن الأكبر لأحبه الصناعات المهرة ، في حياته الباكرة ، موهبته الحارقة في الرياضيات ، وقبل في السادسة عشرة بمدرسة المهندسين الحربيين على الرغم من ضعة مولده . وقد درس بعد ذلك في هذه المدرسة في فترات من ١٧٦٦ الى ١٨٠٩ ، وهناك أنشأ فرعاً جديداً في الرياضيات ، هو الهندسة الوصفية . وبعد أن عين عضواً في أكاديمية العلوم في عام ١٧٨٠ انتقل الى باريس وأصبح مساعداً للافوازييه أبى الكيمياء ، الذى شهد لمونج باكتشاف تركيب الماء من الايدروجين والاكسجين . وانتهى سجل مونج في خدمة العلم البحث في ١٧٨٧ ، حين أوفدته وزارة الحرب ليفتش على مصانع حديد فندل في لكروزو ، وفى نحو هذا الوقت عينته وزارة البحرية ممتحناً للطلاب في المعاهد البحرية ، وهى مهمة اقتضته الاضطلاع برحلات كثيرة . ومن ذلك التاريخ ، وعلى الرغم من الجهود المتفرقة التى بذلها للعودة الى البحوث العلمية الخالصة ، اقتنصته عجلة الادارة والسياسة والتكنولوجيا التطبيقية . ولما كان مونج جمهورياً متحمساً فانه وضع مواهبه تحت تصرف حكومة الثورة ، فعمل وزيراً للبحرية فى ١٧٩٢ - ٩٣ ، وهى مهمة ميثوس منها تقريباً . وكلفتة لجنة الأمن العام بالاشتراك فى تأليف كتاب سمي « نصائح لعمال الحديد عن صناعة الصلب فى أفران التمليط » لتوزيعه على جميع العمال الذين يريدون انشاء مصانع للصلب . وعمل فى لجنة للموازن والمقاييس أدخلت النظام المترى ، وفى لجنة للاستاتيكا الجوية ، واشترك فى تطير بالون فى الجو . ووضع مع برتولليه طريقة لاستخراج ملح البارود من التربة العادية فمنع بذلك وقوع أزمة فى مصانع الذخيرة ، وأشرف على مصنع للذخيرة فى « جرينيل » (وقد انفجر المصنع ذات مساء فقتل ألف شخص) . وعمل فى لجنة للأشغال العامة ، وألف كتاباً عن فن صناعة المدافع ، وحاضر فى الوسائل الحديثة لصنع الذخائر ، وكان عضواً نشيطاً فى نادى اليعاقبة ، وأهم مؤسسى مدرسة الفنون الهندسية . وقام بكل ما يمكن أن يقوم به رجل محب لوطنه ليساعد هذا الوطن فى وقت الخطر ، ولكنه لم يحرك اصبعاً ليساعد شريكه لافوازييه فى النجاة من المفصلة .

وفى مايو ١٧٩٦ اتخذت حياة مونج اتجاهها جديداً أكثر بعدا عن العلم . فقد عين هو وبرتولليه وأربعة خبراء آخرون أعضاء فى « لجنة حكومية لفحص التحف الفنية والآثار العلمية فى البلاد المفتوحة » ، وأوفد الى ايطاليا . وهناك توثقت الصداقة بينه وبين بوناپرت ، وكانت اللجنة - فى أعقاب جيشه - تفحص المجموعات الفنية ، والمتاحف ، والمكتبات ، وتحدد ما يسلم منها للجمهورية الفرنسية بمقتضى شروط ومعاهدات الصلح . وجولة عابرة فى متحف اللوفر تدلنا على كفاية اللجنة التى كان مونج أكبر أعضائها . وحسب المرء أن يقرأ قائمة بالآثار الفنية التى حصلت عليها فرنسا ، وعلى رأسها صورة

الجيوكوندا (موناليزا) ، ليترنج خياله . وقد عرض اللوق بارما مليونا من الجنيهات الفرنسية ليحتفظ بصورة للرسام كوريدجيو - ولكن دون جدوى .
وخير ما يقال دفاعا عن مونج فى هذه العملية أنه لم ينتفع منها بفلس واحد لنفسه .

وقد أصبحت صلة مونج ببونابرت حميمة وثيقة الى حد عجيب حين التقيا بميلانو فى صيف ١٧٩٧ . ولعل ما طبع عليه العالم من خلق مستقيم ونظرة عملية هو الذى اجتذب اليه القائد ، وكان بينهما قرابة ذهنية امتدت حتى الى مشاعرهما الغامضة بالتدين الربوبى . على أن هذه الفترة كانت أيضا فترة يجتاز فيها بونابرت ، البطل الظافر فى ميادين القتال ، أزمة عاطفية أذلت نفسه . ويخيل لنا أن بونابرت فتح مغاليق قلبه أكثر مما ألف لمونج ، الذى بلغ من الكبر مبلغ أبيه ، والذى كان مسنكه الجاد الرجولى نقيضا - ونقيضا يبعث فى النفس الراحة والعزاء - لخفة جوزفين وطيشها النسائى . على أى حال لم يكن شخص الصق ببونابرت طوال الحملة المصرية من مونج .
وكان مونج فى طليعة من ذكر لهم بونابرت امكان تجريد حملة على مصر . وقد بدأ منذ سبتمبر ١٧٩٧ فى جمع الخرائط والمذكرات عن مصر لينتفع بها بونابرت .

وحدث فى ٢٨ ديسمبر أن تكاثرت عصابة من جنود البابا على الجنرال دوفو - نتيجة لبعض حوادث الشغب فى روما - وقتلته ، وكان شابا من ضباط السفير الفرنسى (وهو جوزف أخو بونابرت) . وأمرت حكومة الادارة ، التى أثارت الجريمة سخطها ورحبت باتخاذها ذريعة ، الجنرال برتويه بالزحف على روما وعينت المواطن مونج رئيسا للجنة تحقق فى مقتل دوفو . أما مهمة مونج غير الرسمية فكانت الاشراف على تصفية قوة البابا الزمنية واقامة الجمهورية الرومانية ، على أن هذا كان حقيقة واقعة فعلا حين وصل مونج الى روما فى ٢٢ فبراير . (ومن التفاصيل الطريفة التى سجلها التاريخ أن الفرنسيين أمروا فى اليوم الذى خلعوا فيه البابا بانشاد لحن الشكر Te Deum فى كنيسة القديس بطرس احتفالا بهذه المناسبة) . وريع الناس - حتى المواطن مونج - لأعمال السلب والنهب التى ارتكبت تحت رعاية « هالير » ، مدير المهمات ، الرحيمة . فقد ابتز هالير من جمهورية روما ، بمقتضى ما سمى تلطيفا بمعاهدة التعاون المتبادل ، ٤٠٠٠ ر ٤٠٠٠ قرش نقدا ، فضلا عن الكنوز الكنسية ، والسيطرة على أحواض السفن والمناجم . الخ .
وقد ذكر مونج لزوجته أن نقل التحف المشحونة الى فرنسا تطلب ٣٠٠ صندوق كبير ، ويخيل لنا أن واضع أصول الهندسة الوصفية كان يتقدم بخطى حثيثة ليصبح خبيرا مشمنا للتحف الفنية .

وفى ٥ مارس - وهو اليوم الذى أجمل فيه بونابرت للادارة خطط حملته - كتب أيضا الى مونج يطلب اليه أن يجمع حروفا عربية للطباعة ، وطابعين ، ومترجمين ، وغيرهم من الخبراء ، ودعاه للانضمام الى الحملة . وحصل مونج على الحروف من مكتب الطباعة الملحق بالدعاية الرومانية ، كذلك وجد صفاين للحروف ، ووجدت أدوات المسح وعدة شبان خبيرين باستعمالها ، واختار أربعة مترجمين من بين طلاب الطب المشاركة فى روما . على أن مونج اعتذر أول الامر من الانضمام الى الحملة ، فزعم أن واجباته تقتضيه الوجود فى باريس ، وأنه الى ذلك متقدم فى السن .

ولما أحس بونابرت بالسبب الحقيقى فى رفض مونج اتجه الى جهة الاختصاص الصحيحة : فزار مدام مونج فى باريس . وحسبت الخادم التى فتحت الباب أن القائد الشاب النحيل تلميذ من تلاميذ الأستاذ مونج . وقاومت مدام مونج حينما ، ولكنها بعد عدة زيارات رضيت لبونابرت كارهة بأن يصطحب زوجها فى الحملة . وراحت فى خطاباتها لمونج توبخ زوجها الأحقق الهرم . فهل تراه فقد رشده حتى يريد أن يهيم فى الأرض وهو فى الثانية والخمسين ؟ على أن هذا الزوج الأحقق الهرم كان خلال ذلك يجنى ثمرات رضى بونابرت عنه . فقد انتخب عضوا فى المجلسين - مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة .

وما أن تلقى بونابرت الاذن من المواطنة مونج حتى تقدم الى حكومة الادارة يرجوها أن تعفى زوجها من مهمته فى ايطاليا وتعيّنه فى قوة الحملة . ومن هذا التاريخ أخذ مونج يعاون ديزيه فى الاشراف على الاستعدادات فى شفيثا فيكيا . وعهد اليه بونابرت بمهام خاصة وعامة : فهو يرجو المواطن مونج أن يشرف على شحن ٨٠٠ زجاجة نبيذ من مخزن أنبذة جوزف بونابرت مع القافلة ، كذلك ٤٠٠٠ زجاجة من نابلى ، وعربة فاخرة ذات عنانين يركبها القائد العام فى المدينة . كان مونج يشرف على كل شئ - على المطبعة العربية ، والانبذة ، والعربة ، بل لقد بدأ يتلقى دروسا فى ركوب الخيل استعدادا للحياة العسكرية . واذ فرغ من هذا كله ، لم يبق أمامه هو وديزيه الا انتظار وصول سفينة البريد الفرنسية حاملة الأمر بأن تنضم قافلة شفيثا فيكيا - المؤلفة من نحو ثمانين سفينة - الى الأسطول الرئيسى .



يستفاد من المصادر الرسمية أن لجنة العلوم والفنون كانت مؤلفة من ١٦٧ شخصا ، ترك اثنان منهم فى مالطة . وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء كما ذكرنا موظفين فنيين أكثر منهم علماء أو فنانيين . وأكبر قوة فى اللجنة هى قوة المهندسين المدنيين (تسعة عشر) والمساحين ورسامي الخرائط (ستة عشر) .

وكان بونابرت يطمح في أن يصطحب معه جماعة من كبار الموسيقيين والشعراء - ويصعب القول لم . فميوله الأدبية والموسيقية محدودة ، أما جنوده فقانون بفرق الجيش الموسيقية وقد حاول أن يجند من الموسيقيين « مهول » ، ولكنه أصر على أن الكونسرفتوار والأوبرا في حاجة أمس لخدماته ، فأخذ بونابرت بدله رجلا يدعى « جيوم - أندريه فلوتو » ، لم يشتهر إلا ببحثه العلمى الذى قام به بعد ذلك فى الموسيقى العربية . كذلك حاول بونابرت أن يجنده « نيوموسين لمسييه » وهو أديب ذو نفوذ وان كان من أدباء المرتبة الثانية ، ولكنه رفض أيضا . فحل محله « أنطوان - فانسان أرنو » الذى لم يجاوز فى رحلته قط مالطة ، وفرانسوا - « أوجست برسيغال - جرانميزون » وهو شاعر دون أوساط الشعراء ، ولكنه رجل لم يستحق فى أغلب الظن كل السخرية التى انهالت عليه من المؤرخين .

وكان هناك رجال أكثر كفاية من هؤلاء بين الفلكيين والنباتيين والجراحين والكيميائيين والأثريين والمعماريين . أما كبير المترجمين ، واسمه « جان - ميشيل دفتور » فمستشرق لامع ، وكان من أكبر رجال الحملة سنا وهو اذ ذاك فى السادسة والخمسين . ومن خير من وقع عليهم الاختيار المصوران « دنون » و « دوتيرتر » ، والمعماري « بلزاك » (ولا قرابة بينه وبين أونوريه) ، ولهم جميعا فضل تأسيس علم الآثار المصرية . على أن ألمع علماء الحملة كانوا من الرياضيين والكيميائيين وعلماء المعادن والحيوان . وقد ورد ذكر جسيبار مونج من قبل ، ونضيف اليه من رجال الشعبة الرياضية « جان - باتست سيه » الذى أصبح من الأقطاب الدوليين فى المدرسة الحرة للاقتصاد ، ثم « جان - باتست جوزف فورييه » الذى يرجع الفضل فيما يتمتع به من شهرة أبقي الى « سلسلة معادلات فورييه » التى لولاها لاستحالت الاحصاءات التطبيقية العويصة فى عصرنا هذا .

وأما « كلود - لوى برتولليه » ، وهو أهم من اضطلع بمهمة اختيار العلماء ، فكان طبيبا قبل أن ينقطع للكيمياء . وقد دافع عن نظرية « اللاهوب » بعناد شديد رغم كشف لافوازييه ، ولكنه اعترف فى عام ١٧٨٥ بخطئه عن طيب خاطر (وتلك فضيلة نادرة بين العلماء) . ومؤلفاته فى الكيمياء التطبيقية كثيرة - لا سيما فى تحضير الألوان والأصباغ - ومقاله فى « الأستاتيك الكيمائية » أول عرض منظم لمشكلات الفيزياء الكيمائية . وعالم آخر عظيم الكفاية - بل ربما كان أعظم كفاية من برتولليه - هو « اتين جوفروا سانتيلير » ، الذى درس وهو فى الحادية والعشرين أول منهج لعلم الحيوان فى باريس . ولعله أيضا كان أول أستاذ للحيوان - والأستاذ الوحيد - الذى تنكر فى زى ضباط السجن ، وهو عمل خطير قام به فى محاولة عقيمة لانقاذ حياة أساتذته المسجونين قبيل مذابح سبتمبر ١٧٩٢ . وقد أفضت نظريات جوفروا ، التى

كانت من بعض نواحيها بشيرا بنظرية دارون ، فى ١٨٣٠ الى معركة مريرة
مثيرة - ما زالت مشهورة فى تاريخ العلوم البيولوجية - اشتبك فيها مع صديق
العمر « كوفيه » ، مؤسس علم الحفريات .

أما « نيكولا - جاك كونتيه » الذى كان يناهز الثالثة والأربعين حين أبحر
الى مصر ، فصاحب الفضل فى عملين جليلين بينهما شئ من المفارقة . فهو
أول من فكر فى استخدام البالونات لأغراض حربية ، وقد استخدمها بنجاح
فى معركة « فلورى » ، ونظم أول أورطة تنقل بالجو ، بل انه وضع خطة بعد
ذلك لغزو الجزر البريطانية بجيش ينقل بالجو . وهو كذلك مخترع أول قلم
من الجرافيت ، واستخرج براءة باختراعه كانت مورد رزق لابنائه وأحفاده .
وقد أوتى من البراعة المكنية ما يشبه السحر : فكان فى استطاعته أن يصنع
من أبسط المواد كل ما تدعو اليه الضرورة من أدوات ، ومن أدوات لصنع الأدوات
إذا اقتضى الأمر ذلك - وموهبة كهذه كانت نعمة كبرى فى مصر . وقد رأس
شعبة الميكانيكا والأستاتيكاء الجوية فى اللجنة العلمية ، يساعده فيها أحد عشر
خبيرا .

وإذا كانت سلسلة فورييه سميت كذلك نسبة لفورييه ، وقلم كونتيه
الرصاصى نسبة لكونتيه ، فان سلسلة جبال الدولوميت فى الالب الايطالية
اشتقت اسمها من خام الدولوميت ، الذى سمي نسبة لعضو آخر فى لجنة
بونابرت العلمية هو عالم المعادن « ديودا - جى - سيلفان - تانكريد جراتيه
ددولوميو » . وهو مشهور بحياته الحافلة بالمغامرات ، فضلا عما أسهم به من
إضافات فى فرع تخصصه . فلعله الوحيد بين من نعرف من علماء المعادن الذى
خلق شعر يافوخه ونصب فارسا من فرسان مالطة وهو بعد صبى فى المهد ،
وما من شك - إذا ثبت كذب هذه الرواية - فى أنه عالم المعادن الوحيد الذى
حكم عليه بالسجن المؤبد وهو فى الثامنة عشرة لقتله رجلا فى مبارزة . حدث
هذا فى عام ١٧٦٨ . وأُنقذه الرئيس الأعلى للفرسان ، وبعد ذلك خدم فترة
فى الجيش الفرنسى ، ثم استقال ليواصل دراساته العلمية .

وليس من اليسير علينا أن نتبين هل كان الكبتن « اتين - لوى مالو » ،
الضابط بفرقة المهندسين ، عضوا بالشعبة الرياضية من اللجنة العلمية أم ملحقا
بأركان حرب الجنرال كفاريللى رأسا . وأيا كان وضعه ، فهو من ألمع العلماء
الذين رافقوا الحملة . كان معينا بمدينة جيسن الألمانية - وهى مدينة جامعية
هادئة ، وعلى وشك الزواج من الأنسة كوخ ، ابنة مدير الجامعة ، حين استدعاه
كفاريللى الى باريس وألحقه بقوة الحملة ، وكان مالو يومها لا يزيد على الثالثة
والعشرين . وقد احتفظ فى مصر وسوريا بيوميات سجل فيها وجوه نشاطه
التي جعلته يتصل بالقوات المقاتلة وبزملائه العلماء . وكان من الأعمال التي

قام بها الاشراف على مستشفى الطاعون في يافا ، حيث أصيب بالمرض وعالج نفسه حتى شفى . وأهم ميادين تخصصه دراسة خواص الضوء الطبيعية . ولما عاد الى فرنسا في ١٨٠١ تزوج من الأنسة كوخ ، واكتشف مبدأ استقطاب الضوء . وأجازته الجمعية الملكية بلندن في ١٨١١ مدالية « رمفورد » - وهذا شرف يندر أن يناله عالم من أمة معادية ابان حرب شاملة . وبعد سنة مات بالسل .

أما الأطباء الملحقون بالحملة ، والذين لم يكونوا مدنيين ولا عسكريين ، فقد كتب لهم أن يلعبوا دورا لا ينسى وان كان مغموطا . وكبير الجراحين الدكتور « لاريه » ، مبتكر مستشفيات الميدان السريعة الحركة ، هو الرجل الذى وصفه نابليون في وصيته بأنه أكثر من عرف من الرجال فضيلة . وزميله الدكتور « ديجنيت » ، كبير أطباء الجيش ، أقل منه شهرة - ربما لأن استقلاله فى الرأى ونزاهته سببا للصدام بينه وبين « بطل الحملة » - كما كان كليبر يصف بونابرت تهكما - ولعل الدكتور ديجنيت هو بطل الحملة الحقبى ، على الأقل بين صفوف غير المحاربين .

ولم يسبق من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من المدنيين المبرزين بل ذوى العبقرية التى لاتنكر وسط هيئة عسكرية . وقبول هؤلاء الرجال الاشتراك فى هذه المغامرة فى ذاته اشادة بقدره بونابرت على الاقناع . بل ان تفكيره فى أن يطلب اليهم هذا الاشتراك اطلاقا دليل على اتساع بصره ، وهو يشير كذلك الى مدى طموحه . ألم يصطحب الاسكندر الأكبر الفلاسفة والعلماء حين ذهب لفتح مصر وفارس والهند ؟ لقد قرأ بونابرت وهو بعد طالب فى برين سير بلوتارخ . وكان مثال الاسكندر يداعب خياله طوال مكثه بالبلد الذى تطل عليه فيه أربعون قرنا من التاريخ . ولكن الأحلام الطموحة ، والاحساس العملى بالأمور ، كانا عنده يسيران جنبا الى جنب كما كان شأنه فى كل الأمور . لقد كان لمهمته طبيعة استعمارية بقدر طبيعتها الحربية . وكان الرجال الذين اختارهم ، حتى من برز منهم فى العلوم البحتة - باستثناء نفر قليل - يتميزون بالتفكير العملى ، وبموهبة فى التطبيقات الصناعية والمهام الادارية ، وبتعدد فى الكفايات ومرونة أرخميدية هى أنسب ما تكون لتذليل العقبات الكثيرة التى كانت أمامهم . هؤلاء ، دون غيرهم ، هم أصحاب الفضل فيما حققته الحملة من أعمال نافعة باقية على الزمن .



وصل الجنرال بونابرت وزوجته الى طولون حوالى الساعة الثامنة من صباح ٩ مايو . وكان كل شئ معدا لبحار الأسطول . صحيح أنه قبل ذلك هبت

ريح قصيرة الآمد خلال الأزمة الدبلوماسية التي أثارها الجنرال برنادوت ،
السفير الفرنسي في فينا ، والتي كادت تؤدي الى نشوب القتال مع النمسا
والتخلي عن المشروع المصري (*) . ولكن الأمر سوى تسوية سلمية ، وأصبح
في الامكان اصدار الأوامر النهائية للحملة بالابحار . وأقام بونايرت وزوجته
في مبنى الادارة البحرية . وهناك خلع الجنرال سترته الرسمية المدنية
(الفراك) بذيولها المربعة وارتدى سترة القائد . ولم يكن قد تخلى بعد عن
ضفيرته القصيرة وخصلاته الجانبية الطويلة - على الرغم من الحاح زوجته -
ليستبدل بها قصة « تيطس » القصيرة العصرية . فبدأ وكأن له وجه نسر
وتسريحة كلب اسباني . وبعد أن غير مظهره من عضو المجمع العلمي الى القائد
الأعلى ، وقف في جنوده خطيبا ، ووعد كلا منهم بأفدنته الخمسة ، وفتش على
الأسطول الذي حيته كل بارجة من بوارجه بطلقتين من مدافعها . وفي المساء
أضيئت الأنوار في مدينة طولون تكريما له .

ووصل الى طولون حوالى هذا التاريخ ٣٠٠٠٠ ر٠٠٠٠ فرنك ذهبى صرفت
من خزانة برن - باعتبارها جزءا من العتاد المقرر شحنه لمصر .

وبدا أن كل العتاد والمؤن الأخرى على أهبة الاستعداد ، على الورق على
الأقل ، وكذلك الجنود ، على أن شيئين على جانب من الأهمية أغفلا ، ربما
سهوا ، ولكن الأرجح أن سبب اغفالهما اخفاء وجهة الحملة . فلم يزود الجنود
ولا ضباطهم بل ولا قوادهم بأقل تدريب أو تعليمات على الرغم من جهلهم بعملية
النزول من السفن ، وبالحركات الحربية المتصلة به ، وبحرب الصحراء .
وأعجب من هذا ألا تتخذ العدة لتزويد الجنود بالزمميات أو العلب لحمل
الماء أثناء سيرهم في الصحراء . قال أحد المشتركين في الحملة : « كان يكفي
أن يزود كل جندي بزممية صغيرة يحمل فيها ماءه ، والملوم في هذا الاهمال
هو القائد الأعلى ، الذي كان يعلم تمام العلم الى أى بلد هو ماض بنا . وكان
هذا الارتجال واضحا في كل شيء » (٢٣) .

ومهما يكن السبب في هذا الاهمال الذي لا يغتفر ، فقد أمكن تكتم وجهة
الجيش بنجاح ملحوظ ، على الرغم من اطلاع نفر غير قليل على السر (بلغوا
أربعين في رواية كليبر) ، ومن هؤلاء الوزير المفوض البروسى في باريس ،
الذى أفضى اليه تاليران به في غير تحفظ (**) ولا بد أن نفرا أكثر قد حزروا

(*) أبى برنادوت أن ينزل العلم الجمهورى المثلث الألوان من فوق السفارة ، استجابة لشغب
أحدثه بعض الغوغاء (وكان في هذا محقا) ثم غادر فينا مهددا بالويل والثبور (وكان تصرفه
« هذا مفتقرا للدبلوماسية ») .

(**) يقول المارشال مارمون ان « شيرير » وزير الحربية لم يحط علما بالفرض من الاستعدادات
« الجارية في طولون ، ولكن هذا بعيد الاحتمال » .

وجهة الحملة : فهذا الالاح الفجائي من الجهات الرسمية في طلب المذكرات- عن شرقي البحر المتوسط ، وعناوين الكتب المختارة لمكتبة نابليون المتنقلة ، واستئجار كليبر لموظفين مصريين وسوريين ، والبحث عن المستشرقين وحروف- الطباعة العربية - كل هذا يشير بوضوح الى مصر أو سوريا . وآية ذلك أننا نجد الملازم ترمان يعرب في رسالة كتبها لوالديه في ٢٣ أبريل عن يقينه بأن وجهته هي مصر . ومنذ شهر مايو سرى نبأ المشروع الى الحكومة العثمانية . ومن عجب أن يكون موقف الحكومة البريطانية من هدف الاستعدادات الحربية- في طولون موقف الجهل الذي تمناه لها الفرنسيون ، وهي التي لم يعوزها نقلة- الأخبار في فرنسا وغيرها من بلاد القارة .

وكان « جيش انجلترا » السابق ، المركز على طول الساحل الشمالي- لفرنسا ، قد نقلت قيادته سرا الى الجنرال « كلمين » ، ولكن ذرا للرماد في- عيون الجماهير ، وفي عيون الانجليز على الاخص ، أطلق على القوات المتجمعة في- جنوبي فرنسا اسم « الجناح الأيسر لجيش انجلترا » ، واحتفظ بونايرت رسميا- بقيادة جيش انجلترا الى يوم رحيله عن فرنسا . وفي ٣١ مارس أصدرت- حكومة الادارة أمرا وهميا لبونايرت ، قصد به أن يتسرب للصحف الفرنسية- ليسير بموجبه الى برست ويتولى قيادة قوات الغزو . وكادت هذه المناورة- تقسد بسبب مقال نشرته صحيفة « البيلسست » في عدد ١١ جرمال (٣١- مارس) ، وتكهن فيه كاتبه بأن مصر قد تكون هدف الجيش . ولكن سرعان- ما صححت غلطة محرري الصحيفة فأدخلوا تصويبا في طبعة تالية : وذكروا- للقراء أن هدف الجيش هو الأرجح انجلترا أو ايرلندا .

على أن الحكومة البريطانية لم تترك شيئا للصدفة رغم عجزها عن امانة- اللثام عن وجهة بونايرت . كان هناك ولا ريب احتمال ضئيل أن يتسلل- أسطول طولون من جبل طارق وينضم الى أسطول برست في هجوم عام على- الجزر البريطانية . وكان من رأى التيمز في عددها الصادر في ٢٧ أبريل ، برغم ضالة هذا الاحتمال ، أن الأنباء الواردة عن استعدادات طولون الحربية- تشير الى غزو محتمل للبرتغال أو ايرلندا . وقد يكون هذا التكهن مجرد مثال- على قدرة التيمز التقليدية على التنبؤ ، ولكن المدهش أن نجد « بت » نفسه يكتب- للورد « مورتنجتن » في ٣١ مايو - بعد ابحار أسطول طولون باثني عشر- يوما - أن الفرنسيين سيحاولون على الأرجح تنفيذ مشروع ضخم هو غزو- ايرلندا من طولون (٢٤) .

وقد سيطرت هستيريا الغزو على انجلترا منذ اليوم الذي عاد فيه بونايرت- من ايطاليا . وطلبت الحكومة الى الشعب دفع التبرعات الاختيارية في يناير- للوفاء بنفقات الحرب الاضافية . فلما سارت التبرعات سيرا بطيئا تبرع جورج

«الثالث نفسه - برغم سلامة عقله آنثد - بثلت ايراده الخاص ، والوزراء - بخمس كامل ، من ايرادهم . وأمر « بت » - رغبة في ارشاد زملائه - بأن يجمع «ويطبع » تقرير عن الترتيبات التي تمت للدفاع الداخلى عن هذه الممالك ، حين قصدت أسبانيا غزو انجلترا وفتحها بأسطولها الأرمادا ، وتطبيق الاجراءات الحكيمة التي لجأ اليها أسلافنا على الأزمة الراهنة التي يتعرض لها السلام العام » (٢٥) . واشتملت الاجراءات التي أوصى بها السكان في حالة الغزو على تشييد حصون خشبية في كل ميدان من ميادين لندن ، واقامة متاريس في كل شارع ، وخزن القنابل اليدوية في كل بيت على ناصية ، ووضع أجراس التنبيه وسط كل شارع ، وعلى أن يطرد من البلاد جميع الأجانب المؤذنين ، « وألا يسمح بالبقاء لأى خدم أجانب ، ذكورا أو اناثا » ، (وهو اجراء لو اتخذ في أيامنا هذه لأصاب لندن بالشلل في لحظة) ، واجراء آخر يتميز بالوطنية الحادة ، وهو « أن يودع المسجونون سجوننا من السفن ، في بقاع تسهل السيطرة عليها ، بحيث يمكن ابادتهم فورا في الحالات الضرورية دفاعا عن البلاد » (٢٦) . وكانت التلغرافات التي تستخدم السيمافورات قد أقيمت على طول الساحل ، وأنشئت محطات للتلغراف في مقر البحرية وعلى قمة برج من أبراج كنيسة وستمنستر . وزيادة في الحرص ، الذي دفع اليه ما رآته الحكومة من أن انجلترا حافلة بعدد كبير من أصحاب المبادئ الهدامة - أجانب ووطنيين - والراديكاليين والمتعاطفين مع الفرنسيين ، بعثت الحكومة « قانون الأجانب » من مرقد ، وأوقفت العمل بقانون « هابيس كوربس » ، بل لقد اقترح بعضهم أن يلزم البريطانيون بحلف يمين الولاء للملك « للكشف عن المصلحين » الذين يسعون الى الثورة (٢٧) . وانتشر المتطوعون في وحدات الميليشيا في طول البلاد وعرضها رغم المخاطر التي ينطوى عليها تسليح هؤلاء المدنيين الذين لا يركن اليهم اطلاقا . وآية ذلك أن المتطوعين في مدينة باث اجتمعوا يوم ٣ مايو وقرروا أن يتألف زعيم العسكرى من « سترة قرمزية ، بياقة وقلابات سوداء ، وصدره بيضاء ، وسراويل زرقاء بحاشية حمراء » (٢٨) . ووضح اذن أن انجلترا كانت على استعداد لاستقبال الأسطول الفرنسى . أما مبلغ الصدق والاخلاص في توقع الحكومة هجوما فرنسيا فلا يعرف على وجه اليقين ، ولكن المؤكد أن الدعوة الواسعة لهذا الخطر أتاحت لوليم « بت » وزملائه أن يجمعوا التبرعات الكبيرة ويرهبوا المعارضة الليبرالية .

على أن الاحتياطات التي اتخذتها البحرية الانجليزية كانت عملية أكثر من الاستعدادات الحربية التي اتخذتها للدفاع عن أرض الوطن ، وذلك على الرغم من أنها أقل زهوا واعلانا عن نفسها . ففي ٢ مايو ١٧٩٨ أبلغ وزير البحرية البريطانية ، الايرل سبنسر ، الأميرال جرفس الذي منح قبيل ذلك لقب « ايرل سانت فنسنت » قراره أن يرسل أسطولا الى البحر المتوسط . وكان سانت

فنسنت وقتها يضرب حصارا على قادس التي حبس في مياها شطر من الأسطول الفرنسي ، وأخبره أنه سيرسل اليه مددا من ثمانى بوارج يتيح له مواصلة الحصار . كتب يقول : « اذا أبلغت أن مصير أوربا فى هذه اللحظة رهين بظهور أسطول بريطانى فى البحر المتوسط لم يدهشك ميلنا لبذل كل طاقة والمغامرة بكل شيء فى هذا السبيل » . فاذا قرر سانت فنسنت ألا يقود بنفسه أسطول البحر المتوسط فان البحرية توصى بأن توكل هذه المهمة الى الأميرال السر « هوراشيو نلسن » ، الذى تزكيه معرفته بهذا القسم من العالم ، كما يزكيه نشاطه واستعداده ، تزكية قوية للقيام بهذه المهمة (٢٩) .

وكان اللورد سانت فنسنت متفقا فى هذا مع اللورد سبنسر قلبا وقالبا ، بحيث أنه استبقى تعليمات رئيسه بضرب من توارد الخواطر . ففى ٢ مايو ، وهو اليوم الذى كتب فيه سبنسر رسالته ، أبحر الأميرال نلسن من أمام قادس بثلاث بوارج وفرقاطتين وسفينة صغيرة (سلوب) يحمل أوامر بالاتجاه الى طولون وجمع المعلومات عن الاستعدادات الحربية الفرنسية .

أما هوراشيو نلسن ، الذى كان يناهز الأربعين ، فقد خدم البحرية منذ الثانية عشرة من عمره ، وعمل فى جزر الهند الغربية وفى الشرق الأقصى ، وفى البحار القطبية ، وفى البحر المتوسط ، وقاد سفنا منذ كان فى العشرين ، وفقد عينه اليمنى فى القتال . وكان قد تماثل لتوه من فقد ذراعه اليمنى ، وهو حادث وقع له قبل ذلك بعام أثناء هجوم عنيد فاشل شنه على جزر كناريا . وبعد أن قضى فترة نقاهة طويلة فى إنجلترا ، تاق للعودة الى الخدمة العاملة . ولعله فى طموحه وتعطشه للمجد كان أشد غلوا واندفاعا من بونابرت ، وإن اختلف عنه فى طريقته اختلافا تاما . وحمله كرهه للشعب الفرنسى عامة وللثورة الفرنسية خاصة ، هذا الكره الذى كاد يبلغ عنده مبلغ المرض ، على أن يعد نفسه مبعوث العناية الالهية لعقابهما . قال أحد ضباطه عنه : « كان يمقت جميع الفرنسيين مقتا يحملنى على الاعتقاد بأنه كان يراهم كلهم فى كل وقت تقريبا فاسدين جسدا ونفسا » (٣٠) وفى وسعنا أن نضيف - دون النيل من مجده - أنه كان يزعم أن له صلة حميمة جدا بالاله العلى القدير ، الذى كان ينسب اليه والى مرعوسيه شاكرا ، الفضل فى ما أصاب من نجاح . وقد فاق تواضعه هنا تواضع بونابرت ، الذى كان ينسب كل الفضل لنفسه .

وبعد أن غادر نلسن سبتهيد على الباخرة الانجليزية فانجارد فى ١٠ أبريل ، وصل تجاه قادس فى نهاية الشهر ، ومن هناك أرسله سانت فنسنت على عجل الى البحر المتوسط . وكان أسطوله الصغير فى خليج ليون حين قبض فى ١٧ مايو على سفينة حربية فرنسية ، وعلم نلسن من استجواب بحارتها أن ثلاث عشرة بارجة فرنسية على استعداد للاقلاع من طولون . وقد سبب الجو العاصف،

الذى لقي منه الجنود الفرنسيون فى القوافل عنتا شديدا فى ١٩ ، ٢٠ مايو ،
للأميرال نلسن عنتا أشد . وبدلا من أن يتمكن نلسن من مراقبة الأسطول
الفرنسى نجى بجلده من كارثة كادت تحطم سفينته فانجارد بعد أن نزعت
قلوعها . وكانت هذه بداية سلسلة من المعاكسات التى منى بها نلسن فى
الأسابيع العشرة التالية . كتب نلسن يقول انه على الرغم من هذا استطاعت
سفنه الحربية بفضل العلى القدير ، وهمة الكابتن سوماريز والكابتن بول .
أن تصل سالمة أمام جزيرة سان بيتر وحدى جزر ساردينيا ، وأصلح ما أصابها
من عطب فى أربعة أيام . وما وافى ٢٧ مايو حتى عاود موقفه تجاه طولون بعد
تسلل طريدته بثمانية أيام . ولم تلحق به الأمداد الا فى ٧ يونيو - وكانت
حدى عشرة بارجة أرسلها له اللورد سانت فنسنت - ولولاها لما استطاع
نلسن أن يفعل شيئا ليعطل أسطول بروى ببوارجه الثلاثة عشر . على أن نلسن
لسوء حظه فقد فرقاطتيه وسفينته الصغيرة فى العاصفة . وكان قائدها الكابتن
هوب قد أخذها الى جبل طارق ظنا منه أن نلسن سيضطر لاصلاح سفينته
حاملة العلم هناك ، بدلا من أن يلحق بنلسن تجاه طولون . ومهزلة الأخطاء
التي تلت هذا الحادث ترجع الى حد كبير لغياب الفرقاطتين ، فقد تعذر بدونهما
على الأسطول الانجليزى أن يستطلع الطريق الذى اتخذته الفرنسيون (*) .

وبهذه البوارج الثلاث عشرة ، وقوة كل منها أربعة وسبعون مدفعا عدا
واحدة قوتها خمسون ، تعادل الأسطول البريطانى تقريبا مع الأسطول الفرنسى
فى القوة الضاربة ، ولكنه كان يبرزه فى غير ذلك من وجوه . وكانت التعليمات
الصادرة للأميرال نلسن واضحة لا لبس فيها : فهى تقضى بأن يعثر على الأسطول
الفرنسى ، وأن يمنعه بأى ثمة من القيام بأى حركة صوب الغرب ، ويطارده ،
ويدمره . على أن الصعوبة كانت فى العثور على هذا الأسطول .

(*) كانت السفينة الخفيفة « لاموتين » التى يقودها الكابتن هاردى ، والتي لحقت بنلسن
فى ٥ مايو بتعليمات من اللورد سانت فنسنت ، بدلا غير كفء للفرقاطتين العنيدتين .

الفصل الثانى

الى الاسكندرية

١

لعل اللورد سبنسر كان على صواب حين كتب الى اللورد سانت فنسنت أن مصير أوربا يتوقف على وجود الأسطول الانجليزى فى البحر المتوسط ، ولكن ليس بالمعنى الذى قصده تماما . ذلك أنه لولا تعطل الأسطول الفرنسى خلال المرحلة الأولى من عبوره البحر لبطء ناقلاته وصعوبة الاتصال بقوافله الثلاثة الأخرى ، ولو وصل الى مالطة وغادرها قبل أن يغادرها فعلا بيومين ، لباده الأميرال نلسن - بوارج وناقلات وجندا - أمام الاسكندرية حوالى ٢٨ يونيو ، بل لو أبطأ أكثر من هذا فاستغرق يوما أو يومين أكثر مما استغرق فى الوصول الى مالطة ، لوقع ما وقع على الأرجح تجاه مالطة حوالى ٢٠ يونيو . ولو حدث هذا الالتحام فى ٢٢ يونيو ، حين كان الأسطولان على أميال قليلة أحدهما من الآخر ، نهارا لا ليلا ، لدمر نلسن الأسطول الفرنسى بدلا من أن يلحق به وهو لا يدري . ولو كان نلسن رجلا أكسل مما كان فطارده فى شىء من الهوادة لوقع نفس الشىء . كذلك لو أن فرسان مالطة جروا على تقليدهم المجيد بدلا من الاستسلام للفرنسيين كما تستسلم عذراء فى تمنع غير كثير ، لاستطاعوا أن يدافعوا عن حصنهم المنيع حقا الى أن يروا محاصريهم وقد دحروهم الأسطول الانجليزى . أما أن شيئا من هذا لم يقع ، وأن بونابرت استطاع أن يفتح مالطة دون أن يضرب ضربة واحدة تقريبا وأن ينزل قواته قرب الاسكندرية دون تدخل ، فلم يكن مرده الى تخطيط أو تدبير ، بل الى تفاعل الأخطاء فى التقدير من الجانبين تفاعلا غير متوقع ، والى نتائج السلوك الانسانى وآثاره المصادفة . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن بونابرت كان محظوظا . وهو أول من

اعترف بهذه الحقيقة . أو لعل « أبناء الشيطان محظوظون كالشيطان » (١) على حد قول نلسن وهو ينظر الى تقلبات الحرب نظرتة اللاهوتية . وبالطبع كان نلسن يسمى الحظ - حين يكون في جانبه - « العناية الالهية » .

ولو كانت العناية الالهية قد تغلبت على الحظ الشيطاني وعثر نلسن على الفرنسيين قبل نزولهم بمصر أو أثناءه ، لما أصبح الجنرال بونابرت قط قنصلا أو امبراطورا . ولأصبح التاريخ بلا ريب مختلفا تمام الاختلاف عما كانه فعلا مدى ربع قرن على الأقل . أجل ، ولما كان هناك قوس نصر في باريس ، ولا ميدان ترافلجار في لندن ، ولا حريق في موسكو ولا واشنطن . ومع ذلك فالقول بأن هذه الأشياء توقفت على وجود الأسطول البريطاني في البحر المتوسط بين ١٩ مايو و ٣٠ يونيو ١٧٩٨ أقل صدقا من القول بأنها توقفت على الحظ . والزعم بأن مصير أوربا تأثر بالنتيجة يبدو على الدوام ضربا من المبالغة . ولعل بضعة ملايين من الأرواح كانت أعفيت من أن تزحق دون داع قبل أوانها . هذا كل ما في الأمر . والحق أن مصير هذه الملايين قررتة لعبة « الاستغماية » التي كان يلعبها الأميرال نلسن والجنرال بونابرت وهما لا يدريان عبر مساحات شاسعة من مياه البحر المتوسط غير المكترث لشيء .

٢

ورد على لسان بونابرت وهو يروي قصة الحملتين المصرية والسورية التي أملاها في سانت هيلانه هذه العبارة المأثورة عن استيلاء الفرنسيين على مالطة : « استوثق نابليون من أنه يستطيع المغامرة ، ثم غامر » (٢) . والواقع أنه استوثق من نجاح المغامرة أكثر مما اعترف به .

أسست « طريقة فرسان القديس يوحنا الاسبتارية الأورشليميين » وهم المعروفون باسم فرسان مالطة ، في الأراضي المقدسة منذ تسعة قرون تقريبا ، في أثناء الحرب الصليبية الأولى . وبعد أن كانوا أول أمرهم جماعة مفككة غرضها حماية الحجاج والعناية بالمرضى ، شكل منهم البابا بسكال الثاني في عام ١١١٣ طريقة دينية اتخذت طابعا حربيا متزايدا ، وكونت سلاحا من صفوة المحاربين الصليبيين في كفاحهم الخاسر ضد المسلمين . وفي عام ١١٨٧ سقطت أورشليم في يد السلطان صلاح الدين ، ولكن فرسان الاسبتارية ظلوا يقاومون في حصونهم قرنا آخر . وفي عام ١٢٧١ سقط « حصن الأكراد » Krak des Chevaliers الذي ما زالت قوته الضخمة تدهش زوار الأردن الى يومنا هذا ، أما آخر حصونهم عكا ، التي قدر لها أن تقف عقبة كؤودا في طريق مطامع نابليون ، فقد قاومت حتى عام ١٢٩١ . وأخيرا استقر المقام بالفرسان في جزيرة رودس ، فأحالوها حصنا منيعا واصلوا منه قتال المسلمين

بأعمال القرصنة فى البحر • وكان التجار المسلمون يرهبون منظر الصليب المثلث على قلوب سفن الفرسان كما يرهّب تجار غربى الهند منظر الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين • و « أهمل الفرسان الحياة فى خدمة المسيح ، ولكنهم تهيأوا للموت فى هذه الخدمة » على حد قول جيون • والواقع أن الثروة الطائلة التى جمعوها من هذه القرصنة الدينية ، والقديات التى كانوا يأخذونها لاطلاق سراح أسراهم ، وتسخيرهم الأسرى عبيدا على مراكبهم ، كل هذا كان أشبه بأساليب قرصان البربر منه بالأساليب التى أوصت بها الموعظة على الجبل •

وفى أواخر عام ١٥٢٢ أنزل السلطان سليمان القانونى جيشا فى الجزيرة وحاصر مدينة رودس • وقاوم المدافعون عن الجزيرة عدة شهور تحت قيادة رئيسهم الأكبر « فلييه دليل - آدم » الباسلة ، ولكنهم أكرهوا فى النهاية على التسليم • فساروا الى مراكبهم وسط عاصفة ثلجية عنيفة تحت أنظار القوات التركية ، محتفظين بأسلحتهم ، وخلفهم رتل طويل من العربات المحملة بكنوزهم وسجلاتهم ، طريدين منفيين مرة أخرى • وسرعان ما ندم سليمان على سماحته هذه • ذلك أن الامبراطور شارل الخامس منح الفرسان - بوصفه ملكا على صقلية - جزيرة مالطة خالصا لهم فى عام ١٥٣٠ • ويبدو أن شارل لم يدرك الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة الصغيرة التى استطاعت سفن الفرسان أن تسيطر منها على كل تجارة شرقى البحر المتوسط أو على الأقل تهددها • فلما أدرك سليمان هذا هاجم مالطة فى عام ١٥٦٥ بكل ما يملك ، وبعد أن فقد ٣٠٠٠٠ من الأتراك حياتهم خلال خمسة أشهر قرر سليمان أن يرفع الحصار عن الجزيرة • وبعد ٢٣٣ عاما استولى الجنرال بونايرت على مالطة فى يوم واحد ، ولم يقتل من رجاله فى هذه العملية سوى ثلاثة •

وتفسير نابليون لنجاحه موجز العبارة صادق فى جوهره • فقد كتب يقول ان طريقة فرسان القديس يوحنا الأورشليميين ، « استنفدت غرضها ، وقد سقطت لأنها كان يجب أن تسقط » (٣) •

لقد ظل فرسان مالطة أكثر من قرن من الزمان بعد انتصارهم على سليمان القانونى يرهبون سفن المسلمين • فأغرقوا من السفن التركية والبربرية ، وأسروا من العبيد ، وأصابوا من الغنائم والأسلاب ، أكثر مما فعل أى شعب مسيحي آخر فى البحر المتوسط • على أن الشئون الأوربية اتجهت فى أوائل القرن الثامن عشر - لسوء حظ فرسان الطريقة - اتجاها بدت معه الحرب الدائمة على المسلمين شذوذا تاريخيا لا يتفق مع العصر • فقد أصبحت الدولة العثمانية دولة محترمة ، وباتت القرصنة الصليبية عملا حقيرا • صحيح أن رد الصاع صاعين لقراصنة البربر (*) كان لا يزال عملا مجزيا ، وأن الفرسان

(*) تعبير خاطئ من وجهة نظر المؤرخين الغربيين • فالقرصنة من جانب المسلمين فى شمال إفريقيا كانت أسلوبا من أساليب الدفاع ضد محاولات الغزو الأوربى لشمال إفريقيا - (المترجم)

استمروا فى القيام بمهمة البوليس فى البحر المتوسط ضدهم ، ولكنهم اتجهوا أيضا الى التجارة تعويضا عما أصابهم من عجز فى الموارد .

وكانت طريقة الفرسان فى أوائل عهد الثورة الفرنسية قد سارت فى الانحلال شوطا بعيدا وان ظلت مالطة نفسها ، الحكومة بنظام أبوى رفيق ، واحة من الرخاء فى جنوبى البحر المتوسط . وانكمش عدد الفرسان القائمين بالخدمة العاملة أو المقيمين بمالطة انكماشاً شديداً . وكان أكثر من نصفهم دائما فرنسيين ، فلب بينهم عنصر جديد من عناصر الشقاق بسبب تضارب مواقفهم من الثورة . وعانى الفرسان الموجودون من آثار البطالة المزمنة ، ولم يكن أمامهم ما يشغلون به وقتهم سوى التفرغ لتحليلاتهم ودس الدسائس والمؤامرات بعضهم لبعض .

اذن لم تعد هذه الطريقة الدينية تحقق الهدف الذى قامت لأجله كما قال نابليون ، ولكن الجزيرة لم تفقد شيئا من قيمتها الاستراتيجية . ووضعت فرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا عيونها عليها . وفى يناير ١٧٩٧ وضع القيصر بول الاول الطريقة تحت حمايته الشخصية ، وكان رجلا غريب الأطوار يعد نفسه البطل المدافع عن العالم المسيحى . وأفزعت هذه الخطوة حكومات أوروبا . وبدأ أنه من توضحية تغلو فى سبيل الحيلولة دون كسب روسيا لهذه القاعدة فى البحر المتوسط - ولو بلغت بذل الجهد للاستيلاء على الجزيرة . وكان فى خطر النفوذ الروسى ، وفى انتخاب المانى هو البارون فون هومبش رئيسا جديدا للطريقة فى يوليو ١٧٩٧ ، ما أقنع بوناپرت بأن العمل السريع ضرورة لا محيص عنها لهزيمة روسيا والنمسا . ووافقت الادارة على آراء بوناپرت وأطلقت يده فى الأمر .

ورغبة فى التثبت من أنه يستطيع القيام بهذه المغامرة ، أنفذ مبعوثين الى مالطة فى أواخر ديسمبر ١٧٩٧ . ونزل أولهما ، وهو مالطى ، الى البر سرا تحت جنح الظلام : وكانت مهمته هى التجسس الحالى . أما الثانى ، الموفد فى عمل رسمى ، فهو المواطن بوسيبيلج نفسه الذى أصبح بعد أربعة شهور المراقب العام لحملة بوناپرت (*) وكان له بمالطة صلة طيبة ، لأن أحد أبناء عمومته كان الحارس على ثغر فاليتا . وفى الشهور الأربعة التى مكثها بالجزيرة جس نبض الفرسان الفرنسيين ، فوجد بينهم حفنة من أصدقاء الجمهورية الفرنسية ، نخص بالذكر منهم « بوريدون درانسيجا » وزير مالية الطريقة ،

(*) الذى حدث فعلا أن بوناپرت - بعد أن تقلد قيادة جيش انجلترا - أمر أخاه جوزف ، السفير الفرنسى فى روما ، بأن يصدر لبوسيبيلج تعليمات بإلغاء مهمته فى مالطة ؛ ولكن رسالة جوزف لبوسيبيلج ، التى كتبها فى ١٦ ديسمبر ، لم تصله ، وكان قد انطلق فى طريقه لمالطة - وهذا خطأ تبين أنه من حظ بوناپرت .

و « فيه » مدير حصونها • وكتب بوسيلج في تقريره أن باقى الفرسان ، بما فيهم رئيس الطريقة الأكبر ، سيقاومون كل محاولة للغزو ما لم يكفل لهم التعويض المناسب • فالحاجة اذن للدبلوماسية لا لقوة السلاح • كذلك فاتح بوسيلج ، بشئ من التوفيق ، عدة موظفين فى خدمة الطريقة ، واثنين على الأقل من المواطنين الفرنسيين من غير الموظفين فى مالطة • وفى ٥ مارس ، أركب الاميرال بروى ، القادم بأسطوله من كورفو ، بوسيلج والجاسوس المالطى مركبه ومضى بهما الى طولون •



لاحت فى الأفق من بعيد أمام مالطة فى ٦ يونيو سفن القافلة الفرنسية القادمة من شفييتافيكيا ، وفى ٩ منه لحق بها الأسطول الرئيسى • وكان منظر السفن الأربعمئة رهيبا ، كتب شاهد عيان فى وصفه يقول : « لم تر مالطة قط مثل هذا الأسطول الهائل فى مياهها • فقد غطت البحر على مدى أميال سفن من جميع الأحجام تشبه قلعها الغابة الضخمة » (٤) •

أما خطة بونابرت فهى غاية فى البساطة • سيطلب الاذن من الرئيس الأكبر بأن يتزود الأسطول الفرنسى بالماء ، وسينزل جنوده - سواء أذن لهم أو لم يؤذن - شمالى فاليتا وجنوبها وعلى جزيرة جوزو المجاورة ، ويحاصر فاليتا ، وينتظر الفرسان • وسيطمئن الفرنسيون سكان الجزيرة الى أنهم أتوا مسالمين ، وأنهم سيحترمون ملكياتهم ودينهم • وليس فى الأوامر التى أصدرها بونابرت وبرتييه بين ٦ و ٩ يونيو ما يشير الى توقع الاشتباك فى قتال •

وفى ساعة متأخرة من مساء ٩ يونيو سلم ردفون هومبش الى بونابرت : وخلاصته أنه لا يسمح بالدخول لأكثر من أربع سفن فى وقت واحد • وتظاهر بونابرت بالسخط على بخل فرسان الاسبتارية الشديد ، وأبلغ فون هومبش « أن الجنرال بونابرت سيأخذ عنوة ما كان ينبغى أن يعطاه طواعية » (٥) ، وما وافت الساعة العاشرة مساء حتى أصدر أوامره النهائية بالنزول الى بر الجزيرة • وفى أقل من أربع وعشرين ساعة سقطت فى يد الفرنسيين كل مالطة وجوزو عدا فاليتا وغيرها من « المدن » المحصنة على جانبي الميناء الكبير •

ولقى الفرنسيون بعض المقاومة ، لا سيما فى جوزو ، الأمر الذى أدهش بونابرت • فقد أطلقت بعض المدافع ، بل ان الجنود المالطيين النظاميين والمتطوعين ، فى بعض المواقع ، أفرغوا بنادقهم فى الفرنسيين قبل أن يلقوها تخففا منها أثناء تقهقرهم • وقد اغتاط الجنرال من هذا الذى سماه بورين « سوء فهم » ولام عليه بوسيلج • وبعد أن أنفق بضعة ساعات على أرض الجزيرة عاد الى بارجته « لوريان » ومضى الى فراشه •

أما فى جوزو فقد تسلىق الفرنسيون وسائل الدفاع المحلية وهم ينشدون.
المارسيليز كما جاء فى مذكرات الكابتن فرترى ، وكان وقتها ملازما فى نصف.
اللواء التاسع . وترك نفر قليل من الفرسان أنفسهم يؤسرون ، أما المدافعون.
المالطيون فقد أسعدهم - كما أسعد الفرسان - أن يستسلموا بعد مقاومة
ضعيفة ويقبلوا أيدي المنتصرين عليهم . ويقول فرترى ان الفرنسيين والمالطيين.
بدأوا يتآخون لتوهم ، أما صول التعيين فرانسوا ، وهو أيضا من رجال نصف
اللواء التاسع ، فيقول ان « جزيرة جوزو نهبت عن آخرها بعد أن أخلى السكان
بيوتهم » (٦) . ولعل العبارتين صادقتان ، فكان فرترى يتآخى بينما فرانسوا
ينهب .

وفى فالييتا عم الاضطراب والفرع فى هذه الأثناء بين صفوف الفرسان.
والمالطيين على السواء . فالنساء ينحن ويولولن فى بيوتهن ، والقديسون يحملون.
فى مواكب تخترق الشوارع ، والرئيس الأكبر فون هومبش يتفق اليوم مع
مجلس الفرسان فى مناقشة العمل الذى ينبغى أن يقوموا به . ولم يساعد عمل
من هذه الأعمال كلها مساعدة مادية فى الدفاع عن فالييتا ، وهى مدينة سميت
باسم الرئيس الأكبر جان دلافاليت ، الذى قاومت تحت قيادته جيش سليمان.
القانونى خمسة أشهر .

وكان لدى فون هومبش من الانذارات بقرب الهجوم على الجزيرة مايكفى .
قبل قدوم الفرنسيين بفترة طويلة . ولكنه اذ كان رجلا ضعيفا كثير التردد
- على الرغم من ألقاب الشرف الستة عشر التى يحملها ، وسترته المدرعة الأنيقة
التى أمر بأن يصور وهو يرتديها - لم يصنع شيئا استعدادا لهذا الهجوم .
لقد كان فى فالييتا من المؤن ما يمكنها من مقاومة الحصار أربعة أشهر ، ولكن
أسباب الدفاع كانت ضعيفة . فالمدافع ، وعددها ألف تقريبا ، لم تستعمل
منذ قرن من الزمان الا للتحية ، وذخيرة البارود تلتفت ، والمليشيا المالطية
(المؤلف من نحو ١٠ر٠٠٠ رجل) لا تبدى روحا عسكرية عالية . فقد قالوا
انهم لا يخافون الترك ، أما الفرنسيون فليلهم انهم شياطين ، ومن ذا الذى
لا يخاف الشياطين ؟ وهو منطق يدل على أن الدعاية كثيرا ما ترتد فتصيب
أصحابها . وكان هناك حامية وطنية من نحو ١ر٥٠٠ رجل لا تكاد تكفى لتشغيل
١٠٠٠ مدفع . أما الفرسان فكان عددهم فى مالطة ٣٣٢ فارسا بالضبط ، ومن
هؤلاء خمسون عاجزون عن القتال لشيخوختهم أو مرضهم . أما الباقون وعددهم
٢٧٢ فلم يبدوا - الا نفر قليل منهم - أثرا ولو ضئيلا من روح « فلييه دليل -
آدم » أو روح « جان دلافاليت » العالية . وفى ١٠ يونيو هرب منهم كثيرون.
تاركين جند المليشيا الذين كان مفروضا أنهم يقودونهم ، وقيل ان اثنين منهم
أطلق جندهما عليهما النار لهروبهما .

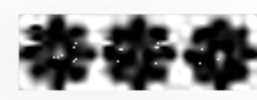
وكان مائتان من الفرسان فرنسيين . وقد أصبح الاعتماد على ولائهم أمرا مشكوكا فيه في صبيحة ١٠ يونيو حين أبلغ بوريدون درانسجا المجلس انه لن يقاتل بنى وطنه ، وقدم استقالته من وزارة مالية الفرسان . وفقت رسالته في عضد الرئيس الأكبر ، الذي كان كل ما عمله في هذا اليوم الفاصل هو القبض على وزير المالية . وانهالت على حجرة المجلس روايات متضاربة عن حوادث العنف التي قام بها الغوغاء . وعن فرسان قتك بهم المالطيون ، وعن كميات من الأسلحة المخفاة يوزعها على الأهالي عملاء فرنسيون متنكرون في زي اليونانيين . وعمت الفوضى المدينة على صغرها . وفي المساء سمح لوفد من كبار الأشراف والمواطنين المالطيين بالدخول الى قاعة المجلس ، فالتمس من فون هومبش أن يضع حدا لمقاومة لا غناء فيها .

وما من شك في أن طابورا خامسا من الفرسان والموظفين الناقمين كان موجودا داخل أسوار فاليتا . على أنهم كانوا نفرا قليلا ، ولو اتخذ اجراء نشيط لشل حركتهم . بيد أن قوة الطوابير الخامسة ليست في عددها بقدر ما هي في الخوف والفرع الغامض اللذين تبثهما . ولا شيء يخدم أهداف الخونة كالصيحات التي تردد كلمة «الخيانة» ! ومن جهة أخرى لا شيء أوفق للزاهدين في القتال من أن يزعموا أنهم ضحية الخيانة . ومن المسلم به أن الفرسان ما كانوا يستطيعوا المقاومة طويلا ، ولكنهم كانوا يستطيعون بسهولة أن يقاوموا أسبوعين . وكان في هذه المقاومة ، على أسوأ الفروض ، انقاذ لشرفهم ، وعلى أحسنها تمكين الأسطول البريطاني من رفع الحصار عن مالطة وتدمير القوات الفرنسية .

كان فون هومبش يجهل أنه في ٩ يونيو ، وهو اليوم الذي التقت فيه القافلتان الفرنسيتان أمام فاليتا ، بدأ الأميرال نلسن ببوارجه الأربع عشرة مطاردته للأسطول الفرنسي ، وأنه بعد أسبوعين سيكون على مقربة من مالطة ، لا بل ان الجنرال بونابرت كان يجهل هذه الحقيقة ، وقصارى ما علمه أن نلسن في مكان ما بالبحر المتوسط ومعه ثلاث بوارج ، ولكنه لم يعرف بعد شيئا عن الأمداد التي عزز بها الأسطول البريطاني . ولو عرف لما أنفق أسبوعا في مالطة . وكان من نتيجة جهل هومبش بهذه الحقيقة وضعف عزيمته ، مضافا اليهما الفوضى التي أحدثتها حفة من الرجال الساخطين ، أن استقر الرأي في الساعات الباكرة من صباح ١١ يونيو على طلب الهدنة . وهكذا توقف مجرى التاريخ الحديث ، مدى أربع وعشرين ساعة ، على ٣٠٠ رجل من الرهبان المحاربين ، ومن المخلقات النادرة لعصر الحروب الصليبية . ولو ظلت قلوبهم عتيقة كنظمهم لقاتلوا كما قاتل أسلافهم من قبل دون نظر الى العواقب . ولكن قلوبهم كانت عصرية . فبدت المقاومة في نظرهم حركة عقيمة ، والتسليم يتيح الأمل في التعويض المادي . أما الماليك ، الذين حاربهم الفرسان قبل

خمسة قرون ، والذين قاتلهم بونابرت بعد خمسة أسابيع ، فلم تبد عليهم
أمارات العصرية التي أبداهم الفرسان .

وأثار سقوط مالطة عاصفة من التراشق بالتهمة . فاتهم هومبش نفسه
بأنه ارتشى سلفا ، وبأنه انما كان يتظاهر بالمقاومة ، وهي اشاعة دعمتها ثقة
بونابرت بأنه يستطيع الاستيلاء على مالطة دون ضربة واحدة . على أنه ليس
هناك دليل يؤيد هذا الرأي . ويكاد يكون من المؤكد أن هومبش لم يرش
سلفا ، ولكنه كان شديد الرغبة في أن تقصر الرشوة من مقاومته ، وقد علم
بونابرت هذا سلفا . وهكذا استوثق من أنه يستطيع المغامرة بفتح الجزيرة .



ارتقى رسول موفد من قبل رئيس الفرسان الأكبر درجات السلم الاثنتين
والثلاثين الى ظهر البارجة لوريان في صبيحة ١١ يونيو وسلم خطابين - أحدهما
لبونابرت بطلب الهدنة ، والآخر للجيولوجي دولوميو يرجوه أن يستخدم
وساطته لصالح الطريقة التي كان ينتمى اليها في يوم من الأيام . وكلف
بونابرت دولوميو (وهو كاره لهذا الدور المزدوج الذي فرض عليه فرضا) ،
وبوسييلج ، وياوره جونو ، بأن ينزلوا الى البر ويجتمعوا بهومبش . وعانق
هومبش المارق دولوميو الذي كان وحده الآن معقد أمله ، ووقعت هدنة لأربع
وعشرين ساعة الى أن تتم مفاوضات التسليم . وفي منتصف الليل وصل رسل
الرئيس الأكبر الى السفينة لوريان ، وكان منهم بوريدون درانسيجا الذي أطلق
سراحه . وأوقف بونابرت من نومه ؟ وبعد نصف ساعة كانت المهادنة قد
حررت ووقعت . وبمقتضاها سلمت مالطة للجمهورية الفرنسية ، وتعهدت
فرنسا باستخدام نفوذها في الحصول على امارة ألمانية لهومبش ، وبأن تدفع
له في الوقت نفسه معاشا سنويا قدره ٢٠٠٠٠ فرنك ، أما الفرسان الآخرون
فيتسلم كل منهم معاشا يتفاوت بين ٧٠٠ و ١٠٠٠ فرنك حسب تفاوت
أعمارهم .

ونزل بونابرت الى بر فالتى في ١٢ يونيو ، واستقبله وفد من مؤيديه
بين الفرسان . وقال له الجنرال كفاريللي الذي كان يرافقه : « اننا محظوظون
لأننا على الأقل وجدنا من يفتح لنا الأبواب » (٧) .

واستقبل الفرسان الاسبتارية الفرنسيين بحفاوة كادت تتجاوز الحدود
بعد أن تنفسوا الصعداء لأنه لم يعد يطلب اليهم أن يسلكوا مسلك الأبطال .
قال الملازم ديفيرنوا من ضباط فرقة الفرسان الفرنسية « لقد أغرقونا بسيل
دافق من الرعاية والمجاملة . ولا يدهشك صبرهم على العزوبة التي تفرضها
عليهم أحكام طريقتهم ، لأن لمعظمهم خليات يستهوين الأبواب بحسنهن وظرفهن

ولا يبدى الفرسان أى غيرة عليهن ، . (٨) ولم تشتهر مألطة بجمال نسائها فحسب ، بل ان فى وسع عاصمتها أن تفخر بنسبة من المتسكعين فى الشوارع تفوق نسبتهم فى أى مدينة أوربية . وراح الفرنسيون - وهم ممتنون لهروبهم هنيهة من سفنهم المكتظة - يفيدون من آخر فرصة أتاحت لهم خلال ثلاث سنوات لمغازلة نساء مسيحيات يستطيعون فهم لغتهن عموما . أما الذين لم يشتغلوا بمطاردة النساء فكانوا يضربون فى الشوارع التى كانت غاية فى النظافة والترتيب ، ويفكرون فى الحسان الدعجاوات المتواريات خلف شرفاتهم المشبكة أو المرتديات أثوابهن الفضفاضة ، أو ينعمون بأكل البرتقال اللذيذ يقطعونه من الحدائق والبساتين ، وهو أول طعام طازج أكلوه منذ ثلاثة أسابيع ، على أن الذين نزلوا الى البر لم يكونوا سوى نسبة صغيرة من الجنود ، وقد صدرت الأوامر لمعظمهم بالعودة الى سفنهم فى ١٤ يونيو .

وبينما أقبل جنود الجنرال بونابرت وبجارتة على مختلف الأعمال الصغيرة والرياضات ، توفر هو على القيام بالأعمال الكثيرة التى واجهته فى سرعة وقوة كأنه الأعصار المندفع . وفى الأيام الستة التى قضاها بمألطة أملى ما لا يقل عن ١٦٨ تقريراً ورسالة عاجلة وأمرأ . وفى يوم واحد - هو ١٣ يونيو - صفى دولة عريقة فى القدم ، وأرسى الأساس لحكومة جديدة ، وصادر من كنوز الفرسان ما بلغت قيمته زهاء ٧٠٠٠٠٠ فرنك ، فضلا عن ٣٥٠٠٠ بندقية ، وبارجتين ، وفرقاطة ، وأربع سفن خفيفة ، ونص على نظام إدارة الجزيرة فى أمر مشتمل على ست عشرة فقرة موجزة (*) . وحلت قوات مألطة المسلحة بأمر آخر من أربع فقرات ، وألغيت شارات الفروسية وحللها وألقاب الشرف ، ومنح جميع رعايا الدول الأعداء مهلة يومين لمغادرة الجزيرة ، وأبلغ الفرسان (الا نفرا منهم) بأن يبرحوا مألطة خلال ثلاثة أيام . وندب المواطنان مونج وبرتولليه ، بأمر آخر ، للتفتيش على دار سك النقود ، وعلى كنوز كنيسة القديس يوحنا ، و « على سائر الأماكن التى قد يعثر فيها على أشياء ذات قيمة » (٩) . ومن بين الأشياء ذات القيمة التى عثر عليها ذهب قيمته ٥٠٠٠٠ فرنك ، وآنية فضية تقرب قيمتها من مليون فرنك ، وكنوز كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر التى تقدر كذلك بنحو مليون فرنك . وتعطف بونابرت فأذن للفرسان بأن يأخذوا معهم شظية من « الصليب الحقيقى » لا تقدر بمال ، ويبدأ من أيدي يوحنا المعمدان الكثيرة - وهى ورعوسه الكثيرة مبعثرة فى جميع أرجاء الشرق الأوسط ، بعد نزعها من صندوقها المرصع بالجواهر ، ونقلت جميع قضبان الذهب والفضة والتحف الثمينة بعد جردها

(*) نص على أن يحكم مألطة ، بعد أن جعلت جزءا من الجمهورية الفرنسية ، مجلس حكومى من تسعة ، ثمانية منهم من أهالى مألطة . وعين عضو من أعضاء اللجنة العلمية يدعى « رينو دسان - جان دانجلى » (الذى أصبح وزيرا من وزراء نابليون) مندوبا للجمهورية الفرنسية .

الى مأمور الصرف الفرنسى ، وأخذ منها جزء كبير الى مصر . وتتويجا لأعمال ذلك اليوم - وقد حدث هذا كله فى ١٣ يونيو - ألقى الجنرال بدعوة مقتضبة للرئيس الأكبر الى العشاء ، ودعاه هو والفرسان الى محض اقامته ، وأبلغهم فى صراحة جافية أن على جميع الفرسان دون الستين أن يبرحوا الجزيرة خلال ثلاثة أيام ، دون أن يحمل أحدهم أكثر من ٢٤٠ فرنكا لنفقات السفر ، واستثنى من قرار الطرد ثلاثة وأربعين فارسا كلهم من الفرنسيين دون الثلاثين ، وكان بونابرت قد أقنعهم بالتطوع فى الجيش الفرنسى بمصر ، وسبعة عشر موظفا آخرين فى الطريقة (لم يكونوا كلهم فرسانا رسميين) ساعدوا الفرنسيين بطرق شتى فى الشهور الماضية . وعلى رأس قائمة السبعة عشر ، التى يمكن اعتبارها سجلا للطابور الخامس ، فرسان - بوريدون درانسيجا ، وفيه . كذلك وضع اسم درانسيجا على رأس قائمة المندوبين الحكوميين .

ونذكر هنا أنه حين غادر فلييه دليل - آدم وفرسانه رودس فى عام ١٥٢٣ أخذوا معهم أسلحتهم وكنوزهم وسجلاتهم وخرجوا من قلعتهم فى احتفال عسكري وسط اجلال الفاتحين الترك الصامت . أما حين غادر فرديناند فرايهر فون هومبش مالطة فى ١٧ يونيو ١٧٩٨ فانه لم يأخذ معه سوى وعد كاذب بمعاش ، واتخذ طريقه الى السفينة التى ستقله الى تريستا وسط صيحات الاستهزاء من الجند الفرنسيين وعوام المالطين . ثم استقال بعد عام والعار يجلله ، تحت ضغط القيصر بول الأول الذى كان قد صمم على الظفر برياسة الطريقة . وفى ١٢ أكتوبر ١٧٩٩ وصلت يد القديس يوحنا المعمدان اليابسة الى سانت بطرسبورج ، وانحنى الرئيس الأكبر الجديد أرضا أمامها ، وهو يرتدى أثواب تتويجه القيصرية . أما فون هومبش فلم يظفر قط بالامارة التى وعد بها ، وكان عليه أن ينتظر ست سنوات الى أن يتسلم أول دفعة من معاشه . وقد مات فى منفاه بعد ذلك بقليل فى ١٨٠٥ .

٣

اهتم الجنرال بونابرت بين ١٤ و ١٨ يونيو بأشياء متفرقة قبل أن يبرح مالطة لفتح مصر . مثال ذلك أنه ألغى الرق ، وزار سجن الثغر ، وحرر من وجد من الأرقاء الأتراك (وعددهم ٦٠٠) والمغاربة (وعددهم ١٤٠٠) وأمر بأن يشتغل الأتراك (بناء على طلبهم) بحارة فى أسطوله الى أن يطلق سراحهم فى مصر ، ثم طلب الى القناصل الفرنسيين فى تونس وطرابلس والجزائر أن يحيطوا الولاة علما بعمله هذا ويدعوهم بدورهم الى تحرير عبيدهم المالطين . وأمر جميع الرجال المالطين أن يلبسوا الشارة الفرنسية المثلثة الألوان ، ووعد بالمواطنة الفرنسية وحق ارتداء « الزى القومى الفرنسى » جميع من يبدوون غيرة

وطنية كافية (تتخذ صورة التبرعات الاختيارية على الأخص) ، وأمر بأن يرتدى كل الجنود الفرنسيين الذين تركوا حامية في مالطة سترات من القطن ، وشكل كتائب أهلية من الحرس الوطني على غرار الكتائب الفرنسية ، وأنشأ مستشفى عسكريا ، وأعاد تنظيم مستشفى الجزيرة وخدماتها البريدية ، وخفض عدد الأديرة والقساوسة الذين يرسمون ، وقصر اختصاص أسقف مالطة على الشئون الكنسية البحتة وحرم عليه الالتجاء الى البابا ، ونقل أموال المؤسسات الدينية الخيرية الى المستشفيات ، وفرض عقوبة الاعدام على جميع سكان مالطة والجزر الأيونية من الروم الأرثوذكس الذين يتعاملون مع روسيا ، وأمر بترحيل القنصلين الروسى والانجليزى الى روما ، وبأن يرسل ستين غلاما بين التاسعة والرابعة عشر يختارون من أغنى الأسر المالطية الى باريس ليعلموا هناك كالفرنسيين على حساب الجمهورية ، ووضع نظاما جديدا للتعليمين الابتدائي والثانوى ، وحدد رواتب المدرسين ووضع برنامج الدراسة (وقد اهتم خاصة بالعلوم الفرنسية وبمبادئ الأخلاق والدستور الفرنسى) (١٠) ، وطلب الى حكومة الادارة أن ترسل خريجي مدرسة الصناعات الهندسية الى مالطة ليعلموا الرياضيات والميكانيكا والطبيعة ، وحدد الضرائب المالية الجديدة ورواتب الموظفين الاداريين وحسابات مصروفاتهم ، وضم أكثر من ٣٠٠ رجل من لواء مالطة السابق الى قوة الحملة - وكان هذا كسبا مفيدا لأن اللغة المالطية قريبة من العربية ، ومنح اعانات لاعالة نساء الجنود المالطيين الذين أبحروا مع أسطوله وأطفالهم ، وأمر بأن يلحق جميع أبنائهن الذكور الذين تزيد أعمارهم على العاشرة بالأسطول صبيان بحارة ، وبترك حامية فرنسية من ٣٠٠٠ رجل في مالطة تحت قيادة الجنرال فوبوا ، وطلب الى جميع نساء الجنود المنتظرات في ثغر طولون اللحاق بأزواجهن أن يبحرن فى قافلة ثانية ويؤخذن الى مالطة انتظارا لتعليمات أخرى ، وأوفد ياوره لافاليت الى ألبانيا على ظهر الفرقاطة « لارتميز » يحمل رسالة الى « صديقه المبجل » على باشا والى يانينا ، لمح فيها لذلك الحاكم واللىص الرهيب الى أن مبعوثه سيعرض عليه اقتراحات هامة ، وأرسل الفرقاطة « لاسنسيبل » الى طولون تحمل رسائل الى حكومة الادارة ، ومع الرسائل أرسل الجنرال باراجيه ديلبيه - الذى اعتلت صحته ، اذ أسقمه الحنين لزوجته أو مرض شر من الحنين - وبعض الهدايا الشخصية لرجال الادارة ، وبينها تمثال سفينة من الفضة الخالصة يرجع الى عهد اقامة الفرسان فى رودس (وكتب يقول : « انه تحفة قيمة بسبب قدمه ») وغطاء حريرى للمذبح متسوج فى الصين تظهر فيه « الصنعة المتينة » (١١) كذلك أخبر المواطن تاليران أن الفرقاطة لاسنسيبل ستنقله من طولون الى الأمستانة (*) وقد وجد

(*) لم تصل الفرقاطة « سنسيبل » الى طولون قط ، ولم يصل الجنرال باراجيه ديلبيه الى زوجته الا بعد حين . ذلك أن هذه الفرقاطة استولت عليها الفرقاطة الانجليزية « سى - هورس » =

«الجنرال على الرغم من هذا النشاط كله متسعا من الوقت للتجول في الحدائق
«الأنيقة التي كان يملكها الرئيس الأكبر العائر الحظ والاستمتاع بشمار البرتقال
«اللذيذة التي قطفها هو وبطانته من الشجر .



وبعد أن أنجز الأسطول الفرنسي مهمته أبحر من مالطة في ١٨ و ١٩
يونيو . وكان الجنود قد أمروا بالتأهب ، أو أعيدوا الى السفن منذ ١٧ يونيو ،
على أن ضابطا واحدا على الأقل ، هو الملازم تورمان الضابط بفرقة المهندسين
لم يلحق بسفينته . وكانت البارجة « لوتونان » التي كان مقررا أن يستقلها
تغادر الميناء حين وصل الى الشاطئ ، فاضطر الى استئجار زورق ذى مجاديف
لحق بالسفينة بعد ساعات في عرض البحر ، بعد أن طاردها مطاردة لا بد أنها
كانت مضية كثيرة النفقة .

أما الأميرال نلسن ، فهو وان لم يقل عن الملازم تورمان تصميميا ، فانه
كان أقل منه حظا في اللحاق بالأسطول الفرنسي . فقد وصل الى خليج نابلي
في ١٧ يونيو وأرسل السفينة الخفيفة « موتين » لتأتيه بالأخبار من القنصل
البريطاني السر وليم هاملتن . وكان من رأى هاملتن أنه قد يعثر على الفرنسيين
تجاه مالطة . ولكن السؤال هو : هل غادروا مالطة فعلا ، وإلى أين - أ الى
صقلية أم مصر ؟ وكان من رأى نلسن أن وجهتهم مصر . وكتب الى وزير البحرية
يقول « في اعتقادي أنهم ذاهبون لانفاذ مشروع الاستيلاء على الاسكندرية وانزال
جنود في الهند - وهي خطة اتفقوا عليها مع تبو صاحب ، وليست عسيرة كما
تبدو لأول وهلة . . فلتكن وجهتهم أقصى الأرض ، ففي وسع سيدي اللورد
أن يطمئن الى أنني لن أضيع لحظة في اكراههم على القتال ، وأننى سأحاول تدمير
ناقلاتهم » (١٢) . ولم يضيع نلسن لحظة واحدة ، ففي ٢٠ يونيو تجاوز
مضيق مسينا على نحو ١٦٠ ميلا من موقع الأسطول الفرنسي في ذلك اليوم .
وفي اليوم ذاته تلقى بونابرت نبأ من احدى فرقاطاته الجوابة مؤداه أن أسطولا
«انجليزيا مؤلفا من أربع عشرة بارجة شوهد وهو يبحر شرقا - وقرر الفرنسيون
أن يعدلوا اتجاههم صوب كريت ليروغوا من مطارديهم . فأما المطاردون ، الذين

في ٢٧ يونيو . وأطلق سراح البحارة والركاب في كاليارى ، بصقلية المحايدة ، باستثناء الجنرال
وياوريه الذين احتفظ بهم البريطانيون أسرى حرب . أما الرسائل والفنائم فقد أقيمت في البحر
قبل أن تسلم الفرقاطة ، ولكن أحد الركاب الذين أطلق سراحهم ، وهو الكاتب أ . ف . أرنو
الذى ترك لجنة بونابرت العلمية بمالطة ، نقل مضمون الرسائل الى رجال الادارة . (وكانت أهم
الرسائل ، وهي التي أعلنت نبأ الاستيلاء على مالطة ، قد أرسلت قبل ذلك في ٤ يونيو في سفينة
مالطية ، ووصلت الى رجال الادارة في ٤ يوليو) . أما حظ « لوسامبل » الرسول الذى لا يقهر ،
والذى حصل تهائى رجال الادارة الى بونابرت في مصر ، فكان أحفل بالمغامرات .

كانوا سائرين بسرعة تقرب من ضعف سرعة الطريدة ، فقد جازوا بالفرنسيين على أميال في ليلة غشيها الضباب (٢٢ - ٢٣ يونيو) . وظل نلسن طوال الأسبوع التالي يجرى وراء طريدة تقفوه على مهل دون علم منها بوجوده .

كان نلسن قد استطلع آراء كبار ضباطه في ٢٢ يونيو عن وجهة الفرنسيين الحقيقية ، فأجمعوا على أن الأسطول الانجليزي يجب أن يحشد سفنه ويتخذ سمته الى الاسكندرية بأسرع ما يستطيع ليمنع نزول الفرنسيين هناك . على أن نلسن كان يعمل في الظلام ، لأنه لا يملك غير سفينة خفيفة واحدة تستكشف له منطقة شرق البحر المتوسط بأسرها . وقد كتب السير جيمس سومارينز قائد السفينة الانجليزية « أوريون » يقول « اننا نسير اعتمادا على التخمين لا على أى معلومات أكيدة ، ولا بد أن تنقضى أيام قبل أن نستريح من قلقنا القاسي ، فاذا تبينا بعد رحلتنا هذه أننا نفتق أثر طريدة غير التي ننشدها ، كانت حيرتنا في الحق عظيمة » (١٣) .

وفي ٢٠ يونيو ، وهو اليوم الذي لاحت فيه كريت لأنظار الفرنسيين كان نلسن قد قطع نصف الطريق بين كريت والاسكندرية . وأرسل السفينة « موتين » أمامه يقودها الكابتن هاردي ، فلم يستطع هاردي أن يعثر في الاسكندرية الا على بعض السفن الحربية التركية التالفة . وبعد ثلاثة أيام القي نلسن نفسه ، ومعه أسطوله كله ، مراسيه أمام الاسكندرية ، واشتمل بنظره الميناء الخالي وهو كاسف البال . وكانت حيرته قد اشتدت الآن حقا : فلا بد أن الفرنسيين أبحروا غربا . وأمر أسطوله أن يقلع الى كريت وأعصابه تكاد تنهار وما ان غادر الانجليز الاسكندرية حتى دخلت الميناء في عصر ذلك اليوم نفسه الفرقاطة الفرنسية « جونو » التي أرسلها يونابرت أمامه .

ولم يعثر نلسن على الفرنسيين في أى بقعة بقرب كريت - ذلك أنهم جازوا بالجزيرة قبل ذلك بنحو أسبوعين . وفي ١٩ يوليو وصل الى سيراكيوز ولكنه لم يجد الفرنسيين في صقلية . واشتد كربه حتى لم يكده يقوى على تناول طعام . وكتب يقول انه : « قطع رحلة تقرب من ستمائة فرسخ بسرعة لا تصدق . ومع ذلك فهو ما زال على جهله السابق (١٤) . وليس أدعى لضيق رجل يتسلط عليه احساس الواجب والطموح من أن يبدو هزأة في منعه وراء أحد هدفه هذين . وكان كل عصب من أعصاب نلسن مشدودا في تصميمه القوي على ألا يعود بخفي حنين . وكتب للسير وليم هاملتن ايما هاملتن (ولم تكن قد أصبحت خليلته بعد) يقول : « ثقا أنني سأعود اما مكلا بالغار ، واما مجلا بالسرو (وهو رمز الموت) » (١٥) .

وبعد أن أنفق نلسن سيراكيوز ثلاثة أيام يزود سفنه بالماء والطعام أقلع الى بلاد اليونان ، فلما تلقى معلومات أكيدة بأن الفرنسيين أبحروا الى مصر

يجمع بسفنه شطر الجنوب . وقضى أسبوعا لا يكاد يذوق نوما ولا طعاما . وفى أول أغسطس بلغ بحته المحموم ختامه عند خليج أبو قير على أميال شرقى الاسكندرية . ذلك أن مشهدا لاح هناك لعينه الوحيدة ، فطرب له أشد الطرب - وهو مشهد الأسطول الفرنسى بأكمله راسيا فى الخليج . وأمر الأميرال نلسن باعداد مائدة الطعام ، وبالهجوم على الأسطول الفرنسى .

ولكن بونايرت كان وقتها فى القاهرة .

٤

استغرقت رحلة بونايرت من طولون الى الاسكندرية ستة أسابيع . ولم يفتن الى قرب أسطول نلسن ولا الى قوته الا فى الأسبوع الأخير من الرحلة ، وكانت تشغله فى ذلك الحين استعدادات النزول ، فلم يسمح لهذا الخطر بأن يكدر هدوءه . بل لعله ما كان ليهتز حتى لو وصلتته الأخبار التى أرسلت اليه من شتى الموانئ عن الأسطول الانجليزى (الذى غالت بعض الرسائل فى تقدير قوته) قبل نزوله الى البر . وكان فى رأى الأميرال بروى أنه لا أمل للأسطول الفرنسى المثقل بالجنود والمؤن فى النصر اذا التحم ولو بعدد من بوارج العدو لا يزيد على عشر . أما بونايرت - وهذا الخطر ماثل فى ذهنه أبدا - فلم يبد طوال الرحلة كلها أقل بادرة قلق (بعكس مطارده تماما) سوى انتظار النتيجة . وهكذا انقلب الوضع الطبيعى ، فكان الانجليزى على أحر من الجمر ، واللاتينى هادئا رابط الجأش .

وأنفق بونايرت وقته فى فراشه خلال أكثر الرحلة البحرية . واذ توقع أن يصيبه دوار البحر طوال الرحلة (وهو فرض تبينت صحته أساسا) فقد أمر بتثبيت عجلات فى قوائم فراشه ليتحاشى اضطراب السفينة . ومن فراشه أمل معظم أوامره ورسائله ، وقرأ التقارير والاستفسارات التى بعث بها اليه قواده البريون والبحريون ، والتى كثيرا ما كان يهمل الرد عليها . وقل أن وفاته شئ مما يحدث على سفنه الأربعمائة ، فلما نهض ليذهب الى ظهر السفينة أمطر بروى والكابتن كازابيانكا وضباطهما بوابل من الأسئلة عن الشئون البحرية ، ولا بد أن فضوله ضايقهم بقدر ما راعتهم فطنته وحدة ذهنه .

وأنفق كثيرا من وقته وهو راقد فى الاستماع الى بورين يقرأ له من مكتبته المتجولة - كتبها عن مصر والأراضى المقدسة ، لا سيما الكتاب المقدس والقرآن ، اللذين صنفهما تحت باب « الكتب السياسية » . وقد ألف أن يتناول طعامه فى حجرته الرسمية - باستثناء الأيام القلائل الأولى التى حفلت فيها مائدته بالأكليين - لا يشاركه الطعام سوى بروى وبرتييه وضيف

أو ضيفين • فلما وصل الى مالطة دعا مونج الى سفينته لوريان ، واضطر مونج
– بعد أن قطع الرحلة من شفيثا فيكيا الى مالطة على الفرقاطة « كوراجيز » في
حجرة رسمية مبطنة بالدمقس الاحمر – أن يودع هذا الترف ليشارك بروي
حجرتة الرسمية على البارجة لوريان •

وكان من عادة بونابرت بعد العشاء أن يدعو ضباط أركان حربه ومن
تيسر من العلماء ليعقدوا « مجامع علمية » • كما سماها وهي في الأكثر مناقشات
في موضوعات يقترحها ، ويعين لها المتكلمين أيضا • أما اهتماماته فجامعة :
فيها السياسة والاقتصاد والحكم والدين والخطط الحربية والكيمياء والفيزياء –
ولم يكده يترك موضوعا لا يطرقه • فهل الأرض هي الكوكب الوحيد المسكون ؟
وكم عمرها ؟ وهل دعوى تفسير الأحلام صحيحة ؟ (وقد اقترح هذا السؤال
– بعد أن قرأ حلم يوسف في التوراة) • ودارت مناظرة بعثتها قراءة من كتاب
روسو « حديث عن الأصل في عدم المساواة » حول الطبيعة الاجتماعية للملكية •
وأعرب الجنرال كفاريللي عن بعض الأفكار الشيوعية الجريئة أمام مناظرة
« رينو دسان جان دانجلي » • قال : « أنا أزعم أن القوانين التي تقس الملكية
تقدس الاغتصاب والسرقة » (١٥) • وسأله مناظره أيريد الغاء هذه القوانين ؟
وكان من رأى كفاريللي أنها لا تلغى ، بل ان في الامكان الوصول في أمرها الى
حل وسط ، فتحداه رينو للفور أن يبين السبيل الى هذا الحل • وفي الاجتماع
التالى أخرج كفاريللي مخطوطا جديدا من جيبه وقراه على الحاضرين • واقترح
فيه تقسيم المجتمع الى ملاك في الحاضر وملاك في المستقبل • فأما هؤلاء
فسيكونون مستأجرين لأملاك أولئك فترة تمتد عشرين عاما يشغلون
فيها لفائدة الملاك ، ثم يصبحون هم بدورهم ملاكا ويتخذون لهم مسأجرين •
وهلم جرا • وهو حل يبدو بارعا ، ولا ريب في أن أرنو الذي رواه لنا في
مذكراته قد غلا في تبسيطه • ولكن هذا المخطوط ، الذي سبق ماركس في
اعتباره العمل المصدر الوحيد للملكية ، لم ينشر قط لسوء الحظ ، ولعله فقد
في عكا بموت صاحبه •

على أن « المجامع » – التي كانت تعقد أحيانا وبونابرت يتمشى على ظهر
السفينة وأحيانا في قاعة المجلس – لم ترق كلها الى مثل هذه المستويات • ومع
أن كل فرد كان حرا في الاعراب عما يعن له من آراء ، فان نظام « المجامع »
في ذاته كان مقيدا • وقد رأى فيها معظم الضباط شيئا مملا جدا ، وكان جونو
يستغرق في النوم أثناء المناقشات بسرعة تثير العطف ، فما لبث أن أعفى من
حضورها • وكان عداء قواد بونابرت للعلماء مبعث تسلية له ، ودعته خصومتهم
للفكر أحيانا الى معابشتهم بطريقة تذكرنا بالثكنات أكثر من المجامع العلمية •
أما هو فكان يملك موهبة مواصلة الكلام في أي موضوع كلاما أشبه بالمناجاة ،
وجلها بديهيات واضحة ، تتخللها لمحات خاطفة من اللقانة والحدس • وكان
الدين من الموضوعات المحببة اليه : وتدينه الغامض ، الذي ربما كان امتدادا

لتعلقه بمعتقدات طفولته ، هو الذى جعله يجفل من مادية برتولليه الباردة ، وجذبه الى مونج الأكثر اتساعا وتفتحاً . ثم لا ننسى أن للدين منفعة سياسية واضحة جليلة ! وكان كلما دنا من الساحل الاфриقى استغرق فى دراسة الاسلام وفكر فى الطريقة التى قد يفيد بها منه عملياً . يقول بورين « عندما جزنا بجزيرة كريت حلق بخياله فى العلا . . . فأفاض فى الحديث عن انحلال الدولة العثمانية . . . وتمثلت لذهنه الأساطير الدينية القديمة وأضفت على عباراته الشعر ، بل الالهام . وحمله مشهد مملكة مينوس على التفكير فى أى القوانين أصلح لحكم الناس ، كما أن مهد زيوس (وهو جبل أيدا) كشف له عن حاجة الناس الى الدين » (١٧) وهكذا استمر هذا الضرب من الهذيان حتى غابت كريت عن ناظره ، وظهر خلفه شبح مداعبته لموضوع الاسلام ، ثم اتفاه مع البابا بيوس السابع بعد ذلك بثلاثة أعوام .



كتب مونج - ذلك الرجل الذى لا تفتر وطنيته - الى زوجته فى ٣ يونيو من حجرته المكسوة بالدمقس الأحمر فى السفينة كوراجيز يقول : « ان البحارة كلهم فى غاية الابتهاج . لقد كنا الآن ننشد الأناشيد الثورية جماعة » (١٨) . ولعل ابتهاج البحارة يمكن تعليله بأنهم لم يغادروا شفييتا فيكيا الا منذ اسبوع ، وأن البحر كان وقتها هادئاً ، كذلك لعلمهم على الأقل الى أين هم ذاهبون ، بعكس البحارة والجنود فى القوافل الأخرى . ذلك أن الجنرال ديزيه كان قد فض أختام أوامره وهو على أربعين فرسخاً من الساحل وأبلغ الجنود فحواها دون إبطاء . ولكن أهم من ذلك كله أن المواطن مونج ربما حسب حماسه الوطنية حماسة غيره ، كما يحسب المدنيون كثيراً حين تستخفهم الروح العسكرية . فلقد كان الجنود والبحارة بوجه عام ، بما فيهم صغار الضباط والمدنيون ، غاية فى التعاسة والشقاء .

ولا جدوى من الافاضة فى الآلام التى عاناها من أصيبوا بنوار البحر ، فقد كان الجو عاصفاً فى أكثر الرحلة ، والشواهد على هذا كثيرة . كتب الكابتن جوييه من ضباط نصف اللواء الخامس والعشرين الى أمه من القاهرة يقول : « كنت أتقياً دماً كل يوم » (١٩) والاكثار من هذه الاستشهادات يثير الملل والتقزز . ولما كان الرجال مكسسين فى مراكبهم تكديسا ، فقد نالهم جميعاً - حتى الأشداء منهم - قسط من آلام الآخرين . وواضح أنه لم يكن هناك متسع لغسل الثياب الداخلية أو تغييرها . أما الطعام فكان الضباط محظوظين فيه ، حتى باعتراف ضابط دائم التذمر كالملازم فرترى ، بالقياس الى « الجنود المساكين الذين كانوا خلال رحلة الشهرين يعيشون على اللحم المملح ، فى حين يتناول الضباط الطعام الطازج » (٢٠) . وقبل أن تبلغ القافلة الرئيسية مالطة

كانت المواد الغذائية قد أخذت تتلف ، والماء يتعطن . وبدأت الأحوال تسوء بعض الشيء حتى بالنسبة للضباط والمدنيين ، فلم يكف يبق حيوان حتى يزود مائدتهم باللحم الطازج . كتب المصور دينون يقول : « ولم يعد هناك وقود لتسخين الماء الفاتر ، أما الحيوانات النافعة فكانت تختفى ، في حين تكاثرت الحيوانات التي تأكلنا مائة ضعف » (٢١) .

ولكن دينون أتيح له على الأقل قلم وورق وعين دائمة الفضول والتطلع . فراح يرسم الصورة تلو الصورة ، في مشابرة وهدوء كانا له فيما بعد خير معوان في ظروف أقل مواتاة من هذه الظروف . رسم سواحل كورسيكا وساردينيا ، وجبل اتنا في ثورانه ، ومدافع مالطة تطلق نيرانها (دون جدوى) على الأسطول الفرنسي ، والفخار القديم الذي عثر عليه في جوزو ، وجبل أيدا زيوس - وباختصار رسم كل ما رآه . أما غيره ممن أعوزتهم مواهبه ، فقد التمسوا تخفيف سأمهم بوسائل شتى . فكان المحظوظون منهم يتزاورون من مركب الى مركب اذا سمح الجو ، أو يتبادلون الملاحظات والتعليقات في شئون المجتمع . وكان هناك كثير من الغناء - ولعله لم يقتصر على الأناشيد الثورية . ثم مسرحيات الهواة ، وحفلات الفرق الموسيقية ، فكانت الفرقة تعزف على البارجة لوريان لحن بونابرت المفضل « زحف التتار » للموسيقار كرويتسر مرارا تقرب من عزفها لحن مونج المفضل « المارسليز » . وكان هناك بالطبع نفر لا مناص من وجودهم ، هم الهواة من العازفين على الكمان والمغنين ورواة القصص . وكانت مناورات الأسطول مشهدة يستهوى الناظرين . أما التمرينات اليومية الاجبارية التي يقوم بها البحارة والجند استعدادا لهجوم من العدو فلم تكن مبهجة كمناورات الأسطول ، ولكنها على الأقل أعانت على قتل الوقت . ولكن أكثر ما خفف من رتابة الحياة على السفن هي الصيحات التي تتردد معلنة سقوط رجل في البحر ، وما كان يتلوها من مناورات . وكان الجنرال بونابرت يبدي اهتماما مشربا باللذة بعمليات الانقاذ ، ولو كلفه ذلك تعطيل القافلة ساعات ، ويقدم الجوائز المالية للمنقذين . (هذا مع التسليم بما كان في عدد النوتية من عجز ، وبأن الحاجة للبحارة كانت ماسة) . كذلك قدمت الجوائز المالية لصبيان البحارة للاشتراك في مباريات يومية في سرعة التسلق الى مكان الرقيب على الصاري - وهي تسلية أخرى . ولكن أحب أسباب اللهو كان القمار . وانغمس الكثيرون ، حتى القائد الأعلى ، في ألعاب الورق . ويروى أنه كان يجد لذة في الغش فيها ، ولكنه كان دائما يرد مكاسبه لضحاياهم . ويقول دينون ان أشد الجنود شراة كانوا « يبيعون ما يملكون ، أو يجرون عليه قرعة ليبيعوه » وذلك استكمالا لجراياتهم . « وكان غيرهم ممن هم أقل صبرا يقامرون ويخسرون في ربع ساعة أكثر مما يستطيعون دفعه في عمر كامل . فاذا فرغت النقود جاء الدور على الساعات . وقد شهدت ست ساعات الى ثمان يلعب بها

فى رمية زهر واحدة « (٢٢) • وليس فى هذا مشار للدعشة - لأن الدنيا لم تتغير •

واذا كان قد تيسر التزود بالماء فى مالطة ، فان الجزيرة خيبت آمال الفرنسيين من حيث المؤن الغذائية • ففى ٩ يونيو قبل نزول الحملة الى البر لفت الجنرال باراجيه ديليه نظر بونايرت الى أن جانباً من مئونة البسكويت فى قافلته قد فسد لرداءة صنعه ، وأن جانباً من الزيت تسرب من البراميل ، وكذلك جانب من النبيذ ، وأن جانباً من لحم البقر المملح قد تلف ، وأن المؤن بوجه عام قد أضر بها الريح وماء البحر • وبعد النزول الى البر أبلغ مأمور صرف الجيش « بونايرت بأنه سيكون من الصعب الاستغناء عن المؤن المخزونة الآن على ظهر السفن بالنظر الى قلة الموارد فى هذا البلد (مالطة) » (٢٣) •

لا ريب اذن فى أن الرحلة من مالطة الى الاسكندرية كانت محنة قاسية امتحن بها معظم رجال الحملة على الرغم من الحفلات الموسيقية والأناشيد الوطنية ، وذلك لنفاد الأطعمة أو فسادها من جهة ، ولارتفاع درجة الحرارة من جهة أخرى • وسرت بين الضباط والجنود على السواء روح الأنانية التى بلغت حداً منكراً بعد النزول الى بر مصر • وأما العلاقة بين رجال الجيش والبحرية فقد توترت توتراً مطرداً ، فلما أنزل الجنود فى النهاية وهم يقاسون الأمرين من هياج البحر ودواره ، ومن الضنك والفقر ، تنفس الضباط البحريون الصعداء لخلصهم من هؤلاء الدخلاء •

وفى ٢٨ يونيو أذيع على الجند المنشور الموجه الى الجيش ، والذى حربه بونايرت قبل ذلك بستة أيام ، وهذا نصه :

أيها الجنود !

انكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتجارته ، وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة فى أضعف مواطنها ، انتظارا لليوم الذى تسددون فيه اليها الطعنة القاتلة •

سيقتضينا الأمر بعض الزحف المضنى ، وسنخوض بعض المعارك ، وسننتصر فى جميع مغامراتنا ، لأن الحظ معنا •

ولن تنقضى على نزولنا البر أيام حتى تقضى على بكوات الممالك الذين لا يراعون غير التجارة الانجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بمعاكساتهم ، والذين يستبدون بأهل وادى النيل الأشقياء •

ان القوم الذين سنعيش معهم مسلمون • وعقيدتهم الأساسية هي :
« لا اله الا الله محمد رسول الله » •

فلا تعارضوهم • واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود
والايطاليين • واحترموا شيوخهم وأئمتهم ، كما احترمت شيوخ اليهود وأساقفة
المسيحيين •

وأظهروا من التسامح نحو الشعائر التى يقضى بها القرآن ونحو المساجد ؟
مثلاً أظهرتم نحو الأديرة ومجامع اليهود ، ونحو ديانة موسى وديانة المسيح •
لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على أن تحمى جميع الأديان •
وستجدون هنا عادات تختلف تمام الاختلاف عن العادات الأوروبية ، فلا بد أن
تروضوا أنفسكم عليها •

ان أهل البلاد التى سنبذلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة : ولكن
الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشاً •

أما السلب والنهب فلا يشرى منه الا الأقلون • وهو يجللنا بالعار ،
ويقضى على مواردنا ، ويثير علينا عدااء الشعب الذى ننشد صداقته •

ان أول مدينة سنشهد بها بناها الاسكندر • وسنجد فى كل خطوة آثار
أعمال جديرة بأن ينسج الفرنسيون على منوالها (٢٤) •

والمنشور جدير بالاعجاب ولا ريب ، لا سيما فى دعوته غير المؤمنين الى
التسامح مع المؤمنين • ولكن من الصعب أن نتبين كيف كان يمكن لهذا المنشور
أن يفسر للجندى العادى السر فى ارساله الى مصر • كذلك لا نحسب رجلاً
يتضورون جوعاً ويعانون دوار البحر تواقين الى تقليد أعمال الأبطال الأقدمين •
والحق أن الجنود كانوا قليلي التحمس للحملة وهم ينزلون الى بر مصر •



لم يبعث ظهور الأسطول الفرنسى فى ذاته عجباً شديداً ، وان أذهل أهل
الاسكندرية بضخامته حين لاح لهم فى الأفق • ذلك أن أنباء استيلائه على مالطة
سبقت ، وكان السكان كما قال بروى فى تقريره لوزير البحرية : « فى حالة
اضطراب وتوقع للشرب » (٢٥) • وخف الجميع الى السلاح ، ورممت الحصون
البالية ، ولما لم يكن هناك جنود تقريباً ، فقد كون جيش من المتطوعين ، وجمع
كاشف البحيرة (وهو من المماليك) بعض القبائل البدوية ليساعدوا فى أعمال
الدفاع : ولكن هذه التدابير كلها كان فيها من الحماسة المحمومة أكثر مما فيها
من الفائدة الحقيقية • وبينما كانت هذه الاستعدادات قائمة ، دخل الكابتن
هاردى ثغر الاسكندرية بسفينته « موتين » فى ٢٧ يونيو • وقد ظن خطأ أول
الأمر أنه فرنسى ، ولكن حتى بعد أن صحح هذا الخطأ رفض محمد كريم

حاكم المدينة الذى أتى ليتبين نيات الرجل الانجليزى أن يقبل مساعدة الانجليز ضد الفرنسيين . واذ كان عديم الثقة فى جميع الأوربيين على السواء ، فانه فى حرصه وحذره تظاهر بالجهل وقال لهم فى رواية نقولا الترك : « ان الفرنسياتية غير ممكن أنهم يحضروا لبلادنا ولا لهم فى أرضنا شغل ، ولا بيننا وبينهم عداوة ، وهذا كلام غير ممكن أن نصدق . وأما أنتم فما لكم إقامة فى أرضنا ، ولا معنا اجازة أن نقبلكم جملة كافية ، فانظروا الذى تحتاجوه من الماء والذخيرة خذوه واذهبوا عنا بالسلامة ، وان كان الفرنسياتية كما تزعمون قاصدين أخذ بلادنا فنحن منا لهم نصطقل » . وأجاب الكابتن هاردى : « أنتم ما صدقتم كلامنا . سوف تعالينوا ما يحل بكم وتندموا على عدم قبولكم ايانا » (٢٦) . وقد تبين - فى حالة محمد كريم بالذات - أن نبوة الانجليز صدقت يقينا . ويمكن أن نقول بمثل هذا اليقين ان الذى منع الانجليز من الرسو خارج الميناء لم يكن هذا التحدى العاجز الذى لقوه من محمد كريم . ولكن هناك سؤالا محيرا يثيره هذا الحديث ، اللهم الا اذا كان نقولا الترك قد اختلقه اختلاقا . فاذا كان الانجليز قد ظنوا أن وصول الأسطول الفرنسى للاسكندرية محتمل بعد وصولهم هم (وهذا الاحتمال يفهم من الحديث المتبادل بين هاردى ومحمد كريم) فلم لم ينتظر نلسن أمام الاسكندرية يومين على الأقل ؟ وما الذى جعله يتخلى فجأة عن ايمانه الذى أعرب عنه فى الرسالة تلو الرسالة ، بأن مصر والهند هما هدفا الفرنسيين ؟ لابد لنا من أن نفترض أن الدافع له كان سيكولوجيا أكثر منه استراتيجيا لأننا لا نجد تعليلا أفضل . فهو فى غمرة المطاردة لم يستطع أن يحمل نفسه على التلكؤ يومين كاملين ، والمغامرة بترك الطريدة تهرب فى اتجاه آخر .

على أية حال حين غادر الانجليز الاسكندرية فى ٢٩ يونيو كان العلم المثلث الألوان لا يزال يخفق فوق بيت القنصل الفرنسى مجاللون ، وهو ابن أخى شارل مجاللون ، ولعل شارل هذا قام بجهد يفوق جهد أى انسان آخر لحث السلطات الفرنسية على تجريد الحملة ، وكان فى ذلك الوقت على ظهر السفينة لوريان .



بعد أن أرخى الليل سدوله فى ٢٧ يونيو صدرت الأوامر للفرقاطة جونو أن تلحق بمؤخرة لوريان . ويقول دينون الذى كان على ظهر الفرقاطة : « من العسير أن أعطى القارئ فكرة دقيقة عن شعورنا ونحن ندنو من قدس أقداس السلطة ، وهو يملئ الأوامر وسط ٣٠٠ سفينة فى جوف الليل البهيم الذى لا ينيره غير ضوء ضئيل من القمر يتيح لنا رؤية المشهد . كان منا نحو ٥٠٠ على سطح السفينة ، وكنت تستطيع أن تسمع الذبابة اذا طنت فى هذا

السكون ، (٢٧) . ولما أمر قائد الفرقاطة بالصعود الى مركب أمير الأسطول تلقى أوامره ، وهى تقضى بأن يبحر الى الاسكندرية ، ويستطلع أسباب دفاعها ، ويعثر على القنصل الفرنسى ، ويعود به . وانطلقت الجونو فى مهمتها لتوها ، ولاح لها بر مصر فى فجر ٢٩ يونيو . ولم يكن المشهد مما يشرح صدر الجنود . وقال ظريف منهم لجاره وهو يشير الى الساحل الأجرد الموحش : « انظر ! ها هى ذى الافدنة الستة التى وعدت بها » (٢٨) . وفى الساعة الواحدة بعد الظهر وصلت الفرقاطة الى الاسكندرية وألقت مراسيها على أميال من الشاطئ . وأرسل ملازم فى رفاص لياتى بالقنصل ، وفيما كان دينون ينتظر عودته رسم منظر القلعة البعيد ومساجد المدينة ومناظرها . وكان وهو يرسمها يشرح فى أحلام بأمجاد الاسكندرية الغابرة - وهى أحلام سرعان ما بددها الواقع الأليم ، واقع مدينة قدرة تعسة انكمش سكانها الى نحو ٦٠٠٠ نفس .

ولما عاد المبعوث والقنصل حوالى منتصف الليل أقلعت الفرقاطة جونو . واذا دنت من جانب لوريان فى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى ، كان هدوء البحر قد انقلب الى ريح شمالية قوية سرعان ما اشتد عنفها . واهتز الأسطول الفرنسى - بوارجه وناقلاته - فوق الأمواج وعمه الاضطراب . وصعد مجاللون ودينون الى سفينة أمير البحر ليقدموا تقريرهما الى بونابرت . وكان أهم خبر ساقاه اليه هو أن الأسطول الانجليزى غادر الاسكندرية لتوه ، وربما كان يجول على مقربة من الفرنسيين . ويؤكد لنا دينون أن وجه بونابرت ظل محتفظا بهدوئه . وفى اليوم التالى ، وهو أول يوليو ، لاح عمود السوارى لأنظار الأسطول الفرنسى ، وكان يومها أبرز معالم الاسكندرية . ولم يكن لبونابرت مناص من أن يختار فوراً بين أمرين بسبب قرب الأسطول الانجليزى منه : فاما أن ينزل الجيش برا فى اليوم نفسه ، واما أن يحتوى بأحد مينائى المدينة أو بكليهما . وكان واضحاً من تقرير مجاللون (ابن الأخ) أن النزول ببر الاسكندرية نفسها محال دون خوض معركة . وقد يستطيع الأسطول أن يشق له طريقاً فى أحد المينائين ، ولكن دون ذلك خطر كبير ، لأن الطريق الى المينائين ضيقة خداعة لا سيما اذا كان الجو عاصفاً ، وكان يخشى أن تجنح البوارج . أما السبيل الآخر - وهو النزول فى شرقى الاسكندرية أو غربيها - فمحفوف بمصاعب مماثلة . أما أمثل موقع للرسو فهو خليج أبو قير الواقع على خمسة عشر ميلاً الى الشرق ، ولكن الرسو فيه مضيعة لوقت ثمين بسبب بعده ، وهو بالضبط البقعة التى يتوقع فيها العدو نزول الحملة . وأفضل منه من وجهة نظر رجل اليابس الجاهل بالبحر ساحل العجمى (*) ، وهى قرية صيد على

(*) فى الأصل Marabut (مرابط) ، وهى جزيرة تقع الى الشمال الشرقى من العجمى ، واسمها القديم Chersonesus minorzz (وكان المكانان يؤلفان ما أطلق عليه الجغرافيون القدامى اسم Didymi أى الجزيرتين التوأمين (المترجم) .

نحو ثمانية أميال الى الغرب ، ولكنه ليس أفضل من وجهة نظر البحار . وقد أثار الأميرال بروى اعتراضات قوية على هذا الرأي ، اذ لم يكن فى الامكان البدء بالعملية قبل عصر ذلك اليوم ، وكانت ستستغرق الليل كله ، والبحر هائج ، والمياه الساحلية ليس لها خرائط مرسومة ، فخير اذن ألا يتم انزال الجيش فى اليوم نفسه ، وأن تنتظر الحملة الى صباح الغد ما دام غير محتمل أن يعود نلسن الا بعد حين .

والواقع أن بروى كان على حق (لأن نلسن لم يعد الا بعد شهر) ، ولكن رأى رجل اليايس تغلب على رأيه . يقول بورين ان بونابرت « استمع الى هذه الحجج وقد عيل صبره وضاق خلقه . ورد عليها فى اقتضاب قائلا : أيها الأميرال ، ليس لدينا وقت نضيعه . ان الحظ يمنحنى ثلاثة أيام لا أكثر ، فاذا لم أستغلها فقل علينا السلام » . وهكذا حسم الأمر بهذه المقامرة .

واستعمل بونابرت فى التقرير الذى كتبه لحكومة الادارة لتعليل الكارثة التى أصابت الأسطول الفرنسى بعد شهر فى خليج أبو قير لفظى « الحظ » و « القضاء » بأسراف مدهش . كتب يقول : « حين وصلت أمام الاسكندرية وعلمت أن الانجليز مروا بها بقوات أكبر من قواتنا قبل أيام ، قررت أن أنزل جنودى برغم العاصفة العاتية المحتدمة . وأذكر أن سفينة حربية لاحت على الأفق فى اللحظة التى بدأت فيها مناورات النزول الى البر ، وقد تبين أنها الفرقاطة « جوستيس » قادمة من مالطة . وصحت حين رأيته : هل تخلى عنى الحظ ؟ ان كل ما أحتاج اليه هو خمسة أيام » (٣٠) . ولا ريب أن بونابرت كان لديه كل المبررات للخوف من أن تكون هذه السفينة التى لاحت على الأفق طليعة الأسطول الانجليزى . فاذا كان قد أدخل الحظ فى حسابه فقد أصاب ، اذ أنى له أن يعرف أن نلسن سيمهله أربعة أسابيع بدلا من خمسة أيام ؟ فقرار انزال الجنود وقتها ، برغم جميع الأخطار ، هو القرار المعقول الوحيد مع ما تبين بعد ذلك من عدم ضرورته .

وبينما كان الأسطول الفرنسى لا يزال أمام الاسكندرية يلقي الرعب فى قلوب من كانوا يشهدونه على البر ، أرسل قائد سفينة راسية فى الميناء ، وكان تركيا ، ضابطا الى البارجة لوريان يحمل خروفين هدية ، واستفسارا عما يصنع الفرنسيون هناك . وسلم الضابط التركى نسخة من المنشور العربى المطبوع والموجه الى أهل مصر (*) . فهز رأسه قائلا انه لا يقرأ العربية (ولعله لم يكن يقرأ التركية أيضا) ، فترجم له فنتور المنشور . وكان الزائر عند سماعه كل فقرة تنال من قدر الأمراء المماليك يطفر سرورا ، فطلب مزيدا من نسخ المنشور

(*) انظر الفصل الثالث (٢) .

لتوزيعها ، وابتلع قدرا وافرا من القهوة والحلوى ، ثم قفل راجعا بخطاب من بونابرت الى قائده يقول فيه : « ساكون فى الاسكندرية غدا ، فلا تخش بأسنا ، لأنك من رجال السلطان صديقنا العظيم . فاسلك كصديق . ولكنى سأعاملك معاملة العدو لو بدرت منك بادرة عدااء للجيش الفرنسى ، وستكون أنت الملولم ، لأن هذا أبعد الأشياء عن نواياى » (٣١) . ولسنا على ثقة من أن الضابط التركى راعه اخلاص بونابرت ، ولكنه كتم السر ولم يفعل شيئا .

وبدأت عمليات انزال الجنود تجاه ساحل العجمى حوالى الظهر . وكانت ثلاث فرق من الخمس التى يتألف منها الجيش ، وهى التى يقودها ديزيه ومينو ورينييه ، تحملها ناقلات ، فألقت مراسيها على ثلاثة أميال من البر ، أما الفرقتان اللتان يقودهما كليبر وبون فكانتا تستقلان بوارج تؤلف قوسا على ضعف هذه المساحة من الساحل . وكانت المداخل الى الساحل محفوفة بالصخور والشعاب ، والبحر يزداد هياجا على هياج ، فلم تستطع أول دفعة من الجنود الوصول الى البر قبل الساعة الثامنة . وكانت العملية عذابا امتد طوال الليل . واقتضى الأمر انزال كثير من الجنود فى رفاصات وزوارق بالحبال . وامتلا البحر بالزوارق المقلوبة ، وكانت صرخات الرجال تعلو على ضجيج الأمواج ، ولم يكن يلم بالسباحة منهم الا أقل القليل . وكان الجميع - جندا وبحارة وضباطا بحريين - قد أنهكهم دوار البحر . واستغرقت بعض القوارب ثمانى ساعات فى قطع ثلاثة أميال بالمجاديف . وانها لمعجزة حقا ألا يجاوز عدد الفرقى تسعة عشر رجلا ، وهذا على أية حال هو الرقم الذى ذكره بونابرت ، ولعله كان دون الواقع .

واستقل القائد الأعلى سفينة مالطية حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، والتف حولها أسطول من صغار السفن ، وكان مفروضا أن تلقى مراسيها على نصف ميل من الشاطئ فى الظلام . وفى نحو الساعة الواحدة صباحا قفز بونابرت فى رفاص وهو تواق للوصول الى البر ، وبروى يمسك بيده ليمنعه من الترنج . ووصل فى صحبة قواده برتييه وكفاريللى ودومارتن الى البر قرب ساحل العجمى . وكان كليبر ومينو وبون قد أفلحوا أثناء ذلك فى انزال نحو ٥٠٠٠ رجل . أما ديزيه فكان لا يزال يترنج بفرقته على الأمواج ، الأمر الذى غاظ بونابرت ، وأما رينييه فأنزل بضع مئات من رجاله . وبعد أن أمر بونابرت بإقامة حراسة على رأس الساحل نام ساعة بينما واصل الجنود المبللون شق طريقهم الى البر .

وفى الساعة الثالثة صباحا ، فى ضوء القمر الساطع ، مر بونابرت ليستعرض من وصل من جنوده . ثم أصدر أوامره لفرق كليبر ومينو وبون بأن تبدأ زحفها على الاسكندرية ، على أن تترك فرقتا رينييه وديزيه خلفها لتحميا ظهورها .

ولم تكن قد وصلت بعد جرايات الطعام ولا الامتعة الشخصية ، بل ولا مدفع أو جواد واحد . ولم يكن هناك ماء للشرب ، ولم يتيسر منه شيء طوال الطريق الى الاسكندرية ، وقل من الرجال من كان عنده ما يتبلغ به في الساعات الأربع والعشرين التالية لنزول الجيش . وهكذا بدأ الجنود زحفهم في الفجر على بطون خاوية بعد رحلة خمسة أسابيع أو ستة مضيئة ، لا يحملون غير سلاحهم وما عليهم من ثياب ، وقد غثيت نفوسهم وأنهكهم كفاح الليلة الماضية ، يخترقون صحراء ليستولوا عنوة على مدينة محصنة . يقول الملازم تورمان في خطاب لأسرته : « في وسعي أن أؤكد لكم - بينى وبينكم - أن العطش هو الذى حفز جنودنا الى الاستيلاء على الاسكندرية . فلم يكن أمامنا - وقد وصل الجيش الى هذه النقطة - الا أن نختار بين العثور على الماء أو الهلاك » (٣٢) . ومع ذلك فقد كان فى الجيش نفر يؤثرون هذا على أهوال رحلة البحر . يقول الملازم فرترى : « كانت كل أمانى مركزة فى اللحظة التى استرد فيها شهية الطعام التى خلفتها ورائى فى جوزو » (٣٣) .

ولم يكن هناك بالطبع طريق معبد ، وهذا الطريق موجود اليوم - وهو الطريق من الاسكندرية الى العلمين عبر الصحراء الليبية . ولم يمض الا القليل على سير الجند حتى طلعت الشمس فألهبتهم بأشعتها . وكانت الآبار أو الصهاريج التى وجدوها فى الطريق قد جفت أو ردها البدو . وسرعان ما اشتد وقع الحر والظما على الجنود ، ومع ذلك واصلوا سيرهم - لأنه لم يكن بد من السير . وكان على رأسهم بونابرت نفسه راجلا ، والى جواره يسير كفاريللى تفوص ساقه الحشبية فى الرمال ، وديما قائد الفرسان ، بدون فرس ، ودومارتن قائد المدفعية ، بلا مدفع .

وكانت تتراءى على صفحة السماء فى الفجر ظلال نحيلة على التلال ، هى ظلال نفر من البدو يمتطون جيادهم ويحملون المزاريق . وسرعان ما تجمع منهم نحو أربعمئة ، فلما رأوا أنه لم يكن للفرنسيين خيالة تشجعوا ، وأخذوا يعبرون بخيلهم وسط الثغرات التى بين الطوابير الفرنسية وهم يصرخون صرخات يجمد لها الدم فى العروق . غير أنهم هربوا لأقل بادرة من المقاومة الجدية ، ولكنهم لم يعودوا بأيديهم خاوية ، فقد أسروا نفرا من المتخلفين - وفيهم عدد من النساء - جعلهم الاعياء والضنك لا يكثرثون للخطر . وعندما رد هؤلاء الأسرى بعد أيام روى قصة عجيبة ما لبثت أن تناقلها الجنود فحذرتهم من التخلف فى كل زحف قال . فأما الأسرى من الذكور فقد أعجب أسروهم ، الأشداء برغم نحافتهم ، أعجابا شديدا ببشرتهم البيضاء الناعمة فاغتصبوهم مرارا وتكرارا ، وأما النساء فقد اكتفوا بضربهن . وليس فى الاستطاعة تعليل ميول قوم يغتدون بلبن الابل على مدار السنة .

وماوافت الساعة الثامنة صباحا حتى وصلت الطوابير الفرنسية الى حصون الاسكندرية الخارجية . وكانت الريح قد سكنت . وسقط بعض الرجال ، ومنهم الملازم فرترى ، على الأرض وقد صرعهم الحر ، حين صدر الأمر للطوابير بالتوقف . وكان هناك لحسن حظ فرترى بثر قريبة من البقعة التى سقط فيها ، ولكن هذا الحظ لم يوات جميع الرجال (*) .

واستعرض الجنرال بونابرت حصون المدينة من قاعدة عمود بومبى (السوارى) الذى أصبح بعد ذلك مقر قيادته لعدة أيام ، وأمر جنوده بالهجوم دون أن ينالوا قسطا من الراحة . ثم جلس وراح يعبت بسوطه فى تل من الشقف . لقد نال منه الظمأ كثيرا ، ولكن أحدا لم يستطع أن يجد له ماء . على أن ضابطا أفلح فى أن يحمل برتقالات طوال الطريق من مالطة الى عمود بومبى قدمها اليه فأكلها الجنرال بشراهة .

وكان السيد محمد كريم قد أرسل فى العشية السابقة هذه الرسالة الى مراد بك بالقاهرة : « سيدى ، ان العمارة التى حضرت مراكب عديدة ما لها أول يعرف ، ولا آخر يوصف . لله ورسوله . داركونا بالرجال » (٣٤) . ولم يكن هناك ما يستطيع عمله حتى لو أتيح له العلم بظروف الجيش الفرنسى التعيسة وما يكتنفه من الخطر . ذلك أن المدافعين عن الاسكندرية ، فيما روى نقولا الترك ، لم يكن لديهم غير برميل واحد من البارود لمدفيعتهم . أما الخيالة ، اذا استثنينا البدو عديمى النفع ، فلم يكن منهم أكثر من عشرين مملوكا . وأوفد السيد محمد كريم لا أقل من ثلاثة عشر رسولا الى القاهرة خلال الليل وهو خائف من الفرنسيين بقدر خوفهم مما ينتظرهم من أخطار ومشاق . وكانت ليلة ليلاء « كاد الطفل الرضيع يشيب منها » (٣٥) ، كما يحلو لنقولا الترك أن يقول . ويؤكد عبد الرحمن الجبرتى ، المؤرخ المعاصر لنقولا الترك ، أنه « لم يشعر أهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد » ، وهى مبالغة تصور لنا حالة المدافعين النفسية .

وكان العطش قد نال من الفرنسيين أكثر مما نال الخوف من أهل الاسكندرية فما حلت الساعة الحادية عشرة صباحا حتى سقطت المدينة فى قبضتهم .

(*) من العجيب أن نجد فرترى ، وهو من رجال نصف اللواء التاسع ، التابع لفرقة الجنرال دينيه ، يشترك فى الزحف على الاسكندرية ، ولكن هذا ما حدث فعلا كما ذكر فى يومياته ، وليس هناك ما يدعونا للتشكك فى صدقها ، وهذه إحدى مسائل التاريخ الصغيرة المحيرة .

الفصل الثالث

الى الأهرام

١

بينما كان الفرنسيون فى الاسكندرية يتأهبون للزحف جنوبا وصل رسل محمد كريم الثلاثة عشر الى مراد بك يحملون النبأ المشئوم . يقول نقولا الترك « فانقلبت مدينة مصر قلبة واحدة . . . فيا له من يوم كان مهولا ، وساعة كانت عظيمة . . . » (١) ودعا بكير باشا الديوان فورا ، فحضر جميع أئمة الدين بينهم الشيخ محمد عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر . ولم يتخلف من البكوات غير صالح بك الذى كان قد ذهب الى مكة ليؤدى فريضة الحج .

وافتح المناقشة مراد بك ، وكان شركسيا طويلا ملتحيا ، يستطيع بضربة واحدة من سيفه أن يفصل رأس ثور عن جسده ، فهاجم الباشا قائلا : « ان الافرنج ما حضروا الى هذه البلاد الا باذن من الدولة العلية . ولا بد أنت أيها الوزير عندك الخبر والعلم بذلك . ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم » (٢) ونفى الباشا التهمة عن نفسه ساخطا « لا يصح منك هذا الكلام أيها الأمير . ان الدولة العلية لا يمكن أن تسمح بمثل هذا الأمر على بلاد الاسلام . فدعوكم من هذا الحديث والكلام ، وشددوا هميتكم ، وصمموا بيتكم ، وانهضوا نهضة الأبطال ، واستعدوا للحرب والقتال ، وقدموا ذواتكم للمغازاة ، وفوضوا الأمر لله » (٣) .

فلما انتهى الديوان الى هذا القرار ، أشار بعض البكوات والعلماء بأنه يحسن قبل بدء المعركة أن يباد جميع النصارى من سكان القاهرة - ويذكرنا هذا الاجراء المقصود به تأمين البلاد باقتراح قدم قبل ذلك بثلاثة أشهر لغرض

الدفاع عن لندن (*) . وناقش المجتمعون فوائد هذا الاقتراح حيناً ، فاعترض عليه الباشا وابراهيم بك شيخ البلد . ثم استقر الرأي على أن في سجنهم الكفاية . أما عن التدابير الايجابية ، فقد قرر الديوان أن يسير مراد بك شمالاً على رأس قوة مسلحة كبيرة ليلاقى الفرنسيين ، في حين يعسكر الباشا وابراهيم بك ببقية الجيش في ميناء بولاق النهري .

وتقلد الأهالي المسلمون السلاح بينما كان الأئمة والعلماء يحضون المؤمنين على قتل الغزاة . ولا بد أنهم تقلدوه في كثير من الخشية كما فعل المالطيون من قبل ، لأن ابراهيم بك أخبرهم بأن الفرنسيين شياطين لهم قوة بدنية رهيبة . قال : « ان الكفار القادمين لقنالكم لهم أطافر طولها قدم ، وأفواه ضخمة ، وعيون ضارية . انهم متوحشون سكن الشيطان أجسادهم ، وهم يمضون الى المعركة تربطهم السلاسل بعضهم ببعض » (٤) على أية حال هذه هي العبارات التي نسبها لابراهيم صيدلي ايطالي لقيه الملازم فرترى بعد ذلك في القاهرة ، ولكن لا ننسى أن الصيادلة الايطاليين يميلون الى التهويل والمبالغة .

وبعد يومين من وصول نبأ نزول الفرنسيين غادر مراد بك القاهرة على رأس جيش مختلط ، فيه نحو ثلاثة آلاف أو أربعة من فرسان المماليك ، وأتباعهم المسلحون ، والمتطوعون القاهريون ، والبدو الذين دعاهم لمعاونته في دفع العدو المشترك - وعدة الجيش كله تبلغ نحو ٢٠.٠٠٠ رجل . وأمر في الوقت نفسه أسطولا من المراكب والغلايين المسلحة بالمدافع بالتقدم شمالاً ومساعدة الجيش اذا دعت الضرورة .

وران على القاهرة فزع صامت بعد رحيل مراد . فأقفرت شوارعها الا من اللصوص . ورغبة في تهدئة الخواطر وتجنب أعمال النهب والسلب أو حالة الذعر اذا شن العدو هجوماً مفاجئاً على المدينة ، أمر البوليس بفتح المقاهي طول الليل وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين . ويقول المؤرخ الجبرتي انه مع ذلك كان الأغنياء ينقلون أمتعتهم الى المخابئ في الريف ويستعدون للهروب من المدينة ، وبينما كانت الأنباء تتواتر بتقدم الفرنسيين « كانت العلماء تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرأون البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ الفقهاء (من أرباب الطرق) . . ويعملون لهم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء » (٥) . وفي الثالث من صفر (الثلاثاء الموافق ١٧ يوليو) « نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المنادة بذلك كل يوم فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق . . . وخرجت الفقهاء وأرباب الأشاير بالطبوس والزمور والأعلام

(*) انظر صفحة ٤٤ .

والطاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة . وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف الى القلعة فأنزل منها يرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وحوله ألوف من العامة بالنبايت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ، (٦) . ولو كانت المعارك تكسب بالضجيج ، أو كان فى الامكان نقل الحيرة والاضطراب الى صفوف الأعداء ، لكان للمصريين تفوق حاسم على الفرنسيين .

ولم يبق بالقاهرة سوى الشيوخ والنساء والأطفال . واحتشد ببولاق جميع الذكور من المسلمين القادرين على حمل السلاح (ولا بد أنهم كانوا يناهزون مائة ألف) ، وزادت هناك أسعار الطعام بأسرع من زيادة عدد المحاربين . وعمت الفوضى وانتشر النهب والسلب فى الريف المحيط بالقاهرة . ولم تكن حيرة القادة بأقل من حيرة جماهير الشعب ، وتضاربت المعلومات عن الطريق الذى اتخذته الفرنسيون ، يقول الجبرتى : « وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم » (٧) .

فلما ظهر الفرنسيون آخر الأمر فى ١٢ يوليو ، لم تتح لواحد من رجال إبراهيم فرصة لاطلاق رصاصة أو لرفع نبوته .

٢

كانت الساعة قد بلغت الثامنة أو نحوها فى صبيحة ٢ يوليو حين توقفت الطوابير الفرنسية عن الزحف على رمية مدفع لا أكثر من الأسوار الخارجية لمدينة الاسكندرية . وبذل الفرنسيون بعض المحاولات للاتصال بالمدافعين عن المدينة ، الذين شوهدوا متكاثرين على قمة الأسوار . يقول الملازم ديفرنوا : « وفجأة انطلقت من أفواههم صرخات مخيفة - من أفواه الرجال والنساء والأطفال - وفى الوقت نفسه انطلقت نيران المدفعية صوبنا فعرفنا نيات العرب . وأصدر بونابرت الأمر بأن ينفخ فى الأبواق لدعوة الجيش للهجوم ، فتضاعفت قوة الصراخ » (٨) .

كانت فرقة الجنرال مينو قد اتخذت مكانها الى الشرق تجاه القلعة المثلثة كما يسمونها ، أما فرقة كليبر فالى الشمال أمام بوابة بومبى ، وأما فرقة الجنرال بون فى الغرب أمام باب رشيد . ومع أن الأسوار كانت ضعيفة فى كثير من أجزائها ، فقد كان من العسير احداث ثغرة فيها بدون استعمال المدافع . وبينما كان الفرنسيون يحاولون ارتقاءها قذفهم المدافعون عنها بوابل من الأحجار والرصاص . وأصيب الجنرال كليبر الذى كان يصدر التعليمات لرجاله من أسفل السور بجرح شديد من رصاصة فوق الحاجب ، أما الجنرال مينو فقد

أصابته الأحجار المتساقطة بسبعة جروح . ويندر أن يصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمسة الأولى في أية حملة حربية . على أن هذه المرحلة انتهت سريعا : فقد استطاع الفرنسيون ، الذين اشتد ظمؤهم وعنادهم ، أن يحددوا ثغرات في الحصون ويرتقوها في مواطن عدة . بينما تقهقر المدافعون سريعا إلى داخل المدينة .

وكانت الإسكندرية منذ شيد الفاتحون العرب أسوارها الخارجية قد انكمشت حتى أصبحت لا تشغل أكثر من لسان الأرض الضيق الذي يفصل الميناء الغربى أو « الجديد » عن الميناء الشرقى أو « القديم » . وعلى رأس شبه الجزيرة ، في موقع الفنار القديم المشهور ، كانت تقوم القلعة الداخلية . أما ما حدث عقب اقتحام الفرنسيين للأسوار الخارجية فليس واضحا تماما . ولا شك في أن قلعة الفنار التي كان يتولى القيادة فيها السيد محمد كريم قاومت إلى ساعة متأخرة من الليل ، وما من شك أيضا في أن قتالا نشب في شوارع المدينة . ويؤخذ من تقرير بونابرت إلى الإدارة أن « كل بيت كان قلعة » (٩) أما بورين فيقول أنه لم يكن هناك إلا حوادث قنص أو تصيد متفرقة - ولكن بورين كان مع بونابرت عند عمود السوارى فقط لا في شوارع المدينة . ويقول بورين هذا ، ويقول تورمان ، أن الفرنسيين لم يثاروا من المدافعين على الإطلاق ، وأنهم احتلوا المدينة دون إخلال بالنظام . ولكن الأدجوتانت جنرال بوايه ، أحد هيئة أركان الحرب العامة ، يروى رواية مخالفة . فقد كتب لوالديه يقول : « حين دحر المدافعون على جميع الجوانب احتموا باللهم ورسولهم ، فملأوا الجوامع . وذبح الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، وحتى الأطفال ، عن بكرة أبيهم . وبعد نحو أربع ساعات هدأت سورة جنودنا في النهاية » (١٠) . وخطاب بوايه هذا من الخطابات التي وقعت في يد البريطانيين فنشروها للدعاية ، ولعلمهم عبثوا بتنصه . على أن شهادته يؤيدها الجندى ميه الذى كان يشترك فعلا في القتال في فرقة كليبر . يقول في مذكراته : « ظننا أن المدينة استسلمت ، وشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام المساجد ... فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نبقى على أحد فيه . وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال ... بحمد السناكى . ولكن لما كانت العواطف الانسانية أقوى من الانتقام ، فقد توقفت المذبحة حين تعالت أصواتهم طلبا للرحمة ، فاستحيينا ثلثهم » (١١) .

والمدنيون غير مفروض فيهم أن يطلقوا النار على الجنود ، وعمل الفرنسيين قد يبرر ، حتى إذا أخذنا بقواعد الحرب المتعارف عليها بين الأمم التي تسمى متحضرة . وقد تلقى المسلمون ، الجاهلون بقواعد حرب المتحضرين ، درسا

نافعا ، كذلك تعلموا أن المرء يجب ألا يخلط أبدا بين الناس ، فيحسب محرويه أعداء ، (*) !!

في هذه الأثناء كان قائد السفينة التركية قد عرض خدماته للتوسط في تسليم المدينة . وكلفه بونايرت أن يخبر الشيوخ والعلماء والأعيان أن المزيد من المقاومة سيضطره الى أن يقتلهم جميعا بحد السيف ، وهو اجراء صارم يود أن يتجنبه ان استطاع . وما لبث أن حضر قبيل الظهر وفد الى مقر القيادة عند عمود بومبي لتسليم المدينة وحلف يمين الطاعة . ولا بد أن المشهد كان طريفا . كتب أحد شهود العيان في عبارات يشوبها التفكك « ان القواد ، والجنود ، والترك ، والعرب ، والابل - كل هذه المتناقضات ألقت صورة مرتجلة للتقلبات المزمعة أن تغير من طبيعة هذا البلد » (١٢) وفي هذه اللحظة وقع حادث اتاح لبونايرت الفرصة لاعطاء الجمهور فكرة عن صرامته وعدله . يقول هذا الشاهد نفسه : « ان جنديا فرنسيا أحضر أمامه لأنه انتزع خنجرا من عربى مسالم . وفي لحظة تأيدت التهمة ، فضرب الجندي بالرصاص على الفور » (١٣) وبين هذا الحادث ، كما بين ما وقع بالمصريين من مكروه في المسجد ، أن الجنرال بونايرت ، عضو المجمع اللغوى والقائد العام للحملة ، لا يطيق العبث . على أنه من المؤكد أن هذا العربى المسالم كان ، فى ظروف مخالفة ، يمكن أن يضرب بالنار ليتعلم ألا يحمل خنجرا .

أما وقد أحدث بونايرت هذا الأثر فى نفوس المصريين ، فقد أخذ يتجول فى المدينة يحرسه أصدقاؤه الجدد وفريق من المرشدين . وبينما كان يمر فى بزقاق لا يتسع لمروء أكثر من رجلين معا ، أطلق أحد القناصة النار من نافذة فكشط حذاءه الأيسر . ورد بعض الجند بإطلاق النار وتسلق غيرهم الى داخل البيت عن طريق السطح فوجدوا القناصة . وكانا رجلا وامراة ، فقتلوهما فوراً (**). ولم يقع بعد ذلك حوادث أخرى ، وما لبث القائد أن وصل الى بيت القنصل الفرنسى المواجه للميناء الشرقى ، حيث اتخذ مسكنه .

ومن أول أعماله أنه أمر بأن يعلق فى جميع أرجاء المدينة ، ويقرأ على الملأ ، مئات النسخ من منشوره الموجه لأهل مصر ، والمطبوع بالعربية والتركية والفرنسية . وهو منشور عجيب ، حتى فى صورته الفرنسية المخففة التى يأخذ عنها الناقلون عادة . والنص التالى هو النص العربى الذى يظهر بصورة

(*) واضح فى هذه الجملة أسلوب المؤلف الساخر فى عرض وجهة نظر الفرنسيين الذين زعموا أن الجيش الفرنسى جاء ليحرر المصريين من نير الماليك . (المترجم)

(**) ذلك هو الحادث فى رواية بورين [المذكرات ١ ، ٢٦١] أما بونايرت فيقول انه لم يكن فى البيت سوى رجل واحد محاط بست بنادق [الحملة المصرية والسورية ، فى رسائل غابليون الأول ٢٩ ، ص ٤٣٤] .

أوضح كيف تعتمد بونابرت أن يضرب على وتر المشاعر الدينية للمسلمين ، وكيف جمع جمعا غريبا بين هذا وبين الشعارات التحررية المألوفة في الثورة الفرنسية . ولعل هذا المزيج العجيب هو الذى كان يدور في ذهنه حين تحدث في سنواته الأخيرة عن « القرآن الجديد » الذى كان فى نيته أن يضعه ليحقق به أهدافه ، ويحمله بيمينه وهو يغزو بلاد الشرق .

مرسوم (*)

[(بسم الله الرحمن الرحيم) لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه] . [من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية] السر عسكر الكبير [أمير الجيوش الفرنساوية] بونابرته [يعرف أهالى مصر جميعهم] أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأباذه والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم [فذلك كذب صريح] فلا تصدقوه وقولوا [للمفترين] اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم (**) وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيول العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا يئأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرايجية [وأعيان البلد] قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون

(*) الفقرات المصورة بين الأقواس المربعة لا يحتوينا النص الفرنسى الرسمى ، والعبارات

النى تحتها خط تختلف اختلافا ظاهرا فى النص الفرنسى .

(**) فى النص الفرنسى الرسمى « واننى أحترم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك » .

مخلصون (*) واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها الكواررية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين [لحضرة] السلطان العثمانى وأعداء أعدائه [أدام الله ملكه] ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً الا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعالى مراتبهم طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالآكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر (*) المادة الأولى جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحل وأحمر (*) المادة الثانية كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار (*) المادة الثالثة كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجاك السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه (*) المادة الرابعة المشايخ [فى كل بلد] يختمون حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأماكن التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شئ منها (*) المادة الخامسة الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلزمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية تحريراً بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر سيناور سنة ١٢١٣ من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى آخر شهر محرم سنة هجرية أ هـ بحروفه (١٤) .

كتب المندوب البحرى جوير الى وزير البحرية يقول : « لعلمكم ايها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الاسلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى . ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور ، ولا شك فى أنه محدث أثراً كبيراً جداً » (١٥) . وقد اعترف نابليون نفسه وهو يعقب عليه فى منفاه بسانت هيلانه أن المنشور قطعة من الدجل « ولكنه دجل من أعلى طراز » (١٦) . وقال لشخص آخر من أخصائه فى سانت هيلانه « على الانسان أن يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح » (١٧) . وبعد اصباح المنشور

(*) فى النص الفرنسى الرسمى « أصدقاء مخلصون للمسلمين » .

بيومين كتب الجنرال ديزيه من قرية على حافة الصحراء الليبية يطلب مزيدا من النسخ قائلا « انه يحدث تأثيرا كبيرا » (١٨) .

وأنفق الفرنسيون عشية ٢ - ٣ يوليو في مفاوضات مع السيد محمد كريم . وفي الصباح استسلم ، وأعلن خضوعه للفتح ، وأقسم يمين الولاء له ، ورأى بونابرت من حسن السياسة أن يكون كريما . فغفر لمحمد كريم مقاومته للهجوم ، وثبته حاكما على الاسكندرية ، ووكل اليه حفظ النظام وتموين الفرنسيين . ولعله في هذه اللحظة تحول بونابرت من القائد الى الحاكم - وهذا انقلاب يتطلب ضربا رقيقا جدا من الدجل .



لم يأت يوم ٣ يوليو حتى كان جميع الجنود والخيول والمدنيين قد أنزلوا الى البر . ودخلت الناقلات وبعض الفرقاطات وصغار السفن الميناء القديم . ودهش الجنود والمدنيون على السواء لمظهر الاسكندرية الذي خيب آمالهم . ذلك أن الفخامة القديمة أصبحت أثرا بعد عين . فالمدينة - باستثناء مسلتين وعمود بومبي ، وهو أثر لا يروع الناظر فيه سوى ارتفاعه البالغ خمسة وسبعين قدما - كانت خلوا من كل شيء ، حتى الأطلال ، اللهم الا الحديد منها . وقد كشفت الحفائر التي أجريت منذ الحملة الفرنسية عن قليل من الآثار القديمة ، ولكن اسكندرية البطالمة والقيصرية في أكثرها لم تهو الى الأرض ولم يردمها التراب ، بل تحطمت وهضمت على طول الزمن ودوران الحياة الذي لا ينسى . أما أرصفة الميناء فكانت خليطا من الصخور وكتل الجرانيت الأصواني المصقولة والقطع المتناثرة من الأعمدة الهلنستية . وهذه الصخور والأحجار بما يغطيها أحيانا من رسوم هيروغليفية دقيقة أو نقوش يونانية كانت تخلط كيفما اتفق بالطوب الأخضر والأواح الخشب والطين لصنع البيوت والحصون : وهو مشهد يحزن قلب الأثري والمعماري ، ولكنه للمؤرخ درس عملي مؤثر . فأطلال المدن لم يحتفظ بها سليمة الا حيث تغلب الموت - كما حدث في تدمر والبتراء وبومبي .

أما الاسكندرية فلم يغلبها الموت وان مرت بأوقات عصيبة . كانت شوارعها قدرة غير مرصوفة ، مقفرة من الشجر الا النخل القليل ، ولكن فيها مساجد وأسواق وناسا . وكان الطاعون الدملي ، وهو وباء يجتاح البلاد في ذلك العهد كل عام ، قد ختم غارته لتوه ، والأغنياء لا يزالون مختبئين في دورهم بدافع الخوف من الفرنسيين أكثر من الطاعون ، ولكن سرعان ما عادت الحياة سيرها المألوف . كتب المواطن جوير لأخيه يقول : « انك ترى في الأسواق الخراف والحمام والتبغ ، ثم عددا كبيرا من الحلاقين يضعون رؤوس زبائنهم بين ركبهم كأنهم يستعدون لقطعها لا لحلقها ، ولكنهم غاية في الخفة

والمهارة « (١٩) وكانت النساء قليلات في الشوارع الا نساء الطبقات الدنيا اللاتي اثار مظهرهن تقزز الفرنسيين . وكن يرتدين جلبابا واحدا ، أزرق في العادة ، قدرا دائما ، ويسرن حافيات الأقدام عاريات السيقان ، ويلطخن حواجبهن بالكحل وأظافرهن بالحناء ، ويكشفن في مرح عن أى عضو من أعضائهن الا وجوههن . أما الأطفال فعراة .

ولكن مظهر الذكور وقع من نفوس الفرنسيين موقعا أفضل . كتب بونابرت الى حكومة الادارة يقول : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التي أخذناها عنها من رحالتنا . انها أمة هادئة ، بأسلة ، معتزة بنفسها » (٢٠) وكتب أخوه لوى في خطاب لجوزف بونابرت يؤمن على هذا الرأى فقال : « ان في الشعب رباطة جأش مدهشة . فلا شىء يهزمهم ، وليس الموت عندهم أكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزى أما طلعتهم فمهيبة . وسحننا نحن ، حتى أقواها وأبرزها ملامح ، تبدو كوجوه الأطفال اذا قيست بسحنهم » (٢١) . ونستطيع أيضا أن نسوق الى القارىء رأى الجندى ميه جنبا الى جنب مع رأى الامبراطور وملك هولندا العتيدين . يقول ميه : « قد يبدو زى الأهالى لأول وهلة عديم الشكل . ولكنى بعد أن تأملتة جيدا أدركت أنه أكثر مهابة من زينا . فهم يحلقون رؤوسهم ويلبسون طاقية حمراء صغيرة يسمونها بالعربية طربوشا ، ويطوون حولها عمامة خمس طيات أو ستا . ويرتدون عدة قفاطين فضفاضة من الحرير أو القماش بعضها فوق بعض ، وكلها طويل يصل الى الكعب كأثواب الكهان . أما سيقانهم ، وأرجلهم فى الغالب ، فعارية ، وهم يطلقون لحاهم فتطول وتضفى أحيانا على شيوخهم مهابة وجلالا » (٢٢) .

وكان هؤلاء الرجال ذوو المظهر المهيّب الجليل ينفقون سحابة يومهم جالسين على عتبات دورهم أو فى المقاهى يدخنون ، ويحتسون القهوة ، ويترفعون عن العمل .

ولكن اذا كان مزاج الشعب معتدلا ، فان الجو لم يكن كذلك . فبعد أن قضى لوى بونابرت خمسة أيام فى الاسكندرية كتب الى جوزيف يقول : « ان الجو يهد قواى ، وسيغيرنا جميعا ، فاذا عدنا استطعتم تبين أثره فينا من بعيد » (٢٣) . وكانت ريح الخماسين قد بدأت . يقول تورمان : « ذات صباح لطيف كدر الجو ضباب ضارب الى الحمرة مؤلف من ذرات دقيقة من التراب المتقد ، وكان من العسير علينا أن نتبين قرص الشمس . وجفف هذا الهواء الذى لا يطاق ألسنتنا وألهب جفوننا وسبب لنا ظمأ لا يطفأ . وكفت أجسامنا عن العرق وشعرنا بضيق فى الصدر واعياء وثقل فى الأطراف ، ولم يكد الواحد منا يقوى على الكلام » (٢٤) . على أن هذا كله كان غاية فى اللطف اذا قيس بما كان الجنود الذين بدأوا زحفهم فى الصحراء يقاسونه فى تلك اللحظة .

كان بونابرت مصمما على ألا يضيع من الوقت الا أقله في الاسكندرية ، لذلك لم يتح لجنوده فرصة لمشاهدة معالم المدينة . وكان الأسبوع الذي أنفقه فيها حافلا بالنشاط المحموم يبذله كل انسان . وفي وسط هذه الفوضى البادية ، التي اختلط فيها الجنود والياوران وأعيان المصريين والمندوبون الفرنسيون والضباط البحريون ووفود البدو المتوحشين ، نزل السادة أعضاء اللجنة العلمية الى البر فوجدوا أنفسهم مهملين ، بل ان المهندس جولوا يشكو في مذكراته من أن أحدا لم يعن بانزال أمتعتهم الخاصة ، وان قبطان سفينته يطارده في الواقع فوق سطح السفينة . وحرم آخرون من الأعضاء الذين كانوا على سفن أخرى من الطعام ، واضطروا الى النوم على السطح . فلما نزلوا الى البر لم يجدوا فراشا ولا طعاما . ولما علم دولوميو بما هم فيه من حال سيئة شكا الى بونابرت ، فتقررت لهم جرايات ومساكن كالجنود . أما حال الفنانين والأدباء فكانت أسوأ حتى من حال المهندسين . كان الجنرال كفاريللي ، المنوط باللجنة كلها ، لا يتحدث الا للمهندسين العسكريين ويبدى احتقاره لمن عداهم . فاذا جاوزت شكواهم الحدود كلفوا بالأعمال الكتابية أو بحمل الرسائل .

واذا كان مفهوما أن يشعر العلماء بالاهانة ونكت العهد - وحق لهم هذا لانهم أغروا بشتى الوعود لينضموا الى الحملة . ولأنهم كانوا ينتظرون أن تستخدم معارفهم وتستغل مواهبهم - فانه يصعب على المرء أن يشاركهم سخطهم على التسوية في المعاملة بينهم وبين عامة الجند . ذلك أنه لم يكن بد من تفضيل الأهم على المهم ، وكان الأهم هو تموين الجيش والخيول ، والاستعدادات للزحف على القاهرة ، وانشاء ادارة مدنية ، والحصول على عملة محلية ، وتسعير السلع والعمل ، وتشديد حصون منيعة جديدة ، وتوزيع القوات البحرية ، وتنظيم المستشفيات ، لأن مائتين من الفرنسيين على الأقل كانوا قد جرحوا في القتال (*) ، كل هذا وجه اليه بونابرت اهتمامه جهد استطاعته ، ولم يكن هذا الجهد كافيا في جميع الظروف والحالات ، فلم يتح له وقت يبذله في سبيل راحة علمائه . وكان ايثارهم على غيرهم خليقا بأن يزيد معنوية الجنود هبوطا على هبوط . ولما رأى الجنود أن جميع المحاربين - حتى قوادهم - يشاركونهم متاعبهم ، واذ كانوا بطبيعتهم شكائيين متذمرين لأنهم فرنسيون ، فقد نفسوا عن غضبهم بصبه على رؤوس المدنيين - المدنيين في حكومة باريس ، فبدأوا يتهمونهم بأنهم ما دبروا الحملة على مصر الا تخلصا من بونابرت وجيشه ، والمدنيين من رجال الحملة ، لا سيما مجاللون وغيره من الخبراء في الشئون المصرية ، فأروا في وصفهم البراق لمصر ومواردها دعابة سمجة على حسابهم .

(*) ذكر بونابرت في تقريره للإدارة أن عدد الإصابات بلغ ٣٠ - ٨٠ قتيلًا و ٨٠ - ١٠٠ جريح فرنسي ، وذكر في « الحملتين المصرية والسورية » أن عددها ٣٠٠ فرنسي و ٧٠٠ - ٨٠٠ مصري بين قتيل وجريح . وكتب الكبتن جيو في خطاب لأمه يقول ان الفرنسيين فقدوا نحو ٣٠٠ رجل .

فى هذه الظروف كان من الحكمة ألا يميز المدنيون على الجنود . وبمضى الوقت يعلم المدنيون أن يعتبروا أنفسهم جزءا من الجيش وأن يشاركوا فى متاعبه ، فكان لذلك أثره فى تقدير الجنود لخدماتهم .

على أن واحدا على الأقل من هؤلاء المدنيين لم يضيع وقته هباء فى لاسكندرية ، ولم يشك من المشاق رغم سنيه الاحدى والخمسين . ذلك هو فيفان دينون ، الذى ما فتئت عيناه وحواسه مرهفة ، وقلبه متحفزا . وأدهشه من الاسكندرية للوهلة الأولى ما خيم عليها من سكون وحزن : يقول « لم يذكرنى بضجيج البلاد الأوربية ونشاطها غير ضجيج العصافير ونشاطها » (٢٥) . واضطر كما اضطر أكثر رفاقه الى ترك أمتعته على السفينة ، وكانت نتيجة المحاولة الفاشلة التى بذلها لجلب قمصانه الاحتياطية من السفينة جونون أنه ألقى نفسه عند الغروب فى بقعة مهجورة من الميناء . وقضى الفنان ليلة ليلاء . هو يحاول العودة متأبطا كراسته تتعقبه قطعان الكلاب الضارية المكشرة عن ثيابها « سادس الضربات التى ابتليت بها مصر وأفظعها » (٢٦) فاضطر فى النهاية لخوض المياه وتسلق الأسوار والجسور . وكان الليل قد ان্তصف حين انتهى به المطاف الى نقطة حراسة فرنسية . وفى الغد أخذ يجوب المدينة دون أن تفت فى عضده أهوال البارحة ، وبدأ جولته من عمود بومبى . وعاد ليشهد فى اللحظة المناسبة السيد محمد كريم يقدم خضوعه لبونا بريت . يقول عنه : « تبينت فى التعبير الذى ارتسم على وجه ذلك الرجل خداعا ونفاقا هزته ثقة القائد الأعلى وسماحته ولكنها لم تقهره . ولم يكن قد عرف بعد مدى مواردنا ، ولا تأكد من أن ما وقع لم يكن نتيجة تهوئش فقط ، ولكنه حين رأى أن ٣٠٠٠ جندي ومدفعيتهم قد أنزلوا الى البر لم يأل جهدا فى الالتصاق ببونا بريت . ولم يبرح مقر القيادة . وكان بونا بريت قد ذهب الى فراشه ومحمد كريم لا يزال فى الحجرة المجاورة » (٢٧) . ولكن الذى تبين فيما بعد أنه كان مخادعا حتى فى ولائه هذا .

وبعد أن درس دينون سحنة محمد كريم ، ورسم الأجزاء المتنافرة التى تؤلف عمود بومبى ، عبر « مدينة العرب » وكانت وقتها أرضا فضاء تنتشر فيها القمامة ويتخللها بعض الحقائق ، وأعجب بصهريج المياه ، وجمال بين خرائب كنيسة القديسة كاترين العالة - « التى تزوجت الطفل يسوع بعد ٤٠٠ سنة من موته » (٢٨) - ومسلة كليوباترة ، ومر بالحمامات العامة ، وكان دخولها ممنوعا على الجمهور حتى يغسل فيها الجنود الفرنسيون ثيابهم ، وأحزنه تهدم الجامع الرئيسى ، ورسم كل شئ رآه ، ثم انتهى به المطاف الى الحى المجاور لباب رشيد . وهناك رأى شابة فرنسية ، شقراء الشعر وردية البشرة ، جالسة على حجر ما زالت تلصق به الدماء المتخلفة من قتال البارحة ، وحيدة بين جثث لم تدفن بعد . وسألها دينون هل ضلت طريقها ، فقالت لا ، إنما هى

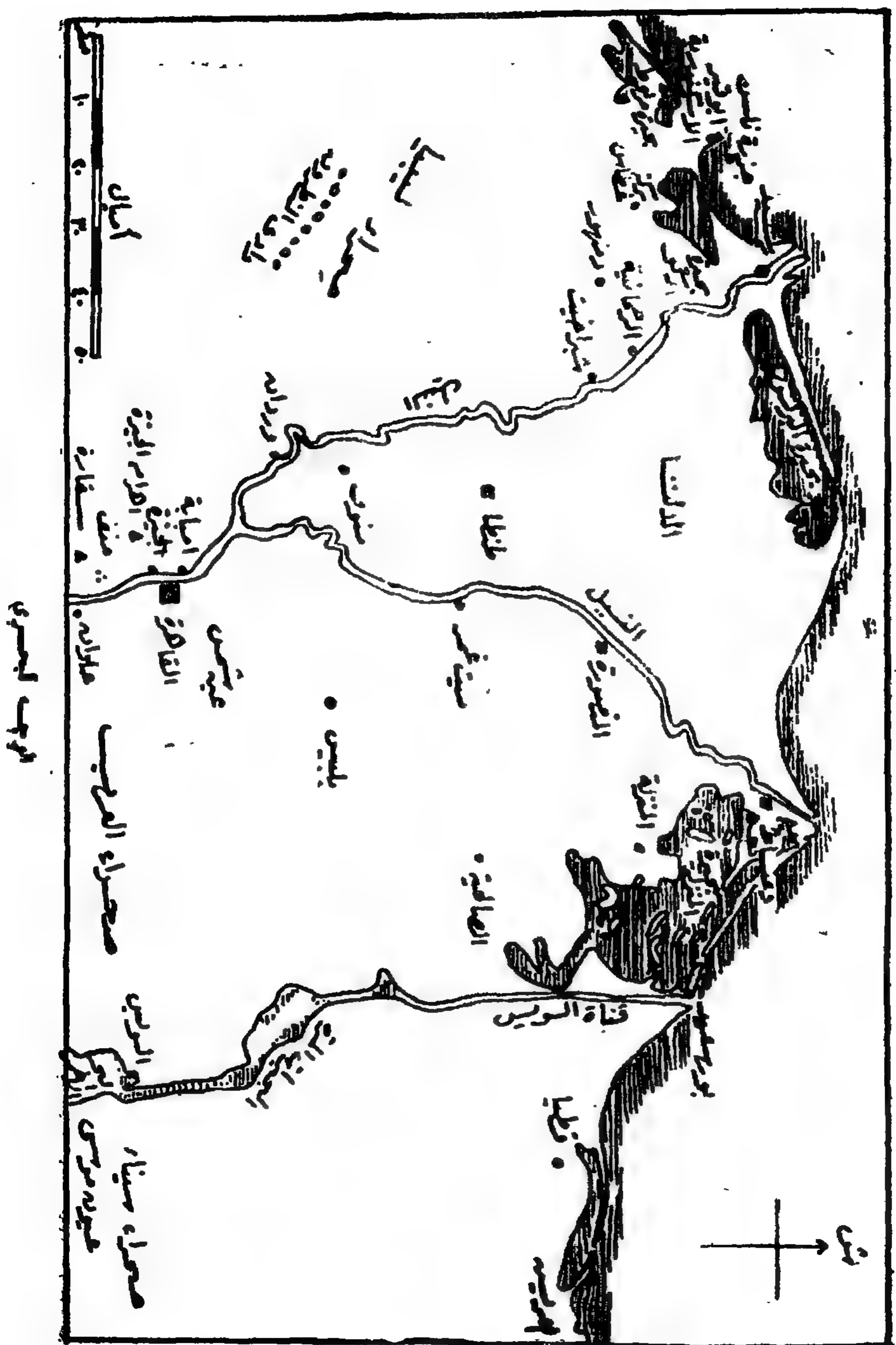
فى انتظار زوجها الذى عليه أن يبرح الاسكندرية ذلك المساء مع فرقة ديزيه
الزاحفة الى القاهرة • وأضافت - دون اكتراث - أنها هى زوجها سيبيتان فى
الصحراء تلك الليلة •

٣

قال بونابرت مرة ان كلمة « مستحيل » لا وجود لها فى قاموسه • وهو
بالطبع لم يقصد بهذا أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء ، بل انه اذا استقر رأيه
على أن شيئاً من الأشياء ضرورى ، فان فى استطاعة الآخرين تنفيذه أيضاً •
كان الجنود لايزالون ينزلون الى البر حين أصدر الجنرال بونابرت فى يوليو أمره
الى فرقة الجنرال ديزيه ببدء الزحف على دمنهور • وبدأ رجال ديزيه زحفهم
عند هبوط الظلام ، وكانوا معسكرين فى الخلاء خارج الاسكندرية ، ثم تبعتهم
فرقة رينيه فى ٥ يوليو • وتقرر أن تتلو الفرقتين الفرق الثلاث الباقية فى
اليومين التاليين - اثنتان بطريق دمنهور ، والثالثة بطريق رشيد ، وأن يلتقى
الجيش كله فى الرحمانية على الفرع الأيسر لدلتا النيل • والمسافات بين هذه
البلاد لا تبدو ذات بال على الخريطة ، فهى خمسة وأربعون ميلاً من الاسكندرية
الى دمنهور ، وخمسة عشر من دمنهور الى الرحمانية ، وجملة الرحلة ثلاثة
أيام • ولكن الظروف المحيطة بالزحف يصفها أكثر الناس بأنها مستحيلة •

كان بونابرت مصمماً على الوفاء بوعدده يوم زعم أن الفرنسيين لم يأتوا
الا أصدقاء ومحربين ، وكان هذا ضرورة حربية وسياسية لا مناص منها لحملة
صغيرة العدد فى خضم من شعب معاد ، متعصب ، عديم الثقة ، سهل الانفعال •
ونوى أن يدفع نقداً ثمن جميع المؤن المشتراة والأشغال التى تؤدى للحملة ،
ولما كان رصيده من النقود ضعيفاً ، ولم يكن بالاسكندرية دار لسك النقود ،
لم يكن بد من القروض ، ومن مبادلة بعض السبائك الذهبية والفضية التى
استولت عليها الحملة فى مالطة - بأسعار غير مجزية - بعملة محلية • ونشأ
عن هذا كله ببطء شديد فى عملية تموين الجيش •

أما وسائل النقل فلم تكن ميسورة • كان كثير من الخيل فى حالة سيئة ،
وكان عددها - على أية حال - لا يكفى • واضطر معظم الفرسان الى السير على
الأقدام وقد أثقلتهم العدة والسيوف التى يحملونها • وكانت عربات التموين
والمدفعية التى تجرها الخيل غاية فى القوضى : فتركت فرقة ديزيه بغير مدفعية •
وعلاجاً للموقف اعتمد بونابرت ، الى حد ما ، على معاهدة عقدها فى ٥ يوليو
مع نفر من شيوخ القبائل العرب • فأغرى ، بمعاونة السيد محمد كريم ، ثلاثة
عشر شيخاً من كبار شيوخ البدو على التوجه الى مقر قيادته • وهناك اجلسوا
فى دائرة توسطها بونابرت ، وبعد تبادل التحيات الطويلة كالعادة ، بدأت



المساومة ، وكانت أطول حتى من التحيات . وتم الاتفاق أخيرا على أن يمد البدو
الفرنسيين بثلاثمائة جواد وخمسمائة جمل يدفع ثمنها نقدا ، وأن يؤجروا لهم
١٠٠٠ جمل وجمال ، ويردوا الأسرى الذين أسروهم أثناء زحف الفرنسيين على
الاسكندرية . ولسوء الحظ لم يتم تنفيذ شيء من هذا كله الا رد الأسرى .

فقبل أن تسلم الخيل والجمال وصلت رسالة الى البدو من علماء القاهرة
ومشايعها تدعوهم الى الجهاد ضد الغزاة . وهكذا لم يبطل الاتفاق التجارى
فحسب ، بل ان البدو بدأوا من فورهم يلاحقون الجنود الفرنسيين بهجماتهم
أثناء زحفهم . وقد روى الأسرى الذين أطلق سراحهم التفاصيل الرهيبة للمعاملة
التي لقوها من أسريهم ، وكانت فى ذلك الوقت لا تزال تثير دهشتهم . (ولكنهم
بعد قليل تقبلوا اللواط بالاكراه على أنه من الأخطار التي يتعرض لها المحاربون
فى بلاد الشرق) . وقد آثر أحد رماة القنابل أن يتركهم يقتلونهم على الرضوخ
لهذه المعاملة . ولم يوافق بوناپرت على هذا الاسراف فى الفضيلة وسأل أحد
الأسرى العائدين ، وكيف عاملوك أنت ؟ وانخرط الرجل فى البكاء بدلا من أن
يجيب . فقال بوناپرت : « علام تبكى ؟ أهذا كل ما تثير حوله هذه الضجة
أيها الغبي ؟ لقد دفعت ثمن اهمالك . وكان يجب أن تلزم وحدتك . والآن كف
عن البكاء وأجب عن أسئلتى » (٢٩) ولكن الرجل لم يستطع أن يزيد ، لأنه
كان لا يزال يعاني من الصدمة .



ليس هناك اجماع على أن الفرنسيين كانوا على حق فى وصف سهول
البحيرة بأنها صحراء . فهى بلا ريب ليست جزءا من الصحراء الليبية ، وهى
— فى وقتنا الحاضر على الأقل — منطقة مزروعة وان لم يكن زرعها غضا وفيرا .
على أنها لابد كانت فى عام ١٧٩٨ شبيهة بالأرض التي يراها القادم من القاهرة
بالطريق الصحراوى وهو يدنو من الاسكندرية . فكل ما يراه المسافر نهارا
بعض الابل وصغارها ترعى أوراقا قليلة من الحشائش الجافة الصلبة ، وفى
الليل تنبعث مئات الأضواء من حيث لا تدري — وهى نيران موقدة فى خيام
البدو . كذلك كان شأن الاقليم الذى اضطر الجيش الفرنسى الى عبوره ليصل
الى دمنهور . وكان طريقهم يتبع المجرى الجاف للقناة الممتدة من الاسكندرية
الى النيل .

وقبل أن يبرح رجال الجنرال ديزيه أرباض الاسكندرية فى عشية
٣ يوليو قيل لهم انهم سيبيتون ليلتهم فى البيضة . وتبين أن هذه المدينة عبارة
عن مبان مهجورة قليلة ، وبثرين حرص البدو على ردمها بالصخور والتراب .
وكتب ديزيه الى بوناپرت قبل أن يبدأ الزحف يقول : « سأفعل ما فى وسعى

لأصل الى البيضة فى نظام ، ولكن لابد أن أذكر لك أننى لن أجد فيها من الماء
الا أقل القليل ، وذلك بناء على ما وصلنى من أنباء . وأرجوك ألا تبطئ كثيرا
فى الحصول على الأشياء التى تحتاج اليها فرقتى . . وأنا أنتظر منذ الصباح
وصول مدفعيتى عبثا ، مع أننى تلقيت وعدا أكيدا بأنها قادمة . ولما كنت لا أستطيع
الانتظار أطول من هذا ، فأننى راحل بدونها . . وليس عندنا أعلاف كافية
للخيل ، والقرطم الذى عندنا لا يكفى غير يومين ، وليس من علق غيره لاننا
لم نستطع الحصول على شئ منه ، (٣٠) . لا مناص من القول اذن بأن بونابرت
أرسل قواته يعبرون الصحراء غير مترفق ، شأنه فى ذلك شأن ابراهيم مع
هاجر وبنيتها . فقد أغفل كل مطالب ديزيه ، باستثناء وعده بأن يرسل له
المدفعية .

كان البسكويت الجاف هو الجراية الوحيدة التى وزعت على الجنود .
وحصل بعضهم على الزمزميات أو الأباريق ليحملوا فيها الماء ، فى حين لم يتسع
وقت معظمهم لهذا . ووصلت فرقة ديزيه الى البيضة عند الفجر بعد مسيرة
ليلة كاملة . ولم يكن مظهر المكان الذى سيستريح فيه الجنود مما يرفع
معنوياتهم . وعلم ديزيه أن هناك قرية تقع على خمسة أميال فيها قدر من الماء
أكثر قليلا . فأرسل اليها الخيل لأن الجنود كان قد بلغ منهم الأعياء مبلغا
لا يسمح لهم بالسير خطوة أخرى . وأخيرا ظهرت الآبار من الردم . فظهر قليل
من الماء الذى تعاف النفس لونه . وماء بشرين لا يصل الا الى نصفهما ، لا يكفى
٤٦٠٠ رجل . وسرعان ما نضبت البثران قبل أن يأخذ الكل نصيبهم من الماء .
وكتب ديزيه الى بونابرت فى عبارة مخففة ماثورة عنه يقول : « اننا فى حال
سيئة جدا » وأضاف انه ما زال ينتظر مدفعيته ، وأن علائق الخيل نضبت
« ونحن نحاول أن ندبر أمورنا قدر الاستطاعة » (٣١) . وكل ما أرسله اليه
بونابرت ردا على هذا بضع نسخ من منشوره . وأصدر ديزيه الأمر الى جنوده
بمواصلة الزحف فى المساء ، وغدت رسائله لبونابرت أكثر الحاحا وأشد يأسا .
فكتب فى عشية ٤ يوليو أنه لم يبق لجنوده سوى جراية يوم واحد « يقتضى
الحال أن ترسل لى على وجه السرعة جراية أربعة أيام أو على الأقل يومين من
البسكويت واللحم المجفف والخمور المقطرة ان أمكن . فالقرى هنا هى الفقر
المجسم ، ومع ذلك أستطيع أن أستخلص منها بعض العلف الرديء لحيادنا
البائسة » (٣٢) . ولكن لا جواب ولا جرايات ولا مدفعية وصلت . فكتب ديزيه
فى ٥ يوليو يستغيث « اننى فى أشد الحاجة للمؤن . ويحزننى أن أضطر الى
الكتابة اليك بهذه النغمة المفعمة بالقلق ، وأرجو اذا خرجنا من هذا الموقف
الشنيع أن أستطيع الحصول على حاجاتى بنفسى دون أن أزعجك مرة أخرى .
ولكن ما لم يعبر الجيش كله الصحراء بسرعة البرق فانه هالك . وليس لدينا
من الماء ما يكفى لاطفاء ظمأ ألف رجل . وأكثره فى آبار اذا نزحت لم تمتلئ »

ثانية . أما القرى فأكواخ من الطين أقفرت من كل شيء . فأتوسل اليك يا سيدي الجنرال ألا تتركنا في هذا الموقف ، لأن الجنود بدأوا يفقدون شجاعتهم ويتذمرون . فاجعلنا نتقدم أو نتقهقر بأسرع ما نستطيع ، (٣٣) .

وفي هذه الاثناء كانت فرقة الجنرال رينييه تسير في نفس الطريق ، ولم يكن حظها من المؤن خيرا من حظ فرقة ديزيه . يقول فرترى : « كانت تنقصنا الأشياء الضرورية جدا . مثال ذلك أنه لم يصرف لنا حتى العلب ، وكان أكثر سيرهم نهارا . وما مضت ساعات حتى بدأ الكثير من الجنود الذين كانوا بالجهد يقوون على حمل أنفسهم يرمون ستراتهم وقمصانهم ، بل وجراياتهم العديمة النفع (فمن ذا الذي يستطيع أن يأكل البسكويت الجاف وهو يموت عطشا ؟) على أمل تعويض هذه الأشياء في المدينة التالية ، وشوى تراب الخماسين الملتهب حلوقهم ، وكوت الرمال المتقدة أقدامهم . ثم بدأت ظاهرة لا عهد لهم بها من قبل ، فقد لاحت عن بعد في الضباب مساحات زرقاء واسعة من الماء . ومع أنهم تبينوا أنها لم تكن الا سرايا خداعا ، فقد حملهم جنون الألم على أن يتركوا أنفسهم تخدع به المرة بعد المرة . وقد كتب جسيبار مونج بعد ذلك بحثا علميا بالقاهرة يشرح فيه هذه الظاهرة . ولم يكن في هذا عزاء لأولئك الذين جن جنونهم فقتلوا أنفسهم رميا بالرصاص (وقد أجمعت الروايات على أن عددهم بلغ المئات) .

وبدأ البدو يلاحقون الجنود بهجماتهم بمجرد أن غادروا الاسكندرية ، وظلوا يفعلون هذا طوال الطريق الى القاهرة ، ومنعا لتخلف المتخلفين صدرت الأوامر للوحدات بأن تسير في مربعات بدلا من الطوابير ، وهو اجراء قلل من سرعة الزحف . ومع ذلك تخلف كثيرون لأنهم ماتوا من ضربة الشمس أو أرادوا الموت . أما الذين ظلوا على قيد الحياة من المتخلفين فقد قتلهم البدو أو أسروهم . ترى ما الذي حدث لزوجة الجندي الشقراء الوردية اللون ؟ علم هذا عند الله وحده .

ولما وصلت فرقة رينييه الى آبار البيضة التي كان الجنود يتحرقون لبلوغها وجدوها جافة تقريبا : ذلك أن رجال ديزيه أتوا على مائها كله . كتب الملازم فرترى يقول : « كان من المناظر المؤسفة أن يرى المرء رجالا مستلقين على بطونهم حول تلك الحفرة الكريهة الرائحة ، وهم يموتون ظمأ ، يلهثون ولا يستطيعون اطفاء ظمئهم . وقد رأيت بعيني رجالا محتضرين يتوسلون الى رفاقهم أن يرحمهم ، بينما يقتتل هؤلاء الرفاق على شربة ماء قذر . وقد رأيت بعضهم يموتون في عذابهم » (٣٥) ويقول الجاويش فرانسوا ان الآبار نضبت في خمس دقائق . واختنق بعض الجنود أو ماتوا تحت الأقدام . « وقد مات عند هذه الآبار أكثر من ثلاثين جنديا ، وانتحر عدة رجال بعد أن عجزوا عن الحصول على الماء » (٣٦) .

ولما استأنفت فرقة الملازم فرترى الزحف ليلا اهتدى الى حيلة هي مضغ
رصاصه يثير بها لعبه . يقول الملازم ديفرنوا : « خلفنا وراءنا شريطا من
الجثث » (٣٧) . وقد أجمل نابليون بعد عشرين عاما في « الحملتين المصرية
والسورية » موقف جنوده في هذه العبارة « ان المسافة من الاسكندرية الى
دمهور خمسة وأربعون ميلا ، وهذا السهل يرويه عادة فيضان النيل ، ولكن
حدث أنه لم يرو في سنة ١٧٩٧ . وكنا في الفصل الذي ينخفض فيه مستوى
الماء في النيل الى أدناه . وجفت الآبار ، ولم يمكن العثور على الماء على طول
الطريق من الاسكندرية الى البيضة . ولم يكن الجيش معدا للزحف في منطقة
كهنه . وقد عانى الأمرين من حرارة الشمس وقلة الظل والماء ، فكره هذه
السهول المهجورة المترامية ، وكره البدو على الاخص » (٣٨) .

والتاريخ اذا كتب بقلم نابليون - شأنه شأن كثيرين جدا من المؤرخين -
أصبح فن تقرير الوقائع تقريراً صحيحاً ، مع اخفاء الحقيقة وراءها .

اما الحقيقة فتنتوي عليها مذكرات ديفرانوا ، يقول : « يتهم الجنود
القواد بأنهم السبب في الأحوال التي قاسوها منذ نزلوا من مراكبهم . انهم
يصرخون ، ويتساءلون أى ذنب جنوا حتى يساقوا على هذا النحو ليلقوا حتفهم
في الصحراء » (٣٩) . ومع ذلك فهذا أيضا ليس الحقيقة كلها ، لأن القواد
لم يكونوا أقل يأسا من الجنود . فان رينييه مثلاً ناشد بونايرت كما ناشده
ديزيه أن يسعفه ، « ليس عندنا نقالات ولا أدوية » وقد تلقى الجنرال ديزيه
أبناء تفيده أن مراد بك يزحف علينا ، ولعله في هذه اللحظة على مسيرة يومين
فقط . وقد طلب الى أن أبلغكم هذا ، وهو يرجو أن تصدروا الأمر للفرق التي
ستعززه بأن تبدأ سيرها دون ابطاء . ونحن في حاجة ماسة الى أن ترسلوا لنا
الاطباء ومعهم الأدوية والجمال ، وكذا النبيذ والمشروبات والخل » (٤٠) . ولم
يظفر هذا الخطاب أيضا برد .

ولم يصادف رجال رينييه بئرا لم ينزحها جنود ديزيه قبلهم الا في الساعة
الثامنة من صباح ٦ يوليو . يقول فرترى في نوبة من الابتهاج : « كانت البئر
مملوءة بماء عذب سلسبيل يكفى جيشا من ٤٠٠٠ رجل . فيا لها من مفاجأة
لذيذة ! ويا لها من فرحة غامرة ! » وعينت فرقة من رماة القنابل لتقف حول
بئر الكريون منعا لتكرار ما حدث من عراق حول آبار البيضة . ويضيف فرترى
« في أقل من نصف ساعة كانت الفرقة كلها قد روت ظمأها » . وئمل الجنود
بالماء ، فرقصوا وغنوا وضحكوا في نوبة هستيرية مفاجئة . وشرب فرترى
عشرين كوبا دون توقف ، والتهم الجنود جراياتهم من البسكويت بعد أن تبسر
لهم اذابتها في الماء . « لقد التهمنا طعامنا بشهية ضارية . ولم أستمع في
حياتي بطعام أشهى من هذا . . . ان وقفنا بهذه البئر منقوشة على ذاكرة كل
جندى في فرقتي كأسعد لحظات حياته » (٤١) .

إذا كان بونايرت قد بدا في الأيام الخمسة التي مكثها بالاسكندرية غير مهتم بتوسلات ديزيه ورينييه فليس ذلك تجاهلا منه أو تباطؤا ، إنما لاعتقاده أن اعتبارا واحدا يجب أن يقدم على جميع الاعتبارات - وذلك هو السرعة . فالتقاء جيشه بجيش الماليك وقهره ودخوله القاهرة في ظرف ثلاثة أسابيع أو أربعة من وصوله بر مصر - هذا في رأيه ضرورة لا مندوحة عنها . وقد كتب نابليون في سانت هيلانه يوازن بين تصرفه في سنة ١٧٩٨ وتصرف لويس التاسع ملك فرنسا يوم نزل الملك التقى بأرض مصر يقود جيش الحملة الصليبية التاسعة ، قال : « لقد أنفق [لويس التاسع] ثمانية أشهر في الصلاة ، وكان أجدى أن ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد » (٤٢) . ولا ريب في أن نابليون أصاب في قوله هذا ، فهو لم يضع وقتا في الصلاة . ذلك أن فيضان النيل كان سيجعل المنطقة مستحيلة العبور إذا انتصف أغسطس . ومن البديهي أن الزمن يعمل دائما ضد أى حملة مغيرة لصالح المدافعين . فإذا لم يسحق الماليك من البداية استطاعوا أن يبروا قوة الفرنسيين شيئا فشيئا ، ثم يتم المهمة هبوط معنوية الجيش وتفشى المرض فيه .

على أن هذه الحجج وإن كانت قوية لا مغز فيها إلا أنها لا تبرر عدم منح بونايرت جنوده راحة أسبوع بالاسكندرية ، فيكسب بذلك وقتا ينظم فيه مؤنهم ووسائل نقلهم ومدفيعتهم . وبما أن حملته على الشام وهجومه على عكا في الربيع التالي كانا بالمثل يشوبهما سوء الاستعداد والتعجل ، فقد يكون جواب السؤال هو قلة صبر بونايرت . على أنه كان في هذه الصفة يختلف عن نلسن ، فقلة صبر بونايرت أشبه بمهماز عات يحث رجلا افترض التضحيات كأنها أمر مفروغ منه وتوقع من رجاله فعل المستحيل . وقد كلل اصراره هذا على السرعة بالنجاح ، إلا في حالتين مشهورتين - الأولى اخفاقه في الاستيلاء على عكا ، وقد كلفه سمعة القائد الذي لا يقهر ، والثانية قراره في عام ١٨١٢ بأن يزحف على موسكو بدلا من أن يقضى الشتاء في سمولنسك ، وقد كلفه كل شيء .

كان ارسال أربع فرق - أى نحو ١٨٠٠٠ رجل - بغير مؤن كافية عبر الصحراء مخاطرة متعمدة وإن كانت صغيرة نسبيا . لقد وصلت الفرق الأربعة كلها بين ٦ و ٩ يوليو . وبدت خسائرها على الورق ضئيلة : بضع مئات ماتوا أو انتحروا أو قتلهم البدو ، أما الباقون فقد « زحزحوا حدود الطاقة البشرية » - وهى عبارة كان يطيب لبونايرت ترديدها . لقد كان اليأس والعذاب ثمنا تافها لقاء أسبوع يكسب .

كان بونايرت قد اهتم في الاسكندرية ببعض الأمور بما عهد فيه من نشاط . وكان همه الأول أن يرقى أولئك الذين أبلوا بلاء حسنا في الاستيلاء

على المدينة - سواء ياوره سولكوفسكى الذى قذف به مرتين من فوق السور قبل أن يرتقيه فى المرة الثالثة أو « ذلك الجاويش الذى كنت أرقبه ، والذى جرح . وانى ألفت نظرك [أى نظر الجنرال مينو] اليه لأنك ... ربما لم تلحظه » (٤٣) . واذ كان دائم التنبه لما للسماحة والكرم من قيمة سيكولوجية ، فقد بادر باطلاق سراح ملاحيه الترك ، وهم العبيد السابقون لفرسان مالطة ، وأعطى كلا منهم جواز مرور وحزمة من المنشورات يوزعها فى طريقه الى وطنه . وبهذه الروح السمحة نفسها أمر بونابرت باطلاق سراح نائب القنصل البريطانى ، بشرط ألا يتصل بأى من الرعايا البريطانيين .

ونظرا لقلة ما كان يملك من عملة ، فقد فرض قرضا بضمان اضافى من حصيلة الجمارك المنتظر جمعها فى الميناء . ثم حصل على نقود من التجار المحليين نظير سبائك من الذهب والفضة ، على أنه لجأ الى هذا الاجراء مرة ثانية بعد وصوله الى القاهرة ، اذ شحن منها مقادير من الارز والحبوب الى تجار الاسكندرية طالبا اليهم أن يردوا السبائك ويقبلوا هذه السلع بديلا عنها .

وجرد أهل الاسكندرية من السلاح وصدرت الأوامر بأن يضعوا الشارة المثلثة الألوان دليلا على ولائهم للجمهورية . ولابد أن منظرها بدا غريبا فوق عماماتهم . واختص كبار المشايخ وبضعة من صفوة الأعيان بلبس الوشاح الأزرق والأحمر والأبيض ، شأن العمدة الفرنسيين ، وبتلقى التحية العسكرية . ولكن هذا التمييز لم يمس قلوبهم مسا عميقا كما ينبغى ، لأن سيكولوجية شيوخ المسلمين تختلف تمام الاختلاف عن سيكولوجية الساسة الفرنسيين .

واقضى الأمر ترك حامية بالاسكندرية وتحسينها بوسائل دفاع قوية . وأصدر بونابرت سلسلة من الأوامر تحقيقا لهذا الغرض ، وأشرف على تصميم القلاع التى يحصنها المهندسون . وترك خلف الجيش حامية قوامها نحو ٢٠٠٠ رجل يضاف اليها نفر من غير المحاربين ومن ملاحى سفن الأسطول .

وكان لابد من اجراء عدة تغييرات فى القيادة العليا بسبب جرح القائدين كليبر ومينو . فوضعت فرقة مينو تحت قيادة الجنرال فيال ، وبدأت السير الى دمنهور فى ٦ يوليو (تتبعها فرقة الجنرال بون فى ٧ يوليو) . أما مينو نفسه فقد تقرر أن يتقلد وظيفة الحاكم العسكرى لرشيد بمجرد الاستيلاء عليها . أما كليبر - وجرحه أخطر - فقد عين حاكما عسكريا لمنطقة الاسكندرية ، وهو نعين ما لبث أن اعتبره - بحق - ضربا من النفى . ووضعت فرقته تحت قيادة الجنرال ديجا وأمرت بالزحف على رشيد محاذية الساحل بطريق أبى قير ، وبالسير من رشيد على الضفة اليسرى لفرع رشيد للانضمام الى الفرق الأربعة الأخرى فى الرحمانية ، وتقرر أن يسير طابور احتياطى من لواء الفرسان ، والمدفعية وعربات الكبارى ، وغيرها من العتاد ، تحت قيادة الجنرال أندريوسى ،

فى نفس الطريق الذى سارت فيه فرقة ديجا • يضاف الى هذا أن أسطولا صغيرا من السفن الخفيفة يقوده الكابتن بيريه (وقد رقى الى مساعد أميرال فيما بعد) أرسل الى رشيد حيث كان عليه أن يضع نفسه تحت تصرف ديجا وأن يحرسه فى رحلته صوب الجنوب •

وبينما كان بونابرت يشغل نفسه بهذه التدابير وبتنظيم خدمات التموين والنقل ، وقعت معظم التفاصيل على عاتق برتبيه رئيس أركان حربه • وكان التصرف فى الأسطول أهم المشكلات تطلبا للفصل من بونابرت • وقد أثارت الرسائل المتبادلة فى هذا الموضوع بين القائد الأعلى والأميرال بروى ، سواء أثناء إقامة بونابرت بالاسكندرية أو بعد مغادرته اياها ، جدلا ضخما بين الكتاب ، وسننظر فيه فى مكان آخر من هذا الكتاب حين نعرض للكارثة التى حاقت بالأسطول الفرنسى فى أول أغسطس • أما الآن فحسبنا أن نذكر أن الأسطول كله ألقى مراسيه فى خليج أبى قير (*) فى مساء ٧ يوليو •

وبدأت فرقة ديجا زحفها شرقا فى ٦ يوليو واستولت على حصن أبو قير دون مقاومة فى صباح الغد • وكانت طبوغرافية الطريق الممتد من أبو قير الى رشيد تختلف فى عام ١٧٩٨ اختلافا طفيفا عنها اليوم ، وإن ظل المظهر العام للمنطقة دون تغيير - فهى عبارة عن شاطئ هلالى بديع يحف شريطا من الأرض الجرداء يفصل البحر عن بحيرة ادكو ، وهى مساحة من الماء الكدر • وكانت تقطع الطريق فى أيام بونابرت قناة ضيقة تصل البحر بالبحيرة • وكان يمكن أن تستغرق فرقة ديجا وقتا طويلا فى عبور هذه القناة بالقوارب الأربعة أو الخمسة الصغيرة التى لا يتسع الواحد منها الا لنحو خمسة عشر رجلا ، لولا أن الأسطول ظهر فى الوقت المناسب فأفرد عدة سفن خفيفة لمساعدته • ولكن العملية ، حتى مع هذه المساعدة ، استغرقت طوال اليوم من الفجر الى منتصف الليل ، وأعينت الخيل والجمال بما حملت على السباحة عبر القناة دون أن يصيب أحدها أذى •

وسارت الأمور مع جنود ديجا ، على الجملة ، خيرا مما سارت مع الفرق الأربعة الأخرى • وقد أدهشهم فى أبو قير أن يخرج لهم ماء شرب صاف وهم يحفرون على ياردات من ساحل البحر • وكانت الأميال القليلة الأخيرة الباقية على رشيد أرضا خشنة لم يكن بد من أن ينتشر فوقها مزيد من جثث الجنود الذين ماتوا عطشا أو رموا أنفسهم بالرصاص • ولكن منظر رشيد كان مفاجأة

(*) « أبو قير » تحريف لكلمتى « أبا كير » أى الأب كير ، وهو قديس مسيحي ولد بالاسكندرية فى النصف الأخير من القرن الثالث الميلادى ، وكان له رفيق فى الجهاد يدعى يوحنا ، واستشهد كلاهما فى عصر دقلديانوس (عصر الشهداء) ، وتقلت جثتاها الى أبى قير (قرب كاتوب) بعد دفنهما تحت كنيسة القديس مرقس بالاسكندرية • (المترجم) •

مسارة حين بلغها أول المشاة حوالى ظهر ٨ يوليو . وكان الخيالة قد دخلوها فى الصباح دون أن يلقوا مقاومة . وقد كتب الكولونيل لوجييه ، وهو من ضباط أركان حرب ديجا فى يوميته يقول : « كان جميع السكان على عتبات بيوتهم وجميع الحوانيت مفتوحة . وكان هذا أول منظر سار رأيناه منذ نزلنا أرض مصر » (٤٤) . ويذكر الجندي ميه الذى لم يقل سرورا عن الكولونيل فى مذكراته أن السكان رحبوا بالفرنسيين وقدموا لهم الخبز والماء والفاكهة - بالثمن بالطبع - ولكن الأسعار كانت معقولة والطعام موفورا . أما المدينة نفسها فقد بدت أوربية فى الواقع بالقياس الى الاسكندرية . فالبيوت الواسعة الحسنة البناء (التى يسكنها التجار الأوربيون) تمتد على رأس الساحل ، وأرباض المدينة تؤلف نطاقا من الحدائق والبساتين والحقول الخصبة . وبدت رشيد للجنود غاية ما يشتهون مكانا للاستراحة وقتا ما ، ولكنهم ما ان ذاقوا مباهجها أربعاء وعشرين ساعة حتى تسلم ديجا رسالة من بونا بورت الذى حسب أن الفرقة وصلت فعلا الى الرحمانية - الواقعة على خمسة وعشرين ميلا الى الجنوب فى خط مستقيم - وهكذا استأنفت الفرقة زحفها فى الساعة الثانية من صباح ١٠ يوليو تاركة وراءها حامية فقط .

ولو أن رجال الفرق الأربعة الأخرى شهدوا زحف جنود ديجا لبدا لهم ضربا من النزهة . كتب الكولونيل لوجييه فى يوميته يقول : « اننا نسير بحذاء النيل مخترقين منطقة طيبة الزرع تقطعها الأنهار [وهو يعنى القنوات طبعا] والسكان يصطفون على جانبي الطريق ليرونا فى سيرنا ويحيونا . ومظاهر الرخاء تبدو على كل شئ . فالفلاحون يرتدون ثيابا حسنة ، وعليهم سيماء الرزانة والمهابة أما النساء فيطلقن زغاريد كهديل الحمام تماما ليعلن عن سرورهن » (٤٥) . على أن من الناس من يشكو ويتبرم ولو فى جنة حافلة بالنساء المزغردات . وكان الجندي ميه واحدا من هؤلاء . فهو يقول ان الجنود أعطوا قبل رحيلهم عن رشيد جراية ستة أيام قوامها نحو رطل من البسكويت للرجل منهم . « واذا استثنيت مياه النيل ، والشمم ، وبعض البسكويت المالح الحافل بالديدان ، الذى وزع بعد ذلك ، » كان هذا كل ما تسلمناه فى الأسبوعين اللذين قضيناهما فى الطريق الى القاهرة » (٤٦) . وبالطبع كان يضاف الى هذا الكثير مما اشتروه أو استولوا عليه بالقوة .

ووصلت طلائع فرقة ديجا الى الرحمانية فى ١١ يوليو فى نحو الوقت الذى وصل فيه آخر رجال الفرق الأربعة الأخرى ، الذين لم يتبطروا مثلهم حين طالعهم منظر النيل وحقول الشمم .



وغادر الجنرال بونا بورت الاسكندرية مع أركان حربه ورجال القيادة ،

وفيهام مونج وبرتوليه ، آخر الكل فى الساعة الخامسة من مساء ٧ يوليو . وبعد أن ركب طوال الليل لحق بفرقتى بون وفيال ، ودخل دمنهور فى الساعة الثامنة من صباح الغد ، وهناك وجد فرقتى ديزيه ورينييه اللتين عانتا الأمرين أربعة أيام لتقطعا نفس المسافة . ووصلت فرقتا فيال وبون خلال يومى ٨ و ٩ يوليو . ولم يستغرق زحفهما الذى كان أفضل تنظيما أكثر من ست وثلاثين ساعة ، ولكن المشاق التى لقوها لم تكن أقل كثيرا مما لقيته طليعة الجيش .

وبناء على تأكيدات شارل مجاللون وغيره من الخبراء ، أنبىء الجنود أنهم متى وصلوا الى دمنهور انتهت كل آلامهم . لذلك توقعوا أن تكون دمنهور هذه أشبه بميلان أو على الأقل فيرونا . وكانت مدينة متوسطة المساحة ، ومقرا لأحد أمراء المماليك ، ومركزا من مراكز تجارة القطن . ولاحت من بعيد بلدا يبشر بالأمل ، تحيط به الخضرة وتعلو قبابه ومآذنه فوق أشجار النخيل . ولكن الجنود تبينوا بعد أن دققوا النظر أن دمنهور ، باستثناء جوامعها ، لم تكن الا مجموعة من الأكواخ الحقيبة المبنية بالطين والتبن ، وهو مظهر لا تزال تحتفظ به كثير من القرى المصرية . ومع ذلك كانت خيرا من الصحراء . يقول فرترى : « ان الأهالى قدموا لنا بدل الخبز فطيرا رقيقا من القمح فى حجم قطعة الفرنكات الستة ، مخبوزا على الرماد الساخن . وكان هناك الكثير من اللحم والدجاج والبقول الجافة خصوصا الفول والعدس . . . وازدحمت السوق بالجنود » (٤٧) . وكان التعامل المالى من نوع عجيب ، لأن التجار كانوا أكثر ثقة بأزرار الملابس العسكرية بوصفها العملة القانونية منهم بالنقود الأوربية . وهذا التفضيل أدهش الفرنسيين بعد ذلك فى كثير من المدن المصرية . وفى دمنهور رفض تاجر خيل عرض عليه ضابط فرنسى خمسة وعشرين قرشا أسبانيا من الذهب ثمنا لجواد وطلب بدلا من هذا زرين من أززار رداؤه العسكرى . وارتضى الضابط الصفقة . يقول فرترى معلقا فى لهجة جادة : « وهكذا كان هناك خادعون ومخدوعون من الجانبين فى السوق » (٤٨) . وقد روى معظم المؤرخين هذه الظاهرة - الفذة فى الأسواق المصرية - دون أن يحاولوا تعليلها ، لأن فى أغلب المؤرخين سذاجة وبراءة . ولكن التعليل واضح . فما من مصرى فى قواه العقلية يخلط بين الأززار النحاسية والعملة الذهبية . ولكن عدة مصادر (منها يومية الكولونيل لوجييه مثلا) تدلنا على أن المصريين كانوا فى ذلك الحين ما زالوا يعتمدون على المماليك فى تعزيق الفرنسيين . فإذا تم هذا فان المماليك سيتهمون أى مالك لعملة أجنبية بالتعامل مع الكفار ويصادرونها - وهو أيسر ما يناله من عقاب - فى حين يستطيع مالك الأززار العسكرية أن يزعم دائما أنه حصل عليها بطريقة شريفة ، هى قتل فرنسى أو سرقته . أما اذا كسب الفرنسيون المعركة فستكون الأززار فى الغالب أكبر

قيمة من السعر الجارى للبضائع المباعة ، ولعل الرجل الذى باع الحصان بزرين قد سرقه . وقد يبدو هذا التعليل بعيدا أو مفتعلا ، ولكن للذين لم يعرفوا مصر . وفكرة أخرى أدهش من هذه كثيرا ، وهى أن الفرنسيين - فى أغلب الظن - كسبوا معركة امبابية وستراتهم تعوزها نصف أضرارها (*) .

ولما وصل بونابرت الى دمنهور لقيه ديزيه فقاده ، كما ذكر هو فى سانت هيلانه ، الى « شونة لا أبواب لها ولا نوافذ » (٤٩) (فكيف دخلها اذن ؟) . وهناك كان العملة وأئمة الدين وكبار المشايخ وغيرهم من الموظفين ينتظرون القائد الأعلى ، فأكرموا وفادته بوليمة قوامها ابريق من اللبن وكعك القمح . وبادر بونابرت بعد ذلك بارسال عدة وحدات لجلب الطعام من الريف ، فى حين طلب كبير طهاته ترجمانا ليساعده فى التوصية على « شواية من البلدية » (٥٠) .

وقصة اليومين اللذين مكثهما بونابرت فى دمنهور - على قصرهما - مثار خلاف نشأ عن حادثين لا يمكن فى أغلب الظن التثبت من الحقيقة فى أمرهما . فديفرنوا يروى فى مذكراته نبأ مجلس حربى عقده بونابرت عقب وصوله . ولعل هذا المجلس عقد فعلا ، ولكن لا يعقل أن ديفرنوا حضره ، وهو فضلا عن هذا يعطينا تاريخا واضح الخطأ لانعقاد المجلس (**) . ويقول ديفرنوا ان المجلس ما كاد يبدأ اجتماعه حتى نفس القواد عن مشاعرهم المكظومة وانهالوا باللوم على بونابرت : فالجرايات لم توزع وقت نزول الجنود الى البر (وهذا صحيح) ، وهذا الاهمال نفسه كلف فرقة ديزيه أكثر من ١٥٠٠ من الضحايا (وهى مبالغة كبيرة ، ولكنها صادقة من وجهة النظر الحلقية) . بل ان الجنرال ميور ، وهو من قواد المدفعية ، بلغ به الأمر (فى رواية ديفرنوا أيضا) أن يحكم على الحملة كلها فى خطبة طويلة بأنها مغامرة يائسة مستهترة . وبعد أن استمع بونابرت فى صمت ، أجل الاجتماع وغادر الجلسة دون أن ينبس بكلمة : ثم يقول ديفرنوا ان ميور ابتأس لما يعلم من حساسية بونابرت ، « فامتطى جواده فى الغد قبل أن يبرز فجر وسار فى الصحراء ثم أطلق الرصاص على رأسه » (٥١) . ولا جدال فى أن ميور وجد ميتا فى الصحراء ، ولكن الرواية الرسمية تقول ان البدو قتلوه وسرقوه . أما ديفرنوا - الذى يزعم أنه عثر على الجثة - فينفى هذا ويجزم بأنه وجد القائد وهو لا يزال ممسكا بمسدسه .

(*) سعر الجنرال بونابرت فى نشرته اليومية الصادرة فى ٩ يوليو الماكولات بأثمان تتراوح بين ٣٥ بارة للأوزة وبارة واحدة لرطل العدس . ولكن النسبة بين البارة وسعر الأضرار النحاسية لم تعرف على التحقيق .

(**) يحدد موقع دمنهور على النيل ، وهذا خطأ ، ويحدد التاريخ بيوم ١١ يوليو ، ولم يكن الجيش باقيا فى دمنهور وقتها ..

وفى رواية أخرى - تبدو معقولة أكثر من هذه - أن ميروور غضب لكرامته لأن قائدا آخر من قواد الفرسان يدعى لكليز رقى فوقه ، فانطلق راكبا الى الصحراء يسعى الى الموت بيد الأعراب .

وأيا كانت ظروف موت ميروور ، فان قصة ديفرنوا ، وان قام بعضها على السماع ، تؤكد موقفا سلم به نابليون نفسه فى مذكراته . يقول نابليون : « ان القواد والضباط جهروا بتذمرهم جهرا أشد حتى من الجنود . وزاد فى مشقة هذا الضرب من الحرب عليهم عظم الفرق بينه وبين أسباب الراحة التى نعموا بها فى القصور والمقاهى الإيطالية » (٥٢) وينقل لاس كاز عن حديث مع نابليون سجله فى سانت هيلانه هذه العبارات : « قال الامبراطور انه ليس فى الدنيا جيش أقل استعدادا للقيام بحملة على مصر من الجيش الذى قاده هناك . . . وهو جيش ايطاليا . ومن العسير أن يصف المرء ما كان عليه هذا الجيش من تقزز وسخط واكتئاب وقنوط فى الأسابيع الأولى التى مكثها بمصر . ويذكر الامبراطور أنه شهد فارسين من خيالاته يتركان الصفوف ويعدون بأسرع ما يستطيعان ثم يفرقان نفسيهما فى النيل . وقد رأى برتران [وكان ضابطا فى سلاح المهندسين فى سنة ١٧٩٨ ، وكبير أمناء نابليون فى سانت هيلانه] عدة قواد بارزين - ومنهم « لان » و « مورا » - يلقون بقبعاتهم على الرمال فى نوبة من الغيظ ويطأونها بأقدامهم أمام أعين جنودهم . . . وذات يوم سار بونابرت - وكان هو نفسه غاضبا ضيق الصدر - صوب جماعة من القواد ، وخاطب أطولهم قائلا فى نبرات عنيفة : « لقد كنت تحرض غيرك . فحذار ، والا عاملتك بما يفرضه على واجبى . ولن تنقذك قامتك الفارعة من اعدامك رميا بالرصاص بعد ساعتين » (٥٣) . ولعل هذا القائد كان ألكسندر ديما ، وكان من أصرح الناقدين لتصرفات بونابرت . على أنه ليس من الانصاف أن نحكم بأن حرمان القواد من القصور والمقاهى كان الدافع الوحيد لهم على التمرد . فلقد سرى اليهم ما سرى الى جنودهم من حنين الى الوطن ، ويأس ، و « غل » (على حد قول نابليون) . لقد تفشى ضرب من وباء الجنون بين صفوف الجيش الفرنسى فى الأسابيع الثلاثة الأولى من زحفه على القاهرة ، ولم تكن المشاق البدنية سببه الوحيد ، كان احساسا بالانفصال وانعدام السيطرة على النفس ، ونفورا وتقززا من البلاد وأهلها ، وهو الى حد ما ظاهرة عامة فى جيوش المواطنين المرسلة الى بلاد نائية غريبة الثقافة . يضاف الى هذا أن القواد كانوا ألصق بجنودهم مما كان بونابرت ، ولم تكن أعصابهم من الفولاذ كأعصابه . فوقوفهم عاجزين وهم يشهدون رجالهم يفقدون رشدهم من اليأس كان فوق ما يطيقون .

وكان سبيل بونابرت الصحيح الى رفع معنوية الجنود هو المعركة الظافرة دون غيرها . وحمل الجنود على ما كان يحملهم عليه يقتضى خلقا غير لين

ولا مترفق • على أنه لو كان أكثر رحمة بهم - ولو مثقال ذرة - لهلك الجيش •
وهذا حق لم ير أشد النقد من قواده صرامة مناصا من الاعتراف به بعد ذلك •

أما الحادث الثانى الغريب الذى وقع أثناء مكث بونابرت بدمنهوور فقد رواه بورين فى مذكراته • وليس لدينا دليل يؤيد صدقه أو يدحضه ، ولكن هذه الذكرى - دون كثير من ذكريات سكرتير بونابرت - فيها رنين الصدق • يقول :

« أقبلت جماعة صغيرة من الأعراب على ظهور الخيل لاهانة مقر القيادة بتحديهم هذا • وغازلت وقاحتهم بونابرت ، وكان واقفا بالنافذة ••• فلما استدار رأى شابا من ياورانه يسمى كروازيه كان يقوم بنوبته فى ذلك اليوم • فقال له : « خذ بعض الحرس يا كروازيه وتخلص من هؤلاء الفوغاء » • وما لبث أن ظهر فى الميدان كروازيه وخمسة عشر رجلا من الحرس [يمتطون جيادهم] • وتلت ذلك مناوشة ، وأخذنا نرقب القتال من النوافذ • وأظهرت الأوامر [التى أصدرها كروازيه] والطريقة التى هجم بها رجالنا ترددا لا يمكن أن يطيقه القائد الأعلى • فصاح بهم من النافذة كأنهم يستطيعون سماعه : « الى الأمام أيها ال ••••• ! اجمعوا ! » وكان فرساننا يتقهقرون فى كل مرة يعاود فيها الأعراب الهجوم • وانسحب الأعراب دون أن يصيبهم اذى ••• ودون أن يخسروا رجلا واحدا ••• وتسלט على القائد غضب لم يستطع كبحه ، فصبه فى وحشية على رأس كروازيه حين عاد • وكان فى الفاظه من العنف ما حمل كروازيه على مغادرة الحجرة والدموع فى عينيه • وكلفنى بونابرت أن ألحق به وأهدىء من روعه ولكنى لم أفلح ، فقد قال لى : « لن أعيش بعد هذا وسأقتل نفسى فى أول فرصة • اننى لا أستطيع الحياة والعار يجللنى » • وكان بونابرت قد أفلتت منه كلمة « جبان » ، ولكن كروازيه لم يستطع أن يجد الموت الذى سعى اليه الا فى حصار عكا ، (٥٤) •

وقد صدق نابليون حين قال بعد ذلك وهو يستعيد ذكرياته ان غضبياته لم تكن قط مما لا يستطيع كبحه ، بل كانت دائما مقصودة متعمدة • ولعل قلقه على كروازيه الباكي كان أصدق من سخطه الذى قصد به التأثير فى الحاضرين • ومن الخير ، تفسيراً لرأى لفولتير ، أن يدفع بين الحين والحين ضابطاً على الانتحار لبث الشجاعة فى قلوب الآخرين •



ما ان وصل الجيش الى دمنهور حتى أصدر بونابرت اليه الأمر فى ٩ يوليو بمواصلة الزحف الى الرحمانية • وتقرر أن تزحف فرقة ديزيه ، التى ما زالت فرقة الطليعة ، أميالا الى الجنوب حتى منية سلامة لتقطع الطريق على مراد بك •

وعند الرحمانية : تلك البلدة الصغيرة ، شهد الجنود النيل أول مرة (باستثناء فرقة ديجا) . ولم يكن النهر في ذلك الوقت من السنة مما يروع الناظرين ، لأن مستوى الماء فيه بلغ أدناه ، ومع ذلك ملأ مشهده الرجال بفرحة لا تقل عن فرحة آلاف اكسينوفون العشرة حين وصلوا الى البحر . يقول الكولونيل سافارى في يوميته : « ان الجنود يرمون أنفسهم في النهر كالحوانات ليشرّبوا » (٥٥) ويقول ديفرنوا : « حين رأى الجنود النيل خرجوا من طوابيرهم ليرتموا في مياهه . وكان بعضهم ينزل الماء بثيابه ، بل بسلاحه ، وبعضهم خلعوا ملابسهم وجروا الى الماء وغطسوا فيه ومكثوا عدة ساعات . وقد لقي كثيرون حتفهم لاسرافهم الشديد في شرب الماء » (٥٦) . وكانت هناك حقول واسعة من الشمام (وهو الزرع الوحيد الذي كان ينمو في ذلك الفصل) فأكل منه الجنود حتى اكتظوا ، وظلّوا يأكلون الشمام ، ولا شيء تقريبا غير الشمام ، طوال الطريق الى البقعة التي وقعت فيها معركة امبابه ، وكانت هي أيضا حقل شمام (*) .

فلما أطفأ الجند ظمأهم كان الخبز غاية ما يشتهون ، ولا عجب فهم فرنسيون . (ويؤكد فرترى أنه لم يذق طعم الخبز منذ ١٩ مايو ، يوم غادر طولون ، الى ٢٢ يوليو ، وهو اليوم التالي لمعركة امبابه) . وقاسوا في هذا ما قاساه تانتالوس (**) من عذاب ، لأنه رغم وفرة القمح في الاقليم لم يكن هناك طواحين ولا أفران . وحل الملازم ديفرنوا المشكلة بطحنه القمح بالأحجار وخبزه رغيفا رديئا ، على أن رفاقه الضباط سرقوه من تحته وهو نائم مع أنه كان متفحما وأكلوه ، وفي الصباح عابوا عليه رداءته .

يقول فرترى ان الفرق الخمسة كلها اجتمعت عند الرحمانية في ١١ يوليو . وأعلن أن الجنرال بونابرت سيستعرضها بعد الظهر . « وقضينا الصباح كله في اصلاح هندامنا وعتادنا . وظل الجنود ينظفون وينفضون ويصقلون حتى الظهر » (٥٧) . وفي الساعة الثالثة أعلن دق الطبول قلوب القائد الأعلى . ووقفت الفرق الخمسة مصطفة في طوابيرها . وتوقف بونابرت بموكبه أمام كل منها ، ودعا ضباطها اليه ووجه اليهم الخطاب قائلا ان الجيش قد يلتقي

(*) لم يكن هذا الطعام مما يناسب صحة الجنود . وقد وردت الفقرة التالية في النشرة اليومية التي أصدرها بونابرت في ١٢ يوليو « على الضباط القواد أن ينبهوا جنودهم الى الاقلال ما أمكن من أكل الشمام الا اذا كان مطبوخا ، فهو اذا طبخ أصبح مأمون العاقبة مغذيا » . (رسائل نابليون الأول ٤ - ٢٣٦) . وقد كتب الكولونيل سافارى من القاهرة بعد قليل يقول : « ان الجيش كله مصاب بالاسهال » .

(**) ابن زيوس ، الذي عوقب لافشائه أسرار الآلهة بالوقوف في الماء الى ذقنه وهو جانح ظمآن ومن فوقه شجرة مخملة بالفاكهة (المترجم) .

بالماليك غدا وجها لوجه ، وهو لا يخافه شك في أن الجيش الذي انتصر في حملات الراين والسامبر والموز سينتصر انتصارا مجيدا على هؤلاء الهمج . ونقل الضباط عباراته الى وحداتهم ، ويقول فرترى ان أثرها كان عظيما . » وبدأ أن بونايرت أقنعنا على الأقل بأهمية خطته وعظمها . وأعلن قائد كل كتيبة على رجاله أن المعركة على الأبواب ، فتلقى الجيش كله النبأ بحماسة ، ولما صرف الجنود وانفضت طوابيرهم أخذوا يفحصون سلاحهم بغاية العناية والدقة ، ويشجعون سناكيهم ، ويختبرون أرنادهم ، ويتغنون كأنهم يتهيئون لحضور مأدبة . (٥٨) .

وكان بونايرت قد تلقى نبأ - عن طريق الجواسيس المأجورين في الغالب - مفاده أن مراد بك ، على رأس ثلاثة آلاف فارس أو أربعة ، وعدة آلاف من المشاة ، وأسطول من الزوارق الحربية - يدنو من بلدة شبراخيت على نحو ثمانية أميال جنوبى الرحمانية . وكانت فرقة ديزيه قد التقت في مناوشة وقعت في ١٠ يوليو بكتيبة من الماليك قوامها ٣٠٠ فارس يقودها محمد بك الألفى ، وصلت المدفعية الفرنسية هجوم الماليك ، المفتقر الى النظام ، بسهولة ودون خسائر . فلما اطمأن بونايرت الى خطط الماليك من تقرير ديزيه قرر أن يلقي مراد بك في شبراخيت . ولم تقتض تهيئة الجيش للقتال الوشيك سوى سلسلة من أوامر تسعة أصدرها الجنرال برتبيه الى قواد الفرق الخمس والى الكابتن بيريه والجنرال ديما والجنرال أندريوسى . وأمرت جميع القوات ، بما فيها أسطول بيريه ، بالسير بطريق منية سلامة الى شبراخيت لتتوقف قبل فجر ١٣ يوليو . وصدرت التعليمات للجنرال أندريوسى بأن يستقل « شبك لوسرف » سفينة قائد الأسطول بيريه ، وأن يوجه عمليات بيريه المعززة للجيش . ولما كان هناك نقص فى خيول الفرسان فقد أمر غير المحاربين جميعا بمواصلة الرحلة فى السفن والناقلات ، ومنهم بورين ومونج وبرتولليه ، فاستقلوا السفينة لوسرف . وكانت مدام فوريه زوجة فوريه الملازم بلواء المطاردين الثانى والعشرين على واحد من المراكب النيلية التى استولى عليها فى رشيد لاستعمالها فى النقل . والذى حدث بعد هذا هو أنه على عاتق هذا الأسطول وقع عبء القتال .

واذا استثنينا وقفة قصيرة بمنية سلامة ، فان الجيش سار أكثر ليلا ١٢ - ١٣ يوليو ، ولاحت له شبراخيت قبل بزوغ الفجر . ونبه على الجنود بالتزام النظام الصارم أثناء المعركة . وقيل لهم انه لا سبيل لهزيمة الماليك الا مواجهتهم بجبهة منظمة ثابتة . وما ان وقف الجيش أمام شبراخيت حتى أمر بونايرت كل فرقة أن تشكل مربعا عمق كل ضلع من أضلاعه ستة طوابير ، ووضع فى قلب المربع الفرسان القليلين الموجودين وعربات الأمتعة ، أما المدفعية

فوضعت في زوايا المربعات . ولم يبق بعد اتمام هذه الترتيبات الا مهلة ضئيلة لنوم الجنود .

ويذكر لنا فرترى أنه « عند شروق الشمس انطلقت فجأة موسيقى حربية ، فقد أمر القائد الأعلى بعزف المارسليليز لأنه كان عليما بتأثيره في الجنود . فهذا النشيد الرائع يثير شجاعة الجنود ويلهب وطنيتهم ويجعلهم يدركون أن وقت التدمير قد انتهى وأن واجبهم الآن هو الانتصار » (٥٩) . ومع صوت المارسليليز لاح لهم فجأة منظر فرسان المماليك وقد اصطفوا للمعركة . ويصف ديفرنوا في مذكراته هذه اللحظة التي بهرت أنفاس الفرنسيين فيقول : « كانت الصحراء تمتد الى الخلف ومن فوقها السماء الزرقاء ، وأمامنا الخيول العربية الجميلة المطهمة تنفخ وتسهل وتطفر في رشاقة وخفة تحت راكبيها من المقاتلين المدججين بسلاح يخطف بريقه الأبصار ، مرصع بالذهب والجواهر الكريمة . أما ملابسهم فزاهية الألوان ، وأما عمائمهم فيعلوها ريش مالك الحزين ، وبعضهم يلبسون الخوذات المذهبة . وأما سلاحهم فالسيوف والرماح والصوالج والحرايب والبنادق والبلط والخناجر ، ويحمل كل منهم ثلاثة أزواج من الطبنجات . . . وأحدث المشهد تأثيرا قويا في جنودنا لجذته وغناه . ومن تلك اللحظة صمموا على الظفر بهذه المغانم من أعدائهم » (٦٠) .

وكان هذا الخط المتألق ببريقه يمتد على شكل المنجل من النيل في شبراخيت الى جنوب المربعات الفرنسية وغربها . وانعكست شمس الصباح على أسلحتهم وعلى الأهلة والكرات النحاسية المعلقة على قمة خيامهم وأعلامهم . والى الخلف منهم وقف من المشاة في غير تشكيلات واضحة عدد ربما بلغ ١٠٠٠٠ - وهم خدمهم وبعض الفلاحين المهيئين للقتال والذين لم يسلح أكثرهم الا بالنابيت . ولم يكن هذا الخط ملتزما مكانه وان لم يتقدم الى الامام . فالفرسان منطلقون الى الخلف والامام على طول الخط فيشعرون الناظر بالكثير من النشاط والاستعداد . وما من مشهد يجمع الرشاقة الى القوة كمشهد جواد عربي يمتطي صهوته راكب على الطريقة العربية . فالمشي الهين أو الجري لا يوافق مزاجه : انما هو يؤثر الخبيب ، والخبيب صعبا . فيمرق ثم يقف كأن رصاصة صدته صدا . ولا بد أن الجيش الفرنسي المنهوك ، الذي قضى أياما يتعثر وسط الصحراء وعلى الأرض الجافة المشققة على ضفاف النيل وقد بلغ الاعياء منه كل مبلغ ، قد أدهشه منظر هذه العافية الراقصة ، وهذه القوة الرشيقة ، وهذا الجمال المقترن بالصلابة ، ومع ذلك فان الجمال والرشاقة والجرأة لم يكن لها كلها أقل أمل في التفوق على نظام هؤلاء المشاة المتعبين وتدريبهم .

كان جيش الماليك ، ولو بتعزيزاته من المشاة ، أقل كثيرا فى عدده من الجيش الفرنسى . ولكن كل مملوك كان « جبخانة » تمتطى جوادا . فهذا الفارس الذى يركب على الطريقة القوزاقية يطلق أولا قريينته ثم يدسها تحت فخذه ، وبعدها يطلق طبنجاته ويقذف بها من فوق كتفه ليتلقطها خدمه بعد حين ، ثم يقذف الجريد الفتاك ، وهو سهام طولها أربعة أقدام مصنوعة من جريد النخل بعد شقه وثقفه ، وأخيرا يهاجم العدو بسيفه الأحذب ، وقد يحمل سيفين فى آن واحد ويضرب بهما ولجام الجواد بين نواجذه . وقد علمته سنوات طويلة من المرات أن يفصل الرأس عن الجسد بضربة عكسية لا ثانى لها . هذا المملوك الذى انتزع من أبويه طفلا ، والذى مارس فنون الحرب وهو بعد غلام فى الثانية عشرة ، والذى كان عادة بلا خلف ، لم يكن يعرف الخوف ولا الحب . وهو لا يؤسر أبدا فى الأغلب الأعم ، فهو إما منتصر فى المعركة ، وإما مقتول ، وإما هارب بسرعة البرق التى هاجم بها عدوه . وقد حملة هذا على أن يأخذ معه أينما سار ثروة لا يستهان بها من الجواهر والثياب والنقود . فهو يرتدى فوق قميص من الموشكين عدة صدرات وقفاطين حريرية زاهية ، ويضعها كلها فى سراويل حريرية ضخمة يتسع السروال منها لرجل كبير الحجم . وكان الماليك على العموم ضخاما طوالا - فهم مختارون وهم صبيان بمعرفة خبراء - وكانت ملامحهم وسيمة . وإذا استثنينا نفرا قليلا من الزنوج بينهم ، فانهم كانوا على حد قول ديفرنوا : « رجالا مليحي الوجوه ، لبشرتهم لون الزنبق والورد » (٦١) .

حين أنبىء مراد بك ، قبل التحامه لأول مرة بالفرنسيين بعدة أيام ، أن جيش بونابرت لا يكاد يملك خيالة ، ضحك عاليا ، وقال مفاخرا انه سيشرحهم كما يشرح الشام . فلما رأى الفرنسيين وهم يصطفون فى مربعاتهم أخذته الحيرة ، وهى نفس الحيرة التى يحسها كلب الصيد حين يصادف قنفدا لأول مرة فى حياته . وظل فرسان الماليك نحو ثلاث ساعات لا يفعلون شيئا الا أن يحوموا حول الفرنسيين بفصائل صغيرة يبحثون عن مغمز فى طوابيرهم . ثم التقى الأسطولان وجها لوجه على النيل بين الساعة الثامنة والتاسعة ، وبدأ إطلاق المدافع . وبعد قليل بدأ فرسان الماليك هجومهم آخر الأمر .

فأما على اليابس فان القتال لم يبلغ قط مبلغ المعركة الحقيقية . فما ان أصبح الماليك على مرمى مربع من مربعات الجيش الفرنسى حتى أوقفهم ستار نارى من قنابل المدافع والقنابل اليدوية والرش ورصاص الأسلحة الصغيرة . وقد حاولوا اختراق المربع تلو المربع من كل جانب يستطيعون الدنو منه ، وفى كل مرة يجدون هذا القنفذ نفسه . وبعد نحو ساعة انسحبوا الى موقعهم الأصلي . وأمر بونابرت فرقه أن تبدأ هجومها وأن تخفف الضغط على الأسطول الفرنسى الذى كان حظه من التوفيق دون حظ الجيش البرى .

واذا استثنينا الناقلات التي التزمت المؤخرة ووقفت الى الشمال ، فان أسطول بيريه كان يتألف من ثلاثة قوارب للمدافع ، وسفينة خفيفة ، والشبك لوسيرف . أما أسطول المماليك الذي كان مزودا بملاحين يونان فمؤلف من سبعة قوارب حربية ، وكانت نيرانه قوية محكمة . وبعد قليل اضطر بيريه الى اصدار الأمر باخلاء السفينة وقاربين من قواربه وتركها للعدو ، وجرح هو نفسه جرحا طفيفا . ولم يبق غير لوسيرف والقارب الثالث ، بعد أن أثقلهما المدنيون والرجال الذين التقطوا من القوارب المهجورة ، فظلا يقاومان النيران التي تنصب عليهما من سفن العدو السبعة ومن بطارية وضعها المماليك على ضفة النيل في شبراخيت ومن أخلاط من المماليك والفلاحين والبدو الذين راحوا يطلقون النار من الضفتين من شتى الأسلحة التي أتاحت لهم ومن بينها مدافع صغيرة حملت على ظهور الإبل . يقول بوريين انه حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا أخبره بيريه أنه ما لم تبادر القوات البرية بنجدته فورا فان الموقف يصبح ميثوسا منه . « وكان الترك قد صعدوا الى عدة سفن من سفننا وأخذوا يذبحون ملاحيها تحت بصرنا بوحشية فظيعة وشهر الآخرون رموسهم وهم يقبضون عليها من شعورها ، وكانت لحظة حرجة للمواطن برتوليه الكيميائي الشهير . ذلك أنه أثر الموت السريع غرقا على الموت ذبحا ، فملا جيوبه بالأثقال واستعد للقفز من السفينة اذا لزم ، ولكنه اذ رأى غيره من المدنيين ينضمون الى الجنود فى القتال حذا حذوهم وشارك فى ضرب النار . أما مونج فكانت الخدمة التي أداها هي المعاونة فى تعبئة المدافع من جديد ، وكان يوما من الأيام مشرفا على مسابك المدافع فى جميع أنحاء فرنسا . وأخيرا أصابت السفينة لوسيرف سفينة قائد أسطول المماليك بضربة مباشرة ، وكانت تحمل بعض الذخيرة . يقول نقولا الترك : « فسقطت إحدى القنابل على المركب الذي كانت به الجبخانه فطار البارود واحترق المركب والذي يقربه من المراكب وكانت الناس تتطاير بالجو كالطيور » . ويقول مصدر عربى آخر ان هذا المنظر جعل الفرنسيين يفرقون فى ضحكات هستيرية ، وأحدث ذعرا فى صفوف المماليك على اليابس والماء . وكانت خيالة المماليك على وشك مهاجمة الفرنسيين القادمين مرة ثانية حين وقع الانفجار ، وبدلا من أن يهاجموهم أخذوا هم وأتباعهم يلوذون بالفرار . واحتل الفرنسيون شبراخيت دون مزيد من المقاومة . فأما الجنود البرية فلم تصب بخسائر ، وأما بيريه الذى رقى مساعدا للأميرال فقال لبروى فى تقريره : « لقد جرح من رجالى عشرون وقتل ثمر وفقدت سيفى وقطعة صغيرة من ذراعى اليسرى » . واذا عرفنا أن أكثر من ١٥٠٠ صندوق من الذخيرة قد أطلقه الأسطولان تبين لنا أن هذه الخسائر لم تكن فادحة .

أثبت بونابرت لجيشه أنه لا شئ يدعوهم للخوف من المماليك ، ولكنه ترك المماليك يفلتون . وقد قال لبوريين حين رآه بعد عشرة أيام فى الجيزة ان

فحمله في قطع خط الرجعة على الممالك مرجعه كله اضطارره لنجدة الأسطول - « لنجدتك أنت ، ومونج ، وبرتولليه ، والباقيين » . ولم يسع بورين الا أن يجيب بأن هذا بالطبع أقل ما يمكن أن يفعله قائد للمدنيين ، بعد أن أخذ جيادهم وجعل منهم أهدافا للعدو على السفن .

يقول نقولا الترك ان الفرق الفرنسية كانوا قادمين كالبحر الزاخر والسيل القاطر :

ولكن هذه الفكرة لم يشاركه فيها الفرنسيون وهم يستأنفون زحفهم عشية ١٣ يوليو ، بعد أن استراحوا من المعركة نحو ثلاث ساعات ليطاردوا الممالك . ذلك أن النصر لم يشرح صدورهم الا برهة ، وسرعان ما عاودهم هبوط الروح المعنوية . ورغبة في اختصار الطريق ترك الجيش ضفاف النيل ، وكانت الشقوق العميقة تتخلل الأرض التي جفت تماما . وأسف الجنود على رمال الصحراء الناعمة وهم يعرجون بكعوبهم الملوية . يقول فرترى : « في اليوم التالي لمعركة شبراخيت أصبحت أقدامنا الموحجة مشققة كالارض التي تدوسها » . وفي فجر ١٤ يوليو لحق بونابرت بفرقتي الطليعة - فرقتي ديزيه ورينييه - وهما واقفتان لتوزيع الجرايات على الجنود . وسخط بونابرت لهذا العطل ورفض قبول تعليقات ديزيه في حدة وضيق وأمر باستئناف الزحف فورا . ويؤيد معظم شهود العيان وصف الجاويش فرنسوا لزحف الجيش في الأيام الأربعة التالية . يقول : « كان الرجال يموتون اختناقا من الحر ، والمراء يحس كأنه يمر أمام أتون متقد . وقد انتحر عدة جنود » . أما العذاب الذي لقيه رجال المدفعية وجيادهم فأشد وأنكى ، ففي كل بضع مئات من الياردات قنوات ري جافة تعترض طريق عربات المدافع . فتحطمت العجلات والدناجل بانتظام يبعث على اليأس ، وكان من الضروري اصلاحها فورا . واقتضى الأمر تسوية ضفاف القنوات الكبيرة وتمهيدها للمرور عليها .

وبدا أن النظام أخذ يتحطم تماما بعد أن أمكن استعادته فترة وجيزة خلال يوم المعركة . يقول اللواء بليار في يوميته : « ان الجيش على الجملة متدمر . والضباط يسمحون لجنودهم في غير اكتراث بالانتشار من طوابيرهم في مختلف القرى الواقعة على الطريق ، وأخذ ما يستطيعون العثور عليه منها » (٦٩) . ويقول الجاويش فرانسوا ان قرية رفضت امداد الفرنسيين بالبضائع التي طلبوها فضرب أهلها بحد السيف وأحرقت بالنار ، وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجي نصف متوحش (٧٠) . وقد يكون فرانسوا مغاليا في تقدير عدد الضحايا ، ولكن هذا المشهد كان يقع مرارا وتكرارا ويصف الكولونيل لوجيه مشهدا منها في يوميته فيقول : « في ٢٦ سيلول (١٤ يوليو) وصلنا الى قرية نكلة ، وكانت فرقتا بون وفيال

تعملان فيها النهب والسلب ، وأحدثت صيحات الرجال وولولة النساء ضجيجا رهيبا . وتسلفت النساء أسطح منازلهن ، وكلما راين فرنسا على صهوة جواد ناديمه وأظهرن له فجيعتهن بالتلويح خلفا وأماما بطرح يمسكنها بكلتا اليدين ثم يختمن شكواهن « بالتعديد » الباكي . كل هذا يحدث فعلا تحت بصر القائد الأعلى الذى أصدر الأوامر للجنرال ديجا بالبقاء فى القرية ليعيد إليها النظام ويحصل على زاد لجنوده . وكان على الجنرال ديجا أن يذل عقبات لا تخطر بالبال . وبدلا من أن يعاونه ضباط اللواء زادوه عنتا على عنت بلومه على نقص مئونتهم من مختلف الأشياء وبإظهار عصيانهم على مرأى من الجنود . . . وما ان اتخذت الخطوات لوقف أعمال الاخلال بالنظام حتى تغير حال الأهالى من الخوف واليأس الى الثقة ، بل الفرح ، وتسلم الجنود بعض الخبز المحلى والأرز واللحم ، (٧١) .

وأخيرا منح الجنود راحة يومية فى وردان حيث تجمع الجيش كله فى ١٨ يوليو . واستؤنف الزحف فى ٢٠ منه بما يكتنفه من المشاق ذاتها . وكان معظم الضباط قد استسلموا لما يقوم به جنودهم من أعمال النهب والسلب لأن نظام التموين انهار فعلا . وكان الضباط ، العاجزون عن النهب ، يرقبون رجالهم فى شئ من الحسد وهم يشوون ما سرقوا من حمام ودجاج وخراف . . واستخدموا القضبان التى يعبثون بها بنادقهم أسياخا للشئ . فاذا أشبع الجنود نهمهم هياؤا لأنفسهم قدر استطاعتهم فرشاً على القش أو أكوام الأغصان « ناسين قيظ النهار فى رطوبة الليل . واختلط كل شئ - الخيل ، والحمر ، والجمال ، والجنود ، والضباط ، (٧٢) .

تلك حال جيش الشرق الفرنسى - ذلك « البحر الزاخر والسييل القاطر » - حين وصل فى عشية ٢٠ يوليو الى أم دينار ، وهى قرية تقع على مقربة من تفرع دلتا النيل على نحو ثمانية عشر ميلا شمالى القاهرة . هنالك تلقى بونابرت نبأ تنظيم المماليك قواتهم وتوزيعها للدفاع عن العاصمة . كان مراد بك ينتظر الفرنسيين على الضفة النيل اليسرى أمام بولاق فى قرية امبابة التى حصنها . أما ابراهيم بك فمعسكر فى بولاق ببقية المماليك وجيش المتطوعين ليقطع الطريق على الفرنسيين اذا بلغوا الضفة اليمنى . أما على النيل نفسه فكان أسطول المماليك ينتظر الفرنسيين . وأبهج النبأ بونابرت : فلو أن مراد بك قرر أن ينتظره على الضفة اليمنى لأتاحت له متاعب الفرنسيين فى عبور النيل تفوقا أكيدا ، أما الآن فانه وقف بالضبط حيث يريد بونابرت أن يقف . وفى الساعة الثانية من صباح ٢١ يوليو صدر الأمر للجيش بالزحف على امبابة والالتحام مع المماليك فى معركة حاسمة ، وبلغ الجيش وجهته فى الساعة الثانية بعد الظهر فى أشد أوقات النهار قيظا . وعلى نحو ميل من الفرنسيين وقفت طوابير المماليك المصطفة للمعركة ، ولاحت من خلفها الأهرام العظيمة وبانت

كتلها الضخمة الغامضة على بعد عشرة أميال . والى اليسار استطاع الفرنسيون أن يشهدوا على الأفق خطا متألقا من قباب القاهرة ومناثرها . وأتيحت لهم راحة ساعة واحدة قبل أن يصدر بونابرت أمره بالهجوم . وقد أفادوا من هذه الفترة في اطفاء ظمئهم بأكل الشمام الذى وجدوه بوفرة .

وأمر بونابرت الفرق بأن تشكل مربعات كما حدث فى شبراخيت ، وبين المربعات الأمتعة والفرسان ، وفى أركانها المدفعية . ثم خطب فى جنوده ، فى روايته للمعركة ، وأمرهم بالهجوم وهو يشير الى الأهرام قائلا « أيها الجنود : ان أربعين قرنا تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام . » (٧٣) والحقيقة أنه لم يتح له لا الوقت ولا الصوت اللزمان للخطاب فى رجاله الذين انتشروا على عدة أميال ، والذين كان معظمهم الى ذلك الحين ما يزالون حائرين فى أمر هذه الأهرام . وأغلب الظن أنه أبدى هذه الملاحظة للضباط الذين اتفق وجودهم وقتها حوله . ولكن من المؤكد أن كيانه كله دبّت فيه الحيوية الشديدة فى تلك اللحظة ، وهو يشعر أنه يصنع التاريخ على مشهد من أقدم الآثار المعروفة للإنسان .



يرى البعض فى معركة امبابة (أو الأهرام) مع أنها وقعت على مسافة كبيرة من الأهرام ، احدى انتصارات نابليون الكبرى ، فى حين يراها غيرهم حدثا صغيرا تختلط فيه المناوشة بالمجزرة ، قرر نتيجته سلفا تفوق الفرنسيين فى الخطط والعدد . ونستطيع أن نقدر عدد جنود الفرنسيين المحاربين الذين اشتبكوا فى المعركة تقديرا لا يبعد عن الحقيقة بنحو ٢٥٠٠٠ رجل ، أما قوة المماليك فأصعب تقديرا ، وقد قدرها أحد المؤرخين على أساس عمليات عقلية عويصة بنحو ٦٠٠٠ فارس من المماليك ، يعززهم ١٠٠٠٠ - ١٢٠٠٠ من الجنود المشاة (*) . وهذا التقدير اما يغالى كثيرا فى عدد الفرسان واما يقلل كثيرا من عدد الجنود المشاة ، فما دامت الرواية أجمعت على أن المماليك كانت تعززهم جنود ترك نظاميون (معظمهم البانيون) خاضعون اسميا للوالى التركى ، فلا بد أن عدد المشاة كان أكثر كثيرا من ضعف عدد الفرسان . ومن جهة أخرى يبدو أن نابليون يغالى فى تقديره قوة العدو . فهو يقول انه كان هناك ١٢٠٠٠ من فرسان المماليك ، لكل منهم ثلاثة خدم مسلحين أو أربعة و ٨٠٠٠ من فرسان البدو ، و ٢٠٠٠٠ من الانكشارية - وجملة هذا ٧٨٠٠٠ رجل ، فضلا عن جيش ابراهيم الم رابط على ضفة النيل اليمنى . ولم يكن فى مصر كلها ١٢٠٠٠

(*) فريدرش كرشايزن فى كتابه « سيرة نابليون » .

مملوك . وأيا كان العدد الصحيح ، فإن البعد والمشاة من غير الجنود الألبانيين كانوا عديمي النفع اطلاقا ، ويمكن اسقاطهم من حسابنا ، لاريب اذا أن الفرنسيين كانوا يمتازون بالتفوق العددي الحاسم ، واحراز تفوق كهذا في اللحظة التي يكون له فيها قيمة كبيرة هو في الواقع سر القيادة القادرة .

أما تفوق الخطط والحركات الفرنسية فواضح ، ولكنه كان يعتمد اعتمادا تاما على التزام الطوابير النظام في تنفيذ تعليمات الضباط . وكان أقل ضعف أو ذعر خليقا بأن يجر كارثة على فرقة بأكملها أو أكثر . وكان لزاما أن يحتفظ بتماسك الطوابير ووحدتها مهما كان الثمن ، والا اخترقت خيالة المماليك المربعات فمزقتها الى أشربة . فاذا أضفت الى هذا اعتبارا آخر هو أن المماليك كانوا مرتاحين ، وأنهم يحاربون في محيطهم في حين كان الفرنسيون مرهقين ، جياعا ضعاف المعنوية ، أضنتهم اللوسنطاريا ، وأنهم يقاتلون في أراض غريبة ، لم يكن مناص من الاعتراف بأن نتيجة المعركة لم تكن مقررة سلفا على الاطلاق .

كان علم مراد بك بالخطط والحركات الحربية بدائيا . ولكنه أوتى فطرة القائد الموهوب وعينه اللماحة ، فما ان لحظ الهدف من مناورة بونابرت وهو اختراق قلب خط المماليك وقطع خط الرجعة عليه . حتى أمر جميع فرسانه بمهاجمة فرقتي الطليعة الفرنسيين ، أي فرقتي ديزيه ورينييه . ونفذ الهجوم في سرعة واصرار لا يخطران بالبال . ولم يكده يتم لطوابير ديزيه وقت لتشكيل مربعا . وانتظروا حتى أصبح المماليك قاب قوسين منهم فأطلقوا عليهم نيرانهم ففعلت بهم كما فعلت بنيران رينييه . يقول الملازم فرتراي « أصدر الجنرال رينييه أمره بتشكيل الطوابير ، وفي لحظة شكلنا مربعا ، وجعلنا عمقه عشرة صفوف ليستوعب الصدمة . وتمت الحركة بغاية الدقة والهدوء . . وأطلق الجنود نيرانهم في ثبات كبير فلم تضع طلقة واحدة سدى لأنهم انتظروا حتى اللحظة التي أوشك فيها الفرسان على اختراق مربعا . وسرعان ما تكاثرت الجثث المحيطة بمربعا ، وأخذنا ثياب الموتى والمجروحين من المماليك تحترق كالمشاة . . واخترقت حشوات بنادقنا المشتعلة ورصاصنا ملابسهم العسكرية الفاخرة التي طرزت بالذهب والفضة وكانت تتماوج كالحرير » (٧٤) .

وفي هذه الأثناء كانت فرقة ديجوا قد فصلت خيالة المماليك عن تحصيناتهم بامبابية وراحت تقذف مؤخرتهم بمدافع الهاويتزر ، في حين استعد فيال وبون لاقتحام التحصينات والاستيلاء عليها عنوة . وظل فرسان المماليك يهجمون كل جانب من جوانب مربعات الفرنسيين زهاء الساعة ببسالة انتحارية وإن صدوا في كل هجمة بخسائر فادحة . وبلغ من عنف الهجوم أن جيادهم المشتتة بجروحها كانت تحمل بقوة الدفع وحدها داخل صفوف الفرنسيين حيث

يجهزون عليها هي وراكبيها بسناكيهم وكعوب بنادقهم . وقد أتى أفراد من المماليك من أعمال القوة والبسالة ما لا يكاد يصدق ، بشهادة شهود محايدين (*) من ذلك أن حسين الكاشف ، وهو مارق من اليونان انحاز بعد ذلك الى صفوف الفرنسيين ، اندفع على جواده بين صفوف الأعداء وراح يمزق بسيفه فوهات البنادق الفرنسية كأنها الهشيم ، ونقل من ساحة القتال وقد خرقت الجروح جسده ولكنه بدا مستعصيا على الموت . كل هذا كان جديرا بالاعجاب ، ولكن لم يكن له نتيجة عملية . فلما رأى مراد أن الفرنسيين لا يتزحزون أخذ فريقا من فرسانه وتقهقر الى الجيزة ومنها هرب الى مصر الوسطى . أما من بقى من فرسانه فقد انسحبوا - بعد أن قطع عليهم ديجوا خط الرجعة الى تحصينات امبابة يطاردهم بون وفيال وديجوا .

فى هذه المرحلة من المعركة وقع نزال عجيب بين الملازم ديفرنوا ومملوك جليل المظهر أبيض اللحية ، أثار غضب الملازم وهو يشب بجواده فى وقاحة أمام فرقة بون . واندفع ديفرنوا من مربعه وهو يمتطى جواده ، وبدأت المبارزة على مرأى من الفرقة كلها . وأجلى ديفرنوا غريمه عن جواده بأول طلقة من مسدسه ، فتقدم صوب جواد ديفرنوا زاحفا على يديه وركبتيه ، ولحيته الطويلة تكنس الأرض ، وأعمل سيفه كالمنجل فى قوائم الجواد ليحطمها . واستمرت هذه الحركة المدهشة برهة حتى حطم ديفرنوا رأس المملوك بسيفه . بينما خرج الجنود من طوابيرهم للاجهاز على الشيخ . وقد ظفر ديفرنوا بغنيمة وافرة - عمامة صفراء مصنوعة من الكشمير . . . وأكثر من خمسمائة قطعة نقود ذهبية مخيطة فى طربوش عمامته . . . وسيف رائع رصع غمده وطرف مقبضه بالذهب ، ومقبضه مصنوع من قرن الخرتيت ، وسلاحه من الصلب الدمشقى الأسود : (٧٥) .

كان جنود ديزيه ورينييه عاكفين على تجريد جثث الأعداء المهزومين وسلب ما تحمل من غنيمة بينما كانت فرقنا بون وفيال تقتحمان المتاريس . يقول الجندى ميه « كانت مجزرة بشعة . وكان منظر جثث الرجال والخيل رهيبا لكثرة ما أريق من دماء فى المذبحة » (٧٦) . وقد أبيد المشاة وجنود المدفعية الالبانيون عن آخرهم ، أما من بقى من المماليك الذين طوردوا الى ضفة النيل فقد حاولوا النجاة سباحة . وفى هذه القوضى الأخيرة التى أحدثها زعر

(*) يشيد المعلم نقولا الترك بشجاعة أيوب بك الدفتردار . (وقد هجم فى ذلك الوقت البطل المغوار والأسد الهدار أيوب بك الدفتردار وهجم بحصانه وسط الغبار وصاح فى الأعداء ويلكم يا لثام ساقكم الغرور لفتح هذه الثغور ، اليوم تملأ منكم القبور . . . الخ ص ٢٧) ولكنه أسقط قتيلًا وداسته الخيل . . . ولم تظهر له علائم ولا آثار بعد أن قتل جمعا غفيرا وثبت قدام تملك الجماهير (ص ٢٨ ذكر تعلق جمهور فرنساوية) - المترجم .

الهاربين ديس أيا بك الصغير تحت حوافر جواده ، أما ابراهيم بك الصغير (*) ، فقد أغرقه - وهو يسبح - ملاح يوناني صاح به وهو يحطم رأسه بمدره « يا ظالمين أنتم سبب هذه الداهية » . (٧٧) وغرق مئات من المماليك فى النيل أو قتلوا بمدافعهم التى صوبها الفرنسيون اليهم (**) .

فى هذه الأثناء كان ابراهيم بك وجيشه يشهدون الكارثة من بولاق على الضفة اليمنى . يقول الجبرتى ، وهو شاهد عيان ، فلما عيان ، وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يارب ويالطيب ويأرجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم انذ الرسول والصحابه والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحرب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ، ومن يقرأ ومن يسمع . وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى ومنهم ابراهيم بيك الوالى وشرعوا فى التعدي الى البر الغربى فى المراكب فتزاحموا على المعادى لكون التعدي من محل واحد والمراكب قليلة جدا فلم يصلوا الى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين . هذا والرياح النكباء اشتد هبوبها وأمواج البحر فى قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الرياح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الرياح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه ، (٧٨) .

كذلك يذكر نقولا الترك هذه العاصفة الرملية القاضية ، ولكن الجبرتى هو الشاهد الوحيد الذى زعم أن ابراهيم بك حاول عبور النيل ونجدة مراد . والذى أجمع عليه الكل هو أن ابراهيم ومماليكه تقهقروا الى القاهرة ، وأخذوا أسرهم وما خف من متاعهم وهربوا صوب الجنوب الشرقى الى سيناء . وصحبهم الوالى التركى طواعية أو كرها .

يقول نقولا الترك « وكان أن قامت الحرب مدة ساعتين فقط ، ويالها من ساعة لا يقدر الوصف أن يوصف عظم الحمول الذى وقع على أهل البلد تماما

(*) صهر ابراهيم بك الكبير . المترجم .

(**) يذكر تقرير رسمى فرنسى أن الفى مملوك قتلوا فى المعركة أو غرقوا ، والرقم مغالى فيه . فقد كتب الجنرال داما الى كليبر يقول ان المماليك « خسروا بدون مبالغة سبعمائة رجل أو ثمانمائة » *Côrrespondances de l'armée française* (رسائل الجيش الفرنسى ص ٩٥) . وقدر الاميرال بيريه هذه الخسائر بألف ومائتين (نفس المرجع ص ٦٤) . أما خسائر الفرنسيين فقد قررها برتييه فى تقريره الرسمى بتسعة وعشرين قتيلًا و ١٢٠ جريحًا ويقول كبير جراحي الجيش لارى ان عدد المجروحين جراحا خطيرة بلغ ٢٦٠ .

ولا سيما حين سمعوا تلك النار الدائمة التي هي رعد متصل غير منفصل . . .
ثم أهل البلد رجعت من بولاق الى المدينة في بكاء ونحيب يلطمون وجوههم
ويقولون يا ويلنا قد وقعنا في أسر الافرنج . .

والحق ان الذعر في القاهرة كان لا يوصف ، فكل الذين قدموا منها الى
بولاق كانوا يتدفقون عليها راجعين ، وكل من كان في القاهرة حاول الهروب
منها . وكان البدو والفلاحون الذين جلبوا من الريف والصحراء للدفاع عن
المدينة يهاجمون اللاجئين خارج أبواب المدينة وينهبونهم ويغتصبونهم ، بل لقد
جردوا بعضهم من ثيابهم . ولما خيم الليل بدأت أعمال السلب والنهب وأحرق
قصرا مراد وابراهيم .

يقول الجبرتي : وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم
يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، فما راء
كمن سمعا (٨٠) .

ليس من المؤكد أن الجنود الفرنسيين المعسكرين بامبابية عشية ٢١
يوليو كانوا على علم بأنهم خاضوا معركة من أشهر معارك التاريخ ، وأن أربعين
قرنا كانت تطل عليهم خلالها . ولكنهم كانوا على علم تام بأنهم غنموا غنائم
خيالية .

كتب نابليون في تاريخ الحملة يقول : « لقد وجدوا بين متاع البكوات
والكشاف مقادير وافرة من الحلوى وكميات كبيرة من السجاجيد والصيني
والإواني الفضية .

وباتت منائر القاهرة طوال الليل ينعكس ظلها بفضل اللهب الذي تصاعد
من ٣٠٠ سفينة مملوكية . [أشعل المماليك فيها النيران قبل فرارهم] بل ان
وهج النيران انعكس على جوانب الأهرام البعيدة ، وعكف الجنود في الأيام التالية
للمعركة على تصيد الجثث من النيل ، وقد وجدوا مع كثير منها ٢٠٠ - ٣٠٠ قطعة
نقود ذهبية . وكانت الأجسام العارية تقذف في الماء ثانية بعد تجريدها
مما تحمل ، فتتنقل نباح هزيمة المماليك في طريقها الى البحر المتوسط .

أما بونابرت فقد اتخذ مقر قيادته تلك الليلة في قصر مراد بك الريفى
في الجيزة . يقول : « لم يبق فيه خادم واحد ، ولم يكن شيء في داخله يشبه
من قريب أو بعيد القصور الأوروبية . ولكن الضباط سرهم أن يجدوا بيتا
حسن الأثاث ، ومتلكات منجدة بالحرير الليونى والشراريب الذهبية مما ذكرهم
بالترف والفن الأوروبيين . أما الحديقة فحفلت بالأشجار الجميلة ولكنها خلت
من الماشى . وقد أبهجهم أن يجدوا تكعينة كبيرة تغطيها الكروم وتثقلها عناقيده

العنب الفاخرة • وانتشر خبرها في أرجاء المعسكر ، فانتقل اليها كله عدوا ،
وسرعان ما تم قطف محصولها ، (٨١) •

وفي غداة المعركة أرسل الشيوخ والعلماء المجتمعون في الأزهر وفدا الى
بونابرت يفاوضه في شروط التسليم • وبعد المفاوضات عين بونابرت لجنة
من خمسة برئاسة الجنرال ديبوى الذي أقامه حاكما على القاهرة ، والذي يصفه
نقولا الترك بأنه البطل العظيم ، المعد في الحرب بألف صنديد (٨٢) •
للاستيلاء على المدينة • ويقول مالمو أحد أعضاء اللجنة انه لما هبط الليل دخل
الضباط الخمسة القاهرة تحرسهم سريتان من المشاة على عزف الموسيقى ،
وكان سكانها يبلغون ٣٠٠٠٠ • ولم تلق انسانا واحدا في طريقنا ، ولم
يدلنا على وجود الأهالي غير صرخات النساء المتصاعدة من جميع المنازل ، (٨٣)
وكان قصر مراد يحترق ، وقضى الضباط ليلتهم في بيت أحد الكشاف • وفي
الغد استولوا على بيت محمد بك الألفى في بركة الأزبكية ليكون مقرا لقيادة
بونابرت • وفي ٢٤ يوليو دخل القائد الأعلى مدينة القاهرة على رأس قليل من
الجنود ونزل بقصر محمد الألفى • وفي اليوم ذاته كتب تقريره الى الادارة
وضمنه أعماله منذ غادر الاسكندرية • وقد لخص انطباعه العام عن مصر في
هذه العبارة : « من الصعب أن يجد الانسان بلدا أكثر غنى ، وشعبا أشد بؤسا
وجهلا وضراوة » (٨٤) •

وكان خليقا به أن يحس نشوة الانتصار فقد دانت له مصر - لولا شيء
من التطهير • ولكنه بدلا من هذا أصبح رزينا بل مكتئبا • ففي ٢٥ يوليو ،
أى بعد انتصاره في معركة امبابة بأربعة أيام ، كتب الى أخيه جوزف يقول :
« اننى أعانى كثيرا من خيبة الأمل فى بيتى ، فقد تكشف لى المستور تماما •••
ولم يبق لى فى الدنيا بأسرها سواك ••• ومن المحزن أن يركز المرء كل مشاعره
فى شخص واحد ، وفى قلب واحد ••• وأنت تفهم ما أعنى » (٨٥) • ولو كان
الخطاب وصل الى يد جوزف لفهم ما يعنيه تمام الفهم : فالذى تكشف له تماما
هو خيانات زوجته ، ربما بأنباء باح له بها فى غير تحرز ياوره جونو • على أن
الخطاب لم يصل قط الى يد جوزف لأن البريطانيين استولوا عليه فى الطريق •

ويضيف الخطاب « لا يفتك أن تجد لى بيتا فى الريف قبل عودتى •
فلقد سئمت بنى الانسان • وما أحوجنى الى الوحدة والعزلة ، ان العظمة تبعث
فى الملل ، ولقد جف معين عواطفى • ما أتفه المجد اذا كان المرء فى التاسعة
والعشرين : لقد استنفدت كل شيء ، ولم يبق الا أن أصبح أنانيا مغرقا فى
الأنانية » (٨٦) •

وقبل ذلك بثلاثة أسابيع فقط ، كتب لوى بونابرت من الاسكندرية الى
جوزف هذا فى خطاب استولى عليه أيضا الأسطول الانجليزى يقول : « كنت

الى الآن أعتقد أن الحظ قد يفارق أخى ، أما اليوم فأتى أومن أن التوفيق سيحالفه
على الدوام ، (٨٧) .

وفى الاسكندرية فى نحو الساعة العاشرة من ليلة ١٠ أغسطس ، كان فى
استطاعة لوى بونابرت أن يرى بريقا ، ويسمع هزيما ، ينبعثان من انفجار
يرى ويسمع فى نصف قطر يبلغ خمسة وعشرين ميلا على الأقل من أبو قير :
ذلك أن الأميرال نلسن كان يثبت أن حظ نابليون بونابرت ليس بالخط
المعصوم من العثرات .

الفصل الرابع

خليج «أبو قير»

١

إذا ركب المسافر في أيامنا هذه من الاسكندرية على طريق الكورنيش مشرقا وقطع عدة أميال يمر فيها بفنادق فخمة تطرق اليها البلى ، ومقام ساحلية من أحدث طراز ، وبقصر المنتزه الذى يشبه كابوسا من الزخارف المسرفة ، تنفس الصعداء حين يبلغ الحد الذى تنتهى عنده حضارة الغرب ، حيث يخترق الطريق خلال المستنقعات والقرى المقفرة الى أن يصل الى أبى قير ، وهى قرية صغيرة على نحو خمسة عشر ميلا من قلب الاسكندرية . وعلى قمة رأس صغير يمتد من أبى قير داخل مياه البحر المتوسط توجد قلعة قديمة تشرف على الخليج البديع كله - وهو منحنى منتظم شاسع يبلغ طوله ثلاثين ميلا ، وينتهى عند مصب فرع رشيد .

هذه البقعة لم يطرأ عليها تغيير يذكر رمند انتصر نلسن فى معركة أبى أو النيل ، وهى معركة خاضها الفريقان تجاه ساحل أبى قير ، لا فى أى بقعة قريبة من النيل .

وفى وسعك أن تصف القلعة اليوم بنفس العبارات التى وصفها بها الكولونيل لوجيه فى ١٧٩٨ حين كتب يقول : « أبهجنا منظر بناء لاح من بعيد ضخام رائع . . فاذا دنا منه الانسان ، لا سيما اذا فحصه من الداخل ، تبين له أنه ليس الا زريبة . . . فقد وجدنا ثمانية عشر مدفعا من عيارات مختلفة دون عربات تنصب عليها . وكان القومندان فلاحا رفض أن يعطينا عليقا للخيل الا بعد دفع ثمنه » . ولا يزال أمر هذه القلعة ، المتهدمة شأنها يومئذ ، موكولا الى أسرة من الفلاحين تؤلف فراخها وأطفالها وماعزها وكلابها حامية القلعة .

ويرى الناظر اليوم عددا من المذابح التى علاها الصدا ملقاة فى خندق الماء وقد اختلطت بها شتى الأقدار .

لم تشهد أبو قير حدثا ذا بال منذ خراب كانوب القديمة ، وموقعها قريب منها ، إلى اليومين الأولين من شهر أغسطس ١٧٩٨ ، حين كسب نلسن فى هذه البقعة شهرته ولقبه . وفى السنة التالية لهذا التاريخ طارد الجنرال بونابرت جيش تركيا إلى البحر فى نفس المكان الذى دمر فيه نلسن أسطوله ، وفى ١٨٠١ نزل الجنرال السر رالف أبر كرومبى على رأس ١٧٠٠٠ جندي انجليزى ليطرد الفرنسيين ، وفى ١٨٠٧ زحفت حملة انجليزية أخرى بقيادة الجنرال فريزر إلى رشيد مارة بالخليج ثم عادت أبو قير بعد هذه السنوات العشر ، الحافلة بضجيج الحرب وأبواقها ، إلى سباتها الموحش الذى قطع عليها فجأة ، ومرة أخرى لم يعد للزمن عندها معنى .



ألقى بونابرت فى تقريره للإدارة تبعة تدمير الأسطول الفرنسى على عاتق غيره ، شأنه عقب كل كارثة تصيبه - وألقاها هذه المرة على رجل لا قبل له بالرد عليه لأنه سقط قتيلًا فى مكانه من المعركة . ولم يكتف ، فى تاريخ الحملة المصرية الذى أملاه بسانت هيلانه ، بالقاء التبعة على الأميرال بروى ، بل على الأميرال قيللنيف أيضا ، وهو الآخر ما كان يستطيع الجواب وقتئذ لأنه انتحر عقب هزيمته فى معركة طرف الغار . وكان نابليون قد أمر باتلاف ملف الحملة المصرية ، فضلا عن تنصله من التبعة والقائها على غيره ، ولم يبق من الوثائق التى كان يحتويها سوى صورها التى لنا أن نتشكك فى مطابقتها لأصولها (*) . على أننا إذا حللنا جميع الأدلة التى فى متناولنا لم يسعنا إلا الانتهاء إلى هذه النتيجة . وهى أن الاتهامات التى وجهها بونابرت لبروى اختلاقات متعمدة .

ويمكن أن نلخص رواية بونابرت للأحداث التى أفضت إلى كارثة أبو قير فى أربع نقاط :

١ - قبل أن يغادر بونابرت الاسكندرية أمر بروى فى ٦ يوليو بأن يرسو بالأسطول فى مكان أمين ، وفى الميناء القديم ان أمكن ، فإذا تعذر وجود ممر يسمح بدخول جميع السفن أفرغ بروى ما بقى من المدفعية والعتاد فى أبى قير ومضى من فوره إلى كورفو ، حيث الجزر الايونية التى استولى عليها الفرنسيون .

(*) فى دار الوثائق القومية بعابدين مجموعة ضخمة من صور الوثائق الأصلية للحملة المصرية . (المترجم) .

والواقع أن أمرا كهذا لم يصدر ، على الأقل تحريرا • وهناك أمر تحريري بتاريخ ٣ يوليو يطلب الى بروى أن يأخذ أسطوله الى الميناء القديم ان أمكن • فاذا لم تستطع البوارج الدخول ، بحث بروى امكان دفاع الأسطول عن نفسه ضد قوة تفوقه فى خليج أبى قير • فاذا رأى أن ذلك أيضا غير مستطاع ، مضى الأسطول الى كورفو (باستثناء السفن الخفيفة التى يمكنها أن ترسو فى الميناء) • وليس فى الأمر أية اشارة الى رغبة بونابرت فى أن يغادر الأسطول الساحل ، الا اذا عجز عن الرسو فى أمان بأبى قير •

ورد بروى على هذا الأمر بأنه يستطيع من واقع سبره لغور الماء أن يحكم بأن محاولة دخول الميناء محفوفة بالخطر ، ولكنه يعتقد أنه يستطيع اذا ذهب الى أبى قير أن يرسو فى مكان حصين • وفى اليوم التالى ، أى ٧ يوليو ، رسا الأسطول فى أبى قير ، طبقا لتعليمات بونابرت الصادرة فى ٣ يوليو • على أن بروى أمر الكابتن باريه ، قائد الفرقاطة ألسست ، بأن يواصل سبر أعماق الميناء القديم • وقد اختتم باريه تقريره الذى كتبه فى ١٣ يوليو - وهو تقرير فنى جدا - بهذه العبارة « الرأى الذى انتهيت اليه هو أن البوارج تستطيع دخول الميناء اذا اتخذت الاحتياطات الضرورية » (٢) ولم يرض بروى عن هذه النتيجة رضاء تاما • فليس من الهين على قائد أسطول أن يغامر بتحطيم بارجة تجنب به أضف الى ذلك أن موقف الأسطول لو استطاع جزء منه أن يدخل الميناء واضطر الباقى الى البقاء خارجها سيكون أسوأ - اذا هاجمه أسطول بريطانى - مما لو رسا الأسطول كله فى أبى قير وأمر بروى بمزيد من الاختبارات لأعماق البحر •

٢ - يزعم بونابرت أن أول نبأ وصله من بروى منذ رحيله عن الاسكندرية أتاه فى أواخر يوليو وهو بالقاهرة • وهذا جائز ، لأن عدة رسل فرنسيين وقعوا فى أيدي الأعراب كانون يكمنون لهم فى الطريق • ولكن بونابرت يستغفل قراءه حين يزعم أنه دهش لما سمع بأن بروى ما زال راسيا فى أبى قير لأنه كان يعتقد اعتقادا راسخا بأنه اما فى ميناء الاسكندرية القديم واما فى كورفو : ذلك أنه ، حتى مع التسليم بأنه لم يتلق أنباء مباشرة من بروى ، فإنه كان متصلا بالاسكندرية ، ولا بد أن نبأ خطيرا كنبأ رحيل الأسطول أو دخوله الميناء القديم كان واصله (*) • وخطاب بونابرت الذى وجهه من القاهرة الى بروى فى ٢٧ يوليو يكذب زعمه الأخير تكديبا باتا • فهو لا يثير اعتراضا على بقاء بروى فى أبى قير ، بل لا يذكر كورفو ، ويطمئن بروى الى أنه سيتلقى

(*) من المسلم به أن بونابرت كتب الى كليبر فى ٢٧ يوليو يقول انه لم يتلق منه رسالة واحدة منذ رحيله عن الاسكندرية • وقد يكون صحيحا أن رسائل كليبر لم تكن وصلت بعد ولكن ما من شيء فى أنه كان محيطا - من مصادر أخرى - بالأحداث التى وقعت بالاسكندرية ويبدو عجيبا أن مكان الأسطول هو وحده موضع الخطأ فى أنبائه •

المؤن قريبا من القاهرة • صحيح أن الخطاب يتضمن هذه العبارة « تلقيت نبأ من الاسكندرية يفيدنى بأنك وجدت فى النهاية ممرا كافيا لدخول الأسطول [للميناء القديمة] وأنت أنت وأسطولك الآن فى الميناء » (٣) • وعيب هذه العبارة أنه لا يعقل أن بونايرت تلقى نبأ كهذا ، على الأقل من مصدر ثقة : فاما أن تكون العبارة من قبيل الأمانى الطيبة ، واما تزييفا للنص الأصلي (*) والواقع أن بونايرت يضيف بعد ذلك بجملتين : « حالما يصلنى خطاب تنبئنى فيه بما فعلت وبمكانك ، سأوافيك بتعليماتى عما بقى من عمل » • فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين العبارة السابقة ، لا توفيق الا بافتراضنا أن بونايرت لم يكن يدري ما يقول •

٣ - يزعم بونايرت - فى تقريره للإدارة - أكثر من هذا ، أن بروى أخبره فى خطاب كتب فى ٢٠ يوليو وتلقاه بونايرت فى ٣٠ يوليو أنه يعزز أسباب دفاعه فى أبى قير وأنه مستعد للقاء العدو اذا هاجمه • ولكن خطاب بروى المؤرخ ٢٠ يوليو لم يرد فيه شيء من هذا : انما هو يبلغ بونايرت بسوء صحة الأميرال ، ويشكو من نقص المؤن • ويتناول أمورا عادية • أما الخطاب الذى ذكر فيه بروى فعلا نيته الوقوف بأبى قير للدفاع عن الأسطول اذا هوجم ، فتاريخه ١٣ يوليو ، ولا بد أنه وصل الى يد بونايرت فى فترة لا تتجاوز عشرة أيام ، فكان والحالة هذه لديه متسع من الوقت ليصدر أمره الى الأسطول أن يقصد كورفو قبل أول أغسطس ان رأى ذلك •

٤ - ويمضى بونايرت فيقول انه حين علم (بقرار بروى الغريب) دهش ، فأوفد من فوره ياوره جوليان الى بروى وأمره بالقاء فى أبى قير الى أن يرى الأسطول يبرحها ، وتشاء المصادفات - لخدمة بونايرت فى تعزيز دعواه - أن يكمن بعض الأعراب لجوليان فى طريقه الى أبى قير ويقتلوه : ولا حاجة للقول بأن الخطاب المزعوم لم يعثر له على أثر ، وأنه حتى لو كان كتب لوصل بعد فوات الأوان(*)

(*) ربما أخذ هذه الفكرة من خطاب تلقاه فى ٢٧ يوليو من أخيه لوى الذى كان بالاسكندرية ، ولكنه لم يأخذها قطعا من بروى نفسه • ولا ريب فى أن نص الخطاب عبث به ناشروه ، لأنه يتضمن اشارة الى القبض على السيد محمد كريم ، ولا يمكن أن يكون بونايرت قد أحيط به بعد • (٦) هناك نسخة محفوظة من الأوامر التى حملها جوليان ، والتى وجهت الى كليبر ومينو وقد نقلت رسائل نابليون الأولى (المجلد ٤ ص ٢٧٥ - ٧٦ رقم ٢٨٧٨) خطابا وجهه الى بروى ، وتاريخه ١٢ ترميدور (٣٠ يوليو) وردت فيه هذه العبارة « على أية حال يجب أن تبادر بدخول ميناء الاسكندرية ، أو تشحن بسرعة ما أنا باعث به اليك من أرز وقمح وتقلع الى ميناء كورفو ، لأنه من الضرورى ، ما دعنا لم نصل بعد هنا [فى مصر] الى قرار [حربى] حاسم ، أن تكون فى بقعة تستطيع منها أن تهدد الباب العالى » • ويذكر ناشرو الرسائل خطأ أن مصدر هذه الوثيقة هو محفوظات البحرية الفرنسية ، ولكنها لم توجد قط فى هذه المحفوظات • فقد اتلف أصلها بأمر نابليون • وقيل ان هناك نسخة بمحفوظات وزارة الحربية ، =

- والنتيجة التي لا مناص من أن نخلص إليها هي أن بونابرت كان يتعجل ذهاب الأسطول الى ميناء الاسكندرية القديم للاحتماء به . أما زعمه أنه أمر بروى بالابحار الى كورفون ان لم يستطع الاحتماء بميناء الاسكندرية فلا سند له غير كلامه هو ، وهو زعم منقوض بشهادة الشهود وقرائن الحال .

ومن الشهود الذين يكذبون زعم بونابرت مساعد الأميرال « فانس » الذى كان قائدا لميناء طولون أثناء استعدادات الحملة . فقد أبدى دهشته لوزير الحربية - فى معرض التعقيب على كارثة أبى قير - لأن بروى مكث فى المياه المصرية بعد انزال الجيش الى البر . يقول : « كنت أظن - بناء على أحاديثنا مع الأميرال بروى - أنه لن يبقى أكثر من أربع وعشرين ساعة بعد أن يتم انزال الجيش . » .

والحق أنه من المعقول أن تكون رغبة الأميرال بروى الطبيعية أن يأخذ الأسطول الى مياه آمنة بمجرد أن تنتهى مهمته ، فإذا كان قد فعل غير هذا فانما اطاعة لأوامر بونابرت . يؤيد هذا ما كتبه المنسوب البحرى جوبير الى وزير البحرية فى ٩ يوليو يقول : « كان المفروض عموما . . . أن نبحر الى كورفو متى تم انزال الجيش ، وهناك تعززنا بوارجنا القادمة من مالطة ، وطولون ، وأنكونا ، لنكون على استعداد لآى طارئ . ولكن القائد قرر غير هذا . والحظ الذى كلل جميع عملياته بالنجاح سيكون حليفه فى هذه العملية أيضا . وعلى ذكر الحظ ، أقول لك اننا جميعا هنا تدفعنا ربح الايمان بالقضاء والقدر . وهو ايمان بدأ يؤثر قليلا حتى فى معتقداتى أنا ، (٥) .

وقد فسر مؤرخ ثقة ، هو فريداش كرشايزن ، عدة عبارات واردة فى رسائل بروى الى بونابرت بأنها توحى بعدم رغبة بروى فى الابتعاد عن بونابرت . كتب بروى فى ٦ يوليو يقول « صدقنى يا سيدى القائد أن غاية منأى أن أعزز عملياتك وأجد الفرص لأثبت صادق محبتى واعترافى بصنيعك . » . « يوليو » ان أصدق رغباتى أن أكون نافعا لك بكل وسيلة ممكنة . وكل وظيفة تضعنى فيها ترضينى ، كما قلت لك من قبل ، ما دامت تتطلب نشاطا . ولعل هذه التأكيدات اذا انتزعت من سياقها تنم عن زهد بروى فى الاقلاع الى كورفو . ولكنها فى سياقها انما هى فى الواقع تؤكد مخاوفه من حبس أسطوله

ولكن الناشرين لم يردوها ، ولم تر منذ ذلك التاريخ (انظر لاجونكيير ، الحملة المصرية ، المجلد الثانى ، ٣١٥ رقم ٢) فإذا كان بونابرت كتب هذه العبارة حقا . فلمله كتبها بسبب ما تلقى من أنباء عن موقف الباب العدائى لا بدافع قلقه على سلامة الأسطول الفرنسى ، والواقع أن الفقرة السابقة لهذه العبارة نصها كالآتى : « ان حركات [الأسطول] الانجليزى تدل على أنه أقل [منا] عددا وأنه قانع بحصار مالطة . . . » ومن المسير التوفيق بين هذا وبين دعوى نابليون بأنه أمر بروى بالاقلاع الى كورفو خشية تدمير الأسطول الفرنسى .

فى مينااء الاسكندرية • وذهابه الى كورفو لا محل له لسبب بسيط ، هو أن بونابرت - على خلاف ما زعمه فيما بعد - نهاء عن اتخاذ هذا الطريق بالذات ، الا اذا استحال على بروى أن يدخل ميناء الاسكندرية أو يدافع عن نفسه فى أبى قير •

واذا التمسنا البيئة الظرفية لاثبات هذا الراى ، فحسبنا أن نذكر أن الأمر الذى أصدره بونابرت لبروى بتفريغ جميع المؤن التى تحملها السفن تقريبا ليستعملها الجيش البرى جعل من المحال على الاسطول أن يقوم برحلة بعيدة كالرحلة الى كورفو - يقطع فيها نحو ٨٠٠ ميل اذا سار فى خط مستقيم • وطلبات بروى المتكررة اليائسة للمؤن تمكينا له من اطعام الاسطول فى أبى قير لا أكثر ، والأساليب الملتوية التى اضطر أن يلجأ اليها ليمون سفنه بالزاد والماء - هذه كلها ثابتة مدونة ، وهى ذات صلة مباشرة بسبب من أهم أسباب هزيمته : هو أن ثلث ملاحيه تقريبا كانوا على البر يبحثون عن المؤن •

وليس من العسير أن يتبين المرء لم حاول بونابرت أن يلقى على بروى تبعة الكارثة التى حلت بالأسطول فى أبى قير ، وكذلك من السهل تبين السبب فى بقاء بروى بأبى قير • لقد كان الطريق الذى يجدر به أن يختاره منطقيا هو المضى الى أية قاعدة فرنسية فى البحر المتوسط ، ولكنه لا يستطيع ذلك الا بأوامر صريحة محددة - وهذه الأوامر لم يتلقها قط كما أوضحنا • فاذا كان قد عارض فى عناد ضغط بونابرت عليه ليحمله على دخول ميناء الاسكندرية القديم فله كل العذر • ذلك أن المدخل الى الميناء محفوف بالخطر ، والقادة البحريون يشق عليهم أن يخسروا سفينة أكثر مما يشق على القادة البريين أن يخسروا فرقة كاملة : ولا عجب ، فبناء بارجة يستغرق من الوقت والنفقة أكثر مما يستغرقه تجنيد آلاف قليلة من الذكور • ولكن حتى لو فرض أن فى استطاعة الاسطول أن يدخل الميناء آمنا ، فما الذى يفعله لو أن الانجليز حبسوا منفذ الميناء بثلاث بوارج أو أربع ؟ وأية تسهيلات تتوافر فى الميناء لصيانة السفن اذا حوصرت طويلا ؟ وما جدوى أسطول محاصر لبونابرت ؟ أما فى أبى قير فللاسطول ، كما قال بروى ، مجال للدفاع عن نفسه ضد نلسن • وقد سخر بونابرت من هذه الفكرة وهو يستعيد ذكرى الأحداث ، ولكن حجة أفضل منه ، هو نلسن نفسه ، خالفه فى سخريته • قال : « لو أننى أخذت أسطولا بنفس القوة من سبتهد ، لآثرت التفكير فى الهروب عن مهاجمة الفرنسيين فى موقعهم ، ولكننى كنت أعرف قواد سفنى ، (٧) • والواقع أن موقف بروى فى أبى قير كان يبدو مستعصيا على الهجوم فى نظر أى عدو الا نلسن وضباطه • وما كان لانسان غير نلسن أن يحلم بالهجوم فى الظروف التى التقى فيها بالاسطول الفرنسى •

ولكن الدوافع التي حملت بونايرت على الرغبة فى إبقاء الأسطول فى الاسكندرية أصعب فهما • وقد اقترح بعضهم دافعين كلاهما غير مقنع :

١ - ان بونايرت كان يتوقع وصول قافلة ثانية من طولون تجلب التعزيزات والمؤن ، وقد تمس الحاجة لأسطول بروى ليعينها على القوات الانجليزية • صحيح أن قافلة ثانية كان ينتظر وصولها ، ولكن أية معونة كان فى استطاعة بروى أن يقدمها لو كانت سفنه راسية فى ميناء الاسكندرية ؟ انها تكون أنفع اذا كانت قاعدتها فى أبى قير •

٢ - ان بونايرت كان مضطرا أن يبقى خط الانسحاب مفتوحا أمام جيشه الى أن يستولى على القاهرة ، ومن ثم فوجود الأسطول ضرورى له • ويلاحظ أن هذه الحجة اما تنقض تماما زعم بونايرت بأنه أمر بروى بالابحار الى كورفو ، واما تؤيد الرأى بأنه فى حالة الجلاء عن مصر - وهو أمر خير محتمل - يكون فى الامكان استدعاء الأسطول الفرنسى فى الوقت المناسب من كورفو • وأية قوات حربية فى مصر ، أو حتى فى سوريا ، تتفوق على بونايرت تفوقا يعجزه عن الاحتفاظ بالاسكندرية وأبى قير شهرا على الأقل - وهى فترة تكفى لاستدعاء الأسطول من الجزر الايونية ؟ ليست قوات المماليك بالتاكيد • صحيح كان فى الامكان تسيير جيش تركى يفوق الجيش الفرنسى عددا عليه من سوريا ، ولكن الفرنسيين كانوا ولا ريب يستطيعون مقاومته زمنا كافيا ، أضف الى ذلك أن بونايرت كان ما يزال يؤمن ايمانا راسخا بأن تركيا ستظل على الحياد • ثم كيف يمكن أن يعينه الأسطول على اجلاء جيشه اذا كان هذا الأسطول محصورا فى الاسكندرية ؟ وأى شئ يحمله على الايمان بأن نلسن ستبلغ به الغباوة حد اغفال حصاره ؟ فعلى أى وجه قلبت المشكلة اتضح لك أن بروى كان على حق فى القول بأنه يكون فى أبى قير ، حيث تطلق يده فى العمل ، أنفع منه فى الاسكندرية حيث يحبس فى الميناء • ويبقى بعد ذلك سؤال هو : لم علق بونايرت هذه الأهمية الكبيرة على دخول الأسطول ميناء الاسكندرية القديم وهو على ما تعلم من ذكاء ، لا يقل عن ذكاء الكاتب على أى حال ؟ ولم لم يرد السماح للأسطول بمغادرتها ؟

ويعرض الكاتب دلاجونكيير ، أكثر مؤرخى الحملة المصرية دقة وأمانة ، رأيا غريبا بعض الشئ • ذلك أنه كان مفهوما - قبل رحيل بونايرت عن باريس - أنه سيعود من مصر فى الحريف ويتولى قيادة قوات الغزو التى ستنزل فى الجزر البريطانية ، أما العمليات فى الشرق فيواصلها قائد أقل شأنًا ؛ لعله كليبر • وقد أشار بونايرت نفسه فى خطابه الذى كتبه لجوزف أخيه فى ٢٥ يوليو الى أنه عائد الى فرنسا بعد شهرين ، وأنه سيطلق زوجته جوزفين ، وأنه يريد أن يجد له بيتا ريفيا يعتكف فيه ، ومن رأى لاجونكيير أن بونايرت أراد أن

يحتفظ بأسطول بروى لرحلة العودة هذه . ولكن هذا الرأي يعود بنا الى أسئلة عديدة : فلم أراد بونابرت العودة في سبتمبر - أليغزو انجلترا أم ليعتزل الحياة العسكرية ويصبح مزارعا ؟ وما خطب مشروعاته الهندية ؟ وأهم من ذلك كله ، لم يحتاج الى ثلاث عشرة بارجة ليعود الى فرنسا ؟ فهو حين عاد فعلا بعد سنة كفته لذلك فرقاطتان .

وكل ما يمكن قوله تعقيبا على رأى لاجونكيير هو (١) أن نيات بونابرت الحقيقية ستظل في أغلب الظن سرا غامضا الى الأبد ، ولعلها كانت سرا غامضا على بونابرت نفسه (٢) وأن هذا الرأى لا يمس عدم رغبة بونابرت في رحيل الأسطول . وفي وسعنا بالطبع أن نخمن تخمينات بعيدة عجيبة - كالظن مثلا بأن بونابرت فكر في امكان الاحتفاظ بالأسطول ليستخدمه في حملة بحرية على الهند . ولكن ليس لدينا شواهد على الاطلاق تؤيد هذا الظن الذي لا تزكيه غير طرافته (*) ولعل بونابرت ككثير من القواد كان يكره أن يفرض في جزء من القوات التي يقودها ، أو لعله لم يهتم كثيرا بهذه المشكلة لأنه انصرف بكليته الى فتح مصر فترك حلها لبروى وستر تردده خلف عدة تعليمات ملتبسة وهو يعلل النفس بالفرج . وكان الجميع كما قال جوبير « يدفعهم ربح الايمان بالقدر » ولعل الجواب الصحيح مشتمل في هذه العبارة . وفي رواية بورين ، وهي تبدو هنا مقنعة أن بونابرت طلب اليه عقب هزيمة أبى قير أن يكتب مسودة التقرير الرسمى عن المعركة . فلما قرأ التقرير لم يرض عنه . . . وزعم بورين أنه قال : « هذا كلام شديد اللبس شديد اللين . ويجب أن يكون أكثر تقطعا ، ولا بد أن تذكر فيه تفاصيل كثيرة - كالذين أبلوا في المعركة بلاءا حسنا . ثم انك لم تقل كلمة عن دور الحظ فيها . واذا أخذنا بكلامك أعفينا بروى من اللوم . انك غير خبير بالرجال . فدع الأمر لى ، وسأمل التقرير . وتنتهى الفقرة الأخيرة من تقرير بونابرت عن المعركة بهذه الكلمات ، لم تتخل كربة الحظ عن أسطولنا وتتركه لمصيره الا بعد أن رأت أن جميع العطايا [التي حبت بها بروى] كانت عبثا » .

لقد هاجم نلسن بروى فى أبى قير مستهترا ، فأصبح بين عشية وضحاها بطل أوروبا . أما بونابرت فقد ألقى اللوم على عاتق بروى - بعد أن ترك له تعليمات غامضة أو غير عملية - وظل بطلا . وأما الأميرال بروى فقد اتبع أوامره ، واتبع ما تمليه الفطرة السليمة والرأى السديد ، ومات بطلا .

(*) ومع ذلك كان من أول أعمال نلسن التي قام بها عقب تحطيمه الأسطول الفرنسى فى أبى قير أنه أحاط الحاكم البريطانى فى برمباى علما بأنه لم يعد هناك خوف من اتصال قوات بونابرت بقوات تبو صاحب . ويبدو من هذا أن الفرنسيين ، على الأقل فى خيال نلسن ، كانوا قد وضعوا خطة لحملة حربية على الهند ينقلها الأسطول .

لا لوم على الأميرال بروى ولا تثريب لبقائه فى أبى قير ، لأنه لم يكن يملك غير البقاء . على أنه كان يستطيع أن يجعل موقفه فيها أكثر قوة ومنعة . فمقاومة قوات مساوية لقواته أو أكبر منها كانت تتطلب منه تقريب خط قتاله — لا سيما الطليعة والمؤخرة — من الشاطئ قدر الاستطاعة ، دون أن يترك بين مقدمة سفينة ومؤخرة آخرتها مسافر تذكر ، رابطا بينها بالحبال . ولو اتبع هذا النظام لامتنع على أية سفينة من سفن العدو أن تتسلل الى جانب الفرنسيين القريب من الشاطئ (وهو ما حدث فعلا) ولكون جبهة منيعة قوامها نحو ٥٠٠ مدفع .

كان الأسطول الفرنسى يرسو على أكثر من ميل ونصف من البر — وهذا يزيد على الأقل نصف ميل على المسافة التى كان يجب تركها لتجنب المياه الضحلة . وكانت البوارج الثلاث عشرة تؤلف خطا طوله زهاء الميل ، تتخلله ثغرات تقرب الثغرة منها من خمسين ياردة . ورغبة فى تعزيز المؤخرة التى رأى بروى احتمال الهجوم عليها أكثر من غيرها ، وضع فرقاطتين وزورقين حربيين بين البوارج والبر . أما الطليعة فكان يأمل أن يحميها ببطارية من مدافع المورتار وضعها على جزيرة أبى قير الصغيرة ، المواجهة لقلعة أبو قير ، وبفرقاطة وزورق حربى ، وكانت المستنقعات المحيطة بالجزيرة تبدو عائقا كافيا يمنع أى عدو يريد الالتفاف حول رأس خطه ليصل الى جانبه الساحلى . ولكن الذى حدث هو أن مدى البطارية كان أقل قليلا من أن يسمح لمدافع المورتار بأن تحدث أثرها ، وأن المستنقعات لم تكن عائقا أمام القباطنة البريطانيين .

وكان أمام بروى ثلاثة أسابيح يصلح فيها من موقفه قبل هجوم نلسن عليه . ومن العسير أن نفسر تقصيره فى الافادة منها . ولعل وجود شطر كبير من ملاحى الأسطول على البر باستمرار ليتمونوا جعله يحجم عن الحركات والمناورات المعقدة التى كان يقتضيها الموقف أو لعله كان يتوقع أن يتلقى فى أية لحظة أمر بونابرت بالاقلاع الى كورفو (وهو الأمر الذى ادعى بونابرت أنه أرسله اليه ، ولكنه فى الواقع لم يفعل قط) . ويكاد يكون من المؤكد أنه لم يكن قد استقر بعد على أحد الأمرين : القتال من موقف ثابت وسفنه راسية ، أو القتال وهو ناشر قلوعه . أو لعله — وهو الرجل الحريص — لم يتصور أن الانجليز سيقدمون على هذه المغامرة . وأيا كان السبب ، فلا يعقل أن يكون الاهمال . لأن الأمانة كانت أبرز فضائل بروى .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر أول أغسطس ، تلقت جماعات العمال التى كانت تحفر الآبار قرب شاطئ أبى قير اشارات من البارجة لوريان تنبهها الى العودة فورا الى مراكزها . ولعل العمال لم يفقهوا سر هذا الأمر لأن خط البوارج

كان يحجب الأفق عن أبصارهم . على أية حال لم يستجب للدعوة الا عدد قليل منهم ومن فصائل الجنود التي كانت تحميهم من البدو الذين لا يفتأون يلاحقونهم، حتى بعد أن وضع لهم بجلاء سبب هذه الدعوة - وهو أسطول انجليزى ، مؤلف من اثنتى عشرة بارجة على الأقل ، يدنو بسرعة كبيرة جدا تحذوه ريح شمالية قوية . وكان هناك - فضلا عن جماعات العمال التي تحفر على البر - عدة مئات من البحارة غائبين فى الاسكندرية ورشيد ليحلبوا شحنات من الارز والقمح كان الأسطول فى ميسس الحاجة اليها . والحاصل أن الأسطول الفرنسى لم يكن فى هذه اللحظة الحرجة يفتقر الى كثير من سفنه الخفيفة ورفاصاته فحسب بل الى نحو ٢٥ - ٣٠ فى المائة من ملاحيه . أما من بقى من الرجال فى مراكزهم فكان أغلبهم ينقصهم الخبرة والنظام . فقد جندوا حيثما وجدوا ، وكيفما اتفق ، فى أسابيع قليلة من بين بحارة سفن الصيد والسفن التجارية الساحلية وما اليها ، الأمر الذى أياس ضباطهم ، وكانوا يدركون ما يابى بونابرت أن يسلم به : وهو أن « غذاء المدافع » الغفل قد يؤدى الغرض منه فى جيش بروى ، ولكنه لا يصلح اطلاقا على السفن ، وقد لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا ان نصف الملاحين الفرنسيين كانوا دون الثامنة عشرة - وبعضهم دونها كثيرا . فلما جد الجدد وحمل وطيس المعركة مات هؤلاء الأطفال موت الأبطال : ولكن هذا الموت كان كل ما يعرفونه تقريبا .

وما ان وافت الساعة الرابعة حتى لاح الأسطول البريطانى للنظر واضحا جليا ، وهو يندفع بجميع أشرعته ، فى غير نظام بعينه ، فبدا أشبه بسباق بين السفن الشراعية الضخمة وكانت عدته أربع عشرة بارجة : اثنتان منها (وهما ألكسندر وسويفتشور) تقفوان أثر البوارج الأخرى ، قادمتين من الاسكندرية حيث كانتا تقومان بعمليات للاستطلاع . فى هذه اللحظة فقط أيقن بروى من تصميم نلسن على خوض المعركة فى ذلك المساء نفسه . فأعطى الإشارة بإخلاء ظهور السفن استعدادا للقتال ، ورمى الحبال لاحكام رباط السفن ، ولكن الأمر الثانى لم ينفذ على الوجه الأكمل (*) .

انقلبت كآبة هوراشيو نلسن تهلا وابتهاجا حين أرسل « صموئيل هود » قبطان السفينة « زيلوس » اشارة عصر ذلك اليوم تفيد أنه لمح الأسطول الفرنسى ، وأمر نلسن بتقديم الغداء له ولضباطه على البارجة فانجارد . وقال بين الانتخاب ان الغد سيشهده فى مجلس اللوردات ، أو فى كنيسة وستمنستر . ولم يدر بخاطر أحد الموجودين على ظهر السفينة - بغض النظر عن نتيجة المعركة

(*) كان الأسطولان متكافئين تقريبا كما لا كيفا . فكان لنلسن أربع عشرة بارجة تحمل ١٢٠ مدفعا ونحو ٨٠٠٠ رجل ، وكان لبروى ثلاث عشرة بارجة وأربع فرقاطات تحمل ١٨٢ مدفعا (ينقص بعضها الرجال) ونحو ٨٠٠٠ رجل .

بالنسبة للأميرال نلسن - أن أحدا منهم لن يكون في أحد هذين الموضعين ،
فهذه فكرة أحيث من أن تطراً لعقل بريطاني . كان الشعور العام الذي سرى
في الأسطول هو شعور فريق كرة واثق من النصر ، وكان كل فرد فيه - من
الضباط الى صغار البحارة - يعرف بالضبط ما هو مطلوب منه ، وقد ظلوا
أكثر من شهرين يترقبون الفرصة للقيام به .

كانت أوامر نلسن لضباطه ذات طابع عام جدا ، يتيح لكل منهم الحرية
الكاملة في تنفيذها ومع أن السفينة زيلوس أبلغت أن عدد البوارج الفرنسية
ست عشرة (ولا شك أنها حبست ثلاث فرقاقات بوارج) ، ومع أن نلسن
لم يكن يملك في تلك اللحظة سوى اثنتى عشرة بارجة ، فقد قرر أن يهجم
فورا ، فركز الهجوم على طليعة الأسطول الفرنسي وقلبه ، فاذا أحرز نصرا
جزئيا استطاع أن يهجم على المؤخرة ان أتاحت له الفرصة . وكان قد ناقش
جميع الاحتمالات التي تخطر بالبال مع ضباطه في الاسابيع السابقة ، وكان
كل منهم يعرف كيف يتعاون مع اخوانه اذا تطور الموقف .

وبعد تناول الغداء ، وبينما كانت سفنه يسابق بعضها بعضا على تصدر
الهجوم ، اعتكف نلسن في حجرته ليهدى التهاب خرسه المؤلم . وقد قال
ذاكرا هذا الحادث في فينا بعد ثلاث سنوات « حين رأيتهما (أى السفن
الفرنسية) لم أستطع منع نفسي من أن أطل برأسى بين الحين والحين من
النافذة . (مع أننى كنت أعانى من وجع لعين فى خرسى) وسمعت مرة وأنا
أرقب موقع الأعداء بحارين ملازمين لدفع على مقربة منى يتكلمان ، فقال أحدهما
للآخر ، انظر اليهم لعنهم الله . ها هم هنا يا جاك ، فاذا لم نهزمهم هزمونا .
فعرفت معدن الرجال الذين أقودهم ، ومن ثم مضيت فى الهجوم ببعض السفن
فقط ، وأنا واثق كل الثقة بأن السفن الأخرى ستتبعنى فى الهجوم ، مع أن
الظلام كان قد أوشك أن يخيم ، فاذا لم تهجم كان لها كل العذر ، غير أنها
جميعا وجدت لها فى ظرف ساعتين مكانا تحتله فى المعركة ، (١٠) .



دهش بروى قليلا حين أدرك أن نلسن ينوى الهجوم على أسطوله ذلك
المساء . كانت كل الأصول المعمول بها تقتضيه أولا أن يستطلع موقع الفرنسيين
ثم يصف سفنه فى خط قتال ، وكان هذا خليقا بأن يقلل الأخطار التى يتعرض
لها ، ولكنه كان أيضا سيتيح لبروى وقتا للاستعداد . وفى الساعة الخامسة
كان بروى ما زال مترددا فى القتال من مراسيه أو لقاء البريطانيين وأشرعته
منشورة . والواقع أنه أمر أول الأمر بأعداد حيشان القلوع الكبيرة . ولعله
كان فى تردده متأثرا باعتلال صحته : فقد ظل أسبوعا يعانى مغصا واسهالا ،

وربما كان مصابا بالنوزنتاريا . ولا نعرف الى الآن على التحقيق أى الأميرالين عوقه المرض أكثر من غريمه ، الذى يشكو وجع الضرس اللعين ، أم الذى يشكو الاسهال . على أية حال لم يقرر بروى القتال من مراسيه الا بعد أن عقد اجتماعا سريعا مع رئيس أركان حربه جانتوم وأميرى البحر بلانكيه وشايلا وفللنيف . وتغلبت حجة جانتوم على رأى بلانكيه الملح بالقتال والسفن ناشرة قلوها . وحججه تبدو مقنعة : فان ثلاثا من البوارج الفرنسية لم تكد تصلح للملاحة (فقد حكم بعدم صلاحيتها قبل ذلك بثلاثة أعوام) ، وكان الملاحون ناقصى العدد لا يتوفر لهم من الخبرة ما يتيح لهم القيام على المدافع والقلاع فى آن واحد ، أما القتال من المراسى فيسمح لرجال المدفعية أن يركزوا جهودهم على خدمة البطاريات الموجهة للبحر ، أضف الى ذلك أن الأسطول لم يكن فى وسعه ، وهو لا يملك أكثر من زاد يوم واحد ، أن يغامر بعزله عن قاعدته . ولما استقر القوم على هذا الرأى دون حماسة كبيرة ، عاد بلانكيه وفللنيف الى سفينتيهما فرانكلن وجييوم تل . ولم يكتب لأحدهما أن يرى بروى مرة أخرى .

كانت الباخرة زيلوس بقيادة الكابتن هود ، والباخرة جليات بقيادة الكابتن فولى ، فى طليعة السفن المتسابقة حين أصبح الأسطول الانجليزى على مرمى الطليعة الفرنسية . حوالى الساعة ٦١٥ مساء . وفى اللحظة الأخيرة ، سبقت جليات زيلوس ، وكان فى ملاحى زيلوس من الروح الرياضية ما جعلهم يحيون مرورها بهتافات ثلاثة مدوية . وقد أصبح الهتاف ، مظهرا يتخلل المرحلة الأولى فى المعركة فألقى الرعب فى قلوب الفرنسيين الذين كانت محاولاتهم الضعيفة الواهية للرد على هتاف الانجليز تثير بين هؤلاء ضحكات علت حتى سمعها أعداؤهم .

وربما كان انتصار جليات على زيلوس فى سباقهما هذا عاملا حاسما فى تقرير نتيجة المعركة . والواقع أنها كانت فكرة الكابتن فولى أن يمر بسفينته عبر السفينة الفرنسية « جوريه » التى كانت على رأس الخط الفرنسى ، بين الساحل والفرنسيين ، وقد جرؤ على هذا معتمدا على خريطة فرنسية حديثة الخليج أبى قير كانت فى الحقيقة غير دقيقة ، ولو أنه اهتدى بها وحدها دون غريزته لجنحت سفينته .

وبينما كانت جليات تدور حول جوريه ، فتحت البطارية الفرنسية المقامة على جزيرة أبى قير نيرانها - دون أن تحدث أثرا - فبدأت المعركة ، وكانت الشمس على وشك الغيب : ووقفت على الشاطئ جماعة من البدو ترقب المنظر والرماح فى أيدي رجالها .

وكان فى نية الكابتن فولى أن يلقي مراسيه أمام جوريه ، ولكنه أخطأها ووقف تجاه السفينة الثانية فى خط الفرنسيين وهى « كونكران » ، وتبعه

هود - الذى أدهشه أن يرى جليات تعبر المياه الضحلة دون أن تجنح - واتخذ موقفه تجاه جوربيه • وتبعهما ثلاث سفن انجليزية أخرى - هي « أوريون » و « أوديشس » و « ثيسوس » - ورست أمام السفن الفرنسية فى مؤخرة الخط • أما السفن الباقية ، ابتداء من سفينة نلسن « فانجار » ، فقد فتحت نيرانها على الطليعة الفرنسية فى البحر •

وبلغ التهور بالفرقاطة الفرنسية « سيريز » أن تطلق نيرانها على جليات ، ولعلها حسبت نفسها داود أمام العملاق جالوت • وصاح فولى برجاله « أغرقوا هذا الحيوان • ماذا يفعل هنا » (١١) فما لبثت الفرقاطة أن أغرقت بمدافع أوريون وبإصابة فى دفتها من جليات ، فكانت أول ضحية فى الأسطول الفرنسى • وظلت رافعة علمها بعد أن استقرت فى المياه الضحلة وسلمت فى الساعة الثالثة صباحا •

وفى خلال الساعة التالية لبدء المعركة كانت من السفن فى السفن الثمانى فى خط القتال الفرنسى تصلى نارا حامية تأتيا على الأقل من سفينتين انجليزيتين وهذا على الرغم من أن السفينة كلودن بقيادة الكابتن تروبردج جنحت فى المياه الضحلة ، والسفينتين « الكسندر وسويفنشور » لم تدخلا المعركة بعد (وأصبحت كلودن نذيرا يحذر غيرها من السفن الى الخطر وهى تدخل المعركة) ، وقد يسر هذه العملية الجبارة رسو السفن الانجليزية على زوايا من أهدافها مكنتها من اطلاق نيرانها على سفينتين فى آن واحد ، بينما عجزت بعض السفن الفرنسية عن توجيه كلتا بطاريتها الجانبيتين الى الانجليز يضاف الى ذلك أن الفرنسيين كرموا مقادير من الذخيرة على الجانب الساحلى من سفنهم لأنهم لم يتوقعوا هجوما من ذلك الجانب ، فغرقلوا بذلك عمل بطارياتهم الساحلية : وبينما كان الأسطول الانجليزى يدمر الطليعة الفرنسية ويضرب القلب ، ظلت سفن المؤخرة الفرنسية عاطلة لا تشارك فى المعركة • ذلك أن الأميرال فللنيف الذى كان يقودها لم يتلق أية اشارة بأن ينشر قلوعه ويخف لنجدة السفن الأخرى ، واذ كانت الريح تهب قوية ضده فمن المشكوك فيه أنه كان يستطيع هذه النجدة حتى لو تلقى الأمر بها •

وكان الظلام قد خيم واشتدت القوضى • كان الدخان يحجب القمر تماما برغم سطوعه : ولم تكد الاشارات الضوئية ترى وسط الوميض المتصل المنبعث من أكثر من ألف مدفع • وكان الفرنسيون والانجليز يطلقون النيران أحيانا على سفنهم ، وخاض عدد من السفن معارك المدفعية مع خصومها على رمية مسدس منها ، وكانت صيحات الجرحى تسمع من سفينة الى سفينة عالية فوق الضجيج ، ومختلطة بهتافات المنتصرين حين يصيبون المرمى •

وحدث أثناء الليل ابان المعركة أن ولدت شابة ولدها على السفينة جليات •

فقد كان هناك نساء على السفن ، أو على السفينة جليات على الأقل ، وإن بدا هذا مدهشاً . وعلى ذكرى جليات نقول إنها كانت تحمل أيضاً نحو خمسين جندياً نمساوياً (أطلق سراحهم من سفينة سجن فرنسية قرب جنوه) يقومون على البطاريات . ولا يذكر جون نيكول ، وهو صانع براميل كان على جليات وخلف لنا ذكريات عن المعركة ، مولد الصبى فحسب ، بل تفاصيل حية أخرى . فهو يذكر « زوجة المدفعى التى كانت تقدم لى ولزوجها كأساً من النبيذ بين الحين والحين فتخفف بذلك من تعبنا كثيراً » . وذلك الصبى الميت جالسا على صندوق ذخيرة وقد قتله الانفجار ، لا يشب على قدميه اطاعة لأمر المدفعى لياتيه بمزيد من الخراطيش ، فيدفعه هذا دفعة أوقعته كالحجر على ظهر المركب . وذلك الصبى الذى كان يمسك بيديه الكبريت ليشعل المدفع . وبينما هو يشعله أطاحت قنبلة بذراعه ، فنظر إليها ، ورأى ما أصابها ، ثم أمسك الكبريت بيسراه وأشعل المدفع قبل أن يمضى الى العنبر ليضمد جراحه (١٣) .

وفى الساعة السابعة ، عقب غروب الشمس مباشرة ، جرح الأميرال بروى على ظهر السفينة لوريان فى رأسه وأحدى يديه ، وأبى أن تضمد جراحه واكتفى بمسح الدم بمنديل بين الحين والحين ، وأبلى لوريان بلاء حسناً ، فما إن وافت الساعة ٧ر١٥ مساءً حتى كانت قد عطلت نهائياً السفينة بلرروفون التى جرؤت على مهاجمة العملاقة (*) وحدها ، والتى سرعان ما اضطرت الى قطع حبالها والانسحاب من المعركة بخسائر فادحة فى الأرواح . وفى الساعة السابعة والنصف مساءً مزق مدفع فخذ بروى اليسرى وكاد يشطرها شطرين ، وأبى أن يحمله أحد الى المستشفى ، وطلب أن يترك حيث كان ليموت فى مكان الربان . يقول الملازم البحرى لاشنيد : « انه مات بنفس السكينة التى أبداهها فى المعركة » (١٤) .

وبعد نصف ساعة من موت بروى حلت السفينتان سويفتشور من الخارج ، والكسندر من الداخل ، محل بلرروفون فى مهاجمة لوريان . واشتد قصف المدافع ، وفى الساعة الثامنة والنصف مساءً أصيب الكابتن كازابيانكا قائد لوريان بجرح فى رأسه ، فنزل من سطح السفينة ليضمه ثم عاد الى مكانه ، ومع أن الانجليز كانوا فى ذلك الوقت متفوقين بشكل واضح فان نتيجة المعركة لم تكن قد تقررت على الإطلاق . كانت سفينتان من السفن البريطانية الأربع عشرة - وهما كلودين وسليروفون - قد تعطلتا . أما الأسطول الفرنسى . فإذا استثنينا الفرقاطات الثلاث الباقية ، وجدنا أن السفن الثلاث عشرة اما مواصلة اطلاق النار ، واما غير مشتبكة فى القتال . صحيح أن الكونكران

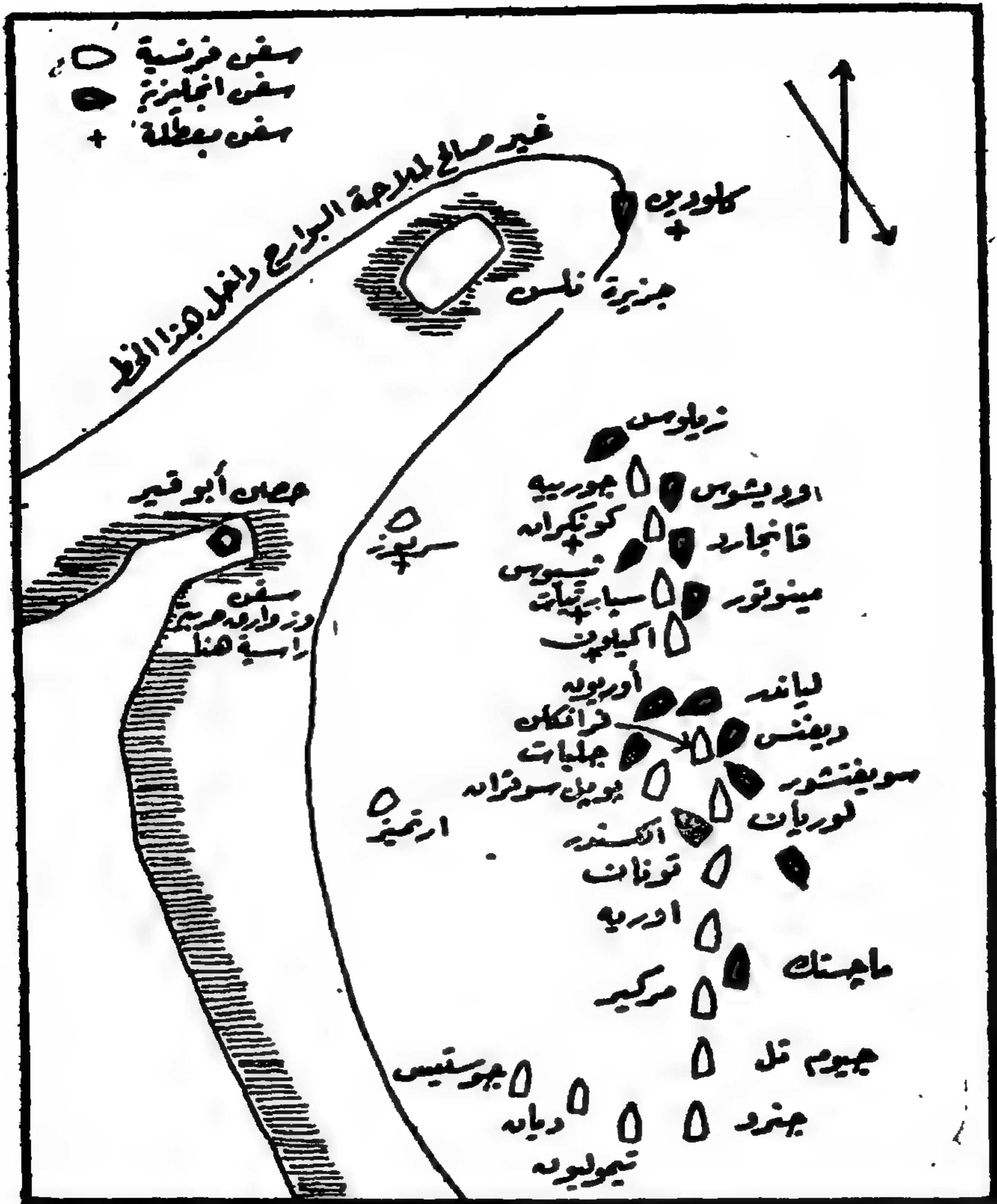
(*) يقول الجبرتى فى وصفها ، والفايق الكبير المسى بنصف الدنيا ، وكان به أموالهم وذخائرهم ، وكان مصفحاً بالنحاس الأحمر . ج ٣ ص ١٥ .

كانت على وشك الاستسلام للأوديشس : اذ مات ١٣٠ من بين ملاحيه الأربعمائة ، وجرح ٨٠ أو ٩٠ جراحا خطيرة ولكن الجوربيه كانت برغم انتزاع قلعوها تماما لا تزال ترد النيران متجاهلة الكابتن هود قائد زيلوس الذى دعاها عشرين مرة للتسليم . يقول هود : « وأخيرا ، وبعد أن أعيانى اطلاق النار وتقتيل الناس على هذه الصورة ، أرسلت زورقى على سطحها ، وسمح للملازم [الذى حل محل ربانها الجريح] أن يرفع ضوءا ويخفضه علامة على التسليم » (١٥) وحتى بعد أن سلمت الكونكران والجوربيه ظل الفريقان متكافئين فى العدد - احدى عشرة بارجة وثلاث فرقاطات للفرنسيين ، واثنى عشرة بارجة للبريطانيين . وكان بروى قد قتل ، ولكن نلسن أيضا كان يعانى من جرح فى رأسه ، وكان من الناحية العملية معطلا . ولو استطاع فللنصف أن يدخل المعركة ، لكان من الجائز حتى فى تلك المرحلة أن يتعادل الفريقان فى نتيجة المعركة ، ان لم يتفوق الفرنسيون .

وفى الساعة التاسعة والنصف مساء شبت النيران على ظهر البارجة لوريان ، وقد أخلدت بسهولة كما خيل للقوم وقتها . ولكن ما ان مضت ربع ساعة حتى اندلعت النيران ثانية ، وما هى الا دقائق حتى اجتاحت سطح البارجة كله . يقول الملازم البحرى لاشتيد : « ودعونا رجال البطارية ذات المدافع زنة ٢٤ رطلا للصعود ، ولكن كل شئ تضافر فى تلك اللحظة على زيادة الفوضى فقد تبين أن المضخة مكسورة : وكانت البلط مختفية تحت تلال من الأنقاض ، أما الجرادل التى وضعناها على مقدمة السفينة فكانت مبعثرة فى المكان كله ، واضطررنا الى جلب عدد آخر منها من العنابر ، وأحاطت بنا خمس سفن تقذفنا بنيرانها بقوة مضاعفة (*) وبعد جهود جبارة عقيمة تركنا سطح المركب الذى كانت تغطيه الجثث المشتعلة وتطاير القلع الكبير وصارى المؤخر وشراعه صوب الميناء . . . وكانت السفينة تشتعل مقدمتها ومؤخرتها ، وأخذ اللهب يصل الى بطارية المدافع ذات ال ٢٤ رطلا ، ومع ذلك بدا رجال بطارية المدافع ال ٣٦ رطلا وكأنهم لا يحسون الخطر ، واستمروا يطلقون النار بقوة (١٦) .

كان التلميذ البحرى « تيوفيلس لى » العامل على السفينة سويفتشور ، فى العاشرة من عمره وقتها . فلا عجب أن ظلت ذكرى هذه الليلة حية فى خياله . كتب بعدها بسنوات كثيرة يقول « كان وميض المدافع الكثيرة الذى لا ينقطع ، والمنبعث فى نفس اللحظة تقريبا ، واضحا فى بعض الأحيان وضوحا لم يمكن كل فريق من أن يتبين أعلام المحاربين فحسب ، بل ما أحدثته المعركة فيهم من آثار فتاكة (١٧) .

(*) ربما كانت هذه السفن الخمس هى سايفتشور والكسندر وديفنس وجوليات ولياندر . وقد ركز الانجليز جهودهم على لوريان بمجرد أن شبت النار فيها .



معركة أبو قير

ومع أن تيوفيلس لى قد احتفظ بصورة لا تمحى لمنظر المعركة العام ، فان ذاكرته اختلطت عليها التفاصيل بطبيعة الحال . من ذلك أنه يقول ان الأميرال بروى كان لا يزال حيا . « كان بروى الباسل ، بعد أن فقد كلتا ساقيه ، جالسا - وقد ركبت ضاغطة الشرايين على إحدى فخذيته - فى كرسي بمسندين مواجهها أعداءه . يصدر تعليماته لآخماد النار ، واذا قبله مدفع أطلقتها سويفتشور تنهى حياته الباسلة بشطر جسده شطرين تقريبا (١٨) . ولا يمكن أن يكون لى قد شهد هذا المنظر حتى لو وقع ، ولعل الأمر اختلط عليه فحسب أن بروى هو الذى مات بدلا من الكابتن تيفنار ربان السفينة « أكيلون » ، الذى أطاحت قذيفة بساقه فمات لفوره تقريبا ، أو الكابتن « دوتى - توار » ربان السفينة تونان . أما أكيلون التى كانت تحمل ٨٧ من القتلى و ٢١٥ من الجرحى ، فقد استسلمت للبارجة « مينوتور » فى الساعة ٩ر٤٥ مساء ، وقطعت السفينة تونان ، التى ماتزال تطلق نيرانها حبالها حوالى ذلك الوقت تجنباً لوصول النار اليها من بقايا السفينة لوريان المشتعلة والتى كانت تتقدمها مباشرة ، أما الكابتن دوتى - توار فكان ما يزال يسيطر على السفينة وان تطايرت أطرافه فلم يكده يبقى منه غير مؤخرته .

كذلك استطاع الكابتن ملر ربان السفينة تيسوس أن يرقب النيران المشتعلة فى لوريان عن كثب ، وهو لا يشارك اعجاب التلميذ البحرى لى ببسالة الفرنسيين . فقد كتب يقول انه مع أن السفينة المحترقة لوريان كان منظرها غاية فى الروعة والرعب ، وهو منظر كان خليقا فى الماضى بأن يستدر دمع الظافر ، فان الشفقة خنقها تذكر الوقائع الرهيبة الكثيرة التى قارفها وتقارفها أمتهم عديمة المبادئ المتعطشة للدماء (١٩) . وهكذا تغلبت المبادئ البريطانية فى الكابتن ملر على الروح الرياضية البريطانية .

ووسط هذا الجحيم اجتمع الأميرال جانتوم مع ضباط البارجة لوريان ليقرروا ما هم صانعون . واستقر رأيهم على أن النار لم يعد فى الاستطاعة كبجها ، وكل ما يمكن عمله هو محاولة اغراق مخزن البارود بالماء ، ولكن تبين أن هذا مستحيل ، فقد كانت النيران أقوى وأسرع من الماء .

وما ان وافت الساعة العاشرة حتى صدر الأمر بإخلاء السفينة ، ومن تلك اللحظة بات كل من عليها يحاول النجاة بجلده .

واستطاع نحو مائة رجل أن يحشروا أنفسهم فى الزورق وينطلقوا به . وترك الجرحى طعمة للنيران ، وحاول مائتان آخرون النجاة سباحة ، أو بالتشبث بالانقاض القائمة حول السفينة اذا لم يستطيعوا السباحة . والتقطت السفن الفرنسية بعضا ، والانجليزية بعضا آخر ، وسبح الملازم الأول برتللو بعيدا عن السفينة ولكنه راجع نفسه فعاد الى السفينة المشتعلة ، ثم أمسك فبعته

فى يده وعاد يسبح من جديد . فلما ظهر على سطح السفينة سويفتشور وهو عار تماما ولكنه يستر نفسه ، دهش الكابتن « هالوويل » وسأله « بحق الشيطان من تكون ؟ » وذكر برتللو اسمه ، وتبين أنه عاد لياتى بقبعته حتى يثبت أنه ضابط : وما من شئ يعدل حضور الذهن فى الظروف الشاذة والتقطت السفينة ألكسندر ٢٨ رجلا كلهم عراة وصرفت لهم ٢٨ قميصا ، و ٢٨ زوجا من السراويل .

ترى أين كان فى هذه الدقائق الحاسمة ذلك الصبى الواقف على سطح السفينة المشتعل ، البالغ من العمر تسعة أعوام أو عشرة ، وأين كان أبوه الكابتن كازابيانكا ! أما مسز « هيمانز » فلا تجيب عن هذا السؤال فى قصيدها المشوشة ، وليس هناك ما يبرر الظن بأنها كانت تعرف الجواب . ويقول تيوفليس لى ، وهو فى نفس عمر التلميذ البحرى كازابيانكا تقريبا ، ان الغلام كان فى المستشفى تحت سطح السفينة ، لأن احدى ساقيه طاحت . ويقول غيره ان الصبى واباه حاولا النجاة سباحة وانهما غرقا . أو لعلهما كانا ما يزالان على السفينة لوريان حين انفجرت ، فهل كانا معا ؟ أم يبحث الواحد عن الآخر ؟ من يدري ؟ أما بونابرت - وهو بطبعه مولع بالخيال المسرحى - فيؤكد فى تقريره أن الصبى كازيبانكا أبى أن يترك السفينة وظل الى جوار أبيه حتى النهاية . ولكن الشئ الوحيد الذى لاشك فيه هو أن أحدا لم ير بعد ذلك لأى منهما أثرا .

أما الانفجار فقد وقع حوالى الساعة العاشرة والرابع مساء ، ولا تتفق روايتان على وقت وقوعه بالضبط . وشعر الناس بهزة فى نطاق نصف قطر يبلغ ٢٥ ميلا ، وأضاء وميضه الاسكندرية ورشيد . وتطايرت فى الجو أجزاء برمتها من السفينة - صواريخها وعوراضها وحبالها - مختلطة بالأجساد ، ثم تساقطت والنار تشتعل فيها . وتلا الانفجار سكون فجائى : وكفت المدافع كلها ، البريطانية والفرنسية ، عن اطلاق نيرانها عشر دقائق على الأقل . وحاول ملاحو السفينة تيسبيوس الهتاف ، ولكن حلوقهم غصت به . واذ غاص هيكل لوريان الى قاع البحر جذب معه الرجال الذين كانوا لا يزالون فى الماء ، وطفأ نحو ستين منهم ووجدوا أشياء عائمة يتعلقون بها ، واستمروا متشبثين بها حتى مطلع الفجر طوال ساعات خمس ، وقتل عدد منهم بقذائف المدافع التى أطلقتها سفن المؤخرة الفرنسية .

وغرق مع لوريان تماثيل القديسين الذهبية والفضية وصناديق الآثار المقدسة المرصعة بالجواهر ، والتى سبق أن صادرها الفرنسيون من كنيسة القديس يوحنا الأورشليمى بمالطة .

ولم تكن علة السكون الرهيب الذى تلا الانفجار الدهشة فحسب ، بل أهم منها خوف السفن الانجليزية والفرنسية من أن تحرقها الانقاض المشتعلة ،

يضاف الى هذا أن الرجال ظلوا يقاتلون أربع ساعات ، ففي فترة السكون.
استلفوا حيثما كانوا واستسلموا للنوم .

وكانت مدافع السفينة فرانكلن هي التي أيقظتهم ، فهي أول السفن
التي استأنفت إطلاق النيران ، وكان الأميرال بلانكيه دوشايل – الذي كانت
هي سفينته الرئيسية – قد جرح في رأسه في الساعة الثامنة ، وفي الساعة
التاسعة والنصف أصيب ربانها أيضا بجراح خطيرة . يقول بلانكيه في تقريره
انها حين استأنفت إطلاق نيرانها كانت قد فقدت صاريتين من صواريخها ،
وأسقطت جميع المدافع على سطحها الكبير . « فقد قتل أو جرح ثلثا بحارتها ،
وبلغ الاعياء بالباقيين غايته . وأحاطت بها سفن الأعداء التي كانت بعضها قاب
قوسين منها ، فحصدوا الرجال بمدافعهم المنطلقة من كل صوب (٢٠) .

وواصلت فرانكلن نضالها ساعة على هذه الحال ، وفي الساعة الحادية
عشرة والنصف مساء استسلمت ، أما السفينة « سبارتيات » فانها لم تستسلم
للفانجارد الا في الساعة الحادية عشرة ، مع أن هيكلها خرقتة القذائف ، وقتل
أو جرح نصف رجالها ، وكان معظم الباقيين يشغلون المضخات . وأما السفينة
« بوبل سوفران » التي نزعتم قلوبها تماما حوالى الساعة التاسعة ، فقد حلت
حبالها من مرساها حوالى الساعة العاشرة والرابع مساء ، وكفت عن إطلاق
النار في الساعة الحادية عشرة مساء ، واعتلى ظهرها ضباط من السفينة
« أوريون » في الساعة الرابعة والنصف صباحا .

أما السفينة تونان فقد حلت حبالها قبل أن تنفجر لوريان بقليل لتتقى
اشتعال النار فيها . وكان الكابتن دوبيتي – توار ما يزال في مكانه – فيما تقول
بعض الروايات – وقد طاحت ذراعاه واحدى ساقيه ، وان بدا هذا بعيد
الاحتمال . وكان هذا الرجل الذي أغرته بحياة البحر قراءة لقصة روبنسن
كروزو في طفولته ، قد حارب (كما حارب بروي) تحت قيادة « دوجراس »
في الثورة الأمريكية ، وهاجر الى الولايات المتحدة أثناء حكم الارهاب في
فرنسا ، وعاد لتوه عمله في البحرية في عهد حكومة الادارة . وتؤيد ملامح
وجهه الحساسة ، الأرستقراطية الذكية ، رأى معاصريه في أنه من أكفأ ضباط
البحرية الفرنسية وأكثرهم وعدا . وفيما كانت مدافع سفينته لاتزال تطلق
نيرانها في احدى ساعات الليل واذ رأى أنه ينزف دما كثيرا برغم الضاغطين
المركبتين على فخذه ، قال الملازم « لعل أفقد رأسي أيضا مع دمي فأسيء التصرف
وأنا في القيادة لقد آن الأوان للتخلي عنها (٢١) . وما أن قال هذا حتى ألهب
دماغه بطلقة مسدسه . وظلت تونان تطلق مدافعها حتى الساعة الثالثة والنصف
صباحا . ولم تسلم الا في ساعة متأخرة من ٢ أغسطس بعد أن قتل من رجالها
١٢٠ وجرح ١٥٠ . وكانت وقت موت دوبيتي – توار قد امتلأت بأشلاء القتلى
والجرحى .

وكان المواطن بوسبيلج ، المراقب العام لمالية جيش الشرق ، ساهرا طوال تلك الليلة مع معظم الفرنسيين الآخرين في رشيد على نحو ٢٥ ميلا ، يرقب المعركة من أحد الأبراج ، وبالطبع لم يستطع أن يعرف من هذا البعد أى المراكب فرنسي وأيها بريطاني . وراعه انفجار لوريان الرهيب ، وهو يؤيد في خطاب لزوجته واقعة الدقائق العشر التالية التي سادها السكون (وهي تكاد تكون الشيء الوحيد في المعركة الذي أجمع عليه كل الشهود) ، ويقول : ان الذي حدث بعد هذه الوقفة ذات الدلالة « أن اطلاق القذائف استؤنف واستمر دون انقطاع الى الساعة الثالثة صباحا ، حين توقف توقفا تاما تقريبا حتى الخامسة ، ثم استمر بنفس الشدة السابقة » (٢٢) .

ويقول بوسبيلج انه في نحو الساعة الثامنة صباحا ، وقع انفجار آخر شبيه بانفجار لوريان ولا بد أنه كان صادرا عن الفرقاطة أرتميز التي جنحت الى الشاطئ وأمر ربانها باحراقها . على أن تأكيد بوسبيلج بأن اطلاق النار في صبيحة ٢ أغسطس كان بنفس الشدة السابقة خلال الليل لا يمكن تصديقه وان لم ينقطع اطلاقها بالطبع ، ولعله كان قد غلبه النعاس فاختلط عليه الأمر . والواقع أنه حين أشرقت شمس ذلك اليوم كانت ست بوارج فرنسية قد سلمت ، أما السابعة - لوريان - فأصبحت في خبر كان ، وأما تونان وأورو ومركير فكانت لا تزال ترفع أعلامها ولكنها كفت عن اطلاق النار وأكرهت على أن تجنح أو ألزمت الشاطئ ، وكذلك كانت حال تيموليون ، وهي آخر سفينة في خط القتال الفرنسي وقد أحرقتها ملاحوها في ٣ أغسطس (*) ولم يبق من السفن الفرنسية ما نجا من التدمير وظل قادرا على اطلاق النار سوى سفينة فللنيف جيوم تل ، والبارجة جنرو ، والفرقاطتين ديان وجوستيس . أما الانجليز فمع أنهم لم يفقدوا سفينة واحدة ، الا أنهم دقوا دقا عنيقا ، لا سيما السفينتين بلورفون وماجستك اللتين منيتا بأفدح الحسائر ، ولا يمكن أن يكون القتال الذي دار بين هذه الفلول قريبا في شدته من معركة الليل .

يقول نابليون ، وفي قوله شيء من عدم الانصاف ، انه في الساعة الثانية : من بعد ظهر ٢ أغسطس فقط « بدا أن الأميرال فللنيف قد لاحظ أن هناك معركة تدور في الساعة الثانية عشرة الأخيرة » (٢٣) . وقد قطع فللنيف حباله حوالى ذلك الوقت بعد أن أخذ فريقا من بحارة السفن المتروكة ، وأقلع من مكان المعركة تتبعه جنرو والفرقاطتان الباقيتان على قيد الحياة . وبذل الانجليز محاولة غير جدية لمطاردته ، ولكنهم سرعان ما أقلعوا عنها ، لأنهم كانوا

(*) ذكر المؤلف ٣ يوليو ومن الواضح أن صحتها ٣ أغسطس وقد اعطينا أنفسنا الحرية في تصحيح ذلك في النص المترجم (المترجم) .

قد أصابهم من الضرب والدق أكثر كثيرا مما أصاب هذه السفن الأربع التي لم تشارك في المعركة الا بنصيب ضئيل .

وفي رأى نابليون أن « الفضل في انتصار نلسن راجع الى خرق رباني السفينتين جوربيه وكونكران واهمالهما ، والحادث الذي وقع للسفينة لوريان ، وسوء تصرف الأميرال فللنيف . . . وكان في استطاعة فللنيف أن يحول المعركة الى نصر للفرنسيين حتى في فجر اليوم التالي » (٢٤) . ومن الصعب الحكم على الكابتن ترولليه (الكبير) والكابتن والباراد بالخرق والاهمال أو بعدمهما ، وما من شك في أن حريق لوريان كان الحادث الحاسم النهائي في المعركة ، ومن العسير تفسير عدم مبادرة الأميرال فللنيف بالعمل ولكن العجيب أن ينتظر بونابرت عشرين عاما قبل أن يلوم الأميرال على خسارة المعركة . فليس في تقريره الذي كتبه للادارة في ١٣ أغسطس ١٧٩٨ كلمة لوم واحدة موجهة ضد فللنيف ، بل انه طلب في كتاب مؤرخ ١٧ أغسطس الى الجنرال شابو ، قائد القوات الفرنسية في كورفو ، أن يبلغ تهانيه لفللنيف على احتفاظه بحياته وبسفينتين ممتازتين . فلو كان فللنيف بهذا العجز الذي صوره نابليون في تاريخه للحملة المصرية فلم أمره في سنة ١٨٠٥ على الأسطول الذي دمره نلسن في طرف الغار ؟ .

عقب بونابرت على موت بروي حين أبلغ نبا الكارثة الى حلت بالأسطول الفرنسي في أبى قير بقوله « لقد أحسن صنعا اذ مات » (٢٥) . ولما أملى تقريره للادارة ، وهو التقرير الذي سود فيه ذكرى بروي ، أتبعه بخطاب عزاء لأرملته « زوجة صديقى » (٢٦) . ولم يكن من شيمة نابليون أن يحترم انسانا غيره ، غالبا كان أو مغلوبا . فالدوق ولنجتون - في رأيه - قد ارتكب في ووترلو كل حماقة تخطر بالبال ، ولم يكسب المعركة الا لأن الجنرال جروشى كان أكثر حمقا وتخبطا ، أما معركة أبى قير فان « سلوك نلسن فيها لا يمكن اعتباره مثلا أعلى ، ولكنه هو والبحارة الانجليز أظهروا قصارى ما يمكن من المهارة والجهد ، في حين أبدى نصف الأسطول الفرنسى ما يعدل هذه المهارة والجهد عجزا وجبنا » (٢٧) .

على أن هؤلاء الضباط والبحارة الجبناء قتل منهم في المعركة أميرال وثلاثة ربابة و ١٧٠٠ بحار ، وجرح أميرال آخر وستة ربابة و ١٥٠٠ بحار . ولم ينقد ضابط بحرى انجليزى بروي وضباطه بهذه الطرق التي تقدم بها بونابرت . ولكن السفن الانجليزية والضباط والملاحين الانجليز كانوا خيرا من سفن الفرنسيين وضباطهم وملاحيهم ، فلم يكن بهم حاجة الى الغض من ذكاء العدو أو شجاعته ليثبتوا هذه الحقيقة لانفسهم .

جرح الأميرال نلسن فى أوائل المعركة قبل أن تشتعل النيران فى البارجة لوريان . ذلك أن شظية من قذيفة أطلقتها « سبارتيارت » عرت جمجمته فوق عينه العمياء بأكثر من بوصة ، وسقط جفنه على عينه المبصرة ، وظل برهة فاقد البصر تماما . ولا ريب فى أنه كان أيضا يعانى من ارتجاج شديد ، وقد كتب بعد المعركة بأسبوعين الى اللورد سانت فنسنت يقول « ان فى رأسى من الاضطراب والتشويش ما يجعلنى فى الواقع لا أعرف ماذا أصنع » (٢٨) .

وظن نلسن أول الأمر أنه جرح جرحا مميتا فقال « لقد قتلت ! سلموا لى على زوجتى » (٢٩) . ولما قادوه الى حجرة الجراحة فى عنبر السفينة - وكانت غاصة بالجرحى - ، أصر على أن ينتظر دوره . وما أن رد اليه بصره حتى أمر سكرتيه بأن يكتب الرسالة التى سيمليها عليه . واذا كان سكرتيه ، مستر كامبل ، مهزوزا لا يقوى على أن يصدع بالأمر ، وكذلك كان قسيس السفينة ، فقد كتب الأميرال بنفسه السطور الأولى من النشرة التى تعلن انتصاره . « لقد بارك العلى القدير جيوش جلالة الملك فى المعركة الأخيرة » (٣٠) . ويصعب علينا أن نتبين بأى لقانة استطاع نلسن أن يعرف فى تلك المرحلة من المعركة أنه عقد له فيها النصر ، وأصعب من ذلك أن نتبين العلاقة بين العلى القدير وتمزيق ٤٠٠٠ جثة آدمية ، فيها الرجال والغلمان ، بقنابل المدافع والقذائف المزدوجة والنيران .

ولما فرزت الحطام والجثث فى الغد تبين أن النصر وان كان تاما تقريبا . الا أنه كان غالى الثمن . وقد ألقى الكابتن باريه ، الذى صعد الى ظهر فانجارد فى ٣ أغسطس ليرقب عودة الأسرى الفرنسيين ، نظرة فاحصة على المراكب البريطانية . فوجد ثلاثة منها قد انتزعت بعض قلعوها ، واثنتين تعطلتا مؤقتا . أما الحسائر فى أرواح البريطانيين فهى وان كانت دون خسائر الفرنسيين الا أنها بلغت ٢١٨ قتيلًا و ٦٧٧ جريحا ، نصفهم تقريبا على البوارج فانجارد . وبللروفون . وقد صعد جون نكول وهو أحد رجال السفينة سويفتشور وبحار قديم عرك الحرب ولم تكن أهوالها بالأمر الجديد عليه ، بعد المعركة ليلقى نظرة . . فوجد المشهد رهيبا . . . فقد كان الخليج كله مغطى بجثث ميتة ، ممزقة ، مجرحة ، محرقة لا تكسوها قطعة من ثياب فيما عدا السراويل (٣١) .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢ أغسطس قدم الشكر لله على هذا كله على ظهر البارجة فانجارد وغيرها من السفن الانجليزية . وفى العصر دفن الانجليز موتاهم فى جزيرة أبى قير التى جلا الفرنسيون عنها ، وهى تعرف

اليوم بجزيرة نلسن . ومن المدفونين احدى المراتين اللتين كانتا على البارجة جليات ، والتي قضت نحبها متأثرة بجراحها .

وأسر الانجليز نحو ٢٠٠٣ أسير أكثرهم مجروحون . يقول جون نيكول هناك شيء واحد لاحظته في هؤلاء الفرنسيين يختلف عن أى شيء لاحظته من قبل . ففي الحرب الأمريكية حين كنا نأسر سفينة فرنسية ٠٠٠ كان الأسرى مرحين كأنهم هم الأسرون ، لا يقولون الا « هذا حظ الحرب أنت تأخذنى اليوم أسيرا وأنا آخذك غدا » أما الأسرى الذين كانوا على سفننا فقد شكرونا على لطفنا ، ولكنهم كانوا مكتئبين محزونين كأن كلا منهم فقد سفينة يملكها (٣٢) .

وكان اطعام الأسرى والعناية بالجرحى فوق طاقة الأميرال نلسن ، فلم تمض أيام حتى أعيدوا جميعا الى الشاطئ فيما خلا ٢٠٠ ضابط واهصائي . وقد خلق هؤلاء الرجال المشاغبون ، غير المدربين ، للجنرال كليبر فى الاسكندرية فيما بعد مشكلة عويصة الى أن نظمهم بونايرت فى « فيلق بحرى » . وتبين بعد ذلك أن الفيلق لم يكن له نفع كبير ، لأن حكومة الادارة لم ترسل لبونايرت أى سفن تحمل محل السفن التى خسرها (*) .

وفى الأيام التالية للمعركة ساور قواد الحملة الفرنسيين قلق غير قليل كما تدل على ذلك رسائل كليبر ومينو الى بونايرت والى أحدهما الآخر - اذ خشوا أن يتبعها الانجليز باقتحام مينائى الاسكندرية ورشيد . ولو استطاع نلسن دخول الاسكندرية ، والاستيلاء على الناقلات الفرنسية فى الميناء ، وربما القضاء على الحامية الفرنسية بمساعدة الأعراب ، لكان انتصاره ساحقا حقا . ولكن يبدو أن كليبر ومينو لم يكن لديهما فكرة عن مدى ضعف البريطانيين ، وأن نلسن لم يكن لديه فكرة عن مدى ضعف وسائل الدفاع الفرنسية (**) وكان هم الأميرال الانجليزى الأول أن يرمم سفنه (مستخدما فى ذلك بعض حطام السفن الفرنسية الميؤوس منها) ، ويقرر أى السفن الفرنسية يسضب غنيمة حرب وأياها يدمر . وفى ٦ أغسطس أرسل السفينة الانجليزية « لياندر » حاملة رسالة الانتصار الى وطنه ، وأرسل نسخة من الرسالة الى نابلى تحملها السفينة موتين . وبما أن لياندر وقعت أمام كريت فى قبضة الجنرو ، وهى احدى السفينتين اللتين أفلحتا فى الهروب من خليج أبى قير ، فان أوروبا سمعت بانتصار نلسن أول ما سمعت عن طريق نابلى .

(*) أطلق الانجليز جميع الأسرى بعد أن قطعوا العهد على أنفسهم بعدم محاربة الانجليز ولا أمسكوا ثلاثة منهم على ظهر سفينة فرنسية ، أمر الكومودور هود برميهم بالرصاص أسفا . ويلاحظ أن وعد الشرف لم يحرم على البحارة الذين أطلق سراحهم قتال أعداء غير الانجليز .

(**) أفسد الشيخ المسيرى محاولة نلسن اثاره أهالى الاسكندرية على الفرنسيين ، فقد انهى خطة خطاب نلسن وخطابه لأعيان الاسكندرية الى الجنرال كليبر .

وفى ١٧ أغسطس أرسل نلسن الربان الأول السر جيمس سومارين إلى جبل طارق بسبع من سفنه وبالسفن الفرنسية الست التى غنمها (*) . أما هو نفسه فقد مضى فى ١٩ أغسطس بفانجارى وكولودين والكسندر إلى نابلى تنفيذاً لأوامر اللورد سانت فنسنت ، ثم ترك لحصار الساحل المصرى السفن زيلوس وسويفنشور وجليات ، وثلاث فرقاطات انضمت إليه متأخرة بعض الشيء ، لأنها وصلت بعد المعركة بعدة أيام . واستطاع هذا الأسطول الصغير ، الذى ظل يجوب البحر بين دمياط والاسكندرية تحت قيادة الكومودور هود ، أن يقطع كل اتصال بين جيش بوناپرت والعالم الخارجى بصورة فعالة .

ظل شاطئ أبى قير كله عدة ليال عقب المعركة مضاء بالنيران التى أشعلها البدو احتفالاً بنصر لم يبذلوا فيه أى جهد ، على أن هذه النيران لم تكن شيئاً مذكوراً إذا قيست بالفرحة التى تفجرت حين عرف الخبر فى نابلى ولندن . وكان نلسن ما يزال فى البحر حين كتبت إليه ليدى هاملتن من نابلى تقول ، لو كنت ملكة انجلترا لرفعتك إلى رتبة الدوق نلسن ، صاحب القدرة والشرف الرفيع ، ومركز النيل ، وإيرل الاسكندرية ، وفايكونت الأهرام ، وبارون التمساح وأمير النصر ، حتى تراك الأجيال القادمة فى جميع الصور والأشكال (٣٣) : على أنه لم يرق فعلاً إلا إلى رتبة البارونية ، فأصبح اللورد نلسن ، لورد النيل وبرنم تورب ، وكوفى بمعاش لمدة الحياة قدره ٢٠٠٠ جنيه فى السنة . وأغدق عليه الملوك الأجانب ألقاب الشرف ، وأرسل إليه السلطان سليم الثالث « ريشة الانتصار » ، وهى شىء رهيب مرصع بالماس يدور مركزه بعدة ساعة ، وكان نلسن يضعها فى قبعته - وهو شىء يأبى المرء أن يصدقه .

ولما وصل نلسن إلى نابلى فى ٢٢ سبتمبر « جن السكان فرحاً » على حد قوله . وكانت انفعالات الملكة ماري كارولين صارخة : « فقد غشى عليها ، وبكت ، وقبلت زوجها ، وأخذ أطفالها يسيرون فى أنحاء القاعة هائجين ، ثم عاودت البكاء ، وقبلت وعانقت كل شخص على مقربة منها وهى تقول أيها الشجاع نلسن ! بارك الله فيك وحى منقذنا الباسل «!» أما ليدى هاملتن ، فقد سقطت مغشياً عليها كأنها فارقت الحياة ، ولم تتماثل تماماً من رضوضها الشديدة . أما الملك فرديناند نفسه - وهو رجل له وجه (وعقلية) ريفى أبله ثرى ، يحترمه نلسن رغم ذلك كما كان يحترم جميع الملوك - فقد أخذ

(*) وهى بويل سوفران ، وكونكران ، وسبارتيا ، واكيلون ، وفرانكلن ، وتونان . ويلاحظ أن السفينتين الأولىين اللتين رأى نلسن أنهما جديرتان بالترميم كانت وزارة البحرية الفرنسية قد حكمت بعدم صلاحيتهما للعمل قبل ذلك بعامين .

يده وهو يدعو • منقذه وحافظه (٣٤) • ومهما تكن متانة خلق البطل ، فإن مجدا كهذا يحظى به فجأة - وعن جدارة بالطبع - يدير رأسه بسهولة ، ومع ذلك فإن الأميرال نلسن يكفر عن غروره بعبارة تعرب فى كلمتين بسيطتين عن الجانب النبيل الشعري من تصيد المجد • فقد كتب لغاني نلسن يقول ان من واجبها أن تذهب الى البلاط اذا رقاہ الملك جورج الى اللوردية دون أن تعباً بالنفقات ، لأن « المال نفاية » (٣٥) •

وقد يبدو المال فى عين البطل الظافر نفاية لا وزن لها بالقياس الى الثناء والتملق - ولكنه فى الغالب أقل افسادا لنفسه • وذلك أن نلسن ، الذى ثمل بهذا الدور الجذيد الذى لعبه ، سرعان ما أصبح شؤما على الملك الذى وصفه « بالمنقذ والحافظ • ولا ريب فى أنه كان مؤمنا بأنه يخدم انجلترا ، والانسانية ، والاله القدير ، بتحريره بلاط نابلي على تجريد جيش ضد الجيش الفرنسى الموجود فى الولايات البابوية ، ولكن الواقع أنه لم يكسب من وراء ذلك الا تلويت صفحة مجده لأنه جعل نفسه آلة فى يد « الشلة » التى ترأسها الملكة وليدى هاملتن ، أضف الى ذلك أنه أثبت أنه سياسى ردىء ، وحكم أردأ على الشئون الحربية فما ان وافى ٢٢ نوفمبر حتى كان جيش نابلي الذى يقوده المشير ماك (الذى استعير على النمسا) قد استولى على روما ، وبعد أسبوعين استرد الفرنسيون بقيادة الجنرال شامبيونيه روما وتقدموا فى زحفهم جنوبا صوب نابلي • وفى ٢٣ ديسمبر التجأت الأسرة المالكة ، وآل هاملتن ، والسير جون آكتن ، وكل بطانتهم ، الى سفن نلسن التى أقلتهم بأقصى سرعة الى بلرمو ولم يحتفظ بهدوئه من هؤلاء اللاجئين سوى الملك فرديناند ، فقد خطر له أن صقلية ستتيح له فرصا ذهبية للصيد والقنص • وفتنته الفكرة حتى لقد طلب الى نلسن أن يرسل ناقلة لتعود الى الشاطئ فتأتيه بمزيد من الكلاب وبنادق الصيد • فى هذا اليوم دخل الفرنسيون نابلي ، وفى عشية عيد الميلاد أعلنت الجمهورية فى المملكة ، ولم يبق للملك الصقليتين غير جزيرة صقلية •

٤

أبلغ بونابرت نبأ كارثة أبى قير فى ١٣ أغسطس قرب الأصالحية ، وهى بلدة تقع على طرف صحراء سيناء، ذهب اليها مطاردا ابراهيم بك وكان ابراهيم وأتباعه قد هربوا الى سوريا ، فاتخذ بونابرت طريقه قافلا الى القاهرة بعد أن ترك لقواده مهمة احتلال الأقاليم الشمالية الشرقية •

وتختلف الروايات التى تصف انفعال بونابرت بهذا النبأ لأول وهلة ولا يهمنا أيها أصح لأنه لم يكن بالرجل الذى يفصح عن مشاعره الحقيقية فى مثل هذه المناسبات ان كان له مشاعر ، وكان يكتفى بالتمثيل محتفظا

بأفكاره لنفسه . روى فى تاريخه للحملة أنه قال لضباطه « حسنا ، أيها السادة ، اننا الآن مكرهون على أن نأتى بجلال الأعمال : وسنأتى بها . يجب أن ننشئ امبراطورية عظيمة ، وسننشئها . ان البحر الذى لم نعد سادة عليه يفصلنا عن أرض الوطن ، ولكن ليس هناك بحر يفصلنا عن أفريقيا أو آسيا ، وعددنا كبير ، ولدينا من الرجال ما يكفى نواة لجيوشنا . ونحن لا نعانى نقصا فى الذخيرة ، وإذا اقتضى الأمر صنع لنا شامبى وكونتية المزيد منها ، (٣٦) . ثم ذكر أن هذا الخطاب كهرب رجاله ، فكفوا عن التذمر والشكوى .

ولا ريب فى أن هذا فى جوهره ما قاله لهم ، وكان هو الشئ الصواب الذى يجب قوله ، وان لم يكن صدقا أن الرجال كفوا عن التذمر والشكوى . ولكن يخيّل لنا أنه فى قرارة نفسه لم ير فى تدمير أسطوله أول الأمر تحولا خطيرا فى الأحداث .

ولم يكن موقفه ميثوسا منه بالقدر الذى حسب أعداؤه ورآه المؤرخون من بعده . كتب نلسن للسر وليم هاملتن يقول عن قوات بونايرت : « ان هذا الجيش فى مأزق حرج ، ولن ينجو منه ، ولكنه كان مخطئا ، أولا لأن بونايرت لم يفقد ناقلاته التى لا تزال فى الاسكندرية ، وكل ما خسره هو احدى عشرة بارجة ، كانت ثلاث منها على وشك الاحالة الى الاستيداع . ولم تمض شهور قليلة حتى راح أسطول الأطلنطى الفرنسى يمخر عباب البحر المتوسط . فاذا أضيف اليه الأسطول الأسباني هناك ، كان قوة عددية تفوق الأسطول البريطانى ، أما أن الأسطولين كانا يأتيان الاتفاق على التعاون فشىء ما كان فى استطاعة نلسن ولا بونايرت التنبؤ به . وإذا كان انتصار نلسن قد أصبح حاسما فى ابطال أثر الفتح الفرنسى لمصر ، فالفضل فى هذه النتيجة ليس للانتصار نفسه ، بل لتطورات بعيدة الاتصال به فى مدريد وايرلندة والآستانة . ومهما قالت كتب التاريخ المدرسية فى هذا ، فان انتصار البريطانيين فى أبى قير لم يقض على الحملة الفرنسية بالفشل . أما بونايرت شخصيا فلم يخطر بباله قط أنه قضى عليها بالفشل ، وكان فى هذا على حق .

وإذا كان بونايرت حين سمع بالهزيمة لأول وهلة قد أكد لرجاله ما نجم عنها من عزل جيشه ، فانه فعل هذا لأنه يناسب هدفه ، وهو هزهم هزة تحملهم على قبول احتمال البقاء طويلا فى مصر ، وقبوله بصبر وتجلد . ولم يتوقع أن تتحقق نبوءته حرفيا ، لأنه لم يكن لديه مبرر للاعتقاد بأن حكومة الادارة ستتركه لمصيره تركا تاما . وبدأ له مركزه الحربى آمنا لفترة ما ، اللهم الا اذا اتحدت عليه تركيا وانجلترا ، ولكنه كان لا يزال يعتمد على ذهاب تاليران الى الآستانة ليمنع هذا التحالف ، وليسوغ مركزه بمصر فى عيني الباب العالى .

وأما النيل من سمعة المناعة التي اشتهرت عن بونايرت ، فحتى هذا لم يظفر به نلسن بانتصاره : فمعركة أبي قير كانت على أى حال هزيمة لبروى لا لبونايرت . وقد أفلح بونايرت ، فى تقريره للإدارة ، فى أن يصور الكارثة البحرية على أنها مجرد سوء حظ ، هو أشبه بهامش طويل لانتصاراته فى مالطة والاسكندرية وشبراخيت والأهرام (ونقول على سبيل الملاحظة العابرة أنه لو أن نلسن وبونايرت سميا انتصاراتهما بقدرة أقل من قدرتهما المسرحية ، لما أثارا اهتمام الرأى العام بها الى هذا الحد ، فلفظا « أبو قير » و « امبابة » ينقصهما السحر الذى ينطوى عليه لفظا « النيل » و « الأهرام ») . ويشاء الحظ أن يصل نبأ هزيمة بروى الى باريس فى نفس الوقت الذى يصل فيه نبأ الاستيلاء على القاهرة ، وهو اسم سحرى آخر . ولم تجد حكومة الإدارة مناسبا من الاحتفال رسميا بانتصار آخر من انتصارات بونايرت الذى لا يهزم ، تخفيفا من وقع كارثة أبي قير .



كثيرا ما يقع فى دنيا السياسة أن حدثا من الأحداث ، اذا أخطأ فى تقويمه عدد كاف من المسئولين ، يحدث بالضبط تلك الآثار التى ينسبها اليه هذا التقويم الخطأ ، وانتصار نلسن فى معركة أبي قير مثل واضح على هذه الحالة ، فاذا نحن صرفنا النظر عن أنه كلف فرنسا احدى عشرة بارجة ، وأنه أحيا اعتزاز كل انجليزى ببحريته ، لم نجد داعيا لتأثير هذا الحادث فى مجرى التاريخ ، وهو لم يؤثر فيه فى الأجل البعيد ، ولكنه كان ذا نتائج ضخمة فى الأجل القصير ، وكلها راجعة الى وباء دولى ، هو وباء التفكير الخطأ .

وعقد المعركة البحرية ، على تشابكها ، بسيطة جدا اذا قيست ، بعقد الدبلوماسية وسياسة القوة . ويذكر القارىء أنه حين خرج بونايرت فى حملته على مصر كانت فرنسا قد أبرمت لتوها الصلح مع النمسا . ولم يبق فى حرب معها سوى انجلترا والبرتغال ، أما الروسيا فهى وان زادت خصومتها لفرنسا منذ خلف القيصر بول أمه كاترين على العرش ، الا أنها لم تكن أعلنت الحرب على فرنسا بعد . ومع ذلك كان من اليسير أن يتنبأ المرء - وهو يرى القوات الفرنسية مبعثرة من الفندية (حيث كانت لا تزال تخوض حربا أهلية مع أنصار الملكية) الى كورفو ومصر - بأن الدول المعادية للجمهورية الفرنسية ستؤلف فيما بينها حلفا بمجرد أن تصاب فرنسا بنكسة ذات بال . وقد سعت الحكومة الفرنسية ، فى وعيها بهذا الاحتمال ، الى دعم مركزها الاستراتيجى باحتلال سويسرة والولايات البابوية وبالضغط على اسبانيا لتصبح حليفا أكثر نشاطا فى الحرب . أضف الى ذلك أنه كان معروفا أن رجال الادارة سيبدلون قصارى جهدهم بضمان حياد تركيا بإيفاد تاليران سفيرا لدى الباب العالى ،

وأن ثورة تقوم في أيرلندة في شهر سبتمبر تعززها القوات الفرنسية ستشغل إنجلترا من الداخل . ويكون بونابرت أثناء ذلك قد عاد وتولى غزو أيرلندة ، وغزو إنجلترا ان أمكن . بينما يتصل خلفه في مصر بتيبو صاحب ليتفقا على عمل مشترك يقومان به في الهند .

وكانت هذه العمليات المتزامنة تتطلب ضبطا في التوقيت وسرعة في المواصلات لم يتيسر الا بعد قرن من الزمان .

وقد بدأت الأحوال تجري على غير ما تشتهي الحكومة الفرنسية في أيرلندة وتركيا في وقت واحد . فثار « الأيرلنديون المتحدون » في بدء المقاطعات الجنوبية في شهر مايو - عقب مغادرة الأسطول الفرنسي لطولون بأيام قليلة - بدلا من أن ينتظروا الى سبتمبر . وكانت الثورة سيئة التنظيم ، فلم يحل مطلع شهر يوليو حتى سيطرت القوات الانجليزية على الموقف سيطرة عامة . على أن ممثلي الاتحاد الأيرلندي كانوا أثناء ذلك يحاصرون تاليران ورجال الإدارة في باريس بطلبات المعونة . وكان « وولف تون » ، أحد مؤسسي الاتحاد ، قد عين قائدا ومساعدًا بالجيش الفرنسي في شهر مارس ، فعرض الآن أن يذهب الى أيرلندة للقتال حتى ولو لم يرسل اليها سوى كتيبة حرس يقودها أمباشي . ومع أن الحكومة الفرنسية استجابت الى طلبه بسخاء أكثر قليلا من هذا ، فإن المعونة التي قدمتها قصرت كثيرا عن الحاجة ففي ٦ أغسطس غادرت ثلاث فرقاطات تحمل ١٠٢٠ جنديا لاروشيل تحت قيادة الجنرال همبرت ، فوصلت خليج كيبلا في ٢٢ أغسطس . وقد أثارت هذه الفرقة الصغيرة التي يقودها همبرت - على ضآلتها التي يرثى لها - الفزع في إنجلترا من جديد زهاء أسبوعين ، وفي ٨ سبتمبر أكرهت على التسليم للجنرال جون مور في بالينامك . وكان بين الأسرى ماثيو ، أخو وولف تون ، وقد شنق في دبلن بتهمة الخيانة العظمى بعد ذلك بثلاثة أسابيع .

أما وولف تون نفسه فبارح برست مع حملة يقودها الجنرال هاردي قبل أن يشنق أخوه بأيام قليلة . ولم يصل الأسطول (المكون من البارجة هوش وثمانى فرقاطات) الى ساحل أيرلندة الا في ١٠ أكتوبر (لأن عاصفة أقصته بعيدا عنه . والتقى به الأميرال وارن بقوات أكبر ، فأكرهت هوش وست فرقاطات على التسليم بعد أن أبليت بلاء حسنا . وأسر وولف تون - وكان يقود إحدى بطاريات البارجة هوش - وأخذ الى دبلن ليقدم للمحاكمة العسكرية . وقد حكم عليه هو أيضا بالاعدام شنقا . ورفض الجنرال كورنواليس الالتماس الذي قدمه بأن يعدم رميا بالرصاص . ولكن حدث في عشية الاعدام المقرر أن ذبح وولف تون نفسه بمبراة ، فمات في ١١ نوفمبر . وهكذا انتهت الثورة الأيرلندية المبينة ، وقبل أن يموت تون بأسبوعين كفت الحكومة الفرنسية عن

بذل المزيد من المعونة . وهكذا انتهى أيضا « جيش إنجلترا » ، الذي قصر استخدامه بعد ذلك على قتال الملكيين في الفنديه . وكان من أثر تجدد الحرب في إيطاليا ، ونبا إعلان تركيا الحرب على فرنسا ، والتقرب بين أعضاء التحالف الثاني . أن تحولت أنظار الإدارة الى القارة الأوروبية ، وكانت الشرارة التي أشعلت نار هذه التطورات كلها هي انتصار نلسن في « أبو قير » . ولما كانت الحكومة الفرنسية قد تخلت عن غزو الجزر البريطانية ، فقد صدر الأمر للأسطول الأطلنطي الفرنسي في مارس ١٧٩٩ بمغادرة برست ودخول البحر المتوسط . ولو انضم اليه أسطول البحر المتوسط الأسباني لاستطاع أن يشتت أسطول نلسن ، ويسترد مالطة وكورفو ، ويولي بونا بورت ميزة التفوق الكبير . ولكن الأسبان رفضوا التعاون مع الفرنسيين في أى مشروع سوى غزو أيرلندة ، وفرنسا تأبى مزيدا من التدخل في أيرلندة . وكان موت وولف تون عديم الجدوى كأي شيء متصل بالحملة المصرية .



سأل بونا بورت في ختام تقريره الذي كتبه للإدارة في ١٩ أغسطس . هل تاليران في الآستانة ؟ « وهو سؤال رده غير مرة من قبل ، فالوصول الى تفاهم مع الباب العالي بشأن مصر ضرورة عاجلة ، ولا قبل لأحد بالمفاوضة في هذا التفاهم الا اذا كان دبلوماسيا من الطراز الاول .

ولكن تاليران لم يكن تواقا قط الى الذهاب للآستانة ، وكان شعاره « أولا ، اياك والحماسة » . ولم تجد الرسائل التي بعثها روفان - القائم بالأعمال الفرنسي - اليه بالشفرة في التخفيف من زهده في هذه المهمة .

لم يكتب تاليران الى روفان لينهى اليه نبا الحملة على مصر الا في ١١ مايو ، قبيل اقلاع الأسطول الفرنسي مباشرة . وطلب اليه أن يقنع الباب العالي بأن الحكومة الفرنسية لا تنوى القيام بأى عمل عدائى ضده ، وأن يعلن قرب وصول مفاوض فرنسي تخول له كامل السلطات . ولم يصل الخطاب الى روفان الا في ٢٨ يونيو ، عشية نزول الفرنسيين الاسكندرانية . على أن موقف الحكومة العثمانية كان خيرا من موقف روفان ، فبينما ظل هذا يجهل المشروع تماما ، كانت الحكومة العثمانية على علم بالاستعدادات الفرنسية منذ شهر مايو بفضل سفيرها في باريس . (وواضح أن جواسيس المخابرات العثمانية ، وهم فريق من اليونان الدهاة ، كانوا أكفأ من زملائهم الانجليز) . وأنفق روفان ثلاث ساعات مزعجة بعض الشيء حين راح الرئيس افندى (وزير الخارجية العثماني) يشويه على السفود في ١٩ يونيو في أمر الحملة الفرنسية على مصر ، ولم يكن روفان قد سمع بها ولو سماعا . وحاول روفان أن بطمئنه الى أن

«الفرنسيين لا يمكن أن تكون لديهم أى نوايا معادية قبل الباب العالى . وكان هذا بالضبط رد تاليران فى باريس على السفير العثمانى السيد على حين سأله فى شهر ابريل عن الهدف من استعدادات طولون الحربية . وهو رد تعوزه الصراحة المطمئنة على حد قول الرئيس افندى لروفان فى مقابلة تالية .

وكان موقف الرئيس افندى (*) على الجملة وديا مشربا بروح التفاهم . فالقضاء على فرسان مألطة نبأ يرحب به العثمانيون . والعثمانيون لا يحبون المماليك . ولكنه مع ذلك قلق جدا . فالتخلى عن بلد اسلامى تسيطر عليه دولة غير مسلمة دون مقاومة يتعارض تماما مع السياسة العثمانية الأساسية ، وعمل كهذا خليق بأن ينال من شرف الحكومة العثمانية فى أعين رعاياها المسلمين . ويسبب مزيدا من التمزق فى جسم الدولة . كذلك قد يورط تركيا فى حرب مع انجلترا وروسيا ، ولا ريب أنه من غير المعقول أن يتوقع المرء أن تخوض دولة الحرب دفاعا عن حقها فى التخلي عن بعض أقاليمها لغاز ، وأقرب الى العقل أن تعارب الدولة هذا الغازى ، حتى ولو كان خير أصدقائها وأقربهم .

وكان هناك أشياء أخرى تضايق العثمانيين ، وقد بينها فى وضوح متزايد لروفان فى الأسابيع التى تلت نزول بونايرت بمصر . فلم لم ترسل فرنسا سفيرا مفوضا لها الى الأستانة ليفسر لها نواياها ان كانت هذه النوايا ودية ؟ ولم تدخل الجنرال بونايرت فى السنة الماضية فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية وراح يجرى مفاوضات غامضة مع على باشا والى يانينا ؟ ولم أرسل بونايرت الرسائل الى اليونان يعلن « تحرير » مألطة تمهيدا لتحرير اليونان ؟ لقد كان عسيرا ألا تعتبر هذه الأفعال دليلا على نية تقطيع أوصال الدولة العثمانية . وأشد ما أزعج الأمير قسطنطين ايسيلانتى ، وكان وقتها ترجمان الباب العالى (**) ، اهتمام بونايرت باليونان . فقال لموظف فى السفارة الفرنسية فى ٢٥ يونيو : « اننى بوصفى ترجمانا للديوان لا أستطيع اقرار المواطن بونايرت على أطماعه فى الأملاك العثمانية ، ولكننى بوصفى يونانيا ألعن هذا التفاخر الباطل الذى يكلف اليونانيين عشرة آلاف منهم سيذبحهم الأتراك » (٣٨) . ولا تخلو هذه الملاحظة من طرافة ، نظرا للدور الذى لعبته بعد ذلك أسرة ايسيلانتى فى الحصول على استقلال اليونان .

ولم يكن لدى روفان ما يرد به على هذا كله ، اللهم الا الدفاع عن نفسه بالجهل ، والأسف على آراء المواطن بونايرت المستقلة ، التى لا يمكن أن توافق عليها حكومته .

(*) الرئيس افندى لقب يطلق على وزير الخارجية فى الدولة العثمانية (المترجم) .
(**) هذه أعلى وظيفة فى وزارة الخارجية العثمانية بعد الرئيس افندى ، وقد جرى التقليد على أن يتولاها يونانى .

وتفاقمت مخاوف الأتراك حين وصلتهم الأنباء الأولى بأفعال بونايرت فى مصر . وعقد الصدر الأعظم والمفتى مجالس خاصة ، وكانت وجوه المجتمعين وهم يغادرون الاجتماع تنبئ بالفزع . وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا مزعجا ، وأظهر السكان عداا متزايدا للأجانب لا سيما الفرنسيين ، وبدأ عليهم الاستعداد للبدء بمذبحة تشفى غليلهم فى أية لحظة . وانتشر الذعر فى أرجاء تركيا كلها . وقد أعرب المواطن شودرلو ، القنصل العام الفرنسى فى حلب (وهو أخو مؤلف كتاب *Les liaisons dangereuses*) عن حالة انضيق والغيظ التى سادت جميع اخوانه المواطنين فى شرق البحر المتوسط وهو يشكو لتاليران من اغفال بونايرت تبليغ نواياه للقناصل الفرنسيين - وهو اغفال لا يمكن تفسيره ، فكيف يستطيعون تهدئة الترك ان كانوا هم أنفسهم قد أخفى عنهم الأمر ؟

وكان مما يكدر الحكومة التركية أن ترى قوة صديقة تحتل ولاية من أهم ولايات الدولة دون انذار أو ايضاح ، اللهم الا الاحتجاج غير المقبول بأن هذا العمل أقدمت عليه فرنسا بقصد طيب ، وأنه ينبغى ألا يسبب لها أى ازعاج . وكان مما يغيظها جدا أن تعرف أن الجنرال بونايرت يزعم فى كل خطبه ومنشوراته أنه قدم مصر بموافقة السلطان ، ثم يضرب فى الوقت نفسه الحصار على جميع السفن التركية فى ميناء الاسكندرية . ولم يكن من شأن التقرير الذى بعث به السفير العثمانى فى باريس عن مقابلته لتاليران فى ٢١ يوليو أن يعين على تهدئة خواطر الأتراك . فقد أكد تاليران للسيد على أن الحكومة الفرنسية لا تقصد فتح مصر فتحا دائما ، واقترح تجريد حملة بحرية فرنسية تركية مشتركة لفتح القرم التى استولت عليها الروسيا قبيل ذلك . ومهما كان رأى الأتراك فى هذه الاهانة الجديدة حين وصلهم نبؤها ، فانه لم يكن بهم حاجة للرد عليها ، لأن الأسطول الذى كان سيعين الأتراك على استرداد القرم كان قد دمر فى هذه الأثناء .

وفى مساء ٦ أغسطس - قبل أن يصل نبأ معركة أبى قير الى الآستانة - استدعى الرئيس افندى روفان الى مكتبه ، وقال له ان مسلك الجنرال بونايرت قد أثار السخط العام الى حد يضطر الباب العالى لاتخاذ التدابير لحماية المواطنين الفرنسيين فى تركيا . ومن ثم فان على روفان ألا يبرح حدود السفارة الفرنسية فى بيرا . وعليه أن ينزل شعارات الجمهورية الفرنسية ويضعها داخل بناء السفارة . ويجب على جميع الفرنسيين تجنب الظهور فى الأماكن العامة . وعلى ترجمان روفان الأول ألا يذهب لسراى السلطان ، فاذا أراد ابلاغ أية رسالة ذهب الى بيت الرئيس افندى تحت جناح الظلام . وأضاف الرئيس افندى أن هذا كله صادر عن روح ودية لتجنب حوادث من نوع الحادث الذى اضطر بونايرت لمواجهته فى فينا . وختم روفان تقريره قائلا : « وحين استأذنت للانصراف

لم يقدم لى الشربيات ولا العطر ولا المنديل التقليدى ، فأيد اغفال هذه المجاملات رأى فى أننى لم أستدع ليجتمع بى الوزير بل ليوبخنى ، (٣٩) .

يقول مثل تركى ساقه روفان : « ان الصياد العثمانى اذا أراد أن يطارد أرنباً ركب عربة يجرها ثور » (٤٠) . والمعنى المراد هو أن الأتراك يكرهون الاندفاع والتهور . فمع أن الباب العالى فرض القيود الصادرة على المواطنين الفرنسيين فى أرجاء الدولة ، فانه كان لا يزال ينتظر وصول السفير الفرنسى الذى طالما بشر بمقدمه . وكان يحاول فى الوقت نفسه تهدئة الأهالى باصدار سلسلة من الفرمانات الغريبة التى يؤكد فيها « أن الفرنسيين ما زالوا حلفاء جلالته ، وأنه يجب أن يعاملوا بهذه الصفة ، وان كان رجل يدعى بونابرت قد غزا جزءاً من مصر . والواقع أن هذا القائد المتمرّد قد خان الثقة التى وضعتها فيه الجمهورية الفرنسية ، فقد غزا من تلقاء نفسه أرضاً عثمانية بالسفن والجند الذين وكل اليه قيادتهم لمهمة مختلفة تمام الاختلاف . ومن ثم يجب ألا تؤثر الأعمال العدائية التى نجمت عن خروج الجنرال بونابرت على أوامر حكومته بحال فى نيات الباب العالى الطيبة نحو الأمة الفرنسية » (٤١) . وبينما كان الباب العالى يصدر هذه الفرمانات - التى قصد بها ولا ريب حماية المقيمين الفرنسيين ، وربما أيضاً فتح الباب للحكومة الفرنسية لاستنكار فعلة بونابرت، ودعوة الحملة الفرنسية للرجوع ، فتنقذ بذلك المظاهر - اختلق بونابرت نفسه كذبة فاق بها حتى الباب العالى فى فن الأكاذيب البيضاء : فقد أخبر شيوخ القاهرة فى سرور أن أسطول نلسن أكره على مغادرة أبى قير فرارا من مطاردة أسطول فرنسى جديد ، وذلك للتخفيف قدر الامكان من وقع نبأ تدمير أسطوله عليهم .

وقد أوضح تاليران ، بعد انتصار نلسن بيومين ، فى خطاب سرى ظريف جدا لروفان ، النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية . قال : « ان جميع تجارة البحر المتوسط يجب . . . أن تنتقل الى أيدي الفرنسيين . تلك هى الرغبة الخفية لحكومة الادارة ، ثم انها ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا فى ذلك البحر . . . ومصر التى كانت فرنسا تتمنى على الدوام الاستيلاء عليها هى بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف الأمراء المماليك ، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار ، وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نعرض أنفسنا لتهمتي الاغتصاب والجشع . . . ان الادارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة » (٤٣) .

ولما كان الأتراك لا يعرفون سر الشفرة الفرنسية ، فالراجع أنه لم يتح لهم قط فرصة الاستمتاع بالاطلاع على هذا الاعتراف الصفيق بالنفاق الغربى .

ولكنهم كانوا يعرفون ما يكفي لتجنيبهم الانخداع بأكاذيب الفرنسيين الساذجة .
وقد تجنبوا الفرقة مع فرنسا وقاوموا حجج السفيرين البريطانيين والروسى الى
أن وقعت معركة أبى قير فلما عرفت القصة الكاملة لهزيمة الفرنسيين فى الآستانة
فى أواخر أغسطس ، شدد الروس والانجليز الضغط على الأتراك ولم يتركوا
لهم مجالا للاختيار . ولكن الأتراك ، حتى وهم يعلنون الحرب ، احتفظوا
بكياستهم .

فى الساعة الثانية من مساء ٢ سبتمبر تلقى روفان دعوة مهذبة من
الأمير إيسيلانتى ليقابل الرئيس أفندى فى سراغليو . فذهب فى صحبة ترجمانه
دانتان وكيفر واستقبله الرئيس أفندى وغيره من الوزراء استقبالا رسميا .
وقدمت القهوة لأن التقليد جرى على ألا يجرى شئ هام قبل تقديم القهوة .
وما أن وضع روفان فنجاناه حتى ألقى الرئيس أفندى كلمة قصيرة قال فيها ان
الباب العالى يؤله أن يرى دولة صديقة تستولى دون انذار على أثمن ولاية ،
« والتى يجب أن تعتبر صرة الاسلام » لقربها من مكة والمدينة . وقد ظل الباب
العالى طويلا لا يستطيع تصديق أى أنباء عن هذا الاستيلاء : ولكن لسوء الحظ
« وبعد أن تحقق الديوان الشاهانى العظيم من صدق هذه الواقعة قرر - عملا
بالقاعدة المتبعة فى حالة انفصام العلاقات الدبلوماسية ، وبناء على أمر مكتوب
بإيد السلطان نفسه - أن تؤخذ فورا الى قلعة الأبراج السبعة ، وأن يقبض على
جميع القناصل والتجار الفرنسيين المقيمين فى أملاك جلالته المحروسة وأن تصدر
تجارتهم ، وأن تحبس أنت وموظفو مفوضيتك ... حتى ترد مصر بعون الله
الى سلطة ملكنا ومولانا الذى لا يقهر » (٤٣) .

واذ شرب الجميع قهوتهم رافقت سرية من الانكشارية روفان ودانتان
وكيفر الى قلعة الأبراج السبعة ، فمروا بحشد من المتفرجين الفضوليين الذين
اصطفوا فى الشوارع والحوانيت والنوافذ دون أن يسمحوا لأنفسهم بصيحة
واحدة أو إشارة تهديد ، (٤٤) . ووجد روفان فى سجنه متسعا من الوقت
لرواية هذه الأحداث لتاليران فى التقرير الذى نقلنا عنه . وفى ٩ سبتمبر
سلم الرئيس أفندى اعلان الحرب الرسمى الى السفير الأسباني الذى أبلغه لوزارة
الخارجية الفرنسية .

وقد اختص المواطن روفان بامتياز لم يحظ به غيره ، هو أنه الممثل
الفرنسى الوحيد الذى سجن فى قلعة الأبراج السبعة . وكانت هذه معاملة
تقليدية جرى الباب العالى على أن يخص بها سفراء الأمم التى يعلن عليها الحرب ،
عملا بنظرية تزعم أن السفراء ليسوا ممثلين لدولهم بل رهائن حرب . وقد
يظن أن سجنهم كان مريحا ان لم يكن فخما : ولكن نظرة عابرة لقلعة الأبراج
السبعة كفيلا بازالة هذا الوهم . فهى عدد كئيب من الغرف المظلمة تؤلف
جزءا من السور الكبير المحيط باسطنبول - خالية من النوافذ ، باردة ، يرتد

تاريخها للعصور الوسطى . وقد يحق للجنرال بوناپرت أن يغضب على المواطن تاليران لعدم ذهابه الى الآستانة ، ولكن المواطن تاليران كان محقا كل الحق فى أن يهنئ نفسه على عدم تحمسه للفكرة .

وفى هذا اليوم ذاته - ٢ سبتمبر - بينما كان روفان يشرب القهوة مع الرئيس افندى ، عين تاليران المواطن ديكوريش آخر الأمر سفيرا لدى الآستانة . وقبل أن يتاح للسفير المعين مبارحة فرنسا ، وصل اعلان تركيا الحرب الى باريس . ولكن بوناپرت ظل الى شهر ديسمبر يأبى أن يصدق ، أو يتظاهر بأنه لا يصدق . أن السلطان قد أعلن الحرب ، وأن تاليران ليس فى الآستانة ، وظل أربعة أشهر لا ينى عن التصريح بأنه خير صديق للسلطان سليم ، فكان تصرفه هذا أنجح مثال سجله التاريخ من أمثلة سياسة النعامة .

فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩ ، أى بعد انتصار نلسن بعام تقريبا ، دمرت قوات بوناپرت جيشا تركيا كبيرا نزل قبيل ذلك فى ساحل أبى قير . وغرق آلاف الترك - ويزعم بوناپرت أنهم ١٠٠٠٠ - وهم يحاولون السباحة الى ناقلاتهم فى أهواج الشاطئ المتلألئة ، التى تنكسر على هذا الساحل الرائع الغارق فى أشعة الشمس . وسنروى قصة الظروف التى أفضت الى ذهاب هذه الجماعة السابحة التعسة فى موضعها المناسب من هذا الكتاب . وكان هذا الحادث نتيجة مباشرة للصواريخ الليلية التى أطلقت فى ١ - ٢ أغسطس ١٧٩٨ أفضت اليها سلسلة من الأحداث المحتومة فيما يبدو ، كذلك كان هو السبب المباشر فى سلسلة أخرى من الأحداث التى أفضت الى رجوع بوناپرت الى فرنسا ، وإلى انقلاب ١٨ برومير ، وإلى القنصلية ، وإلى الامبراطورية ، وإلى تلك الصخرة الضئيلة التى تتوسط الأطلنطى الجنوبى .

وكل حدث ينطوى على نتائج محتملة لا آخر لها ، ولكن النتائج الفعلية لا تقررهما ضرورة محتومة تلازم الحدث نفسه ، بل تقررهما فى الكثير الغالب مجموعة من الظروف البعيدة الصلة بالحدث ، التافهة فى العادة . وعلى ذلك ففى وسعك أن تقول ان انتصار نلسن لم يتسبب على الاطلاق فى النتائج التى توقعها منها ، وان كان بالضرورة قد جاء بنتائج هامة . فقد كان نجاحا عسكريا بلغ غاية ما يستطيع أى انسان أن يحققه فى معركة واحدة . وأنى لنلسن أن يتنبأ بأنه حين مهد الطريق لحلف ضخم ضد فرنسا كان يتيح لبوناپرت الفرصة لقهر هذا الحلف والظفر بأوربا كلها ؟ ان الشئ الوحيد الذى يمكن التنبؤ به هو أنه بعد أن ينقضى على الحادث - أيا كان - مائة عام أو مائتان ، تكون التموجات التى تمخضت عنها نتائجه ، بل أخف هذه التموجات ، قد تلاشت تماما كما تلاشى قذف المدافع ونزع المحتضرين من صفحة الماء فى خليج أبى قير . فهناك لم يبق اليوم غير صليب مرفوع على جزيرة جرداء صغيرة يدل على البقعة التى دفن فيها المنتصرون موتاهم .

الفصل الخامس

سياسة تعايش سلمى

١

كتب بونابرت الى حكومة الادارة يوم وصل مدينة القاهرة الاسطورية يقول : « ان القاهرة التى يسكنها أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ نفس تضم أقبح ما تضم مدينة من غوغاء » (١) على أنهم ان لم يكونوا أقبح ، فهم على الأقل أكثر الناس تعدد ألوان ، اذ هم يتفاوتون من النوبيين السود الى الجراكسة الناصعى البياض . وكان المصرى العادى - أيا كان لونه - يعلو مقدار قامة على الفرنسى العادى ، ويرتدى ثيابا أزهى من ثيابه ، وله سحنة تنذر بقطع الرقاب سواء عبست أو ابتسمت ، مع أنها قد تخفى نفسا غاية فى الرقة واللفظ .

على أن أبرز ملامح القاهرة يومئذ كان انعدام وسائل الراحة التى كان يفترض وجودها أقل الفرنسيين تنعما . يقول رئيس الصيارفة بيروس : « ان المدينة غير جديرة بسمعتها العظيمة ، فهى قذرة ، رديئة المباني ، تملؤها الكلاب البشعة » (٢) . أما الميجر ديتروا فيصف هذه القذارة فى عبارات بليغة مسهبة ، ويقول متسائلا : « ماذا تجد عند دخولك القاهرة ؟ شوارع ضيقة قذرة غير مرصوفة ، وبيوتا مظلمة متداعية ، وأبنية عامة تبدو كأنها السجون ، وحوانيت أشبه بمرايط الخيل ، وجوا عبثا يعطر التراب والقمامة ، وعميانا ، وعورا ، ورجالا ملتحنين ، وأشخاصا يرتدون أسمالا ، محشورين فى الشوارع أو قاعدين يدخلون قصباتهم كالقردة أمام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات . منكرات الصورة ، مقززات ، يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتنه ويبدن صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ، وأطفالا صفر الوجوه رقاق الأجساد ينتشر الصديد

على جلدتهم وينهشهم الذباب ، ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت ، ومن التراب فى الهواء ، ومن قلى الطعام بزيت ردىء فى الأسواق العديمة التهوية . فاذا فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت الى منزلك فوجدته خلوا من كل أسباب الراحة ، ووجدت الذباب والبعوض وضروبا لا تحصى من الحشرات فى انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل . فتنفق ساعات الراحة وأنت تسبح فى عرقك وقد نال منك الالقاء ، تهرش وتنتشر البثور فى جلدك . وتنهض فى الصباح وقد أخذ منك السقم كل مأخذ ، وغشى بصرك ، وجاشت نفسك ، وفسد طعم فمك ، وغطت جسدك الدامل أو القروح على الأصح . ويبدأ يوم جديد هو صورة من الأمس » (٣) .

ولو زار انسان أحياء القاهرة الفقيرة ، حتى فى أيامنا هذه ، لاقتنع بأن وصف الميجر ديتروا لها فى صيف ١٧٩٨ ليس فيه مبالغة ، وان نم عن تمام مقصود عن معالم المدينة الأكثر جمالا . ولم تكن الشوارع قدرة غير مرصوفة فحسب ، بل كان المرور فيها عسيرا نهارا ، والظلام يغشاها ليلا . وما كان أى شخص ذو مكانة ليركب فى شوارعها دون جماعة من العدائين المسلحين بالشوم يخلون أمامه الطريق بضرب المارة كيفما اتفق ، أما فى الليل فيخفرون حملة المشاعل . أما المرافق الصحية وقواعد حفظ الصحة فمجهولة . وكانت قطعان الكلاب الشرسة ، المسعورة فى كثير من الأحيان ، تجوب الشوارع دون أن يمنعها أحد ، فلما سمم الفرنسيون آلافا منها ذات ليلة كان حدثا عده الجبرتي جديرا بأن يضمن فى تاريخه ، وكذلك عد المرسوم الفرنسى بتحريم دفن الموتى فى الشوارع والميادين العامة ولو كانوا من الأولياء . وكان العمى المتسبب عن الرمى الحبيبي ، وهو مرض ما زال منتشرا بمصر ، أكثر انتشارا فى تلك الأيام . أما نسبة الوفيات فى الأطفال فمذهلة .

وكانت البيوت - حتى بيوت الأغنياء - تعوزها أسباب الراحة الأساسية على الرغم من كثرة البذخ . ومن البيوت النادرة القصر الذى نزل بونابرت ، وكان ملكا لمحمد بك الألفى ، فرغ لتوه من بنائه حين أكرهه قدوم الفرنسيين على الهروب الى الصعيد : فقد كان فى كل طابق منه حمام ، ولنوافذه ألواح زجاجية ، فضلا عن السلالم المصنوعة من الرخام والمرمر والجرانيت المصقول المجلوب من أسوان ، والأرضية المصنوعة من الفسيفساء ، والنافورة الفخمة المقامة فى قاعة الاستقبال .

أما أسباب التسلية واللهو فلم يجد الفرنسيون منها شيئا يرقى فوق لعب الحواة والرقص . ومن رأى دينون أن الحواة محتالون مهرة ، ولكنه يسلم بأن الراقصات لطيفات رشيقات ، أما رقصهن « فيبدأ شهوانيا ثم ما يلبث أن يصبح داعرا لا يحمل للناظر سوى تعبير مبتذل عن نشوة الحس ، كذلك يقول :

« وكانوا يشربون مسكرا قويا في أكواب طويلة كأنه عصير الليمون » (٤) ، ولعل كثرة الجنود الفرنسيين كانوا أقل من دينون تزمنا في تقديرهم لهذا الفن المشبع ، والذي وصلت به مصر الى مرتبة الكمال . أما اهتمامات الذهن الراقية فقد جازت ظروفًا عصيبة بعد عهد الخلفاء ، وذلك باستثناء دراسة التوحيد والشريعة الإسلامية . ولم يكن يحسن القراءة والكتابة سوى الأقباط وحفنة من المشايخ (*) . ولم يكن في الدولة العثمانية بأسرها حتى وصول الفرنسيين سوى مطبعتين ، ليس في مصر واحدة منهما . ولم تعرف البلاد طواحين الهواء ولا عربات الجر ذات العجل الى أن أدخلها الفرنسيون . أما الجامع الأزهر ، الذي كان فيما مضى مركزا عظيما للثقافة الإسلامية ، فهو وان احتفظ بسمعته بين أهل التقوى والصلاح ، إلا أنه حفل بالمتعصبين من الشحاذين والدراويش ، وكانت مدرسته معقلا للمحافظين عطل طلب العلم أكثر مما شجعه (**) . وهكذا استحوطت مصر ، التي كانت أغنى بلاد الدنيا ومهد الحضارة الانسانية ، صورة مجسمة للجهل والفقر والخرافة والمرض والاستهانة بكرامة الانسان .

كل هذا صمم الجنرال بوناپرت على تغييره .

كان يعد نفسه لمقام طويل . فعقب وصوله الى القاهرة كتب قائمة بالأشياء التي رأى شحنها بالبحر من فرنسا ، ومن بينها « فرقة من الممثلين ، وفرقة من راقصات الباليه ، وثلاثة أو أربعة على الأقل من ممثلي مسرح العرائس لعامة الشعب ، ونحو مائة امرأة فرنسية ، وزوجات جميع من يخدمون في مصر ، وعشرون جراحا ، وثلاثون صيدليا ، وعشرة أطباء ، وعمال للمسابك ، وصناع ومقطرون للخمور ، ونحو خمسين بستانيا وعائلاتهم ، وبذور لمختلف أنواع الخضر .. و ٣٠٠.٠٠٠ ذراع من القماش الأزرق والأحمر ، وصابون وزيت » (٥) . وطلب أن تحمل كل قافلة ٢٠٠.٠٠٠ باينت من المشروبات الكحولية ، ومليون باينت من النبيذ . ولم يصل من هذا كله شيء . ذلك أن الادارة ألغت القافلة الثانية التي كان ينتظرها بوناپرت من لحظة لأخرى في شهر أغسطس لأنها رأت أن السفن وحمولتها ألزم لايطاليا منها لمصر . فبعد أن تلقت الادارة نبأ معركة أبي قير كفت عن بذل أى جهد جاد أو متصل لمعاونة بوناپرت ، أو حتى للاتصال به .

(*) المؤلف مخطيء في هذا الرأي . والواقع أنه لم يكن يتقن القراءة والكتابة بين الأقباط الا نسبة قليلة من مجموع الأقباط . أما وصفه الذين يعرفون القراءة والكتابة من المسلمين بأنهم حفنة من المشايخ فدليل على جهل المؤلف بحركة التعليم في الأزهر والمدارس التابعة له في القاهرة والأقاليم . (المترجم) .

(**) هنا أيضا لا يمكن أن يتفق دارس لتاريخ الحياة الفكرية في مصر ابان العصر العثماني مع رأى المؤلف عن دور الأزهر فالواقع أن الأزهر كان مركز الاشعاع الفكرى الوحيد في مصر في العصر العثماني . (المترجم) .

ولم يكن من بين المدن المصرية ما سيطر عليه بونابرت - وقت ان كان يرسم الخطط في أواخر يوليو لاحتلال البلاد احتلالا دائما - سوى ثلاث مدن ، هي الاسكندرية ورشيد والقاهرة . ولكن حتى لو كان تنبأ يومها بأن أسطوله سيدمر ، وأن تركيا ستعلن الحرب على فرنسا ، وأن حكومته ستتركه وشأنه في ورطته ، لتصرف بالضبط كما تصرف . ذلك أن طبيعة مزاجه - بل قل عظمتة - جعلت محالا عليه أن يسلم بأن موقفا من المواقف - أيا كان - ميثوس منه . وبدأ الادعاء بأنه يسيطر على مصر . ولكي يجعل دعواه حقيقة أمر ديزيه أن يطارد قوات مراد بك ويقضى عليها ، وخرج هو مطاردا ابراهيم بك ، وجرد عددا من قواده لاحتلال الدلتا ودمياط والأقاليم الشمالية الشرقية .

وسنتناول في فصل تال حملة ديزيه التي تعد من أغرب الحملات في العصور الحديثة . فقد قطع ٥٥٠ ميلا صوب الجنوب سيرا الى الشلال الأول يتعقب آثار مراد الذي يروغ منه ، فيهزمه أحيانا ، ولكنه لا يقضى عليه القضاء المبرم ، ولم تحقق له الحملة السيطرة الفعالة الدائمة . أما ابراهيم بك فقد هزمه بونابرت في الصالحية ولكنه لم يستطع منعه من الهروب برجاله وعبيده وأزواجه عبر صحراء سيناء الى سوريا ، حيث ظل خطرا يهدده على الدوام . وأما الدلتا - وهي أغنى أقاليم مصر وأكثرها سكانا - فقد احتلها بونابرت اسما دون مقاومة . ولكن الاستيلاء على عدد قليل من المدن الكبيرة وترك حاميات بها لا يعنى السيطرة على البلاد أو على سكانها . فقد تظاهر أهل المدن بصداقة الفرنسيين ، ولكن أكثر فلاحي الدلتا ، الذين كانت قراهم قلاعاً منيعه ، كانوا لا يرحبون على الاطلاق بالفرنسيين ، بل ان المدن لم تكن دائما مكانا مأمونا لهم .

والى القارىء ، على سبيل المثال ، التقرير الذى قدمه الجندى « مورشون » أحد جنود فرقة الفرسان ، والوحيد الذى بقى على قيد الحياة من حامية المنصورة ، الى الكولونيل لوجييه :

« ترك الجنرال فيال أثناء مروره بالمنصورة فصيلة من ١٢٠ رجلا . . . وفى اليوم التالى لرحيل الجنرال فيال بأورطته ، اغتال الأهالى ثلاثة من جنود الحامية ، رجموا واحدا منهم وهو يقف فى نوبة حراسته ، والثانى وهو يأتى بالحساء للديدبان ، والثالث وهو عائد من مكان حراسته .

ومن ذلك الوقت تحصنا فى البيت الذى اخترناه ثكنة لنا . . (وبعد يومين) فى حوالى الساعة الثامنة صباحا ، (أحاط بالثكنة عدد كبير من المسلمين يحملون مختلف الأسلحة . وحاول أحدهم أن يشعل النار فى البيت . . ولكن أحد جنود الفرسان قتله ، فحاولوا بعد ذلك هدم البيت . وبالاختصار استمر القتال . . الى الرابعة مساء . وعندها خرجنا من ذلك البيت الذى فقدنا فيه

ثمانية رجال . وبينما نحن سائرون فى شوارع المدينة لنغادرها كانت الطلقات تأتىنا باستمرار من نوافذ المنازل فنرد عليها على قدر ما نستطيع . فلما وصلنا الى الخلاء طاردنا هؤلاء الأفراد أنفسهم وظلوا يطلقون علينا النار . وجرى بعضهم الى القرى القريبة فى طلب التعزيزات . . وفى أثناء تقهقرنا اخترقت رصاصة فخذى اليسرى . . وفى الفجر كان منا على قيد الحياة خمسة وعشرون أو ثلاثون ، وما يزال العدو يطاردنا واذ فرغ رصاصنا فقد دافعنا عن أنفسنا بالسلاح الأبيض . وفضل الجرحى ، وعددهم عشرة ، أن يفرقوا أنفسهم عن أن يقعوا فى قبضة العدو . فلما لم يبق منا غير خمسة عشر ، القى حشد من الفلاحين الهائجين أنفسهم علينا ، وجردونا من ثيابنا وقتلونا كلنا بالشوم ، وألقيت بنفسى فى النيل عريانا لأنتحر غرقا ، ولما كنت أعرف السباحة ، فقد تغلبت غريزة حب الحياة على رغبة الانتحار ، ووصلت الى الضفة المقابلة . . ورحلت أسير دون هدف . فرأيت سبعة فرسان من المسلمين يدنون منى فألقيت بنفسى فى النيل ثانية ، واذ لاحظت أن اثنين منهم يشيران الى بالمجىء عدت الى الشاطئ ، فأطلق أحدهما النار على رأسى ، ولكن الرصاصة لم تنطلق ، وقال الآخر شيئا معناه الإبقاء على حياتى ، ثم سلمنى الى فلاحين مسلحين . . فأوثقا يدي وقادانى الى قرية وأنا أمشى على طريق كله شوك ألمنى جدا لأننى كنت حافيا مجروحا . وفى القرية فك الأهالى وثاقى واعتنوا بى وأطعمونى وترفقوا بى كثيرا . وظلت على هذه الحال الى اليوم حين أقبل القرويون ليخبرونى أن صندلا محملا بالجنود الفرنسيين يمر بقريتهم ولا يفوتنى أن أذكر أن الشخص الذى عنى بى أكثر من الجميع ، هو طفل يبلغ من العمر ثمانية أعوام كان يأتينى خفية بالبيض المسلوق والخبز ، (٦) .

وفى منتصف سبتمبر ١٧٩٨ عبر الجنرال مينو والجنرال مارمون النيل يصحبهما عدد من المدنيين أعضاء اللجنة العلمية . وحرس من ٢٠٠ رجل ، لاستطلاع اقليم الدلتا الواقع الى الشرق من رشيد . وكان الاستقبال الودى الذى لقيه مينو من الأهالى قد جعله يتهاون بعض الشيء . فلما ركب متقدما الحرس فى خمسة عشر رجلا فقط - سبعة منهم مدنيون - هاجمه فجأة جماعة من الفلاحين المسلحين . ودافع الجيولوجى دولوميو والموسيقيار فللوتو والرسام دينون عن أنفسهم بسيوفهم ومسدساتهم وهم يتقهقرون مع زملائهم الباقين ، ولكن الرسام جولى لم يستطع . كتب مينو لبونابرت يقول : « ان المواطن جولى فقد صوابه تماما ، فألقى بنفسه من على ظهر جواده وراح يصرخ فى رعب وفزع ورجونه فى الحاح أن يمتطى جواده ثانية أو يركب خلف أحدنا ، ولكنه فقد رشده فأبى أن يستمع الى شىء . . فاضطررنا أخيرا لتركه خلفنا ، فساقوه وقتلوه » (٧) .

وكان اقليم الاسكندرية ، بعد احتلال دام شهرين من الزمان ، غير مأمون

شأنه في ذلك شأن اقليم الدلتا ، وقد تبين هذا لركاب سفينة البريد « أنيمون »
خور نزولهم بر الاسكندرية . وكانت أنيمون هذه قد أقلت من طولون في
١٧ يونيو تحمل ساعى البريد لوسامبل ، الذى عهدت اليه حكومة الادارة
برسائل يحملها لبونايرت . وفى شفيتافيكيا أخذت ركابا آخرين منهم الجنرال
كامان . وفى ٢ سبتمبر لاح لها بر الاسكندرية وقرر ربانها أن يرسو بها قرب
العجمى تجنباً لاستيلاء الأسطول الانجليزى عليها . ولكن ما أن وصل الركاب
الى البر حتى هاجمتهم جماعة من البدو . وقتل الذين قاوموا وجردوا من ثيابهم
- ومن بينهم كامان . وخلع أحد الضباط ثيابه وراح يجرى طائفاً أن ثيابه هي
كل ما يبتغيه الأعراب ، ونسى في اضطرابه أنه يحمل سراويله في يديه ، فقتل
هو أيضاً . وجرى راكب آخر هو المواطن ديفوج الى أمواج الشاطئ وهو عار
تماماً طلباً للنجاة وان جهل السباحة . وكان كلما طفا ليستنشق الهواء أطلق
عليه البلو النار وهم في الماء الى خصورهم . ولحق به مساعد كامان ، واسمه
بيلا ، فدخل الموج المتلاطم الى جواره . يقول ديفوج : « ولبشنا على هذه الحال
يتشبث الواحد منا بصاحبه مدى ربع ساعة رأينا فيها عدداً من زملائنا
يقتلون » . ولطمت موجة عالية ديفوج فهوى ، ولما طفا ثانية بعد نضال ، كان
مطادروه ورفيقه بيلا قد اختفوا . يقول : « وما لبثت أن شعرت بجثة تطفو
يجوارى ... ورفعت الرأس فاذا هو رأس بيلا . وكان يطفو بجانبه طفل
غريق مسكين يبلغ الثانية عشرة من عمره » (٨) .

واستحيى البدو نحو عشرين فرداً من هذه الجماعة طلباً للقدية ، وكان
منهم لوسامبل ، وافتداهم الجنرال كليبر . وفى ٨ سبتمبر سلم لوسامبل
الباسل ما بقى لديه من الرسائل الى بونايرت فى القاهرة ، وكانت تحمل تهانى
الادارة على استيلائه على مالطة ، ولا شيء غير هذا .

وفى يوم وصول لوسامبل الى القاهرة كتب بونايرت الى الادارة يقول :
« كل شيء هنا يجرى على ما يرام . والبلاد كلها تحت سيطرتنا ، والشعب أخذ
يألفنا » (٩) .

ولابد للمرء - ان أراد ان يكون فاتحاً - أن يكون لديه معين هائل من
التفاؤل ، وأن يحجب الحقائق عن عينيه بغمامات كبيرة جداً .

٢

ليس لدينا دليل على أن بونايرت كان يستمتع بأعمال الثأر والانتقام أو
يمقتها . فلا هو بالقاسى ولا الرحيم ، ولا هو بالوحشى ولا الرقيق الطبع .
ولكن العدوان فى رأيه يجب أن يعاقب ، لئلا يكون اهمال عقابه تشجيعاً له :
ومن ثم كانت جماعات وقرى برمتها تنهب وتحرق بأمره ، وقطعان الغنم

والماشية - وهي مورد الرزق الوحيد لقبائل البدو - تنتزع منها ، والرموس تطيح بالعشرات . كتب لينو في ٣١ يوليو يقول : « في كل يوم أمر بقتل خمسة أو ستة في شوارع القاهرة » (١٠) وكان بالمثل يتخذ الاجراءات الصارمة ضد قاطعي الطريق من الفرنسيين . وكان هذا التلميذ المؤمن بمكيافلي يرى أن الشدة اذا التزمها المرء تولد الاحترام لا الكراهية ، وتحقق الدماء في النهاية أكثر من اللين الأخرق . وكان أهم هدف له أن يكسب ثقة الشعب - الثقة في شدته وفي نواياه الطيبة على السواء - وتعاون الطبقة الحاكمة . التي لا تنشد أكثر من النظام والاستقرار . ولم يفق مستعمر أوربي بونايرت في محاولاته لكسب الأهالي لصفه (لا لوضعهم في موضعهم الصحيح منه) . فاذا كانت جهوده قد فشلت فشلا ذريعا ، فليس العيب في سياسته التي كانت تستحق النجاح ، بل العيب عيب الطرق والأساليب المرتجلة ، المتضاربة ، البادية التقلب ، التي أكرهته الظروف على اتباعها في دقائق التنفيذ وتفاصيله . وهو أولا وقبل كل شيء عيب استحالة المهمة التي كان عليه أداؤها .

كان الاسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة . ففي وسع بونايرت أن يعلن في اليوم ثلاث مرات أنه ليس مسيحيا ، وأن جنوده ليسوا مسيحيين ، وأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس ، وأنهم يحترمون الاسلام - وكل هذا حق في كثير أو قليل . ولكن الفرق بين المسيحيين ، والربوبيين ، وعباد الهة العقل أو الكائن الأعظم والحريين الطبيعيين، والملحدين ، واليهود . هذا الفرق كان في نظر المسلمين طفيفا لا يعتد به ، فكلهم غير مسلمين ، اذن فكلهم كفار . أما المماليك والعثمانيون فمسلمون : صحيح أنهم قد يعتصرون أرزاقهم ويستنزفون أملاكهم ، ولكنهم اخوة لهم . وما ان أذل الفرنسيون المماليك البغيضين ، حتى أصبح هؤلاء المماليك البغيضون موضع الشفقة والرثاء . ولما تدخل شيوخ القاهرة فأطلق بونايرت سراح أسرى المماليك « دخل الكثير منهم الى الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال وعليهم الثياب الزرق المقطعة فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ويتكفون المارين وفي ذلك عبرة للمعتبرين » (١١) . تلك عبارة الشيخ الجبرتي ، وهو مسلم مستنير حملها الكثير مما يعده الاسلام خلقا جديرا بالاعجاب العظيم : وهو أن يطعم المظلومون ظالمهم المقهورين ، بدافع الشعور بالأخوة أكثر من الرحمة .

ولكن مع أن شعب مصر ، كباره وصغاره ، كان محقا في التشكك في اخلاص بونايرت حين أعلن على الملأ أنه مسلم فعلا ، فان خوفه من أن يقضى على دينه لم يكن له أساس . فالذي كان بونايرت يريد القضاء عليه هو جمود الناس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة واستسلامهم لقضاء لم يكتب عليهم ، وكراحتهم الخروج من العصور الوسطى وعدم رغبتهم في مساعدته على النهوض

بهم . (وكون هذا التغيير المنشود سينفع المستعمرين الفرنسيين لا يدل على أن المصريين لن ينتفعوا به ، ربما أكثر من الفرنسيين) . وقد اقتضى العالم الاسلامى قرن ونصف من الزمان ليدرك أن المسلمين يستطيعون الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم سليمة لا تمس ، ومع ذلك يسرون مع عجلة الزمن . ولكن بونابرت لم يكن فى موقف يعينه على تلقين المصريين هذا الدرس . فقد كانت دعايته مخلصة فيما يتصل بالأهداف النهائية ، ولكنها منافقة كل النفاق فى استغلالها العواطف الدينية والحرافات الشعبية . وأهم من ذلك أن مركزه الحربى عقب انتصار نلسن كان قلقا جدا ، بحيث بدت جميع محاولاته لمخاطبة مشاعر المسلمين حيلة يائسة لا اقناعا مخلصا . وهذا التفسير الحبيث لمحاولاته يصبح مفهوما اذا ذكرنا الشطط الذى تورطت فيه سياسته الدينية فى النهاية .

ولما لم يكن تحت تصرف بونابرت سوى قوة حربية صغيرة يسيطر بها على بلد مترام خطر كمصر ، فقد اضطر الى الاعتماد على الصفوة من أهل البلد ليحكموه له . وقد انتهى بالفشل اختياره الأول للسيد محمد كريم حاكما على الاسكندرية . واضطر كليبر - بسبب عدم تعاون كريم الواضح - الى أن يستبدل به فى يوليو ١٧٩٨ الشيخ المسيرى - وكان أجدر بثقته - وأن يرسله مخفورا الى حامية بونابرت ليتصرف فى أمره نهائيا . وفى ٥ سبتمبر حكم بونابرت على السيد محمد كريم بالاعدام ، ولكنه خيره فى افتداء نفسه بمبلغ ٣٠٠٠٠ تلو (*) ، وذلك جريا على تقليد معروف فى البلاد . وسواء كان الدافع لكريم هو ايمانه بقضاء الله ، أو بخله ، فانه أبى أن يدفع الفدية . فقتل رميا بالرصاص فى القلعة ، وحمل رأسه ليعرض على الملأ فى الشوارع . يقول نقولا الترك ان قتله أحدث أثرا سيئا فى الأهالى لأنه من سلالة النبی .

ومضى بونابرت على الرغم من هذه البداية المشئومة فى الحكم المحلى بمساعدة أعيان المسلمين . ففى غداة دخوله القاهرة أنشأ الاطار العام لهذا الحكم بتعيينه ديوانا ، أو مجلسا بلديا ، اختار أعضائه من كبار المشايخ ، وعين مندوب فرنسى مراقبا بالديوان (**) . أما دور ديوان القاهرة - ودواوين الأقاليم

(*) كان التلو يعادل التالير الامبراطورى . واذا كان سعر التلو ٤ فرنكات ذهبية ، فهو يعادل ٥ شلنات تقريبا (فى عام ١٧٩٨) .

(**) آلت الوظيفة فى النهاية الى المواطن تاليان ، وهو الرجل الذى قاد حكومة المؤتمر الوطنى لقبلى حكم روبسيير فى ٩ ترميسدور ١٧٩٤ . والشئ الوحيد الذى يشترك فيه بونابرت وتاليان هو أن زوجتيهما كانتا خليلتين لعضو الادارة بارا . وبعد أن مرت بتاليان أيام عصيبة ، سواء فى حياته السياسية أو الزوجية ، وفق فى أن يلحق نفسه بالشعبة الاقتصادية من اللجنة العلمية . ووصل الى الاسكندرية على سفينة البريد « فيف » فى ١٣ أغسطس . فلقه كليبر لقاء فيه فتور مقصود ، ولا عجب فقد كان كليبر يمقت رجال السياسة .

المنشأة على غرارها - فهو أساسا اصفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية وقرارها بفضل مكانة العلماء والفقهاء الذين تتألف منهم هذه الدواوين . كتب بونابرت لكليبر يقول : « اننا اذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا الراى العام فى مصر كلها . فليس بين زعماء الأمة كلهم من هو أقل خطرا علينا من الشيوخ ، فهم جبناء ، عاجزون عن القتال ، يوحون - كجميع رجال الدين - بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين » (١٣) . وبالإضافة الى هذه الوظيفة الأساسية ، كانت الدواوين تنقل شكاوى الأهالى الى السلطات الفرنسية وتحاول جس الراى العام لها . ولكنها كانت فى هذه المهمة الثانية لا يركن اليها اطلاقا ، شأن كل هيئة تضرر العداء للمحتل وان أذعنت لمطالبه .

وفى ٤ سبتمبر خطا بونابرت خطوة أبعد ، فدعا « ديوانا عاما » يمثل مصر كلها ليجتمع بالقاهرة بعد شهر . وقرر أن يتألف كل ديوان اقليمى من ثلاثة فقهاء ، وثلاثة تجار ، وثلاثة ممثلين للفلاحين وشيوخ البلد وقبائل البدو على التوالى . ومع أن النواب كان يختارهم حكام الأقاليم الفرنسيون ، فانه كان من الجائز أن يصبح الديوان العام ، وهو مجلس تمثيلى لا سابقة له فى الشرق ، « مجلسا لطبقات الأمة المصرية » ، ولكننا سنرى أن النواب فضلوا أن يجعلوه صفرا على اليسار .

وقد ضمن بونابرت بانشائه الدواوين التأييد الظاهر من أكثر عناصر المجتمع المصرى نفوذا واستقرارا - وان لم يضمن قط ولاهم أو ثقتهم . ولكن كان هناك مهام حكومية بغیضة كره الاضطلاع بها الفرنسيون والمسلمون من الأهالى على السواء - وهى جمع الضرائب والبوليس . كان المساليك يستخدمون الصيارفة الأقباط فى جمع الضرائب قبل وصول بونابرت وكان مما يؤهل الأقباط لهذا العمل تعليمهم وطاعتهم وخبرتهم بشئون المال . واضطر بونابرت للمضى فى استخدامهم لأداء هذه المهمة كما كانوا يؤدونها من قبل ، وان قدر أن جانبا كبيرا من الأموال التى يجبوونها من الفلاحين يحتجزونه لأنفسهم . فوضع نظاما يشتمل على مراتب ودرجات من الجباة الأقباط ، فكل « ملتزم » يجمع ضرائب اقليم من الأقاليم لديه موظفون فى مكتبه يعملون تحت رياسته ومندوب فرنسى الى جواره ، وعلى رأس هرم هؤلاء الموظفين الأقباط كلهم ملتزم عام هو المعلم جرجس الجوهري . هؤلاء الصيارفة الذين خلعت عليهم الآن صفة رسمية كانوا يسلكون مسالك الحكام على حد قول الجبرتى . يقول « وقيدوا بذلك الصيارف من القبط ونزلوا فى البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون فى الطلب » (١٣) .

أما عن البوليس فقد أنشأ بونابرت فرقا من الانكشارية مؤلفة من الترك واليونان والمغاربة وغيرهم من السفلة وشذاذ القوم . ومن أبرز هؤلاء وألفتهم

فلننظر أيام الاحتلال الفرنسى مغامر رومى مسيحي يسمى بارتلمى أو بارتلميو(*) عينه بونابرت « كتحذا مستحفظان » القاهرة (أى نائب المحافظة) وكان هذا الضابط الزاهى المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة المتوحشين . وكان فارغ القامة ، لا ينسى الناظر مظهره وهو يخرج على رأس أتباعه الأوغاد فى عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية ، وعيناه تلمعان ، وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم فى العروق ، وقد ارتدى ثوبه اليونانى الموشى بالقصب ، وحزاما أحمر ، وسراويل ضخمة ، ومعطفًا تعلوه رمانتان مما يضعهما الكولونيل على كتفيه . وكانت زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحيانا الى جواره . وكان بارتلمى يحب العراق ، لأنه يتيح له إظهار شجاعته والتباهى بشيابه ، ولكن أحب الأشياء الى قلبه قطع الرقاب بالجملة . روى أنه اذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل زعوسهم الى القاهرة تذكارا كان يعزى نفسه برعوس بعض الفلاحين العائرى الحظ الذين يصادفهم فى عودته للمدينة . وقد قدم للجنرال ديبوى مرة زكية بأكملها مملوءة برعوس البدو بينما كان هو وضيوفه يتناولون طعام الغداء ، وقد آله أنه نغص عليهم طعامهم . يقول مؤرخ قديم للحملة المصرية « كان فى منظره وهو يسير الى القلعة وقد جرد سيفه فى يده ، ومن خلفه ضحايا المكبلين ، ما يكفى لآخامد كل السوايا الشريرة فى قلوب الكثيرين » (١٤) .

ومع أن استخدام المسيحيين جباة للضرائب وحفظة للأمن كان له ما يبرره من دواعى المصلحة ، فقد كان من شأنه - كما ذكر الجبرتى - أن يوحى لغير المسلمين بفكرة خاطئة عن المساواة . فما لبث الناس أن رأوا المسيحيين واليهود يركبون الخيل كالسادة المسلمين ، ويحملون السلاح ، ولم يعودوا يتوارون عن الأنظار ، وضربت زوجاتهم مثلاً سيئاً بالخروج سافرات وتقليد العادات الأوروبية (**). وقد أكرهت شكاوى المسلمين فى النهاية بونابرت على أن يصدر الأمر للأهالى من المسيحيين واليهود بأن يعودوا الى ارتداء عمائمهم القائمة وأحزمتهم غير المزركشة وأحذيتهم السوداء . وكتب لكليبر يقول « مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائما أصدقاءنا . فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا فى وقاحتهم » (١٥) .

(*) « قلدوا برطلين ... وهو الذى تسميه العامة فرط الرمان ، كتحذا مستحفظان ، وركب بموكب من بيت صارى عسكر وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه .. وسكن المذكور بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى .. والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطبجية عند محمد بيك الألفى وله حانوت بخط الموسيقى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة » الجبرتى ج ٣ ص ١٢ .

(**) كانت جميع النساء غير المسلمات مجبرات على اتباع تقاليد الحجاب الاسلامية الى سنة ١٧٩٨ ، فيما عدا زوجات القناصل .

نجحت سياسة بونابرت في السيطرة على مصر بالتراضى مع الصفوة من المسلمين نجاحا خداعا أول الأول . فلم يحد أحد من أعيان المصريين الذين شغلوا مراكز تحت رياسته حذو السيد محمد كريم . غير أن سياسته الدينية لم تقم جملة على مقتضيات المصلحة وحدها . لقد كان مخلصا في احترامه للإسلام ، لأنه ينبع من موقفه العمل بالبحث من الدين . قال لمجلس الدولة في عام ١٨٠٦ : « اننى أرى فى الدين . . . سر النظام الاجتماعى ، (١٦) فلا وجود للحكومة ولا للدولة بغير الدين . وكان الإسلام فى عينيه أنسب من المسيحية لحاجات النظام الاجتماعى ، لأنه لا يشجع الصراع بين العالمين المادى والروحى . وربما كان بونابرت حين كتب فى عام ١٧٩٧ لأسقف كومو يقول : « ان الفضيلة التى بشرت بها الأناجيل . . . هى أنسب الفضائل لشكل الحكومة الجمهورية » (١٧) . أقل اخلاصا منه حين أبلغ الشيخ المسيرى ، بعد ذلك بسنة ، أنه ينوى « اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القرآن ، التى هى وحدها المبادئ الحققة القادرة على اسعاد الناس » (١٨) .

واحترام دين البلد المغلوب وتقاليده سياسة سليمة ، ولكن بونابرت اشتط فى مجاملته للإسلام . وقد أكره على الالتجاء فى النهاية لأعمال فيها انتهاك للمقادس الدينية - أو خيل اليه أنه أكره على ذلك - بسبب ظرفين ضايقه أشد المضايقة : أحدهما أزمته المالية المزمنة ، والثانى اعلان تركيا الحرب . وسنفصل الحديث فى مكان آخر من الكتاب عن متاعبه المالية ، وأما اعلان السلطان الحرب فقد ضايق بونابرت مضايقة آثر معها أن يتظاهر أربعة أشهر بأنه لم يحدث ، مع أنه لابد قد أحاط به علما منذ أوائل أكتوبر .

كان بونابرت يعتقد حقا فى مستهل حكمه لمصر أن تاليران ذهب الى الآستانة وأنه سينتهى الى اتفاق ودى مع الباب العالى . وقد كتب غير مرة لوالى مصر ، الذى فر مع ابراهيم بك ، يرجوه أن يعود قائلا : « أتوسل اليك أن تؤكد للباب العالى أنه لن تصيبه أية خسارة ، وانى أتعهد بأنه سيتسلم نفس الجزية التى كان يتسلمها من قبل » (١٩) . كذلك كتب للصدر الأعظم رأسا يعرض هذا التأكيدات نفسها ويقترح حلها مع تركيا على الروسية . ولم تظفر هذه الرسائل كلها بجواب ، ولم تصل كلمة من فرنسا عن مهمة تاليران .

ومع أن هدف بونابرت المزعوم من دخوله مصر كان اذلال الأمراء المماليك ، فقد حاول التراضى معهم عقب معركة امبابة . وفى أول أغسطس ، وهو اليوم الذى وقعت فيه معركة أبى قير ، خول لكارلو روزيتى القنصل النمساوى بالقاهرة كامل السلطة فى أن يفاوض مراد بك ويعرض عليه حكم اقليم جرجا بالصعيد . واستقبل مراد روزيتى بترحاب ، وكان شديد الحب له ، وأعطاه هذا الجواب لبونابرت « قول الى الجنرال بونابرت يأخذ عساكره ويرجع الى اسكندرية ونحن

نفدفع له ١٠ر٠٠٠ كيس ويتوجه الى بلاده » . « فان فعل حقن دماء جنوده
ووفر على مشقة محاربته » (٢٠) . ولم يرسل بونايرت ديزيه ليتعقب قوات
مراد ويقضى عليها الا بعد أن تلقى هذا الجواب .

كان المماليك يتلقون الأنباء بأسرع مما يتلقاه بونايرت ، لأن البدو كانوا
يتعاونون معهم . وأكبر الظن أن مراد بك كان يعلم بتدمير الأسطول الفرنسى
حين أجاب هذا الجواب المتغطرس . أما ابراهيم بك ، الذى عرض عليه بونايرت
عروضا مماثلة فى ١٢ أغسطس فى الصالحية فلا ريب أنه كان على علم بهزيمة
الفرنسيين البحرية (التى كان بونايرت لا يزال يجهلها) فلم يتنازل بالجواب .
وهكذا أصبح طرد الفرنسيين من مصر آخر الأمر مسألة وقت لا أكثر فى نظر
المماليك .

أما وقد تجاهل الباب العالى بونايرت وأهانته الأمراء المماليك ، فقد راح
يجس نواحي أخرى فى صبر وأناة . وفى ٢٢ أغسطس أرسل ضابطا من أركان
حربه يسمى الميجر « بوفوازان » ليسلم رسالة الى أحمد باشا والى عكا - الذى
اشتهر بالجزار ، وهو لقب يعتز به - وكان هذا الشيخ الذى بلغ السبعين قد
ظل عشرات السنين مسيطرا على الشام . وكانت وحشيته مضرب الأمثال ،
وكذلك كان مقتله الشديد للفرنسيين .

وكان وجود الجزار أشد الأخطار تهديدا لبونايرت ، لأن فى استطاعته
أن يحشد ويسلح جيشا من ١٠٠ر٠٠٠ جندي . ولم يستقبل الجزار بوفوازان ،
ولكنه قرأ خطاب بونايرت الذى عرض فيه عليه معاهدة صداقة وتجارة .
فاشتعل غضبه . وكان بوفوازان محظوظا لأنه نجا بجلده من عكا . وقال فى
تقريره عند عودته ان يافا وعكا تغلى مراجلهما ، وقد خول الباب العالى للجزار
القيادة العسكرية على الشام كله . ولم يعلم بوفوازان أن الباب العالى قرر
- أثناء وجوده فى عكا - أن يعلن الحرب على فرنسا (*) .

كذلك لم تظفر رسالتا بونايرت الى والى طرابلس ووالى دمشق برد .
ولم يرد عليه مطمئنا سوى شريف مكة ، الذى كان يعتمد فى دخله على قوافل
الحجاج القادمة من القاهرة ، وعلى صادرات البن الى مصر ، ولكن حتى
عبارات شريف مكة المطمئنة تبين أنها تنطوى على الخديعة . ولا بد أن دعاوى
صداقته للسلطان والاسلام بدت لهؤلاء الحكام جميعا ضربا من الصفاقة يقرب
من الجنون ، لا سيما وأنها وصلتهم بعد أيام ، بل أسابيع ، من وصول سعاة
السلطان التتار يحملون اليهم نبأ اعلان جلالته الحرب على الفرنسيين .

(*) لقى الكبتن « ماتى دوشاتورينو » الذى أرسله بونايرت ليتصل بالقنصلين الفرنسيين
فى اللاذقية وحلب مصيرا أسوأ : فقد زج به الجزار فى السجن بمجرد نزوله الى البر ، ثم أعدمه
فى عام ١٧٩٩ حين غزا بونايرت الشام (انظر الفصل التاسع) .

وأثار اعلان تركيا الحرب - على الفور تقريبا - سلسلة من الكوارث لم يحط بها بونابرت تماما الاحاطة الا في ديسمبر ويناير . ففي أوائل سبتمبر دخل أسطول روسي مياه البوسفور ، فرحب به الأتراك أيما ترحيب ، وكان آل مونتاجيو يرحبون بآل كايبوليت (*) . كذلك تلقى حسن باشا والى رودس في سبتمبر أوامر بأن ينضم الى البريطانيين ، المرابطين أمام الاسكندرية ، على رأس أسطول تركي . وفي أكتوبر استولى على باشا والى ياننيا - الذي كان بونابرت يعلق الآمال على مودته للفرنسيين - على المنشآت الساحلية المواجهة للجزر الايونية ، بينما استولى الأسطول الروسي على زنته وايشاكا وكفالونيا ، وحاصر كورفو التي قامت حتى ٣ مارس . وفي نفس الوقت نفسه ثار المالبطيون على الفرنسيين ، فقرر قائدهم الجنرال فوبوا الجلاء عن الريف والاكتفاء بالدفاع عن المدن والقلاع . وفي ١٩ سبتمبر وصل أسطول برتغالي بقيادة الأميرال « دونيزا » أمام مالطة ، وعززته بعد قليل مراكب انجليزية . وأفلح فوبوا في المقاومة عامين ، ولكن مالطة أصبحت عبئا على الفرنسيين أكثر منها . كسبا لهم .

ولم يبدأ أكتوبر ١٧٩٨ حتى عرف كل مصري لم يصب بالعتة أن السلطان صديق فرنسا وحليفها العزيز قد أعلن عليها الحرب . ومضى بونابرت في تجاهله ونفيه للأمر على أنه شائعة خبيثة يذيعها الانجليز والمماليك وال دراويش المتعصبون . وكانت له براعة مذهلة حقا في فن وضع الغمائم على عينه اذا اقتضى الأمر . وظل بونابرت الى ٣٠ أكتوبر يتشكك في صحة فرمان الذي أذاعه السلطان على الشعب ضد الفرنسيين ، بعد أن قرأه كل امام ومؤذن في كل جامع من جوامع مصر . في ذلك اليوم أمر ترجمانه براكفيس ، وكبيرا من المسلمين تركي الأصل ، بالذهاب الى سفن الأسطول الانجليزي التركي المرباط أمام الاسكندرية بحجة المفاوضة العادية ليتسقطا ما يستطيعان من أنباء . ودهش الأتراك والانجليز وضحكوا حين رأوا المبعوثين يصلان في سفينة ترفع الراية التركية : واستقبلوهما بمزيج من التهكم والأدب ، وسمحوا لهما بما يطلبان من أخبار سياسية . وكانت الأنباء مدهشة مفزعة ، فلم يصدق براكفيس الجنرال مارمون - الذي كان وقتها على وشك تسلم القيادة في الاسكندرية - كلمة واحدة منها . وقد سلما بأن السفن التي ترفع العلم التركي سفن تركية حقيقية ولا ريب ، ولكن لا يمكن أن يكون الباب العالي هو الذي أرسلها هناك : انما التقطها الانجليز في رودس بعد أن أوهموا الشيخ الهرم حسن باشا أن الباب العالي أعلن الحرب على فرنسا .

واذا كان بونابرت لا يزال يحيره شعور الشك ، فقد أرسل مبعوثا آخر

(*) الأسرتان المتخاصمتان في مسرحية شكسبير « روميو وجوليت » . (المترجم) .

هو الملازم جبير الى الباخرة زيلوس فى نوفمبر بخطاب الى حسن باشا . وضحك الكومودور هود وسأل جبير : « اذن فأنتم تشكون فى أن الباب العالى أعلن الحرب عليكم ؟ حسنا ، اننى أقسم لك بشرفى أنه فعل . وماذا يصنع الآن مسيو بونابرت ؟ » ولما ترجم له خطاب مسيو بونابرت الى حسن باشا « تظاهر هود بأنه يهتز من فرط الضحك » (٢١) . أما حسن باشا فقال انه لن يجيب لا شفويا ولا كتابة ، وعليه فقد عاد الملازم جبير الى البر .

ومع ذلك ظل بونابرت يتظاهر بأنه غير مقتنع . فكتب فى ١١ ديسمبر - أى بعد أن سيق المواطن روفان الى قلعة الأبراج السبعة بثلاثة أشهر - خطابا الى « المواطن تاليران ، السفير الفرنسى بالآستانة » (٢٢) وآخر الى الصدر الأعظم . وبالطبع لم يكن بذلك القدر الذى تظاهر به من الجهل بالوقائع أو السذاجة . ولكن سياسة النعامة بدت له خير سياسة ، ما دام الاعتراف بحالة الحرب لن يكسبه شيئا .

٣

تتميز دورة الحياة كل عام فى مصر بإيقاع تلتقى فيه الشمس والقمر . فالنيل الذى يخصب فيضانه السنوى التربة خاضع للشمس : تعلو مياهه صيفا وتنحسر فى الخريف مخلقة وراءها طبقة غنية من الغرين . أما التقويم الاسلامى الذى يحدد الأعياد الدينية فيتبع دورة القمر . وحدث فى عام ١٧٩٨ أن اتفق وقوع الاحتفال بوفاء النيل وبمولد النبى فى تاريخين لا يفصل بينهما أسبوع ، هما ١٨ و ٢٣ أغسطس ، بعد استيلاء الفرنسيين على القاهرة بشهر . أما الفاتحون فكانوا يحسبون سنتهم بنظام آخر يعتمد على حسابات فلكية دقيقة - وهو تقويم الثورة الفرنسية ، الذى حل محل التقويم الجريجورى من سنة ١٧٩٢ الى ١٨٠٤ حين ألغاه نابليون . وقد لاحظ نقولا الترك بحق أن الثوار أدخلوا النظام الجديد « كى يغيروا الأشياء القديمة » (٢٣) . وبدأت السنة الفرنسية السابعة فى الذكرى السادسة للجمهورية الفرنسية ، أول فندمير الموافق ٢٢ سبتمبر ، وهو يوم الاعتدال الخريفى .

ولم تفت بونابرت الفرص التى يتيحها التقاء الأعياد الثلاثة ، ولا عجب فهو أول سياسى استغل الدعاية بمعناها الحديث استغلالا كاملا . فعزم على أن يربط بين نفسه وجيشه ، وبين الاحتفالات التى تحيى ذكرى أحداث منحت أهل مصر رزقهم ودينهم ، وأن يربط بين شعب مصر وبين الاحتفال الذى تحيى به الجمهورية الفرنسية الأولى مولدها وعهد التقدم والعقل الجديد . وهكذا يصبح هذا رمزا للصلة الأخوية بين الفرنسيين والمصريين ، وفى غمرة هذه الاحتفالات يخف وقع الصدمة التى أحدثتها هزيمته فى أبى قير .

فما أن أشرقت شمس يوم ١٨ أغسطس حتى اتخذ الجنرال بونابرت مجلسه على منصة مقامة في كشك عند ملتقى النيل بالخليج ، ليشرف على أول هذه الاحتفالات وجلس بجواره قواده في ثيابهم العسكرية وقد اختلط بهم أعضاء ديوان القاهرة وغيرهم من أعيان المسلمين في عماماتهم البهية ، ولحاهم الكبيرة ، وقفائهم ذات الأهداب المصنوعة من الفرو ، والتي تنبىء بمكانتهم . ولا يكاد المرء يصدق أن المسلمين أو الفرنسيين كانوا يطبقون لبس هذه الثياب تحت شمس أغسطس المصرية . ووقف شطر من الحامية الفرنسية في تشكيلات العرض ، وراحت فرقهم الموسيقية الجمهورية تصدح تارة ، وآلات المصريين الحادة تعزف تارة أخرى . ثم كفت الموسيقى ، وقرأ أحد الأعيان إعلانا مفاده أنه وقد زاد « النيل المبارك » على ستة عشر قيراطا حسب مقياس الروضة ، وجب الشكر لله واستحق دفع الميرى للجباة . وقوبل هذا الإعلان بطلقات المدافع من البطاريات الفرنسية المقامة على الشاطئ وعلى الأسطول النيلى ، وكذلك قوبل الاحتفال الوثنى العجيب الذى يلقي فيه تمثال امرأة فى النهر . (وكانت تقدم فى العصور القديمة عذراء حقيقية ، مفروض أنها أجمل عذارى مصر ، قربانا لاله النيل ، وظلت هذه العادة مرعية فى أوائل العصر المسيحى ، الى أن أحل المسلمون الرمز محل الحقيقة ، اما لأنهم كانوا ينتفعون بالعذارى الجميلات انتفاعا أفضل ، واما لأنهم وجدوا مشقة فى الحصول عليهن) (*) .

وبينما كانت الفرقتان تعزفان قطع الجسر الذى يفصل النيل عن القناة ، وأعلنت طلقات مدافع أخرى تدفق الماء وهو يملأ مجرى القناة ويحمل معه أسطولا من الزوارق والصنادل . وما لبث ماء الفيضان أن غطى ريف القاهرة وكثيرا من شوارعها وميادينها التى استحال الى فينيسيا افريقية . وفى الليل أضاءت المدينة فوانيس القوارب الملونة . وكان ميدان الأزبكية الذى نزل فيه بونابرت يتحول عادة فى مثل هذا الوقت من العام الى بركة كبيرة « ترى فيها الطيور تطفو على صفحة الماء كأنها النجوم تسبح فى القبة الزرقاء » (٢٤) على حد قول الشاعر (**) . ولكن هذا لم يحدث فى عام ١٧٩٨ : فهو اذ رغب فى استعمال الميدان متنزها لمدفعيته ، اتخذ التدابير لمنع المياه من الوصول اليه ، فانتشرت فيه المدافع بدلا من الطيور .

(*) « ٠٠٠ » وركب « بونابرت » صحتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السد وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونقوطة حتى جرى الماء فى الخليج « الجبرتى ج ٣ ص ١٥ .

(**) لعل الشاعر هو الشيخ حسن العطار ، صديق الشيخ الجبرتى ، الذى يروى وصفه لبركة الأزبكية فى أبيات منها :

بالأزبكية طابت لى مسرات ولد لى من بديع الانس أوقات
حيث المياه بها والفلك ساجحة كأنها الزهر تحويها السماوات

١ - ٣ ص ١٠٢ - المترجم

وشاء بونابرت أن يعتبر الاحتفال بوفاء النيل نجاحا شخصيا عظيما على الرغم من انعدام الحماسة الشعبية بصورة واضحة . فذكرت صحيفة « بريد مصر » (وهي أول صحيفة تطبع في مصر) أنه في عودته الى الأزبكية كان يتبعه « حشد كبير من الناس يتغنون بمدح الرسول والجيش الفرنسي » (٢٥) وهي مبالغة صحفية ينفيها الجبرتي - المؤرخ المتزن - نفيا باتا .

وكانت الاحتفالات بالمولد النبوي ستبدأ في ليلة ٢٠ أغسطس . وقد أقيمت بأمر بونابرت بعد أن قرر الزعماء الدينيون العدول عن الاحتفالات العامة في ذلك العام بسبب « تعطيل الأمور وتوقف الأحوال » وبلغ الضجيج والفوضى غايتها مدى ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وتحولت شوارع القاهرة الى سوق ليلية ، بينما سار الألوف في مواكب يحملون المشاعل والشموع الكبيرة وينشدون « أغاني كلها نشاز ، ترافقها موسيقى أكثر نشازا » (على حد قول الميجر ديتروا) « ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضجيجا شنيعا » (٢٦) وفي ٢٣ أغسطس بلغت هذه الأفراح ذروتها . يقول ديتروا في يوميته : « ان الميادين العامة حافلة بالمعارض والفرج الصغيرة - فترى فيها الدببة والقردة المدربة ، والمغنين والمغنيات ينشدون أدوارا يجاوبهم فيها آخرون ، والنسوة يغنين الأشعار ، والحواة يأمرن الثعابين فتختفي ، والأطفال يرقصون رقصات غاية في الفجور . . . وظهر الدراويش عند المساء : والشعب يجلب هؤلاء المتعصبين الذين يطلقون شعورهم ويسسرون عراة تقريبا . . . واجتمع الأتقياء في حلقات يجلس فيها الرجال متلاصقين وقد عقد كل منهم ذراعه بذراع صاحبه . ثم بدأوا يهتزون في حركة عنيفة أفرادا وجماعة ذات اليمين وذات اليسار ، ورافق حركتهم التلوى العنيف ، واستمرت الى أن خارت قواهم » (٢٧) وقد دهش الفرنسيون من أمر الفقراء الدراويش . كان كثير منهم يجرون هنا وهناك عراة تماما « في نشوة دائمة » كما ورد في تقرير للجنة العلمية ، ولم يكن شيء من الأشياء محظورا عليهم . كانت النسوة يتبركن بالاتصال بهم ، وفي الأعياد يؤلفن نطقا حول الولي ومن اختارها لحمايتهما » (٢٨) .

وبينما كان الميجر ديتروا يرقب هذه المشاهد في شيء من الدهشة والحيرة ، كان الجنرال بونابرت يحضر الصلاة التي قامت في بيت الشيخ البكري في وقار وهدوء ، وكان قد خلع على الشيخ فروة وقلده نقابة الأشراف . ولا بد أن شخصه الضئيل العصبى - وهو متربع على وسادته وقد زرر سترته السوداء الى ذقنه وبدا رزينا وقورا - كان يختلف اختلافا عجيبا عن المشايخ بقفاطينهم وعماماتهم ، وهم يهتزون بانتظام اذ يسمعون آيات القرآن تتلى ، ويتلون صلواتهم على مسابحهم . وما من شك في أن عقله كان شاردا في أشياء غير التي تجرى أمامه ، وآية ذلك هذه القائمة المختارة من وجوه نشاطه في تلك الأيام .

ففى ٢٢ أغسطس أملى فيما أملى تعليمات للجنرال ديزيه عن العمليات الحربية الموجهة ضد مراد بك ، وتعليمات للجنرال ديوجوا موصيا اياه بأن يقطع رقاب تسعة أو عشرة على الأقل من أهل المنصورة عقابا وتأديبا ، وتعليمات للجنرال فيال لحماية المنشآت الخيرية والأماكن المقدسة ، وخطابا للصدر الأعظم يزعم فيه صداقته للسلطان ، وتعليمات للميجر بوقوازان عن بعثته لدى الجزار باشا ، وخطابا للجزار ، وعدة أوامر مشددة خاصة بالمعاملات المالية غير القانونية ، وأمرًا بتكليف الأطباء والجراحين الذين لم يذهبوا ذلك اليوم لعيادة المرضى بأحد عنابر المستشفى العسكرى بالذهاب الى المخفر ، وقائمة بالأعضاء ولائحة للمجمع العلمى المصرى الذى أسسه فى ذلك اليوم تحقيقا للأغراض التالية :

- ١ - النهوض بالعلوم فى مصر ونشرها .
- ٢ - بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر .
- ٣ - ابداء الرأى فى مختلف المسائل التى تطلب فيها الحكومة المشورة (٢٩) ، وأمرًا بتحديد رواتب كتيبة الانكشارية بالاسكندرية .

وفى ٢٣ أغسطس أملى الجنرال أمرا بأن ينشأ فى القلعة فرنان للخبز ومخزن للطعام ومستشفى لاستعمالها فى حالة الحصار ، وأمرًا بالاستيلاء على ٣٠٠٠ جواد ، وأمرًا فى النشرة اليومية يحرم على جميع القواد الصغار فرض التبرعات على السكان ويأمرهم بأن يمنعوا الفلاحين من تجاوز أنصبتهم من ماء النيل والترع . وقبل ذهابه لبيت البكرى حضر أول اجتماع عقده المجمع العلمى المصرى ، واقترح عليه أن يبحث المسائل الآتية :

- ١ - هل من الممكن تحسين أفران الخبز ، وكيف ؟
- ٢ - هل من سبيل لصنع الجعة بدون حشيشة الدينار (التى لا تنمو فى مصر) ؟
- ٣ - وما هى الطرق التى تستعمل فى مصر لتنقية ماء النيل ؟
- ٤ - وأى الطواحين أصلح من الناحية العملية للقاهرة : طواحين الهواء أم الماء ؟
- ٥ - وهل فى مصر موارد طبيعية تعين على صنع البارود ؟
- ٦ - وما الموقف عموما فى مصر من ناحية القانون المدنى والقانون الجنائى وتدریس القانون ، وهل يمكن ادخال تحسينات يتقبلها الأهالى ؟

وزاد بونابرت على هذه الأسئلة التي تتفاوت من التافه الى الجليل ،
أن جعل المجمع ينتخبه نائبا للرئيس • فاتخذ ، فى تواضع ، المكان التالى لمونج
الذى أصبح رئيسا •

والبون شاسع بين المجمع العلمى المصرى وصلوات مشايخ الأزهر ، ولكنه
لا وجود له عند نابليون بونابرت ، الذى كان أشبه بحرباء بشرى يستطيع
فى لحظة أن ينقلب من المحارب الى المشرع أو العالم أو اللاهوتى • فتجده فى
اليوم التالى ، ٢٤ أغسطس ، يصدر التعليمات فى هدوء لتحويل مسجد الصالحية
الى قلعة ، وفى اليوم التالى يأمر بحرق قرية علقام التى وقع فيها ستة عشر
فرنسيا فى كمين وقتلوا ، ومصادرة ما فيها من ماشية وغلل ، وسوق أعيانها
الى القاهرة رهائن ، ولعل هذه هى الأمور التى كان يقلبها فى عقله وعليه سيماء
التقى والورع ، بينما كان الشيوخ يتلون أورادهم على مسابحهم •

وفى القوم من صلاتهم واتخذ بونابرت مجلسه ضيفا للشرف فى وليمة
للشيخ • وقاوم فى بطولة شعور الغثيان الذى لا بد قد غالبه وهو يرى أمامه شحم
الضأن ، وولغ بيده فى تلال الأرز واللحم وأطايب الطعام المقدمة على صوان
نحاسية مستديرة ضخمة • ثم قدم عصير الليمون ليغسل هذا كله • وتلا
الوليمة عرض عسكري ، ثم سار جميع الضباط تسبقهم فرقة موسيقية عسكرية
ويرافقهم حملة المشاعل فى موكب الى بيت البكرى ، ويقول ديتروا ان هذه
الأفراح اختتمت ب « عرض حقير للصواريخ » •

وأقيمت احتفالات مماثلة فى غير القاهرة من المدن ، وصدرت الأوامر
للقواد الفرنسيين بالمشاركة فيها • وقد راع الجنرال كليبر فى الاسكندرية وهو
يحضر وليمة فى بيت الشيخ المسيرى أن يرى الأرز يقدم فى ثلاثة ألوان اكراما
للجمهورية الفرنسية •

على أن محاولة التقريب بين الفرنسيين والمسلمين تبين أنها محاولة من
جانب واحد لسوء حظ بونابرت ، وخلافا لما توقعه • حدث حين ألبس بونابرت
الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة طيلسانا مثلث الألوان على كتفيه
تكريما له ، أن احمر وجه الشيخ غيظا وألقاه على الأرض ، وتغير وجه بونابرت
غضبا • وأوضح الترجمان فنتور للمشايخ أن الطيلسان قصد به تكريم يرفعهم
فى عيون الفرنسيين ، فأجابوا « لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من
المسلمين » (٣٠) •

وأذعن بونابرت لمشیئة المشايخ فى أمر هذه الطيالس ، ولكنه أصر على
أن يضعوا فى صدورهم على الأقل الشارة المثلثة الألوان (الجوكار) • فتعودوا
أن يشبكوا الشارة قبل أن يدخلوا حجرة بونابرت ويخلعوها حال مغادرتها •

وما لبث الأمر كله أن تنوسى شيئا فشيئا فى هدوء ، ولكن بعد كفاح من بونابرت . فذات يوم راع ضباط أركان حربه أن يروه مرتديا الملابس « التركية » ليستقبل بها الديوان حتى يخجل المشايخ ويحملهم على أن يضعوا الشارة على الأقل . ويروى أن تاليان أقنعه بخلع هذا الزي . ويذكر بورين هذه الواقعة فيقول : (كان يبدو مضحكا فى عمامته وقفطانه ، وغلب عليه الارتباك والخجل فى هذا الرداء الذى لم يألفه ، فبارح الحجرة ليخلعه ، ولم تحدثه نفسه بعدها بالعودة الى هذه المسخرة » (٣١) .

وظن بونابرت أن الاحتفال بالسنة الفرنسية الجديدة فى ٢٢ سبتمبر يتيح له فرصة ربط الشعب المصرى بالعادات والنظم الفرنسية . وكانت اجراءات الاحتفال مهزلة متقنة . وقد وصفها الشيخ الجبرتى وصحيفة بريد مصر من زاويتين مختلفتين تقريبا . بدأ اليوم باطلاق المدافع ثلاث مرات عند شروق الشمس ، ثم دقت الطبول لتدعو جميع الجنود للاجتماع فى ميدان الأزبكية . وفى الميدان رسمت دائرة واسعة أقيم عليها ١٠٥ عمودا (يسميها الجبرتى أخشابا منتصبة) يزين كلا منها العلم الفرنسى ، وترمز كلها لأقسام الجمهورية ال ١٠٥ . وكان يربطها بعضها ببعض « فستون » رمزا على وحدة الجمهورية وتماسكها (ويسميه الجبرتى حبالا) . وفى طرف من الميدان أقيم قوس نصر رسم عليه ريجو معركة امبابه ، وفى الطرف الآخر بوابة كتب عليها بالعربية « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » . وفى الوسط صار أو مسلة (*) تعلو سبعين قدما وعليها نقوش مناسبة بالعربية والفرنسية ، وقد رسم عليها (كما تقول صحيفة بريد مصر) « سبعة مذابح على الطريقة القديمة ، تختلط بها الشموع ، وتستند عليها تذكارات الانتصارات الحربية تعلوها الأعلام المثلثة الألوان وأكاليل الغار » (٣٢) وبينما كان القائد الأعلى وضباطه وكبار موظفيه الإداريين فرنسيين ومسلمين وأقباطا ، وأعضاء اللجنة العلمية يجلسون على منصة مفروشة بالأبسطة الفاخرة ، كانت فرق الموسيقى العسكرية « تصدح بالمارشات الحربية وتعزف الألحان الوطنية وأناشيد النصر المحببة الى جميع الجمهوريين » (٣٣) . أما الجبرتى فيقول : « ثم ان العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفا حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم لا يدرى معناها الا هم ، وكأنها كالرصية أو النصيحة أو الوعظ » (٣٤) . ولم تكن هذه العظة سوى اعلان من بونابرت قرأه أحد ضباطه واختتم بهذه الكلمات « ان أربعين مليوننا من اخوانكم المواطنين

(*) يقول نقولا الترك « وأما أهالى مصر فكانوا يقولون ان هذه شارة « الخازوق » الذى أدخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا . واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر . وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح » . ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ص ٤٥ .

يفكرون فيكم ، وكلهم يقول « سيكون لجهودهم ودمهم الفضل فيما نستمتع به من عميم السلام والأمن والرخاء وثمرات الحرية المدنية » (٣٥) . وان المرء ليساوره الشك في أن مثل هذه الملاحظات أجمع عليها الكل حقا .

وتلا الاعلان هتافات بحياة الجمهورية ، ونشيد طويل جدا ألف خصيصا لهذه المناسبة (*) ، ثم وليمة أولها بونابرت لمائة وخمسين ضيفا . وكان للعوائد الفرنسية هذه المرة الصدارة على العوائد المصرية ، وانتقم المضيف هذه المرة من الشيوخ ، لأنهم اضطروا للأكل بالشوكة والسكين . وكان نخبان من الانتخاب يلتقان النظر . قال مونج : « لنشرب نخب النهوض بالفكر الانساني وتقسم العقل » وقال بونابرت : « لنشرب نخب عيد الجمهورية الفرنسية الثلاثمائة ! » وهو الذي كان مزمعا أن يدفن هذه الجمهورية بعد ست سنوات .

ثم تلا ذلك سباق للخيل بعد الظهر لم يذكره الاخبارى العربى ، ربما لأن الجواد الرابع فيه كان فرنسيا . يقول : « وعند الغروب أوقدوا جميع القناديل . وعملوا حراقة بارود وصواريخ ونفوط وشبه سواقي ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل . واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار » . ويمضى الجبرتى - على عكس صحيفة بريد مصر - فيصف الحالة فى صباح الغد : « ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبار وتحت جماعة ملازمون الاقامة عنده ليلا ونهارا من عساكرهم لأنه شعارهم واشارة الى قيام دولتهم فى زعمهم » (٣٦) .

كذلك رتب بونابرت اطلاق بالون فى الجو لهذه المناسبة ، ولكن «كونتية» كبير طياريه لم يسعفه فى الوقت المناسب ، ولم يطلق بالون خال من الركاب الا فى أول ديسمبر - وخال لأن أحدا لم يرد التطوع بطيران قد يحط به وسط خيام البدو . وحالف العرض سوء الطالع ، فاشتعلت النار فى البالون ، وهبط الجنود (أو الدائرة كما يسميها الجبرتى) وهو يبعثر كمية من المنشورات المطبوعة . وشعر المصريون أنهم خدعوا . يقول الجبرتى - وهو شاهد عيان - فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة . . . بل ظهر أنها مثل الطائرة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح » (٣٧) . واغتاز كونتية من هذا الأثر الذى أحدثه اخفاقه - ومعلوم أن بعضهم عبر المانش عدة مرات بالجو - فبذل محاولة أخرى بعد حين . ويقول الجبرتى : « وصعدت (الطائرة) الى الأعلى

(*) الكلمات لبارسيفال جرانميزون ، والموسيقى لريجى .

ومرت الى أن وصلت تلال البرقية وسقطت . ولو ساعدها الريح وغابت عن
العين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة بزعمهم ، (٣٨) .

وفشل اطلاق البالونات فشلا ذريعا بوصفه وسيلة للدعاية . ولا عجب
فى هذا ، فالشعب الذى ابتكر قصص ألف ليلة لا يتخدع الا بسحر أكبر
من هذا .

ولم تخفق مهارة بونابرت البهلوانية فى التأثير على المصريين فحسب ،
بل ان « مالو » ، العالم الطبيعى الذى وكل اليه تنظيم عرض ٢٢ سبتمبر
الوطنى ، وجد مهمته « مهدئا هزيلا للكآبة التى رانت على حيننا » . (وكان يذوب
شوقا لحطيبته الألمانية الموجودة فى جنسن ، والتى لم يصله منها سوى خطاب
واحد فى ثلاث سنوات) . يقول « فى هذه الفترة كان هذا الوباء النفسى
ينتشر بسرعة فى الجيش . وكنا قد بدأنا نفیق من أوهامنا عن موقف السلطان
من الحملة ، ولم نر فى المستقبل أملا ولا راحة للنفس . وهكذا احتفلنا بالعيد
الأول من فنديمير بلا حماسة » (٣٩) .

٤

حين وصل الجنود الفرنسيين القاهرة أول مرة فى يوليو ١٧٩٨ بدت
المدينة خاوية على عروشها ، لا يرى فى شوارعها الا السارقون المتلصصون .
أما التجار الأغنياء من أهلها الذين لم يهربوا فقد تحصنوا فى بيوتهم . وأخذ
غيرهم ، ومنهم كثيرات من زوجات المماليك وجواريتهم ، يضربون فى الريف
هروبا من شياطين الفرنسيين داخل المدينة ، والبدو خارجها . ولا بد أن القاهرة
كلها بدت كبيرة الشبه بمدينة الموتى الغربية المترامية ، التى ما زالت تنبسط
على حافتها الشرقية - تيهها من الدروب الضيقة الخاوية ، لا حياة فيها الا أن
تكون حياة الكلاب والقطط الضالة ، ونسوة عجائز مقنعات يمضين خفية لقضاء
مهمتهن الغامضة ، وجنازة تسير من الحين للحين يحمل فيها المشيعون الميت
المكفن على نعش فى خطوات سريعة .

أما أول العناصر التى طلعت الى النور بعد وصول الفرنسيين فهى تلك
التى يتوقع الانسان طلوعها ، وهم بضعة من النزلاء الأوربيين الشاكرين
للفرنسيين انقاذهم اياهم ، وباعة متجولون يتجرون فى كل سلعة حتى البغايا .
وقد نجح الجاويش فرانسوا ، ومن صفاته المبادرة بتعرف أحوال البلاد ، فى
أن يتلقى دعوة وجهها اليه صيدلى ايطالى للافطار فى الساعة الثامنة من صباح
٢٦ يوليو . وكان الافطار يتألف من سلطانية كبيرة من القهوة المخلوطة بلبن
العنز والويسكى (٤٠) . وشهادة فرانسوا هذه خليفة بأن تدعم نهائيا رأى

القائل بأن السلف القديم للقهوة الغالية (أى الفرنسية) قدمه ايطالى لفرنسى بالقاهرة فى عام ١٧٩٨ . وبعد أن أطلقت قهوته المعطرة لسانه ، راح يكشف لفرانسوا عن حقائق الحياة فى مصر ، قال : « ان الجميع خائفون . ولا يدور حديثهم الا عن المتاعب والفقر المنتشر ، والسرققات ، والقتل . فليس هناك أمن — لا على الحياة ولا على الأملاك . انهم يسفكون دم الانسان كأنه ثور ، ورجال البوليس فى جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون وينفذون أحكامهم فورا دون استئناف . وهم يسيرون مصطحبين الجلادين ، وما ان يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين » (٤١) . أما الموقف فى أمر النساء فسيىء جدا . على أن هناك مثلا تركيا يمكن الاهتداء به ، هو : خذ المرأة البيضاء لعيونها ، والمصرية للمتعة .

وكان موقف الفرنسيين فى أمر خمورهم محزنا ، فانظر الى هذه الاستغاثة المؤلمة التى شغلت ست صفحات مطبوعة وجهها الكولونيل سافارى ياور ديزيه فى ٢٤ يوليو الى مندوب الاسكندرية . فقد عدد دوق روفيجو العتيد الأمتعة الشخصية المطلوبة لديزيه وضباطه (ومنها متعلقات الكولونيل راب ، وهى بقرة ، وحقيبة كبيرة ، وملة سريره) ثم قال : « اذا استطعت أن تشتري زجاجات من الروم الجيد فارسلها . . . وليس عندنا طباخ ، فان وجدت طباخا فأتنا به . . . اننا نعيش هنا أسوأ مما عشنا فى أى وقت . ليس عندنا قطرة نبيذ أو خمر . . . تذكر : نبيذ ، وخمر ، وروم . كائن بنا نفتقر الى الشراب هذا الافتقار الشديد منذ قرون . والقليل الذى يوجد منه هنا ردىء غاية الرداءة ، فاحش الغلاء ، يستحيل العثور عليه . . . وداعا ، اننا فى انتظارك . فابذل جهدك . وتذكر قبل كل شئ أنه لن يكون لدينا أى نبيذ أو خمر الا ما تأتينا به ، وأن أربعة عشر صندوقا خشبيا من الصناديق الستة عشر تخص الجنرال بونابرت . فاستحلفك بالله أن تجلب بعض النبيذ والخمر من الناقلات . ان الجيش كله مصاب بالاسهال بسبب ماء الشرب . فبحق الله أسعفنا بالنبيذ والخمر والروم ، ولا تنس أمتعة الجنرال بليار ! » (٤٣) .

ولكن صلاة سافارى الظامئة للخمر لم تصل قط الى يد من وجهت اليه : فقد وقعت فى يد بعض البدو ، فنقلوها الى البريطانيين الذين طبعوها مع غيرها من الرسائل التى استولوا عليها فى الطريق ليثبتوا للعالم أن الجيش الفرنسى مقضى عليه بالهلاك . ومع أن نقص النبيذ والخمر قد خف بعض الشئ، بمضى الوقت بفضل المهارة الفرنسية ، فانه ظل خطيرا طوال الاحتلال وكان عاملا كبيرا من عوامل هبوط معنوية الجيش .

ولم يمض طويل وقت حتى أدرك المصريون أن الجندى الفرنسى — على خلاف ما صورته لهم ابراهيم بك من أنه شيطان طول أظافره قدم — كان فتى

دمثا طيب القلب (اذا لم يستفز) ، غير فارغ القامة ، رث الثياب ، قليل الاعتداد بكرامته ، مستعدا لانفاق راتبه ، ظمآن للشراب . يقول الملازم فرترای الذى كان يخرج للفرجة فى شوارع القاهرة كل يوم ، كان جنودنا يسرون فى الشوارع كأنهم فى معسكر بفرنسا . ويؤيد الجبرتى هذه الشهادة هذه المرة فيقول : « ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعديل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأعلى ثمن . فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسه ، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم . . وفتح غالب السوق الحوانيت والقهوى » (٤٤) .

وفى الأسبوع الأول من سبتمبر أرسل الجنرال كليبر من الاسكندريه ، بناء على طلب بوناپرت جميع الموظفين المدنيين ، الذين لم تكن لهم بهم حاجة ماسة . ولم يكن بينهم المهندسون والعلماء والكتبة فحسب ، بل التجار المغامرون الذين رافقوا الحملة طمعا فى الربح . وقد أشار اليهم كليبر فى خطاب كتبه لبرتييه بقوله : « ذلك الدود الكثير الذى يتبع جيوشنا كما يتبع حيوان القرش المراكب ، والذى يقصر دونه الوصف » (٤٥) . وقد فتح بعض هذه الدود الحوانيت فى القاهرة لسد حاجة الزبائن الفرنسيين . ويصف الجبرتى عادة جديدة أدخلوها فيقول : « وفتح بعض الافرنج البلديين بيوتا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم فى بلادهم . فيشتري الأغنام والدجاج والخضارات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم ويطبخه الطباخون ويصنعون أنواع الأطعمة والحلاوات . . . وفى الوسط دكة من الخشب وهى الخوان التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى ، فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعلونه وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم » (٤٦) .

وفتح أحد العبيد المالطين الذى حرره الفرنسيون مؤسسة تختلف قليلا عن هذه الحوانيت . كانت مقاهى القاهرة - الى الوقت الذى بذل فيه المالطى هذه المحاولة الريادية - أقرب الى الحوانيت منها الى المقاهى بمعناها المفهوم فى الغرب . ففتح هذا العبد المعتوق ، القادم من حلب ، قهوة . يقول الجبرتى انه « جمع الناس للجلوس فيها والسهر حصّة من الليل . . . فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلى والحلاعات ، وعم ذلك جهات تلك الحطة » ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والحلاعة وتلك هى طبيعة الفرنسيات . . . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط (الذى كان المالطى ترجمانه) ومعه زوجته وهى من أولاد البلد المخلوعين أيضا ، (٤٧) .

ولم يكن الضابط الفرنسى الذى يشير اليه الجبرتى هو الوحيد الذى اتخذ

له زوجة مصرية . فقد درج الفرنسيون في مصر ، سواء أكانوا متزوجين في بلادهم أم عزابا ، على الزواج بفتيات مسلمات ، وهو زواج صرح الشيوخ بأنه شرعى ما دام العريس قد نطق بالشهادتين .

أما الفرنسيون الزاهدون في الزواج ، الذين لا يصبرون على العزوبة ، فكانت أمامهم وسائل أخرى أكثرها غير واف بالغرض . فقد رافق الجيش الى مصر نحو ٣٠٠ امرأة أكثرهن تسلل على السفن ، ولكن الحسان القليلات منهن كن اما مراهقات ، واما حكرا للبعض . وكانت البغايا من السكان كثرات رخيصات ، ولكنهن - فيما خلا قلة من صغيرات السن - كن غير مغريات ، قبيحات ، مصابات بالأمراض . وقد حل بعض كبار الضباط مشكلتهم دون أن يبذلوا جهدا يذكر ، ومنهم الجنرال بيريه الذى كان فى وسعه أن يكتب لصديقه الكاتب لوجواي « لقد ترك لنا الأمراء المماليك بعض النسوة الأرمنيات والكرجيات اللطيفات اللاتي استولينا عليهن لصالح الأمة » (٤٨) . (ترى ماذا كان رأى مدام بيريه فى هذا الكلام حين قرأته فى مجموعة الرسائل التى ضبطها الانجليز ونشروها) . ويقول الجبرتي ان الجوارى السود كن أشد رغبة واستعدادا حتى من الأرمنيات أو الكرجيات . « وأما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن اليهم أفواجا ، فرادى وأزواجا ، فنظطن الحيطان ، وتسلقن اليهم من الطيقان ، ودلوهم على مخبات أسيادهن ، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك » (٤٩) . وقد لاحظ الجبرتي وغيره من الأخباريين العرب عموما غرام الفرنسيين بالنساء ، ولعلمهم ما كانوا يلحظونه لو كان الفرنسيون يؤثرون الغلمان . والعجيب أنه ليس هناك دليل على أن الفرنسيين فى مصر قلدوا العادات المحلية فى هذه الناحية ، وهو دليل على أن فرنسا طرأ عليها تغير كبير منذ ذلك الحين .

وقد جر ولع الفرنسيين العجيب بالنساء استهتارا خطرا بالآداب العامة ، كما يقول الجبرتي الصارم ، سببه أولا هذه الحرية المفرطة التى أباحوها لنسائهم .

يقول الجبرتي : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن على الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيين الى مصر مع البعض منهم نسائهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش . فتدخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن ، وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام ، وخشية عار ، ومبالغة

في اخفائه . فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا في أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنته من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهم بزي نسائهم وأجروهم على طريقتهم في كامل الأحوال . فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوزة الفرنسيين ومن والاهم ، وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن — ولو شتمته أو ضربته بتأسومتها — فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن ، واختلسن عقولهم ، ليل النفوس الى الشهوات ، وخصوصا عقول القاصرات ، (٥٠) .

ومع أن « الوباء النفسى » الذى أشار اليه مالمو واصل انتشاره بين القوات الفرنسية في مصر ، فإن العسكريين منهم في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة حاولوا الصبر على هذا الموقف وتحسينه قدر الاستطاعة ، والاستقرار في نظام لا يختلف عن نظامهم في أرض الوطن الا أقل اختلاف . ولو أخذنا نموذجا — كيفما اتفق — من الاعلانات التى تنشرها صحيفة « بريد مصر » لتبيننا كيف نقلت قطعة من باريس الى القاهرة : « فى نهاية الشهر الفينيسى ، فى بيت المواطن الطيب فولمار ، يوجد مصنع للمشروبات والخمور بجميع أنواعها والطافيا والمشروبات الكحولية وغيرها من السلع الأوربية الطراز » (*) ، « المواطنون فور ونازو وشركاؤهما ، يصنعون جميع أنواع المشروبات فى ميدان بركة الفيل قرب المستشفى رقم ٢ بأسعار معتدلة » ، « حمامات فرنسية . خلف ميدان بركة الفيل » ، « تبغ فرنسى من جميع الأنواع مصنوع فى بيت محمد كاشف بشارع بتى توار ، أمام المطعم الميلاى » ، « حانوت القبعات الفرنسية يحيط المواطنون الفرنسيين بأنه أنشأ مصنعا للقبعات خلف مكتب البريد » . « كوتشينة جميلة تباع فى مطبعة الجيش » . « فور وجيشار ، وشركاؤهما ، صانعون وتجار تجزئة لجميع أنواع المشروبات والخمور المستوردة والنبىذ والقهوة والسكر والعطور . الخ . الخ » (٥١) (ويبدو أن المواطن فور الذى كان شريكا للمواطن تازو أول الأمر قد غير الشركة وتوسع فى تجارتها) .

ولم تكن هذه المتع المرتجلة ، المذكورة للفرنسيين بوطنهم ، وقفوا على العسكريين في القاهرة أو المدن القريبة منها ، بل استمتع بها أفراد الوحدات العسكرية فى أماكن نائية . فيؤكد لنا الجاويش فرانسوا العسكري فى بلبيس أن الكانتينات زودت بكل ما يشتهي الانسان ، من الفطائر الفرنسية الى النبيذ

(*) ويقول نقولا الترك « وخرجت النساء خروجا شنيعا مع الفرنسيات ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لا ترضى رب السماوات » .

وعرقى البلح ، فضلا عن خادمت الكانتين . أما من يميلون للألعاب الرياضية فكانوا يستطيعون ممارسة ألوان مختلفة منها . ولكن هوايتهم المفضلة كانت صيد النعام ، ويقول فرانسوا ان أفراد الجيش كله تقريبا كانوا يضعون ريش النعام فى قبعاتهم (*) . وكانت تنظم للجنود حتى الرحلات الى الأهرام . (وقد حظرت عليهم الزيارات الفردية لها ، لأن وجود البدو فى المنطقة جعلها غير مأمونة) . وقد وجد الجندي ملر « أن من الأمور التى يتعذر على المرء فهمها أنهم استطاعوا رفع هذه الأحجار الضخمة الى هذا الارتفاع الشاهق ، (٥٢) . وخط الجاويش فرانسوا اسمه ومكان ميلاده ورتبته وكتيبته وتاريخ زيارته للهرم الأكبر على جدار حجرة الملك (**).

على أن الجنود ظلوا تعساء برغم هذه الملاهى ، واشتد حنينهم للوطن بسبب انقطاع وصول الرسائل اليهم من ذويهم نتيجة الحصار البريطانى ، وقد أعلن هذا المرض عن نفسه فى البعض بأعراض بدنية لم تكن كلها مفتعلة ، وأفضى البعض الى ملانخوليا قاتلة ، ولكنه اتخذ فى الكثرة الغالبة صورا أهون - كالتذمر والتبرم بنفسان عن نفسيهما من الحين للحين بالنكتة اللاذعة . وقد جر التذمر الذى اقترنت به البطالة والشعور الكاذب بالأمان تراخيا عاما فى النظام كما يحدث عادة بين قوات الاحتلال . وأهملت نوبات الحراسة ، ووجد صغار الضباط وصف الضباط أن حمل المسدسات أخف وأكثر أناقة من حمل البنادق أو القربينات (بل سار بعضهم بلا سلاح على الإطلاق) ، وترك الجنود مهمة تنظيف سلاحهم للمخدم الوطنيين . وانتشرت حوادث اغتصاب أموال الأهالى ، وبيع أملاك الحكومة طمعا فى الربح الشخصى ، بل السرقة والقتل ، وذلك على الرغم من الاجراءات العنيفة التى كانت تتخذ ضد مقترفى هذه الحوادث .

وأخطر من هذا ارتفاع نسبة المرضى فى الجيش . ويؤخذ من تحليل لأحوال القوات الفرنسية الصحية فى ١٨ أغسطس ١٧٩٨ أن ١٠ من الجنود على الأقل - و ١٥ ٪ فى فرقة رينييه - كانوا نزيلي المستشفيات . ولم يأت ٢٢ أكتوبر حتى ارتفع المتوسط فى الجيش كله الى ١٥ ٪ ، وهذا كله كان قبل غارة الطاعون . وبالطبع لم يظفر كثير من المرضى حتى بمكان فى المستشفيات ،

(*) كتب نابليون يقول « ان النعمة لها جميع خصائص ربيب الصحراء . فهى كبيرة الحجم غير متناسقة الأعضاء عريضة العظام . وفيها بعض الشبه بالجمال (الحملة على مصر والشام ، فى رسائل نابليون الأول ص ٣٨٩ ، الفصل ٢٩) .

(**) لم يستطع المؤلف تقصى أصل الاعتقاد الشائع بأن جنديا فرنسيا اطار أنف أبى الهول بالرصاص . وحدث هذا جائز بالطبع ، وان كان غير ميسور الا بمدفع ميدان ، ولكن الأرجح ان منشأ القصة هو من نوع المصدر الأدبى الذى ابتكر قصة جورج واشنطن وشجرة الكرز ، والصبي الهولندى والسد البحرى .. الخ .

فقد كانت مكتظة بمن فيها ، ينقصها الموظفون الضروريون والأجهزة الأساسية في كثير من الأحيان ، على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها ديجنيت ، ولارى ، وغيرهما من زملائهما (*) . وأكثر الأمراض تفشيا كانت الدوزنتاريا والرمد الحبيبي ، وهو شر الأوبئة المصرية . وكان الرمد يعزى عادة الى هواء الليل ، وهو يفضى الى العمى اذا لم يعالج علاجاً وافياً . كتب الكولونيل لوجيه في يوميته في أكتوبر يقول « ليس أضر من النوم في العراء في هذا الفصل من السنة بمصر . وهطول المطر في فرنسا مهما كان قويا لا يسبب لك البلب الذي يسببه ندى الليل هنا . ومن ثم ففى وسعك أن تثق بأنه في كل زحف يستغرق أكثر من ثلاث ليال يتعطل ثلث الرجال فترة بسبب اصابتهم بالرمد (٥٣) . وفي أواخر سبتمبر ١٧٩٨ كان أكثر من ٥٠ شخصا من ١٧١ ضابطا وجنديا في وحدة الفرسان العسكرية بالصالحية مصابين بالرمد ، وقد طلب قائدنا مزيدا من سلفات النحاس لعلاج المصابين . وفي الصعيد ارتفعت الاصابة بالعمى ونصف العمى - لأن قلة من المرضى هي التي شفيت شفاء تاما - الى نسبة مخيفة . كتب بونابرت الى ديزيه في ٢ نوفمبر يقول « اذا لم يتجاوز عدد مرضاك ثمانمائة أو تسعمائة - ، وكانت قوات ديزيه كلها أقل من ٣٠٠٠ رجل (**) » .

وليس لدينا احصاءات عن الاصابة بمرضين آخرين من أمراض الاحتلال العسكري المشهورة ، وهما الزهري والسيلان . ولكن الذين يشيرون اليهما اطلاقا يجمعون على أنها نسبة عالية . وقد لجأ الفرنسيون في كفاحهما أحيانا الى وسائل يغلب عليها العنف .

كتب الجنرال ديجا ، وكان حاكم القاهرة آنئذ ، الى بونابرت في عام

(*) كثيرا ما وجه اللوم على أسباب النقص الى المديرين المدنيين الذين كانوا يديرون المستشفى بوصفه عملا نجاريا . وقد قدم المواطن « روتى » في خطاب مؤرخ ١٤ نوفمبر ١٧٩٨ احتجاجا قويا على هذه التهم : « يجب بمقتضى شروط عقدنا أن أتسلم ٣٠٠٠٠ فرنك في الشهر ، ولكنني لم أتسلم في الشهر الماضي سوى ١٨٠٠٠ ، وفي هذا الشهر سوى ٥٠٠٠ رة ٠٠٠ (ولكي أحصل على طلباتي) اضطررت للالتجاء الى حسابي الخاص ، واستدنت ٠٠٠ وباختصار جاوزت كثيرا طاقتي ومواردى . ولست مسئولا لا عن أمان اللحم المنقول الى رشيد ، ولا عن تكاليف نقله ، ومع ذلك فحين توقف توريد اللحم تكفلت به ٠٠٠ ورغم هذا أصبحت هدفا لأشد ضروب اللوم اهانة . فالكمل على حق وأنا وحدي المخطيء مع اننى الوحيد الذى لا يجد شيئا يلوم نفسه عليه » . (رسائل نابليون بونابرت غير المنشورة ، رسمية وشخصية : مصر ، ٢ ، ج ١٣ - ٣٧) .

(**) الرمد المصرى ، أو التراخوما ، أو التهاب الملتحمة الحبيبي ، مرض معد يسببه فيروس دقيق واسع الانتشار في مصر . وهو وان كان سهل الشفاء اذا عولج في أول الأمر الا أنه يسبب العمى أو الاضرار البالغ بالبصر اذا أهمل . وما زال من المشكلات الصحية الكبرى في مصر .

١٧٩٩ يقول « ان البغايا وباء يتفشى فى مساكن الفرنسيين ، ولا بد لابعادهن من اغراق من يقبض عليهن فى الثكنات ، . وكان تعقيب بونابرت فى الهامش : « كلف أغا (الانكشارية) بهذه المهمة » (٥٤) . ويؤكد تاريخ قديم للحملة المصرية (٥٥) أن ٤٠٠ مومس قطعت رعوسهن وخيطن فى غرائر وألقين فى النيل يأمر الأغا . ويغضى المؤلفون عن مسئولية بونابرت عن هذا العمل الفظيع ، فهو فى رأيهم لم يفعل أكثر من اصدار الأمر للأغا بجمع النساء وعلاجهن فى المستشفى . وقد غضب حين علم كيف أسىء تفسير تعليماته . ولكن الوثائق تنقض هذه المحاولة لتبرئته نقضا واضحا .

وكان هناك أخطار أخرى من أخطار الاحتلال ، وآثارها أقل فتكا ولكنها أكثر دلالة على طبيعة البلاد . ففي القاهرة مثلا انتشرت حوادث المرور الناشئة عن زيادة سرعة الحمير انتشارا يبرر ذكرها فى أمر يومى نبه جميع الفرنسيين الذين يركبون الحمير الى « تخفيف سرعتهم وهم يركبون فى الزحام » (٥٦) . والواقع أن الحمار المصرى كان أكثر الأشياء غرابة فى مصر بعد الأهرام والكرنك ، وقد حجب الزائرين فيه دائما بتعبيره الودى (الذى لا يشاركه فيه الجمل ولا الانسان) وأدهشهم بسرعته . وكان من المناظر المبهجة المضحكة أن يرى الانسان مصريا طوله ستة أقدام تعبت الريح بجلبابه يعدو على حمار رشيق خفيف الحركة . وكانت الحمير بمثابة المركبات للقاهرة فى عام ١٧٩٨ ، يحبها المدنيون والعسكريون على السواء . يقول الجبرتى « فان للفرنسيين بذلك عناية عظيمة ومغالة فى الأجر بحيث ان الكثير منهم يظل طوال النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجرى به مسرعا فى الشارع ، وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويجهدونهم فى المشى والاسراع وهم يغنون ويضحكون ويتمسخرون ويشاركهم المكارية فى ذلك » . ولما كان أعضاء اللجنة العلمية معروفين بين الجنود بـ « الحمير » ، فقد سموا الحمير « العلماء » ، والبغال « أنصاف العلماء » .

والفرنسى لطيبته الأصيلة يتغلب بسهولة على نوبات الكآبة بالخم والغناء والسخرية من السلطان ، ويسلم الجبرتى بأن الفرنسيين « من طبعهم فى الشرب أنهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس فان زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم ، ومن سكر وخرج الى السوق ووقع منه أمر مغل عاقبوه وعزروه » (٥٨) . فاذا اجتمعوا فى كانتيناتهم ومطاعمهم ومفاهيمهم راحوا ينفسون عن ضيقهم بكئوس قليلة ، وينشدون معا الأناشيد الوطنية وغيرها من الأغاني الخفيفة ، ويفصلون فى مسائل السياسة والاستراتيجية العليا ، ويصبون ازدراءهم على رؤساء التموين ومديرى المستشفيات والعلماء والحكومة ، ويتبادلون الشائعات عن مخابىء النبىذ الخيالية أو كنوز الممالك التى اكتشفت ، ويروون فى تواضع ما قاموا به من أعمال فى الحملات الحربية الماضية ، ويعقبون على العادات

المصرية وعلى كفاية قائدهم العسكرية وحياة الحب التي يحياها ، ويقولون ان فى وسع الجنرال كفاريللى - وكان ذا ساق خشبية - أن يبتهج لأن له رجلا أخرى فى فرنسا ، وأن العلماء مسئولون عن الحملة كلها لأنهم حفزوا الحكومة عليها بدافع الفضول العلمى ، وأن الجنرال بونايرت له علاقة غرام بابنة الشيخ البكرى (التى ستحل محلها مدام فوريه التى لقبوها « كليوبطرة » - ولكن الحديث عنها كان بعد حين) ، وأن بين الشيخ البكرى وأغا الانكشارية خصومة دموية على « هيلانة الجميلة » . ويعنون بها غلاما جميلا من الماليك(*) . وكانت صحيفة « بريد مصر » تملهم بأنباء لا يعتمد عليها كثيرا وان غلبت عليها الصفة الرسمية ، ومع الأنباء ملاحظات غريبة عن طرافة العادات المصرية ، وعبارات وطنية بليغة .

ورغبة فى رفع معنوية الجنود والاحتفاظ بملاهيهم فى نطاق محدود أمر بونايرت العلماء الفرنسيين بأن ينظموا مسرحيات هواة (كانت أدوار النساء فيها يلعبها الرجال فى الغالب) ، وأقام مستشفيات للناقهين ، وأمر بأن تقف فرق الموسيقى التابعة للوحدات العسكرية كل ظهر أمام المستشفيات العسكرية وتعزف « الألحان التى تشرح صدور المرضى وتذكرهم بأجمل لحظات حملاتهم الماضية (٥٩) » ، (**) وفى أواخر نوفمبر رخص لزميل مدرسته القديم دار جفيل بأن يؤسس ناديا ، لعله كان أول ناد للقوات المسلحة فى التاريخ . وقد سمي « التيفولى » تذكيرا بملمى شعبى فى باريس . وكان النادى يقدم فرقة للموسيقى الراقصة (وان لم يكن فيه من الراقصين والراقصات الا القليل) وموائد للبلليارد وغيره من الألعاب ، ومكتبة ، والصحيفتين اللتين يصدرهما الجيش ، والقهوة ، والطعام الأوربى ، وحديقة ملاه ، وغير ذلك من أسباب الراحة التى ألفها الفرنسيون فى وطنهم . كتبت صحيفة بريد مصر فى وصف الافتتاح الكبير « ان أكبر ما أثار اعجاب المشاهدين وابتهاجهم . . هو وجود خمس عشرة سيدة أو عشرين فى ثياب فاخرة بعض الشيء - وهو مشهد جديد تماما فى مصر » (٦٠) . يقول الملازم فرترائى ان أهم عيب من عيوب التيفولى (وهى كثيرة) صعوبة تنظيم الحفلات الراقصة لقلة السيدات . ثم يختتم كلامه قائلا : « لذلك لم تكن حفلاته متألفة قط » (٦١) .

(*) أفضى النزاع على هذا المملوك (وكان من ماليك مراد بك من قبل) الى حرب استمر اوارها بين أتباع الشيخ البكرى وأتباع الأغا . وقد انتهت بحكم شبیه بأحكام سليمان أصدره بوسيلج : ويقضى بأن يحتفظ البكرى بالغلام نظير تنازله للأغا عن عقار قيم .

(**) كتب فى سائت هيلانه يقول « ان الطبول تحكى صوت المدافع ، وهى خير الآلات الموسيقية » (رسائل نابليون الأول ٣١٣ - ٣١) .

ولا وجه لاتهم بونا برت باهمال معنوية جنوده ، فهو لم يأل جهدا فى علاج حنينهم للوطن بوسائل بارعة ، كالسرح بلا ممثلات ، والجعة دون حشيشة دينار . وهذه الوسائل والحيل وان أعانتهم بعض الشيء ، الا أن نجاحها فى ازالة الكآبة التى رانت عليهم جميعا كان مؤقتا . وظل الجنود الفرنسيون الى آخر يوم من أيام مقامهم بمصر لا يحلمون الا بشيء واحد : هو العودة الى الحياة الأوربية الناعمة .

الفصل السادس

المجمع العلمى والأزهر

١

من التجنى على الحقيقة أن يزعم زاعم أن العلماء والفنانين الملحقين بجيش بونابرت لم يشاركوا الجنود رغبتهم الشديدة فى العودة الى أرض الوطن .
ففى صيف عام ١٧٩٩ ، حين انتشرت بينهم شائعات عن قرب رحيل بونابرت الى فرنسا ، اشتد قلقهم واضطرابهم . من ذلك أن الشاعر بارسيفال جرانميزون، الذى ذهب بصوابه التفكير فى أنه سترك فى مصر بعد سفر بونابرت ، ركب فى اثره طوال الطريق من القاهرة الى ساحل البحر ، وكان لا محالة سابحا فى الماء وراءه لولا أنه أخذ على ظهر سفينته . ومع ذلك نجد فى أكثرهم روح مغامرة قوية فاقت فى تعويضها ما كان ينتابهم بين الحين والحين من نوبات الحنين الى الوطن . أما العاجزون عن التكيف من أمثال بارسيفال فكانوا استثناء للقاعدة .
وكان أعضاء اللجنة العلمية الفنية - بخلاف عامة الجند - على وعى بهدف ايجابى يستطيعون تحقيقه فى مصر . فهنا فرص لا حد لها ، وكل شىء ينتظر أن يكشف ، وكل شىء ينتظر أن يصنع ، . وأحس العلماء والتكنولوجيون والفنانون والأطباء حمى المعركة ، والشعور المرهف بالحياة ، اللذين لا يعرفهما الجنود الا فى القتال ، فى كل لحظة تقريبا من لحظات مقامهم بمصر .

على أنهم لقوا عنتا شديدا فى الأيام القليلة الأولى بعد نزولهم بر مصر . فكان عليهم - باستثناء حفنة من كبار أعضاء اللجنة - أن يدبروا أمورهم بأنفسهم فى هذه الفوضى الشاملة . ولم يبرح الاسكندرية منهم مع بونابرت فى ٧ يوليو سوى مونج وبرتولليه . وقد ذكرنا فى فصل سابق ما أصابهم من محن وهم على ظهر السفينة «لوسيرف» أثناء القتال الدائر فى شبراخيت .

وأبحر عشرون آخرون الى رشيد بعد أسبوع . أما الكثرة فبقيت فى الاسكندرية الى أوائل سبتمبر . وكانت معيشتهم تتفاوت حسب رتبهم المقابلة لرتب العسكريين . ولا يبدى المواطن جولوا ، وهو أحد صغار المهندسين ، أى اعجاب بالمسكن الذى أعد له ولزملائه فى رشيد . يقول : ان البيت كان يموج بالحشرات ويحفل « بالقمامة والقاذورات المقرزة للنفس » (١) ولم توزع عليهم جرايات ولم يعين لهم طبّاخ . لذلك نظم جماعة العلماء فى رشيد مطبخا مشتركا ، وتناوبوا شراء حاجاتهم وطهى طعامهم . وما لبثت أن عادت وسائل الراحة النسبية ، فوصلهم الخبز واللحم وجرايات النبيذ ، وأمكنهم استئجار الخدم .

ومع أن كثيرا من أعضاء اللجنة كلفوا طوال مقامهم بمصر - لا سيما فى أوائل هذه الفترة - بواجبات ادارية لا تتصل بمهنتهم التى درّبوا عليها الا أقل اتصال ، فقد أدوها عن طيب خاطر . فاستخدم مونج وبرتولليه فى « المهام الادارية » دون غيرها ، وكانا قد ارتقيا بفن مصادرة الأملاك الى مستوى العلوم الدقيقة أثناء تجربتهما فى ايطاليا ومالطة ، وراحا يخرججان كنوز الممالك المخبوءة ويضعان الخطط لفرض الغرامات على الأغنياء . وليس لدينا دليل على أنهما كرها هذا العمل ، فقد ظلت سمعتهما العلمية سليمة وان أصبحتا فى حقيقة الأمر موظفين . أما فى الاسكندرية فقد وجد الجنرال كليبر عملا مناسباً للمهندسين المدنيين والعسكريين ، ورسامى الخرائط ، وغيرهم من الفنيين الذين كانوا يؤلفون معظم القوة الفرنسية بالاسكندرية . وبنوا الثكنات وابتكروا نوعا جديدا من الأفران لصنع قنابل المدافع العالية الحرارة ، وصنعوا آلة عائمة لاطفاء الحريق ، وقاموا بالمسح الطبوغرافى ، ودرسوا فكرة قناة تمتد بين النيل والاسكندرية . ومع أن كليبر كان على وجه العموم لا يستخدم المدنيين كثيرا ، فانه سرعان ما أصبح ينظر الى « حميره » العلميين نظرتة الى نفر لا غنى له عنهم ، وكره أن يسمح لهم بالرحيل حين دعوا الى القاهرة ، واذ كان انسانا رقيقا عطوفا ، فقد حاول - دون توفيق - أن يساعد الذين أسقمهم الحنين الى الوطن ، وعجزوا فى الغربية عن التكيف ، فى العودة الى وطنهم . كتب الى بونابرت يقول : ان المعمارى نورى « عليل الجسم والعقل » يريد العودة الى فرنسا ، وكذلك الفلكى كنو ، والأثرى بورلييه ، والجراح دوبوا الذى « لا يننى عن التفكير فى أطفاله الأربعة الذين ماتت أمهم وتركهم فى باريس » (٢) .

قبل وصول الفرنسيين الى الاسكندرية لم يكن قد طبع فى مصر سطر واحد . وجلب بونابرت مع حملته مطبعتين . وظلت أحدهما - وكان يقوم عليها المستشرق مارسيل وواحد وثلاثون موظفا - بالاسكندرية الى نهاية عام ١٧٩٨ (وان سبقها مارسيل الى القاهرة) ، وكانت حروفها فرنسية ويونانية وعربية ، وعليها طبعت جميع منشورات بونابرت ، وأول كتاب طبع فى مصر ،

وهو : « تطبيقات في العربية الفصحى مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية » (٣) .

والى هذه المطبعة كانت هناك مطبعة خاصة أخرى شحنت للقاهرة عقب احتلال الفرنسيين وصاحبها رجل هو المواطن مارك أوريل ، وكان الملازم الشاب بونابرت يبسط رعايته على مكتبة أبيه في الفترة التي قضاها على رأس الحامية في فالنس . ومارك أوريل واحد من جماعة الملزمين أو أصحاب الامتيازات الكثيرين الذين كانوا يرافقون الجيوش الفرنسية في ذلك العهد . وقد أصدر في القاهرة صحيفة تظهر أسبوعيا تقريبا ، هي « بريد مصر » Le Courier de l'Egypte ، ودورية أدبية علمية تسمى « العقد المصري » La Décade égyptienne وهي لسان حال المجمع العلمي . وهكذا اقترن اسمه منذ ذلك الحين بجهود اللجنة العلمية ، وإن لم تكن له بها صلة رسمية .

ولم يتيسر استئداء العلماء الموجودين برشيد في اختصاصاتهم كما استخدم زملاؤهم بالاسكندرية . فعمل الرياضي فورييه والشاعر بارسيفال جرانميزون في لجنة لشراء مواد التموين . وتطوع الملحن فيوتو للعمل سكرتيرا لمينو . وشغل معظم الباقين أنفسهم بما وسعهم من أعمال : فكان جولوا يجوب الريف مسلحا ببندقية رش ونظارة شمس ليجمع الطيور والنباتات ويدرس الآثار ، وتغلغل عالم الحيوان جوفروا سانتيلير في الدلتا يخفره حارس عينه له مينو . كتب يقول : « وجدت عددا من الطيور الطريفة . وكانت مهمتي أن ألاحظها حية ، وأصفها من الناحية الحيوانية والتشريحية ، وأركبها هي وهياكلها العظمية في اطارات » (٤) . وأرض الدلتا جنة مثالية لمن يهوى مراقبة الطيور . أما دينون فراح - وكراسته لا تفارقه - يرسم ويساعد العلماء الطبيعيين برسم نباتاتهم وطيورهم ، وأما النباتي نكتو فقام بدراسته للزراعة المحلية . وكانوا كلهم على صلات ودية بالجنرال مينو الذي كانوا ينفقون معه الأمسيات يفلسفون ويتذمرون من القيادة العليا بالقاهرة . كتب مينو الى كفاريللي يقول : « عندي هنا من الرفاق الأوفياء ، والشهود على فقرى في كثير من الأحيان ، المواطنون دينون ونكتو وفللو تو . . . وأنا أعلم أنك تريد جميع أعضاء اللجنة من الفنانين (والعلماء) أن يلحقوا بك في القاهرة ، ولكنى أرجوك أيها الجنرال أن تترفق برجل يشعر بحاجة الى انسان يتكلم الفرنسية ، ويستطيع أن يتحدث اليه في الأمسيات حديثا ذكيا » (٥) . ولكن كفاريللي وبونابرت لم يترفقا به ، وما حل منتصف سبتمبر حتى كان أكثر العلماء قد التأم شملهم في القاهرة حيث أعد لهم مونج وبرتولليه وكفاريللي المساكن المريحة والمكاتب الوافية بالغرض .

كانت لدى بونابرت دوافع شتى حملته على انشاء المجمع العلمي بقرار في ٢٢ أغسطس ، ولكنها لم تكن بالدوافع المتناقضة اطلاقا . كان لا يزال

مزهوا بانتخابه فى عام ١٧٩٧ عضوا بالمعهد القومى الفرنسى (وهو الهيئة التى حلت محل الأكاديمية الفرنسية أثناء الثورة) ، وكان الى ذلك يحس أن العلم يترك آثارا أبقي من الحرب . فهو لم يقنع قط بأن يكون القائد العظيم وكفى ، والواقع أنه صرح غير مرة ، وباخلاص لا شك فيه ، بأنه عدو للعسكرية . فالعظمة تقتضيه أن يكون أكثر من قائد ، وأكثر من دكتاتور ، وأكثر من امبراطور : وما لم يخلف وراءه أثرا فى التشريع ، وفى التقدم الصناعى والعلمى ، وفى جلائل الأعمال الفنية ، فلن يكون حظه فى سجل التاريخ أكثر من فقرة عابرة . ومصر تصلح معملا تجريبيا لتحقيق هذه الغايات . لقد كان فهمه للعلم والفن بدائيا ، ولكن ذكائه الثاقب مكنه من استخدامهما فى تحقيق أغراضه .

وكانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس إحدى المواهب الكثيرة التى تفرد بها . فأنشأ المجمع العلمى المصرى معينا له ، وضربا من التجميع لأرباب الفكر ، لتساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته فى إدارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها فى المستقبل . وكان هذا الهدف فى ذاته جديدا لم يسبق له نظير . وكانت المهام « العملية » التى ينتظرها من المجمع قسمين : فسد الحاجات العاجلة يقتضى إقامة طواحين للهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، وصنع الأدوات التى لا يمكن جلبها من فرنسا الى مصر (بسبب الحصار البحرى) ، واصلاح النظام المالى . والتمهيد لتطور مصر الاقتصادى يقتضى القيام بدراسات تتناول شق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وبناء قناطر على النهر للاستفادة من مياهه على نحو أفضل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، ووضع نظام تعليمى جديد . الخ . وانصرف أعضاء اللجنة العلمية وأعضاء المجمع العلمى الى هذه المهام كلها بهمة وقدرة إنتاجية مذهلتين . وأثمرت جهودهم أثرا خالدا من آثار الدرس الجماعى ، وهو كتاب « وصف مصر » ، ويحتوى على عشرة مجلدات من النصوص ، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات ، وقد نشر بين عام ١٨٠٩ و ١٨٢٨ . ولم يقد أحدا من قبل ولا من بعد بدراسة تتميز بهذا الاتساع وهذه الدقة على أساس عمل ميدانى تم فى مثل هذه الفترة القصيرة (ثلاثة أعوام) وفى مثل هذه الظروف المرهقة غير المواتية .

على أن بونابرت كان يضم ما هو أعظم وأجل حتى من هذا . ذلك أن أعضاء اللجنة لم يكونوا كلهم مهندسين وتكنولوجيايين واقتصاديين ، بل كان منهم المعمارىون والموسيقيون والأثريون والرسامون والرياضيون وعلماء الطبيعة والحيوان . ومع أن بعض هؤلاء كانوا يكلفون أحيانا بأعمال نفعية خالصة ، فإن الهدف الأساسى من وجودهم هو ارتياد كل جانب من جوانب هذا البلد الأسطورى الذى لا يعرف عنه الا القليل - تاريخه ، وآثاره وفنونه ، وبيئته

الجيولوجية ، وحيوانه ونباته - وباختصار السعى الى المعرفة المجردة والى المنفعة العملية سواء بسواء . وليس لدينا دليل على أن بونابرت كان يبدى أقل اهتمام شخصى بتصنيف الأسماك النيلية التى جمعها جوفروا سانتيلير بشغف مثلا ، أو حتى بمعبدى الأقصر والكركى اللذين لم يكلف نفسه قط مئونة زيارتهما . وكانت مقترحاته الشخصية عن ميادين البحث الممكنة نفعية دائما ، ان لم تكن تافهة ، ومع ذلك فان هذا المفرق فى النفعية كان يقدر نفع غير النافع : فمن العسير مثلا أن يتبين المرء أى فائدة عملية تجنى من وراء علم الآثار المصرية ، ولكن هذا العلم ولد بمجىء حملته الى مصر ، وسيظل اسمه على الدوام مقترنا به ، تماما كما زاد طراز « الامبراطورية » ، القائم على الضخامة الفرعونية ، من فخامة حكمه الامبراطورى . أجل ، انه لم يبدد شيئا قط ، اللهم الا أرواح الناس .

ولما لحق مونج وبرتوليه ببونابرت فى الجيزة عقب معركة امبابه ، صرح الجنرال - بعد أن شهد هذه الأهرام التى كانت أربعون قرنا من التاريخ تطل عليه من قمته - ذلك التصريح المذهل ، وهو أن أحجار الهرم الأكبر قد يبنى بها سور يحيط بفرنسا ، عرضه متر وارتفاعه ثلاثة أمتار - وهى حسبة أيدها مونج فيما بعد .

وكانت الأهرام وأبو الهول هى الآثار القديمة الوحيدة التى زارها بونابرت فى مصر . على أنه أبى أن يدخل هرم خوفو لأن الدخول يقتضيه أن يزحف على يديه ورجليه ، وكان فى ابائه غاية فى الحكمة ، لأنه ليس هناك ما يرى فى الداخل ، ويشهد بهذا كل من جاز هذه التجربة الأليمة . وبدا من أن يدخل الهرم حث أتباعه على التسلق الى القمة ، ومنهم برتويه ومونج - وكانا قد جاوزا الشباب - ففعلا خوفا من سخريته اللاذعة أكثر من خوفهم من شمس سبتمبر . ولما وصل مونج الى القمة شارك زملاءه المتسلقين فى شرب زجاجة من البراندى .

ومع أن الفضل فى تأسيس المجمع العلمى المصرى يجب أن ينسب الى بونابرت ، فان تنظيمه كان أكثر الفضل فيه لجهود مونج الذى أعدته لهذا العمل خبرته واتساع أفقه ومواهبه الادارية اعدادا مثاليا . كان مونج يمثل خلاصة ما يتوقعه بونابرت من العالم ، فخدمة الوطن بدت فى عينيه الغاية النهائية للعلم . وقد أوحى مصر الى مونج بأحلام امبراطورية فرنسية أفضى بها الى زوجته . كتب لها يقول انه لو استوطن مصر ٢٠٠٠٠ أسرة فرنسية ، « ليشغل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية . الخ لغدا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وأملها وأفضلها موقعا » (٦) هذه الروح هى التى مكنت الفرنسيين من استعمار الجزائر - وما تمخض عنه هذا الاستعمار من

نتائج • ولحسن الحظ كان كثيرون من أعضاء اللجنة العلمية الآخرين ، لا سيما الشبان منهم ، لا يشاركون رئيسهم حماسته الاستعمارية ، فكان ميلهم الى استعمار مصر أقل من ميلهم للاستستها ، ولنفع شعبها بعلمهم •

وقد وضع نظام المعهد فى ٢١ أغسطس بمعرفة لجنة مكونة من القواد بونابرت وكفاريللى وأندريوسى ، والمواطنين مونج وبرتولليه وجوفروا سانتيلير وكوستا وديجنيت • وقسم المعهد الى أربع « شعب » وعين أعضاء كل شعبة (*) • ويلاحظ أنه لم يقع الاختيار الا على أنبه أعضاء اللجنة العلمية والفنية (وبالطبع اختير جماعة الشعراء والموسيقين لعدم وجود من يفضلهم فى ميادينهم) ، وأن المجمع ضم عددا من كبار الضباط العسكريين (بونابرت وكفاريللى وأندريوسى وسولكوفسكى) والموظفين الإداريين (بوسيلج وسوسى ولوروا) وشخصا من الخارج (هو القس اليونانى دومانشيس) ، وأن الشعبة الوحيدة الكاملة كانت شعبة الرياضيات ، وظل اثنا عشر مقعدا شاغرة فى الشعب الثلاث الأخرى • وقد يوجه النقد الى بعض من وقع عليهم الاختيار (ولا بد أن من لم يقع عليهم الاختيار وجهوه) ، ولكن قائمة الأعضاء كانت بوجه عام تضم خلاصة المدنيين • وكان بونابرت يلقى من زملائه أعضاء المجمع معاملة الند للند ، فاذا نسي وضعه ذكره به الدكتور ديجنيت • وحدث ذات يوم وبونابرت يتكلم فى غير دوره على موضوع فى الكيمياء أنه قال فى نزق « ان الكيمياء مطبخ الطب » وان الطب علم القتل » ، فرد عليه ديجنيت فى لطف ورقة « ان كان الأمر كذلك ، فبماذا تعرف فن قيادة الجيوش ؟ » (٧) وكان الجواب الحاضر يرد نابليون دائما الى هدوئه وبشاشته ، ولكن الصدام المشهور الذى وقع بينه وبين ديجنيت فى المجمع بعد سنة ترك فى نفسه تحاملا لم يزل على الطبيب الصريح •

(*) شعبة الرياضيات : بونابرت ، وأندريوسى ، ومونج ، وفورييه ، وكوستا ، وهوراس سى (الذى حل محله بعد ذلك لانكريه) ، ومالو ، والفلكيان نوييه ، وكنو ، والمهندسان المدنيان لوبيير وجيرار ، وكبير مندوبى البحرية لوروا •

شعبة الطبيعة : برتولليه ، وكوتيه ، ودولوميو ، وجوفروا سانتيلير ، والدكتور ديجنيت ، والجراح دوبوا (حل محله بعد ذلك لارى) ، والحشرى سافيني ، والكيميائى ديكوتيل ، والنباتى ذليل ، والمهندس شامبى : وقد ترك فى الشعبة كرسيان شاگران (وضم اليها بعد ذلك بوشان) •

شعبة الاقتصاد السياسى ، الجنرال كفاريللى (الذى حل محله بعد موته كورانسيه) ، وبوسيلج ، وتاليان ، وسولكوفسكى ، وجلوتيه ، وكبير مديرى مهمات الجيش سوسى (حل محله بورين) وظلت ستة مقاعد شاغرة •

شعبة الآداب والفنون : الشاعر برسيغال - جرانيوزون ، واللغوى فنتور (وحل محله ريبو) ، والملحن ريجل ، والعمارى نورى (حل محله لوبيير الابن) ، والرسامون دينون ، ودوتيرتر ، وريدوتيه ، وقسيس يونانى هو دون رفايل دومانشيس • وظلت أربعة مقاعد شاغرة • (وقد ضم الى الشعبة الرسام ريجو فيما بعد) •

وتجلت الأهمية التي علقها بونابرت على المجمع العلمي واللجنة العلمية في المسكن الذي هياه لهما . فكانا يشغلان في حي الناصرية مجموعة من المباني المحيطة بقصر قاسم بك - وهو بناء رائع تركى الطراز له حديقة ظليلة وبهو وأعمدة في الهواء الطلق وفسقيات بديعة . (وكان صاحبه في ذلك الوقت يقاتل الفرنسيين في الصعيد) . وأصبحت أكبر قاعات الاستقبال في حرمك قاسم بك قاعة اجتماع المجمع . وكان العلماء يسكنون ويعملون في حجرات القصر الأخرى وفي البيوت المجاورة له ، إلا اذا كانوا مشغولين برحلاتهم الميدانية خارج القاهرة ، كتب جوفروا سانتيلير لصديقه كوفيه يقول : « ان بيوتنا تتيح لنا راحة أكثر مما تجده في اللوفر ، وترفا يعادل على الأقل ترف اللوفر . فالحديقة الضخمة . . . ذات الشرفات العالية الكثيرة . . . تتيح لنا زراعة النباتات ودراسة علم النبات » (٨) . وما لبث العلماء أن أنشأوا حديقة للحيوان وأخرى للطيور ، وخصص جانب آخر من الأرض للتجارب الزراعية . كذلك كان هناك معمل كيميائي ، ومتحف صغير للتاريخ الطبيعي ، ومكتبة ، ومرصد ، ومجموعة من المعادن وأخرى من الآثار - وهي وان كانت صغيرة جدا ، إلا أنها كانت نواة متحف القاهرة - ومطبعة ، وورشة كونتية العجيبة . وكان شطر كبير من العدد التي أخذها العلماء معهم من فرنسا قد فقد على سفينة من السفن التي دمرت في أبي قير . لذلك صنع كونتية ومساعدوه في ورشته هذه الأدوات اللازمة لصناعة هذه العدد التي كان لابد من تعويضها ، وصنعوا كثيرا غيرها ، كالأجهزة الجراحية ، والبواجل ، والعدسات التلسكوبية والمكروسكوبية ، والأصباغ اللازمة للمطبعة ، ولدار سك النقود ، ولتعويض أضرار الملابس العسكرية ، وأدوات المساحة ، والرسم ، وحتى شفرات السيوف ، والأبواق ، والقماش ، والقبعات . أجل ، فما من مشكلة استعصى حلها على ذكاء كونتية وحذقه ، ولم ينفع رجل بمفرده جيشا كما نفع كونتية الجيش الفرنسي .

ولم يحدث قط - إلا في عهد قريب جدا - أن جمع مثل هذا العدد الكبير من الأفراد الممتازين المشتغلين في مختلف الميادين ، ليعملوا بمثل هذا التعاون الوثيق . وبالطبع ظل المتخصصون منهم يواصلون دراساتهم الخاصة - بالإضافة إلى أعمالهم الرسمية في أكثر الأحيان ، ولكن دون أن ينتقص هذا من دأبهم ومشايرتهم ، ومع ذلك كان على الفرد منهم أن يقوم بعمل عدة أفراد ، وكان أحيانا عملا لم يخطر له ببال قط . وقد أشاع هذا البعث للمواهب المخبوءة ، وهذا التبادل الحافز ، جوا منشطا سرت عدواه حتى لغير العلماء . يقول جومار - وهو أحد العلماء الفرنسيين - في مذكراته : « فضلا عن جلسات المجمع المنتظمة كانت هناك اجتماعات غير رسمية تضم من أربعين إلى خمسين شخصا كل مساء في حديقة المجمع . فيتبادلون الأحاديث في مشروعات أسفارهم ، والاكتشافات التي اكتشفوها ، ومختلف الموضوعات التي تستهوي السامعين

كالحديث فى جغرافية مصر الطبيعية ، ومصر القديمة ، وحكومة البلاد ، وعادات شعبها ، (٩) ٠٠ وكان يختلف الى هذه الاجتماعات فى كثير من الأحيان القواد وكبار الموظفين ، بل بعض المشايخ . ومن هؤلاء المؤرخ الجبرتى الذى ترك لنا وصفا عجيبا لزيارته . قال :

« وأفردوا (بيت حسن كاشف) ٠٠٠ فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ، ومن يريدون المراجعة فيراجعون فيها مرادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونوه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واطهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم ٠٠٠ ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك . فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ويصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخلقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة - رضى الله عنهم - بأيديهم السيوف وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين - وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس . وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى . وكذلك صور الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ٠٠٠ وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها . وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم . ورأيت عندهم كتب الشفاء ٠٠٠ والبردة للبوصيرى ويحفظون جملة من أبياتها ، وترجموها بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ، ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار ٠٠٠ وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغربية المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن ٠٠٠ وهى تركيب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركيب مع بعضها البعض . وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصاها ٠٠٠ وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى : وهم المصورون لكل شىء ، منهم أريجو المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويرا

يظن من يراه أنه بارز في الفراغ مجسم يكاد ينطق . حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان ، وعلقوا ذلك في مجالس سارى عسكر ، وآخر في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها . ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصقوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا . وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع اللقائق . وسكن الحكيم رويا ببيت ذى الفقار كتحدا بجوار ذلك . ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وقصورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانا أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فغلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسأ أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلهما فى الماء ، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة اليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرق بصوت هائل أيضا ومثل الفلكة المستديرة التى يدورون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شئ كثيف ويظهر له صوت وطققة ، وإذا مسك علاقتها شخص ، ولو خيطا لطيفا متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطققت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفا أو أكثر . ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا ، (١٠) .

وتجمع شهادة شهود العيان الفرنسيين على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع . ولكن رواية الجبرتي تكذبهم . لقد توقع الفرنسيون بالغرور المعهود فى الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعة بدهشة صبيانية كدهشة الشعوب المتوحشة . ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين

أنهم هم السذج الأقل بصرا بشئون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثير بما شهدوا . لقد تأثر الشيوخ ما فى ذلك ريب ، وقد أعجبوا ، ان كان بين الجبرتى وبينهم شبه ولو قليل ، بهذا الانقطاع للعلم ، أكثر من اعجابهم بعرض الألاعيب والحيل الرخيصة ، ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب . وبعد قرن ونصف من الزمان تعلمت آسيا وأفريقيا كل هذه الحيل ونقضت عنها هذه السيطرة . فأى الرجلين كان أكثر سذاجة ؟ أهو الشرقى الذى لم يسمع من قبل بالكهرباء ، أم الأوروبى الذى ظن أن اكتشاف الكهرباء يعطيه حقا أبديا فى السيادة على غيره ؟

هذا مع التسليم بأن مصر التى حققت قبل أربعين قرنا معجزات فى الصناعة ما زالت تثير الدهشة ، قد هبطت فى ذلك الحين الى مستوى بدائى لا يكاد يصدق . كتب نابليون بعد حملته بعشرين عاما يقول : « كان الوطنيون غاية فى البطء فى فهم كنه هذا المجمع الذى ضم رجالا وقورين مجتهدين (العلماء) ، لا يحكمون ، ولا يديرون ، ولا يقومون بأى وظيفة دينية . وقد حسبوهم يصنعون الذهب . على أنهم فى النهاية كونوا فكرة صحيحة عنهم ، فنقى العلماء الاجلال لا من الشيوخ والأعيان فحسب ، بل من أقل الطبقات وأدناها . والواقع أن العلماء الفرنسيين اختلطوا كثيرا بالعمال ، فعلموهم مبادئ الميكانيكا والكيمياء وهم يشرفون على أشغالهم » (١١) . أما هذه الأشغال التى يشير اليها نابليون فشملت رصف الطرق واقامة الحصون وشتى مشروعات الاصلاح المدنية . ونستطيع أن ندرك مدى بدائية أساليب العمل عند الأهالى فى ذلك الوقت من هذه الفقرة التى كتبها الجبرتى فى تاريخه : « ولم يسخروا أحدا فى العمل ، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ، ويصرفونهم من بعد الظهر ، ويستعينون من شواغل وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة . كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويدهاها ممتدتان من خلف ، يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة الى محل العمل فيميلها باحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة » (١٢) . وهؤلاء هم أبناء الشعب الذى شيد الأهرام فى قديم الزمان !

وبينما كانت كثرة العسكريين ساخطة لا تدرى سببا لوجودها فى مصر ، لم يكن من محير للعلماء الفرنسيين الا أن يعرفوا بأى شئ من الأشياء الكثيرة التى تنتظر الأداء يبدأون . واذ تحرروا عن شواغل باريس الاجتماعية ووجدوا أمامهم فرصا لا حد لها فى نفع الناس ، أبدوا نشاطا فاق فى تنوعه أى نشاط

شهدته الناس من قبل ومن بعد فى مثل هذه الجماعة . ولم ين المواطن بونا برت ، نائب رئيس المجمع ، عن تقديم الأسئلة العملية له : فهو يسأل هل فى الامكان زرع الكروم فى مصر ؟ وكم حبة تثمر الحبة من القمح فى مصر ؟ وكم فى فرنسا ؟ وهل فى الامكان حفر الآبار فى الصحراء ؟ وكيف السبيل الى تحسين السقاية التى توصل الماء الى القلعة ؟ فما أن تطرأ فكرة على بونا برت حتى يقترح على المجمع دراستها . وكان كل موضوع يحال الى لجنة ، ويجلس الأشخاص ذاتهم فى لجان لا يفتأ عددها يتكاثر باطراد . وكان كثيرون يؤدون أعمالا ادارية فى الوقت نفسه : فلم يقتصر عمل بوسيليج على مالية الجيش ، بل رأس الادارة المدنية كلها . أما مونج وبرتوليه فقد وجدا فى كل مكان ، حتى أن الجنود الحائرين فى أمرهما أدمجوهما فى شخص خرافى واحد سموه مونجبر توليه ، فكانا عضوين فى « اللجنة الادارية » (وهى لجنة تخصصت فى ابتزاز أموال الأغنياء) ، وعملا مفتشين فى دار سك النقود بالقاهرة ، ومندوبين فى الديوان العام ، وقاما بغير ذلك من المهام الكثيرة . أما كونتيه - ذلك الرجل المتعدد الكفايات - فكان يعمل فى أربع لجان ادارية على الأقل . وكان مالو وجولوا مكلفين بتنظيم الاحتفالات الوطنية . وأما الرياضى فورييه فعمل سكرتيرا دائما للمعهد ومحورا لصحيفة بريد مصر . ورأس ديجنيت ادارة الجيش الطبية - وهو عمل جبار فى ذاته - وكان يحرق صحيفة « العقد المصرى » ويرأس لجنة تأسيس مستشفى الأهالى . هذا كله سقناه على سبيل المثال لا الحصر .

وواصل العلماء الفرنسيون مشروعاتهم الخاصة المختلفة وقدموا عنها تقارير فى جلسات المجمع الذى كان يجتمع كل خمسة أيام تقريبا ، كأن الموضوعات والمشروعات التى كلفهم بها بونا برت لم تكن كافية لشغل أوقاتهم . فقرأ برتوليه أبحاثا له فى تكوين النشادر ، والطريقة المصرية فى صناعة النيل . وقرأ الجنرال أندريوسى تقريرا عن ارتياده بحيرة المنزلة ووادى النطرون - « بحيرات الصودا » الواقعة فى صحراء ليبيا جنوبى الاسكندرية - وزاد عليه وصفا للأديرة القبطية القريبة من البحيرات ، ومقالا عن عادات القبائل البدوية . وقرأ سوسى بحثا عن الحاجة لارتياح منابع النيل ، ودوترتر عن مشروع انشاء مدرسة لتعليم المصريين الفنون الجميلة ، ونكتو عن الحاجة لانشاء كليات للزراعة ومحطات للتجارب ، ودولوميو عن « اختيار وحفظ ونقل الآثار القديمة » المطلوب شحنها من مصر الى فرنسا . أما كونتيه فهو فضلا عن صنعه لأقلام الرصاص ، استهلك قدرا منها فى رسم أكثر من خمسين رسما مفصلا تفصيلا دقيقا لمختلف الطرق الصناعية التى يستعملها الصناع وأرباب الحرف المصريون .

ولعل الدكتور ديجنيت كان أنشط أعضاء المجمع . فقد تلا أبحاثا عن أسباب الرمد ووفيات الأطفال ، وتفقد المستشفى الوحيد الموجود بالقاهرة ، فوجد فيه خمسة وسبعين سريرا - منها خمسون مصنوعة من الحجر - ونحو

أربعين مريضاً من الجنسين جائعين مهملين ، منهم خمسة عشر اختلت عقولهم وقيدوا بالأغلال . وقد أسفر بحثه في الأدوية والوصفات البلدية عن موقف لا يقل عن هذا سوءاً . ووضع ديجنيت الحطط لإنشاء مستشفى مدنى يتسع لـ ٣٠٠ - ٤٠٠ سرير ، ولإنشاء صيدلية مركزية بالقاهرة ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، ومدرسة ابتدائية تعلم الأهالى الفرنسية ليتابعوا دراسات يلقيها المعلمون الأوربيون فى مدارس أرقى . وظلت هذه المشروعات حبرا على ورق لقلة المال والوقت ، ولكنها نفذت بعد زمن قصير فى عهد محمد على على يد الفرنسى كلوت بك . على أن ديجنيت أمر أثناء ذلك بطبع الكتب الصغيرة بالفرنسية والعربية والإيطالية فى علاج الطاعون البقرى والجدرى . ولكنه كان يرجو ، فى تواضع العالم الأصيل ، أن يتعلم كما يعلم : فقد ذكر أطباء جيش بونابرت فى منشور دورى بأن مصر كانت مهد الطب القديم ، وبأنه ربما بقيت فيها آثار من حكمة القدماء . اذن فادرسوا أنواع التطبيب البلدى بعناية ، فمهما يحتقر الانسان هذا الطب التجريبي لأول وهلة ، فانه يجب أن يعرفه قبل أن يحكم عليه ، (١٣) .

ولم تهمل الأبحاث المجردة وان حظيت العلوم التطبيقية برعاية أعظم ، فمثلا مونج أبحاثا عن السراب وعن الجاذبية الشعرية ، وفورييه وكورانسيه عن الرياضيات العالية ، وكتب مالو مذكرة عن طبيعة الضوء وهو مع طليعة فرقة ديزيه بالصعيد .

ودرس مارسيل الشعر العربى ، وسافنيه الحشرات والديدان . وكتب جوفروا سانتليير بحثا فى جناح النعامة ، وبعد أن فرغ من الطيور انصرف لدراسة الزواحف والأسماك . وحدث ذات يوم ، بعد أن قرأ على المجمع العلمى بحثا عن الأسماك النيلية ، أن وقف شيخ من الحاضرين وطلب الكلمة . فقال : أن هذا البحث لا غناء فيه ، لأن النبى قال فيه كلمته الفاصلة ، وهى أن الله خلق ٣٠٠٠٠ نوع ، ١٠٠٠٠ منها تعيش فى اليابس والجو ، و ٢٠٠٠٠ تعيش فى الماء .



أما أكثر العلوم التى أسهمت فيها اللجنة العلمية بأكبر نصيب فهى الجغرافيا والمصريات القديمة . ولم يكمل رسم خريطة مصر التى أمر بونابرت بتنسيق العناصر اللازمة لها فى ١٧٩٩ الا فى ١٨٠٦ . وقد نشر هذا الأثر القيم من آثار علم الخرائط ، والذي عد من الأسرار الى نهاية حكم نابليون ، فى كتاب وصف مصر ، وهو يؤلف مصور هذا الكتاب . أما علم المصريات فيدين بالفضل فى مولده لحفنة من المدنيين المرافقين للقائدين ديزيه وبليار فى الصعيد، ولكشف عارض تم على يد ضابط فى سلاح المهندسين . وكان المدنيون فى الصعيد قد نسخوا آلاف النقوش الهيروغليفية . أما معانى الحروف فكانوا

يجهلونها تماما . وقد تكهرب جو المجمع العلمى فى جلسة ١٩ يوليو ١٧٩٩ حين تلى على أعضائه خطاب من المواطن لانكريه يعلن فيه « اكتشاف نقوش فى رشيد قد تكون باللغة الأهمية » (١٤) . وكانت هذه النقوش ، المحفورة بالأزميل فى كتلة ضخمة مصقولة من البازلت ، مكتوبة بالحروف اليونانية والهيروغليفية وبخط مجهول (سمي بعدها بالديموطيقية) . وأدرك الكابتن بوشار مكتشف الحجر بفطرته أنه ربما كان فى هذا الحجر مفتاح اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية ، وكان فى ظنه على صواب . ذلك لأن الكشف لم يكن بالغ الأهمية فحسب ، بل ان النقوش الهيروغليفية والديموطيقية أحدثت ضجيجا كبيرا حين حل شمبليون رموزها بعد اثنتين وثلاثين سنة . أما كيف حدث أن وجد حجر رشيد طريقه الى المتحف البريطانى فسيأتى الكلام فيه فى موضعه .

حدد تاليان فى البرنامج الذى كتبه لصحيفة « العقد المصرى » الهدف من هذه الدورية بقوله : « ان الهدف الذى نتوخاه هو التعريف بمصر - لا تعريف الفرنسيين الموجودين بها الآن فحسب ، بل تعريف فرنسا وأوروبا كلها » . ونظرة مدققة لقائمة محتويات الصحيفة كفيلة بأن تقنع أى انسان بأن هذا البيان لم يكن تفاخرا كاذبا . كان محرروها يعرفون أنها مركز تمهيدى لتجميع البيانات والمعلومات التى ستجد لها فى النهاية مكانا فى « مؤلف جامع هو « وصف مصر » . وكان هذا الهدف واضحا للعسكريين أيضا . فسرى أنه ديزيه وبليار تعاونوا مع العلماء وأبدوا فهما قل أن تجده فى العسكريين . وأصر مينو على أن « ترسم جميع طيور اقليم رشيد التى لم ترسم بعد لنشرها فى الكتاب الذى تنوى الحكومة اصداره » (١٥) . وقد ساهم فى هذا المؤلف العظيم ضباط وجنود مجهولون بما صادوه من أنواع الحيوان ، وما دلوا عليه من أطلال ونقوش وأدوات حجرية عثروا عليها مصادفة ، أو بمجرد المغامرة بحياتهم لحماية العلماء العنيدين .

كان هدف حملة بونابرت تحويل مصر الى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا . ولتحقيق هذا الهدف لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش . لقد أدرك معظم رجال الحملة منذ البداية تقريبا أنه مقضى عليهم بالفشل ، وأن الفظائع التى يقتربونها ويعانون منها لا جدوى منها على الإطلاق . أما العلماء الذين كان أهم أهدافهم غزو المعرفة واستخدامها فى نفع الانسان ، فلم يكن ممكنا أن يساورهم هذا الاحساس باليأس . ومن ثم نرى رجالا كجوفروا سانتليير يستطيع أن يكتب الى كوفييه فى غمرة الأحوال التى كانت كابوسا مزعجا لغيره من رجال الحملة : « هنا أجده من جديد رجالا لا يفكرون الا فى العلم . اننى أعيش فى قلب دوامة تشغى بالفكر اننا نشغل أنفسنا فى

بحماسة بجميع الموضوعات التي تهتم بالحكومة ، وبالعلوم التي كرسنا أنفسنا لها
بمحض اختيارنا ، (١٦) .

٢

كان الجنرال بونابرت معروفا بين المصريين بـ « السلطان الكبير » .
واللقب ليس في الواقع سوى ترجمة فضفاضة للقب « القائد الأعلى » ، ولكن
بونابرت قبله برضى وباغتباط أكبر . ذلك أنه كان يرى نفسه حاكما صاحب
سيادة ، أكثر منه قائدا عسكريا ، واذ كان لا يقنع بأن يكون حاكما فحسب ،
بل يبتغى أن يكون حاكما عظيما ، فقد بذل جهودا صادقة لارساء حكمه على
مبادئ عقلية عالية : هي احترام عادات الأهالي وعقائدهم ، وتنمية موارد البلاد
الطبيعية ، وتوزيع أعباء الضرائب بالعدل والقسطاس ، وتطبيق القانون بشدة
ولكن في نزاهة ومساواة ، ورد الحكم الذاتي شيئا فشيئا لشعب ألف العبودية
منذ عهد الفراعنة . على أن هذه النوايا الطيبة كلها أفسدها عامل واحد ولكنه
بالغ الأهمية ، هو الافتقار إلى المال .

إننا لا نملك دليلا على أن نابليون فاه بهذه البديهة المشهورة ، وهي
« أن الجيش يمشى على معدته » ، ولكن من المبادئ التي جرى - كما جرت
حكومة الإدارة - على الأخذ بها ، أن يجعل البلاد المفتوحة تتحمل نفقات غزوها .

على أنه لم يكن بد من تعديل هذه الطريقة في مصر ، التي كانت - إلى أن
أعلنت تركيا الحرب على فرنسا على الأقل - لا تعتبر من بلاد الأعداء ، لأنه لم
يكن في الامكان فرض ضرائب خاصة عليها كما كانت تفرض على غيرها من
البلاد المفتوحة . وكانت الحملة قد غادرت طولون وفي خزينتها من العملة
١٧٩٨ ٤٦٠٦٩ فرنكا ، ثم أضاف التفتيش الدقيق في مالطة نحو نصف مليون
من الفرنكات . ولما كانت جملة رواتب الجيش والأسطول تبلغ نحو مليون
فرنك ، فقد كان واضحا أن هذا المبلغ لن يكفي طويلا . ولم يكن في الامكان
جمع الضرائب في مصر قبل أواخر الخريف ، لأنها كانت في مواطنها قائمة
على الدفع عينا ، وهكذا اضطر السلطان الكبير منذ اللحظة التي وطئت فيها
قدمه الاسكندرية إلى الالتجاء لكل وسيلة تخطر ببال المفلسين للحصول على
المال . ولا يكاد المرء يصدق الحساب الذي قدمه الخازن دار استيف في
٢١ سبتمبر عام ١٧٩٨ عن الإيرادات والمصروفات . فالميزانية في جملتها تبين
أن الإيرادات تزيد على أربعة ملايين من الفرنكات تجمعت من بيع كنوز فرسان
مالطة بالتدريج أو صهرها ، ومن بيع سبائك الفرسان أو صهرها ، ومن أملاك
المماليك المصادرة ، ومن الغرامات المفروضة على نساء المماليك ، ومن القروض
الاجبارية التي أمكن الحصول عليها من جماعات التجار الأوروبيين والسوريين

والقبط واليهود والمسلمين ، ومن الغرامات على اخفاء الأسلحة وشتى المخالفات ، ومن بيع الأملاك المصادرة الخاصة بأهم الأعداء ، ومن بيع مقادير من القمح والأرز والصودا والسكر ٠٠ الخ ، ومن الضرائب المفروضة على الحوانيت ، ومن حصيلة الجمارك ، وحتى من مصادر كهذا المصدر « ١٤٤ فرنكا - مبلغ مدفوع من المواطن فرانتز الملازم الثانى فى نصف اللواء الثامن والثمانين لحساب زوجته ، (وليس هناك سجل يدل على أن المواطنة فرانتز تسلمت هذا المبلغ الذى ادخره زوجها من راتبه) . ولما كانت جملة المصروفات تزيد على ٨ ملايين ، فقد كان هناك عجز قدره ١٧٩٦٧ر٣١٧ فرنكا و ١٢ سنتيما يستقبل السنة السابعة للجمهورية .

وكانت الوسائل التى استعملت فى جمع المال الى ذلك الحين مستقيمة لا غبار عليها اذا قيست بما اتبع من وسائل بعد ذلك ، وان لم تكن دائما محترمة . كان القرض الاجبارى يتلو القرض ، وأعطى التجار الذين أخذت أموالهم بهذه الطريقة سندات على إيرادات الجمارك (وهى إيرادات لم تحصل قط لأن جميع الثغور - فيما عدا السويس - كانت محاصرة) وعلى الضرائب المنتظرة (وكانت تصرف حتى قبل أن تجبى) . وكان كبار موظفى المالية الفرنسيون يرحبون ويفرحون بكل أمانة على خيانة المواطنين الأغنياء أو عدم ولائهم ، لأنها تمكنهم من فرض الغرامات أو مصادرة الأملاك . وقررت الرسوم على تسجيل الأملاك ، واثبات الملكية ، والمشتريات والبيوع ، وباختصار على عدد ضخم من المعاملات التى يقتضى اجراء نظائرها فى انجلترا ضريبة دمغة . وأكثر من نصف تاريخ الاحتلال الفرنسى الذى رواه الجبرتنى عبارة عن سجل لمختلف هذه الوسائل وأمثالها مما لا حصر له ، ولتطبيقها على الناس فى كل يوم . ووجدت البراعة الهائلة التى أبدتها كونتية فى ميدان الميكانيكا ندا لها فى براعة المواطن بوسيليج وزملائه التى تشبه السحر ، لا بل ان بوسيليج حقق معجزة ، وهى أنه احتفظ بمحبة كبار المواطنين الذين كان يبتز مالهم .

وبالطبع تجنب الفرنسيون السرقة الصريحة ، فكانت جيوب الرجال والنساء تفرغ بالطرق القانونية وان كانت الطرق عاجلة فى بعض الأحيان ، ولم يستول الفرنسيون على طعام أو خيل أو ابل أو غير ذلك من سلع دون أن يعطوا أصحابها ايصالات أو صكوكا ، بل انهم كانوا يقبضون الثمن اذا حل أجل الدفع بفضل قروض اجبارية جديدة يضمنها مزيد من السندات . ومع ذلك ظلت رواتب الجند متخلفة تخلفا مزمنيا ، ولم يعيش الجيش بعيدا عن الافلاس أكثر من أسبوع أو نحوه . وحين خلف كليبر بوناپرت فى قيادة الحملة فى أواخر صيف ١٧٩٩ استطاع أن يكتب لحكومة الادارة بأن سلفه ترك له دينا قدره ١٠ ملايين فرنك ، ٤ منها رواتب متأخرة للجنود .

ولا حاجة بنا للقول بأن هذه الأساليب غير المألوفة التي لجأ إليها السلطان الكبير ليحمل المصريين نفقات جيش لم يطلبوه كانت بغیضة في أعينهم • ومع ذلك لم تكن وسائله في ابتزاز أموالهم تختلف قط عن الوسائل التي استخدمها المماليك وألف أوساط المصريين معاناتها •

وقد زاد من جور النظام العادى الذى اتبع فى جمع الإيرادات أيام حكم الترك والمماليك أنه لم يكن نتيجة ظروف طارئة ، بل نظاما يتقبله الناس عموما • ولا ريب فى أن الأرقام التى قدرها نابليون فى بيانه للنظام المالى المصرى تفتقر الى الدقة ، ولكنها تعطينا على الأقل فكرة عن الموقف العام ما دمنا لا نملك احصاءات دقيقة عن الموضوع •

كانت الأرض - باستثناءات قليلة - يمتلكها الملتزمون أو الاقطاعيون الذين ينوبون فى ملكيتها عن السلطان ، فاذا مات المالك ظل وريثه مالكا للأرض بشرط أن يدفع لحاكم الاقليم ضريبة تركات كبيرة • وكان أكثر من ٩٠ ٪ من أراضي الملتزمين يزرعه الفلاحون • ويحصل الفلاح على حق زرع قطعة من الأرض بالشراء ، فاذا مات كان على وريثه أن يعيد شراءها من جديد • وكان الفلاحون يدفعون للملتزمين فضلا عن ذلك رسوما سنوية قدرها نابليون بثلاثين مليوناً من الفرنكات كل عام • ومن هذه الملايين التى يجمعها الصيافة الاقباط كان الملتزمون يدفعون ٦ ملايين ضرائب محلية ، و ٦ مليون للسلطان (وهى الميرى) فىكون باقى إيرادهم ١٧٦ مليوناً • وفوق الملايين الثلاثين التى يدفعها الفلاحون للملتزمين كانوا يدفعون ٦ ملايين للضرائب المحلية ، و ٦ ملايين لشيوخ البلد (وهم أشبه بالعمد فى قراهم ، ويعملون فى الواقع وكلاء للملتزمين الذين يسمحون بما يفرضون من ضرائب مختلفة على الفلاحين) و ٨ ملايين للجبابة الاقباط علاوة على ما يحملون الفلاحين على دفعه للملتزمين ، و ٤ ملايين يجمعها حكام الأقاليم عينا (خيلا وجمالا • الخ) ، و ٩ ملايين لقبائل البدو نظير اعفاء الفلاحين من غاراتهم عليهم • وحاصل هذا كما يقول نابليون أن الفلاحين كانوا يدفعون مبلغا قدره ٦٣ مليون فرنك ، أما ما بقى لهم بعد ذلك فلا يذكر نابليون عنه شيئا ، ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون شيئا مذكورا ، أو شيئا على الاطلاق • وينتهى نابليون الى نتيجة موجزة مفيدة لا تحتمل الجدل « خلاصة الأمر أن على الفلاح أن يتحمل العبء كله » (١٨) • وكان لابد من انقضاء قرن ونصف قبل أن تبذل أية محاولة جدية للانتقال بالفلاح من مرتبة الحيوان الذى استوحش ، الى مرتبة قريبة من الآدمية •

كان بونابرت يهدف الى غرضين هامين حين دعا الديوان العام للاجتماع بالقاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨ ، أولهما - كما قال « تعويد أعيان مصر على أفكار المجالس النيابية والحكم » (١٩) • أما الثانى فاعادة النظر فى الاجراءات

الحنائية والمدنية وقوانين الملكية والمواريث والضرائب . غير أن أهم اصلاح اقترحه بعض مشيريه لم يتم فيه شيء ، بل لم يعرض على الديوان لمناقشته ، لأن الفرنسيين لم يستطيعوا الاتفاق عليه فيما بينهم . ذلك أن عددا كبيرا من القرى (قدره نابليون بثلاثة أرباعها - وهى مبالغه ولا شك) كان بغير ملاك ، لأن كثرة الملتزمين المماليك قتلوا فى المعارك أو فروا . فهل تستغل هذه الفرصة لادخال اصلاح عام فى ملكية الأرض الزراعية ولجعل الفلاحين ملاكا حقيقيين لهذه الأراضى ، أم يحتفظ بالنظام القديم ؟

أما الاشتراكيون من مشيرى بونابرت (ومنهم كفاريللى بالطبع) فقالوا ان هناك ٢٦ مليون فلاح من سكان مصر البالغ عددهم ٣ ملايين ، وان هذا الاصلاح سيحسن أحوال معاشهم تحسينا هائلا ، الأمر الذى يضمن أيضا عرفانهم بجميل فرنسا وولاءهم لها ، وأن كبار الملاك - على أية حال - لا جدوى منهم اطلاقا من وجهة النظر المالية . وأما المحافظون فكانت حججهم فى الاحتفاظ بالنظام القديم طريفة ، وهى تتلخص فيما يأتى :

١ - ان منح الأرض للفلاحين الذين يشغلونها سيجعل من المستحيل توزيعها على ضباط الجيش الفرنسى المستحقين لها أو المواطنين الموالين لفرنسا .

٢ - ما دام المحصول السنوى يعتمد على مقدار الفيضان فلا بد من جهاز دقيق لتحديده ، وهى عملية لا يحذفها غير الملتزمين ورجالهم .

٣ - من حسن السياسة كسب ولاء الطبقة الوسطى المالكة الراسخة ، لا الجماهير الجاهلة المتقلبة .

وقد انتصر المحافظون ، لا لشيء الا لأن الأمر لم يتخذ فيه أى اجراء . وكما أن أراضى الكنيسة والمهاجرين فى فرنسا صادرها رجال الثورة وباعوها دون ثمن تقريبا للمغامرين الوطنيين ، كذلك قيل ان أراضى المماليك المصادرة ملك للأمة ووزعت لاشباع ذلك الاله الشره ، ونعنى به مالية الجيش . وهكذا ظل الفلاح فلاحا ، ولم يحصل جندى فرنسى واحد على الأفدنة الستة الموعودة .

ومع أن الاصلاح الجذرى ، من أى نوع كان ، قد امتنع على هذا النحو بفعل الفرنسيين أنفسهم ، فان الموضوعات التى قدمها الجنرال بونابرت للديوان العام كانت تمس أدورا بالغة الأهمية . من ذلك مثلا سؤاله : كيف تنظم دواوين الأقاليم ، وكم تكون رواتب أعضائها ؟ وكيف السبيل الى تنظيم المحاكم المدنية والجنائية ؟ وما القوانين التى يجب سنها لضمان حق الميراث ، وللقضاء على الاجراءات التعسفية الجارية ؟ وما الاصلاحات التى يمكن ادخالها على الطريقة الديمة فى تثبيت حق الملكية وفى جمع الضرائب ؟

ان موقفا من المواقف لا يصبح تاريخيا الا لأحد أمرين : اما لأن المشاركين فيه على وعى بأنهم يصنعون التاريخ ، واما بفضل نتائج أعمالهم . ولو كان النواب الذين حضروا افتتاح الديوان العام الذى عقد بالقاهرة فى ٤ أكتوبر ١٧٩٨ يعلمون أنهم يؤلفون أول مجلس نيابى فى الشرق الأوسط ، أو لو كانت اجتماعاتهم خلال الأسبوعين التاليين قد تمخضت عن أى نتائج ، لكان هذا الموقف تاريخيا . ولكن الذى حدث هو أن هؤلاء النواب غلبتهم الحيرة والارتباك ، وكان همهم الوحيد ارضاء الفرنسيين دون احداث أى تغيير فى النظام القائم . وكان بونابرت حاضرا جلسة الافتتاح ، ومترجمه فنتور يقرأ رسالته . وقد ذكر الحاضرين فيها بما كانت عليه مصر من رخاء فى غابر الأيام ، وأعلن أنه أنقذ شعبها من حكومة الجهلة الأغبياء ، وأكد أن الفرنسيين لم يتعرضوا لأحد ، ودعا الأعضاء الى أن يقدموا له النصيحة فيما يبذل من جهود لاسترجاع النظام والرخاء . وينقل الجبرتي - الذى كان أحد النواب - هذا الخطاب كاملا : « قلت ولم يعجبني فى هذا التركيب الا قوله « المفعة جهلا وغباوة » ، بعد قوله « اشتاقت أنفسهم » ، ومنها قوله بعد ذلك « ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد » الى آخر العبارة (٢٠) .

ثم دعا فنتور العلماء والأئمة لاختيار رئيس للمجلس . ويقول الجبرتي : ان عدة أعضاء اقترحوا الشيخ الشرقاوى رئيسا - وكان شيخا للجامع الأزهر ورئيسا لديوان القاهرة . وأجاب الترجمان : « نو ! نو ! » ، وانما ذلك يكون بالقرعة . فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى ، (٢١) . وهكذا ترى أن الاجراءات البرلمانية كانت شيئا جديدا على المجلس .

وعقد الديوان جلساته أسبوعين بتوجيه مونتج وبرتوليه المنسوبيين الفرنسيين ، ويستشف من وصف الجبرتي أن مناقشاته كانت غاية فى الغرابة . كانت تصورات النواب عن الاصلاحات المقترحة وعن القانون المدنى الاوروبى لا تمت الى الواقع فحسب . فلأمر ما - مثلا - كانت فكرتهم عن قانون المواريث فى فرنسا « لا يورث الولد وتورث البنت » . لأن الولد أقدر على التكسب من البنت ، (٢٢) وكان رأى أن هذا النظام لا يتفق وتعاليم الرسول . وفى النهاية قدم الديوان اقتراحات بناءة عن تشكيل المجالس الاقليمية (اذ لم يكن مفر من هذا ما دام الفرنسيون يصرون على مبدأ الحكم المحلى) ، أما غير هذا من الموضوعات المقترحة على الديوان فقد تشبث فيها بالنظام الحاضر ، ورأى الابقاء على العادات والتقاليد القديمة أو ردها الى ما كانت عليه . ويقول الجبرتي ان الأعضاء المسيحيين كانوا على تمام الاتفاق فى هذا مع زملائهم المسلمين . وكان الاجراء المالى الوحيد الذى اقترح هو فرض ضريبة تصاعدية على العقارات فى المدن . يقول الجبرتي : « ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغظهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا

فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الامور ، ولم يتفكر أنه فى القبضه مأسور ، (٢٣) .

كان رد الديوان العام استنكارا لا ريب فيه - وان يكن غير مباشر - لسياسة بونابرت : فقد قضى بالآ يحدث تغيير فى نظام الحياة الجارى ، وأن يظل كما كان من قبل وكما سيكون من بعد ، أما الاحتلال الفرنسى فليس الا عرضا زائلا ، ومحنة يصبر عليها الشعب الى أن تنتهى النهاية التى لا مفر منها . ولكن السلطان الكبير شاء أن يخطئ تفسير المعنى الذى رمى اليه الشيوخ . لا بل انه أفلح فى روايته التى أملاها بسانت هيلانة فى أن يقلب هذا الرد فيجعله استحضانا لاصلاحاته المقترحة . والذين يصنعون التاريخ ، ويكتبونه أيضا ، يتمتعون بامتياز فذ هو كتابته مختلفا تمام الاختلاف عن الكيفية التى صنعوه بها . ففي ١٧٩٨ لم يكن لدى بونابرت أى شك فى مغزى تصريح الديوان . وقد أعطته الثورة التى قامت اثر ذلك ذريعة لحل الديوان ، فلما أعيد تشكيله بعد شهرين ، لم يبق له من أهميته الأولى غير ظلها .

ولما كانت مصر لم تنضج بعد لتقبل ما يجلبه الحكم الفرنسى من اصلاح ومزايا ، لم يكن بد من كسب رضى الشعب بطرق أقل مباشرة . فما داموا لا يحترمون غير القوة ، فيجب أن يحكموا حكما حازما ، وما دام الحافز الوحيد لهم هو النعمة الدينية ، فلا بد من توجيه هذه النعمة واستغلالها . وقد وردت هذه الفكرة الطريفة فى خطاب كتبه بونابرت لرئيس حكومة جنوة المؤقتة فى عام ١٧٩٧ : « لا تنس أنك كلما جعلت الدين ، أو حتى الخرافة ، يسطرع مع الحرية ، فان النصر سيعقد دائما للدين على الحرية فى عقل الشعب » (٢٤) . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن على المشرع أن يروض الدين لا أن يقاومه . وقد حدا هذا المبدأ ببونابرت الى رد الكنيسة الكاثوليكية الى فرنسا بعد رجوعه من مصر ، وهو اجراء وصفه بأنه « لقاح ضد الدين » (٢٥) . وقد حاول أن يستعمل فى مصر هذا الدواء الذى هو من جنس الداء . فكتب لكليبر يقول : « علينا أن نهدهد التعصب حتى ينام قبل أن نستطيع اقتلاعه » (٢٦) . وكان سبيله الى هذا أن يزعم أنه مبعوث العناية الالهية . ولكن هذه الوسيلة باءت بالفشل أينما استخدمها ، فقد كانت فكرة الناس عنه أنه طاغية منافق .

وكان يحكى فى سياسته الدينية فى مصر نمودجا مشهورا . كتب فى سانت هيلانة يقول : « ان الافكار الدينية كانت على الدوام مهيمنة على الشعب المصرى فى شتى العصور . . . فلما ظهر الاسكندر الاكبر على حدود بلادهم جاعوا ليحيوا هذا الرجل العظيم بوصفه محررهم . ولما عبر الصحراء فى زحف لم يستغرق غير أسبوعين من الاسكندرية الى معبد آمون ، ولما جعل الكاهنة تستقبله بوصفه ابن جوبيتر ، كان يفعل هذا وهو على وعى تام بعقلية هؤلاء الناس . . . وقد حقق بعمله هذا ، من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد ، أكثر

مما كان يحققه لو بنى عشرين حصنا وعزز جيشه بمائة ألف من المقاتلين المقدونيين ، (٢٧) .

لقد كان الاقتداء بالاسكندر حلما يداعب خيال نابليون منذ نعومة أظفاره . ووجه الشبه بين الحالين هنا واضح : فعليه أن يحل بالأزهر محل معبد آمون رع ، ويروى نابليون في تاريخه للحملة المصرية وعايته للأزهر في لذة واغتياب . يقول :

« ان مدرسة الأزهر - التي تقابل السوربون عندنا - أشهر مدارس الشرق قاطبة . وقد أنشأها صلاح الدين (*) . وكان ستون من العلماء يناقشون فيها الفقه ويفسرون القرآن والحديث . وهي المركز الوحيد الذي يستطيع أن يضرب للناس المثل فيقتدى به الرأي العام في العالم الاسلامي وفي مذاهب الاسلام الأربعة ، وهذه المذاهب الأربعة . . . يختلف أحدها عن الآخر في نظام العبادة فقط . ويرأس كلا منها في القاهرة مفت . ولم يغفل نابليون قط عن كسب رضاهم وتملقهم . كانوا شيوخا جديرين بالاحترام لفضلهم وعلمهم وثرائهم ، بل ومولدهم . وكانوا عند شروق كل شمس يأتونهم وعلماء الأزهر الى قصره قبل الصلاة فيملا حرسهم ساحة ميدان الأزبكية ، ويمتطون بغالهم المطهمة ومن حولهم أتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم ، فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية . . . وفي القصر . . . يستقبلون بالتجلة ، وتقدم لهم الشربات والقهوة . وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الأريكة ، ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة في القرآن ، وبطلبه تفسير الآيات الهامة ، وبإبداء إعجابه العظيم بالرسول . حتى اذا غادروا القصر انصرفوا الى المساجد التي يجتمع فيها الناس ، فحدثوهم بآمالهم ، وهدأوا من روع هذه الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . فكانوا يؤدون للجيش خدمات ايجابية جدا » (٢٨) .

وقد حاول بونابرت في أحاديثه مع العلماء والمفتين أن يقنعهم بأن الرسول خصه برعايته ، . والا فكيف أتاحت له هزيمة المماليك الشجعان ؟ « ان هذه الثورة العظمى تنبأ بها القرآن في عدة آيات » (٢٩) . وأعرب أئمة الدين عن محبتهم للسلطان الكبير : « فهو في رأيهم مقدر من عند الله » . هذا على الأقل ما أكدته السلطان الكبير في سانت هيلانه . ولكنه يسلم بأن تسمية الفرنسيين بالكفار آثار « إقلاق وسوء الفهم » في الأقاليم .

« كان السلطان الكبير في أحاديثه (مع الشيوخ) يشكو بلهجة تغلب عليها المرارة ، من المواعظ العدائية التي يلقيها الأئمة في المساجد في صلاة

(*) خطأ بونابرت هنا فنسب بناء الجامع الأزهر الى صلاح الدين الايوبي ، والواقع أن الأزهر بنى في عهد الفاطميين (المترجم) .

«الجمعة ، ولكن اللوم والانتذار اللذين وجههما الشيوخ لهؤلاء الأئمة المشاغبيين لم يكونا كافيين . وأخيرا ، وحين رأى أن اللحظة المواتية آتت ، قال لعشرة من كبار الشيوخ - وكانوا أكثرهم ولاء له : « لابد أن نضع حدا لهذه الفتن : أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا يمين الطاعة لي ، واصفرت وجوههم لهذا الطلب فأنبأت برعب دفين . ثم غلبهم الوجوم والارتباك . وطلب الشيخ الشرقاوى ، كبير علماء الأزهر ، الكلمة ، وقال بعد أن استجمع شجاعته ، « انك تطلب رعاية الرسول الذى يحبك ، وتريد العرب المسلمين أن ينضوا تحت رايتك ، وترغب فى استرداد أمجاد العرب ، وأنت لست مشركا ولا وثنيا . فاعتنق الاسلام اذن ، لأنك لو فعلت لبادر الى الانضواء تحت لوائك مائة ألف عربى من بلاد العرب ومن مكة والمدينة ، ولاستطعت - وأنت قائدهم ومنظمهم - أن تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل أمجاده » . فلما قال هذا علت الابتسامات وجوه الشيوخ ، وركع الجميع ضارعين الى الله أن يسبغ حمايته . وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب الجنرال » (٣٠) .

وقد يبدو غريبا لأول وهلة ألا يستحق هذا المنظر المشهود الذى وصفه نابليون هذا الوصف الحى ، ولا نتائجه الغريبة ، سطرا واحدا أو إشارة فى كتابى الجبرتى ونقولا الترك . ولكن مزيدا من التأمل يدلنا على أن نابليون لا يبين بوضوح التاريخ الذى وقع فيه . ويزيد هذا الغموض غرابة أنه كان يحسب تاريخه للحملة المصرية أفضل من « التعليقات » التى كتبها يوليوس قيصر ، لأنه أورد فيه تواريخ الحوادث . ومع أنه من العسير أن نثبت أن هذا المشهد لم يقع على الاطلاق ، فإن هذا الفرض مقبول الى حد كبير . وأغلب الظن أن الذى حدث فعلا أن الحجج التى نسبها نابليون فى منفاه للشيوخ والعلماء كانت فى الواقع حججه هو التى بسطها لهم . فهو الذى اقترح عليهم رغبته هو وجيشه فى اعتناق الاسلام ، يقول : « سرت بين الناس مئات الشائعات . فقال بعضهم : ان النبى نفسه ظهر للسلطان الكبير وقال له : ... اجهر بايمانك بأركان دينى لأنه دين الله . ان العرب فى انتظار هذه العلامة ، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك » (٣١) . وكل الدلائل تقطع بأن الشائعات لم تنتشر بين الناس كما زعم ، بل بأنه هو الذى نشرها عمدا . ويواصل حديثه ، وفيه رنين الصدى هذه المرة ، فيقول : « ان السلطان الكبير انتهر فرصة هذه الشائعات ليلمح بأنه فى رده (على النبى) الشمس مهلة سنة يعد فيها جيشه ، فمنحها له النبى ، وأنه تعهد بأن يبنى مسجدا عظيما ، وأن الجيش كله سيعتنق الاسلام ، وأن اثنين من كبار الشيوخ ، هما الشيخ السادات والشيخ البكرى ، يعتبرانه مسلما فعلا » .

وليس هناك ما يدعونا للتشكك فى هذا القدر من رواية نابليون المزوقة : فقبل أن يمضى طويل وقت على وصوله القاهرة بين له الشيوخ بأنه ما دام يزعم

أنه من أتباع محمد ، وما دام جيشه يحب الاسلام ، فإن أمثل الطرق لاثبات اخلاصهم هي اعتناق الاسلام . واذ كان بونابرت قد انقطع ما بينه وبين العالم الخارجى ، فقد رأى من حسن السياسة أن يتملق آمالهم حتى ولو كانت تفتقر الى الاخلاص كدعاواه . ولكنه وهو الرجل الواقعى لم يكن فى الوقت نفسه راغباً فى الوفاء بوعده الا اذا أكرهته ضرورة قصوى . وقد قال لرفيقه جورجو فى لحظة سهو فى سانت هيلانة : « ان المرء فى هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقا للناس ، وأن يبذل الوعود الكثير ، ولا يفى بوعده منها » (٣٢) . وكان الشيوخ يفكرون بنفس الطريقة ، فكان كل من الطرفين يتظاهر بأن صاحبه استغفله .

وتلا ذلك نقاش عجيب بين شيوخ الأزهر وبونابرت . وقد أخبر بونابرت الفقهاء بأن اعتناقه هو وجيشه الاسلام دونه عقبتان . أولاهما مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمر . فرجاله الذين ألفوا شرب الخمر طوال حياتهم لن يرتضوا الزهد فيها ، وهم كذلك زاهدون فى الختان أشد الزهد . وتناقش الفقهاء فى هاتين القضيتين طويلا ، ثم طلعا بفتوى تزعم أن الختان نافلة ، وأنه ليس ضرورة لا غنى عنها لمن يعتنق الاسلام ، أما الخمر فقد يشربها الانسان وهو مسلم ، وان يكن فى حالة من الاثم لا تجعله أهلا للاستمتاع بمباهج الجنة . وفكر بونابرت فى الأمر ثم صرح بأنه مقتنع بجوابهم عن الأمر الاول ، ولكنه قال : ان الفقهاء لابد يمزحون عن الأمر الثانى : فلم يعتنق انسان ديناً يحكم عليه بالهلاك فى الجحيم لأنه يواصل ممارسة عادة لا ينوى الاقلاع عنها ؟ واختل الفقهاء ليعيدوا النظر فى المشكلة طالبين المعونة من الله لينير بصائرهم . وأخيرا أصدروا فتوى ثانية ، فيما روى نابليون - وليس لدينا رواية غير روايته - : ومؤداها أن فى وسع الفرنسيين أن يشربوا الخمر ويدخلوا الجنة رغم هذا ، بشرط التكفير عن هذا الاثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المألوف . وبهذه المناسبة نذكر أن الشيخ البكرى ، الذى كان فى هذا الجدل الفقهي يوفق بين الطرفين ، ألف كل ليلة أن يشمل بشرب خمر مزجت فيها زجاجة من البرجندى بأخرى من البرندى (*) .

ولا يذكر نابليون على التحديد متى صدرت الفتوى الثانية ، ولكن يبدو من سياق الأحداث أنها لابد صدرت خلال غيابه فى الشام فى ربيع ١٧٩٩ . وبعد عودته للقاهرة أصدر علماء الأزهر بيانا يزعم أن السلطان الكبير « يحب المسلمين ، ويعز الرسول ، ويهذب نفسه بقراءة القرآن كل يوم ، ويريد بناء مسجد لا نظير له فى بهائه وفخامته ، ويود اعتناق الاسلام » (٣٣) . ولكن نابليون لا يقول لنا ، وهو يسوق هذا البيان ، انه لم يصدر الا بناء على طلبه .

(*) هذا ما يؤكد على أى حال رستم رضا مملوك نابليون الشهير فى مذكراته ، وكان من ممالك الشيخ البكرى .

وربما بدت هذه الوعود معقولة في نظر العلماء على ما فيها من سخرية ، لأن الجنرال مينو كان قد اعتنق الاسلام قبيل ذلك ، لأسباب تتصل بالغرام والسياسة أكثر مما تتصل بالغيبيات .

٣

أفضى نابليون مرة لأحد رفاقه بسانت هيلانة بهذا الحديث « ليس الذي يعجبني في الاسكندر الأكبر حملاته الحربية ... بل أساليبه السياسية ... » لقد كان محقا حين أمر بقتل بارمينون الذي عارض بحماقته في تخلي الاسكندر عن التقاليد الاغريقية . وكان منتهى حسن السياسة منه أن يذهب لزيارة معبد آمون ، فهو بهذا فتح مصر . ولو أنني مكثت في الشرق لأقمت على الأرجح دولة كدولة الاسكندر بذهابي الى مكة للحج ، (٣٤) . ونابليون هو الرجل الذي قال للجنرال كولنكور وهو يهرب من روسيا في غير هواة : « انني حين أكون في حاجة الى زيد من الناس لا أحجم عن شيء : فأنني أقبل ... » (٣٥) .

وجد السلطان الكبير نفسه في مأزق وهو يمارس سياسته الاسلامية . كان عليه - ان شاء أن يدخلها على الشيوخ - أن يقنعهم باخلاصه ، وعليه - ان شاء أن يدخلها على الجيش - أن يقنع جنوده بعدم اخلاصه . ولكنه أخفق في اقناع الشيوخ ، وعجز عن تهدئة بعض الريب والشكوك التي ساورت أتباعه . فما الذي يريد أن يفعله بالضبط ؟ أهو يريد انشاء مستعمرة لفرنسا ؟ أم امبراطورية شرقية لنفسه ؟ أم مجرد كسب الوقت ؟

وكان أشد قواد بونابرت صرامة في نقده كليبر ، الذي يكبره سنا ويسبقه ترقية . ولما كان هذا الالزاسي الصريح الفارع الإقامة جنديا محترفا ، فقد كان يضيق برجال السياسة ، وكان على علاقات سيئة بهم منذ زمن طويل . وقد ارتضى أن يحارب تحت قيادة بونابرت ليباعد ما أمكن عن حكومة الادارة . ولكنه وان احتقر حكومة الجمهورية ، الا أنه آمن بالجمهورية . وسرعان ما تبين في بونابرت رجلا سياسيا أكثر منه قائدا - ولكنه سياسي ذو أهداف أبعد وأشد خطرا من أهداف العصاة التي تحكم فرنسا . فبونابرت انتهازي . كتب كليبر في يومياته الموجزة يقول في وصف رئيسه : « ليس لديه خطة ثابتة . وكل شيء عنده يجري بانتفاضات قصيرة . وأعمال اليوم تتم وفق حاجة اليوم . انه يزعم أنه يؤمن بالقدر » (٣٦) . وبونابرت في رأى كليبر دكتاتور يريد أن يعرف كل شيء خيرا مما يعرفه أي انسان غيره . يقول عنه : « انه عاجز عن تنظيم أي شيء أو ادارته ، ومع ذلك فما دام يريد أن يفعل كل شيء ، فهو ينظم ويدير . ومن هنا الفوضى والاسراف في كل شيء . ومن هنا حاجتنا لكل شيء ، ومن هنا الفقر الذي نعانيه ومن حولنا الخير والرخاء » (٣٧) . وبونابرت

مدلل : « أهو محبوب ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟ انه لا يحب أحدا . ولكنه يحسب نفسه قادرا على التعويض عن هذا بالترقيات والعطايا ، (٣٨) .

كان كليبر معجبا بعبقريه بونابرت الحربية وجراته ، ولكن لم يمض عليه بمصر أكثر من أسابيع حتى بدأ استهتار رئيسه التام يروعه . فالقائد الذى له صفات الجندى الأصيل لا يرسل جنوده ليعبروا صحراء بلا زاد ولا ماء ، ولا يجازف بما جازف به بونابرت حين زحف بجيشه على مصر . وقد قال كليبر مرة ان بونابرت من طراز القواد الذين يريدون موردا من الجنود لا يقل عن ١٠٠٠٠ جندى فى الشهر . ومرة قال بونابرت عبارة يقدم بها لملاحظة له : « أما من جهتي ، أنا الذى ألعب مع التاريخ لعبة » ، فأفزع هذا القول كليبر فزعا جعله يسجل الكلمات فى مذكرته .

كان مسلك بونابرت فى مصر مسلك عاهل شرقى لا قائد من قواد الجمهورية الفرنسية . ولعله لعب هذا الدور بدافع الضرورة السياسية ، ولكن يلوح أنه كان يستطيه كثيرا ، وأنه أسرف فى لعبه . وكان واضحا لكليبر ، منذ البداية تقريبا ، أن الحملة طائشة ، سيئة التجهيز ، مقضى عليها بالفشل . لذلك لم يشارك « المستعمرين » حماستهم - وعلى رأسهم مينو ومونج - وبدأ له أن أحكم طريق هو الجلاء عن مصر ، لا خسارة مزيد من الأرواح وبذل مزيد من التضحيات دون مقابل . فاذا لم يتيسر الجلاء ، فخير ما يمكن عمله هو الانتظار الى أن تتيسر المفاوضة للتسليم بصلح شريف . وفى الوقت نفسه يجب - للسيطرة على الموقف - أن تحكم مصر بالحزم والعدل لا بالمنشورات المزوقة من ناحية ، والطغيان والتعسف من الناحية الأخرى . وقد أثبت حكم كليبر لمصر بعد رحيل بونابرت الى فرنسا ، أنه يحترم الاسلام على الأقل بقدر ما كان يحترمه سلفه ، وان لم يجد ضرورة تحمله على التصريح بأنه سيعتق الاسلام ، ويرد للأمة العربية أمجادها ، كما فعل بونابرت .

أما عدااء كليبر لبونابرت - ذلك العدااء الذى بلغ قمته فى خطاب الاتهام اللاذع الذى وجهه كليبر للإدارة عقب رحيل رئيسه عن مصر - فقد اشتعل أول مرة حين كان حاكما للاسكندرية . ولم يكن كليبر من قبل بالقائد السلس القياد ، ولكن بونابرت أذى شعوره بأشد مما آذاه أى رئيس آخر . واشتد ضيقه بالأوامر المتعسفة والتعنيف المستمر الذى كان يتلقاه من القاهرة ، لأن جرح رأسه وان التأم كان يسبب له آلاما حادة . وكانت شكاوى كليبر المتصلة - من جهة أخرى - من ألوان النقص ، وميله الى تعديل الأوامر أو تجاهلها حسبما يراه مناسبا فى ضوء الظروف المحلية ، تغيط بونابرت . وفى ٣ سبتمبر التمس كليبر من بونابرت أن يستدعيه من الاسكندرية : « أرجوك أن تسمح لى بالانضمام الى فرقتي من جديد . فأنا أرى أن سلوكى يناقض أوامرك ، والسياسة الادارية التى انتهجتها ، مناقضة لا مناص معها من أن يسوءك » (٣٩) .

ثم كرر هذا الرجاء بعد أربعة أيام ، فكتب لرئيسه يقول : « اننى لا أعرف شيئا عن الادارة » (٤٠) . كذلك كان الخطاب الذى كتبه لبرتييه فى نفس اليوم لا يقل ضيقا وحدة . فالأمر الذى أصدره بونابرت بنقش أسماء الأبطال الذين ماتوا فى معركة الاسكندرية على عمود بومبى لم يمكن تنفيذه لأنه لم يعط قائمة بأسمائهم ، وحتى لو أرسلت له القائمة ، فان نقش الأسماء لن يتيسر قبل احتفال الأول من فندمير ، لأن عمود بومبى مصنوع من الجرانيت لا من الزبد ، أما صحيفة « بريد مصر » التى كان برتييه قد وافاه بعدة نسخ منها ، فقال عنها : « ان صحيفتك الصادرة بالقاهرة ليس فى تحريرها من الجاذبية ما يتيح الأمل فى الحصول على مشتركين كثيرين فيها » . فهى على الأقل يجب أن تكتب بالفرنسية » (٤١) .

وما ان غادر رسول كليبر الاسكندرية فى طريقه الى القاهرة حتى أتاه رسول القاهرة بتوبيخ شديد اللهجة من رئيسه . كتب له بونابرت يقول : « تفضل على ألا تقلب ترتيباتى رأسا على عقب » . فهى مبنية على عوامل لا تستطيع تقديرها ما دمت بعيدا عن مركز الظروف » (٤٢) . وأعقب بونابرت هذا بثورة على ما اعتبره اسرافا فى الانفاق ، لا سيما على المستشفى العسكرى بالاسكندرية ، وثورة أخرى بسبب رفض كليبر أن يفرض قرضا اجباريا اضافيا على تجار الاسكندرية . لقد كان واضحا أن كليبر لا يتبين خطة رئيسه العظمى ، والتمس كليبر فى سخطه أن يجرى تحقيق فى مسلكه ، وختم خطابه قائلا : « انك نسيت أيها المواطن الجنرال وأنت تكتب ذلك الخطاب أنك تمسك بمحفار التاريخ فى يدك ، وأنت تكتب لكليبر . وانى أتوقع أيها المواطن الجنرال أن أتسلم بالبريد التالى أمرك بوقفى عن عملى ، لا بوصفى حاكما على الاسكندرية فحسب ، بل عن جميع وظائفى فى الجيش ، الى أن تحاط احاطة أتم بما يجرى وما جرى هنا » (٤٣) .

وتجاهل رد بونابرت هذه الغضبة وكتب يقول : « ان كنت حقا أمسك بيدى محفار التاريخ فأنت أقل الناس حقا فى الشكوى منى » (٤٤) . ولكن كليبر لم يلب : ففي ١٩ سبتمبر سلم قيادته للجنرال مانكور ، وبعد ثلاثة أيام التمس أن يعاد الى فرنسا لاعتلال صحته . ولم يكن فى وسع بونابرت أن يخسر كليبر ، وكان يستطيع ، اذا احتاج الى رجل ، أن يغير لبوسه ، فأجاب « يحزننى أن أسمع بتوعلك . وانى لأرجو أن تتحسن صحتك بفضل مناخ القاهرة ، وأنتك بعد أن تبرح رمال الاسكندرية ستجد مصرنا أقل سوءا مما تبدو لأول وهلة ثق فى صدق رغبتى فى أن أراك وقد استرجعت صحتك ، وفى الأهمية التى أعلقها على احترامك و صداقتك . وانى آسف لأننا تشاجرنا قليلا ، وأنت تظلمنى اذا ارتببت فى أسفى . وفى مصر تنقشع الغيوم (ان كان هناك غيوم اطلاقا) بعد ست ساعات على الأكثر . أما أنا

فان كانت هناك غيوم فى سماء صداقتنا فقد انقشعت عندى بعد ثلاث . ان احترامى لك ، على الأقل ، كبير كاحترام الذى كنت تبديه لى أحيانا . أرجو أن أراك بالقاهرة بعد أيام .. ولك تحيتى ومحبتى ، (٤٥) .

ولم يستطع كليبر أن يفعل شيئا ، ففى ٢٢ أكتوبر وصل الى القاهرة ليستمتع بمناخها الصحى ، ويتلقى الحكمة التى فى خطة بوناپرت العظمى عن كذب . وكان أول ما رأى وسمع هى المدافع الفرنسية فى القلعة ترمى الأزهر بقنابلها ، وجموع المسلمين الثائرين الصاخبين يذبحون الفرنسيين والنصارى ويقيمون المتاريس فى الشوارع ، والمؤذنون يحرضون المؤمنين من أعلى المآذن على قتل أصدقائهم الفرنسيين .

٤

أغرب ما فى الثورة التى نشبت بالقاهرة فى ٢١ أكتوبر أنها أخذت الفرنسيين على غرة ، مع أن اقترابها كان ينادى به على الملا من أسطح المنازل وقمم المآذن .

وقد عللت الثورة بمختلف الأسباب . ويبدو أن نابليون والجبرتى متفقان - فى روايتهما - على تعليل الثورة بالأوامر الادارية الفرنسية التى أبغضها الشعب ، وأهمها ما ذكرنا من أوامر مالية - كالقروض والبيع الاجبارية ، وأوامر الاستيلاء ، والغرامات ، ورسوم التسجيل .. الخ . على أن هذه كلها لم تمس الا الطبقة العليا والوسطى ، اللتين لم تلعبا دورا ايجابيا فى الثورة ولكن قوانين أخرى مست عامة الشعب مسا مباشرة : فقد أمر بوناپرت بإزالة جميع البوابات التى تفصل أحياء المدينة عن بعضها البعض تيسيرا للانتقال فى القاهرة ، وأمر أصحاب الحوانيت بإضاءة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام حوانيتهم ، وأمر بهدم عدة بيوت ومسجد لأنها عاقت استحكامات القلعة ، ووضع مزيدا من المدافع فى القلعة وصوبها الى المدينة ، وأدخل قوانين صحية جديدة نظم بها دفن الموتى للتخفيف من خطر الأوبئة ، ولكنها نفرت عامة الشعب . على أن الشرارة التى أوقدت نار الثورة فى رأى الجبرتى هى ضريبة العقارات التى أوصى بها الديوان .

ومع أن هذه العوامل كلها أعانت بلا شك على قيام الثورة ، الا أنها لا تعللها تعليلا مرضيا . والمعلم نقولا الترك هو الذى يتعمق الثورة الى أسبابها الحقيقية . فقد أوفده سيده أمير الدروز الى مصر ليلاحظ ما يجرى فيها ، فأحسن نقولا الملاحظة . يقول ان الفرنسيين فى عزلتهم اليائسة حاولوا التودد الى الشعب « لأنهم نظروا ذواتهم أنهم بقوا قلائل ولا عمال يحضر لهم أمداد ، بل كلما على نقص من غير زيادة . فما أمكنهم الا المساواة والمواساة ، وكانوا

يقدموا لأهل البلد كل محبة لكي يجلبوهم الى محبتهم ، ولكن هذا الشيء ضد الطبيعة ، (٤٦) . « فلهذا السبب صعب جدا دخول الافرنج على المصريين الى هذه الديار ولا سيما اذ كانوا يروا نساءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين من الافرنج جهارا ، ماشيين معهم فى الطريق ، نايمين قائمين فى بيوتهم ، فكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظر . وناهيك تلك الحمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا . هذا الرويا والمنظر كانت تجعل المسلمين يتنفسوا الصعداء ويطلبوا الموت فى كل ساعة . ولكن فى مدة الفرنساوية كانت الناس الدون فى أحسن حال من بياعين وشياليين وأرباب صنایع وحمير وسياس وقوادين ونسا خوارج . وبالنتيجة الأناس الأدنيا كانوا منشرحين ، وسببه كان اطلاق الحرية . وأما الشطر الثانى الأعلى والأوسط شديد التعب جدا من كامل الملل لسبب وقوف الحال من عدم الداخل والخارج ، (٤٧) .

والواقع أننا اذا استثنينا التجارة مع بلاد العرب ، فان الصادرات والواردات توقفت فعلا « ان الانكليز قفلوا (على الفرنساوية) البواغيز بأقفال انكليزية ، (٤٨) ومع ذلك - كما يقرر نقولا الترك - لم يكن هناك عجز خطير فى الواردات ، بل ان الطعام كان أوفر من العادة ، وهبطت أسعار المواد الأساسية . لذلك يحق لنا أن نتساءل : لم ثارت الطبقات الدنيا التى حسنت أحوالها ، بينما امتنع الأغنياء عموما عن الثورة وهم الذين يحق لهم أن يشكوا ؟ **والجواب واضح** : فقد استخدم الأغنياء والمستنيرون هؤلاء الفقراء المتحمسين المحرضين مطية لبلوغ هدفهم .

أما ما نقر الأهالى فلم تكن مظالم السلطات الفرنسية - فقد ألفوا المظالم - بل البدع التى أدخلها الفاتحون حتى وان كانت لصالحهم . وقد زاد هذا النفور تحريض المتعصبين من الزعماء الدينيين (لا سيما الذين لم يعطوا المناصب أيام حكم الفرنسيين) ، والدعاية التى بثها عمال الجزائر باشا وبكوات المماليك المنفيين . فكان الجزائر وابراهيم بك يبعثان من الشام بالرسول تلو الرسول ، وكانت فرمانات السلطان سليم التى تدعو جميع المسلمين الى الجهاد ضد الفرنسيين تدخل مصر بهذه الطريقة ويقرؤها الأئمة علنا فى المساجد . وقد ذكرت أن الفرنسيين كفار ، وأعداء لا للإسلام فحسب ، بل لجميع الأديان ، وأن جيوش الدولة العثمانية قادمة سريعا لتسحقهم . « وستغضى مراكب عالية كالجبال سطح البحار . وستصل مدافع تبرق وترعد ، وأبطال يزدرون بالموت فى سبيل الله ... ليطاردوا الفرنسيين » . أما الجزائر نفسه « فقد كتب له باذن الله الهيمنة على إبادتهم ... ولن يبقى لهؤلاء الكفار أثر ، لأن هذا وعد الله . ومآل أطماع الأشرار الحسران ، ومصيرهم الهلاك » (٤٩) . ووافق تهديد الجزائر وعيد ابراهيم لكل متعاون مع الفرنسيين . وعلم بهذه الرسائل جميع أعضاء

ديوان القاهرة الذين يلقون بونابرت كل يوم . وكانت تقرأ في المساجد ،
والمؤذنون يحضون الناس على الثورة من قم المآذن خمس مرات في اليوم .
فلم يبدأ شهر أكتوبر حتى قامت الاضطرابات في الدلتا : ففي منطقة المنزلة
شن الفلاحون حربا تشبه حرب العصابات بقيادة حسن طوبار الثرى الذى كان
يراسل ابراهيم بك ويتظاهر فى الوقت نفسه بصداقته للفرنسيين . وفى طنطا
قام الأهالى بثورة فى ٧ أكتوبر استجابة لمنشورات الجزار ، ولكنها أخفقت .

غير أن الفرنسيين غفلوا تماما عما يبيت لهم ، على الرغم من هذه النذر
بهبوب العاصفة . كتب سكرتير بوسيليج فى ٦ سبتمبر يقول : « ان شعور
الاطمئنان الكامل يسود جميع طبقات المجتمع بفضل اعتدال حكومتنا » (٥٠) .
وفى ١٤ سبتمبر وجد بونابرت نفسه وهو خارج من بيت الشيخ السادات
(أحد أعضاء ديوان القاهرة) محاطا بجمع من الناس ، يقول الجبرتى انهم
كانوا « يغطون ويخلطون » فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله امر من
ذلك ، فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال الفاتحة ، فشخص اليهم وصار
يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلطفوا له القول ، وقالوا انهم يدعون لك ، وذهب
الى داره . وكانت نكتة غريبة وساعة اتفاقية عجيبة كاد ينشأ منها فتنة « (٥١) » .
ومع أنه من الصعب على من يجهل العربية أن يميز بين اللعنات وعبارات
الاستحسان ، فانه أصعب أن نصدق أن بونابرت قد انطلى عليه هذا الجواب
تماما . والأدلة متوفرة على أنه كان على بينة من نشاط الأئمة والمؤذنين فى تهيج
الأهالى : وهو لم يطلب الى ديوان القاهرة أن يعلن ميله للإسلام الا رغبة فى
مقاومة هذا النشاط . كذلك لابد أنه كان على علم برسل الجزار و ابراهيم ،
لأنه أمر بقطع رأس اثنين منهما . اما أنه كان يعتقد حقا ، أو يتظاهر بالاعتقاد ،
بأن الفرمانات التى أذاعت اعلان تركيا الحرب على فرنسا قد زيفها الجزار
والماليك ، فذلك أمر لعلنا لن نستطيع القطع فيه بجواب . ولكنه كان أوفق
له على أية حال أن يعتبر هذه الفرمانات مزيفة ، ويزعم أن الأمور تجري على
ما يرام بينه وبين الباب العالى .

ومع ذلك أخذت الثورة بونابرت على غرة حين قامت . كان يشعر ، وهو
مؤيد فى الظاهر من أعضاء الدواوين وكبار زعماء المسلمين ، أن من السهل
السيطرة على الغوغاء . ولكنه كان فى هذا واهما . وأغلب الظن أنه لم يندفع
فى ولاء المشايخ ، ولكنه كان يعتمد على خوفهم . وما من ريب فى أنهم غدروا
به . فقد أمسكوا عنه علمهم بالثورة الوشيكة ، ولكن من المؤكد أيضا أنه لم
يكن لهم يد فى التحريض على الثورة . ذلك أنهم - وهم من سراة القوم - كانوا
سيخسرون الكثير اذا أخفقت ، ولما كانوا ذوى مكانة مرموقة بين الناس ، فقد
كان فى استطاعتهم دائما أن ينضموا اليها اذا نجحت .

أما الطبقة الوسطى - وهم التجار وأصحاب الحوانيت - فإن أكثرهم كذلك لم يشارك بدور إيجابى فى الثورة ، بل ان كثيرا منهم خبأوا الفرنسيين وقدموا لهم المعونة كما أجمع كل الشهود . غير أن بلوغ الثورة درجة الغليان فى اللحظة التى أوشكت فيها ضريبة باهظة جديدة على الوقوع على كواهلهم ربما حمل بعضهم على الترحيب بنشوبها . أما العناصر المجاهدة حقا ، فهم الغلاة فى الدين - كالأئمة ، وطلاب الأزهر ، والأولياء ، والفقراء والمكفوفين ، والمتسولين ، الذين انضم الى صفوفهم ذلك الضرب من الغوغاء الذى يؤلف « العالم السفلى » فى المدن الكبرى ، وينطلق فجأة كلما وجد السلب والنهب والقتل سندا أعلى يؤيده . ولم يكن هذا الجمع يختلف كثيرا عن الجمع الذى سار الى فرساي فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ ، أو الذى جاب شوارع باريس فى ٢ سبتمبر ١٧٩٢ وهو يرفع ثديى الأميرة دولامبال على رؤوس الرماح .



يقول نقولا الترك مشيرا الى ثورة ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ : « فى ذات يوم نهار الأحد فى عشرين ربيع آخر نزل أحد المشايخ الصغار وكان من مشايخ الأزهر وبدأ ينادى فى المدينة أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى لنا أن نغازى فى الكفار ، وكان أغلب أهل البلد معهم الاس بذلك ، وأما الفرنسيات فكانوا متغفلين عن ذلك . فى الحين والساعة قفلت البلد ، فبلغ الخبر أولا الى شيخ البلد الذى هو الجنرال دىوى . وهذا الرجل كان صعبا جدا ، فقام من ساعته . وقال ما الخبر . فقالوا له ان جعيدية البلد قايمين على ساق وقدم ومجهرين نحو خان الخليلي والنحاسين . فركب وأخذ معه خمسة خيالة فقط بناء أنه يكشف الخبر ويجمعهم . ففيما هو جازا عند خان الخليلي حيث كانت هناك بعض جماهير وعمالين يبنون متاريس ، فبرز لهم أحد اليلضاشات من أحد العطف ، وضربه فى خاصرته بخشب فوق من ظهر الحصان ، فحملوه جماعته وأتوا به الى حارة الأفرنج القديمة فمات بالطريق ودفنوه بالجينية ، (٥٢) .

ويقول ديتروا فى يوميته ان ديبوى قتل برمح لا بعصا ، وكان على أى حال أول ضحايا الثورة . فى الساعة السادسة صباحا وضع - كما يقول ديتروا - أن أمرا ذا بال وشيك الوقوع . كان الناس المسلحون بالبنادق والعصى يجرون الى الجامع الكبير والمؤذنون يرفعون أصواتهم بالتحريض . وأقفلت المتاجر . وفى الساعة الثامنة وقف الجنود على قدم الاستعداد . أما بونايرت فغادر القاهرة هو والجنرالان كفاريللى ودومارتان ومعهم ديتروا - ظانا أنه مسيطر على الموقف تماما - ليفتش على بعض الحصون الجارى إقامتها فى مصر القديمة وجزيرة الروضة . وفى نحو العاشرة تلقى نبأ مؤداه أن ثورة عامة

تمسبت ، وأن ديبوى قتل . وعين بونابرت الجنرال بون ليحل محل ديبوى ثم
تقل من فوره غائدا الى القاهرة . ولما وصلت جماعته الى باب المدينة استقبلها
سيل من الصخور ، فعاد أفرادها أدراجهم ، ثم وقفوا فى النهاية الى دخول المدينة
من باب بولاق . وكانت القذائف تسمع الآن من كل مكان والبجث ملقاة فى
الشوارع . واشتعلت النيران فى أماكن كثيرة ، ولكن حرس بونابرت أفلحوا
فى العودة به الى ميدان الأزبكية .

وكان العامة فى هذه الأثناء قد اقتحموا حى الأروام وقتلوا الرجال وسبوا
النساء ونهبوا الحوانيت . كذلك حاصروا بيت الجنرال كفاريللى الذى أودعت
فيه بعض الآلات العلمية . وكان كفاريللى مع بونابرت ، ولكن كبير رسامى
الخرائط تستفويد ، وأربعة آخرين من المهندسين ، وجماعة صغيرة من الحرس
العسكرى ، اندفعوا فى غيابه الى منزله لينقذوا آلاتهم العلمية . وظلوا يقاومون
مهاجميهم أربع ساعات ، وأخيرا حاولوا أن يخرجوا من مكنهم . وما هى الا ثوان
حتى ذبح تستفويد وثلاثة من مساعديه . واقتحم العامة البناء . يقول الجبرتى :
« وكان بتلك الدار شئ كثير من آلات المصانع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية
والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظر ، كل آلة لا قيمة
لها (الا) عند من يعرف صنعتها ومنفعتها . فبدد ذلك كله العامة وكسروه
قطعا وصعب ذلك على الفرنسيين جدا ، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك
الآلات ، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات ، (٥٣) .

وبينما كان النهب يدور فى بيت كفاريللى ، حاصر جمع آخر المستشفى
العسكرى وقتل جراحين عند بابه . وسيطر الثوار على القاهرة باستثناء القلعة ،
وميدان الأزبكية ، والثكنات ، ومباني المجمع العلمى (وكلها بعيد بعضها عن
بعض) ، وحاول القاضى مناقشة الجمع فرجموه ، ولكنه أفلح فى الهروب ،
ونهب بيته كما نهبت عدة متاجر للنصارى والمسلمين على السواء .

أما بونابرت فقد ثار غضبه وهو فى مقر قيادته بقصر الألفى . فأمر مدفعية
القلعة المعززة بمدافع الهاويتزر والمورتار بأن تسدد المدافع الى الجامع الأزهر
وما حوله من أحياء هى مركز الثورة ، وكانت أزقتها الملتوية ومتاريسها تجعل
من المحال اتخاذ أى إجراء دون هذا عنفا .

ونسيت القيادة الفرنسية فى هذه الفوضى العلماء والفنانين المقيمين بقصر
نقاسم بك والمنازل المجاورة له ، وكانوا يبعدون عن مقر القيادة نحو ميلين .
ولم يكونوا أول الأمر محاصرين بالضبط ، ولكن جمعا مهددا احتشد حول هذه
المباني . وأرسل مهندسان على وجه السرعة الى مقر القيادة طلبا للنجدة ، فلم
تصلهم الا قبيل المساء على صورة سرية من رماة القنابل ، وأربعين بندقية

لتوزيعها على العلماء ، ومعها ثلاثون قطعة من الذخيرة لكل منهم • ولم يعرف استخدام هذا السلاح غير قلة من العلماء •

وانقضى الليل فى شىء من الهدوء ، وكل فريق يتخذ عدته للغد • وفى نحو منتصف الليل استدعيت سرية رماة القنابل من المجمع • يقول دينون ، وكان يشارك دولومبو وغيره من المدنيين فى مبنى بيت على مسافة من المجمع « وفى صباح الغد استؤنف القتال ، وكنا قد تسلمنا سلاحا ، واستعد جمع العلماء للقتال ، وعين القواد ، وكان لكل خطته ، ولكن أحدا لم يشعر بأنه ملزم بالطاعة » (٥٤) • أما فى قصر قاسم بك فكان مونج يتولى القيادة • ولما رأى بعض العلماء أن الهروب ممكن اقترحوا هذا الحل ، ولكن مونج انتصر عليهم ببلاغته ، فقد سألهم « أتجرؤون على التخلي عن أدوات العلم التى أودعت أمانة فى أعناقنا ؟ » (٥٥) • ولم يجرؤ أحد على ذلك ، وراح العلماء يتصيدون أفرادا من جمع المهاجرين المتكاثرين فى بطولة ، ساعات عدة ، الى أن أنجدهم الدوريات الفرنسية فى الوقت المناسب •

وكان بونابرت فى فجر ذلك اليوم قد أرسل ياوره اللواء سولكوفسكى يحمل رسالة الى الجنرال ديما • ولكن القلزم أبى أن يصل سولكوفسكى الى غايته • ذلك أن جواده انزلق وهو يعبر قرية فى أرباض القاهرة ، فقتل هو وتسعة من الحراس الخمسة عشر المرافقين له • يقول ديفرنوا ان الثوار ألقوا جثته الى الكلاب ليأكلوها • وكان سولكوفسكى جنديا يبشر بمستقبل عظيم ، ووطنيا اتخذ الجندية مهنة لا لشيء الا لأنه حسبها معينة له فى النهاية على القتال لتحرير بولندة ، ومثاليا تغلب عليه المبادئ الراديكالية • ولكن خبرته حين عمل مع بونابرت علمته شيئا فشيئا — كما تكشف مذكراته — أن يتشكك فى أطماع رئيسه • وقد تظاهر بونابرت بأنه يقدر مواهبه ، ولكنه تباطأ فى ترقيته • يقول الجنرال بليار فى يوميته ان موت سولكوفسكى : « أحزن القائد الأعلى الذى قال فى النهاية • لقد مات ، فهو سعيد » (٥٦) • كذلك كان من الموتى السعداء ثلاثة وثلاثون مريضا فى المستشفى العسكرى ذبحوا وهم قادمون الى القاهرة من بلبيس •

وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر واستمر الى المساء • وأصدر بونابرت أمره الى الجنرال بون بأن « يبيد كل من فى الجامع » (٥٧) • يقول الجبرتى : « فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الخورية والفحامين • فلما سقط عليهم ذلك وراؤه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الألفاظ نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق • وتتابع

الرمي من القلعة والكيमान حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل . فلما عظم هذا الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب خدعة وسجال ، (٥٨) .

ولا ريب في أن رؤية الجبرتي ستار المدفعية لأول مرة حملته على المغالاة في تأثيرها . فالأزهر كما يقول نابليون ، وهو يبدو مقنعا في هذه النقطة ، لم تلحق به الا أضرار طفيفة ، ولم يدمر من المنازل في الحي المحيط به غير عدد ضئيل (*) . واستمر ضرب البنادق الموجه للبطاريات الفرنسية من مآذن جامع السلطان حسن وقبته طوال العصر . ولما أقبل المساء وأحدثت القنابل فعلها أحدثت ثلاث أورطات من المشاة و ٣٠٠ فارس بالأزهر . وتقدم رجالها لا يعترض ضربهم وسيوفهم معترض ودخلوا الجامع عنوة . وفي مقدمة الفرسان الذين شقوا طريقهم الى صحنه شخص غريب المنظر ، ذلك هو الجنرال ديما ، الذي جلس بصدرة الأسمر القوى العارى ، على ظهر جواد يشب بقائمه ومنخره ينفثان الدم ، وراح يلوح بسيفه فوق رأسه فبدا صورة تجمع بين الرهبة والجمال ، وصاح المسلمون « انه الملاك ! الملاك ! » - أو هذا على أى حال ما يؤكد ولده ، الذى اخترع خياله الخصب أيضا قصة الفرسان الثلاثة ، والكونت دي مونتكريستو .

وفي لحظة أخلى الجامع ممن فيه . وأخذ يضع مئاث من الثوار أسرى ، ولكن يبدو أن أحدا منهم لم يقتل بحد السيف ، بل ان الجبرتي ، وهو الذى لا يتوانى في سرد فظائع الفرنسيين ، لا يذكر أن مذبحه وقعت - وكل ما قاله ان الفرنسيين انتهكوا حرمة الأزهر . ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتب ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم دأسوها ، وأحدثوا فيه تغوطا ، وبألوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب

(*) لابد أن الأزهر - الذى يجرى ترميمه الآن - كان متهدما بعض الشيء فى عام ١٧٩٨ . ولم تنفجر القنابل التى سقطت فى منطقته على البناء الأصيل ، بل فى الصحن ذى الأعمدة ، ولا شك أنها فتكت بمن سقطت عليهم .

وكسروا أوانيهم ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ،
ومن ثيابه أخرجوه ، (٥٩) .

وبينما كان هذا كله يجرى ، رأى الناس شخصا غريبا يتسلل خارجا من
الأزهر ، وهو كهل فرنسي بدين يلبس خفين ورداء يخفى بين ثناياه شيئا
ضخما . وكان فى استطاعة ضباط المدفعية الفرنسيين أن يروه بمناظيرهم وهو
يتخذ سميته الى الأذربكية ، متعقبا الفرسان ورماة القنابل وجثث القتلى . فلما
وصل مقر القيادة أثار ظهوره الدهشة . ذلك أن الرجل كان المواطن مارسيل ،
المستعرب والمشرف على المطبعة ، وقد أخرج من تحت ردائه مخطوطا رائعا
للقرآن الكريم يرجع تاريخه للقرن الثالث عشر ، استنقذه من سورة غضب
الفرنسيين المدمرة .

وما لبث القتال أن توقف فى القاهرة عقب هبوط الظلام فى ٢٢ أكتوبر .
وخسر الفرنسيون نحو ٥٠٠ رجل ، وقدرت خسارة التوار بألفين الى ثلاثة
آلاف . وكانت الثورة بوجه عام مقتصرة على العاصمة ، ولكنها اندلعت كذلك
فى عدة بلاد أخرى ، لا سيما بلبيس التى كان فيها حامية فرنسية قوية . وكان
الملازم فرتراى ، الذى لزم مستشفى بلبيس لاصابته بالرمد (وقد استعاد
بصره بعد حين) ، بين المرضى والعميان الذين وزع عليهم السلاح ليدافعوا عن
أنفسهم ضد مهاجميهم . يقول ان الثورة « اختتمت بعقوبات رهيبة شرفتنا
ورفعت قدرنا » (٦٠) .

كذلك وقعت عقوبات فى القاهرة ، ولكنها أخفيت تحت ستار من الرافة .
ففى غداة الثورة مثل فى قصر بونابرت شيوخ الأزهر وأئمتهم (ولم يتخلف
منهم غير الشيخ السادات الذى احتج بمرضه) . ويذكر نابليون هذا الحدث
فى سانت هيلانة فيقول : « كانت تبدو عليهم سيمااء الرجال المذنبين الذين
عذبهم القلق » . ومع ذلك لم يكن فى الامكان توجيه تهم بعينها اليهم ، أضف
الى ذلك أن بونابرت عول على ألا يحقق فى سلوكهم ، فقال لهم : « انى أعرف
أن كثيرين منكم كانوا ضعافا ، ولكنى أميل الى الاعتقاد بأن أحدا منكم ليس
مذنبا » (٦١) . وقال ان الدم الذى أريق فيه الكفاية . وان كتب الأزهر
المقدسة سترد اليهم ، فليطهروا اذن الجامع الذى انتهكت حرمة ، وليدفنوا
موتاهم ، وليعلنوا عفوه الكريم على الملا .

ويقول نابليون ان الشيوخ خروا على ركبهم وقبلوا الكتب الدينية التى
ردها اليهم . ولم تكن رافة بونابرت مبعث دهشة لهم فحسب ، بل للفرنسيين
على الأخص ، سواء منهم الجنود والمدنيين ، الذين تدمروا قائلين انها ستحمل
على محمل الضعف . ولكن بونابرت أصر على سياسة الصفع برغم نقسهم وشدة
تشاؤمهم .

وأصبح «صفح بونابرت عن ثوار القاهرة» موضوعا محببا للرسامين والمثاليين خلال حكم نابليون . ولكن رسومهم وتماثيلهم لا تعطى أقل فكرة عن حقيقة ما حدث .

ف ذات يوم أدلى بونابرت ، بعد رجوعه من مصر بقليل ، بتعليقات طريفة على منظر الصفح الوارد فى الفصل الأخير من مسرحية كورنيسى « سنا » . وكان سنا قد تأمر على حياة أوغسطس ، فبدلا من أن يعاقبه أوغسطس ، مد له يد الصداقة قائلا : « لنكن أصدقاء يا سنا » . قال بونابرت ان كورنيسى شاعر يفهم لغة السياسة . « مثال ذلك أننى وجدت منذ عهد غير بعيد تفسير الخاتمة التى انتهت إليها مسرحية سنا . ففى أول الأمر لم أر فيها الا حيلة لاضافة فصل خامس مؤثر ، ثم ان الرأفة فى ذاتها فضيلة تافهة حقيرة ، ما لم ترتكز على دوافع سياسية ولكن ذات يوم كشف لى مونفيل وهو يلعب ذلك الدور أمامى سر هذه الفكرة العظيمة . اذ نطق هذه الكلمات « لنكن أصدقاء يا سنا » بلهجة ماكرة خبيثة أفهمتنى أن عمله لم يكن الا من قبيل خدعة الحاكم الطاغية ، فاستحسننت ما بدا لى من قبل عاطفة صبيانية ، وأدركت الآن أنه حيلة متعمدة » (٦٢) .

ولما كان شيوخ الأزهر هم الأداة الوحيدة التى يستطيع بونابرت الاعتماد عليها فى مصر ، ولما كان من الصعب ، على أى حال ، اثبات أى تهمة ضدهم ، واذا كان يركن الى معاونتهم له على تهدئة الشعب ، فان صفحه عنهم لم تشبه شائبة من ضعف العاطفة الانسانية . والواقع أنه فى الوقت الذى سمح لهم فيه بتقبيل يديه اعترافا بالجميل ، كانت أوامر معينة أصدرها للجندال برتية تنفذ فى القلعة : « تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا ويدهم سلاح . فليؤخذوا الى شاطئ النيل بعد هبوط الظلام ، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر » (٦٣) . وفضلا عن هؤلاء المسجونين ، أعدم فى القلعة ثمانون عضوا من « ديوان الدفاع » (الذى تزعم الثورة) . وقد علق نابليون على هذا الحادث بعد ذلك بعشرين عاما بقوله : « كانوا قوما ذوى تفكير عنيف متطرف » (٦٤) . وهكذا نجد جهرا بالعفو عن الأبرياء ، واعداما للمعارضين فى الخفاء ، وتحت جنح الظلام ، وهى سياسة خليقة بأن تحظى برضى مكيا فلى .

وكان هناك رجل يرتع فى هذا الجو الذى يناسب طبيعته فى الأيام التالية للثورة ، وذلك هو برطلمين ضابط البوليس المنتفخ الأوداج الزاهى الثياب . يقول الجبرتى : « وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ،

ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضا القبض . وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا وتجبر في أفعاله وطمع كثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم . ومات في هذين اليومين وما بعدهما أم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله » (٦٥) .

وكان هناك آخرون لم يشملهم عفو السلطان الكبير ، نخص بالذكر منهم الشيوخ الستة الذين قيل لبونا برت انهم قادة الثورة . فبعد أن اعتقلوا في بيت الشيخ البكرى نقلوا الى القلعة بحجة تافهة في ليلة ٢ نوفمبر ، وهناك أدانهم مجلس عسكري ثم قطعت رؤوسهم في صباح الغد . وهم « العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد الشرقاوى (*) » وكان جسيما عظيم اللحية ، و « الشيخ الامام العمدة الفقيه عبد الوهاب الشبراوى » الذى كان مدرسا في المشهد الحسينى « وكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة » و « الشاب الصالح . . . الفقيه الشيخ يوسف المصيلحى » الذى كان يملئ دروسا بجامعة الكردى . و « الشيخ اسماعيل (البراوى) ، وكان قليل البضاعة لأنه تغلب عليه النباهة واللسانة » ، والشيخ عبد القاسم ، الذى لا يخصه الجبرتنى بصفات بعينها ، و « الشيخ سليمان الجوسقى ، شيخ طائفة العميان » ، الذى أثرى في تجارة الحبوب ، وكان فى استطاعته أن يرسل جيشا بأسره من العميان ليقتنع مشتريا أو بائعا عنيدا (٦٦) . وحكم على تسعة آخرين بالاعدام غيابيا . ولا جدال فى أن هؤلاء الرجال الخمسة عشر الذين قدمهم زملاؤهم قربانا لغضبة السلطان الكبير للعدالة كانوا أشد رجال الدين المسلمين تعصبا وتهيبجا للجماهير .

وأذيع أثناء ذلك فى جميع مساجد مصر منشور من علماء الأزهر يعلن تسامح بونا برت ، ويأسف لوقوع الثورة ، ويدمغ بالزيف جميع الفرمانات الصادرة من الباب العالى ضد الفرنسيين ، ويؤكد خرافة الحلف الفرنسى التركى .

ومع أن بونا برت لم يطلق العنان بالضبط لفضيلة الرحمة فيه ، فانه لا يمكن القول انه خرق روح العفو الذى أصدره . فاذا استثنينا الثوار الذين قبض عليهم والسلاح فى يدهم ، لم نجد هناك اعداما بالجملة ، ولا غرامة جماعية فرضت لمعاقبة الثوار . وأحكام الاعدام التى صدرت نفذت خفية تقريبا ، لا علانية لتكون عبرة للناس . ولم يكن شيوخ الأزهر مغالين حين أعلنوا للناس

(*) هو غير الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة .

أنه لولا ضبط القائد الأعلى لغضبه لكان هناك حمام من الدماء . وقد كتب دينون - وهو من ألفنا لطفاً ورقة طبع - يعرب عن حالة عقلية سادت وقتها بين العسكريين والمدنيين : « لعل جميع الذين شهدت عيونهم الجنود الفرنسيين يستسلمون كان يجب أن يعدموا دون استثناء » (٦٧) . ومع ذلك يعترف دينون بأن « جميع (المسلمين) الذين أسكن الفرنسيون في بيوتهم كانوا تواقين لانقاذهم واخفائهم وقضاء حاجاتهم » (٦٨) . ومن هؤلاء سيده عجز ، يقول انها تطوعت بأن تخفي دينون وزملاءه العلماء في حرمك بيتها . أفكان يجب أن تعدم هي أيضاً لأن عينيها شهدت الجنود الفرنسيين يستسلمون ! ان الأقوياء أقل اهتماماً بسمعتهم من الضعفاء ، وقد أثبت بونايرت قوته في هذه المناسبة بالذات .

وسرعان ما عادت المياه الى مجاريها . فظهر الأزهر وعاد الناس الى الصلاة فيه . وصنع كونتيه وسحرته الميكانيكيون آلات علمية جديدة تعوض ما نهب منها . وأعيد في ديسمبر ديوان القاهرة والديوان العام بعد تعطيلهما شهرين . وقد تعلم المصريون أن الفرنسيين لا يمكن طردهم بالثورة ، وتعلم الفرنسيون أن يكونوا أكثر حذراً برغم جميع مظاهر الصداقة والود . ومع ذلك استمر النقد لسياسة بونايرت « اللينة » . ولكنه تجاهله تماماً . ذلك أنه أدرك أنه لا يملك لا القوة ولا الحق في اخضاع شعب بالقوة الغاشمة ، لأنه كان بالضبط أصلب من نقاده . أضف الى ذلك أن شففته كثيراً ما كانت تحدها عدالته المعوقة . كتب للجنرال رينييه يقول : « في كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأساً أكثرها لزعماء الثورة . وفي اعتقادي أن هذا سيعلمهم درساً نافعاً » (٦٩) .

ووجد الدرس طريقه على الأقل الى الرؤوس التي لم تقطع . وما كان لثورة نشبت أن تظهر فساد سياسة بونايرت الاسلامية في عينيهِ . ففي ٢١ ديسمبر بعد أن أذاع على أهالي القاهرة في منشور عفوه الكامل عنهم واعادته للديوان واصل حديثه بأسلوب غريب :

« أيها العلماء والأشراف ، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه ، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . وأعلموا أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصليبان على يدي ، وقدر في الأزل أني أجيء من المغرب الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذي أمرت به . ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه . وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل ، وأشار في

آيات أخرى الى أمور تقع في المستقبل ، وكلام الله في كتابه صدق وحق . اذا
تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم ، فلترجع أمتكم جميعا الى صفاء النية
واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتى خوفا من سلاحى
وشدة سطوتى ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر ، يعلم خائنة الأعين
وما تخفى الصدور . والذي يفعل ذلك يكون معارضا لأحكام الله ومنافق ، وعليه
اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا أيضا أنى أقدر على اظهار ما فى
نفس كل أحد منكم لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه ،
وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده . ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم
بالمعايشة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم الهى لا يرد ، وان اجتهد الانسان
غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى ، فطوبى للذين
يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام ، (٧٠) .

وفى الطبعة العربية لهذا المنشور كما أورده الجبرتى آنفا عدة اختلافات
عن النص الفرنسى ، لا سيما هذه العبارة (الواردة فى النص الفرنسى) « ولكن
يأتى وقت يرى فيه جميع الناس أننى أهتدى بأوامر من السماء ، وأن كل جهود
الانسان لا تغنيه شيئا ضدى » (٧١) . يقول الجبرتى : « وقد أوردت ذلك
وان كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التموهيات على العقول والتسلق
على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهية
العقل فضلا عن النظر » (٧٢) . ومن الصعب أن يختلف المرء فى رأى هنا
مع هذا المؤرخ . ومع ذلك ، فحين زار كلوت بك - الطبيب الفرنسى الذى كان
فى خدمة محمد على - السويس بعد ستة وثلاثين عاما ، قال له شيخ هرم نام
بونابرت مرة فى بيته : « لم يكن بونابرت عدوا للاسلام ، ولو أراد ذلك لاستطاع
أن يهدم جميع المساجد بسن ابرة . ولكنه لم يفعل . فليكن اسمه عظيما بين
الناس الى الأبد ! ... لقد قالوا لنا انه فى ساعة موته على صخرة نائية قيده
عليها اثنا عشر ملكا من ملوك النصارى بعد أن نوموه بشراب من أشربة العشق ،
رأى المحاربون الذين كانوا معه روحه تاتى لتستريح على حده سيف مرهف .
ألا فليستريح فى سلام ! » (٧٣) وما لم يكن كلوت بك مخترعا لهذه القصة ،
فانه يبدو أن دعاية بونابرت أحدثت أثرا قويا حقا فى عقول بعض الناس .

الفصل السابع

الغازى بين الترويح والتكدير

١

فى ١٨ ديسمبر ١٧٩٨ ، أى بعد أن أعلن الجنرال بوناپرت بثلاثة أيام أن جميع أعماله موحى بها من الله ، أصدر أمرا للمواطن فوريه ، الملازم بفرقة الفرسان الثانية والعشرين ، بأن يستقل أول مركبة بريد الى رشيد (وكان انشاء خدمة بريد بالمركبات من الأشياء الكثيرة التى استحدثتها الفرنسيون فى مصر) ومن ثم يمضى الى مالطة ثم الى باريس آخذا معه بعض الرسائل • وعليه أن يمكث فى باريس عشرة أيام ، ثم يعود منها « بأقصى سرعة يستطيعها » • أما الرسائل الأربعة التى وكل اليه حملها فتافهة جدا ، ولكن مهمته كانت تنطوى على أكثر من ظاهرها •

لقد أرسل الملك داود أوريا الحشى زوج بششبع - بعد أن استهواه حسنها - الى خطوط القتال الأمامية ، حيث لقي حتفه ، أما الجنرال بوناپرت فأرسل الملازم فوريه الى باريس ، لانه أولا كان أرأف به من أن يقتله ، ثانيا لانه ربما لم يكن لنواياه قبل مدام فوريه من الدوام ما يجعل اختفاء زوجها الى الأبد أمرا مرغوبا فيه •

واذا كانت رسالة بوناپرت رقم ٣٧٧٥ (وهى أمره الصادر لفوريه) تنطوى على أكثر مما يبدو فى ظاهر الأمر ، فكذلك كان ينطوى تعلقه الفجائى بـ مدام فوريه •

كان بوناپرت ذا طموح أدبى وهو لا يزال حدثا لا يحمل الا رتبة الملازم •

ومن بين المخطوطات التي خلفها حواران طريفان - أولهما حوار مع امرأة شريرة لقيها في حدائق الباليه رويال وصحبها الى بيته لمجرد اللقاء محاضرة عليها ، وثانيهما حوار عن الحب جرت فيه هذه العبارة على لسانه : « أعتقد أن الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الفرد » (١) . وكان ضبطه لشهواته الى الوقت الذي التقى فيه بجوزفين بوهارنيه (أكتوبر ١٧٩٥) أمرا غير مألوف لشاب في عصره ومهنته ، وان لم يكن ضبطا تاما . قال مرة معقبا « ان محاولة المرء أن يجعل نفسه محبوب النساء تستغرق وقتا ، وقد كنت على الدوام - حتى حين لم يكن عندي ما يشغلنى - أحس احساسا غامضا بأنه ليس لدى وقت أضيعه » (٢) .

وحين لقي جوزفين كانت في الثلاثين من عمرها ، أرملة ، وخليلة لبارا الذي أوشك أن ينبذها . والقارئ لمذكرات بارا الصريحة يحكم بأن النظرة الفاحصة الى وجهها تكشف عن أشياء أكثر حتى مما يكشف عنه عمرها ، ومع ذلك كان للتعبير المرتسم على وجهها حلاوة واغراء ، وكان لحركاتها رشاقة أنثوية ، وفي ثيابها ، وبيتها ، وأثاثها ، أناقة أرستقراطية ، وشهوانية مرهفة ، أخضعت للفور تقريبا ذلك الشاب الذي تغلب عليه الفجاجة ، والذي كان يصغرها بست سنوات . ولم تمض أسابيع قليلة حتى استسلمت له ، فتيقظت عاطفته . كانت هي المرأة الوحيدة التي أحبها حقا في حياته ، وقد أحبها برغبة عاتية يحس القارئ قوتها الى اليوم في الرسائل التي كتبها لها . فهي في نظره المرأة : فألهب شهوته جسدها الذي كان أكثر شبابا من وجهها - هذا الجسد المشوق ، الطويل الأطراف ، النحيل ، اللدن . كان يعرف ماضيها ، ولكن الغيرة من هذا الماضي لم تأكل قلبه . على أنه صمم أن يتزوجها لتكون ملكا خالصا له . وكانت جوزفين تخفى املاقها كما تخفى حقيقة عمرها فطلبت النصيحة والمعونة من عشيقها السابق بارا وهي تخشى مستقبلا لا يحمل لها في طياته سوى الفاقة ، ثم استقر رأيها على أن الجنرال بوناپرت أمامه مستقبل باسّم على الرغم من مظهره غير المذهب ، بل المخيف نوعا ما . فتظاهرت بأنها تبادله حبه . وقبيل رحيله لتولى قيادة جيش ايطاليا تزوجا باحتفال مدنى . وأضاف بوناپرت في شهادة الزواج عامين على عمره ، وحذفت هي ثلاثة أعوام من عمرها . وكان يتوقع أن تلحق به في ايطاليا بعد قليل ، ولكنها وجدت معينا لا ينضب من الأعذار التي احتجت بها لتأخير سفرها . وبينما كان ينتصر في المعركة تلو المعركة ، ويبعث الى جوزفين بنشرات انتصاراته التي يشيع فيها رنين الفخر ، والتي جعلت منه بطلا لأوربا ، مضت هي في جولات لهوها بصحبة الشبان الحسان الوجوه . وراح يلعنها وهو يعبدها . فكتب لها من ميلان يقول : « لاحظي هذا : انك دمرتني تدميرا ، وقد أيقنت انك فعلت هذا في اللحظة التي خضع فيها قلبي لك في اللحظة التي بدأت فيها

تفرضين على ، يوما بعد يوم سلطانا لا حسد له باسترقاقك حواسي كلها » (٣) . ولكنه كتب اليها بعد أربعة أيام من تورطوني يقول : « انى أحبك أكثر من كل شيء يتصوره العقل وكل لحظة من لحظات حياتي مكرسة لك اننى لا أقضى ساعة دون أن أفكر فيك ، ولم يخطر لي قط أن أفكر فى امرأة أخرى فقوتى ، وذراعى ، وعقلي - كلها لك ان روحى فى بدنك والأرض لا تبدو جميلة فى عيني الا لأنك تسكنينها ألف قبلة على عينيك ، على شفتيك ، على لسانك ، على . . . » (٤) (ويزعم ناشر هذه الرسائل أن الكلمة المحنوفة مطموسة) .

ولكنها ظلت فى باريس رغم هذا . وثارَت الشائعات عن عشيق شاب ، فهدد بونابرت بقتلها ان صحت الشائعات ، وفى ذلك الوقت كان ايمانه بالفضيلة لا يقل عن تشبثه بغرامه . وقالت جوزفين ، ربما فى شيء من نشوة السرور : « انه رجل مضحك هذا البونابرت » (٥) . وأخيرا ، وبعد أن هدهدها بالاستقالة من قيادة الجيش ليلحق بها ، وصلت الى ميلان فى يوليو ١٧٩٦ . وكان فى معيتها ، فضلا عن كلبها البغيض فورتنيه الذى عض نابليون مرة فى ساقه وهو يغازلها ، المواطن ايبوليت شارل ، مساعد الجنرال لكليز . وكان لقاء الزوجين حارا مشبوبا . ولكن كانت هناك لسوء الحظ حرب يجب أن يخوضها بونابرت . وهكذا كان البطل يتردد ذهابا وجيئة بين ساحة القتال والنصر ، وبين الفراش ونشوة الحب . وفى منتصف نوفمبر كان فى فيرونا يقاتل ويفكر فى غرامه . فكتب لزوجته وهى فى ميلان (أو هكذا ظن) يقول : « انك تعلمين علم اليقين أننى لا أستطيع أن أنسى جولاتنا القصيرة ، وتعرفين - الغابة السوداء الصغيرة . اننى أبعث لها بألف قبلة وأنتظر بفارغ الصبر عودتى اليها » (٦) . وبعد أسبوع كان فى ميلان بعد أن دفع النمساويين أمامه فى شيء من التهور وقد عيل صبره . واندفع الى قصره : ولكن جوزفين كانت قد غادرت ، الى جنوة ، ومعها خادمتها ، وكلبها ، والمواطن شارل . وكتب اليها بونابرت يقول : « هأنذا أصل الى ميلان ، واندفع الى مسكنك ، بعد أن تركت كل شيء لأراك وأضمك بين ذراعى (ويلى ذلك مزيد من الكلمات « المطموسة ») ، ولكنك كنت قد رحلت . فأنت تجرين وراء الملاحى ، وتبعدين حين أقرب اليك ، انك لم تعودى تبالين بنابليونك العزيز . لقد أحببته لنزوة طارئة ، وعدم الوفاء يجعلك لا تكثرئين به » ثم يلى ذلك التهديد المغرور بالانتحار : « اننى أنا الذى ألفت الخطر ، أعرف الدواء لجميع أوصاب الحياة . فالتعاسة التى أعانيها لا حصر لها . وكان من حقى ألا أتوقعها » (٧) وهكذا بعث الحاسب القديم من جديد ، فى شخص العاشق المقهور .

ولكنه لم يقتلها ، ولم يلتمس الموت فى المعركة ، بل انه رفض أن يسلم بالأدلة الموفورة على أن المواطن شارل عشيق لزوجته ، وان كان قد استصدر

أمرا بطرده من الجيش . ولم تال أسرته - أمه وأخوته وأخواته - جهدا في تبصيره بالحقيقة بعد عودته لفرنسا ، ولكن من ذا الذى يريد أن يرى الحقيقة وهو تائه فى نعيم غاباته المسحورة ! أضف الى ذلك أن الدوافع المغرضة التى تحفز مخبريه كانت واضحة غاية الوضوح .

وروعت فكرة الطلاق المحتمل جوزفين الفارقة فى ديوتها . فرافقت زوجها الى طولون ، حيث تقرر أن يركب البحر الى مصر . وذات صباح وجد الجنرال ديما بونابرت - حين ذهب اليه ليقدم نفسه للقائد الأعلى - فى الفراش مع زوجته ، ويبدو أنها كانت عارية تحت الأغشية تبكى . وقال بونابرت للعملاق الأسمر المرتبك : « انها تريد أن تصبحنا الى مصر . فهل أنت آخذ زوجتك معك يا ديما ؟ » وقال الرجل المستقيم : « لا وربى . ولو أخذتها لكنت عبثا ثقيلا على » (٨) . وأبدى بونابرت بعض الملاحظات المطمئنة عن الاذن لزوجات الجند بأن يلحقن برجالهن بعد حين ، وصنع زوجته صفعه قوية على كفها النحيل الجميل . ومن المعقول أن نفترض أن دموع جوزفين كانت صادقة ، ولعلها آثرت أن تصحب زوجها الفاتح عن أن تعود الى عشيقها الجميل مسيو شارل . ولكن مهما كان حب نابليون لجوزفين عظيما ، فانه كان يحسن تحديد الوقت المناسب له . قال مرة : « ان الحب شغل العاقل ، وراحة المحارب ، ومهلكة الملك » (٩) . ولو أنه وقف من الحب موقفا غير هذا لما كان هناك مسيو شارل ، ولما كان هناك بالطبع نابليون الامبراطور كذلك . ولكن الذى حدث أنه لم يكن يريد لأى امرأة أن ترافق جنوده ، وكان فيه من النزاهة - أو قل الفطنة - ما يكفى لجعله يضرب المثل لجيشه .

ويذكر القارىء أنه كتب فى اليوم التالى لدخوله القاهرة الى أخيه جوزيف يقول : « لقد رفع الحجاب تماما عن عيني » . أما كيف رفع الحجاب ، ومن الذى رفعه ، فسر ما زال غامضا ، ولكن لابد أن هذا وقع فى فترة تقع بين رحيله عن طولون وانتصاره فى معركة امبابة . ولعل بعضهم أقنعه آخر الأمر أن مسيو شارل عشيق لزوجته ، وأنه فى تلك اللحظة يعاشرها فعلا . اذن ، فما جدوى أن يكون المرء الجنرال بونابرت ، أو حتى الاسكندر الأكبر ، اذا كان الشخص الذى يتوق الى وضع مجده تحت قدميه ، يؤثر قبلات شاب ليس الاعضا فى مجلس ادارة احدى الشركات ؟

وياور بونابرت المدعو جونو هو الذى قدم له الدليل على خيانة جوزفين ، اذا أخذنا بمذكرات بوريين التى لا غنى لنا عنها ، وان كانت لا يعتمد عليها الى حد يثير الغيظ . ولكن أرملة جونو - دوقه أبرانتس - تنفى هذا فى مذكراتها ساخطة . والواقع أن رواية بوريين لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأنه يذكر أن هذه الواقعة حدثت فى العريش فى فبراير ١٧٩٩ ، وبونابرت على

وشك دخول سوريا . ويقول ان الجنرال اشتعل غضبه ، وكانت كلمة الطلاق تجرى على لسانه عشرين مرة في الدقيقة . ولكن هذا التاريخ يقع بعد خطاب بونابرت لجوزيف بنصف سنة ، وبعد شهرين من اقتناع بونابرت بأن استمراره في الوفاء لزوجته يجعله أحق في عيون الناس . ومن الحقائق أنه نوى نية صادقة أن يطلق زوجته بعد عودته الى فرنسا . وأيا كان زمان علمه بما بلغته خيانة جوزفين ، ومكانه ، والشخص الذي أنبأه - وأغلب الظن أن هذا وقع قبل ٢٥ يوليو ١٧٩٨ - فإن الذي لا شك فيه هو أن هذا الكشف قد ترك فيه وفي مستقبله أثرا . كتب يقول لأخيه : « لم يبق لي الا أن أصبح أنايا بكل ما في الكلمة من معنى » . صحيح أنه لم ينقصه الطمع الذي لا تشوبه الرحمة قبل هذا الكشف ، ولعله كان بسبيله الى هذه الكلبة المفرطة ، حتى ولو ظلت جوزفين وفية له وفاء بنيلوبى لزوجها . ولكن حياته طرأ عليها تحول : فقد تغير البطل النحيل القسمات ، الشاعرى ، المثالى ، تغيرا كاد يكون فجائيا ، الى الطاغية البدين ، الساخر ، المادى . وقد حدث هذا التغير فى مصر ، وان ظل غير ملحوظ عامين أو ثلاثة . وانقلب المواطن بونابرت الى « السلطان الكبير » ، واستحال الفتى الطموح والعاشق الغيور الى رجل يجلب قوادوه النساء الحسان الى فراشه ليسحقهن كما يسحق الجيوش بعد أن يفرغ من املاء رسائله .

عقب وصول بونابرت الى القاهرة قدم له أصدقاؤه من الشيوخ ست حسان شرقيات . وتأملهن بونابرت فوجدهن بدينات ، ثم صرفهن دون أن يمسهن . ولا عجب فجوزفين كانت نحيلة . كذلك نفرتة رائحتهن ، وكان فى هذا متزمنا . فقد قال بعد ذلك بائنى عشر عاما ، معقبا على انتصار غرامى عارض وقع له فى فينيا ١٨٠٥ : « كانت من ألطف النساء اللاتى لقيتهن . . . لأنه لم يكن لها رائحة قط » (١٠) . وفى رواية ينقصها السند الكتابى ، أن زينت بنت الشيخ البكرى ، التى لم تجاوز الستة عشر ربعا ، لقيت فى نفسه هوى أكثر من سواها . لقد كان مغرما بالأجساد الجميلة والأطراف الدقيقة ، والحسنة المصرية الشابة لا تبارى فى هذا الميدان ، وليس فى امكاننا أن نعرف على التحقيق لم والى أى مدى أغضى أبوها الشيخ عن هذه الصلة ، ولعله كان مشغولا عن مراقبة ابنته مراقبة مشددة بالجري وراء مملوكه المتنازع عليه ، أو بشرب زجاجات البرندى والبرجندى كل ليلة ، أو بأحلامه بأنه قد يصبح حما السلطان الكبير . وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر فى سنة ١٨٠١ ، أراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتى عاشرن الكفار . وكانت زينب احدى ضحاياهم ، وقد عرفت فى أيام عزها ب « فتاة القائد المصرية » . ولا بد أن صلتها ببونابرت كانت قصيرة المدى ، وكذلك كانت حياتها . يقول الجبرتى : « وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه طلبت ابنة الشيخ البكرى ، وكانت ممن تبرج

مع الفرنسيين ، بمعينين من طرف الوزير . فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب ، وأحضروها ووالدها . فسألوها عما كانت تفعله ، فقالت انى تبت من ذلك ، فقالوا لوالدها ما تقول أنت ؟ فقال أقول انى برىء منها ، فكسروا رقبتها ، (١١) .

وفى أول ديسمبر ١٧٩٨ ، ربما بعد أن سئم بونايرت زينب اللطيفة ، التى كانت تعوزها أفانين جوزفين بوهارنيه المجربة ، لقي بولين فوريه . وكان ذلك وهو يشهد مع أركان حرب الاحتفال بتطير البالون الفاشل الذى خيب ظن الجبرتى . ولاحظ اثنان من شباب الياوران ، أحدهما أوجين ابن زوجته ، الحسناء فوريه بين المتفرجين ، فأعربا عن إعجابهما الشديد بعبارات عالية لفتت انتباه بونايرت . وتأمل الجنرال الشابة فأنارت اهتمامه . كانت يومها فى العشرين ، امرأة رائعة الحسن ، تبدو عيناها الزرقاوان بهيتين تحت أهدابها الطويلة السوداء ، ويكللها شعر ذهبى بديع ، (ويقول الجنرال بولان الذى كان يعرفها معرفة وثيقة تكفل لنا صدق روايته ، أن شعرها حين تسدله كان يغطيها كالعباءة ، وكأنها الليدى جوديفا) . وفى هذا المساء ذاته تنازل بونايرت بزيارة « التيفولى » الذى افتتح حديثا ، وبالطبع كانت مدام فوريه هناك . وراح يحملق فيها خلال الزيارة كلها ، ولم تكن آداب الغزل عنده مهذبة جدا .

أما بولين فوريه هذه فكانت الابنة غير الشرعية لأب مجهول ، وطاهية تسمى بليل ، لذلك عرفها الكثيرون بكنتيتها اللطيفة « بيليلوت » . وكانت حتى زواجها أخيرا من الملازم فوريه تشتغل بائعة للقبعات ، وهى مهنة كان من شأنها فى الحياة الفرنسية فى القرن الثامن عشر أن تلقى حتما بالفتيات الحسان بين أحضان الرجال المعجبين . وأحبت زوجها حبا حملها على أن تلبس ما يلبسه جنود فرقته من حذاء وسراويل وصدرية ومعطف ، وأن تخفى شعرها الطويل تحت قبعة مثلثة ، وتستقل معه السفينة الى بلاد مجهولة . وخاضت على إحدى الناقلات بشبراخيت أول معاركها الحربية . ولكن لقاء الممالك كان أيسر من مقاومة قاهرهم . وفى ١٧ ديسمبر ، أصدر بونايرت أوامره بإيفاد زوجها الى مالطة وباريس - وهى رحلة كان كل فرد فى جيشه تقريبا يخرج فيها بسرور أكثر من الملازم فوريه . وما ان استقل زوجها عربة البريد الى رشيد حتى دعيت بيليلوت هى وبعض السيدات الأوربيات الى حفلة عشاء فى ميدان الأزبكية . وراح المضيف يحملق فيها خلال العشاء كله . ولما قدمت القهوة أراق الضابط الجالس الى جوارها - وكان « لحمه » جدا - قدحا على ثوبها الجميل ، ولكنه هدا من روعها ، وقال انه سيصعد بها الى حجرة تستطيع أن تصلح فيها ما أفسد . وكانت لاتزال تدعك ثوبها حين أقبل عليها القائد الأعلى للجيش . وانتظر الضيوف عدة ساعات قبل أن يعود أحدهما . وبعد

أيام قليلة شغلت بيليلوت ، التي عرفت الآن بكليوبطرة قصرا مجاورا لقصر
بونابرت فى ميدان الأزبكية ، وراحت تطوف القاهرة راكبة أفخر مركباته .

بيد أن العلاقات الغرامية السعيدة فى زمن الحرب يعييبها أن العدو
لا يفتأ لها بالمرصاد . والذي حدث أن الملازم فوريه لم يصل قط الى مالطة ،
فضلا عن باريس . ذلك أن سفينة البريد « شاسير » التي غادرت الاسكندرية
فى ١٨ ديسمبر وقعت فى أسر السفينة البريطانية « ليون » فى اليوم التالى .
وأبدى القبطان الانجليزى كرما انسانيا خارقا نحو الملازم فوريه ، فأبى أن
يحكم عليه كما حكم على بقية بحارة شاسير وركابها بأهوال السجن التركى ،
بل انه أبى أن يحتفظ به رهينة للاستبدال ، وصمم على أن يرده من فوره
الى الاسكندرية بعد أن تعهد بشرفه بعدم مقاتلة البريطانيين . ووصل الملازم
فوريه الى الاسكندرية والحيرة تغلبه ، وازدادت حيرته لمحاولات الجنرال مارمون
أن يبقيه هناك لأسباب بدت له واهية فهو يريد ، على الأقل ، أن ينام مع
زوجته الحبيبة ما دام قد أخفق فى مهمته ، وما من شئ يقوى على منعه من
الرجوع الى القاهرة . فلما عاد لم يجد بيليلوت فى البيت ، ولكنه سمع كثيرا
من الشائعات حولها .

ولما انقشعت أوهام الملازم فوريه أبدى الغلظة لزوجته ، بل القسوة .
لقد استغفله بونابرت ، واستغفلته زوجته ، ولا يبعد أن القبطان البريطانى
استغفل الثلاثة . و « ورغبة فى حماية نفسها من وحشيته » (١٢) طلبت
بيليلوت الطلاق ، فأجيبته الى طلبها بسهولة مذهلة . أما عشيقها فكان قد
وعدها بأن يطلق زوجته ويتزوجها ، عسى أن تنجب له طفلا ، وهو ما عجزت
عنه جوزفين . وحاول كلاهما جاهدا دون أن يفلح . وقال بونابرت لبورين
معترضا « ما العمل اذن ؟ ان هذه ال الصغيرة الغبية لا تريد أن تلد
لى طفلا » . وأفهمت بيليلوت أن من مصلحتها أن تحمل . فأجابت « رباه !
انها ليست غلطتى أنا ! » (١٣) .

وأصبحت الأنسة بليل ، كما سمت نفسها الآن ، بعد طلاقها خليفة
رسمية للسلطان الكبير ، ترأس حفلات عشائه ، ويسير ضباط أركانه فى
حاشيتها . ولم يعف سوى أوجين بوهارنيه من واجب حراسة العربة التي
تركبها خليفة زوج أمه - وهذا بعد أن أوضح له فى سخط ما فى موقفه من
شدوذ وغرابة .

ولم يدوم الغرام اللذيذ طويلا . فلم ينقض شهران حتى خرج بونابرت
فى حملته على سوريا . وصحب كثير من قواده وجنوده نساءهم وخليلاتهم -
وهو قرار ندموا عليه أشد الندم فيما بعد . أما الجنرال بونابرت فصمم على
ألا يسلك مسلك مارك أنطونى من حبيبته كيلوبطره ، فترك بيليلوت فى

القاهرة ، واليهما كان يكتب خطابات ربما بلغت حرارتها مبلغا لم ير معه ناشرو رسائله من اللياقة أن يطبعوها ، فاخفت ولم يعرف من أمرها شيء . وقد ظل طوال حياته العسكرية وفيها للمبدأ الذي آمن به ، وهو عدم اصطحاب امرأة معه في حملاته الحربية .

٢

لم تكن صلة بونابرت ببولين فوريه على حرارتها حبا عظيما ، بل الأخرى أن نقول انها كانت وسيلة للتأثر من زوجته ، ومتعة جندي يروح عن نفسه : ولم يكن جندي أحوج من الجنرال بونابرت للترويح عن نفسه وراحة أعصابه المتوترة في شتاء ١٧٩٨ - ٩٩ . فقد كان عليه خلال أسابيع غرامه الثمانية مع الشقراء بيليلوت (التي أنفق منها أسبوعين بعيدا عنها في رحلة للسويس) أن يواجه طائفة من الكوارث لم يعرف لها مثيلا سوى أيوب ، ولكنه على عكس أيوب ، لم تند عنه علامة من علامات الضيق والعناء .

كان الحصار البريطاني على مصر محكما « ولا عاد خارج ولا داخل ، ولا طير يطير » (١٤) على حد قول نقولا الترك . ولكن نقولا كان يميل الى العبارات الفضفاضة لأنه شاعر . فالواقع أن هذا الحصار لم تفلت منه الطيور فحسب ، بل المراكب أيضا . ومع ذلك كان حصارا مجديا بنسبة ٩٠٪ على الأقل . فقد يحدث بين الحين والحين أن تغلح سفينة فرنسية أو محايدة في الافلات من الحصار (تحت جناح الظلام عادة) ودخول مصر أو الخروج منها . ولكن يمكن أن يقال بوجه عام أن الفرنسيين في مصر كانوا يحسون احساسا كاملا بالعزلة ، وكان الرجل منهم محظوظا اذا تلقى رسالة من وطنه مرة كل عام . يقول نقولا الترك ان الناس « فهموا جيدا . . أنه انقطع أملهم من امداد يأتيهم من بلادهم . فقالوا في ذواتهم نحن نضاضدهم ونحاربهم ، ورويدا رويدا يخلصون ، لأن الذي لا يزيد ينقص » (١٥) .

كان الجيش الفرنسي يتضاءل ، وصفوفه تتناقص تناقصا أكيدا وان كان بطيئا . فضلا عن ضحايا المعارك والاغتيالات الفردية وحوادث الانتحار بين رجاله ، كان هناك المرض ، وبدأ الطاعون يجتاح الجيش في ديسمبر . ومات أول ضحية للوباء - وهو المواطن لانتريج - في دمياط قبل ذلك في أكتوبر . وشخصت حالته بأنها « حمى وبائية أو معدية » (١٦) ، وظلت كلمتا « الطاعون الدملي » محظورتين طوال تفشى الوباء . وكان رأى بونابرت أن أشد ما ينطوى عليه الطاعون من أخطار هو الخوف . قال للاس كاز في سانت هيلانة : « ان الخوف ساعد على تفشيه أكثر من أى عامل آخر . ذلك أن البؤرة الرئيسية للمرض هي الوهم . وفي أثناء الحملة المصرية مات كل الذين ابتليت عقولهم

بإلوانهم . والشجاعة الأدبية أضمن واق منه ، وأجلى علاج له . . . وخير وسيلة
لوقاية الجيش منه هي شغله وجعله يواصل سيره . وقد تبين أن التعب والانشغال
عنه كانا خير أسباب الوقاية ، (١٧) . ولم يحدث أن رفع رجل من عظماء
التاريخ سياسة النعامة الى مثل هذه المستويات الرائعة من الجلد والثبات .
وقد أخبر طبيبه الدكتور أوميارا وهو يواصل ذكرياته عن الطاعون « نجحت
حيناً في اقناع الجنود بأنه ليس الطاعون وإنما هو حمى مصحوبة بدمامل ،
ولكى أقنعهم برأى هذا ، كنت أقصد على مرأى من الجميع فراش جندي مصاب ،
وأمسك به . وكان لعملي هذا أثر كبير في تشجيعهم ، بل إن بعض الجراحين
الذين تولوا عنهم خجلوا وعادوا الى مباشرة أعمالهم (١٨) . أما الجراحون الذين
لم يعودوا فقد حق لهم أن يندموا على فعلتهم ، ويشهد بذلك الأمر اليومي
المؤرخ ٨ يناير ١٧٩٩ وهذا نصه : « إن المواطن بوايه جراح مستشفى
الاسكندرية بلغ به الجبن أن يرفض علاج الجنود المجروحين ، المخالطين للمرضى
الذين قيل انهم يشكون مرضاً معدياً . انه غير جدير بأن يكون مواطناً فرنسياً ،
وسيلبس ثياب النساء ، ويوضع على حمار ، ويسحب في شوارع الاسكندرية ،
وعلى ظهره لافتة كتب عليها « غير جدير بأن يكون مواطناً فرنسياً ، لانه يخشى
الموت » ، ثم يودع السجن ويعاد الى فرنسا في أول سفينة مسافرة » (١٩) .
وقد تبين أن بوايه اتهم ظلماً . ولم تنفذ العقوبة فيه ، ولكن الفقرة التي نشرت
في الأمر اليومي لم يمكن محوها . وقد ذكر الدكتور ديجينيت أن مدام تامبييه
زوجة أحد ضباط البحرية ، واحدى نجوم التيفولى فى القاهرة « أثار سخطها أن
يصدر الأمر بأن ارتداء ثياب النساء رمز على الجبن » ذلك أن مدام تامبييه
— وكانت حسنة رياضية الجسم فى السابعة والعشرين — لم تطق هذا التهجم
على بنات جنسها . يقول الطبيب انها أعلنت أنها « على استعداد لمبارزة بونابرت ،
وأنها ستريه ، والمسدد فى يدها ، أن الخوف — حتى الخوف منه — لا يملأ
قلوب جميع النساء » (٢٠) .

ولم يكن القوم فى ذلك الوقت يعرفون الناقل الفعلى لعدوى الطاعون
الدملى ، وهى البراغيث المنبعثة من الفيران الموبوءة . ولكن طرق الوقاية والعلاج
التي استخدمها ديجينيت ولارى ، وفرضتها أوامر بونابرت على الجيش ، كانت
فعالة الى حد لا بأس به . وليس لدينا احصاءات يوثق بها عن عدد الاصابات
والوفيات ونسبة الشفاء من المرض . وكانت غارة الطاعون أشد ما تكون أذى
خلال الحملة على سوريا ، أما فى مصر فقد اقتصرت الاصابة به بوجه عام على المدن
الساحلية . ولكن جملة الحالات المميتة لا يمكن أن تكون تجاوزت ٢٠٠٠ حالة .
وبعض طرق بونابرت الوقائية تبدو لنا معقولة جداً . كتب الى قومندان
الاسكندرية يقول : « مر رجال فرقة المشاة الخفيفة السيئى الحظ بأن يتجردوا
من ثيابهم كما نزلوا من بطون أمهاتهم ويغتسلوا فى البحر جيداً . وليدعكوا

أجسامهم من الرأس الى القدم ويفسلوا ثيابهم ٠٠٠ وأوقف الاستعراضات ونوبات الحراسة خارج المعسكرات ٠٠٠ وأصدر الأوامر للجنود بأن يغسلوا أرجلهم وأيديهم ووجوههم يوميا ، وأن يراعوا أصول النظافة « (٢١) . أما العلاج فقد قال عنه للدكتور أوميارا « بناء على نصيحة الأطباء ، أصدرت الأمر بأن تفتح كل الدمايل التي لا يحتمل أن تتقيح ، وقبل أن أصدر هذا الأمر أمرت بإجراء هذه التجربة على عدد من المرضى ، وبالعلاج عدد مماثل لهم بالطريقة العادية ، فتبين أن نسبة أكبر كثيرا من الأولين تماثلت للشفاء » (٢٢) .

وكان الجندي ميه ، المعسكر في دمياط ، أحد الذين شفوا من الطاعون . يقول : « يبدأ هذا المرض بحمى مرتفعة يعقبها صداع شديد ، وتكون حيل أو غدة في حجم البيضة تقريبا في خن الورك أو في أى مفصل آخر . فإذا ظهر الحيل فقل على المريض السلام . وإذا ظل على قيد الحياة أربعة أيام كان الأمل في شفائه كبيرا ، ولكن هذا لا يحدث الا نادرا » (٢٣) أما في حالة ميه ، فقد رأى الأطباء الذين فحصوه أنه لا جدوى من فتح دمل ، وترامت مداولاتهم الى سمع ميه ، فانتظر حتى انصرفوا ، ثم فتح دمل بمبراته . وقد عاش ليكتب عما جرى له . أما الكابتن تورمان فقد قضى فترة تفشى الطاعون في قلعة أبى قير المقفرة يرتعد من العدوى ويذهب بلبه السأم . كتب في يوميته يقول : « فى كل يوم يسقط أربعة أو خمسة من الرجال الاثنى عشر المكلفين بالحراسة » (٢٤) . ولما رست سفينة البريد « أوزيريس » القادمة من فرنسا فى خليج أبى قير ، دهش قبطانها لثلاثة ضباط الحامية الفرنسيين الذين أتوا ليشربوا الروم من مائدته . وما لبث بحارته كلهم ، باستثنائه هو وثلاثة آخرون ، أن أصيبوه بالطاعون .

وكان نوع الطاعون الذى أصاب دمياط أقل اذى من طاعون الاسكندرية أو لعل الظروف الصحية فى دمياط كانت خيرا منها فى الاسكندرية . ولكن الطاعون ، حتى فى الاسكندرية ، كان يسير سيرا بطيئا أول الأمر ، فاستهان به القوم الى حد يثير الدهشة . وبعد شهر بلغ عدد الموتى حوالى ١٣٠ ، ثم اشتد فتك الوباء فجأة . وكتب مارمون الى مينو فى ١٧ يناير يقول ان احدى الأورط تفقد كل يوم من ستة الى سبعة من رجالها « وسيقضى عليها قضاء مبرما فى ظرف شهر واحد » (٢٥) . وبعد خمسة أيام ارتفعت الوفيات الى ١٧ فى اليوم . وتباطأ المعزل فى تقديم الاقوات للمرضى ، فكان الرجال يتضورون جوعا فضلا عن معاناتهم سكرات الموت من المرض . وكتب مارمون يناشد مينو المعونة : « أستحلفك بالله ألا تهملنا ، بل أرسل لنا تقودا ٠٠٠ أرسل بعض القمح ، ان ما بقى عندنا منه لا يكفينا أكثر من ٤٨ ساعة . والتذمر شديد بين الجنود ، ولو شقوا عصا الطاعة لما كان فى هذا غرابة ٠٠٠ انهم يموتون جوعا » (٢٦) . وراجت مع هذه التعاسة شائعات أكثرها مغالى فيه . فقبل

ان المرضى الذين يشكون أمراضا عادية يوضعون فى أسرة لم تكده ترفع عنها جثث ضحايا الطاعون ، وأن خدم المستشفيات يبيعون ثياب الموتى بدلا من أن يحرقوها ، وأن الجثث كانت تظل بلا دفن ٢٤ ساعة ، أو تدفن فى قبور ضحلة فتنبشها الكلاب لتأكل الموتى . وسواء صحت هذه الشائعات أو لم تصح ، فهى تعطينا فكرة عن الروح المعنوية السائدة بين حامية الاسكندرية . ولم تكن الأحوال فى أبى قير خيرا من هذا . فكانت جراية الجندى اليومية قوامها نصف رطل من الخبز ، ونصف أوقية من زيت الزيتون . وكتب الحاكم فى تقريره يقول : « ان عددا من رجالى هربوا ، وأخبروا رفاقهم أنهم سيبحثون عن مكان أو سيد يستطيع اطعامهم » (٢٧) .

وفى ٢٢ يناير وصل الى رشيد نفر من الأطباء الموفدين من القاهرة فى طريقهم الى الاسكندرية ، وبينهم طبيب بندقى يقطن القاهرة يدعى جيورجو فولدونى ، أعلن أنه خبير فى الطاعون . ولكن مينو كتب لبونابرت يقول : « يبدو أن فولدونى أشد تعلقا بالخمير منه بمهنته ... فهو مخمور ليل نهار » (٢٨) . وكتب ديجنيت بعد وصول فولدونى الى الاسكندرية يقول : « انه اعتكف فى حذر وكان عديم النفع اطلاقا » (٢٩) . ولكن فولدونى بذل - بشهادة آخرين - نصائح تبينت فائدتها رغم أنه كان معتكفا لا يكف عن الشراب .

واتخذ بونابرت اجراءات صارمة ، بالاضافة الى ايفاده فولدونى واصداره الأمر بأن يأخذ الجنود حمامات بحرية (وهو تكليف ثقيل اذا أدى فى الاسكندرية فى ديسمبر ويناير) . فكتب لمارمون يقول : « كلف طبيبا كبيرا بالمرور على المستشفيات ... وزيارة جميع المرضى ، والأمر بإطلاق النار فورا فى فناء المستشفى على جميع الخدم والموظفين الذين يأبون بذل العناية المطلوبة وتوزيع الطعام على المرضى » (٣٠) . ولعل معنوية المرضى ارتفعت عند سماعهم الرصاص يطلق على خدم المستشفيات ، ولكن معنوية الخدم هبطت . فكان يموت منهم نفر كل يوم ، دون معونة من فصيلة ضرب النار - كما جاء فى تقرير لأحد مندوبى الجيش - ومن رأيه « أنه يحسن للاستعاضة عنهم ، أن تدفع مرتبات الخدم نقدا بدلا من اكراههم على تعريض حياتهم للخطر دون أن يدفع لهم فلس واحد » (٣١) .

وعلى الرغم من هذه التدابير الصارمة التى اتخذها بونابرت لدرء خطر الطاعون ، فقد ظل متفشيا فى الاسكندرية حين بدأ حملته السورية . أما انتشاره فى دمياط فقد وجد بونابرت من مصلحته أن يتجاهله ، فلم يجد على المدينة حتى بمعزل للمصابين . وفى أواخر يناير غادرت أورطة من المشاة المدينة الموبوءة وانضمت الى وحدات الطليعة قاصدة سوريا .

وبينما كان بونابرت يواجه الطاعون كما واجه اعلان الباب العالي الحرب - أى بالتجلى والتجاهل - كان عليه مهمة أخرى هى البحث عن طرق لتعويض النقص فى صفوف جيشه . ومن الحلول الجزئية التى تفذها ضم بحارة السفن الى قواته البرية . ولكنه اتخذ تدابير أخرى . فمنذ ٧ سبتمبر أمر بونابرت بتجنيد جميع العبيد المالكين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة ، ليؤلف منهم فى النهاية سلاحا من المالكين فى الجيش الفرنسى . وفى ٣ أكتوبر شكل حرسا وطنيا من جميع المدنيين الأوربيين الذكور فى مصر ممن بلغوا سن التجنيد . وقد وردت هذه الفقرة فى أمر مؤرخ ٢٨ ديسمبر « كلما تمردت قرية عاقبها القائد المنوط بحكم الاقليم بالقبض على جميع الغلمان بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، وعليه أن يرسل تقريرا للقائد الأعلى ليصدر أوامره بالتصرف فيهم » (٣٢) . وواضح أن هدفه هو تأليف معين احتياطى من المجندين . وبعد عودة بونابرت من سوريا حيث فقد كثيرا من جنوده ، اتجه تفكيره لتأليف جيش مستعمرات من المالكين السود . فكتب لديزيه فى يونيو ١٧٩٩ يقول : « أود أيها المواطن الجنرال أن أشتري ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ زنجى ممن تزيد أعمارهم على السادسة عشرة » (٣٣) . ثم كتب بعد أيام قليلة الى سلطان دارفور يقول : « أرجوك أن ترسل لى بالقافلة التالية ٢٠٠٠ عبد أسود تزيد أعمارهم على السادسة عشرة بشرط أن يكونوا أقوياء أشداء ، وسأشتريهم كلهم لحسابى » (٣٤) . ومن الطريف أن نلاحظ أن بونابرت لم ينو تأليف وحدات من الملونين فى جيشه ، بل أراد - كما كتب لديزيه - أن يدمج مائة زنجى فى كل أورطة فرنسية .

وكان ديزيه يؤيد بقوة مشروعا شبيها بهذا : هو ادماج المالكين الصغار الموجودين بمصر ، وعددهم يناهز الألفين ، مع صبيان البحارة الفرنسيين ، والزنوج المستوردين ، وصبية العرب ، وتدريب الجميع تدريبا حربيا وتعليمهم تعليما فرنسيا . وكان المشروع عمليا جدا ، ولو أنه نفذ لأغنى الجيش عن التعزيزات من أرض الوطن . كذلك كان من شأنه أن يغير مجرى التاريخ : فالجيش المخلط الذى فكر ديزيه وبونابرت فى جمعه لا يشبه من قريب ولا من بعيد جيوش المستعمرات التى حفل بها القرنان التاسع عشر والعشرون ، بل هو جيش يقاتل فيه الفرنسيون والزنوج والعرب والمالكين ، ويرقون جميعا ، على قدم المساواة . وقد فصل بونابرت هذه الفكرة على نطاق أوسع فى مذكرة طويلة خلفها بمصر حين عاد الى فرنسا : فرأى أن توفد الرسل الى سنار والحبشة ودارفور لشراء ١٠٠٠٠٠ عبد صغير كل سنة : ويمكن أن يدمج ٢٠٠٠٠ من هؤلاء فى الجيش بمعدل ٢٠ عبدا لكل كتيبة ، ويؤلف الباقون سلاحا احتياطيا أركان حربه من الفرنسيين .

بيد أن هذه كلها مشروعات بعيدة الأجل ، لا تؤتى ثمارها قبل خمس سنوات . لذلك عولج النقص المطرد فى صفوف الجيش بعض العلاج بإضافة مجندين الى القوات الاحتياطية ، من أمثال فتاك الأروام والمغاربة الذين يقودهم برطلمين . فأهم شئ هو البقاء بمصر زمناً يكفى لاستغلال مواردها الكامنة . ولكن هذا المشروع بدأ ميئوساً منه فى عيون الأغلبية الساحقة من جنوده وضباطه .

لم يكن بونابرت يتسلم النشرات اليومية التى تنبئه بتآكل جيشه قطعة قطعة فحسب ، بل كان عليه أيضاً أن يواجه وباء من الاستقلالات . ففى الوقت الذى طلب إليه كليبر فيه أن يستدعيه من منصبه بالاسكندرية ، راح مينو يعدد شكواه فى رسالة طويلة لاذعة . قال حاكم رشيد المغيظ : « اذا كان هذا ما تسميه الادارة ، فان جميع الأفكار التى تعلمتها فى حياتى لا بد أن تكون خطأ ، ويجب على أن أرجوك اعفائى من منصبى » . ولكن بونابرت لم يلق للأمر بالا . واذ كان عديم التأثير بالاهانات ، فقد كان يفلح دائماً فى تهدئة ثائرة من يحتاج الى خدماتهم . أما اذا كان فى غير حاجة لرجل ، فقد كان أكثر استجابة لمطالبه وأقل غفراناً .

وفى المراحل الأولى للحملة اختار القواد المتدمرون الجنرال ديما ليتكلم بلسانهم . واذ كان ديما مشرباً بالمبادئ الجمهورية القوية ولكن فى غير ذكاء كثير ، فقد بلغت به السذاجة أن يعرب عن شعوره وشعور زملائه القواد بصراحة جافية خلت من الحكمة والسداد ، وكانت أقرب الأشياء الى التمرد - ولكن بونابرت رأى أن يعفو عنه ، بعد أن هدهد باعدامه رمياً بالرصاص . وفى الشهور التالية ، لا سيما أثناء ثورة القاهرة ، أتى ديما من أعمال البسالة بالمعجز الذى لو ذكره ابنه فى احدى رواياته لبدا ضرباً من المبالغة . وقد قيل انه يعدل جيشاً بأسره . كان فى استطاعته أن يأتى من أعمال القوة بما يذهل ، وفى رواية أنه كان يستطيع وهو راكب جواده ، قابض بكلتا يديه على عرق فى سقف الاسطبل ، أن يرفع الجواد بين فخذه . كذلك كان فى استطاعته أن يدفع بأربع من أصابع يده فى قصبات أربع بنادق ، ثم يحمل البنادق الأربع فى طرف ذراعه المملودة . وكانت جرأته فى الحب تتكافأ مع قوته ، وشجاعته يتحدث بها الناس كأنها من الأساطير . وقد أكسبته ضراوته وجماله كنية « الشيطان الأسود » فى التيرول ، و « الملاك » فى مصر . وكان أحياناً يبدى براعة فى الحركات والحيل الحربية . من ذلك أنه وهو فى النمسا ، حين عجز بعض المشاة عن تسلق سياج ، راح ، القائد بكل بساطة يلتقطهم ويقذف بهم فوق السياج الواحد تلو الآخر ، فدحر بذلك النمساويين المذعورين . فهو بهذه المؤهلات كان يصح اعتباره رجلاً ذا قيمة ، ولكن ليس بالذى لا يستغنى عنه .

ومع أن ديما ولد ورثى فى سانتو دومنجو ، فانه كان يشعر بحنين طاغ لفرنسا . وقد أخبر الدكتور ديجنيت أن جو مصر يؤذى صحته ، . فهل يستطيع أن يعطيه شهادة بسوء صحته ويساعده على الرجوع لفرنسا ؟ وأنبا ديجنيت بونايرت بهذه المقابلة . وقال بونايرت « فى استطاعتى بسهولة أن أستعيز عنه بلواء » ثم أذن له بالسفر . ولكنها كانت خاتمة حياة ديما العسكرية .

كذلك سمح بالعودة الى فرنسا للجنرال مانكور الذى خلف كليبر حاكما على الاسكندرية ، ولدولوميه الذى كره اشتراكه فى الحملة منذ اضطر الى القيام بدور مريب فى الاستيلاء على مالطة . وأرسل بونايرت أخاه لويس الى فرنسا فى نوفمبر فى بعثة هامة ، وكان يشكو اعتلال الأعصاب ، مصابا بمرض سرى . ولكن حين انهالت على بونايرت طلبات العودة الى الوطن بحجة المرض ، أوقف معظمها بنشره الملاحظات التالية فى أمر عام موجه للجيش « ليس فى نيتى أن أحتفظ فى الجيش برجال لا يقدرّون شرف زمالتى فى السلاح . فليذهبوا ، وسأيسر سفرهم . ولكننى لا أريدهم أن يخفوا الدوافع الحقيقية التى تدفعهم الى رفض مشاركتنا فى جهودنا وأخطارنا بحجة الإصابة بأمراض مختلفة : فاننا نغامر بخطر مشاركتهم ايانا فى أمجادنا أيضا » (٣٦) .

وبالطبع كان كثيرون من الذين رحلوا عن مصر مرضى حقيقة لا ادعاء ، ومنهم الجرحى والعميان الأربعون الذين أبحروا من الاسكندرية فى ١٥ ديسمبر على باخرة جنوية يرافقهم كبير قوميسيرية الجيش سوسى ، الذى كان مجروحا جرحا طفيفا ، وكان . كما يقول الدكتور ديجنيت فى مذكراته - أكثر شوقا لاختفاء بعض الصفقات المالية المريبة منه للبرء من جرحه . وأفلتت السفينة من الحصار البريطانى والتركى ودخلت ميناء أوجستا فى ٧ يناير . ولم يكن قبطانها لسوء الحظ يعلم أن ملك الصقليتين فى حرب مع فرنسا . وسيق الركاب الى أحد مستشفيات السجون : وفى ٢٠ يناير اقتحم الغوغاء السجن ورجموهم بالحجارة حتى ماتوا . وهكذا تبين أن المصريين والتركي حملان ودعاء اذا قورنوا بالصقليين .

وقد لقي مثل هذا الحظ العاثر تقريبا ديما ودولوميه ، اللذان أبحرا مع دفعة أخرى من العميان والجرحى . ورسا الركاب كسابقيهم على أرض نابولية . وكانت سجون الملك فرديناند صديق اللورد نلسن موبوءة . فمات دولوميه عقب عودته الى فرنسا فى عام ١٨٠٠ بعد أن قضى فى أحد هذه السجون واحدا وعشرين شهرا . وفى أثناء سجنه استطاع أن يكتب بقطع من الفحم المحروق ، على هامش كتاب مقدس وعلى شتى قصاصات الورق ، مخطوطا سماه « فلسفة علم المعادن » ، وهو أحد كتب الطليعة فى نظرية الجيولوجيا . أما ديما فكان

أصلب من صاحبه عودا وان افتقر الى موارده الذهنية . لذلك لم تقضى عليه هذه المحنة ، فعاد الى فرنسا حيث أنجب مؤلف « الفرسان الثلاثة » .

أما الجنرال برتية فله حالة خاصة . فقد رجا هو كذلك أن يعاد الى الوطن في أجازة مرضية : كان قد أسقمه حب مدام فسكونتي ، وهي سيدة خلفها في إيطاليا . وكتب الى مينو في أول نوفمبر يقول : « اننى أتعذب كثيرا . وقد أصبت بالصمم التام تقريبا » (٣٧) . ولكن يبدو أن صممه كان نفسيا . لأنه استطاع أن يظل رئيسا لأركان حرب نابليون ستة عشر عاما أخرى . ومنحه بوناپرت الأجازة التى طلبها ، ولكن برتية مكث بمصر آخر الأمر . يقول نابليون فى مذكراته ١٨١٦ : « لم أرحبا كحب برتية لمدام فسكونتي . كان وهو بمصر يحب أن يرقب القمر فى الوقت الذى حسبها ترقبه فيه . وأقام فى وسط الصحراء خيمة يتعبد لها فيها : فوضع صورتها بداخلها وراح يحرق لها البخور . واستخدم ثلاثة بغال لنقل هذه الخيمة ومتاعه . وكثيرا ما كنت أدخلها وأرقد على الأريكة وحذاءى فى قدمى ، فكان مسلكى يثير غضبه الشديد لما فيه من تدنيس لهذا الهيكل المقدس . كان يحبها حبا جما يستفزنى للكلام عليها ، ولكن بشر دائما . بيد أنه لم يبال ، فقد كان يبهجه أى حديث عنها ، بل انه أراد أن يترك الجيش ليعود اليها . وجهزت كل رسائلى ليحملها معه ، وتلقيت تمنياته الطيبة وهو يودعنى ، ورتبت له سفينة يريد يسافر عليها . واذا هو يعود الى والدموع تترقرق فى عينيه » (٣٨) . ويؤيد بورين رواية نابليون عن هذه الواقعة . فقد تقرر أن يغادر برتية القاهرة فى ٢٩ يناير . ليستقل الفرقاطة كوراجوز - فى اللحظة التى كان بوناپرت موشكا أن يخرج فى حملته السورية . ويزعم بورين أن برتية ظل حينما عاجزا عن تركيز ذهنه فى واجباته « فقد هبطت ذكرياته الغرامية التى أفرط فى تقديسها بقواه الضعيفة التى حبه بها الطبيعة . وذات يوم جئته بأمر من القائد الأعلى ، فوجده راکعا على أريكته الصغيرة أمام صورة مدام فسكونتي . واعتقد الكل أن برتية على وشك الرحيل الى الاسكندرية ، واذا هو يذهب ليرى بوناپرت ويسأله : « اذن فأنت مصمم على الخروج فى حملتك الى آسيا ؟ » وأجاب بوناپرت : « أنت تعلم يقينا أن كل شئ معد للحملة ، وسأرحل بعد أيام قلائل » . « اذن ففى هذه الحالة لن أتركك . . . وها هو ذا جواز سفرى وتعليماتى » . وسر بوناپرت كثيرا من قرار برتية ، فعانقه » (٣٩) .

وأيا كانت فكرتنا عن برتية ، فان القرار الذى اتخذه بتأجيل عودته الى مدام فسكونتي ليملك مع قائده الأعلى كان ينطوى على الجرأة - لأن الحملة السورية كانت مغامرة يائسة . ذلك أن بوناپرت كان عليه أن يواجه قوة الدولة العثمانية بأسرها بجيش قوامه ١٣٠٠٠ رجل . وكان الرجال ال ١٠٠٠ الذين خلفهم وراءه فى مصر - وهو لم يتم فتحها بعد - كل ما يملكه للسيطرة

على قطر يمتد ٦٠٠ ميل من السودان الى البحر المتوسط . كان منبتا عن أرض الوطن ، لا تصله منه أنباء ولا مؤن ، ثغوره محاصرة ، وخزائنه خاوية ، والطاعون يتفشى بين صفوف جيشه . ولم تكن فرص الانتصار أمامه مشرقة جدا . ومع ذلك يصعب علينا ، بعد قرن ونصف من النقد ، أن نقول أى خطة أخرى أكثر اشراقا كان مستطيعا أن ينتهجها غير مجاولته الخروج من مكانه على الأقل .

وقد يبدو مسلك بوناپرت المفعم بالثقة بنفسه ، فى موقف يراه غيره ميثوسا منه ، مسلكا طائشا غير عملى . ولكن الواقع أن تقديره للموقف كان تقديرا واقعيا مشربا بالتعقل والتدبر ، بقدر ما أتاح له حكمه وهو مفتقر الى أنباء حديثة ، أو أنباء يركن اليها . ومع أنه كان يشك فى أن الباب العالى أعلن الحرب رسميا على فرنسا ، فانه علم أن الجزائر باشا حشد جيشا جرارا وأنه يتخذ العدة لغزو مصر برا . وللفرنسيين أن يتوقعوا نزول جيش انجليزى تركى أيضا بمجرد انتهاء فصل الشتاء . فخير دفاع اذن هو الهجوم على الجزائر لا انتظاره ، وهزيمته قبل الربيع ثم العودة الى مصر فى الوقت المناسب لمنع أى محاولة لانزال جيش ببرها ، على أن هذا ، وان كان خير دفاع ، الا أنه ينطوى على أخطار جسيمة . وخير منه ، ان أمكن تجنب الحرب مع الباب العالى ، واستعمال مصر ورقة تساوم بها فرنسا على الصلح مع انجلترا . وقد ألح الى امكان تنفيذ هذه الخطة فى ٧ أكتوبر ، حين كتب للادارة تقريراً عن استعدادات الباب العالى للحرب ، فقال : « قد يكون من المفيد للجمهورية الفرنسية لو استخدم فتح مصر وسيلة للحصول على صلح مشرف مع انجلترا » (٤٠) . ولكن هذه الرسالة الهامة التى عهد بها الى أخيه لويس لم تصل الى باريس الا فى ٣ فبراير ١٧٩٩ ، بعد أن بدأت الحملة السورية فعلا .

واذ لم يكن من المؤكد اطلاقا أن تكون انجلترا على استعداد للمفاوضة لعقد الصلح ، فقد رأى بوناپرت أن حكومة الادارة يجب أن تبذل غاية الجهد لتحطيم سيطرة انجلترا على البحر المتوسط ، وانهاء الحصار المفروض على الساحل المصرى . لذلك راح يناشدها فى الرسالة تلو الرسالة (بما فيها رسالة ٧ أكتوبر) أن تحشد أسطولا جديدا للبحر المتوسط . ولكن اقتراحاته بدت غير واقعية فى نظر الادارة : فالسفن التى يطلبها اما غير صالحة ، واما لازمة للدفاع عن مالطة وكورفو . وفى رسالة ٧ أكتوبر عرض اقتراحا جديدا مؤداه أنه قد يحسن بالحكومة ، اذا كانت تخلت عن مشروع غزو ارلنده ، أن ترسل أسطول الأطلنطى بأسره الى البحر المتوسط ، فتكره بذلك البريطانيين على القتال وهم أبعد عن قواعدهم من الفرنسيين . وكانت حجته قوية لا مغمز فيها ، فأرسلت حكومة الادارة فى شهر مارس الأميرال بروى على رأس أسطول الأطلنطى الى البحر المتوسط . ولما كانت الحكومة قد تخلت عن المشروع الايرلندى قبل

ذلك ينصف سنة ، فقد حق لنا أن نتساءل ، لم لم تفعل الإدارة هذا فور سماعها؟
نبا انتصار نلسن في أبي قير ؟ ولكن الذي حدث هو أن أسطول بروي - حتى
بعد دخوله البحر المتوسط - لم يقدم المعونة لبونايرت ، ولم يكدر صفو
نلسن : وأفلتت فرصة النصر من الأسطولين الأسباني والفرنسي لافتقارهما الى
هدف واحد يستطيعان الاتفاق على توحيد قواتهما ضده .

على أن بونايرت كان متخذا ما اتخذ من قرارات ، حتى ولو كان على يقين
من ضالة فرص النصر أمامه ، ومن عدم اكتراث حكومة الإدارة اطلاقا بسوء
موقفه . فليس أمام المرء في موقف ميثوس منه الا أمران لا ثالث لهما . اما
الانتحار ، واما الانتظار والترقب ، لعل تحولا في الأحداث لا يخطر بالبال قد
يخفف من ظلام الموقف . فقد يتحطم الحنف الانجليزى الروسى التركى ، أو
قد تعقد تركيا صلحا منفردا (وما درى أن الباب العالى وقع في ديسمبر ١٧٩٨
معاهدات تحالف مع روسيا وانجلترا ، تعهد فيها كل طرف ألا يعقد صلحا
منفردا) . أو لعل بعض الانتصارات الكبرى على الأتراك في سوريا قد تكسبه
تأييد العرب ، وعندها لا يستبعد أى شيء - حتى الزحف على القسطنطينية -
وعلى أية حال ، ماذا كان في وسعه أن يفعل الا أن يبذل هذه المحاولة ؟

اما أن يرجو الإدارة اجلاء جيشه عن مصر فذلك طلب لا معنى له : لانه
إذا كان في استطاعة فرنسا أن ترسل السفن اللازمة لاجلاء الجيش ، فالجلاء
لا لزوم له . وأما أن يطلب هدنة من البريطانيين دون اذن من حكومته ، أو
دون ضرورة حربية قاهرة ، فذلك محال . لأن هذا التصرف لن يقضى على
مستقبله فحسب ، بل انه يتعارض تماما مع مفهوم الشرف عنده . على أنه كان
يستطيع احاطة حكومته بحرج موقفه ، وأن يسألها الاذن له بالمفاوضة . ولكنه
لم يفعل ، بل انه صور موقفه بأبهى الألوان . وكل ما طلبه من حكومته هو
أن ترسل أسطولا ، ان أمكن ، ليحطم الحصار تحطيمًا مؤقتًا على الأقل ان لم
يكن دائما . ثم طلب العقاقير والخمور والجراحين والمرفهين ، وطلب الأنباء قبل
كل شيء . فافتقاره الى الأنباء السياسية معوق خطير له ، وانقطاع الخطابات
من أرض الوطن من أهم الأسباب في هبوط معنوية جنوده . وفيما عدا ذلك
لم يطلب شيئا . كتب في خطاب ٧ أكتوبر يقول : « لا ينقصنا شيء هنا .
فنحن ممثلون قوة وعافية وأملا » (٤١) . فلم هذه الأكذوبة الضخمة ؟ ربما
لأنه أدرك أنه كلما اعتقدت حكومته أنه ضعيف ، قلت المبررات في نظرها لتقديم
العون له . أو ربما لأن طبيعة أطماعه حتمت عليه ألا يعود الى فرنسا متمسولا ،
بل بطلا فاتحا .

بذلت حكومة الإدارة عدة محاولات للاتصال ببونايرت ، اما عن طريق
سعاة البريد الرسميين واما بواسطة التجار المحايدين ، ودول البربر ، وغير

ذلك من المسالك التي تلقيها الصدفة في طريقها . وأفلتت رسائل معدودة من الحصار - ولكن وصولها تأخر ، ففقدت قيمتها . والكثرة الغالبة من المبعوثين لم يصلوا قط لنهاية الرحلة ، ولو سجلت مغامراتهم لمئات مجلدات كثيرة . واستنادا الى هذه المحاولات يؤكد المؤرخون - حتى المتحيزون منهم لنابليون - أن رجال الادارة بذلوا قصارى جهدهم للاتصال ببونابرت ، وأن فشلهم لا يدل الا على احكام سيطرة الانجليز على شرقى البحر المتوسط . ولكن هذه الحجة ضعيفة لا يمكن الدفاع عنها اطلاقا .

بين بونابرت طرقا شتى تستطيع السفن الفرنسية أن تنفذ بواسطتها من الحصار البريطاني . وقد نجح هو في اخراج عدد من السفن من الموانئ المصرية تحت جناح الظلام . ووقع بعضها طبعاً في قبضة العدو . ولكنها مغامرة يبدو أن الحكومة الفرنسية لم تشعر بأنها جديرة بزج السفن الفرنسية فيها للاحتفاظ باتصالاتها مع خمسين ألفاً من الفرنسيين المعزولين . ولعل لرجال الادارة عذرهم في هذا ، ولكن لنذكر أنه كان في امكانهم ارسال قوة قوامها ست بوارج أو سبع لتحطيم الحصار ولو مؤقتاً بين الحين والحين ، دون التعرض الا لخطر طفيفة جداً . ولكن الحكومة الفرنسية لم ترسل هذه القوة ، بل لم تبحث في امكان ارسالها . ومن السهل حشد الكثير من الأسباب التي تبرر عدم القيام بهذه العمليات ، ولكن هذا التبرير ، وان بدا مقبولا في كل تفاصيله، يحجب حقيقة ناصعة ، هي أن محاولة من هذا القبيل لم تبذل اطلاقا .

على أن رجال الادارة كانوا راغبين على الأقل في بذل النصيحة الطيبة ، وان أسفوا لعجزهم عن تقديم أية معونة أو تعاون . ففي ٤ نوفمبر ١٧٩٨ قدم لهم تاليران خطاباً مطولاً يشتمل على تعليمات لبونابرت ليصدقوا عليه . ويبدأ الخطاب بلومين غير مستورين - أولهما لأن بونابرت كان يحمل رسائله ساعة مهملون تركوا الرسائل تقع في أيدي العدو ، وثانيهما لتمكينه نلسن من تدمير أسطوله . ثم يجهل الخطاب الموقف السياسي على هذا النحو : ان روسيا وتركيا أعلنتا الحرب ، والنمسا على استعداد للانضمام اليهما ، ونابلي تتسلح ، والهولنديون حلفاء ضعاف، وبروسيا واقفة على الحياد، وأسبانيا وعدت بتقديم المعونة ولكنها لا تفعل شيئاً . ان الأفق مظلم ، ولكن فرنسا ستقاوم العواصف المتجمعة أيا كانت . أما عن بونابرت وجيشه : فان الاتصال به أو ارسال الامداد له مستحيل في المستقبل المنظور . « اذن فعليك أن تدبر أمرك بنفسك ، على الأقل فترة من الزمن . وكل ما قمت به في هذا الباب لكسب الأهالي في جانبك ، وللتفاهم مع العرب ، ولاجتذاب حلفاء كثيرين من الفريقين ، كل هذا جدير باستحساننا ، وما دمنا عاجزين عن ارسال أية معونة لك ، فان حكومة الادارة أحكم من أن تصدر اليك أي أوامر ، بل أي تعليمات . فقرر الطريق الذي تسلكه حسبما يتيح موقفك وما لديك من وسائل في مصر . . . وما دام من الصعب

فى الوقت الحاضر تيسير عودتك (أى عودة جيشك) الى فرنسا فاختر لك واحدا من ثلاث : اما البقاء فى مصر وتوطيد قدمك فيها بحيث تكون فى مأمن من أى هجوم تركى (مع العلم بأن جو مصر فى بعض الشهور مؤذ جدا للأوربيين ، خصوصا اذا لم يتلقوا أية معونة من أرض الوطن) ، واما الزحف على الهند فاذا بلغتها وجدت ولا ريب من يرحب بالانضمام اليك للكفاح ضد سيطرة الانجليز ، واما السير الى القسطنطينية ولقاء العدو الذى يهددك . والخيار فى يدك وفى يد الرجال البواسل الممتازين الذين معك ، (٤٢) . والوثيقة موقعة من تريار ، وكان يومها رئيس الادارة ، ولكن واضعها هو تاليران ، المسئول الأول عن وجود الجيش الفرنسى فى مصر . على أن نصيحته الطبية لم يكن لها لزوم . فأول هذه الحلول المعروضة على بوناپرت واضح لا خفاء فيه . أما ثانيها - وهو الزحف على الهند - فغير معقول . وأما ثالثها - وهو الزحف على القسطنطينية - فلا يقل استحالة عن سابقه (*) . فنصيحة تاليران - اذا أخذتها من جميع جوانبها - لا تعدو أن تكون : ان موقفك ميثوس منه ، فاصنع خير ما وسعك .

ومع أن هذه الرسالة لم تكن بالضبط معينة لبوناپرت ، فانها كانت هامة ، لأنها على الأقل تشتمل على أنباء خطيرة . ومن ثم كان المفروض أن يبذل بعض الجهد لتوصيلها لبوناپرت بأقصى سرعة ممكنة . وقد عهد بنسخة منها للواء لوكوت ، فتباطأ ثلاثة أشهر فى أسبانيا ثم مضى الى أنكونا وكانت محاصرة، وهذه النسخة لم تصل قط الى صاحبها . وعهد بنسخة ثانية الى تاجر مسافر الى تونس ، وبعد أن وصل الى تونس بيومين أعلن الباي الحرب على فرنسا ، فلم تصل هذه النسخة أيضا الى يد بوناپرت . وحمل مبعوث ثالث يدعى وينان مورفو نسخة ثالثة من الوثيقة ، وغادر جنوه فى ٩ فبراير (بعد توقيعها بثلاثة أشهر) فبلغ دمياط فى ٢٦ فبراير ، وكان بوناپرت فى سوريا وقتها بعد أن اتخذ قراره على مسئوليته . وتسلم الرسالة فى ٢٥ مارس وهو يضرب الحصار على عكا . وكان واضحا أن الادارة لم تحفل كثيرا بتوصيل الرسالة اليه سريعا، ولو أرسلتها فى مركب بريد لوصلت فى أغلب الظن الى مصر فى أوائل ديسمبر على الرغم من حصار الكوهدور هود .

أما رأى بأن الادارة تخلت عمدا عن بوناپرت ورجاله تخلصا من قائد كثير المطامع وجيش صخاب من غلاة الجمهوريين فقد بدأ الدعاة الانجليز بإذاعته فى عام ١٧٩٨ ، وردده كثير من المؤرخين . ولكن ما من دليل يقوم على صحته : فالحقيقة الواضحة هى أن رجال الادارة كانت تواجههم مصاعب هائلة داخل

(*) صحيح أن نابليون نفسه يذكر فى تاريخ الحملة أن الرايين الآخرين كانا فى ذهنه فى ذلك الحين ، ولكن لنذكر أنه كان وصفا غارقا فى أحلام الماضى .

فرنسا - حيث خطر الافلاس او قلب الحكومة مائل فى كل لحظة تقريبا .
وخارج فرنسا - حيث يتجمع حلف جبار ضدها . وكان رجال الادارة فى شغل
بموقفهم عن القلق على موقف بوناپرت فى غير موجب للقلق ، خصوصا وهم
عاجزون عن مساعدته على أية حال . فالجيش الفرنسى بمصر لا يعدو أن يكون
بيدقا واحدا على لوحة الشطرنج ، وبيدقا يمكن الاستغناء عنه . واذا استطاع
بوناپرت صانع المعجزات انقاذه فيها ونعمت ، والا فبالخسارة أقل فداحة من
محاولة تبذلها الادارة لانقاذ هذا الجيش .

٤

انهالت الأنباء على مصر طوال شهرى نوفمبر وديسمبر بما يتخذة الجزار
من استعدادات للحرب . ولم يحل يوم ١٩ نوفمبر حتى لم يعد فى الامكان
تجاهل نواياه العدوانية ، فأرسل اليه بوناپرت انذارا نهائيا يقول فيه : « لست
أريد محاربتك اذا لم تكن عدوى ، ولكن الوقت قد حان لتفسر تصرفاتك .
فاذا مضيت فى حمايتك لابراهيم بك على حدود مصر ، فانى سأعد هذا عملا
من أعمال الحرب ، وسأزحف على عكا » (٤٣) . وهذا كلام واضح جلى ،
ولكن الجزار لم يعبا بالرد ، شأنه من قبل - ألا أن يكون الرد بعد قليل بالأفعال
لا بالأقوال .

ومن بين الرسائل التى حملها بوناپرت الملازم فوريه العاثر الحظ ،
تقرير كتبه لحكومة الادارة وردت فيه فقرة ذات دلالة : « وصل على ظهر
سفينة تجارية رست أخيرا بالسويس راكب هندی يحمل خطابا لقائد القوات
الفرنسية بمصر ، وقد فقد الخطاب . ويبدو أن مجيء قواتنا الى مصر وقع من
نفس القوم فى الهند وقعا عظيما . . . والقتال يدور هناك » (٤٤) . ولسنا نعلم
على التحقيق أكان الراكب الهندى ، الشديد الاهمال فى توصيل الخطابات التى
ربما غيرت مجرى تاريخ العالم ، مبعوثا لتيبو صاحب . أم للحاكم الفرنسى
ل « جزيرة فرنسا » المسماة الآن « موريتيوس » .

كان تيبو صاحب خصما لدودا للانجليز ، ومن ثم كان كثير الاعجاب
بالفرنسيين . وقد خلف أباه حيدر على سلطانا على ميسور . وكانت هوايته
المحبة الى نفسه التفرج على جهاز ذاتى الحركة ، عجيب ، صنعه له ميكانيكى
فرنسى - هو ببر بالحجم الطبيعى ينشب مخالفه فى ضابط انجليزى فيفتك
به ، وتحتوى أحشاؤه على جهاز موسيقى يحكى زمجرة البير وولولة الرجل
الانجليزى . وهو اليوم من أحب المعروضات للمتفرجين فى متحف فكتوريا
والبرت ، حيث وضع ، لنزوة طارئة ، أمام المدخل المؤدى الى بهو الموسيقى .
وقد حمله كرهه الشديد لانجلترا على أن يبسط رعايته فى عام ١٧٩٧ على ناد

يعقوبى أنشأته الجالية الفرنسية فى عاصمته سرنجابتان • وعقد النادى جلسته الأولى فى ٥ مايو فى حضرة السلطان ، وأقام الأعضاء « شجرة حرية » ، وأقسموا اليمين على البطش بكل الطغاة ، الاتيو صاحب • وفى يناير ١٧٩٨ وصل اثنان من مبعوثيه الى « جزيرة ايل دفرانس » لاستطلاع امكان التحالف مع فرنسا لطرد البريطانيين من الهند • وفى ذلك الوقت أو نحوه كان ممثلو « الايرلنديين المتحدين » يجرون مثل هذه المفاوضات فى باريس ، فلا لوم اذن على الحكومة الفرنسية اذا استنتجت أن الشمس لا تغرب على كراهية الحكم البريطانى •

وأثار تقرير المسافر الهندى ، الوارد من السويس ، اهتمام الجنرال بوناپرت ، ويبدو أنه الى ذلك الحين لم يكن يعبأ كثيراً بالاتصال بتيبو •

وكان الجنرال بون قد احتل السويس دون مقاومة فى ٧ ديسمبر ، وهناك أسباب كثيرة لاهتمام القائه الأعلى بهذا الميناء • أولا : كون السويس الميناء المصرى الوحيد الذى لم يحاصره البريطانيون ، باستثناء ميناء صغير على البحر الأحمر هو القصير ، وكانت ايرادات الجمارك من البضائع الواردة من الهند وبلاد العرب ذات قيمة للفرنسيين الذين أقفرت خزانتهم من النقود • ثانيا : ما روى من أن السويس نهاية قناة قديمة خربة كانت فى يوم من الأيام تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وكان من المهام التى كلف بها بوناپرت البحث فى امكان شق قناة جديدة بين البحرين • يضاف الى هذا أن بوناپرت استقبل فى ٧ نوفمبر وفدا من البدو قدم من الطور ، بشبه جزيرة سيناء ، وصحب الوفد راهب من دير القديسة كاترين الشهير المشيد على جبل سيناء • وقد رغب عرب الطور فى الحصول على ضمانات لسلامة قوافلهم التى تذهب الى القاهرة حاملة اليهم الفحم • وأعطاهم بوناپرت التأكيدات التى طلبوها ، وكان للمقابلة وقع قوى فى نفوسهم ، فقالوا : « ان ذراعه قوية ، وكلماته حلوة » (٤٥) • وفى الوقت ذاته منح بوناپرت رهبان جبل سيناء امتيازات كانت فى حقيقتها امتيازات سيادة • ولا بد أن فكرة كسب صداقة العالم العربى ، مسلمين ومسيحيين ، لم تكن بعيدة كل البعد عن خواطره • وعرب الطور أول قبيلة هامة تعرض صداقتها عليه ، والتحالف معهم ذو قيمة كبيرة لوقوعهم عند ملتقى مصر وسوريا وجزيرة العرب •

وفى ٢٤ ديسمبر سافر بوناپرت الى السويس يصحبه حرس مسلح وعدة علماء وأركان حرب ، وبعض تجار القاهرة • ولم يخلف وراءه بولين فوريه فحسب ، بل حتى طاهيه • يقول الجبرتى : « وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاثة طيور دجاج محمرة ملفوفة فى ورق ، وليس معه طباخ ولا فراش ولا فرش ولا خيمة • وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق فى طرف

حربته يتزود منه ، ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق في عنقه « (٤٦) ولكن الجبرتي يغالى . فان بونابرت أخذ - حسب رواية صحيفة بريد مصر - ثلاثة خدم « فقط » لخدمته الخاصة . والغريب أن هذه الجماعة الصغيرة كانت تصحبها احدى مركبات القائد - وهى بالطبع أول ، وربما آخر ، عربية من نوعها تعبر صحراء العرب . ولم يركبها بونابرت ، ولعل مونج وبرتولليه ركبها .

وفى الأيام القلائل التى أنفقها بونابرت فى السويس كان أهم نشاط له (وان لم يكن أكثر علانية) هو استقباله تجار الحجاز واليمن ومسقط ، لاقامة الاتصالات الودية مع حكام هذه البلاد ، ولجمع الأخبار عن الاستعدادات الحربية فى سوريا . وقد أذيع نبأ رحلته الى « عيون موسى » أكثر مما أذيع نبأ هذا اللقاء . وهى عيون طبيعية بقرب ساحل سيناء على أميال جنوبى السويس . وخاض بونابرت ورفاقه البحر الأحمر على ظهور جيادهم عند انحسار المد ليصلوا الى العيون . وفى عودتهم بعد الغروب ضل المرشدون العرب الذين أسكرهم الجنود الفرنسيون طريقهم ، وكاد يحل بالجماعة المصير الذى حل بفرعون وهو يطارد موسى . واضطرت الجياد - بعد أن فاجأها المد العالى - الى السباحة مسافة ، وأشرف الجنرال كفاريللى على الهلاك ، وفقد ساقه الخشبية .

وفى اليوم الذى بدأ فيه بونابرت رحلته عائدا الى القاهرة ، ترك هو وقواده وعلماءه الطابور الرئيسى ليفحص آثار مجرى قناة السويس القديمة . ولم يكن العثور على هذا المجرى بالطبع عسيرا ، فالناس كلهم يعرفون أنه موجود هناك . ومع ذلك نسب بونابرت لنفسه فضل كشفه قبل غيره . وتابعت جماعته الصغيرة مجرى القناة صوب البحيرات المرة نحو خمسة عشر ميلا ، معرضة نفسها لخطر لا يستهان به ، ولم تلحق بالطابور الرئيسى الا بعد هبوط الظلام بوقت طويل . كذلك وجدوا فى اليومين التاليين آثار القناة التى كانت تربط النيل بالبحيرات المرة . وكانت النتيجة المباشرة لهذه الرحلات تعيين فريق من المهندسين والمساحين برئاسة كبير المهندسين لوبير لمسح برزخ السويس . وأتم الفريق هذا العمل بأمانة فى ظروف قاسية . ولكن خطأ طفيفا تسبب لسوء الحظ الى حسابات المهندسين ، فانتهوا الى أن مستوى البحر الأحمر يعلو عن مستوى البحر المتوسط بثلاثين قدما . واقتضى الأمر إعادة هذا العمل من جديد حين بدأ فرديناند دلسبس شق القناة بعد ذلك بستين عاما .

وأمر بونابرت طابوره وهو قافل الى القاهرة بمهاجمة قبيلة معادية من البدو كانت تهدد مواصلاته مع السويس ، فأحرق الفرنسيون معسكر الأعراب وحملوا الرهائن وصادروا الماشية والماعز والابل . ودخل « السلطان الكبير »

«القاهرة فى ٦ يناير تتقدمه هذه الحيوانات • ويقول الجبرتي ان العربان ساروا وراء الطابور - رجالا ونساء وصغارا - يتبعون فى حزن ماشيتهم طوال الطريق الى القاهرة • ولا بد أن هؤلاء جميعا ، بالاضافة الى المركبة التى تجرها الخيول الستة ، كانوا يؤلفون موكبا عجيبا •

وقد أصبحت سرقة الماشية والابل من البدو لاهى الأسباب والمعاذير (الا من بعض القبائل المتحالفة مع الفرنسيين) سياسة فرنسية عليا • وبعض أوامر بونابرت فى هذه الفترة خصصت لهذه المسألة • وسجل الميجر ديتروا هذه الظاهرة فى يوميات ١٨ - ٢١ يناير فقال : « ان البدو يطاردون فى الصحراء أينما كانوا • وفى كل يوم يستولى رجالنا على غنيمة منهم • فتارة يأخذون نساءهم على غرة ويحملونهن رهائن ، وتارة يستولون على ماشيتهم وخیلهم وابلهم • أما الابل فقيمتها لا تقدر ، لأننا سنقوم برحلة عبر الصحراء » (٤٧) • والواقع أن الغارات التى شنّها بونابرت لسرقة الابل كانت من قبيل الاستعداد لحملة السورية • وقد شكل فرقة للهجانة يعزز بها خيالاته • وكان على أفرادها أن يحملوا المزاريق فضلا عن عتاد المشاة المؤلف ، أدا زيهم العسكرى فقد صمم من قبل - وهو « الثوب الرمادى من فوقه العمامة ، وتغطيه العباءة العربية » (٤٨) • ومنظر الجمل ، وصوته ، ومسلكه أحيانا ، يشعر لأول وهلة بأنه حيوان شرس : وقد تردد الهجانة الجدد المعممون ، وهم يقربون من ركائبهم أول الأمر احجاما ، ولكن سرعان ما ألفوها • كذلك كانت الحاجة ماسة للابل لنقل المؤن والمدافع ، بل والجرحى أيضا - لأن النقلات المحمولة على الجمال كانت هى أيضا من مستحدثات الفرنسيين الأخيرة • أما الماشية والغنم فكانت تسرق من جهة لتموين الجيش ، ومن جهة أخرى لتشجيع العرب على أن يسلكوا مع الفرنسيين سلوكا أكثر مودة • يقول ديتروا « كان منظر هذه الفرق المغيرة وهى عائدة من غاراتها عجيبا • فكل فارس يحمل تحت معطفه شاة أو جديا يأمى ، ويأخذه خفية الى زقاق • وقد يبيع الرجل منهم حصانا مسروقا ببضعة قروش ، أو يهرب آخر بحمل ، ويعود آخرون بنسوة غاية فى القبح ملكوهن بحق الغزو » (٤٩) •

ومع أن بونابرت شجع السرقة اذا حققت منفعة ، فانه كان يبدي سخطه على القتل بطريقة علنية • وفى ليلة ٣ - ٤ يناير قتل لص أو أكثر ثلاث نساء مسلمات فى القاهرة ، ونجت رابعة بالاختباء تحت فراشها • واتهم الرأى العام بعض الجنود الفرنسيين بهذه الجريمة • وفى ٨ يناير أمر بونابرت عقب عودته من السويس بالقبض على عشرة رجال ينتمون لفرقة الرماة الثالثة بنصف اللواء الثانى والثلاثين استنادا الى أدلة واهية • وبعد التحقيق فى الأمر ، ودون اهتمام بدعوة مجلس عسكرى ، حكم القائد الأعلى على اثنين من المشبوهين العشرة بالإعدام رميا بالرصاص ، فأعدموا فى ذات اليوم • وسجل ديتروا الواقعة التالية

وهو يروى قصة الإعدام : « وقبل أن يموتا شربا نخب القائه الأعلى قائلين
انه دفع للخطأ . ثم أضافا : « سترون كيف يستطيع رماة نصف اللواء الثاني
والثلاثين أن يواجهوا الموت . ولم تكن محاكمة ولا حكم » (٥٠) .

وبعد أيام قلائل قبض آغا القاهرة على القاتل الحقيقي ، وكان خادما في
البيت ، وقد اعترف بجريمته . ولكن سلطانا كبيرا . يقتضيه واجبه أن يتخذ
الكثير من القرارات العاجلة ويراعى مقتضيات السياسة العليا ، لا بد أن
يخطئ بين الحين والحين . وقد أخطأ بونابرت مرة أخرى بعد خمس سنوات ،
ولكن الضحية هذه المرة لم يكن من جنود فرقة الرماة ، بل الدوق دانجيان ،
الذي عقب فوشيه على إعدامه السريع بقوله « انه شر من الجريمة - انه غلطة » .

وبعد أن أقنع السلطان الكبير الأهالي بعدائه التي لا تبطئ ، رأس
الاحتفالات ببداية شهر رمضان ، نعم بأسبوعين آخرين مع السيدة فوريه
(سابقا) ، وفي ١٠ فبراير غادر القاهرة ليقابل أحمد باشا الجزار في سوريا -
في هذا الوقت تقريبا ، وبعد نصف عام من قتال لا هوادة فيه ، كان الجنرال
ديزيه بالصعيد يحاول بفرقة الوحيدة القيام بعمل ثلاث فرق ليحتفظ بشماته
فتح في ظروف عصيبة جدا .

الفصل الثامن

الى الشلالات



فى ليلة ٢٥ - ٢٦ أغسطس ١٧٩٨ بدأ الجنرال ديزيه زحفه من الجيزة
مطاردا مراد بك ومعه ٢٨٦١ من المشاة ومدفعان . وهكذا بدأت حملة
استمرت تسعة أشهر ، واضطرت ديزيه وفرقته الى الزحف والتفكير مسافات
لا تقل جملتها عن ٣٠٠٠ ميل . وقد اقتفوا آثار مراد صاعدين مع النيل ،
وطاردوه برا الى اقليم البهنسا ، والفيوم ، ثم صعودا مع النيل ثانية مارين
بأسيوط وجرجا ، مخترقين أطلال دندرة والكرنك والأقصر الضخمة ،
وصعودا مع خانق النيل الى أسوان ، المدينة التى قاس فيها ايراتوستينيس
الأرض قبل ذلك بعشرين قرنا ، ومن أسوان الى فيلة التى تقع على مسيرة
يوم من مدار السرطان ، ثم رجوعا ، ورحلة فرعية عبر صحراء العرب الى
البحر الأحمر - كل هذا ومراد ينطلق أمامهم بأقصى سرعة ، تارة هاربا ،
وتارة منقلبا ليهاجمهم ، يختفى مرة فى واحة بالصحراء ، ويعود مرة أخرى
للظهور خلفهم ، ينكمش جيشه حينما الى بضع مئات من الاتباع الأوفياء ،
ولكنه لا يلبث أن يجمع الأحلاف والجيوش الجديدة ، ثم ينتهى به المطاف
حيث بدأ ، دون أن يظفر به مطارده - عند أهرام الجيزة .

كانت حملة عقيمة ، ولكنها من أعظم المغامرات فى العصور الحديثة -
مغامرة كان كل رجل تقريبا من رجال ديزيه على وعى بها . وقد وجد
جودرا ، وتريكو ، وجيبور - وهم من رجال ديزيه - فى أنفسهم من
الهمة ، برغم تمزق ثيابهم وتهرؤ نعالهم وامتلاء عيونهم بالصديد ، ما حفزهم

لنحت أسمائهم المغمورة على الصخور الجرانيتية الممتدة على ضفة النيل ، جنباً الى جنب مع من سبقوهم - يوليوس تيناكس ، وفاليريوس بريسكوس ، وكوينتوس فياتور - فسجلوا بذلك وجودهم هم أيضاً فى تلك البقعة .

وديزيه أكثر بطلاً هذه الملحمة شهرة ، فحياة الأبطال الحربيين الفرنسيين مسجلة تسجيلاً أوفى من حياة أبطال الممالك . ومع ذلك ما زالت شخصية ديزيه محيرة غامضة ، غموض شخصية مراد .

ولد لوى ديزيه دفيجو فى ١٧ أغسطس ١٧٦٨ - قبل مولد بوناپرت بسنة - فى جبال أوفرن ، من أسرة تنتمى لطبقة صغار النبلاء ، وكانوا من أصحاب الضياع فى الريف ، وحين بلغ الثامنة دخل مدرسة افيا الحربية ليدرس على منحة دراسية . وكانت المدرسة التى تديرها « جماعة الخطابة » قد أدخل عليها تلك السنة فقط اصلاح على يد وزير حربية جديد ممتاز هو الكونت دوسان جرمان . والى القارىء نص بعض تعليمات هذا الوزير : « يجب ألا توجه للتلاميذ إطلاقاً ألفاظ نابية ، وأن يحرم ضربهم .. فالرجال الذين ينبغى أن يهتدوا فى حياتهم كلها بالشرف ، يجب أن يربوا بمبادئ الشرف . اذن فأمثل ضروب العقاب ايقاظ احساسهم بالحزى ، وحرمانهم من الأشياء المحببة اليهم ... ولكن حتى هذه الوسائل التى يقصدها اذلالهم يجب عدم الالتجاء اليها الا بمقدار ، لئلا يعتاد الاطفال الذل . ويجب أن يقوم الثواب على هذه المبادئ ذاتها . على الشرف والامتياز ، لكى يصبح هذان ضرورة لا غنى عنها لنفوسهم » (١) . ولعل هذه المبادئ المثالية لم تضيع تماماً على التلميذ الذى اشتهر فيما بعد بالسلطان العادل . ولكن تقارير ديزيه المدرسية كانت مريعة ، ولعله كان أسوأ تلاميذ فصله .

وحاول فى الخامسة عشرة أن يدخل الأكاديمية البحرية ، فلما رفض طلبه حصل على وظيفة ملازم ثان فى فرقة المشاة البرتنية . ومع أنه كان لا يزال ملازماً عند نشوب الثورة الفرنسية ، فقد رأى - كما رأى معظم النبلاء المنخرطين فى سلك الجيش - أن يبقى فى الجيش دون نظر للآراء السياسية ، بدلا من أن يهاجر ويقا تل وطنه . ونشبت الحرب فى عام ١٧٩٢ ، وجلبت معها فرصاً لا حد لها للمجد والطفرة فى الترقى . ورقى ديزيه الذى كان يقا تل فى جيش الراين الى رتبة الفريق فى ٢٠ أغسطس ١٧٩٣ ، فقفز بذلك من ملازم ثان الى رتبة القيادة فى سبعة شهور . ومع أنه كان مرؤوساً لمورو فى حملات ١٧٩٦ - ٩٧ ، فانه اكتسب شهرة لم تفقها غير شهرة القائد الأعلى لجيش ايطاليا : وأصبح اسماً ديزيه وبوناپرت محل الاعجاب الشديد - من الفرنسيين المنتصرين والنمساويين المغلوبين على السواء .

ولكن مهما ذاعت شهرة قائد فى جيش الثورة الفرنسية ، فان منصبه

لم يكن في مأمن من التقلبات : فـلجنة الأمن العام ، وحكومة الادارة من بعدها ، مستعدتان لطرد أى قائد ، بل لاعدامه رميا بالرصاص . استعدادهما لصنع قائد جديد . وفى أثناء حكم الارهاب ، بينما كان ديزيه يرقى سلم الشهرة فى صفوف الثورة ، كان أشقاؤه وأبناء عمومته يقتلون فى صفوف أعداء الثورة فى جيش المهاجرين الذى يقوده كوندية ، وكانت أمه وأخته نزيلتى السجن . وفى يناير ١٧٩٧ أمرت لجنة الأمن العام بالقبض على الجنرال ديزيه بوصفه مشبوها سياسيا . واستقبل رجال ديزيه المندوبين الذين أتوا للقبض عليه بالسناكى ، فعدلت اللجنة عن رأيها . ولقى ديزيه مصاعب أخرى بعد حين ، ولكنه بطريقة أو أخرى كان يفلح دائما فى الإفلات منها .

أكان ديزيه جمهوريا ، أم ملكيا ، أم صاحب مهنة يرعى مصلحته لا أكثر ؟ ان ديزيه - أيا كانت سريره - لم يشعر قط بأقل دافع للافصاح عنها . فبونابرت ، بما طبع عليه من حب الكلام رغم غموض شخصيته ، يعد بالقياس الى ديزيه كتابا مفتوحا .

ولما اضطلع بونابرت فى ابريل ١٧٩٧ بتوقيع الهدنة مع النمسا فى لوبن ، قرر الجنرال ديزيه أن يزور ايطاليا ويرى كيف يعيش النصف الآخر من الجيش ويكسب هذه الأمجاد . وكان فى رحلته الى ساحات القتال فى لومبارديا والبندقية مدفوعا من جهة برغبته القوية فى التعلم واستخلاص العبر من عظمة الآخرين ، سواء المعاصرين منهم أو السابقين ، لأن هذه احدى طبائعه البارزة . وقد قال عنه الرياضى فورييه « كان ديزيه ملما بتفاصيل كل عملية حربية كبيرة . فاذا لم تواته فرصة المشاركة فى النصر ، رغب على الأقل فى رؤية ساحة القتال . وكان يبدو كأنه مسوق رغم أنفه للاتصال بكل شئ عظيم أو مفيد تحقق من قبل ويتمنى لو أنه عاصر كل بطل من أبطال التاريخ » (٢) كانت له الى ذلك دوافع أقل تنزها عن الغرض . فقد أفضى لأحد أصدقائه الأخصاء بهذه العبارة فى تلك الفترة « انى واثق أن مورو لن يقوم بأى عمل جليل ، وأنه حتم علينا أن نلعب دورا ضئيلا ما دمنا تحت قيادته ، بينما كتب لذاك (أى بونابرت) أن يرقى معارج الشهرة ، ويظفر بمجد عريض لا بد أن ينعكس بعضه على أعوانه » (٣) . ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن ديزيه سعى الى بونابرت عمدا ، لأنه رأى فيه نجما صاعدا يحسن أن يكون وثيق الصلة به .

كان ديزيه يدرس فى أسفاره ميادين القتال وهو متخف يرتدى الملابس المدنية . وقد انتهى الى هذه النتيجة ، وهى أنه ما من شئ صنعه بونابرت لم يكن هو ليصنعه ويصنعه بتضحية أقل فى الأرواح . ومن الأقوال الماثورة فى جيش الراين ، أنه اذا مضى رجل للقتال تحت امرة أى قائد غير ديزيه قال لرفاقه « وداعا » ، أما اذا قاتل تحت امرة ديزيه ففى وسعه أن يقول « الى

الملتقى ، . ولم يكن ديزيه بالقائد الذى يحتاج الى مورد من الجند يبلغ ١٠٠٠ رجل كل شهر . فلقد كان جنديا أصيلا . والمجد الحربى عند بونابرت وسيلة الى السلطان ، أما عند ديزيه فغاية فى ذاته .

ومع أن ديزيه ربط مستقبله بمستقبل بونابرت ، بل مات لينقذه ، فإن البطل لم يقع من نفسه فى أول لقاء لهما فى باسيريانو موقعا طيبا جدا . كتب فى يومياته « انه متكبر ، متصنع ، حقود ، لا يغفر أبدا . وهو شديد الادمان للمؤامرات . انه غنى جدا ، ولا غرابة ، لأنه ينفق من موارد قطر بأكمله . . وهو لا يؤمن بالاستقامة ولا الأدب واللياقة ، ويقول ان هذا كله حماقة ، ويزعم أنه عديم الفائدة ولا وجود له فى هذه الدنيا » (٤) .

ومهما تكن تحفظات ديزيه فى حديثه عن بونابرت ، فإن هذا أفضى اليه بسره منذ البداية . فقد كتب فى يومياته عقب مقابلة من مقابلاتهما الأولى : « مصر . . برزخ السويس » وكان هذا فى الوقت الذى أخذ فيه المشروع المصرى ينضج فى ذهن بونابرت . وبعد عودة ديزيه من إيطاليا بقليل ، عين قائدا مؤقتا لجيش إنجلترا حتى يعود بونابرت الى فرنسا . وهكذا ارتبط مصير الرجلين .

ولعل زهد ديزيه فى الافضاء بأرائه فى أى شخص . أو أى شيء ، ما لم تتصل هذه الآراء بقرار محدد يجب اتخاذه ، كان عاملا أعان على شدة تعلق الناس به وتمجيده بقدر ما أعان موته الباسل فى الحادية والثلاثين . فميوله العلمية ، وحياده فى السياسة ، وحبه للانصاف ، وإخلاصه للواجب والشرف ، وبساطته العسكرية ، وجلده ورباطة جأشه ، وتجنبه للتظاهر والفخفة - كل هذه الخلال تجعله صورة مجسمة لجندى متصوف صورته فى كتابه « العظمة والعبودية الحربيتان » . وقد قال نابليون فى مذكراته بسانت هيلانة « كان ديزيه منصرفا بكليته الى الحرب والمجد . . . كان دائما مهمل اللباس ، بل رثه أحيانا ، يحتقر الراحة والدعة . وقد أهديته بمصر غير مرة ثياب ميدان كاملة ، ولكنه كان دائما يفقدها . وكان من عادة ديزيه أن يلقي بنفسه تحت مدفع وينام راضيا كأنه فى قصر منيف . . . لقد هيأته الطبيعة ليكون قائدا عظيما » (٥) .

وكان ديزيه صاحب ملاعب ومقالب أحيانا ، شأن الكثير من الزاهدين فى مخالطة الناس والتحدث اليهم . فمرة تعشى مع بعض الضباط النمساويين فى فندق بترستا وهو متخف ، فكاد يتحداه أحدهم للمبارزة لعبارات ذم بها الجنرال ديزيه الذى كان الضابط يمتدحه . ولعله كان يقتبط لو علم أن الحلف ليس لديهم أدنى فكرة عن حقيقة شكله . فصوره العديدة لا يشبه بعضها بعضا أقل شبيه . فنابليون يذكره « رجلا قصير القامة متجهم الوجه ، أقصر منه

جيوصة - ومعنى ذلك أن طول ديزيه خمسة أقدام . ووصفه آخرون بأنه طويل جدا ، ويقول شاهد ان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات . ويجمع الكل على أنه كان قبيح الوجه ، وأن جرح السيف الذى أصابه فى وجهه ١٧٩٣ لم يصلح من منظره ، ويجمعون على أنه كان مهمل المنظر ، سيئ اللباس ، أشعث ، وعلى أنه كان خفيف الروح يحب مداعبة ضباطه ، له قدرة على الحديث الذكى الساحر ، وله ذاكرة قوية الى درجة شاذة . ولكن هذا كله لا يزيد صورته جلاء ووضوحا .

وقد نشأ عن نزعة فى تفكير الناس فى القرن التاسع عشر ، خلطت بين الشخص المثالى والشخص المجرد من الجنس ، أن تصور القوم ديزيه رجلا « منصرفا بكليته الى الحرب والمجد » ، مخلصا أشد الاخلاص للواجب والشرف والعدالة ، معرضا كل الاعراض عن مطالب الجسد . ولو عرف ديزيه هذه الصورة لبدت له نكتة ضخمة - يستمتع بها فى صمت . لقد كان فضوله الذهنى نشيطا حقا ، ولكن ليس لدينا دليل على أنه كانت له أى ميول علمية متأصلة ، ومع أنه كرس حياته للجندية بكل عنائها وكدها ، فانه لم يحتقر لذات الجندى الرخيصة . ويعلق أحدث كتاب سيرته بعض الأهمية على إصابته بعدوى مرض سرى ، وعلى ما زعمته امرأة بأنه أبو ابنتها غير الشرعية . وقد كتب ديزيه نفسه وهو بمصر الى حبيبته فى فرنسا ، يقول انه محاط بحريم كامل . ومع أن هذه الحقائق قد تدل على أن الحرب لم تكن الموضوع الوحيد العالق بذهنه ، فانه ينبغى ألا يغالى فى أهميتها . فالإصابة بالسيلان ، أو انجاب طفل غير شرعى ، لا يقتضيان المرء أن يكون زئير نساء ، ومن عادة الناس التباهى بـ « الفشر » . والظاهر أن علاقاته الغرامية الجادة ظلت أفلاطونية - ومن الجراءة أن نقطع بالسبب : أهو احبامه وتردده (ربما بسبب شعوره بقبحه) ، أم وقفه نفسه على الحرب .

والعلاقات الغرامية العارضة أقل فى حياة ديزيه ، وقد كتب لآخر امرأة ، واسمها مارجريت لونورمان ، رسائل تغلب عليها الصراحة ، تستحق رسالة منها كتبها بعد رحيله عن مصر فى عام ١٨٠٠ أن تفرد لها صفحة فى أى مجموعة مختارة من الدعايات الذكية . يقول : « انك تريدنى يا سيدتى المحبوبة أن أسرد لك تفاصيل مغامراتى الحربية والغرامية ... فليكن لك ما تشائين . واعلمى اذن أن كل شئ سار على ما يرام عند رحيلى عن أوروبا . وتعلمين أنتى كنت أركب الكوارجيز (أى الشجاعة) ، ترافقنى الكابرسيزور (أى الهوائية) ، والأموريز (أى المحبة) ، والكوكيت (أى المتدلة) ، والفيكتوار (أى المنتصرة) ، والاسبرانسى (أى الأمل) والكونستانس (أى الوفاء) . ويجب أن أنبهك يا سيدتى الى أن الكونستانس انهارت فى الطريق ... فتخلفت فى مالطة . أما الأموريز فقد اغتصبها الأتراك وسرقوها . وأما الكوكيت فأفلتت منهم . »

وأما الكابرسبوز فوقعت في يد الانجليز ، وأما الكوارجيز ففرقت ، وأمة الاسبرانس فبقيت معنا . وأما الفيكتوار فظلت وفيّة لنا ، ونحن عائدون بها ، (٦) .

وفي رسالة أخرى لمارجريت نجده أقل دعاية وأكثر جودا بأخباره . وإلى القارئ ما كتبه الجندي الذي « يحتقر الراحة والدعة » والذي ينام قانعا تحت مدفع كأنه ينام في قصر منيف ، عن حياته الغرامية في مصر : « أحببت أستيزا الصغيرة ، وهي فتاة جورجية لطيفة ، جميلة كفينوس ، شقراء ، رقيقة . وكانت في الرابعة عشرة - برعمتي وردة . وقد آلت الى بحق الميراث ، لأن سيدها مات . . . ثم أهديت سارة ، وهي حبشية رعناء في الخامسة عشر من عمرها ، وقد رافقتني في رحلاتي . كذلك ملكت مارا ، وهي طفلة ساذجة من دجلة ، وفاطمة ، وهي فارعة الطول ، حسناء ، جميلة التكوين ، ولكنها تعسة جدا . . . أولئك حريمي » . ثم يمضي في حديثه « وإلى هؤلاء يجب أن أضيف ثلاث زنجيات ، وغلاما أسود صغيرا اسمه باقل . ومملوكا صغيرا اسمه ، اسماعيل ، حلوا الصورة كأنه ملاك » (٧) . ولعل ديزيه غالى في قصته اغاظة لمارجريت ، ولكن سارة الحبشية الرعناء كانت ترافقه فعلا في رحلته الملحمية . وقد تبدو الفكرة مخيبة لأوهام من يرون في ديزيه قديسا من قديسي الحرب . ولكن ديزيه كان جنديا له كل ما للجندي من فضائل ووزائل .

كان مراد بك يكبر ديزيه بأكثر من عشرين سنة . فأما من الناحية البدنية ، فلم يكن غريمان أشد تباينا منهما . وكان ديزيه الضئيل الجسم الذي لم تجد عليه الطبيعة بحسن الصورة والذي أضناه المرض ، هو المطارد . وقد أوتى مراد - الطريدة - قوة ثور ومكر ثعلب . وكان ببنيته القوية ، ووجهه الشرسى الشاحب الذي تحيط به لحية شقراء كثة ، وعينييه الناريتين القاسيتين يعلوهما حاجبان ضاريان ، وثيابه البهية الزاهية التي بدا فيها نقيضا لديزيه في ثيابه الرثة - كان في هذا كله صورة مجسمة لقوة الرجولة ، التي أضافت اليها ندبة طويلة على أحد خديه مسحة حربية .

وليس لدينا معلومات أكيدة عن شباب مراد . ولعل تجار الرقيق في وطنه - بلاد القوقاز - قد اشتروه أو خطفوه ، ثم انتهت طفولته في سن الثامنة ، السن التي ألحق فيها ديزيه بمدرسة داخلية على منحة دراسية . ذلك أن العبد المملوك كان يبلغ مبلغ الرجال في سن صغيرة جدا - في نحو الثامنة أو العاشرة . وكان يعلم أن يكون سيدا رغم كونه عبدا . فيدرب على استعمال السلاح ، والفروسية ، والخيلاء . وكان المملوك اذا ركب في شوارع القاهرة ترجل عامة الناس عن بغالهم أو حميرهم ليمر . ومتى حصل العبد المملوك على قيادة نفر من الاتباع أصبح حرا ، واقتنى العبيد ، وأطلق لحيته - وذلك

شرف لا يناله غير الأحرار . وأصبحت علاقته بسيدته علاقة الولاء بين التابع والسيد الاقطاعي ، لا علاقة العبد بسيدته بالمعنى العادي ، على أنه وهو صبي كان عبدا لسيدته حقا ، يقوم الى ذلك مقام الخليفة له أحيانا كثيرة - دون أن يمنعه هذا من أن يكون أبا قبل أن يبلغ الرابعة عشرة . وكانت القوة ، والكبرياء ، والشهوة ، هي المبادئ التي يهتدى بها في سلوكه : فالجسد عنده شيء يستثمر ، أو يقتل ، أو يمتلك .

كان مراد عبد الأحد عبيد على بك الكبير (*) ، الذي حكم مصر سيدها مستقلا من عام ١٧٦٤ الى ١٧٧٣ . وفي كفاح البكوات للسلطة بعد موت على بك لمع مراد وابراهيم وتقاسما السيادة . وتزوج مراد أرملة على بك ، وهي السيدة نفيسة ، وكانت امرأة ذات ثراء طائل (آل اليها من زوجها على بك) وقد أوتيت الى ذلك شخصية قوية . واستطاع بماله ، لا بقوة السلاح ، أن يصل الى ما وصل الى ما وصل اليه من مقام . وكان بذله المال مضرب الأمثال كما قال الجبرتي وهو يذكر موت مراد : « وأخذ في بذل الأموال وانفاقها على أمرائه وأتباعه . . . وحظي عنده كل جرى غشوم عسوف ذميم ظلوم . واشتهر بالكرم والعطاء ، فقصدته الراغبون ، وامتدحه الشعراء والغاؤون ، وأخذ الشيء من غير حقه ، وأعطاه لغير مستحقه . . . وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الاقدام مع عدم الشجاعة . ولم يعهد فيه أنه انتصر في حرب باشره أبدا على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قال القائل :

أسد على وفي الجروب نعمة فتخاء تنفر من صفيص الصافر (٨)

ولكن مرادا كان من جهة أخرى منظما كفئا خلوا من الغرض . أنشأ ترسانة في القاهرة ، وجلب لها الصناع من الخارج لصنع المدافع ، وكذلك أنشأ أسطول المماليك النيل وعين لقيادته أحد الأروام المسيحيين . وكان هذا الرومي ، واسمه المعلم نقولا ، يتمتع بما يتمتع به الأمراء من تمييز وتشريف ، وكذلك كان نائب مراد المقرب اليه ، ابراهيم كتحدا السناري ، وهو نوبى أسود بنى لنفسه قصرا جميلا في القاهرة ، وكان مغرما بالجوارى الشركسيات يتشقف بدراسة التركية وتعلم فنون السحر .

وبينما كان نائبه ابراهيم ، ونائب ابراهيم هذا ، يحكمان باسم مراد ، كان هذا يعيش عيشة مترفة ، معتزلا في الجيزة ، وقد « تعاظم في نفسه وتكبر على أقرانه وأبناء جنسه » . ويقول الجبرتي انه كان مدمنا للذات ، « الا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم . . . ويميل طبعه الى الاسلام والمسلمين ، ويحب معاشره الندماء والفصحاء وأهل الذوق والمتكلمين ، ويشاركهم ويواسطهم

(*) محمد بك أبى النعب .

ولا يمل من مجالستهم ومنادمتهم ، ويناقل فى الشطرنج ويطلب أهل المعرفة فيه ، ويحب سماع الآلات والأغاني ، (٩) . وقد قضى مرة ست سنوات دون أن تطأ قدمه أرض القاهرة - ربما لأن كبرياءه لم تسمح له بأن يكره على اقتسام السلطة والمجد مع ابراهيم بك الذى كان يحكم العاصمة بوصفه شيخا للبلد .

وكان مراد بما اشتهر به حتى بين البكوات المماليك من خلاء وقسوة (*) ، نقيضا واضحا فى هذه الصفات لديزيه ، « السلطان العادل » . أما من حيث العلم بالحركات الحربية فقد كانت معلوماته العسكرية مقتصرة على مبادئ : الهجوم ، فاذا كان الهروب ضرورة فاهرب . أما ديزيه ، الذى درس التاريخ ، فكان ملما كل الامام بجميع نواحي العلوم العسكرية . ومع ذلك كان الغريمان متعادلين فى المهارة الاستراتيجية . فعبقريه ديزيه علمية ، وعبقريه مراد فطرية .

وهناك أوجه شبه أخرى بين الرجلين رغم كل ما بينهما من فروق . فكلاهما عنيد أشد العناد ، لا تشنيه المثبطات ، جسور ، رابط الجأش ، شديد المراس . وكلاهما عاش للحرب - فأما ديزيه فسعيا وراء مجد خيالى مجرد ، وأما مراد فحبا فى السلطان والمال . وفى هذا الصراع الذى اشتبكا فيه لم يفز أحدهما ولم يخسر ، بل زادا منزلتهما أهمية فى التاريخ .

٢

شعر مراد بك أن نابليون عنف بعض الشئ فى ضربه بامبابه ، ولكن لم يخطر بباله قط أنه هزم . وبكل بساطة تقهر جنوبا آخذا معه الآلاف الثلاثة أو الأربعة من المماليك الذين تركهم ، وما استطاع حمله معه من أمواله . ولم يجد مشقة وهو فى بنى سويف والفيوم والمنيا فى جمع الجنود الجدد من المشاة ، والحصول على المؤن والذخائر الجديدة ، بل الأموال أيضا . واستطاع بفضل البدو أن يحتفظ باتصاله الوثيق بالقاهرة ، وبالجزء الذى يحتله الفرنسيون فى مصر ، وبالأسطول الانجليزى المرابط أمام الاسكندرية ، وبزعميله ابراهيم بك فى غزة ، وبالجزار باشا فى عكا . وراح المماليك يتنقلون من مكان الى آخر بخيامهم الفخمة التى يخطف بريقها الأبصار والفلاحون يصدعون بأوامرهم .

رأينا فى فصل سابق (**) كيف رفض مراد بازدراء عروض بونابرت التى حملها اليه روزتى . وبينما كان مراد يرفض أن يدفع لبونابرت نفقات جلالة عن مصر ، كانت زوجته نفيسة تدفع لخزانة الفرنسيين ما يعادل مليوناً من

(*) يجل الجبرتى رأيه فى مراد فى هذه الكلمات « وبالجمل فمناقب المترجم لا تحصى وأوصافه لا تستقصى ، وهو كان من أعظم الأسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم ، فلعل الهم يزول بزواله » ج ٣ ص ١٧٩ .

(**) الفصل الخامس ، ص ١٥٧ .

الفرنكات الذهبية أو يزيد ، مسدادا لغرامات فرضت عليها بشتى الحجج والمعاذير . على أن هذا المبلغ لم يكن سوى قطرة من موارد الزوجين . كذلك آوت نفيسة الجرحى من جنود الفرنسيين ومرضتهم ، وكان لها مع السلطات الفرنسية علاقات تتسم بالكرامة وعزة النفس ، وقد احتفظ الفريقان في صلاتهما بمظاهر المجاملة المشوبة بالحذر .

كان بقاء مراد بمصر الوسطى والعليا لا يبرحهما أمرا لا يطيقه الفرنسيون حتى ولو لم ينشأ عنه تهديد مباشر لتملكهم القاهرة والدلتا . فما دام مراد حرا طليقا فسينتظر سكان الأقاليم المحتلة عودته آخر الأمر ، سواء أرادوا أو لم يريدوا ، وسيصانعون الحكام الفرنسيين ويداجونهم ، وتتأثر نفوسهم بدعاية مراد وتستجيب لها اما بالخوف منه واما بالتحمس له . أضف الى ذلك أنه كان من الضروري طرد مراد من مصر الوسطى والعليا قبل أن يجد من الوقت متسعا لجمع الضرائب هناك ، لئلا يفلت هذا المورد من الخزانة الفرنسية وهي في أمس الحاجة اليه . فحملة ديزيه البطولية لم تكن مطاردة لمراد فحسب ، ولكنها كانت أيضا سباقا بين جامعي الضرائب المتنافسين . وقد اقتضى الأمر - حتى في الدلتا وغيرها من الأقاليم التي يحتلها الفرنسيون - تجريد الفصائل الحربية لتعزيز سلطة جباة الضرائب الأقباط . ومنذ عشرين قرنا لاحظ ديودور الصقلي أن المصريين يعتبرون أنفسهم مفقلين اذا دفعوا ما يجب عليهم دفعه دون أن يضربوا أولا . وأضاف دينون الى هذه الملاحظة بعد أن أوردها قوله « أتيح لي أن ألاحظ أنهم وان لم يرفضوا الدفع قط ، الا أنه ما من حيلة بارعة لم يلجأوا اليها ليؤجلوا الدفع ولو ساعات قليلة » (١٠) وقد ضرب الفلاحون في مصر الوسطى والعليا في ذلك العام أكثر مما تعودوا كل سنة ، لأنهم في أكثر البقاع أكرهوا على دفع المستحق عليهم مرتين .

بدأت حملة ديزيه على مراد في ليلة ٢٥ - ٢٦ أغسطس حين غادرت قواته الجيزة يحملها أسطول صغير مؤلف من بضعة سفن حربية ، وزوارق كبيرة ، وشبكات ، وأجرام (وهي سفن الملاحاة النيلية) . وبدأت فرقته المؤلفة من أقل من ٣٠٠٠ رجل ومدفعين فقط والحالية من الفرسان ، أقل من قوة المماليك بصورة يرتى لها . ولكن لنذكر أن قوات المماليك قل أن اجتمعت في جيش واحد ، اذ كان كل أمير يقوم بعملياته الحربية مستقلا ، ما لم يدعهم مراد ليحتشدوا للقتال . ولو احتشدوا لآتاحتهم تفوق الخطط والحركات الحربية الفرنسية ، لفرقة من ٣٠٠٠ رجل ، أن تهزم بسهولة حشدا سييء التنظيم يفوقها مرات من حيث العدد . وقد تلقى مراد نفسه هذا الدرس في شبراخيت والأهرام . لذلك أخذ ، كما أخذ كوتوزوف بعد أربعة عشر عاما ، بخطة تجنب الالتحام بالعدو في معارك حامية ، واستدراجه ليوغل بعيدا عن قواعد تموينه ، معتمدا على تدميره تدميرا بطيئا بعملية

التفتيت والتآكل • ولعل هذه الحطة كانت تفلح مع أى عدو ، تقريبا ، الا ديزيه •

بعد أن أبحر ديزيه ١٢٥ ميلا الى الجنوب ، أخذ شطرا من جنوده وسار برا على أهل مفاجأة ممالك مراد فى البهنسا (وهى أوكر ينكوس القديمة) على حدود الصحراء الليبية • وأنفق الفرنسيون ثلاث ساعات فى عبور هذا الاقليم المغمور ، والماء يصل الى خصورهم والوحل الى ركبهم ، ثم وصلوا الى البهنسا ليروا آخر ابل الممالك تخوض بحر يوسف ، ثم تختفى فى الصحراء • وقفل ديزيه راجعا الى النيل ، وقطع ١٣٥ ميلا أخرى صاعدا النهر ليلحق بأسطول مراد ، الذى علم أنه عند أسبوط • ولم يجد هناك أسطولا ، ولكنه سمع أن كتيبة من الممالك تعسكر فى البر على خمسة عشر ميلا فى بنى عدى • فلما وصل الى بنى عدى كان الممالك هم ونساؤهم وأمتعتهم قد رحلوا منذ أربع وعشرين ساعة • وعاد ديزيه ثانية الى النيل ، واتجه هذه المرة شمالا ، اذ بدا أن مرادا فى اقليم الفيوم الحصب ، وقد صمم ديزيه على مباغتته هناك •

ولم يمض على الحملة ثلاثة أسابيع حتى أصبحت حال الجنود يرثى لها • وكل ما استجاب به بونايرت لتوسلات ديزيه اليائسة فى طلب الأمداد والمزيد من الجرايات والعقاقير والذخيرة هو ٣٠٠٠٠ جراية من البسكويت (وهذا لا يعدو أن يكون قسطا صغيرا من المطلوب) وثمانون رجلا • كتب اللواء دونزىلو رئيس أركان حرب ديزيه الى برتية يقول « لقد استفحلت حالات المرضى بين رجالنا فى الأيام الأخيرة • فأكثر من ٣٠٠ مصابون بالرمد ، ثم ان الدوزنتاريا تفشت بينهم من جديد • وسنعيد للقاهرة غدا جميع المصابين بأمراض سرية وبعض من يشكون الحمى • وجميع جراحي مستشفى الميدان مصابون بالرمد ، فيما عدا كبير الجراحين ٠٠٠ وكل ما تسلمناه من ال ١٣٥ قنطارا من البسكويت الذى وعدنا به من القاهرة هو ٨٣ قنطارا • والفرقة تشكو من العجز فى الأحذية • فأرجوك أيها الجنرال أن تأمر بارسال بعض الأحذية ، فالجنود يلقون عنتا كبيرا من اضطرابهم للسير حفاة على الرمال المحرقة » (١١) •

وفى ٢٤ سبتمبر دخل الأسطول بحر يوسف عند ديروط (*) • وكانت الملاحة شاقة جدا لأن هذا الطريق المائى كثير الانحناءات ، وكان مستواه قد بدأ فى الهبوط • وفى أول أكتوبر عادت الفرقة للبهنسا ، وهى تبعد نحو سبعين ميلا عن ديروط فى خط مستقيم • وبعد يومين تقابل الفرنسيون مع أول

(*) تركت عدة زوارق حربية لتجوب النيل ، وكذلك تركت الحملة وراءها الصنادل الكبيرة • أما بحر يوسف ، الذى سمي باسم الخليفة الذى له فضل شقه ، فطريق مائى بعضه طبيعى وبعضه صناعى ، يمتد نحو ٢٠٠ ميل طولا بموازاة النيل ، ويأخذ منه الماء من ديروط الى الفيوم • وهو مجرى قديم للنيل ، كما ظن دينون صوابا •

خصائل الممالك ، وأنزل ديزيه رجاله ، وأمرهم بالتقدم سيرا على الأقدام وهم يناوشون العدو في الطريق . وأخيرا ، لحق بمراد في ٧ أكتوبر ، وكان ينتظره في دير سديمونت ، وهو أحد الأديرة القبطية على مقربة من اللاهون .

قدر ديزيه قوة مراد بنحو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ فارس من البدو والممالك . وبعد أن شكل الفرنسيون مربعهم المعهود وعلى جوانبه فصائل رماة البنادق ، ألقى فرسان مراد أنفسهم عليهم بسرعتهم وثقلهم المألوفين . كتب ديزيه الى بونايرت يصف المعركة فقال « وراقبهم جنودنا البواسل - وهم يقتربون - بغاية الهدوء . وصحت برماة الكتيبة الحادية والستين « هيا ، أطلقوا النار ! » فأجابوا « لن نفعل أيها الجنرال قبل أن يصبحوا على عشرين خطوة منا » (١٢) . ولكن على الرغم من رصاص البنادق ورش المدافع الذي انهال رأسا على الفرسان ، فانهم حملوا على الفرنسيين بوحشية شديدة . فأحدثوا عدة ثغرات قوية في المربعات الفرنسية . ودار بعد ذلك قتال فردي بين رجال الفريقين تقشعر لفظاعته الأبدان . وراح الجرحى والمحتضرون يطعن بعضهم بعضا . يقول دينون (نقلا عن شاهد عيان) « زحف أحد رجالنا ، وكان صريعا على الأرض ، صوب مملوك محتضر ، وقطع حلقومه . وسأله ضابط « كيف تستطيع أن تقتل هذا في حالتك هذه ؟ » وأجاب الجندي « من السهل عليك أن تتكلم . أما أنا فليس أمامي غير بضع دقائق أعيشها ، وأريد أن أستمتع بها ما دام ذلك في استطاعتي » (١٣) .

وبعد أن استمرت المعركة أكثر من ساعة ، فتحت أربعة مدافع أو خمسة - أخفاها الممالك خلف أحد التلال - نيرانها على الفرنسيين . ولولا أن ديزيه هجم على البطارية واقتحمها لتوه ، لكانت النتيجة كارثة محققة على الفرنسيين ، على أن ديزيه تردد لحظة ، لأن الهجوم معناه أن يترك الجرحى وراءه ، فيمثل بهم الممالك ويذبحونهم ما في ذلك ريب ، ثم أمر بالهجوم . واضطر رجاله أن يطأوا الجرحى ، الذين راحوا يتوسلون الى رفاقهم أن يأخذوهم معهم أو يضربوهم بالنار . يقول الجنرال بليار في يوميته « ان أحدهم غطى عينه بمنديله وأدار جسمه ووجهه الى الأرض انتظارا للموت . وأمسك جندي كان مجروحا جرحا مميتا رفيقا له بذيل سترته ، وأبى أن يفلته . واذا رأى هذا أنه مقتول لا محالة دون أن يكون ذا فائدة لرفيقه ، استل مديته وقطع ذيل سترته وترك الجريح الشقي فأجهز عليه الممالك » (١٤) . ولكن الهجوم نجح : فاستولى الفرنسيون عنوة على ثلاثة أو أربعة من مدافع العدو ، وفر الممالك والبدو المذهولون في غاية الفوضى والخلل . ولم يكن المنتصرون في حال تتيح لهم مطاردتهم ، فقد قتل منهم أربعة وأربعون وجرح مائة ، وقدرت خسائر الممالك بأربعمائة . وتقهقر مراد الى الفيوم .

قال الجنرال فريان الذى اشترك فى المعركة فى رسالة كتبها بعدها مباشرة
تقريبا «أعتقد أن الجنرال ديزيه أبرد من الثلج بعشر درجات ، (١٥) » .

وسمح ديزيه لرجاله أن يستريحوا فى اللاهون ، وأجل الجرحى ، ثم
زحف الى الفيوم - تلك الواحة الأسطورية الخضراء ، التى خلبت تماسيحها
المقدسة ، وبحيرتها الصناعية الهائلة ، ومعابدها ، ولابرنتها ، وغير أولئك
من الأسرار الغامضة ، الباب الناس منذ كتب هيرودوت عنها . ولكن
ديزيه لم يجد شيئا من هذه العجائب ، ولم يجد مرادا كذلك . فقد عاد الى
اللاهون بينما كان ديزيه يبحث عنه فى الفيوم ، وكان عائدا الى البهنسا حين
عاد ديزيه الى اللاهون بعد أن غادرها بأربعة أيام فقط . كتب ديزيه الى
بونابرت يقول « كان يسرنى أن أواصل مطاردتهم ، لولا ما تنطوى عليه هذه
المهمة من مشقات فى الظروف الحاضرة . فالفيضان الذى يعزلنى عن القرى
سيجعل من المستحيل على أن أجد طعاما للجنود . . . أما القنساء
(بحر يوسف) فلم تعد صالحة للملاحة ، والمرضى فى الجيش يسحبون لى ارتباكا
شديدا . ان الرمد وباء مريع حقا ، فلقد حرمنى من ١٤٠٠ رجل . وفى مرات
زحفنا الأخيرة كنت أسحب معى نحو ١٠٠ من هؤلاء التعساء الذين كف بصرهم
تماما . . . اننا فى الواقع عراة ، حفاة ، محرومون من كل شئ . والجنود فى حاجة
ماسة للراحة . أعطنا اذن الأمداد والمؤن ، وسنمضى قدما . . . فأى شئ تريدنى
أن أفعل ؟ » (١٦) .

ووافق الجنرال بونابرت هذه المرة على أن الجنود فى حاجة الى الراحة .
فأجاب ديزيه بأن يدع مرادا وشأنه فترة ، وأن « ينظم » الفيوم . (والتنظيم
معناه جمع الضرائب ، ومصادرة الأغذية والحيل) . وفى أواخر أكتوبر
عاد ديزيه الى الفيوم ، التى كان مراد قد « نظمها » قبيل عودته . وأحس
الأهالى أن القوم أسرفوا فى تنظيمهم . وفى ٨ نوفمبر ، بينما كانت كثرة
رجال فرقة ديزيه خارج العاصمة ينظمون الاقليم ، اضطر نحو ٥٠٠ من
الجنود - ثلثهم مرضى بالرمد - الى الدفاع عن العاصمة ضد آلاف من
الفلاحين المسلحين . وفقد الفرنسيون أربعة رجال ، وقتلوا نحو ٢٠٠ . ولم
يحل ٢٠ نوفمبر حتى أخلى ديزيه الفيوم ، بعد أن نظمها تنظيما شاملا . ولم
يترك بها حامية ولا ديوانا اقليميا . ثم استقرت فرقته فى بنى سويف على النيل
انتظارا للأمداد . أما هو فذهب الى القاهرة ليستوثق من الحصول على مطالبه .
وكان مراد فى هذه الأثناء يكتب لشتى زعماء القبائل فى شبه جزيرة العرب عبر
البحر الأحمر ، ويشرع فى تنظيم الصعيد .

وبينما كان رجال ديزيه يطاردون مرادا ذهابا وجيئة بين الفيوم وأسيوط ،
كلف الملازم ديفرنوا من سلاح الفرسان بمهمة لا تقل عن هذه عسرا ،
ولكن تبين أن أدائها كان أقل عناء .

ذلك أن مرادا كان يعتمد اعتمادا كبيرا على القبائل البدوية في إقليم
بنى سويف وبقرية ليسهلوا له مواصلاته ، ويخفروا قوافل أمداده وأمتعته ،
ويعززوا قواته . لذلك كان من المهم اقناع القبائل المختلفة بأن يصبحوا حلفاء
للفرنسيين . واختار بعضهم في مقر القيادة الملازم ديفرنوا للقيام بهذه المهمة
الدبلوماسية الحساسة . وغادر ديفرنوا القاهرة يرافقه حرس من فارسين من
الهوسار (الخيالة الخفيفة) وشيخ بدوى وابنه ، وركب في الصحراء ، وزار
ثلاثا وعشرين قبيلة في تسعة عشر يوما ، وأنفق في رحلته وقتا ممتعا جدا .
وفاته أن يقول لنا هل وقع معاهدات صداقة كثيرة أم لم يقع ، ولكن ما من
شك في أنه كسب أصدقاء شخصيين كثيرين .

ومع أن حارسية البدويين ضمنا له سلامته ما دام في رعايتهما ، فقد كان
محقا في أن يكون شديد الحذر حين بدأ رحلته . فقد ظلت واقعة يرويها
في مذكراته (وتؤديها المصادر المستقلة) حية جدا في ذاكرته ، وخلاصتها
أن ضابطا شابا من ضباط أركان الحرب يدعى دينانو أمسكه البدو حين كان
الفرنسيون يزحفون الى القاهرة . وأعطى مبعوث بونابرت لشيخ القبيلة مائة
قرش فدية لدينانو . وأغلب الظن أن هذا المبلغ كان أكبر مما ألف رجال
القبيلة أخذه ، فتضاربوا أمام المبعوث لاختلافهم على توزيعه ، وهو أمر كثير
الحدوث بين البدو . ولكن الغريب تصرف الشيخ بعد ذلك . فقد استل
طبنجته من حزامه ورمى السجين برصاصة فقتله ، ثم رد القروش المائة
للمبعوث . وكان الحكم كالحكم سليمان - ان كان له في أحكام سليمان شبيه .
ولا ريب أن القصة كانت ماثلة في ذهن ديفرانوا ، ولكنه سرعان ما تبين أن
نزول المرء ضيفا على البدو يختلف كل الاختلاف عن كونه رهينة . يقول :
« أينما ذهبت أتيج لي أن أستمتع بالعطف والرعاية اللذين أغدقهما على شيوخ
البدو ونساؤهم وبناتهم » (١٧) .

ولا تضيف قصة ديفرنوا الى معلومات علماء السلالات جديدا ، ولكنها
تجربة لطيفة تناقض تلك التجارب المروعة التي مر بها رفاقه في فرقة ديزيه .
كذلك يتبين لنا من هذه القصة أنه كان من أكثر رجال بونابرت قدرة على
التكيف . يقول : « مهما اختلفت القبائل التي زرتها ، فأننى كنت أشارك
في ملاحى أولئك البدو . فأجلس الى جوار الشيخ وأبنائه وأسر كل السرور
بطعامهم وقهوتهم . وكان يحجز لي وللفارسيين اللذين رافقاني ركن في خيمة
شيخ القبيلة ليل نهار لنستريح فيه . وتعكف النساء والفتيات على حلب الغنم
وصنع الجبن أو عمل الفطير ، ويضطلعن بطهى الطعام وتقديمه . ويضعون
بطانية بسيطة من صوف الغنم أو وبر الجمل لتفصل في النهار بين مكان النساء
والرجال ، ولكنها ترفع في الليل فيختلط الجنسان ، في الأسرة الواحدة فقط .
وقد نمنا في خيام كثيرة ، ولكننا وجدنا هذه العادات ذاتها في كل مكان .

وكان النسوة والفتيات يغنين أكثر الوقت ، وكن مرحات ، متحررات في النظر الى ملابسنا وأشخاصنا . وقد رغبنا كثيرا في ازالة شعرنا من فوق المعدة وغيرها من المواضع التي لا يزيله منها الغربيون عادة ويجب أن أضيف أن كثيرات منهن كن غاية في الجمال وحسن الخلقة ، وأن لهن عيونا ساحرة ، (١٨) . واذا كان هذا الوصف لا يضيف كثيرا الى معلوماتنا عن أسلوب حياة البدو ، فانه يعطينا فكرة طيبة عن أسلوب حياة ديفرنوا . وقد كوفى على خدماته حين عاد من مهمته ، فرقى الى رتبة الكبتن فى ٢١ نوفمبر . وبعد أسبوعين ألحق هو وألف من الفرسان بفرقة الجنرال ديزيه . وفى طريقه الى بنى سويف وقف بأهرام الجيزة . وهناك كشف عن جانب مختلف من جوانب شخصيته . فليس كان الفرنسيين يقدرّون جمال المرأة الشرقية ، ولكن كل فرنسى تقريبا يقدر جمال قطعة من النحت أو التصوير . وقد أرى بعضهم ديفرنوا نقوشا بارزة بديعة فى بعض المقابر القريبة من الهرم الأكبر، وكانت تمثل شتى الأعمال الريفية مرسومة بما امتازت به خطوط الفن المصرى القديم من نقاء ودقة ونظام عجيب . ويعقب ديفرنوا على هذه النقوش بقوله « ان ما يستحق الاعجاب أكثر من كل شئ هو الدقة التامة فى تصوير أصغر التفاصيل . . . لقد هزت هذه المناظر الرائعة مشاعرى هذا قويا بحيث ما زالت ذكرها عالقة بذهنى بعد خمسين عاما ، (١٩) . لا بأس ، من فارس بفرقة الهوسار .



فى ٨ نوفمبر ، وهو اليوم الذى عاون فيه ١٥٠ من الفرنسيين الذين عشيت أبصارهم فى الدفاع عن الفيوم ، غادر الجنرال بليار الجيزة بكتيبة أرسلها بونابرت ليعزز بها قوة ديزيه . وكان عليه بعد أن ينضم الى ديزيه أن يستأنف قيادة نصف لواء المشاة الخفيف الحادى والعشرين ، وهو احدى وحدات ديزيه التى اضطر الى تركها مؤقتا بسبب اصابة شديدة بالرمد . ووصل الى « الزاوية » فى اقليم بنى سويف فى ١٣ نوفمبر ، وغادرها بعد أسبوع الى بنى سويف (*) . وبينما كان فى الزاوية لحق به كهل من المدنيين يبلغ الحادية والخمسين ، وكان رحالة عنيدا فاق فى حيويته أى محارب من الحيلة أو الرماة - ذلك هو فيفان دينون ، الذى كان يوما ما فتى محبوبا فى فرساي أيام لويس الخامس عشر ومدمام دبارى . ومكث دينون مع نصف اللواء الحادى والعشرين تسعة أشهر ، وفى أثناء مغامراتهما المشتركة كشفا لأوربا مفاخر المعمار والنحت المصريين .

(*) لم يستطع المؤلف تحديد موقع الزاوية اليوم أو فى الماضى . ولعلها الشنوية ، وهى قرية تظهر على الخرائط ولكن لا يلحظها أى شخص يمر بها .

كان دينون منذ وصوله الى القاهرة من رشيد يلاحظ المناظر المحلية ويدون المذكرات ويرسم ، ويزور الأهرام وأبا الهول ويرسم ، ويحضر جلسات المجمع العلمي ويرسم ، ويشترك تقريبا فى القتال أثناء ثورة القاهرة ويرسم . وقليل من الرجال ، فى أى عصر من العصور ، كانوا يرقبون ما حولهم بعيون مفتوحة كدينون .

وهو فيما يعلم المؤلف الرجل الوحيد الذى وفق فى أن يصف بالألفاظ جمال الأهرام وأبى الهول ، وهى آثار لا تروع معظم الناس الا بضخامتها فقط . يقول عن الأهرام كما تلوح للمناظر من بعيد « وددت لو استطعت تصويرها فى تلك الألوان الشفافة المصفاة التى تدين بها لذلك انقدر الهائل من الهواء المحيط بها والبعد الشاسع الذى يمكن أن ترى منه يجعلها تبدو شفافة تلونها زرقاء السماء بلون خفيف وترد اليها ما أفسدته القرون من كمال الزوايا ونقائنها » (٢٠) . فأما أبو الهول ، الرواغ الجمال على أحسن تقدير ، فقد سجله دينون بألفاظه خيرا من ريشته : « ومع أن نسبه هائلة ، فإن الخطوط التى ظلت باقية الى اليوم تمتاز بالليونة كما تمتاز بالنقاء : وتعبير الوجه رقيق جميل هادئ والفم ذو الشفتين الغليظتين يتسم فى انسيابه بشهوانية وفى تنفيذه برهافة جديرتين بالاعجاب ، فهو لحم ينبض بالحياة . ولو شعر انسان بأن هذا الرأس ينقصه ما اصطلاح على تسميته بالأسلوب - أعنى الأشكال المستقيمة المتكبرة التى أضفاها الاغريق على تماثيل آلهتهم ، لما كان فى هذا الشعور انصاف للبساطة ، ولا للمسمة الطبيعة الرائعة الرقيقة ، اللتين تنتزعان الاعجاب فى هذا التمثال » (٢١) .

على أنه كان أقل تقديرا للموسيقى والرقصات العربية ، ولكن قدرته على الوصف تحتفظ بمستواها الرفيع حين يذكر الاحتفال بمولد النبى يوم شهبه برشيد . يقول ان ضيوف الشرق الفرنسيين دعوا بعد العشاء الى حفلة شعبية اتخذ الشارع مسرحا لها بعد أن أضيء بالمصابيح والشموع الكبيرة . « وكان فى جانب منه فرقة موسيقى عسكرية تتألف من مزامير قصيرة ذات صرير ، ودفوف ، وطبول ألبانية كبيرة ، وفى الجانب الآخر الرباب والمغنون ، وفى الوسط الراقصون الأروام ، والخدم يطوفون بالقهوة والشربات وماء الورد والنراجيل » . وبعد أن وصف دينون تناوب الأغاني والمردات والموسيقى « المصرصة » التى ترافقها ، قال : « وزاد صوت أحن منبعث من مغن ملهم تلك الشهوانية الرتيبة التى أوحى بها أنصاف الأنغام الصادرة من الربابة ، والتى كانت دائما تتجنب القرار وتعزف على الوتر الثانى وتنتهى دائما على الوتر الثالث كأنها أغنية اسبانية من نوع « السيجويديللا » : ولعل فى هذا ما يدل على أن احتلال المسلمين لأسبانيا وطن فيها هذا النوع من الموسيقى وكانت الرقصة التالية شبيهة بالأغنية . فهى لا توحى بفرح ولا انشراح ،

بل بشهوانية سرعان ما تحولت الى دعاة ، زادها بشاعة أن الراقصين - وهم من الرجال دائما - يعبرون في تبذل كثير عن مناظر لا يسمع بها ، حتى الحب بين الجنسين ، الا مستورة بستار الظلام ، (٢٢) . كذلك كان دينون : فيه مسحة من العجب ، ومسحة من الخيال الشعري ، ولكنه أبدا قوى الملاحظة واضح العبارة ، ومن الصعب أن نقول من غيره كان أجدر بهذه النشوة التي أحسها لكونه أول أوربي ، خلال ألفى عام ، أتيج له أن يتأمل عن كذب عجائب آثار الكرنك والأقصر .

وبعد أن وصل دينون الى الزاوية تلقى عرضا من الجنرال بليار بأن يشاركه مسكنه . يقول دينون ان هذا كان أشبه بقسمة الذرة : فمسكن بليار من الصغر بحيث يقتضى وضع مائدة فى الغرفة رفع الفراشين أولا ، فاذا أراد الاغتسال وارتداء ثيابهما وجب رفع المائدة . وفى الليلة الثانية انهار المطبخ والاسطبل . ولا عجب فالبيت كله من الطوب الأخضر ، ولكنه كان خير بيوت القرية . على أن كلا الرجلين كان لحسن الحظ مرحا محبا للدعابة ، والا لكانت هذه بداية سيئة لعشرتهما التي دامت تسعة أشهر . يقول دينون : « أرجو أن يكون بليار محتفظا لى بذكرى طيبة كتلك التي تركتها فى نفسى رفته وهدوء طبعه وظرف خلقه الذي لا يتأثر بالأحداث » (٢٣) (*) .

كان بليار ودينون فى بنى سويف مع بقية فرقة ديزيه حين عاد ديزيه من القاهرة ووجد أن مددا من ٨٠٠ جندي قد وصل قبله ، وفى ١٠ ديسمبر انضمت الى مشاته البالغ عددهم ٣٠٠٠ كتيبة من الفرسان قوامها ألف رجل ظل ديزيه يلح فى طلبها شهورا ، وقد انتزعها من بونايرت انتزاعا تقريبا ، وكان يقود الفرسان الجنرال دافو ، الذي رقى بعد ذلك مارشالا للامبراطورية ، والذي دحر الجيش البروسى فى أورشتات ١٨٠٦ . كذلك أعطى ديزيه مزيدا من قطع المدفعية الخفيفة ، والجرايات ، وغير ذلك من المؤن . وفى ١٦ ديسمبر بدأت فرقته زحفها الذي امتد بها وراء أسوان ، أما أسطوله النهري الذي تخلف عن الجيش بعد قليل ، فقد أقلع فى ذات الوقت تحت قيادة الكابتن جيشار . وكان يركب الى جوار ديزيه رجل فذ ، لولا لباقتهم وكفايته وشجاعته لما استطاع ديزيه - فى أغلب الظن - أن ينال ما نال من أمجاد النصر رغم عبقريته كلها . وذلك هو المعلم يعقوب القبطى ، الذي كان من الناحية الرسمية منوطا بجمع

(*) ان المقارنة الدقيقة بين رواية دينون ويومية بليار التي لم تنشر ، تدلنا بجلاء على أن بليار وضع يوميته تحت تصرف دينون ليستعين بها فى تأليف كتابه . وكثير من ملاحظات دينون ليس سوى شرح لمذكرات بليار ، التي لم يكتبها بأسلوب أدبي كاسلوب دينون . لذلك لا يمكن استعمال المصدرين ليثبت أحدهما الآخر . ومن حسن الحظ أن قدرة بليار على الملاحظة كانت تعدل قدرة دينون ، ولكن من الأسف أن دينون لم ير أنه يخلق به الاقرار بفضل بليار .

«الضرائب فى مصر العليا ، ولكنه كان فى الواقع شريكا لديزيه فى قيادة حملته . وكان المعلم يعقوب ، بن يوحنا ومارية غزال ، الذى كان اذ ذاك فى مستهل عقده الخامس ، أصلح مستشار لحملة توجه ضد مراد ، الذى كان يعقوب يعرفه جيدا لأنه اشتغل من قبل ناظرا لدائرة زميل لمراد يسمى سليمان بك . كان خبيرا بطبيعة البلاد وبأهلها ، وله فى كل مكان صلات ، وفيه دهاء وحسن سياسة لا تجد لهما نظيرا حتى فى الجبابة الأقباط . وكان يتسم بصفة نادرة بين قومه - هى الشجاعة والكفاية الحربيتان . وكان أهل الصعيد يسمون فرقة ديزيه « جيش المعلم يعقوب » . ولو وقع هذا لقائد غير ديزيه لبرم به ، ولكن ديزيه ، المقرم بالتخفى ، رأى ما فى هذا الخطأ من فوائد ، ولم يفعل شيئا ليثنى الناس عنه . والواقع أنه ما من قرار اتخذ ديزيه خلال حملته كلها دون أن يستشير « القبطة » ، وهو لقب يعقوب فى الجيش . ولما غادر بونابرت مصر وأنشئ فيلق قبطة فى الجيش الفرنسى ، أصبح المعلم يعقوب قائده .

٣

بلغت الفرقة فى أول مرحلة للزحف بلدة الفشن الواقعة على النيل . وفى أول وقفة لها عند إحدى القرى وقعت لها حادثة من الحوادث المؤسفة التى تكشف عن حقيقة الحرب أكثر من أى وصف للمعارك وما يراق فيها من دماء . وقد سجلها دينون وبليار - دينون فى كتابه بشئ من الفضفضة الأدبية ، وبليار فى يوميته بغاية القصد - والى القارىء ما كتبه بليار : « فى أثناء وقوفنا تسلس غلام صغير الى حيث كان أحد فرساننا نائما وسرق بندقيته . ولاحظ فارس آخر فعلة الغلام فجرى خلفه ، وجرى الغلام بأسرع ما يستطيع وهو يخفى السلاح تحت جلبابه . ولم يقف الا بعد أن أصابه الجندى بجرح سيف فى ذراعه . وجىء به أمام الجنرال ديزيه فاستجوبه . فأجاب وهو يتطلع الى السماء بأن الله أمره أن يسرق ، وأن لديزيه أن يفعل به ما يشاء . ثم خلع طاقيته وأعطاهما للجنرال وطلب اليه أن يفصل فى مصيره . وظل طوال الوقت هادئا هدوءا عجيبا وأبدى قوة خلق نادرة . أما الجنرال فقد راعى صغر سنه وخضوعه لحكمه ، ثم حكم عليه بثلاثين جلدة . وانحنى الغلام طواعية وتلقى الجلدات على ظهره دون صوت أو دمعة . وعمره يتراوح بين الثامنة والعاشرة ، وهو حلو الصورة . ولو أتيح له بعض التعليم لتقدم كثيرا ، (٢٤) .



وصل الفرنسيون الى أسيوط فى عيد الميلاد ، بعد أن زحفوا بمعندل خمسة وعشرين ميلا الى ثلاثين فى اليوم . ولم يجنوا مرادا كما أملوا ، ولكنهم وجدوا أسطوله ، واستولوا عليه . وهنا ، وبعد مسيرة تسعة أيام فقط ،

أخذت نعالهم تتهراً ، وبلغ عدد المرضى فيهم ٢٠٠ . كذلك كانوا يعانون من شدة البرد ، فالشمس حامية في النهار ، ولكن الصقيع ينزل في الليل .

وكان مراد ، وهو يسبق الفرنسيين بيوم واحد فقط ، ينتقل خلال ذلك من قرية الى قرية ليجمع الميرى . ولم يكن دائماً يلقي الترحيب ، لا سيما في المدن والقرى التي تكون فيها غالبية الأهالي من الأقباط ، وهم أكثر عدداً في مصر العليا والوسطى منهم في مصر السفلى . يقول بليار في يوميته : « علمنا أن المماليك اشتبكوا في معركة مع أهل صنبو . فقد طلب المماليك ضرائب باهظة وماشية وجمالاً ، فرفض الأهالي . ونشب القتال بينهما ، وقتل من الفلاحين ثمانون ، وفقد المماليك ثمانية رجال منهم خازن مراد ٠٠٠ ونهبت القرية ٠٠٠ وقد أرسلت وفداً للجنرال ديزيه تطلب حمايته ، (٢٥) .

ولكن أية حماية كان في استطاعة ديزيه أن يمنحها إياهم ؟ لقد كان هو أيضاً مضطراً لفرض ضرائب ، والاستيلاء على الماشية والجمال والخيول ، ثم المضى قدماً ليخلفه المماليك في الغالب . وكانت توسلات القرويين أن يعفوا من الضرائب لأنهم دفعوها فعلاً لمراد تلقى في مقر القيادة بالقاهرة الرفض بلا استثناء . ومع أن كثيراً من القرى المصرية دفعت الميرى المفروض عليها مرتين في تلك السنة ، فإن السلطان سليم الثالث ، الذي كان الفريقان يجمعانها باسمه ، لم ير منها قرشاً واحداً . وبعد أن لاحظ دينون هذه العمليات المألية عدة أسابيع بدأ يرثى « للأهالي ، الذين أتينا الى مصر لنحقق لهم الرفاهية . . . ذلك أنهم اذا أكرههم الخوف على ترك قريتهم عند اقترابنا منها ، ثم عادوا اليها ، لم يجدوا فيها سوى الطين الذي بنيت به حيطانهم . فأدواتهم ، ومحاريتهم وأبوابهم ، وسقوف بيوتهم - كلها كانت تستعمل وقوداً لطهى حسائنا . وقدورهم تكسر ، وقمحمهم يؤكل ، ودجاجهم وحمائمهم يشوى . . . وأينما وقفنا بقرية أمرنا هؤلاء البؤساء بالعودة ، والا عوملوا معاملة العصاة أو حلفاء الأعداء ، وأكرهوا على دفع الضريبة مضاعفة . فاذا أذعنوا للتهديد وجاءوا ليدفعوا الميرى ، كان رجالنا يخطئونهم أحياناً بسبب كثرة عددهم وما يحملون من عصي . فيحسبوهم جماعة من الرعاع المسلحين ، وفي هذه الحالة تطلق عليهم دورياتنا النار دون تردد ، قبل أن يتسع لهم الوقت لبيان غرضهم . ثم يدفن موتاهم ونظّل أصدقاء حتى يجدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر . صحيح أنهم لو ظلوا في قريتهم ودفعوا الميرى . . . لوفروا على أنفسهم مشقة الرحلة الى الصحراء ، وتمتعوا بمشاهدة طعامهم يؤكل بطريقة منظمة ، وتلقوا نصيبهم منه ليأكلوه ، واحتفظوا بأجزاء من أبوابهم ، وباعوا بيضهم للجنود ، واغتصب من أزواجهم وبناتهم عدد أقل : ولكن هذا كان يعد جريمة تعاون معنا ، فاذا عاد المماليك بعد رحيلنا لم يتركوا لهم قرشاً ولا حصاناً ولا جملاً ، وكثيراً ما كان عمدة القرية يدفع حياته ثمناً لتحيزه المزعوم لنا ، (٢٦) .

فليقارن دافعوا الضرائب ، الذين يرثون لأنفسهم ، متاعبهم بمتاعب
الفلاحين المصريين فى عام ١٧٩٨ ! ولكن الفلاحين كانوا قد ألفوا هذا الضرب
من المعاملة آلاف السنين ، وإذا كانت أربعون قرنا من التاريخ تطل على أحد ،
فإنما على هؤلاء الفلاحين ، وتطل عليهم فى اشفاق ، لا على الممالك المتعجرفين ،
أو الفرنسيين الباحثين عن أمجاد الحرب . ومع ذلك كان هؤلاء الفلاحون فى
حرب لا تكاد تضع أوزارها مع القرى المجاورة ، كأن هذه المتاعب لم تكن كافية ،
وهى حرب يثيرها جدى مسروق أو ترعة متنازع على مائها ، الى غير ذلك من
المبررات والأسباب . وكانت معاركهم تنتهى دائما بموت عدد منهم . وتستطيع
أن تعرف حكومة مصر يومئذ ، سواء المحلية أو المركزية ، بأنها فوضى تزيد
الايجارات والضرائب سوءا على سوء . وقد أتاحت الفرصة مرة « للسلطان
العادل » (الجنرال ديزيه) عقب رحيله عن أسىوط ألا يشن الحرب أو ينهب
القرى ويسلبها ، بل يعيد السلام الى ربوعه بين قريتين مقتتلتين . يقول بليار
انه واجه الشيخين أحدهما بالآخر « وشرح كل منهما قضيته ، فوزن ما له
وما عليه بميزان العدل والقسطاس ، وانتهى الرجلان ، اللذان كانا يريدان
قبل نصف ساعة أن يفتك الواحد بصاحبه ، بتقدير ما فاه به الفاتح من أفكار
وآراء حكيمة ، أو أوامر أصدرها اليهما ، ثم انصرفا صديقين . وكان ذلك يوما
سعيدا . . . » (٣٧) ولسوء الحظ لم يكن هناك « سلطان عادل » يقوم بمثل
هذه المهمة لرؤساء دول أوربا .



يبدأ وادى النيل يضيق عند أسىوط . ولا تنبسط الأرض المزروعة ،
المحصورة بين سلسلتين رهيبتين من الجبال ، أكثر من عشرة أميال ، وقد
تعرض قليلا أو يزداد ضيقها كثيرا . ووجد الفرنسيون فى هذا الاقليم رخاء
لم يجدوه فى مصر السفلى . فالحقول والبساتين وأدغال النخيل يانعة مخدومة ،
والطرق والترع أحسن حالا . ولكن الحرب خلفت آثارها فى كل مكان . فقد
زار دينون ديرا قبطيا بنته القديسة هيلانة أم قسطنطين الكبير ، وأحرقه رجال
مراد فى اليوم السابق لزحف الفرنسيين مارين به . وكان الرهبان قد فروا
ولم يتركوا الا نفرا قليلا من الاخوة العلمانيين ، يذكر دينون أنهم « كانوا
يلبسون أسمالا ، وما زالوا يعانون من الصدمة التى أصابتهم من أهوال
البارحة » . وكان جانب من الستر الخشبي العتيق القائم فى مكان المرتلين قد
لفحته النيران : « ومع ذلك فقد أكرهت الضرورات الملحة ، لحرب ملحة ، رجالنا
على أن يزيلوا كل شئ حتى الأطلال التى خلقتها الكارثة ، وآثار التخريب الذى
كنا نحن السبب فيه » (٢٨) .

كان مراد يباهى أينما ذهب — فيما نما الى المعلم يعقوب — بأنه سينتظر
الفرنسيين فى جرجا لينازلهم ، وكانت يومها أهم مدن مصر العليا . فلما وصل

ديزيه الى جرجا تبين له أن مرادا غادرها في الليلة الماضية . واضطر ديزيه للتوقف على ما به من شوق لمواصلة الطراد . ذلك أن الريح البحرية ركبت ، فتخلف عنه أسطوله النهري . ولما كانت السفن تحمل مئونة الفرقة ، لم يكن بد من انتظار وصولها قبل المغامرة بالزحف الى الجنوب مسافة أبعد .

ونجم عن هذا التأخير نتائج خطيرة ، بل فتاكة بكثير من رجال الحملة . ذلك أن مراد بك أبدى - خلال الأسابيع الثلاثة التي مكثها الفرنسيون في جرجا - وهو معسكر على نحو خمسة وثلاثين ميلا الى الجنوب ، نشاطا فاق حتى نشاطه المألوف ، فجمع جيشا من ١١ر٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة . وكتب لحصنه اللدود حسن بك ، وكان أميرا من أمراء المماليك يحكم اسنا ، وأقنعه بأن يدفنا خصومتهما : فأتى حسن بأربعمائة مملوك من مماليكه وانضم الى مراد بمماليكه البالغين ١٥٠٠ . وكان مراد قد كتب لشريف ينبع وشريف جدة - على سباحتل الحجاز المطل على البحر الأحمر - يطلب اليهما جلب المحاربين ليعاونوه في جهاده مع الكفار ، وكان عماله في النوبة يشترون العبيد ليجندوهم في جيشه ، ومبعوثوه في طول الصعيد وعرضه ، من أسوان الى أسيوط ، يحملون الرسائل لتحريض الفلاحين على أن يقتلوا هذه الحفنة من الغزاة الفرنسيين ويغرقوهم في حمام من الدم . واستعان في حربه حتى بالأطفال ، فكان الصبيان في جرجا يسرقون أسلحة الفرنسيين بالعشرات .

كان أروع أمداد مراد هم المقاتلون العرب القادمون من الحجاز ، الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف . وقد زعموا كلهم أنهم من سلالة الرسول ، وكانوا يلبسون العمامات الخضراء ، ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخناجر ، وفي خلقهم صلابة تنطق بها وجوههم . وقد تبين أن كثيرا منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة في الطريق ، ولكن أكثرهم - وأشدهم تعصبا بالطبع - عرب خلص من شبه الجزيرة . ومع أن شريف مكة لم يشجعهم بالضبط على الانضمام الى مراد ، فانه لم يفعل شيئا ليشنيهم . وقد أرسل في الوقت ذاته الرسائل الودية لبونابرت ، لأن موارده كانت تعتمد الى حد كبير على ما يصدره من البن الى مصر .

وتجمع الروايات على أن « المكين » أو « أشراف ينبع » كما سماهم الفرنسيون ، هؤلاء المقاتلين ذوي الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقا لحكم بونابرت على العرب : « ان ضراوتهم لا يعدلها الا انحطاط مستوى معيشتهم ، لأنهم معرضون أبدا للرمال الساخنة والشمس المحرقة ، محرومون من الماء . لا رحمة في قلوبهم ولا عهد . فهم صورة مجسمة للرجل المتوحش كأبشع ما يتصوره العقل » (٢٩) . وكان هؤلاء الرجال من سلالة أسلافهم ، الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرنا . وقد جاءوا في عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان .

وكان لمراد حذق رهيب فى الحصول على أمداد لا حصر لها لاشباع نهم الحرب . كان يقنع الفلاحين ، الذين لم يكدهم يفرغ من ابتزاز مالهم ، بأن الفرنسيين هلك منهم كثير ، وأنهم معزولون مقضى عليهم بالهلاك ، وأن مهاجمتهم لا خطر فيها . ثم يضع الفلاحين حاجزا بينه وبين الفرنسيين ، ويرقبهم وهم يذبحون ، ويعتبره كسبا له ان قتلوا فرنسيا واحدا مقابل كل مائة يقتلون منهم ، وبدلا من أن يخف لنجدتهم ينطلق كالسهم الى مكان آخر ، لبدأ هذه المناورة نفسها من جديد . ولا يعلم أحد على التحقيق ما الذى وعد به حسن بك ، ولكن لابد أنه أجزل له الوعود .

ونزلت كل الأمداد العربية فى ثغر القصير الصغير . واتفق أنه حين وصلت أول قوة عربية ، كان بونايرت قد أرسل لتوّه أسطولا صغيرا من السويس ليحتل القصير . ووصل الأسطول الفرنسى والأسطول المكى فى وقت واحد ، وهو اتفاق ما كان فى استطاعة بونايرت أن يتكهن به . وضرب الأسطول الفرنسى ضربا شديدا ، وقفل راجعا الى السويس ، واختتم قائده تقريراً راجيا ألا يرسل مستقبلا فى مهام مستحيلة التنفيذ كهذه المهمة .



بينما كان مراد يجمع قواته فى هو ، على مسيرة يومين الى الجنوب ، كان الفرنسيون ينتظرون فى جرجا ظهور الكابتن جيشار بأسطوله النهري وهم يزدادون كل يوم غيظا . ولكنهم كانوا على الأقل يستطيعون أن يعزوا أنفسهم بوفرة الطعام ورخصه . فقد كان ثمن الاوزة معادلا لشلنين تقريبا ، وثمان الدجاجة شلنا ، وثمان البيضات الست ، أو الحمامة ، نصف شلن . يقول بليار فى يومياته : « لم نجد قط بلدا فيه الطعام أرخص . . . وقد يظن المرء لأول وهلة أن هذه الأسعار الرخيصة للأغذية معناها الفقر . ولكن اذا مكث أربعة أو خمسة آلاف جندي فى مدينة عشرة أيام دون أن ترتفع الأسعار ، فلا بد أن السبب هو وفرة الأغذية » (٣١) . منطق صائب أيها الجنرال ! ومع ذلك فلم كان الفقر واسع الانتشار رغم هذه الوفرة كلها ، وهذا الرخص كله ؟

ورفه الفرنسيون عن أنفسهم ببعض الملاحى ، فضلا عن أكل الحمام بسعر ستة بنسات للواحدة بدلا من بسكويت الجراية ، ولم تكن كل هذه الملاحى فجورا بالنساء . فهم يستمعون مثلا الى الرواة العرب يتلون القصص العجيبة . يترجمها لهم ترجمان جملة جملة . وفى عشية رأس السنة وصلت القافلة السنوية القادمة من النوبة . وتعشى أخو قائد القافلة مع الجنرال ديزيه . يقول ديزيه : « كان مرحا ، حار العاطفة ، ذكيا . . . وهو أشد سمة من البرونز ، وله عينان جميلتان » . وقال انه عائد لتوّه من رحلة الى مكة والهند استغرقت عامين ، وان له ثمانين أخا كلهم أمراء ، وكلهم أبناء لسلطان دارفور .

وكانت قافلته المؤلفة من ٢٠٠٠ جمل تحمل للقاهرة سن الفيل ، وتبر الذهب ، والسنا (مكى) ، والتمر الهندي ، والعبيد ، والجواري السود . وأدارت هذه الأنباء رؤوس الفرنسيين ، فخطرت لهم هم أيضا خواطر نفلوها بعد أسابيع قليلة . وانهالت أسئلتهم فى الوقت نفسه على الأمير الأسود . فكم يكلف العبد الزنجى تجار العبيد ؟ وأجاب الى المرأة تكلف بندقية ، والرجل بندقيتين . وهل توجد حقا مدينة تسمى تمبكتو ، « تلك المدينة الشهيرة التى ما زال وجودها لغزا يحير أوربا ؟ » (٣٢) فقال انها موجودة يقينا ، على رحلة ستة أشهر من دارفور صوب الجنوب الغربى ، وقال ان تجار دارفور يختلفون اليها بانتظام ، ويبيعون البضائع التى يشترونها من القاهرة الأهالى (وهم « غاية فى ضالة الجسم ولطف الطبع ») ، ويأخذون ثمنها تبرا . وأضاف الأمير فى رواية دينون (الذى يقسم أن القصة كما سردها منقولة عن حديث الأمير كلمة كلمة) أن أمام أوربا سوقا هائلة لبضائعها فى أفريقيا ، وأنا نحن (أى الأوربيين) سنلقى الترحيب اذا استعمرنا أفريقيا ، وأنا ان فعلنا لم نلحق أى ضرر بتجارهم ، وأننا سنربطهم بمصالحنا عن طريق تزويدهم بما يحتاجون اليه ، (٣٣) . ويخيل إلينا أن هذا الكلام أيضا لم يقع على آذان صماء ، ومصدق هذا تاريخ القرن التاسع عشر .

وهكذا انقضت الأسابيع الثلاثة فى جرجا . يقول بليار مسجلا هذه الفترة : « فى كل مساء ندعى (نحن ضباط أركان الحرب) الى حفلة فى بيت الجنرال ، فنقضى ساعتين لطيفتين بين الأصدقاء ، نتحدث ونناقش شتى المسائل التى تهمنى فى كثير أو قليل » (٣٤) . وأخيرا وصل المواطن جيشار بأسطوله فى ١٩ يناير ، وراحت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف من فوق الألحان الفرنسية المرحية ، وبعد يومين غادرت جرجا فرقة ديزيه - المؤلفة من ٣٠٠٠ من المشاة ، و ١٠٠٠ من الخيالة ، وفى اليوم التالى (٢٢ يناير) تلقاهم مراد فى سمهود بجيش قوامه ٣٠٠٠ من المشاة ، و ٧٠٠٠ من الفرسان العرب القادمين من الصعيد ، و ٢٠٠٠ من « المكين » المشاة يقودهم الشريف حسن حاكم ينبع ، و ٢٠٠٠ من المماليك . وكانت هذه هى الفرصة التى ظل ديزيه يحلم بها طوال الأسابيع الخمسة عشر الماضية .

وسارت المعركة كالعادة . وفى هذه المرة كون ديزيه مربعين من المشاة بدلا من مربع واحد . ووضع مربعا من الفرسان فى القلب ، أما المدفعية ففى الجناحين . وجربت خيالة المماليك عدة نقط للهجوم ، فلما صدوا فى كل نقطة منها تركوا المهمة للمكين ، فقتل منهم عدد كبير ، وفر المماليك الى الصحراء . وبلغت خسائر الفرنسيين فارسا واحدا . وبالطبع كان هناك عدد من الجرحى منهم الكابتن ديفرنوا الذى كان مع فصيلة من فصائل الطليعة أمام المربعين . يقول فى مذكراته كأنه يسرد الواقعة عرضا : « أصبت بثمانية عشر جرحا

يسيطر ، ولكن العدو اتخذني هدفا رئيسيا . وقطعت ضربة سيف أوتار ساعدي
الأيمن ، فاضطرت الى حمل سيفي في يسراي ، وقد أوقفني هذا موقفا
خطرا . . . وصحت بسافاري أن يخف لنجدتي . . . فصاح مجيبا : « ساعد
نفسك ما استطعت » (٣٥) وأثار الرد غضب ديفرنوا . ويقول انه اندفع
إلى يلوى وسط المعركة قاصدا مستشفى الميدان ، وهناك فحص الجراح جروحه
وأسفر الفحص عن الآتي : بالسبابة اليسرى والأصابع الوسطى قطوع ، وبالذراع
اليمنى جرح يصل للعظم ، ورض شديد في الجبهة ، وتسعة عشر قطعا صغيرا ،
بالإضافة إلى اثني عشر جرحا أو نحوها في كفل جواده . ولم يجمع أحد بين
القصد والتواضع في العبارة ، والمبالغة - ربما باستثناء البارون مونشاوون -
ببراعة كبراعة الكابتن ديفرنوا . أما ديزيه فلا يجد - وهو يكتب تقريره عن
المعركة لبونابرت - ما يقوله عن ديفرنوا أكثر من هذه العبارة : « أصيب المواطن
ديفرنوا بجرح من خنجر في معصمه ، دون أن يسبب له هذا عاهة
مستديمة » (٣٦) .

كان الماليك يفرون إلى الجنوب ، والفرنسيون يجدون في - مطاردتهم -
جدا صرفهم عن تجريد جثث القتلى مما تحمل ، ومرة أخرى هرب مراد ، ولكن
الفرنسيين عزموا هذه المرة - فيما كتب ديزيه لبونابرت - على أن يطاردوا
مرادا حتى يطرده من مصر ، ويحتلوا الأقاليم الواقعة في أقصى الجنوب ،
وينتظروا حتى يهلك مراد جوعا وفقرا . وفي هذه الأثناء كان حلفاء مراد ،
بل وبعض رجاله ، أخذوا يتخلون عنه ، وراح البكوات يتنازعون فيما
بينهم : وهذا على الأقل ما رواه للفرنسيين مملوك هارب - كان مسقط
رأسه بلدا لا يخطر بالبال هو سكسونيا - وانضم إلى الفرنسيين مزيد من
الهاربين من جيش مراد في الأيام التالية . ومع ذلك فإن الماليك كما تبين
لديزييه بعد قليل ، « أشبه بأفعوان » ليرنا ، فما إن تقطع رؤوسهم حتى تطلع
لهم رؤوس جديدة » (٢٧) . فلما وصل الفرنسيون إلى أسوان ، بعد مسيرة ٢٥٠
ميلا في عشر أيام ، كان مراد قد أوغل في أعماق السودان ، حيث ، أخفت
تطلع له رؤوس جديدة .

٤

حين تطوع دينون بالانضمام إلى فرقة ديزيه ، كان بعيد الأحلام شديدا
التحمس . كتب بعد ذلك في مذكراته عن هذه الفترة فقال انه كان يعرف
انه سيكون « أول من يرى ، ويرى دون أي أفكار مسبقة . كنت موشكا
أن أطأ تراب أرض ظلت محجوبة وراء ستار من الغموض والأيام دهورا
طويلة ، ومغلقة أمام الأوروبيين جميعا مدى الألفى عام الماضية . ومنذ أيام

هيرودوت الى يومنا الحاضر ، كان جميع الرحالة يقنعون بالملاحة مصعدين في النيل لا يجرؤون على البعد بحيث تغيب زوارقهم عن أبصارهم ، ولا يتركونها الا ساعات قليلة ليلقوا بنظرة عاجلة قلقة على الآثار القريبة من ضفة النهر
أما أنا فلم أخش - بعد أن شجعني لقاء الجنرال ديزيه الودى ، والمعونة التى قدمها الى جميع الضباط الذين شاركوني حب الفنون - الا من الافتقار الى الوقت ، وأقلام الرصاص ، والورق ، والموهبة ، (٣٨) .

وربما كانت موهبته محدودة ، ولكنها كانت من النوع المجتهد المدقق ، وهو أنسب المواهب لمهته ، وكان له فى حماسه وفهمه الفنى أكثر من عوض عن عيوبه . فأما أقلام الرصاص فكان هو ورجال البعثة العلمية الذين انضموا الى الفرقة بعده يفتقرون اليها طوال الوقت . وكانت الشحنات الجديدة تطلب باستمرار من القاهرة حيث يصنعها المواطن كونتيه ، وراح دينون ورفاقه يصهرون رصاص البنادق ويصنعون منه الأفلام ريثما تصلهم الشحنات من القاهرة .

ولكن أمس الحاجات كانت الحاجة الى الوقت ، وذلك فى الأسابيع الستة الأولى على الأقل . فلقد كان حتما على دينون أن ينتقل مع الفرقة والا هلك . وكانت الفرقة مضطرة الى التنقل السريع ، فى مراحل زحف طويلة جدا ، وراء مراد الذى كان يروغ منها أبدا . والبلدة الوحيدة التى وقفت بها الفرقة فترة تذكر هى جرجا - ولم يكن فى جرجا أو ما يجاورها من الآثار الهامة ما يستحق المشاهدة . وكانت هرموبوليس قد عذبت بالآمال الخداعة ، وهو يقول ان معبدها « كان أول أثر كشف لى عن أسرار العمارة المصرية القديمة ، وقد ظلت أحجاره . . . تنتظرني أربعة آلاف عام » (٣٩) . وسمح له بليار بدقائق قليلة يخط فيها رسما سريعا للمعبد ، ثم استأنفت الفرقة الزحف بسرعة خمسة وعشرين الى ثلاثين ميلا فى اليوم . وفى أسيوط بدا له كأن مقابر ليكوبوليس القديمة تومئ اليه ليشاهدها ، فخصص لها ساعات قليلة اختطفها اختطافا . وكانت الكهوف الجنائزية المنحوتة فى صخور السلسلة الليبية الجرانيتية ، مغطاة بالرموز الهيروغليفية : « التى تستغرق قراءتها شهورا على فرض الامام باللغة ، ويستغرق نسخها أعواما » (٤٠) . وغادرها دينون كارها . وقبل أن يصل الى جرجا كان الرمد يلهب عينيه اللتين تنتظرهما أشياء تفوق كثيرا ما رآنا من قبل . وقد خفف من أعراض المرض بأخذ الحمامات المصرية التى أصبح مدمنا عليها . وعلى اثنى عشر ميلا فقط من جرجا ، فى حافة الصحراء ، تقع أطلال أبيدوس « حيث بنى أوزيماندياس معبدا ، وحيث كان قصر ممنون » . وفى الأسابيع الثلاثة التى فرضت عليه البطالة فيها . كان فى كل يوم يتوسل الى ديزيه أن يرسل فصيلة لاستطلاع منطقة أبيدوس . « وكان ديزيه يقول لى كل مرة « أريد أن آخذك هناك بنفسى . ولكن مراد بك موجود

على مسيرة يومين منا هنا ، وسيكون هنا بعد غد ، وتنشب بيننا وبينه معركة
فنهزم جيشه ، وبعد يومين لن يبقى لنا ما نفكر فيه الا الآثار ، وسأساعدك
على فحصها ، (٤١) .

غير أن ديزيه لم يف بوعده تماما . فبعد معركة سمهود اضطرت فرقته
في مطاردتها الحثيثة لمراد الى الزحف عبر أبيسوس وتنتيرة (دندرة) ،
وهرمونتييس (ارمنت) ، وطيبة ، وأبوللونوبوليس ماجنا (ادفو) ، حتى
بلغت سين (أسوان) ، دون توقف أحيانا ، أو متوقفة في العادة وقتا
لا يكفي الا لاثارة شعور دينون بالحيرة والفشل . على أن الجند نسوا في دندرة
مؤقتا مطاردة مراد ، وأطالوا الوقوف بالمعبد الرائع . يقول دينون « ودون أن
تصدر اليهم أو يتلقوا أى أوامر ، ترك كل ضابط وجندي الطريق واندفع الى
تنتيرة ، وتلبث الجيش كله هناك بقية اليوم من تلقاء نفسه ، وياله من يوم !
وياله من سعادة في اقتحام كل الأخطار للوصول الى هذه الوليمة ! » (٤٢) .

أما شعوره الأول فشتعور الدهشة . لقد اضطر الى نبذ ما لقنه من قبل عن
القواعد الكلاسيكية للأساليب الدورية والأيونية والكورنثية . « لن تجد أبسط
ولا أحسن حسابا من الخطوط القليلة التي تألف منها هذا المعمار . فالمصريون
الذين لم يستعيروا شيئا من غيرهم من الأمم لم يضيفوا زخرفا دخيلا واحدا ،
ولا حشوا واحدا لا لزوم له الى الخطوط التي أملتتها الضرورة . والنظام
والبساطة مبداهما اللذان سموا بهما الى الذروة » ، بل ان النقوش البارزة
والكتابات والرسوم المسرفة التي تكسو هذه الأبنية لا تحلت كسرا في هذه
الخطوط : « فالخطوط تحترم ، وكأنها شيء مقدس ، وكل ما يبدو للناظر
عن قرب مزخرفا ، أو غنيا ، أو مترفا ، يختفى عن بعد فلا يبقى الا الأساس » .
وكان الرسم بالالوان يستخدم لزخرفة المعمار . « كان النحت رمزيا ، أو قل
معماريا . وهكذا كان المعمار أرقى الفنون ، كما اقتضت ذلك المنفعة ...
وحذار من خطأ شائع هو الاعتقاد أن المعمار المصرى يمثل هذا الفن في مهده ،
والأصح أن نقول انه الصورة القياسية لهذا الفن » (٤٣) .

وراح دينون في انفعاله يرسم بضراوة وسط هذه الكنوز المحيرة .
« وظللت أنتقل والقلم في يدي من أثر الى أثر ، تجذبني طرافة الواحد فأترك
الآخر ... ولم أجد من العيون والأيدي ما يكفي ، وكان راسي أصغر من أن
يرى ويرسم ويصنف كل شيء يروعي النظر اليه . وشعرت بالخجل من
قصور الرسوم التي صورت بها هذه الروائع » (٤٤) . واكتشف فجأة - في
غفلته عن الشمس الغاربة وخشيته أن « تفلت » منه دندرة - أنه وحيد في هذه
« البقعة » ، الا من رفقة الجنرال بليار الصبور ، الذي راح يرقبه بعين حارسة
وهو يكره أن يقطع عليه فرحته . ثم لحقا بالفرقة عدوا على جواديهما . وفي

المساء ذهب أحد الضباط الى دينون وقال له معترفا « منذ اليوم الذى حضرت فيه الى مصر كنت أحس أننى خدعت خداعا تاما ، وكنت على السوام مبتثسا مريضا . ولكن دندرة أبرأتنى . فما رأيته اليوم عوضنى عن كل تعاستى . وأنا لا أبالي الآن ما يحدث لى فيما بقى من هذه الحملة ، وسأظل أبدا سعيدا بأننى انخرطت فى صفوفها » (٤٥) .



وراء دندرة صادف الفرنسيون أول ما صادفوا من تماسيح . ويزعم دينون أنه شهد تمساحا طوله ثمانية وعشرون قدما ، وهذا طول كبير جدا ، وأن « عدة ضباط يوثق بكلامهم » رأوا تمساحا طوله أربعون قدما - وهو غير معقول . على أن الجنود سرعان ما تبينوا أن التماسيح ، مهما بدت ضخمة ، لا تستحق شهرتها بالتوحش . فقد كانوا يستحمون فى النيل فى هدوء على بضعة أقدام من هذه المخلوقات البطيئة دون أن تفتك بهم أو تصيبهم بأذى . وبينما كان الجنود يتحدثون عن التماسيح وصلوا فى الساعة التاسعة من صباح ٢٧ يناير الى منحى فى النهر ، فطالعهم على جانبى النهر مشهد طيبة القديمة كاملا ، بما احتوته من معابد فى الأقصر والكرنك . ووقفت الفرقة كلها من تلقاء نفسها وصفق أفرادها استحسانا . يقول ديفرنوا : « ودون أن يصدر أمر للرجال ، وقفوا فى طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى » (٤٦) . وكانت لحظة شبيهة بتلك التى رأى فيها رجال بالبو المحيط الهادى أول مرة - مع هذا الفارق ، وهو أن المحيط كان هدف الاسبانين ، أما طيبة فكانت منحة خالصة لم يسع اليها الفرنسيون .

وفى وسط هذه التحية العسكرية لعبقيرية الانسان كان دينون يرسم أول منظر لطيبة . وعرض عليه الجنود فى حماسهم أن يستخدم ركبهم مسندا للوحتة ، وأحاط غيرهم به حماية له يرسم من أشعة الشمس التى تبهر العيون . يقول « أود أن أعطى قرائى فكرة عن هذا المشهد لأشركهم فى الشعور الذى أحسست به أمام هذه الآثار الجليلة ، وفى العاطفة المثيرة التى جاشت بها نفوس جيش من الجند جعلتنى رهافة حسهم أبتهج بزمايتهم وأعتز بفرنسيتى » (٤٧) .

وما زال وصف هذه اللحظة بعد مائة وستين عاما مؤثرا الى حد يجعل عن التصوير . بيد أن المأزق الذى وجد دينون نفسه فيه بعد ذلك ينطوى على مفارقة مضحكة جدا . فهو يقول انه ظل شهورا يتسكع فى جحور كالزاوية ، وبني سويف ، وجرجا ، لم يجد فيها شيئا مما ذهب لمشاهدته . وها هو ذا الآن قد وصل الى طيبة ، ولكنه مضطر الى التحرك فيها علوا على جواده . وفى مدينة الموتى ، حيث ركب مع ديزيه ، هاجم نفر من الأعراب الشديدى النشاط والحركة ، المسلحين بالمزاريق ، جماعته . فعاد ركضا الى الشطر الرئيسى من الجيش ،

ورسم معبدا ، ثم انطلق كالسهم وراء الجنود الذين غادروا المكان . ووقف بعد ذلك يرسم تمثالا هائلا قد سقط على الأرض وتحطم (وسأل نفسه : أهو أوزيماندياس ؟) ، ووجد نفسه وحيدا مرة أخرى ، ثم اندفع الى سهل وقف به الجنود ليعجبوا بتمثالين ضخمين جالسين (تعرف الناس على أحدهما بأنه تمثال ممنون ، ولكن التمثالين في رأى دينون لزوجة أوزيماندياس وابنه) ، ثم قفز على ظهر جواده ليلحق بالجنود وهو لا يزال يرقب بعينه ويتأمل راكبا ، وخلف طيبة وهو حائق حنق المغلوب على أمره . على أنه لحسن الحظ استطاع في الشهور التالية أن يزور هذا المكان على مهل غير مرة .

وبى هرمونتيس (أرمنت) نام دينون فى معبد ، ومن حوله رسوم الاله الذئبى أنوبيس . ورسمه فى الفجر ثم مضى الى اسنا ، وهى لاتوبوليس القديمة، ومنها الى ادفو (أبوللونوبوليس ماجنا) مارا بأطلال هيراكونبوليس ذات الأحجار الرملية المتهدمة ، فى أعقاب ممالك محمد الألفى ، فوصلها قبيل الغروب : ليرسم بالجهد معبدها الشبيه بالقلعة ، المملوء بالأكواخ الطينية الحقيرة « كأنها أعشاش العصافير فى منازلنا » كما يقول . ثم مضى قدما ، مخترقا خانقا جرانيتيا يضيق شيئا فشيئا ، ومنه بالزورق عابرا النيل الى أسوان ، وهى سين القديمة ، حيث وصلت الفرقة فى ٢ فبراير بعد أن غادرها الممالك بيومين . والزحف مسافة ٢٥٠ ميلا فى عشرة أيام ، فى أرض وعرة معادية ، بجيش منهوك القوى ، مهرا النعال ، يشكو كل فرد فيه تقريبا من الرمد ، مثل رائع من أمثلة الجلد والاحتمال . وأشرف الجنرال بليار على أسوان ، بينما كان جنوده يعبرون النيل ، من مكان صخرى عال ، وكتب فى يوميته يقول « وتكشف العين الى الغرب صحراء شاسعة ، والى الجنوب منظر رهيب هو منظر الصخور الوعرة التى تؤلف الجندل ، وكأنها ترمز الى نهاية العالم المتحضر . فهنا يبدو أن الطبيعة تقف فى طريقنا وتقول « كفوا ولا تمضوا أبعد من هذا » . أما الى الشرق فجزيرة الفنتين ، وخضرتها وأحراج نخيلها تقيض الجبال الجرداء المحيطة بها » (٤٨) .

٥

ولم يطل مكث الجنرال ديزيه فى أسوان . ففى ٤ فبراير قفل راجعا الى الشمال ، تاركا نصف لواء المشاة الخفيفة الحادى والعشرين الذى يقوده بليار ، وسار محاذيا الضفة النيل اليمنى . ومر ثانيا بطيبة ، على الضفة التى تقوم عليها الأقصر والكرنك هذه المرة . كتب سافارى ، ياور ديزيه ، فى يوميته فى ١٨ فبراير - وهو الواقعى العبارة عادة - يقول : « يا لها من نشوة يحسها المرء وهو يشهد منظر المعبد والمسلة » (٤٩) . (وهذه المسلة تقوم اليوم فى ميدان الكونكورد بباريس ، حيث لا يكاد يتطلع اليها أحد) . وواصل ديزيه زحفه

شمالا الى أسيوط ، فوصلها في ٨ مارس ، ومكث بها عشرة أيام ، ثم عاد يصعد مع النيل ثانية مسافة ١٨٠ ميلا الى قنا (غير بعيد من طيبة) ، وكانت نهاية طريق القوافل القادمة من القصير ، ميناء البحر الأحمر . وبلغ مجموع المسافات التي قطعها ديزيه في زحفه ورجوعه في الخمسين يوما الواقعة بين ٤ فبراير و ٢٧ مارس نحو ٥٥٠ ميلا . ولم يكن التفرج على البلاد هدفه الأول .

كان لدى ديزيه ٤٠٠٠ رجل حين بدأ زحفه من بنى سويف في ١٦ ديسمبر . وبهذا العدد توقع منه بونابرت أن يسيطر على شريط طوله ٦٠٠ ميل من أقاليم معادية محصورة بين صحراويين . ولم يكن في استطاعته ، ليحقق هذا الهدف ، أن يترك حاميات يذبها المماليك والعرب والفلاحون . وقصارى ما استطاعه أن يشعر هؤلاء بوجوده في كل مكان تقريبا - ومن هنا هذا الزحف المتصل . أكان ديزيه عالما باستحالة مهمته ؟ ربما . ومع ذلك فكلما استحالت المهمة عظم المجد الذي ينال بأدائها . وقد تظاهر بأنها ممكنة - ولكنه لم يغفل في تظاهره غلوا يمنعه من طلب المعونة . ففي خطاب الى بونابرت ، مؤرخ ١٨ فبراير ، وصف موقفه هكذا : معارك متصلة مع الفلاحين والمتطوعين المكيين ، ومراد على وشك أن ينقلب مهاجما ، مخترقا الصحراء وراء خط ديزيه ، وعجز خطير في الذخيرة والأحذية ، والعقاقير والمدافع الخفيفة . « كأننا هنا في نهاية العالم . انه موقف محزن . تذكر أننا مفتقرون الى كل شيء ، وأن نوع الحرب التي نخوضها عسير . ولن أزيد عن تفاصيل موقفنا . فأنا لا أحب الشكوى ، (٥٠) .

و حين كتب ديزيه هذا كان بونابرت يحاصر العريش ويوشك أن يدخل الشام ، فلم يستطع أن يوفر له شيئا من مطالبه ، واعتمد اعتمادا تاما على قدرة ديزيه على السيطرة على الصعيد بأقل القليل . ولم يصل الى ديزيه شيء من مطالبته . ولم تحل بواكير مارس حتى بدأ يدرك الحقيقة المؤلمة . فكتب في ٩ مارس الى ديجا ، الذي كان يحكم القاهرة في غياب بونابرت ، يقول : « ان القائد الأعلى حين أمرنا بفتح الصعيد كان منصرفا تمام الانصراف الى حملته هو ، فلم يعطنا شيئا على الاطلاق . وكانت مكافأة فرقتي على جهودها المضنية أن تخلفت رواتب رجالها شهرا عن رواتب بقية الجيش . اننا لا نملك أحذية ولا ملابس ولا نقودا ، وقد أضنانا التعب . ولكننا سنمضي قدما ، نهزم المكيين والمماليك والفلاحين . لم تصلني أخبار من الجنرال بليار منذ اثني عشر يوما ، وقد طلبت من القائد الأعلى أشياء كثيرة أحتاج اليها ، ولكنني يئست ، لأنني لن أحصل منه على شيء اطلاقا ، (٥١) .

وعبارة ديزيه هذه لا توفى سوء موقفه وموقف بليار حقهما من الوصف :

أما احتلال بليار لأسوان فقد بدا في الأسبوعين الأولين نزهة يتخللها الطريف القليل من القتال واغتصاب النساء . لقد آن للرجال أخيرا أن ينعموا بقسط من الراحة . يقول دينون في مذكراته عن هذه الفترة : « كان خلع ملابسى ، وجلوسى ، ورقادى للنوم ، يبدو لى متعا لذينة مترفة . وكان هذا شعور الجنود كلهم . ولم يمض علينا بأسوان يومان حتى انتشرت دكاكين الخياطين والحذائين والجواهرية والحلاقين الفرنسيين يعلقون لافتاتهم ، كما انتشرت المطاعم التى تقدم وجبات الطعام بأسعار محددة . ونزول جيش بأى مكان كفىل بنمو المهارة الصناعية بغاية السرعة : لأن كل فرد يستخدم ما أوتى من مواهب لصالح الجماعة . ولكن الذى يميز الجيش الفرنسى عن غيره من الجيوش هو اهتمامه بالكماليات فى نفس الوقت ، وبنفس العناية التى يبذلها للضروريات . وهكذا كنت ترى بأسوان الحداثق والمقاهى وألعاب الورق العامة . وفى مخرج القرية الى الشمال طريق تحف بجانبه الأشجار ، هنا أقام الجنود لافتة عسكرية كتبوا عليها : الطريق الى باريس رقم ١٦٧٣٤٠ ر ١٠ (٥٢) .

وزار دينون مع بليار جزيرة الفنتين ورسم معايدها واتخذ منها « منزله الريفى ، وحديقة نزهته ، ومركز ملاحظاته وأبحاثه فى وقت واحد » (٥٣) . وأراد بليار أن يمضى قدما الى الجنوب ويحتل جزيرة فيلة . ولكنه لقى بعض المقاومة . يقول فى يوميته : « علت صيحات الأهالى ، وراحت النسوة ينشدن أناشيد المعركة ويثرن الغبار ، ثم أعطى إشارة القتال » (٥٤) . ولكن بليار أمر ببناء أطواف واقتحم الجزيرة ودهم النساء . يقول دينون : « وألقى الجميع - الرجال والنساء والأطفال - بأنفسهم فى النهر . وكنت ترى النساء ، الثابتات على فطرتهن الوحشية ، يفرقن الأطفال الذين لا يستطيعون حملهم معهم ، ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين . ووجدت فتاة فى السابعة أو الثامنة خيطة . . . بطريقة منعته من قضاء الضرورة العاجلة ، وسببت لها تشنجات رهيبة . ولم أستطع انقاذ حياة هذه المخلوقة الصغيرة التعسة الا بعد عملية مضادة وحمام . وكانت الفتاة غاية فى الجمال » (٥٥) . فيا له من لقاء نافع بين حضارة الشرق والغرب ! ولكن النتائج لم تكن مبررة لهذا العناء كله ، لأن بليار أخلى الجزيرة بعد يومين ولم يعد اليها قط . وبهواء مكث بها الفرنسيون يومين ، أو عامين ، أو قرنين - فهل يساوى النصر أو الدفاع هذا الثمن ، وهو تشويه طفلة صغيرة ؟ وما حظ المواطنين بليار ودينون من التحضر ، اذا كان فيهما هذه الحساسية الشديدة لروعة أطلال مضى عليها خمسة وثلاثون قرنا ، وهذا الاغضاء عن اغتصاب الجسد الحى ؟

كان الجنرال بليار يستخدم الجواسيس بسخاء ، فأنبأوه أن المماليك الموجودين جنوبى مدار السرطان يتضورون جوعا لأنهم أتوا على كل شىء استطاعوا

ابتزازه من الأهالى السودانيين ، وأنهم فى يأسهم موشكون على الرجوع واستئناف الهجوم . وأحس بليار ، كما يحس أى قائد ذى ضمير ، أن واجبه يحتم عليه منع العدو من الحصول على مزيد من الأغذية ، لذلك بعث بفصيلة الى الجنوب لقرية قليب طود ، وقال لديزيه انه أمر رجاله ، باتلاف جميع القمح الموجود بالقرية ، وكان فيها منه قدر كبير . وكان فى وسع الأهالى المساكين أن يرقبوا فى ساعة واحدة اتلاف ثمرات شهور ثلاثة من الكد . وأعطيت الفلاحين الذين مكثوا فى القرية بضع قطع من النقود ، وأخبرتهم أن عليهم ان جاعوا أن يطلبوا بعض الذرة من أسوان ، (٥٦) . ولم يسجل التاريخ هل أرسل الفلاحون فى طلب الذرة من أسوان ، فان كانوا قد فعلوا فلا بد أنهم وجدوا بليار قد غادرها .

كذلك أخبر الجواسيس بليار أن مراد بك على وشك اختراق الصحراء من كلابشة الى أسيوط - وهى مسافة تبلغ نحو ٣٠٠ ميل - ليقطع الاتصال بينه وبين ديزيه . وغادر بليار أسوان فى ليلة ٢٤ - ٢٥ فبراير فى شىء من العجلة دون أن يترك بها حامية ، ليلحق بمراد أو ليتجنب على الأقل قطع مراد للاتصال بينه وبين ديزيه . وهكذا اتضح أن الرحلة الى أسوان لم يكن لها ضرورة أو داع ، اللهم الا فرحة الجند برؤيتهم طيبة .

وبينما كان الجنرال بليار يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم ، ويأمر باتلاف المحاصيل ليهبط بمعنوية المماليك ، وصلت الأنباء للجنرال ديزيه والمعلم يعقوب بوجود مراكز تجمع للجنود المكين فى قنا ، وبنزول ٢٠٠٠ آخرين من المتطوعين المكين فى القصير ، وباقترب قوة من المماليك من الجنوب بقيادة عثمان بك .

اضطر ديزيه الى ترك أسطوله قرب قنا حين زحف شمالا بأكثر جيشه الى أسيوط فى أواخر فبراير . وفى أوائل ابريل علم الشريف حسن بوجود الأسطول على أميال من الكرنك ، وكان يقود نحو ألفين من مشاة المكين . وفى ٣ ابريل أدرك المكين الأسطول الفرنسى ، فراحوا يطلقون نيران بنادقهم على سفنه . وردت السفينة « ايطاليا » - التى كانت تحمل نحو ٢٠٠ بحار و ٣٠٠ من الجرحى والعميان وفرقة موسيقية على ظهرها - على هذه النيران بنيران مدفعية مدمرة . على أن هذا لم يخف المكين بتاتا ، فاستطاعوا أن يستولوا على بعض الصنادل الصغيرة وبدأوا يرتقون ظهر ايطاليا . ولما رأى قبطانها « موراندى » أن المقاومة لن تجدى ، حاول أن يتحرك بها بعيدا عن العرب ، ولكنه لم يفلح الا فى إرسائها على البحر . وكان العرب الآن قد صعدوا الى ظهر ايطاليا بالمشاة . وفى أثناء القتال الذى دار بين الأفراد من الجانبين وجها لوجه أمر موراندى بأحراق السفينة واخلائها . وقتل بوابل من الرصاص عقب تنفيذ هذا الأمر مباشرة تقريبا . واقتاد المكين الأحياء من الفرنسيين الى البر . وهناك

أمر المنتصرون فرقة موسيقى نصف اللواء الحادى والستين أن تعزف ، وعلى أنغام مارشات الثورة الفرنسية قتل الأسرى - وأكثرهم من العميان أو الجرحى - ثم جاء دور الفرقة الموسيقية .

وبينما كان الأشراف مشغولين على هذا النحو ، كان الجنرال بليار بنصف لوائه الحادى والعشرين يزحف شمالا فى مراحل طويلة مضمّنة تنفيذا لتعليمات ديزيه له بأن يعسكر فى أرمنت (هرمونتيس) . ووصلها هناك بالضبط فى اليوم الذى كان فيه بحارة « ايطاليا » وركابها يذبحون على ثلاثين ميلا الى الشمال . وفى ٤ مارس أنباء جواسيسه أن ٦٠٠٠ - ٧٠٠٠ آخرين من المكين نزلوا فى القصير . وبعد يومين بلغه نبأ الاستيلاء على « ايطاليا » . فعبر النيل وسار بسرعة هبوطا مع النيل على ضفته اليمنى . واخترق دينون هذه المرة الأقصر والكرنك دون أن يتوقف ولو لحظة ريثما يرسم بريشته منظرا واحدا . وفى قوص حذر شيخ البلد الذى كان ديزيه قد حالفه بليار من الماضى فى زحفه الى أبعد من ذلك ، - فالأقليم يعج بالمكين ، والفرنسيون ماضون الى حتفهم ما فى ذلك ريب . وفى ٨ مارس التقت قوة بليار ، المؤلفة من ألف رجل يشكون كلهم تقريبا من الرمد ، بقوة من المكين قوامها ٣٠٠٠ من المشاة ، وبنحو ٣٥٠ من المماليك عند أبنود (*) . وكانت مدفعية بليار تتألف من قطعة خفيفة واحدة . وكان لدى المماليك والعرب عدة مدافع استطاعوا أن يطلقوها فى احكام وان لم تتركب فوق عربات .

وتقدم الفرنسيون فى مربعهم المعهود صوب خط العدو المنبسط ، فتضعضع فى بطن ، ثم تقهقر نحو قرية أبنود حيث تحصن المقاتلون فى البيوت يقول دينون الذى شهد ثلاثة ضباط يقتلون أمام عينه وهو يتحدث اليهم « وظللنا نقاتل ست ساعات دون توقف . ثم أمسكنا لحظة لنلتقط أنفاسنا بعد أن أضنانا التعب وخنقنا الحر . ولم يكن لدينا ماء على الإطلاق مع أننا كنا فى أمس الحاجة اليه . وأذكر اننى وجدت أثناء احتدام القتال ابريق ماء مسندا الى جدار ، واذا لم يكن لدى متسع من الوقت لأشرب ، فقد أفرغت االبريق فى قميصى وأنا سائر » (٥٧) .

وبعد أن التقط الفرنسيون أنفاسهم استأنفوا الهجوم على القرية واستولوا على عدة بيوت ، وقتلوا بالسلاح الأبيض نحو ٢٠٠ مملوك . ثم ركزوا هجومهم على منزل لأحد المماليك اعتصم به عدد كبير من المكين وظلوا يقاومون الهجوم . وبعد ساعتين كان الفرنسيون قد فقدوا ستين قتيلًا ، وجرح منهم مثل هذا العدد أمام هذا المنزل وحده . وتوقف القتال بعد غروب الشمس ، ولكنه

(*) ورد اسمها عند الفرنسيين « بنود » ، ولا بد أنها هى « أبنود » .

استؤنف في الفجر • كتب بليار الى ديزيه في الغد يقول : « أصدرت الأمر باقتحام البيت • وأفلحنا في شق طريقنا الى الحوش واشعال النار في البناء • ونزل المكيون عدوا الى الحوش وهم عراة يمسك كل منهم سيفا بيد والبندقية بالآخرى ، وهم يطلقون النار على جنودنا ويقفزون كالمجانين الى اللهب محاولين اطفاء النار بأقدامهم » (٥٨) • يقول دينون وهو يصف هذا الحادث نفسه : « وراحوا يخوضون النيران كأنهم الشياطين خرجت من الجحيم • وأحسست وأنا أشهدهم بمزيج من الرعب والاعجاب • وتخللت المشهد فترات من السكون تسمع فيها صوتا واحدا (يصلى) ، وتسمع رد الجماعة بالأناشيد الدينية وصيحات الحرب ، ثم يقلون بأنفسهم علينا رغم يقينهم من أنهم ملاقون في ذلك حتفهم » (٥٩) •

وأرخی الليل سدوله ، ولكن المكيين ما فتئوا يقاومون في البيت وفي الحوش الذي تناثرت في جنباته جثث القتلى • ونقبوا في الظلام جدارا وهربوا ، ولكن كثيرين منهم فتك بهم الجنود الفرنسيون خارج البناء • وفي الصباح دخل الفرنسيون البيت ، وكان قد تخلف به نحو ثلاثين من المكيين أعجزهم عن الفرار مرضهم أو جراحهم • يقول بليار : « وكانوا لا يزالون يريدون الدفاع عن أنفسهم ، فقتلوا جميعا الا ثلاثة تونسيين استبقيتهم لاستجوبهم » (٦٠) • وما ان فرغ القتال حتى راح الفرنسيون يلتمسون العزاء عند نساء القرية •



وصل ديزيه وجنوده الى أسيوط في ٨ مارس - وهو اليوم الذي بدأ فيه بليار معركة الأيام الثلاثة مع المكيين • وجهر كل الاقليم المحيط بأسيوط بالعصيان : ذلك أن مراد طوى الأميال الثلاثمائة عبر الصحراء الليبية منتصرا في السباق على ديزيه ، وحرّض الفلاحين على التمرد مستعينا بكذبه المعهود • على أن ديزيه لم يكن هو الآخر بطيئا : فقد قطع ١٢٠ ميلا - وهي المسافة من فرشوط الى أسيوط - في أربعة أيام ، وهي سرعة لم يتوقعها منه مراد • وتعاقبت الأحداث على النحو المعروف مرة أخرى • فبعد أن خدر الممالك الفلاحين بدعايتهم ، وضعوهم حاجزا بينهم وبين الفرنسيين ، ثم انطلقوا هاربين على جيادهم الى الصحراء ، بينما كان الفرنسيون يذبحون نحو ألف من الفلاحين •

وحرب كهذه يمكن أن تمضي - كما يعلم ديزيه - الى ما شاء الله • كتب الى بونابرت يقول : « لو أنك تركت هذا الاقليم دون جنود ولو لحظة ، لارتد فوراً الى سادته الأولين • • • ولن أرهقك بسرد متاعبنا فلن تجد في ذلك لذة • • • لقد وجهت اليك أيها الجنرال عدة رسائل عاجلة بطلب العتاد ، وأنا عليم بمسيس حاجتنا اليه ، ذلك أن موقفى في الواقع خطير • ان الذين يسألون شيئا من الأشياء يبدوون كأنهم يتحسرون على أنفسهم • ومع ذلك انظر الى الحرب

التي علينا أن نخوضها ، وليس لدى جنودى من الطلقات الا ما يحملونه فى حقائبهم . فأقل ما تستطيع عمله أيها الجنرال هو أن تلقى بالك الى ما يطلب منك . ان فى الصعيد ١٨٠٠ مملوك ، وسأذهب وأقاتلهم ، (٦١) ، أما نصف لواء بليار فكان اذ ذاك قد بقيت عنده ٨٠٠٠ قطعة من الذخيرة . وكتب ديزيه مناشدا الجنرال ديجا فى القاهرة : « أستحلفك بالله أن ترسل الينا بعض الذخيرة ، وأن ترسلها على عجل ، (٦٢) . وأرسل دونزيلو ، رئيس أركان حرب ديزيه ، فى الوقت نفسه قائمة مفصلة الى الجنرال برتية ، الذى كان فى سوريا مع بونابرت ، ضمنها الحد الأدنى لمطالبه وهى : ٣٠٠٠٠٠ قطعة من الذخيرة ، و ١٠٠٠ قنبلة مدفع ، و ١٥٠ قنبلة هاويتزر . الخ . ثم قال : « وما لم تتفضل علينا بارسال بعض العقاقير ، فان مرضانا الذين يتكاثرون يوما بعد يوم سيهلكون . فهل نحن منفيون فى اقليم طيبة حتى نترك فى زوايا النسيان ؟ . . . اننا لا نطلب الا الأشياء الأساسية ، ولكنى ألاحظ أسفا أن طلباتنا لم تأت بنتيجة . والفكرة الوحيدة التى تعزىنى هى أنها ربما لم تصلكم ، (٦٣) .

على أن وصول هذه الطلبات أو عدم وصولها الى مقر قيادة بونابرت سواء . ذلك أن بونابرت ، حين كتب ديزيه ودونزيلو اليه والى رئيس أركان حرب ، كان بجبل الكرمل فى الأراضى المقدسة ، بعد أن ارتكب لتوه أبشع مجزرة فى تاريخ الحملة كله ، وأخذ يسير حثيثا الى حصار عكا بجيش تفشى فيه الطاعون وخلا فعلا من المدفعية .

ومع أن حال قوات الجنرال ديزيه لم تكن لتشرح صدره ، فانه وجد بعض العزاء فيما وصلت اليه حال المماليك هم أيضا ، من سوء ، كما دلت جميع التقارير التى وصلت الى المعلم يعقوب . كان رجال مراد يهجرون جيشه زرافات وينضمون الى جيش ديزيه - بعد أن فتنتهم ولا ريب دعاية القبطى البارعة . ودب الشقاق بين البكوات . وكان أهم سبب دفع المماليك ، الذين عهدنا فيهم الشجاعة فى الظروف العادية ، الى المبادرة فى كل معركة بالهرب الى الصحراء ، هو أمل كل منهم فى الابقاء على قواته بينما يحطم الفرنسيون جيوش منافسيه . وهذا الضرب من السياسة بين الحلفاء ابان المعركة مسلك شائع مألوف فى الحرب ، وان تستر وراء مختلف الحجج والمعاذير . ولم يحل منتصف مارس ١٧٩٩ حتى كانت قوات المماليك قد انقسمت أشتاتا تحاول كل فصيلة منها أن تدبر لنفسها ما تستطيع من أقوات . وتقهر مراد الى الواحة الخارجية ، ومعه عثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطمبورجى ، وذلك المحارب الذى سيظل اسمه دائما مذكورا - وهو محمد بك المنفوخ . أما حسن بك فقد يم صوب قنا جنوبا مع عدة أمراء بقواتهم ، كما فعل أيضا محمد بك الألفى

هو وكتيبته • وراح غيرهم من البكوات والكشاف يضربون في أرجاء الريف •
أما سليمان بك فقد جاوز أسوان جنوبا ، وكانت فلول المكيين بين النيل والقصور
في انتظار الأمداد • وهكذا بدا في الظاهر أن ديزيه يسيطر على صعيد مصر ،
ولكن ما أن يول ظهره حتى يلتئم شمل قوات العدو المشتتة على هذا النحو
ثانية وتحتل الاقليم كما كتب لبونا بورت • لذلك لم يكن أمامه سوى شيء واحد
— هو أن يمضى في مطاردة أعدائه شمالا وجنوبا ، وفي قطع رؤوس الأفعوان
كلما طلعت من جديد •

وقد قسم ديزيه قواته غير مرة للقيام بمهام تأديبية معينة • ففي ٥ أبريل
مثلا بعث دافو مع شبطر من خياله شمالا ليطارد بعض الجنود المكيين • وفي
جرجا علم دافو أن ثورة نشبت شمالا عند بنى سويف ، وأن مرادا يغادر
واحته لينضم إلى الثوار • فخف دافو إلى المكان • وفي أول مايو قتل ٢٠٠٠
من الفلاحين المسلحين في بنى سويف ، وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال ،
وهو عمل مجيد ولا ريب ، ولكن الكابتن ديفرنوا ، الذى كان مع دافو ، أتى
بما هو أعظم • فقد هاجم وحده تقريبا القافلة القادمة من دارفور ، والتي تصادف
مرورها إذ ذاك — وهى نفس القافلة التى أحسن الجنرال ديزيه استقبالها —
واستولى منها على ٨٩٧ جملا • فلما أقبل بغنيمة كاد دافو يجن فرحا ، فقال
له : « لقد أقيمت عليك الدنيا يا كابتن • فهذا العمل الذى أتيت به قضى على
خطط أعدائنا (*) » • وستظفر بأثنى عشر نصيبا من الغنيمة ، ويظفر بمساعدك
بسته أنصبة ، وكل ضابط صف وخيال بنصيب » (٦٤) • وكان دافو فى
تقريره للجنرال ديجا أكثر تحديدا لقيمة هذه الأنصبة • فقد كتب له يقول :
« لقد حصل عدة جنود على ما قيمته خمسة عشر أو عشرون ألف فرنك
ذهبي ، (٦٥) •

٦

فى هذه الأثناء كان رجال الجنرال بليار الأقل حظا يزحفون شمالا وجنوبا
بين قنا وأسوان ، ويقاثلون الفلاحين والمكيين والمماليك (**) • ولم يرحب بهذا

(*) ليس هناك دليل على أن مرادا كان يضع الخطة لمهاجمة القافلة • ومن غير المحتمل أنه
كان مهاجمها حتى إذا استطاع ، لأنه لم يرد أضعاف التجارة بين السودان ومصر • ولكن قطع
الطريق على هذا النحو اقتضى دافو وديفرنوا انحلال عذر يبرره • وقد اعتذر لبونا بورت بعد ذلك
لسلطان دارفور من هذه الفعلة •

(**) فى هذه العمليات صادف الكبتن رينو ، الذى أرسله بليار على رأس ٢٠٠ رجل
ليعيد احتلال أسوان ، قوات للمماليك تفوق قوته أكثر من ثلاثة أضعاف ، وهزمهم بفضل جرأته •
وأصيب حسن بك وعثمان بك بجراح مميتة فى هذا القتال الذى سماه نابليون « أبدع معركة فى
الحملة المصرية بأسرها » • (الحملتان المصرية والسورية فى رسائل نابليون الأول ٢٩ - ٥٣٦)

التذبذب المتعب ، القتال ، بين الشمال والجنوب سوى دينون وعدد من المهندسين المدنيين الذين أرسلهم ديحا من القاهرة لينضموا الى قوات ديزيه . ونصت تعليمات الجنرال كفاريللي لقائد الجماعة ، وهو كبير المهندسين جيرار ، على « أن يبحث الوسائل التى يمكن الانتفاع بها من النيل فى زيادة خصوبة مصر ، وأن يجمع البيانات اللازمة لوضع خريطة عامة للنظام المائى لهذه البلاد ، (٦٦) . وكان المشروع جليلا جدا ، وهو لا يزال ينفذ فى أيامنا هذه ، وان قامت بالتنفيذ أيده أخرى . ولكن رجال جيرار - وهم المواطنون ديبوا ، ايمى ، وديشانوا ، وديكوتيل ، ودروزيير ، وديبوى ، وجولوا ، وفيليب ديتراج (وكلهم من المهندسين) ، وكاستكس (وهو مثال وحفار) - ما لبثوا أن أفلت زمامهم من يده . ونسيت مائة النيل ، وغدا علم الآثار هوايتهم المحببة . فما ان رأوا أول المعابد والمقابر القائمة على طريقهم حتى انضموا الى دينون فى رسم كل شئ - التفاصيل المعمارية ، والأعمدة ، والتماثيل ، والحطام ، والرسوم ، والكتابات الهيروغليفية - التى لم يفقهوا كلمة منها - والتى تكفى لمئة عدة مجلدات . وقد وجدوا أمامهم من العمل القدر الكبير ، لأن زحف بليار شمالا وجنوبا أخذهم غير مرة الى الأقصر والكرك . وفاقت طلباتهم لأقلام الرصاص فى الحاحها الشديد طلبات بليار لرصاص البنادق . وكانوا يعبرون النيل دون حراسة ، ويعرضون حياتهم للخطر ، لينسخوا مزيدا من النقوش الهيروغليفية . وقد صهروا رصاص بليار الثمين وصبوه ليصنعوا منه مزيدا من الأقلام . وأسخطت هذه « الهيروغليفيات » المواطن جيرار ، وهو الوحيد الذى تذكر الهدف من رحلتهم . وأحس الهواة الشبان بكره عميق سليم لجيرار ، فكتب فليبه الى صديق له يقول : « انى أتهمه أمامك بأنه يكره الآثار . فقد أنفق فى النوم ثلاث ساعات من الأربع التى مكثها بدندرة » (٦٧) . ورفعوا الأمر الى الجنرال بليار قائلين : ألم يفعلوا كل ما طلب اليهم جيرار أن يفعلوه فى أمر المهمة المائية ؟ نعم لقد فعلوا ، اذن فلم يضطهدهم هذا الفلاح ؟ وكان دينون قد حول بليار قبل ذلك بكثير الى صفوف عشاق الهيروغليفيات ، فخول لهم كامل الحرية فى مواصلة نسخ النقوش . بل ان عددهم زاد بفريق جديد من النساخ أرسل اليهم بعد قليل من القاهرة . وكانت ثمرة جهودهم ، التى نشرت بعد سنوات فى كتاب « وصف مصر » ، مسحا شاملا للزراعة والتجارة فى الصعيد ، وعددا من المذكرات الأكثر تخصصا ، وذخيرة من البيانات الخاصة بعلم الآثار المصرية ، وهو علم ظهر الى عالم الوجود وأصحاب الفضل فيه يحملون قلما بيد ، وبندقية بالأخرى .



ورغم هذه المهام الكثيرة التى تتطلب الجهد والعناية أصيب الجميع بالرمد ومنهم الجنرال بليار الذى كان قد أصيب به من قبل . ولم تكن رياح الخماسين

— تلك العواصف الرملية الساخنة التي تهب على مصر شهورا — مما يعين على شفائهم . ومع ذلك استمر ديزيه ، وكان يومها بجرجا ، يلح على بليار في الزحف على القصير مخترقا ١٥٠ ميلا من الجبال والصحراء . وكان الاستيلاء على القصير ضرورة لا مناص منها اذا أريد صد تيار المتطوعين المكين ، وإعادة التجارة مع بلاد العرب الى مجاريها . وقد زاد هذه الضرورة وضوحا دخول بارجة بريطانية مياه البحر الأحمر ، وقذفها السويس بالقنابل ، وشروعها في جوب البحر بين جدة والقصير . فلو أن البريطانيين سيطروا على البحر الأحمر كما سيطروا على البحر المتوسط لأصبح موقف الفرنسيين ميثوسا منه .

وكان الجنرال بليار يقدر أهمية القصير ويتوق الى الزحف عليها ، ولكنه رأى أن القيام بهذه المهمة يقتضيه أكثر من ٨٠٠٠ طلقة رصاص ، وأن من العسير عليه أن يقود ألايا عبر الصحراء وهو لا يكاد يبصر بعينه الممتلئتين صديدا . وبدأ يشعر نحو الجنرال ديزيه بما يشبه شعور هذا نحو بونابرت . وكتب في يومياته في ١١ مايو يقول : « ان الجنرال ديزيه يعتقد أن أوامره يمكن أن تنفذ بالسرعة التي استقر بها رأيه عليها » (٦٨) . وكتب أيضا لديزيه ، وقال لرئيسه انه ان وجد شخص يصر على ضرورة الاستيلاء على القصير فان بليار هو هذا الشخص ، ولكن لابد من وسيلة تيسر له مهمته . « انى أعيد القول أيها الجنرال ، انه حتى اذا كانت الطبيعة لم تحبني بما حبتك من مواهب وعلم ، فانها على الأقل منحنتني احساسا بالشرف ، وحتى اذا لم يستخفني الطموح الى المجد كما يستخف بعض الناس ٠٠٠ الخ » (٦٩) .

واضح اذن أن الأعصاب بدأت تنور ، سواء أعصاب الفرنسيين أو خصومهم . ورد ديزيه بملاحظات ملطفة ، ولكنها لم تطف من غضب بليار ، كذلك رد بأن أرسل الى بليار جميع ما طلب من ذخيرة ومؤن ، فوصلته في ٢٥ مايو . وفي ٢٦ مايو غادر بليار قنا ليزحف على انقصير برغم ما يشكو من رمد ، آخذا معه ٣٥٠ من الجنود المشاة على ظهور الجمال ، و ٤٠٠ جمل تحمل مؤنا ، ومدفعا ، وحرسا من ٦٠ أعرابيا من قبيلة موالية يمتطون الجمال أيضا ، فعبروا ١٥٠ ميلا من الصحارى الجبلية في ثلاثة أيام . وفي ٢٨ مايو ركبوا أربع عشرة ساعة . وفي الغد احتلوا القصير دون قتال ، وكانت قرية صغيرة رغم أهميتها الاستراتيجية . وكتب بليار من القصير الى الشريف مكة خطابا يجعل المرء يفرك عينيه دهشة . لقد ظل رعايا الشريف يلاحقون بليار بغاراتهم شهورا ، وظل الجنرال بونابرت يحارب جيش الامبراطورية العثمانية في سوريا شهورا . ومع ذلك فان خطاب بليار الى الشريف يبدأ هكذا : « انك تعلم أيها الشريف أن الجمهورية الفرنسية حليف حميم للدولة العثمانية ، وأن جيوشها التي لا تقهر تحمي جميع المسلمين أينما وجدوا » (٧٠) .

وترك بليار نحو ثلثى رجاله فى القصير ليكونوا حامية لها وقوة تعزز ميناءها ، ثم غادروها فى أول يونيو ، فوصل الى قنا بعد ثلاثة أيام . أما دينون الذى رافق جماعة بليار فكان يتوق الى حمام نيلي ينعشه ، فلقد كان قيظ الصحراء لا يطاق ، والعواصف الرملية محرقة . ولكنه لسوء الطالع اكتشف أن النيل بدل شخصيته فى هذه الأيام القلائل التى غابها عنه . يقول : « ان النيل يبطل جريانه أواخر الخماسين . ويفقد النهر نقاءه وشفافيته . وتشوب الخضرة مياهه » (٧١) .

ولكن دينون لم تفت فى عضده رياح الخماسين ولا القيظ ولا مياه النيل البطيئة ، فمضى فى بسالة يرسم الأطلال بينما يذرع بليار البلاد شمال النيل وجنوبه . فهو يعود الى دندرة ، والكرنك ، واسنا ، وادفو ، ثم يقفل الى قنا شمالا . والتصق جفناه من الرمء والتهبت مقلته ، ونزف أنفه طويلا ، وانتشر على جلده طفح مؤلم ، واستحالت مسامه كلها بثورا ، وكان الجنود الذين لا يبلغون أكثر من نصف عمره يغشى عليهم بالعشرات من شدة الحر ، ولكنه وجد فى كل مرة جاز فيها الاقليم نفسه جديدا يرسمه وينقله . واكتشف وادى الملوك ، واكتشف رموزا هيروغليفية لم يرها من قبل . يقول ذاكرة زيارته الثالثة لأدفو : « لقد زدت أبجديتى الهيروغليفية بأكثر من ثلاثين رمزا » (٧٢) . ولم يكن يفوق حماسه سوى غنى هذا العالم الضخم من الأحجار ، وجماله ، وغموضه ، وعظم تناسقه ورشاقتة — هذا العالم الذى سلخ أربعين قرنا من الزمان ، والذى بدأت أوربا تكتشفه من خلال عينيه الرمدائين .

وتوقفت أمداد مراد من المكين باحتلال القصير . وساد الهدوء نسبيا ومؤقتا أرض الصعيد . ولزم الماليك ، بعد أن حرموا معونة حلفائهم ، أطراف البلاد — فى السودان ، وفى الصحراء ، وفى الواحات — وهم عاجزون عن القتال وان لم يهزموا . وأتيحت للجنرال ديزيه الفرصة أخيرا جدا فى أسبيوط ليثبت أركان فتحه ، وليحكم بدلا من أن يطارد ويدمر . يقول نقولا الترك : « ولكن هذا الجنرال المذكور روق بلاد الصعيد وطيبها بحسن عقله وتدبيره وفراسته وشجاعته وقوة بأسه وكثرة جودته وكرمه . وبقيت بلاد الصعيد أروق من بحرى » (٧٣) .

وفى ٥ يوليو غادر دينون قنا على مضض ليعود الى القاهرة . وكان النيل قد بدأت مياهه تزيد ، فرأى من صندله التماسيح الضخمة تسبح الى الشمال حتى جرجا . ولاحظ الطيور على الماء وقد أصبح عددها أوفر وأنواعها أكثر مما رآها من قبل . ومر فى النيل مرة أخرى بأهرامسقارة والجيزة . وبعد غياب تسعة شهور عاد الى المجمع العلمى المصرى . وقد فعل ظهوره ، وتلاوته تقريره على زملائه فى جلسة خالدة ، فى سامعيه فعل الكهرباء . حقا لقد كان

دينون هو الفاتح ان كان ثمة فتح ، وبقي فتحه على الأيام دون أن تلقه خسارة.
أو ضياع .

أما الفتوح الأخرى ، الفتوح الحربية ، فكانت قلقة مزعزعة . فبونابرت.
على وشك مقابلة قوة تركية كبيرة أنزلت في أبي قير بعد أن عاد من حملته
السورية التي كانت وبالا عليه ، والتي حاولت دعايته أن تحولها إلى انتصار .
أما مراد فقد خرج من مكنه في الصحراء حين نما إليه نبأ الحملة التركية
سلفا ، وتربص للفرنسيين بقرب الهرم الأكبر ليشارك في المعركة ، وفي ليلة
١٣ يوليو ، ومن قمة هرم خوفو ، دار حديث ممتع - بالإشارة - بين مراد
وزوجته نفيسة الواقفة على سطح منزلها .

الفصل التاسع

الجزارون في الأرض المقدسة

١

كان اقليم سوريا ، كما عرفه الناس في عام ١٧٩٩ ، يتألف من سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة والأردن . وكان مقسما الى خمس ولايات عثمانية ، هي حلب ودمشق وطرابلس وعكا والقدس . أما القدس فانفردت بنظام حكم خاص بها . وقد دارت رحى حملة بونابرت السورية في فلسطين لا في أرض سوريا الأصلية - أي في فلسطين المحتلة ، واقليم بحيرة طبرية في الأردن .

وهو اقليم يقدسه المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويسميه اليهود أرض الميعاد . ويقدر نابليون أن سكان سوريا بأسرها في عام ١٧٩٩ كانوا يبلغون ٢٥ مليون نسمة . ومن هؤلاء نحو ١٢٠.٠٠٠ من الدروز الذين يحكمهم أميرهم حكما مستقلا ، ونحو ٣٢٠.٠٠٠ من المسيحيين . وكان أكثر المسيحيين يعيشون في المنطقة التي دارت فيها معارك الحملة .

وفي تقدير نابليون أن ربع ايراد سوريا كان من نصيب خزينة الدولة العثمانية وقافلة الحج السنوية . يقول : « أما الباقي فمن نصيب الولاة . والمدن تتهاوى أطلالا ، والثغور تمتلئ بالطمي ، والطرق تردم ، والمستنقعات تنشر الأمراض في السهول . . . ومع ذلك ما زالت البلاد محتفظة بطابعها . وقد قال أحد كتاب العرب « ان مصر مزرعة ، ولكن سوريا جنة » (١) .

ولو أتيح لجنود نابليون أن يعودوا الى فلسطين اليوم لرأوا وجهها قد تغير كثيرا ، أما باقي سوريا فلم يعتريه الا أقل تغير . ففي كل مكان يطالعهم مشهد المراعى الهادئة المعهودة ، والرعاة وقطعان الغنم ، وأحراج الزيتون والبساتين ، وهي أكثر مناظر الدنيا جمالا وهدوءا وخلودا . في هذه الأرض قرب الفلسطينيين القرابين البشرية للاله مولوخ ، وذبح اليهود الفلسطينيين ،

وذبح هيرودس الأطفال فى بيت لحم ، وذبح الرومان اليهود ، وذبح الصليبيون العرب والعرب الصليبيين ، وذبح الترك الكل دون تمييز ، وذبح نابليون الترك . ولم تقف المذابح بعدها ، ولعل المستقبل يخبئ فى طياته مزيدا من المذابح الفظيعة ، على أن للجنرال بوناپرت وأحمد باشا الجزائر أن يتباريا فى هذا السجل القياسى من التقتيل الذى لا موجب له ، على الأقل منذ عهد الملك هيرودس .



اضطلع بوناپرت بالحملة السورية وعدته نحو ١٣ر٠٠٠ رجل (*) . ولا يشتمل هذا العدد على أشتات الموظفين المصريين والعرب الملحقين بالجيش - كالخدم والجمالين والمترجمين والعمال ٠٠٠ الخ - ولا على الموظفين المدنيين الفرنسيين ، والأطباء ، وموظفى المالية ، ومن اليهم . وقد اصطحب نفر من الضباط وزوجاتهم الدائمات أو المؤقتات معهم ، ومنهن زوجة الجنرال فرويه الايطالية الباسلة ، وهو الذى كان يقود لواء تحت امره كليبر . يقول الجبرتنى : « وخرج أيضا عدة كبيرة من عسكرهم ومعهم أحمال كثيرة ، حتى الأسرة والفرش والحصر وعدة مواهى ومحفات للنساء والجوارى البيض والسود والحبوش اللاتى أخذوها من بيوت الأمراء وتزيا أكثرهن بزي نسائهم الافرنجيات » (٢) .

يضاف الى هذه الجماعة العجيبة المنظر ، جماعة أخرى سافرت فى حرس عسكرى خاص بقيادة مصطفى ، وهو موظف تركى كان كتحدا لباشا القاهرة حين وصل إليها بوناپرت . وقد عينه بوناپرت أميرا للحج (ولم يكن هذا التعيين الا من قبيل التشريف ، لأن قافلة الحج لم تبرح القاهرة فى تلك السنة) . وكان فى الجماعة غير مصطفى هذا قاضى القاهرة (وهو تركى أيضا) ونفر من المشايخ . وكان لبوناپرت ثلاثة أهداف من اصطحاب هؤلاء الرجال : فوجودهم معه دعاية طيبة ، وقد يفيد منهم فى مفاوضاته مع الجزائر والباب العالى ، وهم رهائن فى يده . وسنرى أنهم لم يحققوا أى هدف من هذه الأهداف .

وأخيرا ، فإن نفرا كبيرا من اللجنة العلمية رافقوا حملة بوناپرت على سوريا ، ومن بينهم مونيخ وبرتولليه اللذان لا غنى عنهما ، وعالم التاريخ الطبيعى سافينى ، والرياضى كوستا ، والفيزيائى مالو ، والمستشرق وكبير المترجمين فنتور . وآخر هؤلاء ، ونفر آخر من أعضاء مجمع القاهرة ، لم يعودوا

(*) وبيانهم كالآتى : أربع فرق مشاة جملتها ٩٩٣٢ رجلا ، ٨٠٠ فارس ، ٣٧٠ مهندسا ، ١٣٨٥ مدفعا ، ٤٠٠ دليل (راكبا ورجلا) ، ٨٨ هجانة . الجملة : ١٢ر٩٧٥ . ولم تكن فرق المشاة (ويقودها كليبر ، وبون ، ولان ، ورينييه) فى كامل قوتها لأن فصائل قد اقتطعت منها لتظل معسكرة فى مصر .

من الحملة أحياء • أما هدف بونابرت بالضبط من اصطحابهم في حملة لن تستغرق في رأيه أكثر من شهرين فما زال سرا غامضا •



وقبل أن يغادر بونابرت القاهرة بأسبوعين كتب الى امام مسقط يطلب اليه أن يوصل رسالة الى تبو صاحب • وكانت رسالته لسلطان ميسور تتسم بالبلاغة أكثر من الصراحة : « لقد أثبتت بوصولي على ساحل البحر الأحمر بجيش غفير لا يقهر ، وأنا تواق لتحريرك من نير انجلترا الحديدى • وأود أن ترسل الى السويس أو القاهرة رجلا ذكيا تثق به لأجتمع به ، (٣) • وسواء وصلت الرسالة الى البير - كما كان تبو يحب أن يلقب نفسه - أو لم تصل ، فذلك أمر غير ذى بال : ذلك أن القوات البريطانية التى يقودها الجنرال ستيوارت استولت عنوة على سرنجابتان فى ٤ مايو ، فوجدت جثة تبو تحت كومة من الجثث • وهكذا أكل الانجليز البير (*) •

ويبدو أن كتابة بونابرت لتبو فى هذه المرحلة ، مضافا اليها عرض تاليران السخى اطلاق يده فى الزحف على الهند ، يضيفان بعض الواجهة على ما طاف بخيال نابليون فى سانت هيلانة من أحلام عن أهداف مغامرته السورية وما كان يرجوه منها • كتب يقول انه كان يرجو ، متى استولى على عكا ، أن ينضم المماليك والأعراب فى مصر ٠٠٠ الى قواته ، فاذا حل شهر يونيو دانت له حلب ودمشق ، وأصبحت له مراكز أمامية فى جبال طورس ، وغدا متصرفا فى جيش عدته ٢٦٠٠٠ فرنسى و ٦٠٠٠ فارس من المماليك والأعراب من مصر ، و ١٨٠٠٠ من الدروز والمارونيين وغيرهم من الجنود السوريين ، فى حين يكون ديزيه بمصر على استعداد لارسال مدد من ٢٠٠٠٠ رجل ، منهم ١٠٠٠٠ فرنسى و ١٠٠٠٠ زنجى تحت قيادة الفرنسيين • فى هذه الظروف يكون فى موقف يتيح له ارغام الباب العالى على عقد الصلح وضممان موافقته على زحفه على الهند • فاذا حالفه الحظ استطاع أن يصل الى السند فى مارس ١٨٠٠ على رأس ٤٠٠٠٠ رجل بالرغم من فقد أسطوله •

وقد استبعد فريق من أكثر المؤرخين رزانة وجدا هذه الرواية المذهلة باعتبارها وهما من أوهام فاتح عاطل ، أو اضافة متعمدة للأسطورة النابليونية • ولكن نابليون - كما أجمع شتى الشهود - كان يستغرق فى أمثال هذه الأحلام عن الماضى منذ عام ١٨٠٣ ، وفى أول ديسمبر ١٨٠٥ - وهى عشية موقعة أوسترلتز - قال لضابط أركانه كما روى الكونت « دسجير » : « لو استطعت

(*) ردت ميسور للأسرة المالكة الهندية ، وقسمت بقية أملاك تبو بين حيدر آباد والمهراتا وشركة الهند الشرقية •

الاستيلاء على عكا ، للبست عمامة ، ولجعلت جنودى يرتدون السراويل التركية الفضفاضة ، ولما عرضتهم لخوض المارك الا فى الضرورة القصوى ، ولجعلتهم فيلقا مقدسا - جندى الخالدين ، ولأنهيت الحرب مع الترك بجند من العرب واليونان والأرمن ، ولكسبت معركة فى اسسوس بدلا من خوض معركة فى مورافيا ، ولنصبت نفسى امبراطورا على الشرق ، ولعدت الى باريس بطريق القسطنطينية ، (٥) .

فهل قال هذا ولما ينقض أكثر من ستة أعوام على اخفاقه أمام عكا ، وهو فى عشية أعظم انتصاراته ، لمجرد ايهام سامعيه بضخامة مشروعاته ، أم أنه كان قد فكر جديا فى تنفيذ هذا المشروع المجنون ؟ يقول بورين ان بونابرت أفضى اليه بمثل هذه الأفكار قبل زحفه على سوريا « ولكن يجب أن أضيف أنه كان يقدر تمام التقدير ما بين هذه المشروعات والوسائل التى تحت تصرفنا من بون شاسع ، (٦) . ولا ريب أن نابليون لم يكن قط يستبعد أى احتمال ، وما كان فى طبيعته أن يقاوم الفرص أكثر مما كان فى طبيعة أوسكار وايلد أن يقاوم المفريات . وهو يعلن فى تاريخه للحملة السورية أن هدفه الأول من غزو سوريا هو هزيمة الجزائر والاستيلاء على غزة ويافا وعكا ، وتأليب المسيحيين والدروز ، « ثم ترك ما بقى للظروف » (٧) . وهذا صحيح ولا شك . وفى اليوم السابق لرحيله عن القاهرة كتب للإدارة يشرح أهداف حملته ، فقال انها ثلاثة : دعم فتحه لمصر بهزيمته الأعداء على حدودها ، وبهذا يمنع نزول جيش انجليزى تركى بها ، وارغام الباب العالى على « تفسير موقفه » وربما حمله على فتح باب المفاوضات ، وحرمان الأسطول الانجليزى الذى يجوب البحر المتوسط من قواعد تموينه فى سوريا ، وكلها أهداف محدودة ومعقولة . وقد أضاف فى لهجة رزينة : « علينا أن نهزم أعداء كثيرين : الصحراء ، والأهالى ، والأعراب ، والمماليك ، والروس ، والترك ، والانجليز » (٨) . ولم يشأ أن يضيف الطاعون الى هذه القائمة الرهيبة .

وأيا كانت الأحلام الخاصة التى راودت خيال بونابرت ، فانه لم يكن يغفل قط عن الواقع ، الا اذا لم يكن من ذلك مفر لأن الواقع غير مقبول . ولم يكن قد بلغ هذه المرحلة بعد فى فبراير ١٧٩٩ . واذا استثنينا خطابه لتبو صاحب ، ولم يكن سوى مجس يسبر به غوره ، لم نجد أى شاهد - فى رسائل بونابرت ولا فى أعماله - على أنه كان يرجو أن يحقق فى سوريا أكثر من الأهداف التى ذكرها فى خطابه للإدارة . وبالطبع لو أن الفرصة واثته للقيام بمزيد من العمل لانتهزها ، ولكن الذى حدث أنه أخفق حتى فى تحقيق هذه الأهداف المحدودة .

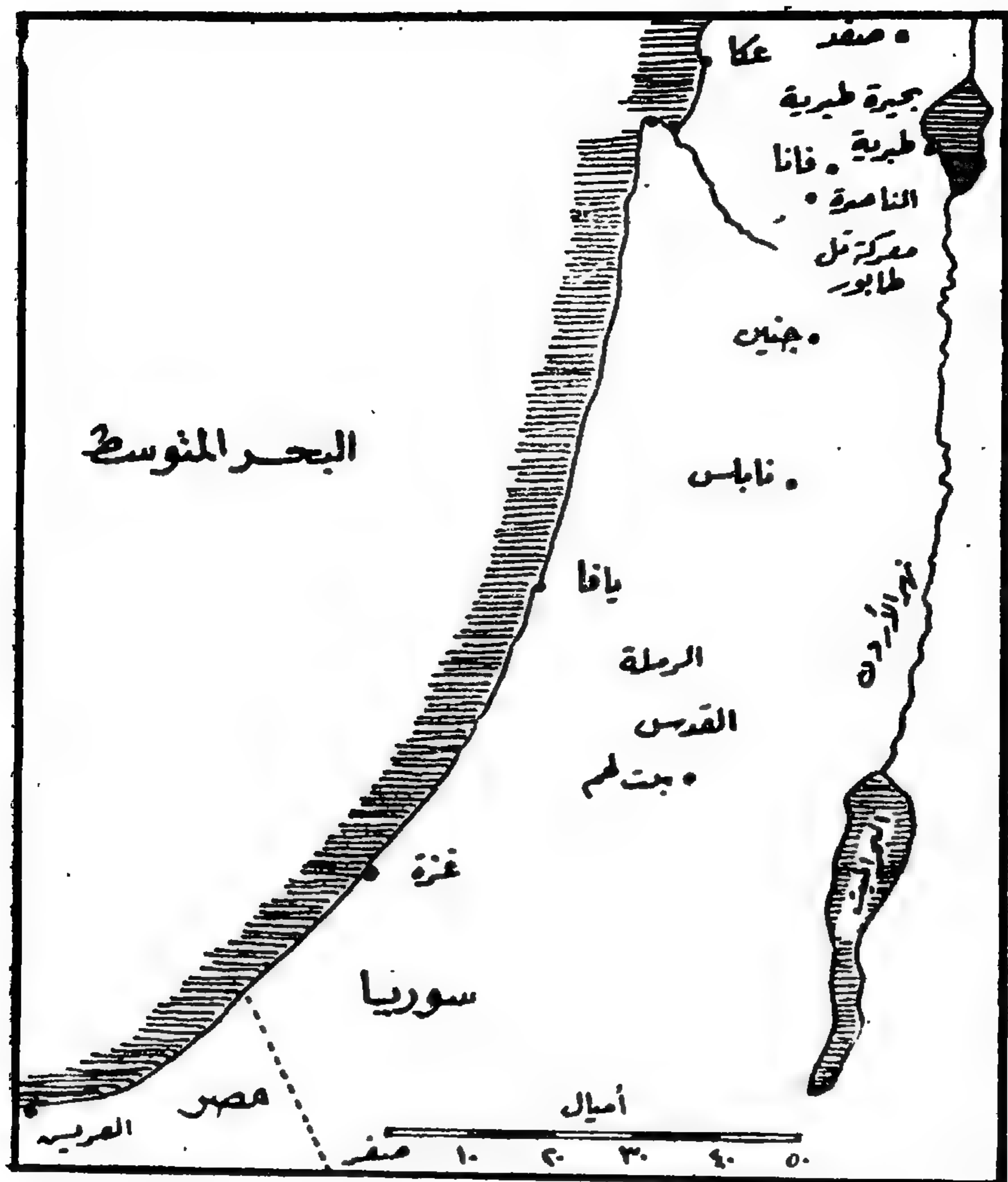
كان بونابرت قد أمر الجنرال لوجرانج (من فرقة رينيه) فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨ باستطلاع ساحل شبه جزيرة سيناء الواقع على البحر المتوسط ، وبأن

ينشئ نقطة منيعة في قطية بقرب الحدود السورية . وبالرغم من الظروف المعاكسة - وهي غارات الأعراب المتصلة ، والمطر الذي لم ينقطع - أبلغ لوجرانج في ١٧ يناير أن تحصينات قطية تمت إقامتها . وعين بونابرت قطية ملتقى ونقطة استراحة للوحدات المشتركة في الحملة . وكانت التقارير ترد عن تجمعات متزايدة لجيوش المماليك والترك في ثغر العريش داخل الحدود المصرية : ذلك أن الجزار كان يستعد للهجوم .

ووصلت أكثر فرقة الجنرال رينييه الى قطية في الأيام الأولى من فبراير وغادرتها في ٦ فبراير ، لأن بونابرت أصدر أمره للفرقة بالاستيلاء على العريش . وفي اليوم ذاته وصل كليبر بفرقته التي استأنف تولي قيادتها بهمة . وغادر قطية في ١١ فبراير ووصل تجاه العريش في المساء نفسه . أما بونابرت فوصل الى العريش في ١٧ فبراير تصحبه قيادته وفرقة بون ، واستاء لأنه وجد المدينة لم تسقط بعد . وأما الجنرال لان الذي تولي قيادة فرقة فيال فوصل آخرهم ، في ١٨ فبراير ، بعد أن عبر صحراء سيناء عبورا يذكرنا ببعض مراحل الزحف السابق للحملة . كتب كبير الصيافة بيروس في يوميته يقول : « انتحر عدة جنود باطلاق النار على رؤوسهم » (٩) .

وقد أعدت مراحل الحملة بعناية أكثر قليلا من اعداد الزحف من الاسكندرية الى القاهرة ، ولكن هذا لا يعنى الشيء الكثير . كان هناك جمال كثيرة لنقل المؤن ، واتخذت الاستعدادات كذلك لتوفير خدمات المستشفى والمياه ولنقل مدفعية الميدان . على أنه تبين أن مدفعية الحصار أثقل من أن تنقل على اليا بس خلال مستنقعات وصحار . لذلك شحنت في مراكب تحملها من دمياط الى عكا رغم ما عرضه كونتيه من صنع مركبات خاصة عريضة العجل تيسر النقل البرى . ولعل بونابرت كان يوفق في الاستيلاء على عكا لو أنه استمع الى رأى كونتيه .

على أن الجيش كان سيء التجهيز رغم هذا القدر من بعد النظر . فقد اضطر بونابرت الى رهن محاصيل الصعيد حتى قبل ضمها لكى يدفع رواتب الجند المتأخرة . كتب الجنرال داما في يوميته يقول : « لقد خيل الى أن هذه الحملة المرتجلة التنظيم لا محالة ملاقية شذائذ كثيرة . أولها أن الاقوات غير موفورة . . . ثم ان البرد والجو المطير . . . كانا يندران بالعنت الشديد الذي ينتظرنا أثناء زحفنا في الصحراء ، وكان خليقا بهما أن ينبهانا الى أن جنودنا سيصابون بشتى الأمراض لأنهم يرتدون ثيابا رقيقة لا تلائم الموسم ولا الاقليم ، ولم يكن لديهم غير القمصان والسراويل والمعاطف المصنوعة من الكتان . . . (ويبدو أن بونابرت لم يستطع أن يتصور بعد أن أنفق في القاهرة شهورا ما يمكن أن يبلغه البرد والمطر في ساحل مصر وسوريا الواقع على البحر المتوسط) . كل هذه الأفكار لم تخطر لأحد ببال ، أو لعلها لم يكن لها وزن



حملة بوناپرت على سوريا (١٧٩٩)

على الاطلاق عند القائد الأعلى ، مع أن اهتمام قائد الجيش يجب أن يوجه قبل كل شيء الى صيانة قواه البشرية ، لا سيما في بلد تنتشر فيه الأمراض انتشارا واسعا . وكان خليفه به أن يحرص على ألا يستهلك الرجال كما يستهلك الخراطيش ، لأنهم لا يعوضون بسهولة كما يعوضون في أوروبا ، (١٠) .

ولعل بونابرت كان مجيبا عن هذا كله بأنه ما دام الاضطلاع بالحملة ضرورة لا محيص عنها ، فانه لم يكن بد من استعمال ما لديه من موارد . أما ما بقي فرهن بمخالفة الحظ له وبحيوية رجاله . وتروى مدام دستال عنه قوله : « ان الفرنسيين آلات عصبية » ثم نضيف : « انه يريد بها أن يصور ما طبعوا عليه من مزيج من الطاعة وسرعة الحركة » (١١) .

٢

استولت الدهشة على الجنرال رينييه عند وصوله أمام العريش بعد زحف شاق في ٨ فبراير ، لأنه لم يجد معسكرا كبيرا للعدو فحسب ، بل حصنا منيعا . وكان المعسكر يشتمل على نحو ٦٠٠ فارس من المماليك والعرب والترك ونحو ١٢٠٠ من المشاة الألبانيين الذين أرسلهم الجزار . أما الحصن فكان بناء حجريا مربعا تقوم الأبراج الثمينة على جانبيه ومن حوله أسوار ترتفع ٣٠ قدما . وكانت عدة حاميته ١٢٠٠ - ١٥٠٠ رجل أكثرهم من أشداء المشاة الألبانيين والمغاربة ، يضاف اليهم نفر قليل من المماليك .

وكان أول عمل قام به رينييه هو الاستيلاء على قرية العريش التي دافع عنها أهلها ، فقتلوا دون إبطاء بحد السيف أو السنكى على الأصح . وبعد ثلاثة أيام انضمت قوات كليبر الى رينييه . وكان رجال رينييه بدأوا يتضورون جوعا - لأن العريش لم يكن لديها من الأقوات ما تقدمه للفرنسيين ، فهي قرية صيد صغيرة واقعة بين البحر والصحراء . وكان الموقف بادي التناقض : فالمحاصرون الذين يصومون رمضان من الشروق الى الغروب رغم توافر الأقوات عندهم يجوعون محاصريهم . ومفارقة أخرى هي أن مؤن الأتراك كان مصدرها الأكبر هو مخزن الجيش الفرنسي في دمياط ، حيث باعها موظفو التموين المغامرون طمعا في الربح لتجار يونانيين نقلوها فورا لبيعوها الى المماليك بربح أكبر - وهو اجراء شائع في جميع الحروب ان توخينا الحقيقة .

وحاصر رينييه وكليبر الحصن ، ولكن الأمل كان ضعيفا في تسليمه قبل أن يصل مدد من الجنود والمدفعية . وفي الوقت نفسه قاد رينييه في ليلة ١٤ - ١٥ فبراير أربع كتائب في هجوم مباغت على جنود المعسكر التركي وعددهم ١٨٠٠ . ولما كان المسلمون لا يقاتلون عادة بين الغروب والفجر ، فان

«الترك لم يتخذوا الخيطة لأنفسهم . فدخل الفرنسيون المعسكر بعد نصف الليل بقليل دون أن يلحظهم أحد ، وقتلوا الرجال النيام بالسلاح الأبيض في سكون حتى بلغوا قلب المعسكر ، وإذا كلب ينبع . وتنبه النائمون ودب الرعب في صفوفهم فحاولوا الفرار ، ولكن منافذ المعسكر كانت قد سدت . يقول رينييه في تقريره : « وسرت في المعسكر كله ، وقتلنا كل من وجدنا » (١٢) وكان من بين القتلى ، وعددهم ٤٠٠ - ٥٠٠ ، أمير من المماليك وعدة كشاف ، وأسر ٩٠٠ ، ولم يفقد الفرنسيون سوى ثلاثة رجال . ووصف نابليون هذا الهجوم بأنه « من أجمل العمليات الحربية التي يتصورها العقل » (١٣) . والأمير كله على أى حال رهن بتعريف المرء للجمال .

ومع أن رينييه استولى على مخازن الذخيرة والمؤن في المعسكر فانها كانت ضعيفة الأثر في تخفيف جوع الفرنسيين . يقول مالو الذي كان ملحقا بفرقة كليبر ، ويؤيده في قوله شهود آخرون « كنا نأكل الجمال والحيل والحمر » (١٤) وحدث ذات صباح أن رائدا (ميجر) آله أن يكتشف أن جواده اختفى من هربطه . فوبخ رجاله على آكله ، فأجابوا أنهم أدوا له خدمة لأن الجواد كان خبيثا ، ولكنهم وعدوا بالاستماتة في الدفاع عن فرسه .

وفي ١٨ فبراير بدأ قائد الحصن المفاوضة . وأرسل يقول انه وان كان لديه قدر وافر من الذخيرة والطعام الا أنه على استعداد لتسليم الحصن بشروط معينة لأن المعونة التي وعد بها لم تصله . وكانت شروطه أن يسمح له وللحامية بمغادرة الحصن بسلاحهم ومتاعهم وبالذهب حيث شاءوا . فأبى بونابرت ، لكنه عرض اقتراحا مضادا . فقد وعد اذا سلمت الحامية بأن يرد لأفرادها سلاحهم مكرمين ، وينقلهم الى مصر حيث يستطيعون أن يركبوا البحر لأى بلد شاءوا . ولكن القائد التركي رفض قبول هذا العرض لأنه يعلم تمام العلم أن مصر محاصرة . وبعد أن أنفق بونابرت اليوم في المفاوضات ، أمر بإطلاق ستار كبير من نار المدافع في صباح الغد . لقد توقع أن تسقط العريش دون مشقة ، وها هو ذا الحصار يدوم عشرة أيام ، وسيتضور جيشه جوعا ان لم يتقدم الى بقاع أكثر خصبا .

وكونت المدفعية الفرنسية دائرة حول الحصن على مسافة ٣٠٠ ياردة ، واستمر ستار النار اليوم كله دون هوادة تقريبا . وسقط كثير من قنابل الفرنسيين وقذائف مدافعهم التي أخطأت المرمى في صفوفهم على الجانب الآخر فقتلت وجرحت عدة رجال . ويقول مالو ان بعض القذائف الفرنسية سقطت في مستشفى الميدان . ولما قرب المساء فتحت ثغرة صغيرة في الأسوار (لأن مدافع الميدان كانت ضعيفة الأثر لانعدام مدفعية الحصار) . وفي الليل تسلس رجال الخنادق الى أحد الأبراج . وبلغت خسائر الفرنسيين في ذلك اليوم

٢١ مدفعيا و ١٧ من رجال الخنادق و ٣٥٠ من المشاة . يقول ديتروا : « لقد أبدى العدو بسالة خارقة . فرموا ما تهدم وواصلوا اطلاق النار من البرج . دون أن يعبأوا بقذائف مدافعنا وقنابلنا » (١٥) . وهكذا قابل بونابرت عدوا يختلف كل الاختلاف عن العدو الذى التقى به فى مصر .

واستؤنف اطلاق المدافع فى صباح الغد دون أن يحدث أثرا أكبر من أثره فى اليوم السابق .

كان بونابرت يكره الحصار على شدة حبه للمعارك . فالحصار يذهب بصبره . وحوالى الظهر أرسل رسولا للحصن يحمل راية الهدنة ويدعو الحاكم للتسليم لأن الأسوار ثغرت . (وكانت قواعد الحرب السائدة يومها تقضى بأن الحامية التى ترفض التسليم بعد ثغر الأسوار تعرض نفسها للقتل بسيوف المحاصرين) وكانت شروط بونابرت سخية فى الظاهر : وهى أن يسلم الحصن للفرنسيين قبل الساعة الرابعة بعد الظهر ، وأن يحتفظ أفراد الحامية بسلاحهم ومتاعهم دون الخيل ، وأن تسير الحامية فى الصحراء الى بغداد وتقسم اليمين ألا تحارب فى جيش الجزار مدى عام . ولكن من العسير أن يرى المرء كيف تستطيع الحامية الوصول الى بغداد راجلة دون أن تموت فى الطريق ، أضف الى ذلك أن بونابرت لم يكن ينوى أن يحترم شروطه .

وقبل كبار ضباط الغريش الشروط وأقسموا « بموسى وإبراهيم ، وبالنبي ... وبالقُرآن » أن يحترموها بحذافيرها . وكان هناك ٨٠٠ - ٩٠٠ رجل من الحامية لا يزالون أحياء ، ويقول الكابتن دوجيرو انه كان بينهم « مملوكان شركسيان صغيران بارعا الجمال يحملان السلاح ولا يبدو عليهما أثر للخوف ، مع أنهما لا يجاوزان العاشرة أو الثانية عشرة » (١٦) .

وأمر بونابرت بنزع سلاح المملوكين ، مخالفا بذلك شروط التسليم ، وارسالهما لمصر حيث أطلق سراحهما . وأما باقى الجنود الترك ، ومعظمهم من المغاربة والألبان واليونان ، فقد أحاط بهم جنود فرقة الجنرال بون بمجرد اخراجهم من الحصن ، وحملوا الكثيرين منهم بوسائل متفاوت فى اللين على الانضمام للقوات الفرنسية خيرا من أن يهلكوا فى الصحراء . يقول مالو : « لقد ضربنا للترك أول مثل فى الغدر والخيانة ، فهربوا كلهم بعد ذلك حالما سنحت لهم الفرصة » (١٧) .

ووجد الفرنسيون داخل الحصن من المؤن الوفيرة ما خفف جوعهم . ويقول مالو الذى يعذر فى تذكر هذه الواقعة انهم وجدوا أيضا « غرفة بأسرها مملوءة بالمحتضرين من ضحايا الطاعون » (١٨) .

وأرسلت الأعلام التركية التى استولى عليها الفرنسيون الى القاهرة بأمر

بونابرت لعرضها في الأزهر دليلا على النصر . ونفذ الأمر فعلا ، ورفرفت
الأعلام من أهلة مآذن الأزهر خلال أيام عيد الفطر الثلاثة ، وحيثها المدافع
الفرنسية من القلعة . يقول الجبرتي ان الضباط الفرنسيين بالقاهرة قاموا
بزيارات رسمية لأعيان المدينة في أول أيام العيد « وجاملهم الناس بالمدارة
أيضا ، (١٩) » .

ولا ريب أن الأعيان كان قد بلغهم أن أمير الحج والقاضي - وهما الشيخان
الموقران اللذان أخذهما بونابرت معه الى سوريا - أفلحا في الهروب من حرسهما
حتى قبل بلوغهما الحدود السورية .



واستأنف الجيش الفرنسي زحفه غداة الاستيلاء على العريش بعد أن
ترك فيها حامية صغيرة . وكانت فرقة كليبر طليعة الجيش ، وقد ضل طريقه
في الصحراء ، ولكنه ظهر في النهاية قبل أن يصل الجيش الى غزة ، وهي
المدينة التي سملت فيها عيننا شمشون . واستولى الجيش على غزة في ٢٤ فبراير
دون مقاومة ، وأعمل فيها الجنود السلب والنهب . وبعد أن تزود الفرنسيون
بالأطعمة والذخيرة من المخازن التي استولوا عليها ، غادروا غزة بعد أربعة أيام ،
كأنهم جحافل من الجراد مسافرين على بطونهم . وظل الجو كما كان غاية في
السوء . كتب بونابرت للجنرال ديغا يقول : « اننا في الوحل والماء الى ركبنا .
ولا يختلف الجو والبرد كثيرا عنهما في باريس في مثل هذا الوقت من السنة .
ومن حظك أنك تتمتع بشمس القاهرة » (٢٠) . وفتك البرد حتى بالجمال ،
على صلابة أعوادها ، في الطريق من غزة الى الرملة .

وفي الرملة ، وهي بلدة واقعة بين يافا وبيت لحم ، وصل اليها الفرنسيون
في أول مارس ، تبين أن الأهالي المسلمين هربوا في اليوم السابق ، وأن
المسيحيين بقوا بها ليرحبوا بالفرنسيين . ذلك كان أثر دعاية بونابرت بين
المسلمين . كذلك وجد الفرنسيون مزيدا من المؤن خلفها ممالك ابراهيم بك .
وقد زاروا ديرين ، أحدهما أرمني والآخر كاثوليكي روماني . وكان جميع
نساء البلدة المسيحيات قد التجأن اليهما . (وواضح أنه حتى النساء
المسيحيات لم يثقن بالفرنسيين الا الى هذا الحد ، وليس الى أبعد منه) .
يقول ديتروا صاحب اليومية « هؤلاء النسوة بيض البشرة جدا ولكن بياضهن
تشوبه الصفرة ، وبعضهن جميلات ، وهن لا يعبان كثيرا بحجب وجوههن .
وقد ابتهجن جميعا وابتهج الأطفال أيضا برؤيتنا » (٢١) . وأقام بونابرت
مستشفى عسكريا في الدير الكاثوليكي . يقول ديجنيت : « انه وان كان أكبر
مباني المدينة وأوفرها راحة ، الا أنه صغير جدا ، وينقصه الهواء النقي . .
وسرعان ما امتلأ بالمرضى » (٢٢) .

وبعد أن قضى الفرنسيون يومين بين المسيحيين استأنفوا زحفهم . فوصلوا أمام يافا حوالى ظهر اليوم نفسه . وكانت تدافع عن المدينة المسورة . والحصن قوة تركية كبيرة وفريق من الأهالى . يقول ديتروا « تقع يافا على ساحل البحر المتوسط على قمة تل أشبه بقمع السكر . وفى منتصف هذا القمع يحيط بها سور تقوم على جناحيه الأبراج ، وهكذا تعلو المدينة من داخله . كأنها المدرج فوق الأسوار وشمال هذا المرتفع وقلبه . . . يكسوها حرج كبير من أشجار البرتقال والليمون واللوز » . (٢٣)

وفى اليوم التالى وهو ٤ مارس ، بدأ الجنرال يونابرت يتخذ العدة للهجوم على المدينة التى تبعد نحو خمسين ميلا عن بيت لحم ، حيث بشر الملائكة قبل ثمانية عشر قرنا بالسلام على الأرض لجميع البشر ذوى النيات الطيبة . وبدأ الهجوم فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٧ مارس ، بعد أن رفضت الحامية شروط التسليم التى عرضها عليها يونابرت واحتجرت رسوله . وأحدث رجال الخنادق ثغرة فى الأسوار . وما هى الا ساعات حتى سقطت المدينة فى أيدي الفرنسيين على الرغم من مقاومة المدافعين العنيدة . أما ما حدث عند سقوطها فروايات شهود العيان عنه موفورة جدا . وبعض هذه الروايات واقعية ، وبعضها مشوبة بالسخط ، ولكنها كلها متفقة .



لم يشهد الميجر ديتروا من قبل مدينة تقتحم وتؤخذ عنوة . يقول « ان كان هناك تعويض عن بشاعة هذا المنظر فهو بسالة جنودنا الذين قاموا بالهجوم ، ورباطة جأش قائدنا الأعلى وضباط أركان حربه وحكمتهم وجراتهم » . وكانوا طوال الوقت على أقدام من الثغرة . . (٢٤) وحالما استولى هؤلاء الجنود البواسل على المدينة ودخلوها أعملوا السيف فى نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية كانوا يحاولون التسليم . وراح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله ، والليل كله . وفى صباح الغد . فالرجال والنساء والأطفال ، والمسيحيون والمسلمون « وكل من له وجه انسان سقط صريع جنونهم » كما قال مالو الذى ما زالت الصفحات التى كتبها فى وصف هذا المشهد البشع تتجاوب بشعور الفزع والحزى .

ان سلوك الجنود الظافرين فى المدن التى يستولون عليها عنوة ظاهرة يصلح لبحثها الطب النفسى لا المؤرخون . ولا حاجة بنا لوصف هذا المشهد . فكلنا قرأ روايات كهذه ، وجميعها متشابهة . ولا يملك المرء الا أن يتساءل ما الذى يجعل جماعة من الناس الطيبين فى قرارة نفوسهم - ومنهم الأزواج العطوفون ، والأبناء المطيعون ، والمحبون الرفيقون ، والآباء أرباب الأسر - ينقلبون وحوشا ضارية زاعقة ، فيقطعون بمداهم الشيوخ والفتيات والرضع .

ويتهكون أعراض البنات وهن مازلن في أحضان أمهاتهن المائتات ، ويتضاعف هياجهم حين يسمعون صرخسات الاسترحام ، ويمضون في هذا الجنون أربعاً وعشرين ساعة ؟ لعله لا يكفي أن يعزل هذا الغضب المجنون بما قاسوا قبله من آلام وحرمان ، أو بما يحدثه الهجوم نفسه من توتر . وأعود فأقول ، ان هذه المسألة لم تبحث بحثاً علمياً . أما في الحرب الحديثة فلعلها لا تحتفظ إلا بأهمية نظرية ، إذ أنه من اليسير اليوم قتل مليون من الآدميين دون انفعال على الإطلاق بالضغط على زر ، ومع ذلك لا بد من التسليم بأن هذه الظاهرة - في الصراع المدني على الأقل - ليست باقية فحسب ، بل انها في بعض أنحاء العالم تنذر بالانفجار على نطاق لم يسبق له نظير .

كل هذا ، وشر من هذا ، وقع في يافا في ٧ و ٨ مارس . أما نابليون فليس لديه ما يقوله في تاريخ الحملة السورية عن هذا الموضوع الا هذه العبارة : « بلغت سورة الجند قمتها : فأعملوا السيف في كل انسان ، وقاسمت المدينة بعد نهبها جميع الأهوال التي تقاسيها مدينة مقتحمة » . (٢٦) ولكن ما كل شاهد عيان لهذا الحادث احتفظ بمثل هذه الذكرى الهادئة المحايدة .

وكان ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ جندي تركي قد التجأوا الى القلعة . ففي صباح ٨ سبتمبر أرسل بونابرت اثنين من ياورانه - بوهارنيه وكروازيه ، وكلاهما حدثان - الى المدينة ليزيا ما الذي يمكن عمله لاعادة النظام الى ربوعها . وناداهما الجنود الترك من نوافذ القلعة بعد أن تبينوهما من حزاميهما العسكريين . وصاح الترك بأنهم على استعداد للتسليم اذا وعدوا بالألاعامل كما عومل بقية أهل يافا . وأعطى الشابان على مسئوليتيهما تأكيدات شفوية بأن رجال الحامية لن يقتلوا . وعلى هذا الوعد خرج الجنود وسلموا سلاحهم . فلما رأى بونابرت ياوريه يعودان مع بضعة آلاف من الأسرى اصفر وجهه وقال ساخطاً « ماذا يريداننى أن أفعله بهم ؟ ما هذا الذي صنعاه ؟ » (٢٧) .

ويذكر نابليون وجميع كتاب المذكرات والمؤرخين - حتى من خصومه - هذه النقطة التالية ، محاولين تبرير القرار الذي اتخذه في أمر هؤلاء السجناء : ان ارسالهم الى مصر يتطلب حراساً كثيرين لا قبل لبونابرت بأن يقتطعهم من جيشه ، أما ابقاؤهم معه أسرى حرب أو جنوداً احتياطيين فأمر خطر وثقيل ، وقد زعم أنه ، على أية حال ، لم يكن لديه من الطعام ما يكفيهم دون اضرار بالغ بجيشه ، وأما نزع سلاحهم واطلاق سراحهم . فلن تكون نتيجته الا انضمامهم الى الجزار لتعزيز قواته في عكا . ومن ثم لم يكن مناص من قتلهم .

ومن العسير التسليم بجميع أجزاء هذه الحجج ، بصرف النظر عن الاعتبارات الأدبية التي تحمل المرء على أن يشجب ، بادىء ذي بدء ، ذبح عدة آلاف من الأسرى دون استفزاز ، بعد أن استسلموا بسلامة نية بناء على وعود

بذلت لهم ، فى حين كانوا يستطيعون بذل أرواحهم غالية . وأكثر من هذا عسرا أن يفهم لم قبل بعض المؤرخين المشهورين هذه الحجج التى تخلط بين مجرد الراحة ، وبين الضرورة القاهرة . ولنسلم بأنه لم يكن لديه عدد كاف من الرجال لحراسة الأسرى فى طريقهم الى مصر برا ، ولا عدد كاف من السفن لحملهم اليها بحرا ، ولنسلم بأن جيشا عدته ١٣ر٠٠٠ لا يستطيع أن يجر معه ٣ر٠٠٠ أسير ، ومن باب أولى ٣ر٠٠٠ حليف مريب بالطبع . ولكن لننظر فى أمر اطعامهم : ان الطعام الوحيد الذى كان الفرنسيون يملكونه هو ما استولوا عليه من أسراهم . ولعلمهم كانوا يستطيعون توفير ما يكفى منه لأمساك رفق هؤلاء الأسرى الذين كانوا يأكلون طعامهم . ثم كم من الرجال كان على بونابرت أن يتركهم ليحرسوا ٣ر٠٠٠ من الأسرى العزل الجائعين . ربما مائة . لقد كان فى استطاعته تدبير هذا العدد . والواقع أنه ترك أكثر من مائة رجل فى يافا . ولكن لنفرض أنه حتى هذا كان غير ميسور له ، وأنه لم يكن يستطيع تدبير حراس قليلين لمعسكر من الأسرى ، ولا اطعام هؤلاء الأسرى بقصعة من الأرز كل يوم دون أن يثير التذمر بين رجاله — فلم لم يكتف بتجريدتهم من السلاح وتسريحهم ؟ انهم لو ذهبوا للانضمام الى حامية عكا لكانوا عبئا على الجزار لا عوناً له ، لأنه كان سيضطر الى اطعامهم وتسليحهم وهو فى غير حاجة ماسة اليهم .

وكانت حجة بونابرت الأخيرة ، أنه وجد بين حامية يافا نحو ٩٠٠ رجل من حامية العريش كان قد سمح لهم بالانصراف بأسلحتهم شريطة ألا يقاتلوا مدة عام تحت امرة الجزار : فما داموا قد حنثوا بيمينهم ، فلا حاجة به للبقاء على حياتهم . وهى حجة واهية . فقد أرسل بونابرت الى مصر نفرا من هؤلاء الرجال التسعمائة الذين وجدتهم فى حامية العريش وأدخل نفرا أكثر فى قواته ، وبذلك حنث هو بوعده قبل أن تتاح لهم فرصة الحنث بوعدهم . ولا يمكن أن يكون باقيا من هؤلاء الرجال أكثر من ٣٠٠ أو ٤٠٠ ، ان كان هناك أى عدد كبير منهم . ثانيا ، ما هو الجهد الذى بذل للتعرف عليهم ، أيا كان عددهم ؟ والجواب أن جهدا لم يبذل قط . وأخيرا ، حتى لو فرضنا أن ثلث الأسرى كانوا فعلا من حامية العريش ، وأنهم حنثوا بيمينهم ، فلم يعاقب الثلثان الباقيان ؟

ان المرء لا يحب أن يسلم بأن رجلا عظيما ك نابليون يمكن أن يصدر أمره بمذبحة شاملة دون ضرورة . وقد يكون أكثر راحة وعزاء له أن يقبل قصة بوريين ، وهى أن بونابرت عقد مجلسا عسكريا لم يصل الى هذا القرار الأليم الا بعد أن وزن جميع الاعتبارات الممكنة الأخرى . ولكن لسوء الحظ لا يذكر أحد غير بوريين هذا المجلس العسكرى ، بل ولا المشورة غير الرسمية . وليس هناك شاهد على أن مجلسا قد عقد . وكل الشواهد تشير الى أن بونابرت

وحده هو الذى أمر باعدام الأسرى ، وأن أحدا لم يعترض أو يجرؤ على الاعتراض ، وأن الاعدام نفذ بدقة تامة . وإذا كان للاعدام سبب ، فهو من نوع مختلف تمام الاختلاف عن الأسباب التى ذكرت . ذلك أن بونابرت تعمد سياسة ترمى للتأثير القوى فى الجزائر . فإذا قاومه الجزائر فى عكا ، حاق برجاله نفس المصير الذى حاق بحامية يافا . رجاله فقط - لا الجزائر نفسه . والواقع أن بونابرت استثنى عددا من الأسرى من هذه المذبحة ، لاسيما المواطنين المصريين الذين ردهم الى بلدهم ، و ٣٠٠ مدفعى تركى دربههم الضباط الفرنسيون وكان يرجو الافادة منهم . ولكن أهم من استثناهم هو حاكم يافا ، عبد الله أغا ، الذى وقع على قدم بونابرت يطلب الرحمة وينالها فورا . ولم يكن الأثر النفسى للعفو عن عبد الله وذبح الحامية مما يغيب عن الجزائر وحاميته . ومن المسلم به أن ٢٥٠٠ شخص قتلوا ، لا لضرورة قاهرة ، بل تحقيقا لراحة واحدا لتأثير متعمد .

وإذا كان شهود هذه الجريمة البشعة قد ذكروا ظروفًا مخففة لها فهم انما فعلوا هذا ليهونوا من عار اشتراكهم فيها ، أو على الأقل وقوفهم مكتوفى الأيدي وهم يشهدون ارتكابها .

وقد سجل الميجر ديتروا بيانا بعدد من اعداموا (٢٨) :

٢٠٠٠ تركى	ففى ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من
» ٨٠٠	وفى ٨ مارس رمى بالرصاص
» ٦٠٠	وفى ٩ مارس رمى بالرصاص
» ١٠٤١	وفى ١٠ مارس رمى بالرصاص

الجملة ٤٤٤١

والى القارىء ما كتبه المواطن بيروس ، مساعد كبير الصيارفة استيف فى ١٠ مارس (خامس آحاد الصوم الكبير) ، لأمه ، وهى بلا شك سيدة طيبة من سيدات الطبقة الوسطى الراقية فى كاركاسون :

« ان قيام الجنود الحانقين ، بعد اقتحام مدينة والاستيلاء عليها عنوة ، بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما اتفق أمر تقتضيه قوانين الحرب . والانسانية تسدل قناعا على هذه الفظائع . ولكن صدور الأمر ، بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، فى وحشية هادئة ، بقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نية ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما فى ذلك ريب ، وسيجد الذين أمروا باقترافها مكانهم بين جزارى البشرية .

ان نحو ٣٠٠٠ رجل ألقوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور الى معسكرنا
وفصل عنهم بأمر القائد الأعلى المصريون والمغاربة والأتراك .

وفى صباح اليوم التالى أخذ المغاربة جميعهم الى شاطئ البحر وبدأت
كتيبتان فى رميهم بالرصاص : وكان أملهم الوحيد فى النجاة هو أن يلقوا
بأنفسهم فى البحر ، فلم يترددوا ، وحاولوا كلهم الهروب سباحة . فضربوا
بالرصاص على مهل ، ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدماهم وانتشرت
جثثهم على سطحه . وأسعد الحظ نفرا قليلا فوصلوا الى بعض الصخور ،
ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم فى قوارب والاجهاز عليهم
وقد تم اعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة ، وأن
يعفى الأسرى الباقون من القتل ولكن سرعان ما خاب رجاؤنا حين اقتيد
١٢٠٠ مدفعى تركى فى اليوم التالى ليعذبوا ، وكانوا قد جوعوا يومين أمام
خيمة الجنرال بونابرت . وصدرت التعليمات المشددة للجنود ألا يسرفوا فى
الذخيرة ، فبلغت بهم الوحشية أن عملوا فيهم الطعن بالسنكى . وقد وجدنا
بين الضحايا أطفالا كثيرين تشبثوا وهم يموتون بأبائهم . وسيعلم هذا المثال
أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون الى صدق نية الفرنسيين ، وسيقع دم هؤلاء
الآلاف الثلاثة الضحايا على رؤوسنا ان عاجلا أو آجلا ، (٢٩) .

والمواطن بيروس ، كاتب هذا الخطاب ، لا يقل فى وطنيته كفرنسى عن
المواطن بونابرت ، أو عن أى عضو فى منظمة المقاومة السرية فى ١٩٦٢ .

وغیر هذه الرواية من روايات شهود العيان ، وبعضهم شاركوا فى
الجريمة ، أكثر إثارة للاشمئزاز من رواية بيروس . وحسبنا أن نذكر واقعة
صغيرة : وذلك أن الترك وهم على شاطئ البحر كوموا جثث زملائهم الموتى
محاولين عبثا أن يقيموا منها متاريس فى وجوه الطاعنين بالسناكى . قال
بونابرت : « لقد كان السنكى دائما سلاح الشجعان » ، (٣٠) .

كانت فرقة الساحل الرهيبة لا تزال تواصل مهمتها حين أصدر بونابرت
فى ٩ مارس منشورا لأهالى فلسطين يقول فيه : « الزموا الهدوء فى بيوتكم . .
وأنا أضمن سلامة الجميع وحمايتهم . . وسيكون الدين على الأخص موضع
الحماية والاحترام . . . لأن جميع الطيبات من عند الله : والنصر من
عند الله » ، (٣١) .

وفى اليوم نفسه كتب الى الجزار يقول : « ما دام الله يهبني النصر فانى
أحب أن أحذو حذوه تعالى فلا أكون شقيقا رحيمًا بالشعب فحسب بل بحكامه
أيضا » ، (٣٢) . والخطاب دعوة للتسليم .

ومن المؤن التى استولى عليها الفرنسيون فى يافا ٤٠٠.٠٠٠ جراية من
البسكويت و ٢٠٠٠ قنطار من الأرز . وقد نهب الجنود أكثر من هذا كثيرا

قبل أن يتمكن القومسيير من الاستيلاء عليه . ولكن الأسرى وجب ضربهم بالنار لأنه لم يمكن توفير الطعام لهم .

وفى ٨ مارس - وهو اليوم الثانى من أيام المذبحة ، أرسل الله - الذى من عنده تأتى جميع الطيبات - الطاعون على الجيش الفرنسى وصبه على رؤوسهم بسخاء .



كان الطاعون فى دمياط خفيفا بعض الشيء . وقد اشتد فى رشيد وأبى قير والاسكندرية ، ولكن فى هذه البلاد أيضا أصاب حاميات منعزلة ، ولم يصب جيشنا بأسره فى الميدان . أما الطاعون فى يافا فكان يختلف عن هذا . يقول ديجنيت أنه ما وافى ٩ مارس حتى كانت إحدى وثلاثون حالة دخلت المستشفى المنشأ فى دير الروم الأرثوذكس ، ومات من هؤلاء أربعة عشر . وكتب ديتروا فى اليوم التالى فى يوميته يقول : « تفشى فى فرقة الجنرال بون مرض مصحوب بدمامل يفضى الى الموت العاجل ويؤكد لنا الأطباء أنه ليس الطاعون » . ويقول فى ١٢ مارس : « انه حمى شديدة مصحوبة بدمامل . . . وقد خر تحت وقعها كثير من الجنود وماتوا فجأة » . وقد ظن أن المرض هو الطاعون ، وانتشر هذا رأى انتشارا واسعا حمل نفرا ممن ظهرت عليهم أعراضه على الانتحار » (٢٣) .

والمرض الوحيد الذى يمكن أن يلتبس معه الطاعون الدملى فى طوره الأول هو التسمم الكحولى الحاد . فترى المريض خاملا يترنح ويفقد القدرة على الربط ويهذى فى تشنجات تشبه هذاء السكرى . وتسبب الهذيان حمى عرف أنها ترتفع الى ١٠٧ فهرنهايت . ويصحب هذا ألم عام ، لا سيما صداع عنيف . والعرض التالى الذى قد يستغرق ظهوره يوما أو أياما ، هو ظهور دمل أو عدة دمايل ورد من قبل وصفها على لسان الجندى ميه (*) . فاذا ظهر هذا العرض لم يعد فى نوع المرض خفاء ، وأصبحت نتيجته خطيرة . وقد لاحظ الفرنسيون أن الآلام التشنجية التى تصيب المريض كثيرا ما تشبه أعراض مرض الكلب .

وبذل ديجنيت ورجاله قصارى جهدهم لمنع انتشار المرض - سواء بتغيير موقع المعسكرات ، أو بعزل جميع المرضى ، أو بفصل بعض ضحايا الطاعون منذ البداية عن غيرهم من المرضى ، ومع ذلك فان ديجنيت - رغم أنه كان على بينة من هذا المرض - أصر فى حكمة على اخفاء حقيقته عن الجيش . وبالطبع لم تجد هذه المحاولة بعد بضعة أيام .

(*) انظر الفصل السابع (٢) .

ورغبة فى مقاومة الرعب الذى انتشر فى صفوف الجيش ، أتى الجنرال بونابرت فى ١١ مارس أمرا لا يقل غرابة عن المذبحة التى أمر بارتكابها قبل ثلاثة أيام فقط . وصورة الرسام جرو « بونابرت يتفقد ضحايا الطاعون فى يافا » تستحق ما حظيت به من شهرة . فهى على عكس معظم الصور التاريخية المشهورة مبنية على حقائق ثابتة . ولنا أن نثق بديجنيت شاهدا ، وهو بالطبع لم يكن صديقا لبونابرت . يقول :

« فى ١١ مارس ١٧٩٩ شعر الجنرال بونابرت ، ومعه ضباطه أركان حربه ، أن من واجبه زيارة المستشفى وجال الجنرال فى أرجاء المستشفى وملحقاته ، وتكلم مع معظم الجنود الذين كانوا فى وعى يسمح لهم بسماعه ، وظل ساعة ونصف الساعة بغاية الهدوء ، يبدى اهتمامه بتفاصيل الإدارة . وبينما كان فى عنبر ضيق مزدحم جدا ، ساعد على رفع ، أو على الأصح حمل جثة بشعة لجندى اتسخت سترته الممزقة من تفجر دمل متقيح ضخيم من تلقاء نفسه ، (٢٤) .

ويروى خطاب كتبه مندوب الجيش « دور » نفس القصة ، وكذلك ترويهها فقرة فى يومية ديتروا ، ويضيف إليها هذا التعقيب : « إن هذا العمل الذى يدل على فطرة سياسية عميقة أحدث أثرا بالغا ، وقد خف الرعب من المرضى فعلا ، (٣٥) .

ترى ، أى رجل هذا الذى أمر يوما فى هدوء بقتل ١٠٤١ شخص بالسناكى ليحدث ضربا من التأثير ، وأتى فى اليوم التالى بنفس الهدوء عملا يحجم عنه أعظم القديسين ، لا لشيء الا ليحدث ضربا آخر من التأثير ؟ انه سؤال يفتح الباب لكثير من الجدل . ولكن الذى لا جدال فيه أن بونابرت كان محظوظا : فان عدوى الطاعون لم تنتقل اليه . وبعد ستة شهور ، فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ ، نراه يقول للمجلس الأعلى للهيئة التشريعية الفرنسية « تذكروا أن اله الحرب واله الحظ يسيران بجانبى » (٣٦) . وكان له كل العذر ان آمن بهذا ، ولكنه بالطبع لم يؤمن به . وهذه الملاحظة أيضا قدرها - أو على الأصح أساء تقديرها - ليحدث ما يريد من تأثير .

وبعد تفقده المستشفى بيومين ، أصدر الأوامر بتجنيد المسيحيين من أتباع الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية اجباريا لخدمة الجرحى فى المستشفيات ، والمسيحيين من أتباع الكنيستين اللاتينية والأرمنية للملاحظة « حالات الحمى » فى المستشفى - والمقصود بها حالات الطاعون . وفى نفس الأمر أنشأ ديوانا محليا يشترك فى عضويته المسلمون والمسيحيون ، وعهد ب « اقليمى » يافا والرملة الى رئيس إدارة الجيش ، الجنرال جريزيو . وفى اليوم التالى رحل هو وجيشه للزحف على عكا .

لم يكن الجنرال جريزيو شاكرا للمنصب الذى وكل اليه . فلقد روعه الطاعون ، ولم يره أحد خلال ادارته (القصيرة الأجل) الا حين غادر خيمته ليحبس نفسه فى بيت من البيوت . ولم يكن يتصل بالعالم الخارجى الا من ثقب فى الحائط يتسلم منه طعامه أيضا . ولم يفعل هذا الا يوما واحدا ، وفى اليوم التالى أصابه الطاعون ومات .

وقد تركت لجريزيو حامية من ١٥٠ رجل و ٣٠٠ جندى مصاب بالطاعون . وكان مالو ملحقا بأركان حربه . وبعد أيام من رحيل الجيش انضم اليه عضو آخر من اللجنة العلمية هو سان سيمون ، أخو مؤسس الطائفة السان سيمونية . يقول مالو : « كان فى صحة سابعة . وفى اليوم التالى مات » (٣٧) .

ووكل الى مالو نفسه ادارة مستشفى الطاعون . كتب يقول : « كنت أذهب الى المستشفى فى مشاة ، وأنفق كل صباح وسط الروائح الفاسدة الكريهة المنبعثة من ذلك المجرور ، الذى كان كل ركن فيه مكتظا بالمرضى . ولم أفطن الى أعراض الطاعون الا فى اليوم الحادى عشر . وفى ذلك الوقت تقريبا مات رئيس ادارة الجيش الجنرال جريزيو . وكان نصف الحامية مضروبا بالطاعون ، وبلغ عدد الموتى ثلاثين كل يوم ٠٠٠ ومن بين كل اثنى عشر رجلا لم ينج سوى رجل واحد ٠٠٠ وتفشى الطاعون فى كل بيت ٠٠٠ وعزل رهبان دير الكابوشين أنفسهم اتقاء العدوى ، ولكن أكثرهم مات » (٣٨) .

وكان مالو من بين ال ٨٪ الذين نجوا . فأجلى الى دمياط فى أواخر ابريل ، وتمائل للشفاء أثناء رحلته فى البحر . فلما عاد بونابرت الى يافا فى ظروف تختلف عن الظروف التى زارها فيها أول مرة ، كان لا يزال فى المستشفى نحو ٢٠٠ من مرضى الطاعون . وسنرى كيف تصرف فيهم .

فى هذه الأثناء كان بونابرت يحاصر عكا . وكان الطاعون متفشيا فى جيشه وفى حصن الجزار على السواء .

٣

فى عام ١٧٨٣ دخل لوى - ادمون لوبيكار دفليبو المدرسة الحربية فى باريس وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وهناك زامل تلميذا كورسيكيا يدعى نابليون بونابرت . ويبدو أنهما كانا متباغضين بالفطرة . كانا يشتركان فى مقعد واحد فى الفصل ، ولم تخل ركب الصبيين من الكلمات الزرقاء والسوداء لفرط ما كان الواحد يتلقاه من صاحبه من ركل . وكان فليبو دائما متقدما على بونابرت فى الفصل . ينال الجوائز الأولى فى حين ينال بونابرت الثالثة ، وتخرج

فى ١٧٨٥ بتقديرات أعلى من منافسه • وعين كلاهما ملازما فى المدفعية • ولما اندلع لهيب الثورة الفرنسية افترق مجرى حياة الواحد عن صاحبه تماما ، ولكن الصدمة جمعتهم وجها لوجه مرة ثانية بعد عشر سنوات •

وهاجر فليبو الأرسطراطى فى ١٧٩١ وحارب فى جيش كوندية ضد الجمهورية الفرنسية الى ١٧٩٥ ، حين عاد الى فرنسا يحمل مشروعا لاثارة تمرد ملكى فى الاقليم الوسطى • فلما قبض عليه هرب بمعونة احدى قريباته ، ولم يلبث أن غادر فرنسا فى ١٧٩٧ ، ولكنه عاد اليها فى نفس السنة - خفية بالطبع - ليستأنف نشاطه المعادى للثورة • وفى مستهل ربيع ١٧٩٨ صمم على تحرير ضابط بحرى انجليزى محبوس فى سجن « التمبل » فى باريس ، وهو السجن الذى أودع فيه لويس السادس عشر ومارى انطوانيت قبل اعدامهما • أما الانجليزى فاسمه وليم سدننى سمث ، المشهور بالسير سدننى سمث ، ولكن يجب ألا نخلط بينه وبين سميه الكاتب •

وبدا فليبو تنفيذ خطته بمطارحة ابنة السجنان الغرام - وهى دائما وسيلة لطيفة ناجعة فى الاتصال بالسجين • كذلك حصل على أوراق مزيفة جعلت منه ضابط بوليس • وذات يوم تقدم الى سجن التمبل ومعه أربعة من أصدقائه المتكرين فى زى رجال الشرطة ، وأبرز أمرا مزيفا سلم له على اثره سمث • وفى ٨ مايو وصل مع سمث الى لندن • وحصل له سمث على وظيفة كولونيل فى الجيش البريطانى •

أما سدننى سمث فلم يكن ماضيه أقل طرافة من ماضى فليبو • فقد ولد فى سنة ١٧٦٤ ، وكان الابن الثانى لكابتن فى فرقة الحرس ، ثم دخل البحرية فى الثالثة عشرة ، وعين ملازما فى سنة ١٧٨٠ ، وشهد القتال فى خليج تشساييك وفى سانت كتس ، وفى سنة ١٧٨٥ خرج فى أجازة طويلة • وبعد أن قضى عامين فى فرنسا - ذلك البلد الذى يبدو أنه كان يؤثره على غيره دائما برغم أنه قدر له أن يحاربه فى قوة لا تقل عن محاربة أى عدو له - قرر أن يلقي نظرة على بلاد المغرب، وهناك أنفق أكثر عام ١٧٨٨ • وبعد أن قدم للبحرية تقريرا عما رآه مضى الى ستوكهولم ، فوقع موقعا حسنا من نفس الملك جوستاف الثالث (وما كان أيسر اعجابه بالشبان البواسل المغامرين) وعين ضابطا فى البحرية السويدية وقاتل ضد البحرية الروسية وأميرها جون بول جونس ، فمنحه جوستاف لقب الفروسية (وهو لقب اعترف به جورج الثالث - ومن هنا تلقب سدننى سمث بالسر) • وبعد اقامة وجيزة بانجلترا يمم صوب القسطنطينية ، حيث كان أخوه تشارلز سبنسر سمث سكرتيرا أول فى السفارة البريطانية • وعاش هناك ثلاثة أعوام سعيدا يصنع صداقات أفادته أعظم فائدة فيما بعد • ولما استدعته البحرية الى انجلترا فى ١٧٩٣ لم يجد مركبا ينقله ، فابتاع سفينة جمع فيها نوتية من ملاحين بريطانيين جنحت بهم سفينتهم ، وعبر البحر المتوسط وانضم للأسطول البريطانى فى طولون •

ولما أكره الانجليز على الجلاء عن طولون بفضل جهود الكابتن بونابرت ، تطوع سمث باحراق المراكب الانجليزية التي اضطروا لتركها . وأحرقها ، ولكنه لم يأت عليها تماماً . وهنا بدأت السلطات الفرنسية تفتن لوجوده ، ولما لم يكن يشغل وظيفة ضابط عامل في البحرية البريطانية ، فقد اعتبرت هذه السلطات مغامرته تلك عملاً من أعمال القرصنة .

ولكنه لفت نظر الفرنسيين اليه أكثر من ذي قبل بعد أن عين ضابطاً حسب القواعد المرعية عند عودته لـانجلترا ، وذلك بالغارات التي كان يشنها على المراكب الفرنسية على طول ساحل فرنسا . والواقع أنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً دون أن يلفت النظر اليه ، فقد كان في مزاجه ذلك النوع الانجليزي من الزهو ، الذي هو خليط من الوقاحة الهادئة ، والشجاعة ، والاندفاع ، وحب التمثيل . وقبض عليه الفرنسيون أمام الهافر في ١٧٩٦ ، واذ كان لا يزال متهماً بالقرصنة بسبب مغامرته في طولون ، فقد سجنه الفرنسيون وأحكموا حراسته في التميل . وهناك ظل خاملاً عامين إلى أن أنقذه فليبو ، الذي كان زهوه من النوع الفرنسي الأرستقراطي – وقوامه البسالة المضبوطة غاية الضبط .

وعين اللورد سبنسر الكابتن سمث قائداً للسفينة « تيجر » ، ذات المدافع الثمانين ، وأصدر اليه التعليمات بالابحار إلى البحر المتوسط . واصطحب سمث فليبو معه . ولما كان قد تلقى سلطات خاصة ذات طبيعة دبلوماسية تخول له المفاوضة مع الباب العالي ، فقد اعتبر نفسه مستقلاً عن قيادة نلسن ، ورقى نفسه إلى رتبة الكومودور ، ورفع راية الكومودور على سفينته . ولكن نلسن أنكر عليه تصرفه هذا وإن كان هو نفسه لم يكن على الدوام مثلاً يحتذى في طاعة رؤسائه . واضطر سمث في النهاية إلى الرضوخ والاعتراف بسلطة نلسن . وفي أوائل مارس ١٧٩٩ أخذ عن هود قيادة الأسطول الصغير الذي كان يجب أن يبحر المتوسط ، وبذلك انتقل اليه لقب الكومودور بالطريقة القانونية . وما إن وصل حتى نما اليه نبأ بأن بونابرت استولى على يافا . فأرسل من فوره السفينة ثيسسيوس وعليها فليبو إلى عكا لتعزيز دفاع الجزائر ، ثم تبعها هو بعد قليل ، ووصل إلى عكا على ظهر تيجر في منتصف مارس .

ولولا وصول فليبو في الوقت المناسب لجاز أن ينسحب الجزائر من عكا ، والتي يبدو أنها كانت غير محصنة . وقد ثناه فليبو عن الانسحاب ، ولم تمض أيام قلائل حتى جعل من عكا حصناً منيعاً المنال . وما إن تولى فليبو تنظيم الدفاع على البر ، وسدني سمث تعزيزه من البحر ، حتى انتعشت على الفور روح الجزائر المقاتلة .

أما ماضي الجزائر ، الذي كان عمره ضعف عمر منقذيه الفرنسي والانجليزي،

فهو يزرى بماضى كل منهما • ولد هذا الشيخ - وكان بين الستين والسبعين - فى البوسنة ، وهى جزء من شمالى يوغوسلافيا معظم سكانه من المسلمين ، وكانت يومها ولاية تركية على الحدود • ثم نزع عن البوسنة فتيا بسبب بعض المشاكل ، وربما بسبب جريمة قتل ، وانخرط فى سلك البحرية التركية ، وتشاجر مع زملائه البحارة ، وترك البحرية ، وتصور جوعا فترة من الزمان ، ثم باع نفسه لتاجر رقيق فى أسواق الآستانة ، فحمل الى القاهرة حيث اشتراه على بك الكبير • وبعد أن أصبح أحمد - وهو اسمه الحقيقى - مملوكا ، أدى لعل بك خدمات ذات طبيعة خاصة • ذلك أن على بك كان يسير حثيثا الى منصب الحاكم الفعلى لمصر • وقد اقتضاه الوصول الى هذا المنصب التخلص من نفر من البكوات المماليك ، فتخلص له منهم أحمد بطرق شتى ، وهذا هو الذى أكسبه لقب الجزار ، الذى حمله منذ ذلك الوقت فى فخر واعتزاز •

وبعد أن قضى بضع سنوات فى عمله هذا تشاجر مع على بك - وكان ذا طبيعة مشاغبة ، مزهوا على الطريقة البوسنية - ورحل عن مصر الى القسطنطينية رأسا ، ومنها الى سوريا حيث احتفى بيوسف أمير الدروز • وعمل ضابطا تحت قيادة والى دمشق ، وبعد قليل عين حاكما على بيروت • واختلف مع الأمير يوسف بعد أن سرقه ، وبعد شتى المناورات السياسية المعقدة ، التى تستعين بالقتل ، وفق فى الظفر بولاية عكا • ويصف البارون دتوت الذى زار عكا فى ١٧٧٧ الجزار بأنه رجل وفى لذلك الطراز القديم من الحاكم الشرقى المستبد وفاء يتهمه الانسان معه بالافراط • يقول البارون : « لقد دفن فى الجدران عددا كبيرا من المسيحيين اليونان حين أعاد بناء أسوار بيروت ليدفع عنها غزو الروس • ولا تزال ترى رؤوس هؤلاء الضحايا المساكين التى تركها الجزار ظاهرة ليستمتع بتعذيب أصحابها » (٣٩) • وليس معنى هذا أن القصة حقيقية ، ولكنه يدلنا على نوع القصص التى تداولها الناس عن الجزار • ويبدو أنه كانت له جوانبه الطيبة ، فكان يطعم الفقراء ، ويوظف من شوه أجسادهم ، ويزوج أرامل الرجال الذين قتلهم • ومهما يكن من شئ ، فإن الجزار كان ذا خلق قوى ، وما من شك فى أنه كان أشد الولاة الأتراك المعاصرين له حبا للقتال والمشاكسة • كذلك اكتسب فيما يقرب من ستين عاما حسا سياسيا مرهفا أنبأه بأن الجنرال بونابرت لا يمكن الوثوق به حليفا ، وأنه لا يحتمل أن يحتفظ طويلا بسلطانه على مصر اذا قاومه الجزار • ولم يكن لرسائل بونابرت اليه أيا كان نوعها - سواء تملقته أو هددته - من أثر الا اضحاكه أو اثاره غضبه الشديد • والحق أنه من العسير أن نرى كيف يمكن لرجل مثل الجزار أن يقبل الاحتفاظ بمنصبه بفضل رضاء الجنرال بونابرت وهو الرجل الخطير البعيد الأطماع ، لا برضاء السلطان سليم الثالث البعيد عن الجزار ، والذي يدعه وشأنه •

ومع ذلك فان لبونابرت كل العذر اذا اعتقد أن شطرا كبيرا على الأقل من السكان السوريين - خصوصا الدروز والمسيحيين الذين كان الجزار يعمل فيهم السيف بين الحين والحين - سيؤيدونه ضد الباشا . وقد كتب المواطن بيروس . الذى لم يكن عاشقا أعمى لبونابرت ، لأمه فى ٢ أبريل يقول : « ان جميع السوريين يبغضون الجزار ... فما من عذاب لم يوقعه بمسيحيى سوريا ومسلميها على السواء ، بل بأكثر أتباعه ولاء له . وقد أمر بجذع أنوف البعض ، وسلم آذان البعض الآخر ، وأمر بسمل عيون نفر منهم وتشويه نفر آخر أو حللهم كالخيل ، (٤٠) » .

لقد ألف أحمد الجزار ، والكومودور سدننى سمث ، والكومودور فليبو ، فريقا ممتازا ضد عدو لا يقل عنهم امتيازاً .

٤

جلا الجزار عند اقتراب الفرنسيين عن ثغر حيفا الواقع على الطرف الجنوبى لخليج عكا . وفى ١٧ مارس أمر بونابرت باحتلال حيفا وأقام قيادته على جبل الكرمل ، وقد استطاع أن يشرف على الخليج الجميل كله . ولكنه لم يبد فى عينه جميلا ، ذلك أنه رأى أمام عكا بارجتين انجليزيتين - التيجر والزيلوس - وعدة زوارق حربية انجليزية ، وبعض السفن التركية . فعجل بارسال الأوامر للكابتن ستاندليه ، الذى كان مقررا أن يأتى بالأسطول حاملا مدفعية الحصار من دمياط الى عكا ، طالبا اليه اما ألا يبرح دمياط ، واما أن يبقى فى يافا ان كان بارحها فعلا .

ولكن فى ذات اليوم الذى أملى فيه بونابرت هذا الأمر ، وهو ١٨ مارس ، كان الكابتن ستاندليه وأسطوله يدنوان من رأس الكرمل ، ووصول الأسطول فى اللحظة التى يصل فيها الجيش البرى كان فى ظاهر الأمر توقينا دقيقا ، ولكن هناك ظروفًا يكون فيها التأخير خيرا من الوصول فى الميعاد . وكان اليوم كثير الضباب ، فلما دار ستاندليه حول رأس الكرمل لم يظن الى سفن السر سدننى سمث الا وهى واقفة على رأسه تقريبا . واستولى الانجليز على ست من ناقلاته ، وفرت ثلاث بينها سفينة ستاندليه .

وفى اليوم التالى اتخذ الجيش الفرنسى موقفه أمام عكا . لقد فقدت مدفعية الحصار ، ولكن فقدتها لم يبد أمرا خطيرا فى عين بونابرت ، فبدونها استولى من قبل على العريش ويافا ، ومظهر عكا يدل على أنها أقل منهما مناعة بكثير . فحاصروا عكا عتيقة بعض الشيء ، لأنها كانت مدينة مسورة حصنها فرسان الاسبتارية أثناء الحروب الصليبية - وكانت آخر معقل لهم فى سوريا - وهى

الى ذلك تبلى متداعية . على أن كل من يهتم بتفقد أى حصن من حصون الصليبيين فى بحر المشرق يقتنع فورا بأنهم لم ييخلوا بالأحجار لتعريض جدرانهم . أضف الى ذلك أن بناء عكا على شبه جزيرة جعل ثلثيها يواجه البحر الذى يسيطر عليه سدنى سمث . أما ناحية البر فكانت أسوارها ذات الشرفات تبرز فى زاوية . وعلى جوانبها أبراج عدة أطلق الفرنسيون على أكبرها بعد حين لقب « البرج اللعين » . وكانت قلعة الجزائر ، وهى بناء مربع مكين يجاور السور ، تواجه الشرق . أما فى الغرب ، فى نهاية رصيف بارز فى الخليج ، فقد حصن فنار ليدافع عن الميناء الصغير . وكان محيط المدينة كلها لا يجاوز ألف ياردة تقريبا ، وسكانها يتراوحون بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ . وقد جلب الانجليز - بالإضافة الى المدافع المقامة فى الأبراج وعددها ٢٥٠ مدفعا - مدفعية خاصة بهم ، و ١٢٠٠ قنبلة و ٤٠٠٠ قذيفة مدفع ، ومدفعين من مدافع المورتر ، وكمية هائلة من البارود .

ومع أن بونابرت لم يخافه أى شك فى أن عكا ستسقط فى يده بعد أيام قلائل ، فإن عدم وجود المدافع ذات العيار الثقيل ، وطبيعة الأرض والتحصينات - كل أولئك كان يتطلب من الاستعدادات السابقة للهجوم ما هو أكثر احكاما مما تطلبه الهجوم على العريش ويافا . وبينما كان الجنود والمهندسون الذين يوجههم الأعرج كفاريللى يقيمون عدة الحصار اتخذ بونابرت خطوات سياسية ليكسب أحلافا ضد الجزائر . وبدت هذه العملية يسيرة ، نظرا للكراهية الشديدة التى يشعر بها جميع من يخضعون لحكم الجزائر تقريبا ، مسلمين كانوا أو مسيحيين أو يهودا أو دروزا . فدعا مندوبين من البلاد القريبة - من الناصرة وقانا وغيرهما من القرى المسيحية التى كانت أسماؤها لا تزال ترن رنيننا مألوف فى آذان كثير من الفرنسيين ، ليجتمعوا به فى قصر قيادته . وكتب لبشير أمير الدروز يعده بأن يمنح الاستقلال لشعبه وأن يرد اليهم ثغر بيروت . واستقبل عباس الضاهر الذى قتل الجزائر أباه وحل محله وأليا على عكا ، وعينه شيخا على طبرية التى احتلها الفرنسيون بعد أيام قلائل .

لا بل ان بونابرت تبادل المجاملات مع السر سدنى سمث - ولعله كان فى هذا مستوحيا روح أسبوع الآلام المقدس . كان سمث يحتفظ بعدد من أسرى الفرنسيين على سفنه ، وبينهم الملازم دلوسال ، وهو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة اثر كمين ذبح فيه الفلاحون أفراد سريته . فلما أخذ دولوسال الى عكا وخشى السر سدنى سمث أن يقطع الجزائر رعوس جميع الفرنسيين الذين فى متناوله (باستثناء فليبو بالطبع) ، هربه الى إحدى سفنه وأحسن معاملته ، وزوده بالثياب الجديدة ودعاه لمائدته .

واتفق أن الفرنسيين قبضوا فى ٢١ مارس على عدد من الانجليز كان سدنى سمث أرسلهم برا الى حيفا فى محاولة طائشة للاستيلاء على بعض السفن

الفرنسية الصغيرة الراسية هناك . وفي ٢٢ مارس - يوم الجمعة الكبيرة - اقترح سمث تبادل الأسرى ، وقدم تقرير دولوسال لقائد وحدته ، وأضاف سمث الى التقرير حاشية حذر فيها الفرنسيين من مقابلة اهانات الجزار بمثلها انتقاما لما لقيه دولوسال على يديه : « لقد دبرت الأمر بطريقة تجعل الجزار لا يطالبنا برده اليه . . . ومقابلة اساءات الجزار بمثلها لن يثمر الا تذكير الجزار بالأمر وحمله على طلب رد الأسير اليه ، نظرا لحقده وحقد الترك على الفرنسيين . ان المسيو دولوسال ضيفي الآن ، وسيظل ضيفي حتى تسنح الفرصة للملائمة لرده الى فرنسا (٤١) . ووافق بونابرت ، ورد الأسرى الانجليز ، وأبلغ شكره بطريق رئيس أركانه قائلا : « لا يخامرك شك في رغبتى في ارضائك ياسيدى ، أو في حرصى على انتهاز كل فرصة لأمد يد المعونة لمن نكبتة أخطار الحرب من بنى وطنك » (٤٢) . وكانت هذه آخر كلمة مؤدبة ، أو حتى لائقة ، أرسلها بونابرت لسدنى سمث ، أو تكلم بها عن ذلك الرجل الذى كان على الدوام مهذبا موفور الذوق ، مع شهامته وغرابة أطواره .

وفى خلال ذلك راح الجنود الفرنسيون طوال أسبوع الآلام يحفرون الخنادق وتساورهم المخاوف من الطاعون . وقد أشار ديجنيت على جميع الأطباء ، فى خطاب دورى نشره عليهم ، أن يتأكدوا من أن كل فرد يغتسل ويتمضمض ويدقى نفسه . وقال ان الخبرة دلت على أن « المرض غير معد » (٤٣) . وهذا قول غريب عن الطاعون . ولكن بصرف النظر عن الاعتبارات السيكلولوجية، يمكن أن يعتبر ديجنيت محقا فى قوله هذا ، لأن الطاعون لا ينتقل مباشرة من شخص الى شخص ، بل عن طريق لدغ البراغيث . على أنه ليس من اليسير على الجنود الاحتفاظ بالنظافة والدفء وهم يحفرون الخنادق فى سوريا فى شهر مارس . وقد أقيم مستشفى لمرضى الطاعون على جبل الكرمل ، وبلغ عدد المرضى الجدد الذين أدخلوا المستشفى بين ١٠ و ٢٥ أبريل (وهى المدة الوحيدة التى لدينا عنها احصاءات) ٢٦٩ مريضا بالاضافة الى القدامى وعددهم ١٥٢ . ومن جملة هذه الحالات وعددها ٤٢١ ، مات ٥٧ لغاية ١٥ ابريل ، وأفرج عن ١٣٧ ممن شفوا أو كانوا ناقهين ، وبقي بالمستشفى ٢٣٠ مريضا . ولما كانت عدة فصائل ، وأكثر رجال فرقة كليبر ، غائبين فى هذه الفترة فى مختلف المهام ، فقد كان معسكر الحصار يتألف من ٩٠٠٠ رجل تقريبا . ومعنى هذا أنه فى خلال أسبوعين ضرب بالطاعون ٣ ٪ من جيش الحصار - وهى ليست نسبة مذهلة ، ولكنها مخيفة مع هذا . على أن الزيادة فى نسبة الشفاء كانت مشجعة . فقد هبطت نسبة الوفيات كما ذكر ديجنيت فى تاريخ الحملة الطبى من ٢٠ ٪ فى الحالات الجديدة الى ١٠ ٪ (٤٤) . ولا تشمل هذه الاحصاءات

الضحايا من غير العسكريين - كخدم المستشفى الذين ماتوا كلهم تقريبا بالطاعون .

ولكن اذا كانت نسبة الشفاء ارتفعت أثناء الحصار ارتفاعا مشجعا ، فان الاحوال فى مستشفى الطاعون لم تكن مشجعة على الاطلاق . ويضيف ديجنيت هذه التفاصيل المنيرة بعد تأكيده أن جميع المرضى الذكور كانوا فى أواخر الحصار اما فى عداد الموتى واما فى النزاع : « كان خدم المستشفى ، بهذه المناسبة ، من حالة المجتمع ، فأكثرهم مجرمون هربوا من سجون جنوه أو شفيتافيكيا أو مالطة . ولم يغرمهم بالخدمة فى المستشفيات الا شرهم للمال الذى يأخذونه من المرضى (*) وكثيرا ما اضطرت لتنظيف « البدرونات » الموحلة التى يرقد فيها مرضاى على الحصر ، ومعنى هذا أننى اضطرت لالتقاط خرق الموتى وثيابهم وقبعاتهم ورميها فى النار التى أوقدتها لهذا الغرض خلف المستشفى ، (٤٥) . وقد أقسم الدكتور ديجنيت يمين أبقراط كأصدق ما يقسم انسان ، ولعله غلا فى تنفيذ وصاياه غلوا ما كان أبقراط يحلم به . يقول : « اننى رغبة فى تهدئة مخاوف الجنود ورد روحهم المعنوية دفعت بمبضعى يوما ، فى وسط عنبر الطاعون ، فى قيع دمل لأحد الناقهين . . . وشرطت به خن وركى ، وقرب أحد ابطى ، شرطا خفيفا دون أن أتخذ أى احتياط غير الاغتسال بالماء والصابون . وظل مكانا الشرط ملتهبين التهابا طفيفا أكثر من ثلاثة أسابيع . . . وهذه التجربة الناقصة التى لم أروها الا بسبب ما أثارت من تعليقات كثيرة ليست كبيرة الدلالة فى مجال الطب . وهى لا تغير الحقيقة التى شهدت عليها آلاف الحالات ، وهى أن هذا المرض يمكن انتقاله ، انما تدل على أن الظروف الضرورية لهذا الانتقال لم تحدد جيدا » (٤٦) . ولعل التجربة ليست كبيرة الدلالة فى مجال الطب ، ولكنها تدل ولا ريب على أن ديجنيت كان يسير على الدرب ، وأنه لو قدر له العيش بعد نصف قرن لجاز أن يصبح من أعظم رواد الطب فى عصرنا هذا ، وأنه كان يملك من رباطة الجأش والشجاعة ما يفوق التصور . وهو يضيف هذه الحاشية الطريفة لقصته : ذلك أن الجندى الذى طعم ديجنيت نفسه بمصل دمله لقى طبيبه بعد شفائه تماما أثناء زحف شاق أقيم فى الصحراء . وقدم الرجل لطبيبه شربة ماء من قنينة بدافع عرفان الجميل . وقبلها ديجنيت ، ولكن بعد أن تغلب على « شعور قوى بالتقرز » . حقا لقد كان ديجنيت رجلا .

ان تواريخ حصار المدن مملّة فى العادة برغم أنف هومر . فهى فى رأى

(*) يستفاد من هذا أن بعض المذنبين المحكوم عليهم بالسجن فى السفن والذين عملوا نوتية على عدد من الناقلات التى نقلت الفرنسيين الى مصر ، أغراهم الطمع فى الربح بالعمل مريضين . وقد استخدم البعض الآخر فى فرق العمل وعوملوا معاملة خشنة جدا .

القارىء العادى تعرض سلسلة رتيبة من العمليات غير المفهومة التى تتكرر الى ما لا نهاية ، والتى تذكره تذكيرا بعيدا بـ « العم توبى » و « الانباشى تريم » . صحيح أن لحصار طروادة لحظاته الممتعة ، وكذلك كان ذلك الحصار الآخر لعكا يوم لقي رتشارد قلب الأسد صلاح الدين وجها لوجه . ولكن لا الجنرال بونابرت شابه رتشارد ، ولا الجزار باشا شابه صلاح الدين ، وكان حصار عكا فى ١٧٩٩ أقرب الى أهوال قتال الخنادق فى الحرب العالمية الأولى ، منه الى بسالة الصليبيين والمسلمين ذوى النجدة والشهامة .

ولقد غيرت الزيادة التى طرأت منذ أيام نابليون على مدى المدفعية وقوتها طبيعة فن الحصار تغييرا تاما . ويمكن أن توصف خصائصه الأساسية ، كما كان يمارس فى تلك الأيام ، وصفا موجزا بعيدا عن تخصص الفنيين . فالجيش المحاصر يعسكر على مرأى من هدفه ولكن خارج مرمى مدفعيته . كتب بيروس من عكا الى أمه فى كاركاسون يقول ، ان معسكرنا يزداد كل يوم شبها بالسوق الريفية . قالنبيد ، والحمور ، والتين ، وكعك القمح ، والعنب ، والزبد ، الخ . . . كل شيء هنا موفور وان غلا ثمنه غلاء فاحشا . ولكن المرء لا يعبأ بحساب القروش أثناء حملة حربية ، (٤٧) . ولنا أن نتصور أن « الخ » هذه تشمل أشياء لا يذكرها المرء لأمه المقيمة فى كاركاسون .

ولم يكن مجرد إقامة معسكر حول حصن يكفى لاستقاط هذا الحصن . فالهجوم على عكا اقتضى تهيئة المداخل أولا ، فكان لابد من حفر الخنادق من المعسكر الى الأسوار ، وقاية للمهاجمين من نيران المدافعين المضادة . ثم لابد من وضع الألغام تحت الأسوار أو الأبراج . وبينما تمضى هذه الأعمال - ومختلف الوحدات تتناوب الحفر - ينهال المدافعون ، ان كان لديهم ذخيرة كافية ، على الحفارين بقذائف مدافعهم وقنابلهم ، أو قد يرقبونهم فى هدوء وهم يقومون بمهمتهم ثم يفسدون ما صنعوا بخروج كبير - أى بهجوم مضاد من الحصن - ترافقه نيران محكمة التسديد . وفى عكا استخدمت الطريقتان جميعا .

فاذا سارت أعمال الحفر شوطا مرضيا صدر الأمر بالهجوم . فيبدأ بستار مدفعية ضخمة يستهدف أساسا النقطة التى وقع عليها الاختيار للهجوم ، وان سدد أحيانا الى نقطة أخرى تضليلا للعدو . والغرض هو أحداث ثغرة ، وأحداثها فى العادة ممكن اذا رافق المدفعية تفجير لغم على النقطة المطلوبة . ثم تصدر الإشارة بالهجوم الفعلى . فتنتطلق أول موجة من المهاجمين ، وهم عادة رماة القنابل اليدوية ، خلال الخنادق محاولين تسليق الأنقاض المتساقطة من الثغرة . أما العدو فلا يقف بالطبع مكتوف الأيدى ، بل يطلق على المهاجمين كل ما عنده - من نيران بنادق ، وقذائف مدافع ، وقنابل ، وأحجار - ويتلقى بالسيوف والمضى كل من ينفذ من الثغرة . وكانت الهجمة ، سواء نجحت أو أخفقت ، تكلف من الأرواح أكثر كثيرا مما تكلف المعركة - وهى حقيقة قد تعين على

تفسير وحشية الجنود في المدن الساقطة ، ولما كان تسلق حصن منيع أمرا لا يخطر ببال انسان في وعيه ، فقد كان المهاجمون يعطون قبل الهجوم مباشرة نصيبا موفورا من الحمر يزيد على تعيينهم العادى .

فاذا نجح الهجوم فيها ونعمت ، والا استمر اطلاق القنابل وحفر الخنادق ووضع الألغام من الجانبين ، حتى يرى أن الوقت حان لهجوم آخر أو خروج آخر . وفي حصار عكا كان واضعو الألغام من الفرنسيين والترك يعملون أحيانا على أقدام من بعضهم ، وحين رفع الحصار بعد شهرين كان الفرنسيون قد قاموا بثمانى هجمات كبيرة .

ذلك هو النظام الأساسى لفن الحصار . ولكن حصار عكا كان يتميز بعدة خصائص جديرة بالذكر .

١- يتيح موقف المهاجمين عادة خارج الحصن لهم التمكن بالأقوات والدخائر وتعويض ما يخسرون من الجنود . ولكن الفرنسيين في عكا لم يكن لديهم قواعد تموين ولا أمداد يعوضون بها خسائرهم . وكانوا يرحبون بكل قذف مدفعية يأتيهم من الحصن أو السفن البريطانية ، لأنهم يستطيعون بفضلها جمع قذائف المدافع واستعمالها من جديد . هذا بينما يتلقى الجزار باشا كل ما يحتاج اليه من مؤن وأمداد عن طريق البحر . ولعل وصول عدة مئات من رجال المدفعية المدربين على يد معلمين أوروبيين من الآستانة في أخريات الحصار كان عاملا فاصلا في نتيجة الحصار .

٢ - الذى يحدث عادة حين يحاصر جيش مدينة أن يكون المحاصرون أكثر عددا من المحصورين . فاذا طال الحصار عما توقعه الجيش المهاجم استطاع أن يترك وراءه قوة تكفى للاستيلاء على الحصن ويواصل الزحف الى هدف آخر . ولكن قوة الحامية في عكا كانت تقريبا مساوية لقوة جيش بونابرت . ولكن أهم من هذا أنه لم يكن لدى الفرنسيين سوى ١٣٠٠٠ رجل : لذلك لم يكن ممكنا أن يواصلوا زحفهم قبل الاستيلاء على المدينة وتدمير قوات الجزار .

٣ - حين يكون ثلثا الحصن مطلين على البحر ، فان العدو يحاصره عادة برا وبحرا . أما في عكا فالبحر يسيطر عليه المدافعون .

٤ - يستخدم المهاجمون مدفعية الحصار عادة ليستولوا على الحصن المحاصر . أما في عكا فقد استخدمت هذه المدفعية - ولكن الذين استخدموها ليسوا هم المحاصرين . ذلك أن المدافع الثقيلة التى استولى عليها السر سدننى سمث من قبل أمام رأس الكرمل أنزلت الى البر ، فاستخدمها الترك ضد الفرنسيين . ولم تصل بونابرت بأمداد تعوض مدفعيته المفقودة الا في أخريات الحصار .

كان الجنرال بونابرت يبغض حصار المدن ، ذلك أن عبقريته كانت من النوع الذى يتطلب الحركة السريعة . ومع أنه أرسل الى الاسكندرية فى طلب شحنة أخرى من مدفعية الحصار تنزل فى يافا ، فانه لم ينتظر وصولها ليأمر بالهجوم . وكانت ثمانية أيام من الاستعداد تبدو له كأنها الأبدية طولا . فأصدر أمره بالهجوم فى ٢٨ مارس . أما رؤسوه من القواد فكان الشك يخامرهم فى وفاء الخنادق الممدودة الى الأسوار بالغرض . قال كليبر الفارع الطول لبونابرت القصير القامة وهما يفحصان استعدادات الحصار معا : « يا لها من خنادق مضحكة هذه التى حفروها هنا . ربما كانت تناسبك أنت أيها الجنرال ، أما أنا فلا تكاد تصل الى بطنى » (٤٨) .

وبينما كان الفرنسيون يحفرون خنادق لا تصلح الا للأقزام ، أنزل السر سدننى سمث ٨٠٠ بحار انجليزى ليعزز بهم مدفعية الجزار ، وراح الكولونيل فليبو يعمل دائما ليل نهار ليثبت المدفعية فى مكانها ويدرب رجالها ، ولم يسمع بونابرت ، الذى كان لا يزال يجهل وجود زميل فصله القديم ، الا أن يلحظ هذا الذى صنع ، وذلك عقب اصداره الأمر بالهجمة الأولى التى بدأت فى الرابعة من صباح يوم ٢٨ مارس بقذف الحصن بالقنابل . ورد الترك ، تعززهم المدافع البحرية التى جلبها رجال السر سدننى ، بنيران مضادة بلغ من تدميرها أنه لم تأت الساعة السادسة صباحا حتى فقد الفرنسيون أربعين مدفعا بين جريح وقتيل ، وغطلت مدافعهم كلها ما عدا ثلاثة . ومع ذلك أحدث المهاجمون ثغرة ، على أنها لعلوها أكثر من عشرين قلعا فوق الخندق كانت عديمة القيمة عمليا ، ولكن هذا الاعتبار لم يمنع بونابرت من اصدار الأمر الى رجاله بتسليقها على سلالم تعلو اثنى عشر قلعا الى ستة عشر .

وجلس الجزار باشا فى مكانه قرب المتراس بلحيته البيضاء وعينيه النارييتين ، مستعدا لمنح المكافآت لجنوده عن كل رأس من رؤوس العدو يضعونه أمامه . وكانت عادة قبلية يجب أن يراعيها ، ولكن الفرصة لم تكن مواتية هذه المرة : فقد استحال على الفرنسيين ماديا أن يتسلقوا الثغرة . ومع ذلك فان المثال الذى ضربه بونابرت فى يافا بث الرعب فى قلوب رجال الجزار ، فأخذوا يتركون مراكزهم بمجرد رؤيتهم الفرنسيين يهاجمون . وساقهم الجزار كالأنعام الى أماكنهم وأطلق عيارين من مسلسلته على المهاجمين ، ثم صاح بهم « مم تخافون؟ ألا ترون أنهم يهربون ؟ » (٤٩) وعاد الترك الى مراكزهم ، وما هى الا دقائق حتى كان الفرنسيون القادرون على الهروب يهربون فعلا . ولعل هذه اللحظة كانت أخرج اللحظات فى حصار عكا بأسره . وبينما كان الترك يستعيدون ثقتهم بأنفسهم ، بدأ الفرنسيون يتخاذلون . يقول الكابتن دوجيرو فى يوميته : « منذ تلك اللحظة رأى الكثيرون منا أنسا لن نستطيع الاستيلاء على ذلك الحصن » (٥٠) .

ولكن الجنرال بونابرت لم يكن يفقه للتخاذل معنى . فما لم يضع كل شيء ، فان الانتصار التام ما زال ممكنا . وقد علق أمله على ما يحدثه لغم يوضع تحت البرج الكبير من أثر ، فتم وضع اللغم فى ٣١ مارس رغم نيران المدفعية التى ظلت تنهال فى غير هوادة من الحصن . وأمر بونابرت بهجوم آخر يشن فى أول أبريل ، وفى هذا الهجوم جرح أو قتل جميع المهاجمين تقريبا . وبين الجرحى ياوران لبونابرت هما دوروك وأوجين بوهارنيه . وهنا أدرك الجميع ، حتى بونابرت ، أن المزيد من المحاولات لن يجدى ، ما لم تصل مدفعية الحصار .

اعتمد المؤلف فى الفصول السابقة غير مرة على المذكرات التى كتبها رئيس إدارة الجيش الجنرال لوجييه ، الذى عينه كليبر فى هذه الوظيفة ، والميجر ديتروا من سلاح المهندسين . وتكشف مذكرات الرجلين عن انسانين مستقيمين، ذكيين ، قويى الملاحظة ، لم يستطع أحدهما أن يرى مبررا معقولا لوجودهما أو لوجود زملائهما فى الشرق . ولكن شهادتهما لن تسمع فيما يلى من فصول هذا الكتاب ، ذلك أن لوجييه قتل فى الخنادق أثناء الهجوم الأول ، أما ديتروا فقتل فى هجوم تركى مضاد بعد ذلك بيومين .

وقتل الكابتن مايى دو شاتورينو من هيئة أركان الحرب العامة فى خندق عكا فى ٢٨ مارس . وكان له شقيق أوفده بونابرت فى مهمة دبلوماسية لسوريا قبل ستة أشهر . أما الأخ - وهو كابتن أيضا - فقبض عليه الجزار وسجنه فى الحصن . وفى ٣٠ مارس أى بعد موت أحد الشقيقين تحت أسوار عكا بيومين ، شنق الشقيق الآخر بأمر الجزار ومعه عدة مئات من المسيحيين الآخرين ، وقذفت جثتهم فى البحر ، فألقته الأمواج على الشاطئ حيث وجدها الفرنسيون . ولم يكن الشقيقان مايى ، اللذان ماتا على هذا النحو فى بحر يومين لا يفصل بينهما غير سور من أسوار العصور الوسطى ، قد رأى الواحد منهما أخاه مدى ستة أعوام ، باستثناء لقاء قصير فى القاهرة .

ونحن اذا أخذنا فى الحسبان طبع الجزار لم يصعب علينا أن ندرك لم أمر بذبح مئات المسيحيين - ومنهم مايى - بعد الهجوم الأول على حصنه . ولكنه أصعب أن نفهم لم لم يستطع سدنى سمث وفليبو منعه من أن يأتى ما أتى . وما من شك فى أن الرجلين صنعا أثناء الحصار كله ما وسعهما صنعه لكبح شدة الجزار ولانقاذ الضحايا الذين قد يفتك بهم . أما كيف أمكن أن تقع مذبحه ٣٠ مارس رغم جهودهما فسر ما زال غامضا . وقد أفضى الحادث الى سوء تفاهم منكود بين السر سدنى سمث وبونابرت ، الذى اعتبر السر سدنى شريكا فى المجزرة . وسنرى كيف أدى سوء التفاهم هذا الى موت مئات آخرين من الرجال .

ومع أنه لم يقع هجوم آخر على عكا خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من أبريل، فقد استمر حفر الخنادق ووضع الألغام ، وقيام العدو بالحفر ووضع الألغام

المضادين ، ومبارزات المدفعية ، والهجمات المضادة ، وغير ذلك من أشغال الحصار وتقاليدهم . وكانت الأمطار قد كفت عن الهطول ، ولكن رياح الخماسين بدأت . وظل مرضى الحمى الجدد يصلون كل يوم الى مستشفى الطاعون . وهبطت الروح المعنوية في المعسكر . وفي فترة الهدوء أرسل بونايرت فرقة كليبر وعدة وحدات صغيرة لتوطيد سلطة الفرنسيين داخل البلاد ، ولصد جيش والى دمشق الزاحف على عكا .



بينما كان بونايرت يحاصر عكا أخذت عصابة من أعدائه تتألف من حوله . ذلك أن الجزائر استنجد بأهل نابلس والجبلين ذوى النزعة الحربية وبوالى حلب ووالى دمشق . وفي أوائل ابريل أنهى المخبرون المسيحيون الى بونايرت أن نحو ٧٠٠٠ مقاتل من اقليم نابلس قد تجمعوا في الجليل ، وأن جيش والى دمشق يزحف عليه . وفي ٥ ابريل صلت كتيبة استطلاعية ، يقودها الجنرال جونو ، قوة من الفرسان تفوقها مرات في العدد قرب الناصرة . وفي ٩ ابريل أرسل بونايرت كليبر بجزء من فرقته لينجد جونو . وبعد يومين صد كليبر على رأس ١٥٠٠ رجل ، قوة تركية تبلغ ثلاثة أضعاف رجاله قرب قانا الجليل ، حيث أنقذ المسيح مرة عرسا من الفشل . ووصلت الأنباء بأن مزيدا من الوحدات التركية عبرت الأردن الى الشمال من بحيرة طبرية . وأرسل بونايرت الجنرال مورا بكتيبتين من المشاة للقائها . وفي ١٥ ابريل التقى رجال مورا بهذه الوحدات على مرتفع يطل على الأردن ، وكان في استطاعتهم أن يروا على ضفة النهر الأخرى خيام المعسكر التركي . وهجم الفرنسيون مدفوعين بالأمل في الغنيمة ، ومكونين مربعاتهم العادية . يقول شاهد عيان : « انهم لم يسيروا سيرا ، بل جروا ، وقلبوا وهم يهبطون السفح هؤلاء الخيالة ذوى المظهر الفخم » (٥١) وبعد أن دحرت قوات مورا نحو ٥٠٠٠ رجل دون خسارة في جانبها تقريبا ، خاضت النهر وعسكرت في خيام الترك . يقول الشاهد المذكور : « وهنا أنفق جنودنا بقية النهار يقايضون على الغنائم التي استولوا عليها » (٥٢) . وهكذا طهر الأردن شمالي بحرية طبرية .

أما في الجنوب فكان الموقف أكثر عسرا ، لأن كليبر كان موشكا أن يلقي معظم جيش والى دمشق . وفي ١٦ ابريل ، وهو اليوم التالي لانتصار مورا الرائع على الأردن ، التقى كليبر ، على رأس ألفين من رجاله ، بمعسكر الوالى في سهل ازدريلون أسفل جبل طابور . وكان للباشا برجاله البالغين ٢٥٠٠٠ من الفرسان و ١٠٠٠٠ من المشاة ، تفوق عددى نسبته ١٧ : ١ . ولكن جيشه كان أخلاطا أكثرها متطوعون كان تدريبهم سيئا ونظامهم أسوأ . وكان كليبر قد وضع خطة لهجوم ليلي ، ولكنه لم يصل الى المعسكر الا في الساعة السادسة صباحا ، ففقد بذلك ميزة المباغتة . وما لبثت مربعاته أن طوقها

٢٥٠٠٠ فارس ، فلم يستطع الا القتال دفاعا عن جيشه . وكان في مقر قيادته زوجة الجنرال فردييه الذي كان يقود لواء في المعركة .

وظل الفرنسيون عشر ساعات ، من السادسة صباحا الى الرابعة مساء ، يقاتلون دون توقف وبغير أمل كبير ، وهم يصدون عنهم العدو . وأخذت ذخيرتهم من الرصاص تنضب . كتب الجندي ميه عن هذه الواقعة يقول : « كنا نتمنى أن ننزل عما لدينا من خبز قليل لقاء بعض الطلقات والبارود . ولم يكن لدينا وقت للأكل ، ولو وجدنا أفدنا منه ، لأن الظمأ والاعياء قد أخذنا منا كل مأخذ ، فلم نقو حتى على الكلام . وكان على مسافة قريبة منا بحيرة لم تستطع الفرقة أن تبلغها ، فلم يكن سبيل اذن لتجديد قوانا » (٥٣) .

وتأزم موقف الفرنسيين : واذا رجال كليبر يسمعون من مرتفع جنوبي ساحة القتال دويا حكموا بأنه صادر من مدفع فرنسي . وكان المدفع من مدافع فرقة الجنرال بون ، التي قادها بونابرت بنفسه لانقاذ كليبر . يقول شاهد عيان : « كان التأثير مسرحيا » (٥٤) .

يقول نقولا الترك ان العثمانيين حين سمعوا طلقة المدفع : « ارتجوا ... وبدوا يهربوا . فحالا لما نظرهم الكومنضة ضرب عليهم مدفع ثانى ، فكامل العسكر حالا هربوا وبدوا يتجاروا في الجبال والوديان مسرعين جدا ، والفرنساوية يتفرجوا عليهم من بعيد ويضحكون » (٥٥) .

كانت معركة جبل طابور ، كما شاء بونابرت أن يسمى هذا الاشتباك ، انتصارا باهرا وغير متوقع . ولا ريب في أن كليبر ارتكب خطأ جسيما حين وضع نفسه في هذا المركز السيئ ، ويجب أن ينسب الفضل في الانتصار الى الرجال الذين ثبتوا عشر ساعات لعدو يفوقهم عددا ، والى بونابرت الذى فطن الى ضرورة التدخل الخاطف فوصل فى الوقت المناسب بالضبط ، واستقر رأيه فورا على أنجح مناورة يمكن قيامه بها . ومع أن جيش باشا دمشق لم يسمر فانه تشتت ، ولم تزد خسائر فرقة كليبر فى هذا القتال الذى كانت النسبة فيه ١ : ١٧ على قتيلين وستين جريحا .

وفى اللحظة التى سمع فيها كليبر اشارات المدفع أمر رجاله المرهقين بمطاردة الترك الهاربين . يقول الجندي ميه فى مذكراته : « تذكر أيها القارىء ما قلته لك - أننا كنا نموت ظمأ . ولكن ظمأنا للانتقام أطفأ ظمأنا للماء ، وألهب ظمأنا للدماء ... والواقع أننا رحنا نخوض الى خصورنا مياه هذه البحيرة التى كنا نشتهي أن نشرب منها قدما قبل لحظات . غير أننا لم نعد نفكر فى الشرب ، بل فى القتل وفى صبغ البحيرة بدماء هؤلاء الهمج الذين كانوا يطمعون منذ لحظة فى قطع رؤوسنا واغراقنا فى البحيرة التى أغرقوها فيها هم والى امتلات بجثثهم » (٥٦) . والجندي ميه ، الذى فقد بصر إحدى عينيه من الرمد ونجا

من الطاعون قبل أن يشارك في المعركة ، كان مدرسا كهلا في قرية فرنسية حين كتب هذه السطور .

في تلك اللية نام الجنرال بونابرت في الناصرة . يقول الكونت دلافاليت الذي كان يومها ياور بونابرت : « وقبل أن يدخل القرية وقف بعين ماء عتيقة تشرب منها الماشية . وهناك استقبله أعيان القرية ، وكان كل شيء يذكر بالمشاهد القديمة التي ورد وصفها في الانجيل بغاية البساطة . وقوبل الفرنسيون بفرح عظيم (من الأهالي المسيحيين) ، وأنفق الجنرال بونابرت وضباط أركانه الليل في دير الناصرة » (٥٧) . كذلك فتح الآباء الدير للجرحى الفرنسيين . وعنوا بهم .

وفجأة تذكر الجنود الفرنسيون ، بعد أن ملأوا بحيرة بسماء القتلى وجثثهم ، أنهم ولدوا مسيحيين . وأحيت الناصرة ذكريات طفولتهم عن الأناجيل ، والتناول الأول ، وأجراس الكنائس التي أسكتت في فرنسا ستة أعوام . يقول الدكتور ديجنيت انه في غداة الانتصار « احتفل بانتصاراتنا بترتيل « تسبيحة الشكر » ترتيلا مهيبا . وكان هناك حفلة عماد . وتطوع الجنرال بونابرت بأن يكون عرابا للطفل ، ومدام فردييه عرابة . وطلب رائد في كتيبة الفرسان الرابعة عشرة ، كان مريضا وشعر بدنو أجله ، أن يختم حياته - ما دام في الأرض المقدسة - بتعزيات الدين ومراسمه » (٥٨) . ومع هذا يجب ألا ننساق مع العاطفة ، فان بعض الجنود الفرنسيين ، في نزعة فولتيرية أكثر منها ملحدة ، كانوا يهزأون بالناصرة . يقول لافاليت عن كنيسة الناصرة : « ان البناء يشبه كنائسنا القروية ، غير أن قاعة الكنيسة كانت فيما روى لنا غرفة نوم العذراء . . . وقد أكد لنا رئيس الدير تأكيداً جازماً أنه حين أتى الملك جبرائيل ليبشر العذراء بحفظها المجيد المقدس لمس بعقبه ذلك العمود (وهو عمود رخامي أسود يجاور المذبح) فانكسر . فبدأنا نضحك ، ولكن الجنرال بونابرت ردنا الى جدنا بنظرة صارمة » (٥٩) . ودفن جندي فرنسي أصبعه التي فقدتها في المعركة - ولأمر ما التقطها واحتفظ بها - بخشوع في مقبرة المدينة وهو يقول : « لست أدري ما الذي سيحدث لباقي جثتي ، ولكن ستكون لي على الأقل أصبع في الأرض المقدسة » (٦٠) . وساورت الشكوك جندياً آخر على شفا الموت ، ألح عليه الآباء الرهبان في تناول الأسرار المقدسة الأخيرة ، فاستشار رفاقه . وقالوا له : « لا تغضب هؤلاء الرهبان المساكين الذين تعبوا كثيراً في العناية بك . ثم أي ضرر تغامر به ان أطعمهم ؟ » (٦١) وبينما كانت تسبيحة الشكر ترتل في الناصرة ، كان الفرنسيون يحرقون قرية ومدينة جنين في اقليم أهل نابلس الجبليين .

يقول نابليون : « ان فرح المسيحيين لا يمكن وصفه . فقد رأوا قوما من دينهم بعد قرون طويلة من الظلم . وكانوا يحبون أن يرووا قصصاً من الانجيل

يعرفونها خيرا مما يعرفها الجنود الفرنسيون . وقد قرأوا منشورات القائد الأعلى التي أذاع فيها أنه صديق المسلمين وأمنوا على مسلكه هذا ولم ينتقص هذا من ثقتهم فيه . وخلع نابليون القفاطين الموشاة بالفراء على ثلاثة من كبارهم وكان أحدهم يبلغ من العمر مائة عام وعاما . . . ودعا القائد الأعلى لتناول الطعام معه . ولم يكن الشيخ يستطيع أن ينطق بثلاث كلمات دون استشهاد من الكتاب المقدس . وقد ظل هؤلاء المسيحيون ثابتين على ولائهم حتى حين تنكر له الحظ، وقد أفاد منهم خلال حصار عكا كله ، (٦٢) كذلك اضطروا لبيع ثمن هذا الولاء بعد أن رفع الحصار ، حين كتب بونابرت لشيوخ الأزهر أنه سيعتق الاسلام ويبني مسجدا فحما .

وبعد أن قضى بونابرت يومين بين المسيحيين ، عاد الى حصار عكا تاركا كليبر ليحرس الأردن .

وبينما كان الفرنسيون يصدون الترك في الناصرة وقانا وجبل طابور وغيرها من الأماكن المقدسة سارت الاستعدادات لهجوم آخر قداما وان لم يخل الأمر من تدخل المحاصرين . ففي ٧ أبريل قطع هجوم مضاد قوى ، يقوده ضابط انجليزى ، عملية وضع لغم تحت « البرج اللعين » ولكنه لم يفلح فى افساده . وقتل خمسة عشر انجليزيا فيهم قائدهم . وظن بونابرت أن الضابط هو الكولونيل فليبو ، ولكي يتأكد أمر باخراج الجثة ، فأخرجت بخطاف بطريقة بشعة . وتبين أن الجثة للكابتن تومس أولدفيلد ، أو انفيلد ، الذى دلت أوراقه على أنه أبلى بلاء حسنا فى الاستيلاء على مدينة الكاب من الهولنديين ، ودفن الفرنسيون جثته التى أخرجت بالخطاف باحتفال عسكرى .

وبعد يومين تهشمت ذراع الجنرال كفاريللى اثر اصابتها بقذيفة مدفع تركى ، وبتر الدكتور لارى الذراع ، وما لبث كفاريللى أن أصيب بحمى شديدة . وعلى هذه الحال وجده بونابرت حين عاد من الناصرة .

أما جاسبار مونج فلم تكن حاله بأفضل من حال كفاريللى . فقد ساعد ديجنيت ولارى على تنظيم المستشفى وخدمات الميدان الطبية ، وأصيب بالدوئنتاريا ، وراح يهذى من الحمى . فأمر بونابرت بنقله الى خيمته . وذكر مونج بعد ذلك أنه فى ليلة باردة حسبه بونابرت نائما فغطاه فى رفق ببطانية أخرى .

وفى منتصف أبريل وصلت مدفعية حصار جديدة بدل المفقودة مشحونة بالسفن الى يافا . وفى ١٩ أبريل كتب بونابرت الى بوسيلج بالقاهرة يقول انه يتوقع الاستيلاء على عكا فى ٥ أو ٦ مايو ، وأضاف : « وسأبرحها فورا وأعود الى القاهرة » (٦٣) .

وأمر بونابرت بهجوم آخر يشن فى ٢٤ أبريل دون انتظار جلب مدافع
الحصار من يافا . وبدأ الهجوم فى الساعة التاسعة صباحا بتفجير لغم آخر
تحت البرج الكبير . كتب يروس لأمه يقول : « كان تأثيره الوحيد نسف ركن
من أركان البرج وهاجم رماة القنابل الثغرة ببسالة ، مع أنه كان واضحا
أن اختراقها مستحيل . وانهال العدو المتربص فى قمة البرج خلف المتاريس
على جنودنا بالأحجار والقذائف والقنابل اليدوية . ولكن جنودنا ما كان ليثنىهم
شئ عن بلوغ هدفهم ، فلجأ الترك الى برميلين أو ثلاثة من البارود ألقتها عليهم .
واختنق جميع رجالنا (من الانفجار) وان أفلح نفر قليل فى الجرى وقد أحرقت
النار نصفهم » (٦٤) .

أما بونابرت فأمر بهجوم آخر يشن صباح الغد ، بعد أن أفقده الفشل
كل رحمة .

وأفلح الرماة الفرنسيون هذه المرة فى دخول رواق البرج الأسفل ، ولكن
الترك انهالوا بقذائفهم وقنابلهم على الفرنسيين - وكانوا يبلغون المائة - من فتحة
فى سقف الرواق . ومن بين الجرحى فى هذه المذبحة الملازم الثانى « فوزو »
من سلاح المهندسين ، وكان الفتى البالغ من العمر ستة عشر ربيعا طالبا بمدرسة
الهندسة ، وذلك أول عهده بالقتال . وكان المواطن فافيه ، المهندس المدنى
باللجنة العلمية ، يحب الفتى . قال أحد زملائه يذكر الواقعة بعد ذلك : « وذهب
اليه فافيه فى الخندق ، وحمله على كتفيه عائدا به ، وأسبل له جفنيه بعد
قليل . وأصابه ما يشبه الجنون ، وانفجر فى بونابرت انفجارا أثار كثيرا من
التعليقات » (٦٥) . أما بونابرت فقد أصغى فى تبلد لغضبة فافيه الهستيرية ،
« ثم انسحب دون أقل علامة من علامات التأثر ، كأن التهم المحمومة التى يهذى
بها فافيه موجهة الى غيره » (٦٦) .

وفى هذا الوقت بدأ الجنرال كفاريللى يعالج سكرات الموت . وسأل
بونابرت بورين : « كيف حال كفاريللى ؟ » وأجاب سكرتيه : « لقد أشرف على
نهايته . وطلب الى أن أقرأ عليه مقدمة فولتير لكتاب مونتسكييه « روح القوانين »
ثم أدركه النعاس » . وقال بونابرت : « عجبا ! أراد أن يسمع هذه المقدمة !
هذا مضحك » (٦٧) . وذهب ليرى صديقه تلك الليلة فوجده فاقد الوعي .
ومات كفاريللى أثناء الليل (*) .

(*) كتب الجبرتي يصف كقرلى : « كقرلى المسمى بأبى خشبة ، وهو يمشى بها بدون
معين ، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح ، ويركب القرس ويرمحه وهو على هذه
الحالة ، وكان من جملة المشار اليهم فيهم ، والمدير لأمور القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به
عناية عظيمة واهتمام زائد . . . » ج ٣ ص ٣١ .

وأخيرا وصل جزء من مدفعية الحصار فى ٣٠ أبريل • وأمر بونابرت
بشن هجوم آخر (وهو الخامس) فى أول مايو • فانهى بانتشار الذعر بين
المهاجمين • كذلك أخفق هجوم ليل فى ٤ مايو : فقد أضاع الجزار جبهته كلها
بالمصاييح احتياطا • وصعد الهجوم الكبير السادس كسابقه فى ٦ مايو • وفى
٧ مايو كانت مدفعية الحصار كلها فى مركزها ، فبدأ هجوم آخر فى التاسعة
صباحا • ودل نجاحه الجزئى على أن بونابرت ربما كان مستوليا على عكا لو
أوتى من الصبر ما يجعله ينتظر وصول مدافعه الكبيرة بدلا من تضييع رجاله
وموارده على محاولات مرتجلة يائسة • وأخيرا وفق الفرنسيون فى إرساء قدمهم
على « البرج اللعين » • واستؤنف القتال فى صباح الغد على الأسوار وعلى
الساحل ، حيث أنزل السر سدننى سمث بحارته ليحموا مرور قوة من رجال
المدفعية الأتراك ، المدربى على أيدي الأوربيين ، من ناقلاتهم الى الحصن • ولما
هبط الظلام كان البرج لا يزال فى قبضة الفرنسيين ، ونفذ الى المدينة فعلا نحو
٢٠٠ فرنسى يقودهم الجنرالان لان ورامبو ، ولكنهما اكتشفا بعد فوات الوقت
أن رجالهما لا يتبعونهما •

ذلك أن السر سدننى سمث استطاع من أسوار عكا ، قبيل الظلام ، أن
يرقب بمنظاره المقرب الجنرال بونابرت وأركان حربه يوجهون الهجوم من تل
سمى باسم رتشارد قلب الأسد • ودلت حركات بونابرت - فيما يذكر تقرير
السر سدننى - على وشك استئنافه الهجوم • وقرر الجزار بأشأ ، الواقف الى
جوار سمث ، أن يترك الفرنسيين يتسلقون الثغرة دون معوق ، وكان الكولونيل
فليبو قد بنى خط دفاع آخر خلف الأسوار ، وهناك تحفز الترك للقاء مهاجميهم •
وبينما كان لان ، فى المؤخرة ، لا يزال يهيب برجاله أن يتبعوه مخترقين الثغرة ،
طوق الفرنسيون الذين اخترقوها ودخلوا حدائق الجزار وقتلوا بالسناكى •
وكانت النساء من الأسطح يشجعن الترك بزغاريدهن العالية • وقتل الجنرال
رامبو ، وجرح لان برصاصة • كذلك جرح نفر من الانجليز جراحا مميتة ، وكان
الترك أخطأهم فى الظلام فحسبوه من الفرنسيين ، ولكن سمث تغاضى عن
الحادث فى سماحة • وكف الفرنسيون عن هجومهم بعد خمس وعشرين ساعة
من القتال المتواصل •

وكان السر سدننى على يقين من أن الفرنسيين سيستأنفون الهجوم بعد
قليل • ذلك أنهم فتحوا فى الأسوار ثغرة تتسع لمرور طابور عرضه خمسون
رجلا • والمدينة كما كتب سمث فى تقريره للورد سانت فنست : « ليست ،
ولم تكن فى يوم من الأيام ، محصنة طبقا لقواعد فن الحرب • ولكن يجب أن
ندافع عنها ، وسندافع عنها ، طبقا لكل القواعد الأخرى ، لا لأنها فى ذاتها
تستحق الدفاع ، ولكننا نشعر أن بونابرت ينوى أن ينطلق من هذه الثغرة الى
فتوح جديدة (٦٨) •

فى اليوم التالى ، وهو ٩ مايو ، زحف الجنرال كليبر بلواء فردييه ، بناء على أوامر بوناپرت ، الى عكا تعزيزا لقوات الحصار : لأن بوناپرت استقر رأيه على شن هجوم أخير فى ١٠ مايو . فالثغرة مفتوحة ، وآلاف المسيحيين والدروز فى أرجاء فلسطين كلها أقسموا على الانضواء تحت لوائه . اذن فليبذل هذه المحاولة أيضا عسى أن يتحقق حلمه فى الزحف على الآستانة . ويشير سلوكه فى ذلك اليوم الى أنه كان يسعى اما الى النصر واما الى الموت . ولكنه لم يبلغ واحدا منهما ، وكانت أمثال هذه الحالات النفسية الطارئة لا تلازمه طويلا .

وتلقت مدام بيروس من ولدها الوصف التالى ، ولعل هذه السيدة كانت اعلم نساء كاركاسون قاطبة بالشئون الحربية :

تقرر أن تبدأ الهجوم فرقة كليبر (أى لواء فردييه) . وقاد رئيس ادارة الجيش ، الجنرال فوليه ، طليعة الهجوم ، فقتل على الثغرة . ولكن هذا الحادث السيئ لم يفت فى عضد (نصف اللواء) الخامس والسبعين ، فالتقى رجاله بأنفسهم فى المدينة فى نفس الوقت الذى هاجمت فيه فرقتا رينييه وبون القوات (التركية) خارج الأسوار . ولكن الافتقار الى تنسيق العمليات ، أو ربما جهود العدو ، ثبّطت همة من دخلوا (المدينة) . فأسر الذين لم يقتلوا فى المعركة أو لعلهم ذبحوا ، لأنهم لم يعودوا .

وكففنا عن اطلاق النار حائرين من هذه الفوضى الشديدة . واستراح الجنود هنيهة . وجمع كل الرجال الذين أمكن جمعهم ، ووصل رماة قنابل اللواء الخامس والعشرين. ورماة بنادق اللواء الثانى الى تلك النقطة وأمروا بالنزول الى الخنادق . وحملت حماسة هؤلاء الجنود الجدد وبسائتهم القائد الأعلى على الاعتقاد بأنه يستطيع الأمر بهجوم جديد . وأراد أن يكون أول من يتسلق الثغرة ، واقتضى منعه جهدا غير قليل ، (٦٩) .

ويواصل بيروس وصفه فيقول ان رماة القنابل لم يكونوا فى حاجة لأن يتقدمهم بوناپرت : فقد ألقوا بأنفسهم فى الثغرة « كالمجانين » . وكان الهجوم بغير هذه الطريقة محالا ، لأنه كان لابد لهم ، لكى يصلوا الى الثغرة ، من أن يطاءوا - دون مبالغة - جثث سابقهم المتعفنة ، الذين دفنوا تحت بوصات من القاذورات فى الخنادق . (لأن الجزار أبى غير مرة وقف اطلاق النار للسماح بدفن الموتى كما يليق) . وكانت طبقة التراب الرقيقة قد خفت أثناء قتال الأيام الماضية ، فكان المنظر بشعا والرائحة الكريهة لا تطاق . وقوبل المهاجمون المندفعون كالمجانين عند الثغرة بأفتك نيران مضادة صبت على الفرنسيين فى حصار عكا بأسره . وهنا جرح الجنرال بون قائد الفرقة جرحا مميتا ، وكذلك ياوره كروازييه الذى رماه بوناپرت بالجبن فى دمنهور ، والذى وجد أخيرا ذلك الموت الذى تمناه عشرة شهور . كتب بيروس لأمه مؤكدا « اننى لا أغالى اذا

قلت انه من المحقق أن نصف الجيش هلك. » (٧٠) . فإذا كان يروس يعنى
بعبارة « نصف الجيش » نصف قوة الحصار ، وبكلمة « هلك » قتل أو جرح
جراحا خطيرة ، فانه حقا لم يقال الا أقل مغالاة .

لقد قامر بونابرت بآخر ورقة رابحة وخسر . فما ان صد هذا الهجوم
الآخر حتى قرر أن يتقهقر . فهو لم يقتل ولم يجرح . أما شهوته الطارئة للموت
المجيد في ساحة الوغى فقد اختفت . وراح منذ الآن يسخر كل ذكائه وحذقه
في اظهار هزيمته بمظهر الانتصار .

قرر المؤرخ لاجونكير - على أساس ما وجدته في محفوظات وزارة الحرب
الفرنسية من احصاءات يشوبها بعض النقص - أن خسائر الفرنسيين في الحملة
السورية بلغت على الأقل ١٢٠٠ قتيل بيد العدو ، و ١٠٠٠ ميت بالمرض ،
و ٢٣٠٠ مريض أو جريح جراحا خطيرا (٧١) . وكان الجنود الذين قادهم
بونابرت أكثر من ثلثهم قد مات أو عجز . وأكثر الناس لو أصيبوا بكارثة كهذه
كانوا ينتحرون ، أو يسعون الى عقد هدنة .

أما السر سدننى فقد حسب ، وهو يرى معنوية الجنود الفرنسيين تهبط
الى الحضيض ، أن الفرصة سانحة لشن حرب سيكولوجية . لذلك انهال على
الخنادق أسفل الأسوار في أيام الحصار الأخيرة سيل من المنشورات المطبوعة
بالفرنسية في المطبعة السلطانية بالآستانة . وكان المنشور يحمل خاتم الديوان
السلطاني ، ولكن كاتبه على الأرجح هو السر سدننى . « هل يخامركم الشك
في أن حكومة الادارة حين أرسلتكم الى بلد ناء كهذا ، كان هدفها الوحيد نفيكم
عن فرنسا . . . وأن يلقي كل فرد منكم حتفه ؟ » ذلك هو السؤال الذى وجهته
النشرة الى الفرنسيين الذين قراوها والنتن يفوح من زملائهم المتحللة جثثهم من
حولهم . « فإذا كنتم نزلتم أرض مصر وأنتم فى جهل مطبق من وجهتكم ، وإذا
كنتم قد استخدمتم أداة لانتهاك معاهدة . . . أفلا يكون هذا خيانة وغدرا من
رجال ادارتكم ؟ أجل ، ذلك لا شك فيه . ولكن مصر يجب أن تحرر من هذا
الغزو الفاجر وفى هذه اللحظة يزحف جيش عرمرم ، ويغطى سطح البحر أسطول
ضخم . فعلى الذين يريدون منكم تجنب الخطر الذى يتهددهم ، أيا كانت رتبهم ،
أن يبادروا دون ابطاء بابداء هذه الرغبة لقواد جيش الحلفاء وقواتهم البحرية .
وستضمن لهم سلامة السفر الى أى مكان يريدون . . . فليسرعوا بالافادة من
كرم الباب العالى ورافته ، وليقدروا هذه الفرصة المواتية للهروب من هذه الهوة
السحيقة الرهيبة التى دفعوا فيها دفعا ! » (٧٢) .

وقد أجمعت كل المراجع الفرنسية ، واتفق جميع المؤرخين الفرنسيين ،
على أن منشور الصدر الأعظم أحدث عكس التأثير الذى استهدفه سدننى سمث .
ويؤكد السير سدننى أن الفرنسيين كانوا يتخاطفون النشرات فى شوق ويقرونها

باهتمام ، ولكنه لم يقل لنا ان جنديا واحدا لبي دعوة التسليم . ذلك أن واحدا منهم لم يفعل . فقد أسىء اختيار الألفاظ ، كما يحدث كثيرا في الحروب السيكلوجية ، فلم تفر قراءها ، بل أثارت سخطهم . ولكنها في الوقت نفسه تلبثت في عقول الجنود . ويدل بغض بونايرت الأعمى للسر سدننى ، وما اتخذته بعد أسابيع قليلة من اجراءات شديدة ضد « المهيجين » من جنوده ، على أن المنشور التركى قد أحدث بعض الأثر .

ثم اتجه سدننى سمث الى مخاطبة القائد الأعلى للجيش الفرنسى رأسا ، بالإضافة الى ما أذاعه من نداءات على هذا الجيش . وكان بونايرت قبل خروجه الى سوريا قد أرسل المواطن بوشان ، القنصل الفرنسى فى مسقط ، الذى اتفق وجوده بالقاهرة ، فى مهمة الى الآستانة ، على أن يستقل السفينة التركية الراسية فى الاسكندرية ، والتي صرح لها بونايرت بالابحار لهذا الغرض ، ويعرض على الباب العالى ترتيبا مرضيا ، بشرط أن يوقف كل الأعمال العدائية ضد الفرنسيين . ووردت هذه العبارة ضمن تعليمات بوشان : « لو أنك سئلت هل يوافق الفرنسيون على الجلاء عن مصر ، (فليكن جوابك) ولم لا ؟ » (٧٣) وبالطبع لم تلق مهمة المواطن بوشان نجاحا ، ففى رودس وقع هو وتعليماته فى يد السر سدننى . وفى ٨ مايو ١٧٩٩ أمر السر سدننى بأن يوصل الى بونايرت الخطاب التالى :

« سيدى الجنرال

لما كانت تعليماتك لمبعوثك بوشان تحتوى على هذه العبارة « لو أنك سئلت هل يوافق الفرنسيون على الجلاء عن مصر ، وعلى جوابك « ولم لا ؟ » فانى أعتقد أنه يحسن بى أن أبعث اليك بمنشور الباب العالى المرافق ، وأنتك لن تجده فى غير محله .

ولم أشأ أن أسألك « هل الفرنسيون على استعداد للجلاء عن سوريا ؟ » قبل أن تتاح لك فرصة مقارعة قوتك بقوتنا ، لأنه لم يكن ممكنا اقناعك ، كما اقتنعت أنا ، بالاستحالة العملية لمشروعك . أما الآن ... وفى وسعك أن ترى أن (هذا الحصن) يزداد كل يوم قوة على قوة بدلا من أن يضعفه حصار امتد شهرين : « هل أنت على استعداد لاجلاء جنودك عن أراضى الدولة العثمانية قبل أن يغير تدخل جيش الحلفاء العظيم من طبيعة هذا السؤال ؟ »

ولك أن تثق يا سيدى الجنرال بأن حافزى الوحيد على هذا السؤال هو رغبتى فى حقن الدماء . وتفضلوا ... الخ .

سدننى سمث ..

ولعل السر سدننى لم يقدر كل التقدير أى نوع من الرجال كان يخاطب .
ولعله أيضا لم يكن ليكتب بهذا الأسلوب المتعالى لو أن بونابرت لم يتهمه قبل
ذلك بأيام ، فى أمره اليومى ، بأنه كدس الأسرى الفرنسيين على المراكب الموبوءة
بالطاعون ، وبأنه شريك الجزار فى ذبحه للمسيحيين ، وبأنه أثبت بتصرفاته
جميعها أثناء الحصار أنه مجنون . على أية حال توقف كل اتصال بين الرجلين
نتيجة هذا الحقد الشخصى المتبادل ، وذلك فى اللحظة التى مست الحاجة فيها
لتعاون السر سدننى فى اجلاء آلاف الجرحى وضحايا الطاعون . وبلغ من حقد
نابليون على سدننى سمث أنه ، بعد مضى عشرين عاما ، لم يكن بعد فى استطاعته
أن يذكر اسمه دون أن يردفه بطائفة من النعوت الصارمة .

كثيرا ما يكون التقهقر عملية أشق من الهجوم . أما تقهقر بونابرت من عكا
فانطوى على مشكلتين عويصتين جدا : كيف يجلى المصابين ، وكيف يبعد مسافة
كافية عن مطارديه : فما من شك فى أن الجزار لن يضيع وقتا فى الافادة من
تفوقه . وهناك مشكلة أخرى بالاضافة الى هاتين ، وهى اظهار التقهقر بمظهر
الانتصار .

وفى ١١ مايو ، وهو اليوم التالى للهجوم الأخير الوبيل على عكا ، أمر
بونابرت الأميرال بيريه الذى كان يرابط أمام يافا بأسطول صغير ، أن يرسو
على ثغر طنطورة الصغير (على أميال جنوبى عكا) ويجلى ٤٠٠ من المصابين بجراح
خطيرة . وتجاهل بيريه الأمر قائلا انه لا يستطيع المجازفة بسفنه أمام قوات
سدننى سمث المتفوقة ، ثم ألق عائدا الى أوربا . ولعل هذا القرار لا يشرف بيريه
كثيرا ، ولكن كان من اليسير على بونابرت أن يحصل من سدننى سمث على ضمان
لسلامة مرور سفن بيريه ، لولا أنه آثر ، كما سنرى ، أن يضحي بآلاف من
العجزة والجرحى ومرضى الطاعون الذين كان مسئولوا عن حياتهم ، على أن يسأل
السر سدننى مكرمة . ويقول الكابتن دويجيرو فى يوميته ان رحيل بيريه أوقع
بونابرت فى حيرة شديدة : « كان بونابرت فى غاية القلق (على الجرحى) :
اذ لم يكن أمامه سبيل لنقلهم » (٧٤) . وقسم القائد الأعلى ، فى سلسلة من
الأوامر أصدرها ابتداء من منتصف مايو ، جميع المرضى والجرحى البالغ عددهم
٣٠٠ الى فئات ثلاث : القادرون على السير ، القادرون على الركوب ، والمحمولون
على النقلات . أما جميع القادرين على السير ، بما فيهم الضباط ، فليسيروا على
الأقدام دون مراعاة لرتبهم . ويجب أن تستعمل كل الخيل والبغال والجمال والحمير
لغرض واحد هو نقل المرضى ، فيما عدا الدواب التى تنقل المدافع ، بل تقرر أن
يتترك الجيش جزءا كبيرا من مدفعيته . وأما المصابون بأبلغ الاصابات فينقلون من
يافا الى دمياط على السفن الصغيرة القليلة التى تركها بيريه . ومن العبث تناول
تدابير بونابرت فى هذا الأمر بمزيد من التفصيل ، لأن الواقع الذى حدث فى التقهقر
كان قليل الشبه بالأوامر التى أصدرها ، ربما وهو يعلم تماما استحالة تنفيذها ،

لأن الأوامر المكتوبة على الورق ستبرره أمام التاريخ ، التاريخ المكتوب على الورق ،
والذى كثيرا ما يتجاهل الحقيقة الحية .

وفى ١٦ مايو مات فنتور (*) كبير مترجمى الجيش بالدوزنتاريا (**) وفى
ذات اليوم جرى حديث طريف بين بونايرت والدكتور ديجنيت فى حضور
الجنرال برتية . يقول الطبيب فى مذكراته ان بونايرت قال له فى اقتضاب ،
بعد أن ذكر عدة ملاحظات على موقف الجيش من الناحية الطبية : « لو كنت فى
مكانك لوضعت حدا لعذاب رجالنا من مرضى الطاعون ، وللخطر الذى يتهددونا
به فى الوقت نفسه ، وذلك بإعطائهم (جرعة كبيرة من الأفيون) . ومضى
بونايرت يقول انه لو كان هو نفسه مصابا بالطاعون لرجا أن يسدى اليه هذا
الصنيع . وشعر الدكتور ديجنيت أنه لا يستطيع الموافقة على هذا ، من حيث
المبدأ من ناحية ، وبسبب علمه بارتفاع نسبة الشفاء من ناحية أخرى . فأجاب
ببساطة : « فيما يتصل بى ، يقتضىنى واجبى أن أصون الحياة » . وقال
بونايرت لديجنيت ان هدفه هو أن يصون الجيش . وأضاف : « لن أحاول التغلب
على وساوسك ، ولكنى أعتقد أننى واجد أشخاصا يقدرّون نواياي خيرا
مما تقدرها » (٧٥) . أما الجنرال برتية فقد ظل خلال الحديث كله صامتا يكتفى
بقضم أظافره .

ولم يسم أحد يومها ، ولكن الرواية لم تتم فصولا .

أمر بونايرت بقذف عكا بجميع ما يملك من مدافع ، لا سيما قصر الجزار ،
مدى أربعة أيام متوالية - ١٢ الى ١٥ مايو . وهدفه أولا إخفاء استعداداته لرفع
الحصار ، وثانيا إصابة المدينة بأبلغ ما يستطيع من أضرار ما دام مضطرا لترك
مدفعيته الثقيلة وذخيرته ، وثالثا أن يستطيع أن يعلن على الملأ أنه دمر عكا .
وفى ١٦ مايو كتب لديوان القاهرة أنه على وشك الرجوع من سوريا . وقال :
« وجائب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق . ومحقت سراية الجزار وسور عكا
وبالقنبر هدمت البلد ، ما أبقى فيها حجرا على حجر . . . والجزار
مجروح . . . » .

ثم يتبع هذه الأكاذيب بمزاعم غريبة . ويمضى السلطان الكبير الى الحديث
عن أحوال مصر فيقول : « وانى بغاية الشوق الى مشاهدتكم ، لأنى بشوف أنكم
عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم ، لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة . لأجل
ما يحركون الشر فى وقت دخولى . كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند
شروق الشمس » (٧٦) .

(*) يقول الجبرتي « ومنتوره هذا ترجمان سارى عسكر ، وكان ليبيّا متبحرا ، ويعرف
باللغات التركية والعربية والرومية والطليناني والفرنساوى » ص ٧١ .

(**) كما تقول الوثائق الرسمية ، ولكن أعراض مرضه توحى بأنه ربما كان الطاعون .

واستولى على شيوخ القاهرة شيء من الحيرة وهم يقرعون هذا الخطاب ،
وتساءلوا لم لم يهتم السلطان الكبير بالاستيلاء على عكا بعد أن جعل عاليها
سافلها ؟ ولكن أكاذيبه على افتضاها كانت موجهة الى جماعة من الرجال لا يعرفون
عن فنون الحرب شيئا ، ويعيشون على بعد مئات من الأميال ، وعلى تمام الاستعداد
لإذاعتها على الشعب الجاهل - وهو ما فعلوه في الواقع (*) . ولكن أصعب من
هذا أن نفهم كيف وجد بونايرت في نفسه من الصفاقة ما يجعله يقدم لجيشه
هذا المزيج الشفاف من الأكاذيب الوقحة ، والتهوين من شأن ما عجز عن نياله ،
واضفاء الحواشي البراقة على الواقع الأليم - كما فعل في منشور ١٧ مايو الذي
أعلن فيه التقهقر الوشيك :

« أيها الجند ، انكم عبرتم الصحراء التي تفصل أفريقيا عن آسيا بسرعة
تفوق سرعة أي جيش من العرب .

وقضيتم على الجيش الذي كان زاحفا على مصر ...

وشتتم في السهل الواقع أسفل جبل طابور الجحافل القادمة من كل حذب
وصوب في آسيا والتي تجمعت طمعا في سلب مصر ونهبها .

ان المراكب (التركية) الثلاثين التي رأيتموها راسية تجاه عكا منذ اثني
عشر يوما كانت تقل الجيش الذي أزمع حصار الاسكندرية . ولكن بما أن الجيش
اضطر لنجدة عكا فان أمره انتهى هناك ، وستصحبكم بعض راياته في
عودتكم لمصر .

والآن وقد وطدنا أقدامنا في قلب سوريا ثلاثة أشهر بحفنة من الرجال
لا أكثر ، وبعد أن هدمنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا ، سنعود الى مصر . وأنا
مضطر للعودة اليها لأن هذا هو الفصل الذي نتوقع فيه انزال قوات معادية
هناك .

منذ أيام قلائل كان لا يزال في استطاعتكم الأمل في أن تأخذوا (الجزائر)
باشا أسيرا في قصره ، ولكن الاستيلاء على حصن عكا لم يعد في هذه المرحلة
جديرا بأن تبذل في سبيله ولو أيام قلائل . وأنا الآن أحوج للرجال البواسل
الذين كنت سأخسرهم في هذه المحاولة ، ليقوموا بعمليات أهم .

أيها الجند ، ان مزيدا من الشدائد والأخطار يواجهنا ... وستجدون
فيها فرصا جديدة للمجد . واذا كان في كل يوم من أيام هذه المعارك الكثيرة

(*) يقول الجبرتي ان بونايرت وجه خطابا سريا ثانيا للديوان عدد فيه الأسباب الحقيقية
لرفع الحصار عن عكا ، والراجع أن الجبرتي لم يخلق الخطاب ، ولم يكن القصد من الخطاب
الرسمي الا تبصير الديوان بنوع العناية التي يريدون بونايرت أن يبثوها .

يلقى بطل حتفه ، فان أبطالا جددا يجب أن يقوموا ويحتلوا مكانهم بين الصفوة الذين يتصدرون اخوانهم فى الخطر وينتزعون النصر منه انتزاعا ، (٧٧) .

كان الرجال الذين وجه اليهم هذا الكلام يعرفون أن عكا لم تهدم ، وأن الجيش التركى لم يقض عليه ، وأن الحصار رفع لانهم هزموا . وما من ريب فى أنهم كانوا حفنة من الرجال ، وأنهم أتوا من الأعمال الجبارة ما لا يتصوره العقل ، ولكنهم كانوا يدركون أن نصفهم قتلوا وشوهوا فى سبيل مغامرة يائسة . وربما أفلح منشور بونابرت ، ولو قليلا ، فى رد روحهم المعنوية اليهم ، ولكن أغلب الظن أن هذا الحشد الصارخ من الكذب والنفاق والبلاغة لم يكن موجها اليهم هم بل الى ذلك الجمع العظيم من الحمقى المعروفين باسم « الأجيال القادمة » و « التاريخ » . فماذا يهمه ان هز كل رجل فى جيشه كتفيه بابتسامة ساخرة عند قراءته هذه الأوهام ، ما دام المؤرخون سينقلونها عنه ويبعثون هزات الإعجاب فى قراء أشد سذاجة من شيوخ الأزهر المخدوعين ؟

والإشارة الى السفن التركية الثلاثين تستحق التعليق . فالجنود الذين أقلتهم أنزلوا بمساعدة السر سدننى سمث الى البر ولم يقض عليهم بل كانوا من العوامل الفاصلة فى هزيمته . ولم يقصد بهم قط حصار الاسكندرية . فلما ظهرت القوات التركية الموجهة لهذا الغرض فجأة عند أبى قير بعد ذلك بقليل أسقط فى يد بونابرت ، لأنه اضطر لتفسير ظهور جيش زعم أنه دمره من قبل .

ولكن بونابرت لم تكن تهمة الوقائع الصغيرة والصدق ، فقد كانت عبقريته سياسية أكثر منها حربية ، وكان هدفه أحداث تأثير كلى شامل . ومن ثم صدرت الأوامر فى مايو ، وهو بداية التقهقر ، بأن تسير القيادة مسبقة بجميع الأعلام المستولى عليها ، وأن على أفرادها « كلما مروا بقرية أن يدخلوا بالأعلام منشورة والموسيقى تصدح » (٧٨) .

وقد روى أندريه بيروس لأمه الظروف التى بدأ فيها التقهقر . فكتب لها من القاهرة بعد شهر يقول : « لم يكن لدينا أى وسائل للنقل ، وكان علينا أن نحمل معنا ألفا أو ألفا ومائتين من الجرحى والمرضى ، فضلا عن أربعين قطعة من المدفعية ... أما ما بقى كله من مدافع من جميع العيارات ، ومدافع مورتار ، وقذائف ، وقنابل ، وبنادق وطلقات - أعنى الذخيرة كلها تقريبا - فكان لابد من دفنه فى الحقول وعلى الساحل . ونسفنا البارود الذى تركناه ، وكومنا كل صناديق الذخيرة وأحرقناها فى السهل ... وتمت جميع الاستعدادات لرحيلنا ... وإذا العدو يقوم بهجوم مضاد نشيط فى ٢٠ مايو ، وقد دام اليوم كله تقريبا . وكان إطلاق النار رهيبا . وظل العدو يلقي بنفسه فى خنادقنا ، ولكن رجال فرقة رينيه ... ظلوا يدفعونه ويكبدونه خسائر فادحة » (٧٩) .

وفي الساعة الثامنة ، بعد هبوط الظلام • بدأ الجنود يرحلون • وفي صباح الغد رأى الترك فى عكا أن معسكر الفرنسيين خلا ممن فيه •



اصطنع السير سدننى سمث أسلوب نلسن الكنسى المتميز وهو يكتب له تقريره عن انتصاره : « ان عناية الاله القدير ظهرت ظهورا عجيبا فى هزيمة الجيش الفرنسى وتقهقره العاجل ••• وسهل الناصرة هو الحد الذى انتهى عنده ماضى بونابرت العجيب » (٨٠) • أما الكولونيل فليبو فكان لسوء الحظ عاجزا عن مشاركة السر سدننى فرحته ، ذلك لأنه مات قبل أن يرفع بونابرت الحصار بنحو أسبوع — اما بالارهاق كما أكد سمث ، واما بالطاعون •

ووصل الجيش الفرنسى المتقهقر الى حيفا حوالى نصف الليل • وكتب بيروس لامه يقول : « كنا نرجو أن نعفى من منظر الموتى والمحتضرين البشع ••• واذا نحن نرى فى دخولنا حيفا بالليل نحو مائة مريض وجريح تركوا وسط ميدان فسيح • وملا هؤلاء المساكن اليائسون الجو بصراخهم ولعناتهم ••• وكان بعضهم يمزقون أربطتهم ويتمرغون فى التراب • وجمد الجيش لهذا المنظر • فوقفنا هنيهة ، وعين فى كل كتيبة رجال لحمل هؤلاء المرضى والجرحى بين أذرعهم الى طنطوره ، ثم استأنفنا السير (٨١) •

ومضى ضحايا العناية قدما • وفى طنطورة وجدوا على الساحل ٧٠٠ او ٨٠٠ آخرين من الجرحى ومرضى الطاعون ، « ولم تكن هناك سفينة واحدة تنقل هؤلاء جميعا ، كما قال بيروس (*) • واقتضى الأمر دفن المزيد من المدافع والذخيرة واحراقها لتوفير مزيد من الخيل لنقل الجرحى والمرضى • وفى أثناء القيام بهذه العملية انفجر صندوق ذخيرة فقتل وشوه عددا من الواقفين •

وكفت فرق الموسيقى الآن عن العزف • يقول يورين : « رأيت بعينى رأسى ضباطا مبتورى الأطراف يلقيهم (حمالوهم) عن نقالاتهم ••• ورأيت رجالا مبتورى الأطراف ، ومجروحين ، ومرضى بالطاعون ، أو ربما يشتبه فى اصابتهم بالطاعون ، يتركون فى الحقول ، وكان يضىء لنا الطريق فى سيرتنا المشاعل التى نحرقت بها المدن والقرى والديساكر والمحاصيل الغنية التى حقلت بها الأرض • وأصبح الريف كله شعلة من نار ••• ولم نر من حولنا الا رجالا

(*) تؤكد بعض التقارير المكتوبة فى تلك الفترة أن هؤلاء الرجال اجلسوا بالمراكب عن طنطورة • ولكن الحقيقة أنهم لم يجلسوا ، لأن الأميرال بيريه لم يصدع بأوامر بونابرت • وهذا مثل مشهور لأمر لم ينفذ ، ومع ذلك يعتبره المؤرخون حقيقة واقعة ••

فى النزاع ، وآخريـن يـنهبون ويسلبون ، وغيرهم يحرقون • وكان الموتى على جانب الطريق يقولون بصوت لا يكاد يسمع : « اننى جريح فقط ، ولست مصابا بالطاعون » ، ولكى يقنعوا من يمرون بهم كانوا يفتحون جروحهم ، أو يحدثون بأجسامهم جروحا جديدة • ولكن أحدا لم يصدقهم • وكان القوم يقولون « انه ميت » ثم يعبرون ••••• وكان البحر الى يميننا ، وإلى يسارنا ومن ورائنا الصحراء التى نخلفها ، وأمامنا ألوان العذاب والحرمان التى تنتظرنا » (٨٢) •

وهذا الوصف الذى كتبه بورين • وما هو بالرجل الذى يوثق بكلامه دائما - يؤيده فيه جميع شهود العيان الآخرين •

كان بونابرت قد أصدر الأوامر الصارمة ألا يركب كل قادر على المشى • وفى طنطورة سأل سائس خيله والجيش على وشك استئناف السير : « أى جواد تريد أن تتركب يا سيدى الجنرال ؟ » فضرب بونابرت السائس فى وجهه بسوطه وهو محنق وقال له : « يجب أن يسير الجميع على الأقدام أيها ال ••••• وأنا مثلهم ! ألا تعرف أوامرى ؟ » وأحدثت هذه الغضبة أثرا المطلوب • يقول بورين : « ومن تلك اللحظة تنافس القوم فى أيهم ينزل قبل غيره عن جواده لحمل المرضى ، بشرط ألا يكونوا مصابين بالطاعون » (٨٣) •

ومن القلة المميزة التى لم يفرض عليها السير مونج ، وبرتولليه ، وكوستا ، وكان ثلاثتهم ناقهين من المرض • وقد وضع بونابرت عربته تحت تصرفهم ، وأخذوا معهم رجلين مصابين بالطاعون وزوجه جندى ترضع طفلا • ولم يصب واحد منهم بعدوى الطاعون •

كان مونج ورفاقه يموتون ظمأ رغم ركوبهم • ومروا بالدكتور ديجنيت وكان يمشى ، فقدم لهم زمزميتين من الماء • وشكره مونج ، ثم أعرب له عن حزنه لفتور بونابرت من نحو الطبيب ، ووعد بأن يذكره عنده بكلمة طيبة • وردا عليه بدأ ديجنيت يرتل المزمور الأول بأعلى صوته « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى المجالس الموبوءة لم يجلس » (*) •

وواصل الجيش زحفه الى يافا وسط الريف المشتعل ، الذى أمر بونابرت بتدميره تعطىلا لمطارديه وحرمانا لهم من الزاد • وكان القناصة من الفلاحين يهاجمون الطوابير المتخلفة من اليسار ، وزوارق السر سدنى ترميهم بقنابلها من اليمين • وفى عصر ٢٤ مايو وصلوا يافا ، حيث ذبحوا قبل شهرين فقط ٦٠٠٠ شخص على الأقل • ومكثوا فيها أربعة أيام • وكان هم بونابرت الأول عند وصوله أن يأمر رئيس ادارة الجيش بواييه بالرحيل فى الغد ومعه الرجال المصابون بجراح خفيفة وعددهم ٣٠٠ ، وعدة أسرى منهم عبد الله أغا قائد حامية

(*) فى المزمور « وفى مجلس المستهزئين لم يجلس » (المترجم) •

يافا ، والرايات التركية التي استولى عليها الفرنسيون، ليسبقوا الجيش الرئيسي الى مصر . وقد نص أمر بونابرت على أن يعرض بواييه الرايات التركية في كل قرية ويشهرها علامات على النصر » (٨٤) .

وبين ٢٥ و ٢٧ مايو أرسل مزيد من الجرحى ومرضى الطاعون مقدما بالبر - ماشين أو راكبين أو محمولين كما تقتضى حالهم - وأرسل مئات من الحالات الخطرة بحرا الى دمياط على ست سفن صغيرة لم تجهز اطلاقا لهذه المهمة ، واعترض السر سدننى سمث السفن ووجدتها - كما كتب في تقريره لنلسن : « تعوزها كل الضروريات » ، حتى الماء والزاد . فاتجهت رأسا الى سفن صاحب الجلالة واثقة كل الثقة أنها واجدة النجدة الانسانية ، ولم يخب أملها . وقد أرسلتها الى دمياط حيث تجد مزيدا من العون الذى تحتاج اليه ، والذى لم يكن فى طاقتى توفيره لهذا العدد الكبير . وقد كانت عبارات شكرهم لنا تختلط باللعنات يستنزلونها على قائدهم الذى أثر تعريضهم للهلاك - كما قالوا - على أن يجدد الاتصال الأمين الشريف بالانجليز ، ذلك الاتصال الذى قطعه بزعم باطل خبيث ، مؤداه أننى عرضت الأسرى السابقين (الذين استبدلوا فى عكا) عن عمد لعدوى الطاعون ، (٨٥) . وليس لدينا كلمة واحدة نضيفها لتقرير السر سدننى سمث عن حالة الجرحى الفرنسيين ومعنويتهم ، أو عن اتهامات بونابرت له بما يسمى اليوم حرب الميكروبات ، وكل الدلائل الموجودة لدينا تؤيد تمام صدق السر سدننى سمث .

وفى ٢٧ مايو كتب بونابرت تقريراً عن انتصاراته فى سوريا لحكومة الادارة ، وذكر ما يأتى فى حديثه عن أيام الحصار الأخيرة . بدت الفرصة مواتية لاستيلائنا على عكا ، ولكن جواسيسنا واللاجئين اليينا من جنود الأعداء وأسرانا منهم - كلهم أبلغونا أن الطاعون اجتاح المدينة وأن أكثر من ستين شخصا يموتون به كل يوم . فلو دخل الجنود المدينة . . . لجلبوا معهم الى المعسكر جراثيم هذا المرض الخبيث البشع الذى يثير من الرعب ما لا تثيره جيوش العالم قاطبة ، (٨٦) . أما أن الطاعون اجتاح جيشه هو وكلفه ألف رجل - فذلك ما أمسك عنه التقرير ، كذلك ضرب صفحا عن ضحايا الهجمة الأخيرة : ولا عجب ، فأشياء كهذه يفسد ذكرها أثر ما سماه بونابرت فى الخطاب ذاته « الأحداث المجيدة التى أنجزت فى سوريا فى الشهور الثلاثة الماضية باسم الجمهورية » .

وما كاد بونابرت يفرغ من املاء هذا الخطاب ، أو هذا الافتتاح الصارخ على الحقيقة ، حتى أمر بتسميم من بقى بمستشفى يافا من مرضى الطاعون . ويقول بورين انه زار المستشفى قبل أن يصدر هذا الأمر . « وجاس بونابرت فى سرعة بين العنابر وهو يضرب أطراف حذائه الصفراء بسوط ركوبه . . . (وقال) سيكون الترك هنا بعد ساعات قليلة . فليات معنا كل القادرين على

النهوض ، وسيحملون على المحفات والخيول ، . . . وأعلن صمت الرجال وتبلدهم
التام . . . عن نهايتهم القريبة (٨٧) ، (*) .

وكان قد بقى فى المستشفى نحو خمسين مريضا . فلما رفض الدكتور
ديجنيت أن يكون له يد فى تسميمهم ، حصل بونابرت على المخدر من الحاج
مصطفى ، وهو طبيب تركى من الآستانة وصل الى يافا عقب استيلاء الفرنسيين
عليها . وأعطى كبير الصيادلة روائيه السم للمرضى . وهناك ما يبرر الاعتقاد
بأن مصطفى ، أو روائيه ، أو كليهما ، أعطى الرجال عمدا جرعة غير كافية .
يقول الدكتور ديجنيت : « وألقى بعضهم (المخدر) ، وشعروا بالراحة ، وشفوا ،
وعاشوا ليقصوا ما حدث » (٨٨) . ويؤيد السر سدننى سمث هذه الرواية فى
تقريره لنلسن ، فيقول انه حين دخل الترك يافا ، وجدوا سبعة من المرضى
البائسين قد تركوا أحياء فى المستشفى ، وهم يلقون الحماسة ، وسيعتنى
بهم » (٨٩) . وليس هناك شاهد على أن رجلا واحدا مات فعلا بالسم ، ولكن
ليس هناك شك فى أن بونابرت أمر باعطائهم السم .

وقد قام جدل سخيف حول هذا الحدث . فانهم الدكتور لارى رسميا
ديجنيت بالكذب حين نشر هذه الحقائق بعد ذلك بسنوات . ويميل عباد نابليون
لإنكار القصة برمتها . ولكن تقوم ضدهم شهادة بورين ، وجاك ميلو ، والمارشال
مارمون ، والمهندس مارتان ، وكليبر ، وديجنيت ، والجاويش فرانسوا ، وستة
غير هؤلاء على الأقل . ويؤكد بونابرت نفسه هذه المزاعم أكثر مما ينفىها وهو
يروى قصة الحملة ، فيقول ان السم ترك الى جوار المرضى قبل جلاء الفرنسيين
عن يافا ليستطيعوا تناوله تجنباً للوقوع فى قبضة الأتراك . ومن الصعب أن
نفهم لم أثارت هذه المسألة كل هذا الجدل المشبوب : فحتى لو كان بونابرت
قد أمر بقتل بضع عشرات من مرضى الطاعون الميثوس من شفاثهم رحمة بهم ،
فلا ريب فى أن عملا كهذا يمكن تبريره أكثر من ذبح آلاف من أسرى الحرب ،
وهو ما أمر به فى يافا قبل ذلك بعشرة أسابيع .

وفى ٢٨ مايو أنهى الفرنسيون احتلالهم ليافا بألعاب نارية ، اذ نسفوا
الحصون ثم استأنفوا زحفهم الطويل . كتب السر سدننى سمث لنلسن يقول :
« ان الطريق بين عكا وغزة تنتشر عليه جثث الموتى الذين سقطوا اعياء أو بفعل
جراح طفيفة » (٩٠) ويذكر الكولونيل فيجو - روسيون ، الذى اشترك فى
عملية التقهقر ، سخط الجنود على قائدهم الأعلى « لقد قيل ان (الجرحى) كان
يمكن اجلاؤهم بالبحر ، وان السر سدننى سمث عرض أن يدبر حراستهم الى

(*) كثيرا ما خلط الناس بين هذه الزيارة الثانية لمرضى الطاعون فى يافا ، وزيارة
بونابرت الاولى التى جعلها جرو موضوعا لصورته (انظر الفصل التاسع - ٢) وتؤيد مذكرات
سافارى دوق روفيجو (١ - ١٦١) شهادة بورين .

الاسكندرية ، بل اقترح أن ينقلهم على مراكبه انقاذا لهم من الترك المتعصبين ، ولكن بونابرت - فى رأى الجند - لم يمتنع عن بذل أى محاولة لمفاوضة الانجليز فى الموضوع فحسب ، بل رفض جميع عروضهم : وحمله كبرياؤه أخيرا على تحريم كل اتصال جديد بهم والا كان الاعداء عقوبة المخالف « (٩١) والناس عموما يعتقدون أن جيش نابليون كان يعبد وقد يكون هذا صحيحا فى ايطاليا ، وقد يكون أيضا صحيحا بعد الحملة المصرية ، أما فى مصر فان الجيش كان يكرهه .

واستمر انسحاب الجيش . ودون كليبر حادثا صغيرا فى مذكرته : « التقهقر من عكا . أونباشى . . . وقف بمرضى بالطاعون على الطريق وقطع حزام نقوده . وتوسل إليه المريض أن يترك له الفرنكات الاثنى عشر التى فى حزامه » اننى ان أعطيتها لاعرابى فقد ينقذ حياتى ، وأجاب الأونباشى : « أنت تخدع نفسك » . « اذن فاترك لى الأمل على الأقل » ، وأمره (ضابط) برد الحزام « (٩٢) .

٣٠ مايو : وصل الجيش الى غزة . ٣١ مايو بدأ الزحف خلال صحراء سيناء . أول يونيو : وصل الجيش بعد مسيرة يومين متتاليين فى الصحراء من الشروق الى الغروب ، أو على الأصح سقط اعياء فى العريش على أرض مصرية . ٥ يونيو : استؤنف الزحف فى الصحراء .

ووقف الجيش وقفة قصيرة قرب الغروب . فلما أمر كليبر رجاله بعدها أن يواصلوا السير لم يبدوا حراكا . وتكرر الأمر ، ولكن أحدا لم يتحرك ، وانهاى سيل من الشتائم على رعوس الضباط . وأسرع ياور صوب العصاة . فأوقفوه بسناكيهم ، وعاد الياور جريا الى كليبر . وقال القائد : « اتركهم وشأنهم . دعهم ينفسوا عن غيظهم ويلعنونا ، فذلك هو التفريج الوحيد الذى بقى لهم ، ويجب ألا نحرهم منه . فلنتظاهر حتى بأننا لا نلاحظ عصيانهم وسيأتون - وسترى . فلتمض أمامهم » (٩٨) . وفعلًا قام الجند بعد قليل كأنهم الأطفال المتمردون ، وتبعوا قائدهم .

وفى مساء ٣ يونيو ، وبعد مسيرة تسع ساعات ، دخل الجنود قطيا التى بدأوا منها الزحف على سوريا . وكان وراءهم على الطريق شريط طويل من الموتى رجالا ونساء - لأن عددا من المسيحيين الفلسطينيين شاركوهم تقهقرهم هربا من انتقام الجزار . فلما لاحت لهم مصر تهللوا وغمرتهم الفرحة . وقد وردت هذه العبارات فى ختام يومية الحملة السورية التى كان يكتبها سلاح المهندسين : « ان مصر التى هى غاية منانا تلوح لنا كأنها فرنسا ثانية ووطن آخر ، وذكرياتنا القاسية عنها تتلاشى ، وها نحن أولاء عائدون اليها لنكون مع أصحابنا وزملائنا ، أما آلامنا الماضية فقد نسيناها » (٩٤) .

ولكن ما كل الجنود نسوا آلامهم بالسرعة التي نسيها بها كتاب هذه اليومية . ففي الصالحية أصدر بونابرت في ٩ يونيو أوامر مشددة ضد « المهيجين » في الجيش ، وطلب الى كل قائد كتيبة أن يعد قائمة بأسمائهم ويقدمها للقائد الأعلى ، فاذا ثبتت على « المهيج » جريمة الخروج على النظام ضوعفت عقوبته ، واذا تبين أن « المهيج » مذنب لأنه أضعف روح الجنود المعنوية وهم يخوضون المعركة أو يزحفون في مراحل شاقة طويلة أعدم رميا بالرصاص دون محاكمة . وبفضل هذه الاجراءات الصارمة لم تلبث الروح المعنوية أن ارتفعت ثانية .



دخل بونابرت القاهرة في ١٤ يونيو على رأس معظم القوة الباقية من جيشه . وكان الجرحى والمرضى قد وزعوا بعناية على عدد من المدن اخفاء لحقيقة عددهم . ولم يشترك غير الأصحاء في هذا العود الظافر .

وكانت فعلا أوبة ظافرة ، أخرجها الجنرال ديغا الذي أصدر اليه بونابرت تعليمات مفصلة اخراجا فخما . ودخل الجيش من باب النصر . ونثر في طريقه سعف النخل ، وحمل كل جندي سعة مثبتة في قبعته . وصحب أعضاء الديوان ، والحامية الفرنسية ، والمتطوعون الوطنيون ، وجميع رجال السلطة المدنيين والعسكريين في القاهرة ، الجيش الظافر الى ميدان الأزبكية على أنغام الموسيقى ، بينما نشرت غنائم الجيش من رايات العدو . واكتظت الشوارع بجموع كبيرة . يقول الكابتن ديجيرو ، يبدو أنهم كانوا تواقين لمعرفة عدد من بقى منا على قيد الحياة ، (٩٥) .

لقد لعب كل من شارك في هذا العرض دوره باتقان جدير بالإعجاب ، ولكن أحدا لم ينخدع به .

وبعد عشرة أيام من دخول الجيش المظفر الى القاهرة ، كتب أندريه بيروس ، والذكريات لا تزال حية ، وصفه الطويل للحملة في خطاب لأمه ، وهو الوصف الذي نقلنا منه الكثير في الصفحات السابقة . ويختم بيروس وصفه بهذه العبارات « اليوم يستريح الجيش من تعبته . ولكن منشورا أصدره القائد الأعلى يعلن لنا أن أمامنا مزيدا من المعارك . فمتى يارب نكف عن هذا القتال . . . ان المذكرات التي دونها خلال الحملة السورية صادقة أمينة . ويدلك تقرير القائد الأعلى ، الذي أرفقه مع خطابي ، على مدى الكذب الذي لابد للانسان أن يتورط فيه مادام مشتغلا بالسياسة ، (٩٦) .

الفصل العاشر

اله الحرب واله الحظ

١

عقد بونايرت يوم رحيله عن عكا مجلسا من أركان حربه . وبعد الاجتماع كتب كليبر في يوميته هذه الكلمات « انقشعت كل الأوهام » (١) ولسنا نعلم ما الذى قاله بونايرت حتى يزيل ما بقى لكليبر من أوهام قليلة ، ولكن من السهل أن نرى الآن ونحن نستعرض الماضى ما كان يجول بخاطرهم ، ولم يكن لأعماله التالية من أثر على كليبر الا اشتداد شعوره بانقشاع أوهامه وبالاختقار لبونايرت .

ذلك أن بونايرت - بعد أن خسر لعبته الدامية فى عكا - صمم على العودة الى أوربا فى أول فرصة ، مخافة أن تفوته غنيمة أكبر . ولكى نفهم منطقهم علينا أن نعود عودة قصيرة الى أصول الحملة . فنحن نذكر أن القارة الأوروبية ، حين استقر رأى بونايرت على القيام بالحملة ، كانت فى سلام . وقد أقنعه فحسه للاستعدادات الحربية التى اتخذتها فرنسا ضد انجلترا بأن مشروع غزو الجزر البريطانية مقضى عليه بالفشل ، ولم يكن فى نيته أن يربط بين نفسه وبين الفشل . وكان المخرج الوحيد من هذه الورطة تزعم مغامرة عظيمة أخرى - هى الحملة على مصر . والحق أن المغامرة بدت له عظيمة فى ذلك الحين ، فستكون مصر مسرحا للتاريخ العالمى يسدد منه الضربة القاضية على انجلترا ، ويقيم امبراطورية فى المستعمرات ، ويحدث ثورة فى تجارة العالم . انها مغامرة جديرة به ، وقد رحبت بها الصحافة الفرنسية عام ١٧٩٨ بوصفها بداية عهد جديد .

ولكن تدمير الأسطول فى « أبوقير » وعلان تركيا الحرب على فرنسا ، وعدم ارسال الحكومة الفرنسية المدد للجيش الفرنسى فى مصر ، ثم الكارثة التى حاقت به الآن فى عكا - كل هذا غير الصورة تغييرا تاما ، فلم تعد مصر

مسرحا لتاريخ العالم بل ذبلا له ، بينما توشك القرارات الخطيرة الفاصلة أن تتخذ في أوروبا ، سواء في مباحة القتال أو الاجتماعات التي يعقدها السياسة المتآمرون خفية . ان مصر وآسيا لم يعد فيهما فرص أخرى ، أما أوروبا ، الحقيرة ، التي كان منذ سنة واحدة فقط يتكلم عنها بازدراء ، فقد أغرقته الآن بمجد أعظم . فلو طال بقاءه بمصر لضاعت الفرصة الى الأبد . لقد استنفدت مصر الغرض منها فيما يخصه ، وان كان بقاءها في قبضة فرنسا قد يفيدها بعض الفائدة في حالة المفاوضات للصالح العام .

كان القرار الذي اتخذه بونابرت بينه وبين نفسه بالعودة الى أوروبا مبنيا من جهة على تقديره للموقف في مصر ، ومن جهة أخرى على أنباء تلقاها من أوروبا ، وهي أنباء ذات دلالة على ضالتها . فقبل أن يغادر القاهرة الى سوريا بأيام قابل تاجرا فرنسيا يدعى هاملان وصل أخيرا من تريستا . ومن هاملان هذا عرف بنشوب الحرب في إيطاليا ، وباستيلاء جيش نابلي على روما ، وبإعلان الباب العالي الحرب رسميا على فرنسا ، وبالحصار الروسي التركي على كورفو . وبدا لبونابرت أن حربا عامة تنتظم معظم دول أوروبا وشبكة الوقوع . يقول بورين « في اليوم الذي رحل فيه (الى سوريا) قال انه سيعود اذا وصلتته خلال شهر مارس أنباء مؤكدة بنشوب الحرب بين فرنسا والحلف الأوربي » (٢) .

وفي ٢٥ مارس ، بينما كان بونابرت يحاصر عكا ، تلقى مزيدا من المعلومات من فينان مورفو ، الذي أتاه بخطاب الادارة المؤرخ ٤ نوفمبر (*) . وكانت الأنباء الواردة في الخطاب قديمة ، ومع أن مورفو استطاع أن يبلغ بونابرت معلومات أحدث ، فانه لم يعرف أن الحرب استؤنفت ثانية بين فرنسا والنمسا . على أنه لم يأت يوم ١٨ ابريل حتى كان بونابرت قد عرف من مصدر آخر أن الفرنسيين استعادوا روما واستولوا على نابلي ، وهو تطور جعل الحرب مع النمسا أمرا مؤكدا . ولعل هذا يعيننا على تفسير شوق بونابرت للاستيلاء على عكا بأي ثمن تقريبا ، وذلك ليفرغ من الحملة السورية ، ويعود الى مصر منتصرا انتصارا كبيرا أو صغيرا ، ومنها ينطلق الى أعمال أجل وأعظم .

ولم تسقط عكا ، ولكنه أفلح في إخفاء فشله وراء مظاهر قوية وان كانت رخيصة . وفي ٢١ يونيو ، أي بعد عودته الظافرة الى القاهرة بأسبوع ، أصدر تعليماته للأميرال جانتوم بأن يحتفظ بالفرقاطتين « موريون » و « كارير » على أهبة الاستعداد للاقلاع الى فرنسا . وبهما أبحر فعلا بعد شهرين .

(*) انظر الفصل السابع - (٣) .

أما انفاقه شهرين آخرين بمصر فله مبررات عدة . فهو أولا يأمل أن يستدعى رسميا الى فرنسا ، وكان في نوفمبر الماضى قد أرسل أخاه لوى الى فرنسا فى مهمة ، هى العمل على عودته بالتعاون مع شقيقه جوزف ولوسيان وربما مع تاليران أيضا . وهناك سبب ثان ، هو أنه كان ينتظر مزيدا من الانباء الموثوق بها . أضف الى ذلك أنه لا بد من تحين اللحظة المناسبة التى يستطيع فيها التسلل من الأسطول البريطانى الذى يجوب البحر فى أمان نسبي . وأخيرا ، وأهم من هذا كله ، أنه كان يتوقع نزول جيش من الحلفاء على ساحل مصر . فاذا استطاع صده أمن مصر من الهجوم عدة شهور ، وعاد الى فرنسا بنصر آخر يضاف الى مفاخره . أما الجيش فيبقى فى مصر بالطبع ، فهو قادر على الدفاع عنها سنة أخرى على الأقل ، ويجب المساومة به اذا أجريت مفاوضات الصلح .

على أنه سيمضى فى هذه الأثناء فى حكم مصر كما حكمها من قبل ، وسيسلك كأنه ينوى البقاء فيها أبدا .



والمقدمات المنطقية التى بنى عليها الجنرال كليبر تفكيره هى بذاتها مقدمات بوناپرت . فهو قدم الى مصر لأنه اقتنع بأهمية المشروع ، وأدرك الآن أن الحملة أخفقت فى كل غرض ، الا التمهيد للمرحلة الثانية فى مستقبل الجنرال بوناپرت . واذ كان موقفه من أطماع بوناپرت موقف العداء لا عدم المبالاة فحسب ، فقد بدا له أن الخير كل الخير فى التعجيل بإعادة الجيش الى فرنسا . فالحاجة اليه ماسة فى فرنسا ، وهو فى مصر ينحل شيئا فشيئا . أما التضحية بحياة آلاف الجنود للمساومة بهم فى دنيا السياسة فقد بدت له فكرة واهية بل فظيعة . لقد كان بوناپرت سياسيا حسابا ، أما كليبر فجندى عاطفى . وفى هذا التناقض بين نظرتيهما ومزاجيهما مفتاح كل التصرفات المحيرة التى صدرت عن بوناپرت وكليبر خلال تلك السنة .

٢

لم يواجه بوناپرت ديوان القاهرة بوجه مشرق متهلل رغم ما أعلن له قبل ذلك من أن جميع المتاعب فى مصر ستتبدد لدى عودته كما تنقشع الغيوم أمام أشعة الشمس . قال لهم فى مستهل خطابه « انه قد بلغنى أن الأعداء قد شاعوا على بأننى مت فانظروا الى وأمعنوا النظر ، هل أنا بوناپرت أم لا » (٣) واذا كانت عيونهم لم تقنعهم ، فان أعماله فى الأسابيع التالية لم تترك لهم مجالا للشك فى حقيقة شخصه .

وبينما كان بونابرت يفتقد نصف جيشه في سوريا ، نشر ديزيه السلام في ربوع الصعيد ، وحفظ ديحا وبوسيلج النظام في القاهرة بفضل ما أوتيا من حصافة واعتدال . وقامت الاضطرابات في الدلتا وأخذت قبل أن يعود بونابرت بشمس المبددة للغيوم . فكان هناك حركتا تمرد خطيرتان ، بالإضافة الى غارات البدو وكماثن الفلاحين العادية . ولم تفض الحركتان الى نتيجة سوى المذابح المألوفة ، ولكن دلالتها في أنهما أظهرتا قلق الأهالي المستمر ، وضعف سيطرة الفرنسيين .

أما أقل الحركتين شأنًا فالمعرض عليها مصطفى أمير الحج، الذي كان مفروضا أن يتبع بونابرت الى سوريا مع قاضي القاهرة وعدة شيوخ وحرس من الانكشارية المغاربة . ولكن أمير الحج تعلل ببعض الأعذار ، وبدلا من أن يذهب الى سوريا أخذ يطوف باقليم الشرقية وجمع بالرشاوى نحو ٢٠٠٠ بدوى هاجموا قافلة فرنسية ، وكانوا مصدر تهديد لخط تموين الفرنسيين في الطريق لسوريا . ولما انتفى كل شك في خيانة مصطفى ، أرسل ديحا عدة فصائل لتعقبه هو وحلفائه . وكان شيوخ القاهرة قد هربوا من مصطفى الآن - بدافع الحيطة أكثر من الولاء للفرنسيين - ولم يبق معه سوى القاضي عسكر ، أو قاضي قضاة القاهرة ، بين الأعيان (وكان القاضي تركيا عثمانيا كأمر الحج) . ولما اقتربت قوات الفرنسيين التأديبية اختفى أيضا حلفاء مصطفى من البدو حاملين كل ما أعطاهم من مال . أما مصطفى فيذكر تقرير الجنرال لانوس أنه اتخذ الطريق الى سوريا واتفق شعر لحيته ياسا ، (٤) وغنى عن القول أنه لا الأمير ولا القاضي انضما الى بونابرت في سوريا .

ولم يمنح شيوخ القاهرة أمير الحج تأييدهم وان عطفوا عليه ، لأنهم قوم حذرون . ولكنهم في الوقت نفسه متمسكون بالتقاليد ، اذ لم يقبل الشيخ العريشى - وهو شيخ مصرى - منصب القاضي الهارب الذي كان يشغله الترك منذ أمد بعيد ، الا بعد ضغط شديد .

أما أخطر الحركتين فقد نشبت في الاسكندرية وكان المعرض عليها رجل متعصب يدعى أحمد ، وهو فقير أو درويش من درنه بليبيا ، ادعى أنه المهدي المبعوث لقيادة المؤمنين في القضاء على الكفار .

وسرعان ما أثارت مواظ المهدي بدو البحيرة وفلاحها السذج في الاقليم كله . وراح هذا الدرويش المجرد من الثياب تقريبا ، المختلط العبارات ، يدهش سامعيه بدعاوى جريئة لا يتوقعونها الا من نبى صادق : فهو يزعم أنه يستطيع احالة الفرنسيين الى تراب بمجرد النظر اليهم ، ووقف قذائف المدافع في الهواء ، ومنع المدافع من الانطلاق بنفخه أنفاسه صوبها ، وتحويل كل ما يمسّه الى ذهب : أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذي أتباعه ، وأما جسده فروح خالص ،

وهو يقتات على غمس اصبعيه فى ابريق لبن مرة فى اليوم ودعك شفتيه بهما ، وأضاف الى هذه المزاعم دعوى أخرى هى أنه ابن ملك المغرب . واستهوت صفات المهدي الفلاخين وعرب الصحراء فجنده منهم عدة آلاف . واستولوا على دمنهور ليلة ٢٤ - ٢٥ أبريل ، وذبحوا الحامية الفرنسية ، ثم زحفوا على الدلتا . وأدركتهم حملة تأديبية فرنسية فى دمنهور فى ٩ مايو . وتبين أتباع المهدي خطأهم فى أول لقاء لهم برصاص البنادق وقذائف المدافع ، ففروا الى الصحراء ، وصب الفرنسيون انتقامهم على الأهالى كالعادة . وكتب الجنرال لانوس الى ديجا يقول : « ان دمنهور زالت من الوجود ، وقد أحرق أو ضرب بالنار ألف ومائتان الى ألف وخمسمائة من أهلها » (٥) ولا يعرف على التحقيق هل فر المهدي نفسه أم سقط بين الضحايا .

وثورة المهدي تذكرنا بقصة قصيرة كتبها بونايرت فى التاسعة عشرة وهو لا يزال صاحب طموح أدبي . وتروى هذه القصة ، واسمها « النبي المقنع » خاتمة نبي يدعى حكيم ، من أهل القرن الثامن . وقد غطى حكيم هذا وجهه بقناع فضى ليخفى عاهته بعد أن أصيب بالعمى فى معركة مع رجال الخليفة وزعم للناس أنه لو نزع هذا القناع لأعشى سنا نوره كل من يتطلع اليه . ثم حمل أتباعه على حفر بئر عميق يقع فيها أعداؤه حين يهاجمونه . فلما حفروا البئر دعاهم لوليمة ، دس لهم فيها السم جميعا ، وجر جثثهم الى البئر ثم أشعل نارا عظيمة ليحرقها وألقى بنفسه فى النار . ويختم بونايرت الشاب القصة بقوله « وهذا مثل عجيب للشطط الذى يمكن أن يدفع الانسان اليه جنون الشهرة » (٦) . وهى قصة غريبة ، وتبدو أغرب اذا عرفت سيرة مؤلفها فيما تلا ذلك من حياته .



ومع أن حركتى التمرد قد أخذتا قبل عودة بونايرت ، فقد ظلت الكمائن تتربص بالفرنسيين وظلت قوتهم تتعرض للغارات ، وعاد مراد بك مرة أخرى الى القتال . أما الطاعون فخفت وطأته ولكن الجدرى كان يتفاقم ، وأخذت القوات الفرنسية تتضاءل تضاؤلا محققا وإن كان بطيئا . وقد اعترف بونايرت فى تقريره الذى كتبه لحكومة الادارة فى ٢٩ يونية بأنه فقد ٣٤٤٠ رجلا منذ بداية الحملة (أى نحو ١٥٪ من قواته البرية) وأنه يتوقع أنه لن يبقى فى ربيع ١٨٠٠ سوى ١٥٠٠ منهم ٣٠٠٠ لا يصلحون للقتال . ونظرا لما وقع من جدال عنيف بينه وبين كليبر (الذى لم يستطع الرد لأنه ميت) فانه يحسن التنبيه الى هذه الأرقام التى قدمها بونايرت نفسه . وللمرة الأولى ذكر وباء الطاعون ، وللمرة الأولى طلب مددا - حبه الأدنى ٦٠٠٠ رجل .

ثم لجأ في الوقت نفسه لكل طريقة ممكنة ليزيد قواته . ففضلا عما طلب من شحنات العبيد السود من سلطان دارفور ، أصدر تعليماته بأن يكلف الجنود العجزة بالأعمال الادارية كلما أمكن ذلك ، وأن يدخل الموظفون الاداريون في الجيش بعد اعفائهم من واجباتهم الادارية على هذا النحو . وفي الوقت نفسه اهتم اهتماما فجائيا بمصير الجنود الفرنسيين المعتقلين في القلعة لشتى الجرائم ، وأمر بإعادة النظر في الأحكام الصادرة عليهم . وهدفه الواضح هو رد أكبر عدد ممكن منهم للخدمة العامة . ولم يكن مثل هذا الحنان في طبعه .

أما المسجونون المسلمون في القلعة فقد أنهى بونايرت متاعبهم بحل حاسم على بساطته . فأمر بين ١٩ و ٢٢ يونيو بأن يرمى بالرصاص اثنان وثلاثون منهم دون اتخاذ أى اجراء قانونى سوى توقيع بونايرت . وكان بعضهم أسرى حرب أخذوا في سوريا ، استنفدوا أغراضهم بمجرد أن عرضهم في موكب نصره ، وغيرهم أتباع أمير الحج ، وبعضهم مماليك عادوا الى القاهرة دون أن يشتروا الأمان من السلطات الفرنسية . أما المبررات التى اختلقها بونايرت لكثير من أحكام الاعدام فهى تبدو مقتضبة بعض الشيء . « محمد التار ، المتهم بالطعن في الفرنسيين لعدم . . . عليك أيها المواطن الجنرال (ديجا) أن تأمر بإعدام الرجال السبعة في سرية عمر (الأنكشارية) الذين أبلغتني أنهم أشخاص صخابون » (٧) . وفي ٢٣ يونيو اقترح ديجا - وهو بطبيعته رجل رحيم ولكن يبدو أن صبره فرغ - على بونايرت هذا الحل : « بما أن حالات الاعدام تتزايد في القلعة فاني أريد أن أعين جلادا (يقطع الرؤوس) ليحل محل فرقة اطلاق النار . وفي هذا توفير للذخيرة وتخفيف للضجة » . وأشر بونايرت في الهامش « موافق » (٨) .

ولكن أعجب حكم بالموت في هذه السلسلة البشعة من الأحكام كتبه بونايرت في ٨ يوليو : « عليك أيها المواطن الجنرال بقطع رأس عبد الله أغا ، حاكم يافا السابق المعتقل في القلعة . فهو استنادا الى كل ما قاله لنا عنه أهل سوريا وحش يجب أن يمحي من ظهر البسيطة » (٩) .

وقد يذكر القارئ أن عبد الله أغا كان قائد بضعة آلاف من الترك الذين أمر بونايرت بذبحهم دون استفزاز على ساحل يافا . وقد أبقى على حياته ليشرح الجزار باشا على الاستسلام ، وليعرضه على أهل القاهرة في موكب نصره . واذ لم يتخذ في محاكمته أى اجراء قانونى فانه لم يثبت قط ماذا كانت جرائمه في سوريا ، أو هل الفرنسيون مختصون بادانته عليها . وقد قطع رأسه في ٩ يوليو .

كانت الرؤس لا تزال تتهاوى في القلعة حين دعا بونايرت في ٢٩ يونيو أول جلسة للمجمع العلمى المصرى عقدت منذ رحيله . وكان المجمع قد فقد ثلاثة من أعضائه - كفاريللى وفتتور وهوراس - وكلهم مدفونون تحت أسوار

عكا . على أن بونايرت لم يحضر الجلسة ليرثى الموتى ، بل ليعين لجنة تضع تقريراً عن الطاعون الدملي في سوريا . وألمع في وضوح إلى أن الهدف من اللجنة القاء تبعة فشل الحملة على هذا الوباء . أما الرجل الوحيد الذي كان يستطيع الكلام في هذا الموضوع بشيء من العلم واليقين ، وهو الدكتور ديجنيت ، فلم يعين في اللجنة . وأباح بونايرت لنفسه في النقاش الذي تلا الاقتراح أن يتندر تندراً رخيصاً على حساب الأطباء . وقفز ديجنيت على قدميه وأعلن رأيه صراحة « في عنف أذهل الحاضرين الكثيرين » فقال إن جريمته هي أنه رفض إعطاء السم لضحايا الطاعون في يافا ، ثم إن هناك أشياء أخرى أغفلها الجنرال ذكرها لاستخفافه بكل مبادئ الفضيلة . ومضى ديجنيت ، غير عابئ بمحاولات بونايرت ومونج لاسكاته ، ينفس عن غيظه المكتوم من « التملق المرتوق » و « الاستبداد الشرقي » و « الحرس المسلح الموضوعين في دار جمعية مسالمة من العلماء » . وما إن وصل إلى هذا حتى كانت الجمعية المسالمة من العلماء على وشك التضارب . وواصل ديجنيت حديثه في صوت أهدأ : « اننى أعلم أيها السادة ، وأعلم أيها الجنرال - أنك تتخذ هنا صفة غير صفة العضو المجرد من أعضاء المجمع ، وأنت تريد أن تسيطر على كل شيء - وأعرف أننى انسقت مع عواطفى ، وأننى قلت أشياء سيكون لها صدى أبعد كثيراً من هذا المكان . ولكننى لن أسحب كلمة واحدة مما قلت وانى ألوذ بعرفان الجيش بصنيعى » (١٠) .

وبعد هذا المشهد العاصف مباشرة طلب ديجنيت الاذن بالعودة الى فرنسا لسواع صحية وعائلية ، ولكن بونايرت رفض طلبه ، فمكث الطبيب بمصر حتى سلمت الحملة في ١٨٠١ . ولم يتخذ بونايرت أى اجراء غير هذا ضد ديجنيت . فهو كما قالت مدام دستار فيما بعد ، « رجل تسكته المقاومة الصادقة . وجناية الذين احتملوا طغيانه ليست أقل من جنايته » (١١) .

بينما كان بونايرت يقتل الوقت في القاهرة مترقبا شيئاً يصنعه ، ويوقع عقوبات الاعداء (على السوريين والمصريين) ، ويقضى الليل في فراش مدام فوريه ، ويأمر بجمع الضرائب الباهظة ، ويناقش موضوع الطاعون ، كان مراد بك برجاله المائتين أو الثلاثمائة يتملص ضيقاً بالبقاء في الواحة الخارجة حتى غادرها . واستطاع بسلسلة مذهلة من الخدع والتعرجات أن يروغ من جميع القوات التي أرسلت لاعتراض طريقه ، ودخل اقليم البحيرة فوجده هادئاً هدوءاً مخيباً لآماله بعد هزيمة المهدي ، ثم عاد أدارجه ليرابط قرب أهرام الجيزة . وكان هدفه ولا ريب الانضمام الى القوات البرية التركية التي أحيط علماً بقرب وصولها من البحر . ويبدو أن مراداً وزوجته تبادلوا في ١٣ يوليو

الحديث بالإشارات من قمة هرم خوفو وسطح قصرها بالقاهرة . فلما علم بونابرت بالأمر قرر أنه قد يحسن به أن يتولى بشخصه الإشراف على مطاردة هذا الأمير الرواغ مادام غير مشغول بما هو أهم . فالتبض على من يستعصى على القبض قديضيف مفخرة لمفاخره .

وفى ١٤ يوليو نقل بونابرت مقر قيادته الى الأهرام ، وبالطبع كان مراد قد رحل . وفى صباح اليوم التالى تلقى بونابرت وهو معسكر بالأهرام نبأ من الاسكندرية ينبئه بأن أسطول تركيا وصل الى الشاطئ ، وأنه على وشك أنزال جيش يقدر بنحو ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ رجل . وهذا هو الجيش الذى ادعى فى النشرات التى أذاعها من عكا أنه دمره : كذلك كانت تلك فرصته التى يتربها . فلم يضيع لحظة . وبعد أن أملى سلسلة من الأوامر لقواد الجيش المنتشرين فى جميع أرجاء مصر ، فض المعسكر فى الساعة ١٢٣٠ مساء بعد ثلاثة أيام كان فى الرحمانية على مائة ميل الى الشمال يحشد قوة ضاربة ضد الترك . ويكاد يكون ضبط توقيته ، وسرعة تنفيذه ، وإدراكه الحافظ لجميع العناصر الأساسية فى الموقف - يكاد هذا كله أن يكون ضربا من المعجزات .

فى اليوم الذى كان بونابرت يبحث فيه عن مراد فى الأهرام ، رست خمس بوارج تركية ، وثلاث فرقاطات ، وخمسون أو ستون ناقلة ، أمام خليج أبى قير وبدأت تنزل جنودها على الساحل . وكان يرافقها عدة مراكب بريطانية يقودها الكومودور سدننى سمث . واقتحم الترك معقلا فرنسيا الى الشرق من قرية أبى قير ، وذبحوا المدافعين عنه وعددهم ٣٠٠ ، وفرضوا الحصار على الحصن الواقع فى قمة شبه الجزيرة ، ولم يكن يدافع عنه غير ٣٥ من الفرنسيين ، ونصبوا معسكرهم هناك وبعد ثلاثة أيام سلمت حامية الحصن بعد أن انتظرت عبثا وصول الجنرال مارمون بالمدد من الاسكندرية . ولكن الترك ، حتى بعد هذا ، لم يتخذوا خطوة أخرى ، بل اكتفوا بالتحصن هناك . أما ما كان قائدهم مصطفى باشا صارى عسكر الرميلى - وهو رجل أبيض اللحية وقور - ينوى عمله بهذا فلا يزال سرا . فالمركز الذى اختاره قوى ، ولكن قصارى ما يستطيع أن يصنعه فيه هو أن يطرد منه أو يجوع .

وبينما كان الترك قاعدين ، تحرك الفرنسيون . وفى ٢٤ يوليو ، أى بعد أن تلقى بونابرت نبأ نزول الترك بتسعة أيام ، كان قد حشد ما يقرب من ١٠٠٠٠ جندي فرنسي قرب أبى قير . ومع أن فرقة كليبر لم تكن قد وصلت نقطة الملتقى ، فان بونابرت أصدر الأمر بالهجوم فى صباح الغد . وقد يبدو هذا تهورا - أو مغالاة فى الجرأة - فى نظر من يصدقون الأرقام التى ذكرها بونابرت بعد ذلك تقديرا لقوة الجيش التركى ، ولكنه يبدو أمرا عاديا جدا

إذا أدركنا أن عدد الترك كان فى الواقع مساويا لعدد الفرنسيين ان لم يكن أقل ، وأن الترك لم يكن لديهم خيالة ، فى حين كان لدى بونايرت ألف منهم (*) .

وفى الليل دعا بونايرت الجنرال مورا قائد الخيالة لحيمته . وبعد أن ناقش معه خطط الهجوم قال « هذه المعركة مستقر مصير العالم » . وذهل مورا ، ثم أجاب « انها على أى حال مستقر مصير الجيش » (١٧) . ولم يكن هذا ما يضمرة بونايرت ، فقد كان يفكر فى فرنسا ، وقد بدأ يعتبر مستقبله وتاريخ العالم شيئا واحدا .

وبدأ الفرنسيون هجومهم فى الصباح الباكر . وكان مركز الترك قويا . فهناك ثلاثة خطوط دفاع متعاقبة تقطع عنق شبه جزيرة أبى قير ولا تسمح الا بهجوم أمامى مباشر ، وهناك التأييد القومى الذى يأتهم من الزوارق الحربية أمام الساحل . ولكن المركز كان فى الوقت ذاته محفوقا بالخطر ، لأنه لم يدع للترك مجالا للتقهقر الا الى الحصن الصغير القائم على رأس شبه الجزيرة ، أو الى البحر . والفضل الأكبر فى انتصار بونايرت راجع لعنف هجومه الذى أكره الترك على الارتداد رغم أن مقاومتهم كانت غاية فى البسالة . وأتت اللحظة الفاصلة عقب الظهر بقليل ، حين هجمت خيالة مورا بسرعة وقوة أوصلتها الى الحصن فى دقائق معدودة بينما كانت كتيبتا المشاة اللتان يقودهما لان لاتزالان ترحزان الترك من معقلهم الرئيسى . وهنا أخذت المعركة تستحيل الى مذبح . وأفلح بضعة آلاف من الترك فى الوصول الى الحصن ، وقتل نحو ألفين بالسيوف والسناكى ، وحاول ضعف هذا العدد على الأقل السباحة الى سفنهم ، فغرقوا أو رموا بالرصاص من الشاطئ . ومن القلائل الذين أفلحوا فى الوصول الى سفنهم ضابط شاب اشتهر بعد سنوات قليلة ، وهو محمد على مؤسس الأسرة المالكة ، التى ختمها الملك فاروق ختاماً غير مشرف .

وما حلت الساعة الواحدة حتى انتهت المعركة . وكتب بونايرت لديجا يقول « انها من أجمل المعارك التى شهدتها » ، ولكنه فى تقريره لرجال الادارة وصفها بأنها « أروع منظر شهدته » (١٤) .

ومورا - فى أكثر الروايات - هو الذى قبض بشخصه على القائد الأعلى التركى . وقبل أن يسلم مصطفى باشا أصاب بمسدسه فك مورا الأسفل ،

(*) كتب مصطفى باشا لحكومته عشية المعركة « ليس لدينا سوى ٧٠٠٠ رجل صالحين للقتال » . ويذكر بونايرت نفسه فى خطابه المؤرخ ٢٨ يوليو لحكومة الادارة ان ٩٠٠٠ تركى قتلوا ، وهذا معناه الجيش التركى بأسره تقريبا . ولم يرفع هذا الرقم الى ١٨٠٠٠ الا فى تقريره الثانى (المؤرخ ٢ أغسطس) . ويقدر السرمدنى سمث قوة الجيش التركى بسبعة آلاف ، ويقدرها سكرتير سمث بثمانية آلاف الى تسعة ، وكليبر بتسعة . ولكن كل كتب التاريخ والمراجع مازالت تصر على قبول تقدير نابليون المغالى فيه ، وهذا مثال على أن الكذب يفيد .

ولكن مورا أطاح السلاح من يد الباشا بسيفه وأطاح معه أصبعين من يده .
واستقبل بونايرت الباشا المهزوم بأدب جم ، بل انه ضمد يد الشيخ بمنديله -
وهو تلتف لم يضع سدى ، لأن مصطفى باشا أسدى للفرنسيين أكثر من
صنيع قبل أن يموت بعد ذلك بعام .

أما الحصن فقد واصل المقاومة فيه نحو ٢٥٠٠ تركي يقودهم ابن مصطفى
باشا . وفي صبيحة اليوم التالي لانتصار بونايرت زار الباشا الأسير في خيمته ،
وأقنعه بالانضمام اليه في دعوة الحامية الى التسليم ، واعداد رجالها بسلامة
الوصول الى المراكب التركية . ووافق ابن الباشا وكبار ضباطه على الاقتراح ،
ولكن الجنود تمردوا وأصروا على الدفاع الى آخر رمق من حياتهم ، لأنهم
تذكروا ما فعله بونايرت في يافا . وقاوموا أسبوعا رغم ما كبّدوا من مشاق
لا تصدق . وأخيرا ، وبعد أن مات منهم ألف - وحاول الكثيرون أن يشربوا
ماء البحر بعد أن ذهب الظمأ برشدهم - خرج الباقون في ٢ أغسطس . يقول
الجاويز فرانسوا : « كانوا أشبه بالآشباح » وانحنوا كلهم وطلبوا الموت .
وأعطيناهم الماء والطعام ، (١٥) وأقبل الأتراك في نهم شديد على الطعام ، فمات
منهم ٤٠٠ بسوء الهضم ، حتى قبل أن يرحلوا الى الاسكندرية .

وفقد الفرنسيون في قتال ذلك الأسبوع ٢٢٠ قتيلًا ونحو ٧٥٠ جريحًا .
وهي خسائر قليلة اذا قيسست بخسائر الترك ، ولكن الترك كانوا يستطيعون
تعويض خسائرهم بسهولة ، في حين لا يستطيع الفرنسيون ذلك . كتب
سدني سميث للورد نلسن يقول : « يطيب لنا في هذه الظروف المنحوسة أن
نلاحظ أن خسائر العدو بلغت مبلغا ستقضى معه انتصارات قليلة أخرى كهذا
الانتصار على الجيش الفرنسي » (١٦) ومعنى هذا بعبارة أخرى أن كل ما على
انجلترا أن تفعله هو أن تضحي بنحو ١٠٠٠٠٠ تركي آخرين ، فلا يبقى
بعد ذلك فرنسي واحد في مصر .

كتب السرسدني تقريره لنلسن في ٢ أغسطس ١٧٩٩ . وكان نلسن قد
أمل في ٢ أغسطس ١٧٩٨ ، في أبي قير هذه نشرة النصر التي بدأت بهذه
العبارة « ان الله العلي القدير قد جعلني الأداة السعيدة في تدمير أسطول
العدو » ولكن السرسدني في تقريره عن معركة أبي قير الثانية لم يكن لديه
ما يقوله عن الاله العلي القدير ، الذي خذله هذه المرة ، فكتب بدلا من ذلك
يقول « يؤسفني أن أحيط سيادتكم علما بهزيمة الفرقة الأولى في الجيش
العثماني هزيمة كاملة » (١٧) وكان الدور الآن على بونايرت ليستعين باسم
«اللي القدير عبثا » فقد تلقى تهاني الديوان على انتصاره حين عاد الى القاهرة
في ١١ أغسطس . ولكن فرحة الشيوخ المفتعلة لم تخف فزعهم : فقد

عقدوا الآمال على تدمير الجيش التركي للفرنسيين • وأخذ بونايرت يرقبهم
فى فتور وترجمانه يقرأ عليهم رسالته • وأذهله انزعاجهم • أجل أفلم يخبرهم
المرّة بعد المرّة بأنه مسلم صادق لا غش فيه ، وأنه يكره المسيحيين الذين أطاح
بمذابح كنائسهم وصلبانهم ، وأنه نبذ ديانتة الأولى ؟ آكان الله يهبه النصر تلو
النصر لولا أنه أدواته المختارة ؟ ومع ذلك ورغم ذلك كله ، فما زال الشيوخ
يصرخون فى عناد على التشكك فى اخلاصه - ولكن سيأتى اليوم الذى فيه
«تفتشون على عظام الفرنساوية وتبكون عليها» •

ومضى الشيوخ فى تشككهم بينهم وبين أنفسهم ، على الرغم من انزعاجهم
وخوفهم من هذه الغضبة • ويذكر نقولا الترك أنهم كانوا يقولون : « كل هذا
خداع ومخاتلة لبينما يملك ، وأما هو نصرانى ابن نصرانى » (١٨) •

وبينما كان بونايرت يوبخ الشيوخ على ارتيابهم فى صدق نيّاته ، كان
يتخذ العدة سرا لرحيله عن مصر • وبعد أسبوع رحل ، وبعد عام أعاد الكنيسة
الكاثوليكية الرومانية الى فرنسا •



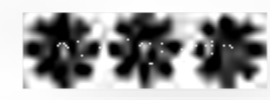
كان بونايرت قد أرسل عقب انتصاره فى أبى قير ضابطين الى السفينة
البريطانية « تيجر » ليتفقا على تبادل الأسرى مع السر سدننى سمث •
وأهداهما السر سدننى سمث - الذى لا تفوته المجاملة والتلطف - مجموعتين
من الصحف الأوربية • وقرأ بونايرت فى هذه الصحف الأنباء حتى ١٠
يونيو - وهى بالضبط الأنباء السيئة التى يترقبها : ففى كل جبهة كانت
فرنسا على شفا الكارثة • فى هذه اللحظة قرر بونايرت كما زعم فى روايته للقصة
- تلك الرواية التى يرددها كاللبغاء كل كتاب تاريخ مدرسى تقريبا - أنه لابد
عائد الى فرنسا لينقذها من الهزيمة والفوضى اللذين تدفعها اليهما حفنة من
المحامين ورجال السياسة •

وفى هذه الرواية من الصدق قدر يكفى لتزكيته عند المؤرخين الذين
يحبون أن يعرضوا حقائقهم ببساطة • فسمث فعلا أرسل الصحف الى بونايرت ،
والأنباء فعلا كانت سيئة ، وبونايرت عاد فعلا الى فرنسا وأنقذها من الفوضى
والهزيمة • ومادام قد نجح ، فهو اذن صادق • (والمؤرخون يتسامحون مع
الناجحين ويعنفون على الفاشلين ، وفى هذا ، وفى هذا فقط ، يبدون نجاسة
سياسية قوية) • أما حقائق الموضوع فهى بالطبع أن بونايرت كان يترقب
هذه الأنباء ليرحل عن مصر ، وأن عبارات الانزعاج والأسف التى أبداهها بسبب
عدم كفاية القوادى والساسة الفرنسيين كانت مع صدقها تخفى قدرا من الابتهاج
لا يقل قوة : وأنه كان يخشى أن يسبقه أحد الى قطب الكمثرى التى نضجت

وكانت في انتظاره . وكتب الى رجال الادارة يقول ان اقتناعه بحاجة فرنسا اليه يدفعه الى المغامرة بخطر الوقوع في قبضة البريطانيين ، وأنه لو لم يجد فرقاطيه اللتين ستعودان به الى فرنسا لالتف بمعطفه وقطع الرحلة في قارب شراعى .

ولا معنى للسؤال عن دافعه الى العودة ، أهو رغبته في انقاذ فرنسا أم في انقاذ مستقبله . فدوافع المرء يجب الحكم عليها من واقع خلقه كله . أما بونابرت فهو ينظر الى نفسه والى فرنسا على أنهما شيء واحد . فهو لا يستطيع العظمة بدونها ، وهو سيجعلها عظيمة . ومرة قال « ان السلطة خليلتى » ، ومرة أخرى قال لنفس السائل « ليس لى سوى غرام واحد ، وخليلة واحدة ، هي فرنسا . ففي فراشها أنام . وهى لم تخنى قط . . . فاذا احتجت الى خمسمائة ألف رجل وهبتهم لى » (١٩) . وفرنسا والسلطة هما اسمان مختلفان من أسماء التدليل أطلقهما على عشيقة واحدة ، وفي سبيل الظفر بهذه العشيقة هو الآن موشك على الرحيل عن مصر وترك جيشه ، بالضبط كما يدع المحب غراما عابرا فى سبيل حب عظيم .

وبالطبع حكم الآخرون على عمله هذا فى ضوء مختلف . وقال بعضهم ان هذا هروب . وحق بونابرت أو عدمه فى العودة بمفرده ، ودون اذن صريح من حكومته ، مسألة يمكن أن يطول الأخذ والرد فيها دون الوصول الى نتيجة . ولو حاكمته محكمة عسكرية على هذا العمل لاستند حكمها على دواعى المصلحة أكثر من دواعى العدالة . ويمكن أن يعفى بونابرت أدبيا من مسئوليته أمام حكومة اكتفت بإعطائه المشورة الغامضة دون المعونة ، فتختزل المشكلة فى هذه الحالة الى سؤال بسيط هو : أمام من كان بونابرت مسئولا - أمام ماسماه مصيره ؟ ، أم أمام جنوده ؟ لقد أجاب القائدان - بونابرت وكليبر - عن هذا السؤال فى وضوح لا لبس فيه ، كل عن نفسه .



من الأنباء التى استفادها بونابرت من الصحف التى أرسلها اليه سدنى سمث ، أن القتال نشب بين فرنسا والنمسا منذ شهر مارس ، وأن الأرشيديوق شارل طرد فرنسا من ألمانيا والمارشال سوفاروف من إيطاليا ، وأن الحكومة الفرنسية تتعاقب عليها الأزمات السياسية والاقتصادية ، بحيث أصبح من المحتمل أن تنهار الجمهورية انهيارا تاما . أما فى الناحية الايجابية ، فقد أخاط علما بأن أسطول الاطلنطى الفرنسى الذى يقوده الأميرال بروى وزير البحرية دخل البحر المتوسط وأنه فى طولون ، وأن أسطولا اسبانيا صغيرا يقوده الأميرال مازاريدو غادر قادس ورسا عند قرطاجنة . ولعل هذا النبأ الأخير الذى يبشر بعمل مشترك يقوم به الفرنسيون والاسبان فى البحر المتوسط ،

كان خلقيا بأن يغرى بونايرت بالبقاء في مصر ترقبا للنتيجة . ولكنه لم يغره ، والنتيجة التي تمخضت عنها حملة بروي تبرر موقف بونايرت .

كانت تعليمات بروي الأصلية تقضى بأن يتعاون مع الأسطول الأسباني في تموين مالطة وكورفو المحاصرتين ، ثم يحمل المؤن ومددا من عدة آلاف الى الاسكندرية . وبد أن قدم بروي المعونة لاجلاء الجنود الفرنسيين من مختلف الموانئ الإيطالية ، انضم في ٢٢ يونيو الى مازاريدو في قرطاجنة . وكان الأسطول الفرنسي الأسباني الموحد يتألف من اثنتين وأربعين بارجة . ولما كانت السفن الحربية البريطانية في البحر المتوسط - وعددها ستون - موزعة بين عدة أساطيل صغيرة ، فقد أتاحت لبروي فرصة فذة ليطرده البريطانيون من ذلك البحر ويقود أسطوله الى مصر .

وكانت حكومة الإدارة في هذه الأثناء قد أصدرت في ٢٦ مايو تعليمات جديدة لبروي وبونايرت : مؤداهما أن على فرنسا أن تركز قواها نظرا للانتصارات النمساوية والروسية المنذرة بالخطر ، فعلى بروي أن يستخدم ما يستطيع من وسائل لكسب السيطرة المؤقتة على البحر المتوسط واجلاء الجيش الفرنسي عن مصر . وكتب تاليران لبونايرت يقول « وستستطيع أيها المواطن الجنرال أن تحكم بنفسك هل في إمكانك أن تترك بمصر جزءا من قواتك وأنت مطمئن ، وفي هذه الحالة تخول لك الإدارة أن تعهد بقيادتك لمن تراه صالحا لها ، (٢٠) ولا حاجة للقول بأنه كان مستحيلا على بونايرت أن يترك بمصر جزءا من قواته مطمئنا . والذي حدث أن السؤال ظل نظريا خالصا ، لأن مازاريدو أبى أن يتعاون في أى مشروع سوى إعادة فتح مينورقة التي استولى عليها الانجليز . ولجأ بروي للحكومة الأسبانية ، فأوقفت مازاريدو وأمرته بالعودة الى الاطلنطي ، وتبعه اليه بروي ، وهكذا ضاعت آخر فرصة لكسب السيادة على البحر المتوسط دون أن تطلق رصاصة واحدة .

ولعل أبرز حدثين في حياة الأميرال مازاريدو هما أولا عرضه ٥٠٠.٠٠٠ فرنك في الشهر لراقصة لقاء رضائها أن تكون خليلته ، وثانيا رفضه التعاون مع بروي في ١٧٩٩ . ولو كان أكثر تعاونا ، فظهر هو وبروي ومعهما اثنتان وأربعون بارجة أمام الاسكندرية في أواخر يوليو أو أوائل أغسطس ١٧٩٩ ، لأسفر هذا في أغلب الظن عن نتيجة خطيرة ، ولكان على بونايرت أن يواجه الاختيار بين العودة الى فرنسا مع جيشه أو رفض الجلاء عن مصر ، ولكان التاريخ على كلا الحالين قد اتخذ مجرى آخر .

لم يمكث بونايرت في مصر أكثر من أسبوع - من ١١ أغسطس يوم عاد من أبي قير الى ١٨ أغسطس يوم رحل نهائيا عن مصر . ولم يفض بسرّه الا خمسة رجال احتارهم ليصحبوه الى فرنسا ، وهم الأميرال جانتوم (الذي بقي في

الاسكندرية ليعد العدة للرحيل) ، والجنرال برتويه ، وبورين ، ومونج ، وبرتوليه . أما الذين تقرر بقاؤهم بمصر فلم ينذر منهم واحد - حتى ولا خلف بونايرت . بل ان كل الاحتياطات اتخذت تجنباً لاحداث الذعر بين صفوف الجيش ، فظل بونايرت عاكفا الى آخر يوم على المسائل الروتينية - كتحصين الصالحية والعريش ، وتعيين لجننتين علميتين يرأسهما فورييه وكوستا لارتياح آثار الصعيد بطريقة منظمة ، والتعجيل بجمع الضرائب ، وصرف ملابس عسكرية من أقمشة جديدة للجيش كله . (ونصت سلسلة الأوامر الصادرة لهذا الغرض على كل التفاصيل ، عدا طريقة دفع النفقات للمتعهدين) . وفي ١٣ أغسطس احتفل بالمولد النبوي بالأبهة المعهودة ، وتناول الطعام في بيت الشيخ البكري ، وكان مصطفى باشا وغيره من كبار الضباط الأتراك المأسورين في أبي قير ضيوف الشرف ، وقد أذهلهم أن يروا بونايرت يصلي مع المصلين من الشيوخ .

وفي ١٧ أغسطس أخطر جانتوم بونايرت أن الأسطول الانجليزى التركى غادر المياه المصرية ، ربما للتزويد من قبرص ، وأنه يتوقع أن يظل الساحل فى الأيام القليلة التالية خاليا نسبيا من سفن العدو . وقرر بونايرت أن يبرح القاهرة تلك الليلة عينها ، وكان قد أذاع أنه موشك الرحيل فى جولة تفتيشية بالدلتا اتقاء للشائعات ، ولكن تعليماته الأخيرة لبوسيليج توحى بأن غيبته قد تطول . « أطلب اليك فى الحاح أن تتخذ التدابير النشيطة للتعجيل بجمع الايجارات والضرائب ، . . . وأن تظل على علاقات طيبة بالشيوخ ، وأن تحفظ النظام فى القاهرة . وأطلب الى الجنرال ديجا أن يضرب بشدة على يد محدثى الشغب لأول بادرة . وليقطع كل يوم خمسة رؤوس ، محتفظا دائما ببشاشته رغم ذلك » (٢١) .

وفى هذا اليوم نفسه كتب للصدر الأعظم رسالة سنتناولها بمزيد من التعليق فى موضع تال . وعرضت الرسالة الصلح : « ان الباب العالى يستطيع بالمفاوضة أن يبلغ ما لا يبلغه بقوة السلاح . . . انكم تريدون مصر ، وأنا أفهم هذا ولكن فرنسا لم تقصد قط أن تنتزعها منكم وكل شئ يمكن تسويته فى حديث ساعتين » (٢٢) .

وفى الساعة العاشرة مساء ذهبت عربية بونايرت لتأخذ مونج وبرتوليه من مقر المجمع العلمى المصرى . وكان المجمع يشغى منذ أيام بشائعات قرب رحيل القائد الأعلى الى فرنسا . وذهل العلماء المجتمعون فى قاعة الطعام وقت اعلان وصول العربية حين رأوا أكبر زملائهما يعدوان ليحزما حقائبهما . وانهاى على مونج وبرتوليه وابل من الأسئلة بمجرد نزولهما . فسأل كوستا « حسن أيها المواطن مونج ، أنعقد اجتماعنا القادم فى أطلال طيبة ؟ » (وكانت هناك شائعات عن زيارة بونايرت للصعيد) . واختلط الجواب على مونج لارتباكه

فقال « نعم ، سنجتمع في دندرة عند - جنوب - شمال - دندرة » . وسأله بارسيفال - جرانمیزون « أتمرون بدمياط ؟ » . فأجاب مونج متلعثما « لا علم لي بشيء ، وأعتقد أننا ذاهبون الى الوجه البحرى » . وأخيرا ، وبعد أن ضيق كوستا وفورييه الخناق على مونج وهما يتبعانه هو وبرتولليه طوال الطريق الى العربية ، أفلت منه أربعة أخماس السر ، فقال « يا صديقى ، اذا كنا ذاهبين الى فرنسا فأؤكد لكما أننا لم نعرف عن هذا الأمر شيئا الا ظهر اليوم » (٢٣) . وكان أعضاء المجمع لا يزالون يناقشون هذا الجواب الغريب بينما أخذ أحدهم - وهو بارسيفال - فى حزم حقائبه فعلا . وكانت تلك هى المرة الأولى التى أبدى فيها أى نشاط منذ وصوله الى مصر ، لقد اعتزم أنه ، هو على الأقل ، لن يترك فى مصر اذا استطاع الى الخروج منها سبيلا .

ولم يلبث أن لحق مونج وبرتولليه بعد منتصف الليل بقليل ببونابرت فى حديقة قصر الألفى . . . كذلك كان دينون هناك لأنه أحد المختارين . وراح بونابرت يتحدث حديثا عابرا مع العالمين وهو يتمشى ذهابا وجيئة ، ثم يتركهما بين الحلين والحين ليلحق بمدام فورييه ويقرصها فى تلطف ، وكانت تتمشى على طريقة أخرى مطمئنة لا ترتاب فى شيء وهى ترتدى سترة فارس من فرقة الهوسار وسراويل ضيقة . كذلك وقف على أهبة الاستعداد ابن زوجة بونابرت ، أوجين بوهارنيه ، وثلاثة آخرون من ياورانه - هم دوروك ولافاليت ومرلان - وهم من بين أعضاء الجماعة ، ثم بورين ، وعضو جديد فى الأسرة لم يبرج قط نابليون منذ تلك اللحظة حتى ١٨١٤ .

كان مملوك نابليون المشهور ، رستم رضا ، فى التاسعة عشرة من عمره يومها . خطفه وهو صبى فى السابعة رجل يصفه فى مذكراته الطريفة بأنه « تاجر أطفال » . وبعد عدة خبرات أليمة جئ به الى الأستانة ثم الى القاهرة ، سالكا طريقا لا يمكن أن يسلكه مسافر آخر ، ربما باستثناء « بلمان » (حامل الجرس) فى كتاب لويس كارول (*) . يقول رستم « مررنا بالمضايق الخطرة التى يعود النيل فيها الى دخول « البحر الأسود » والتى يصطدم فيها النهران الواحد بالآخر » (٢٤) . وفى القاهرة اشتراه صالح بك ، وهو يومها أمير الحج ، فأخذه الى مكة فى ١٧٩٧ . وفى عودة صالح علم أن الفرنسيين استولوا على مصر ، فقرر أن يلحق بإبراهيم بك فى سوريا ، وارتكب خطأ بذهابه الى عكا سعيا للصلح مع الجزار باشا خصمه اللدود القديم . وقدم له الجزار فنجانا من القهوة ، وبعد نصف ساعة مات صالح . واتخذ رستم طريقه الى القاهرة متخفيا فى زى فلاح ، وهناك وجد « جنودا فرنسيين كثيرين ، ورماة كهولا

(*) الإشارة الى كتاب «Alice in Wonderland» (أليس فى بلاد العجائب) .
(المترجم)

ملاح الوجوه ذوى شوارب بيضاء ، (٢٥) . وأخيرا وجد عملا فى بيت الشيخ البكرى ، الذى « كان يشغل وظيفة كبيرة فى الادارة المدنية » . ودللته نساء البكرى ، وشغف به البكرى شغفا غير طبيعى ، الى أن استهواه مملوك صغير آخر . وكانت هناك مشاحنات ، فلما عاد بونابرت من سوريا فى يونيو ١٧٩٩ أهده البكرى رستم وجوادا أسود فارها . ومن يومها ظل رستم - وهو لا يخلع عنه زى المماليك - يخدم نابليون حارسا وتابعا وقوادا . وأصبح وجهه مألوقا للناس كوجه الامبراطور نفسه تقريبا ، وقد خلد فى صور كثيرة وهو ممتط صهوة جواد يتبختر الى جوار سيده . وبعد أن جمع رستم ثروة طيبة بالارهاب واستغلال النفوذ ، ترك سيده قبيل تنازله عن العرش دون كلام ولا سلام ، وتزوج فتاة فرنسية ، وكتب مذكراته التى تكشف عن خادم ساذج ، أمى ، حريص ، « بلطجى » .

واختار بونابرت - بالاضافة الى المجمعين الثلاثة والياوران الأربعة وسكرتيه ومملوكه وطاهيه - عدة قواد ليرافقوه فى رحلته - هم كبير ضباطه أركان حربيه برتبيه الذى كان يتحرق شوقا للقاء مدام فسكونتى ، والجنرالات أندريوسى ، ولان ، ومارمون ، ومورا ، الذى لحقوا به بعد سفره من القاهرة . أما حرسه فمن فصيلة من المرشدين يقودهم قائد أصبح فيما بعد المارشال باسيير . وكل هؤلاء شبان مخلصون له ، بعكس معظم القواد القدامى الذين تركهم بمصر .

ولم تكن بولين فوريه واحدة من الجماعة . فلما أعد كل شئ ودعها بونابرت وهو يربت على خدها ويقبلها قبله عابرة . ثم ركبت الجماعة الصغيرة الى بولاق ، ومنها استقلت السفينة فى الثالثة صباحا . وعلى هذه الصورة التى لا احتفال فيها ، ولا طبل ولا زمر كما يقولون ، انسل البطل من العاصمة ومن المعشوقة التى ظفر بها . وانتهى بذلك « أحفل سنوات عمره بالأحلام » .

وصل بونابرت وحاشيته الى الاسكندرية فى ٢٢ أغسطس . ولم يدخلوا المدينة بل وقفوا على أميال منها الى الشرق ، فى مكان بين نادى سبورتنج الحالى وقصر المنتزه . وهنا انضم اليهم على الشاطئ الأميرال جانتوم والجنرال مارمون قادمين من الاسكندرية ، والجنرال مينو الذى استدعى من رشيد .

ولاحت على الأفق قلع مركب انجليزى فى أغلب الظن . وكان المركب مشرقا وهو يمخر الماء بسرعة . وألح جانتوم على بونابرت أن يقلع فى تلك الليلة مخافة أن يعود البريطانيون قبل أن يستطيع الرحيل . وكانت السفينتان لامويرون ولاكاريير قد أقلعتا فعلا من الميناء الجديد ورستا أمام الساحل .

وبينما كان بونابرت ينتظر غروب الشمس راح يتمشى ذهابا وجيئة مع الجنرال مينو الذى أفضى اليه بالسر ساعتها فقط ، وسلمه حزمة من الأوراق .

وكانت تحوى منشورا موجزا للجيش ، وخطابا للديوان وطائفة من التعليمات لكلبير . أما كليبر نفسه فكان أثناء ذلك يذرع الاقليم من دمياط الى رشيد ، حيث أمره بونابرت أن يبقى فى ٢٤ أغسطس ليتحدث اليه « فى أمور على جانب كبير من الاهمية » (٢٦) . وكان بونابرت بالطبع فى عرض البحر فى ٢٤ أغسطس : ولم يجرؤ البطل على مواجهة خلفه الذى لا علم له بالأمر ولا رغبة له فى أن يخلفه .

ووعده بونابرت ، فى منشوره للجنود . ورسالته للديوان ، أن يعود سريعا . وقد يكون هذا من حسن السياسة ، ولكنه لم يكن من الأمانة فى شئ .

وأرخصى الليل سدوله - وهو يرخيها مبكرا فى مصر - ولم تصل الزوارق لتقل الركاب الى سفنهم . وكانت الليلة قمراء : وأشعل المسافرون المشاعل لهداية الزوارق مخاطرين باثارة الشبهات . وأخيرا وصلت الزوارق حوالى الساعة الثامنة ، وبعد ساعة صعد بونابرت الى ظهر السفينة لامويرون . وكانت الريح ساكنة . وقدم العشاء -، وذهبت الجماعة الى حجرة الطعام .

ولم يكن هناك أمل فى هبوب الريح قبل الشروق ، وظلت السفن فى المرسى طوال الليل . وفى الخامسة صباحا اقترب زورق من جانب السفينة لامويرون : لقد أفلح بارسيفال جرانميزون ، مترجم « تاسو » و « كاموان » المأبر ، الذى أسقمه الحنين الى الوطن ، فى الوصول فى اللحظة المناسبة . ورفض بونابرت أول الأمر السماح له بالصعود الى السفينة رفضا باتا . فقد كان يحقد على بارسيفال منذ أبى أن يتولى تحرير « بريد مصر » أو يكتب قصيدة واحدة فى الاشادة به ، بل ان بارسيفال بدأ يكتب ملحمة يشيد فيها باستيلاء ريتشارد قلب الأسد على عكا - وهو موضوع جفل له بونابرت حتما لأكثر من سبب - وكأنه مدفوع الى ذلك بدافع الحق . على أن بونابرت لان بعد أن ألح عليه مونيج وبرتولليه فى أن يقبل زميلهما ، ثم سمح للشاعر فى دعاة رخيصة أن يصعد الى ظهر السفينة لأكاريير . وفى الساعة الثامنة صباحا أقبل الأسطول الصغير . وما حلت الظهيرة حتى اختفت عن النظر الكثبان الرملية الجرداء وأشجار النخيل القليلة المنتشرة على الساحل المصرى .

٣

استغرقت رحلة بونابرت سبعة وأربعين يوما لم يتخللها حادث هام . والتزم الأميرال جانتوم الذى قاد الأسطول الصغير - المؤلف من فرقاطتين وسفینتى بريد - شاطئ بلاد البربر حتى وصل تجاه سردينيا . وكانت هذه المياه بالنسبة لغيرها خلوا من الطوافات الانجليزية ، أما خطر الوقوع فى قبضة العدو فكان أعظم فى المرحلة الأخيرة .

ولا ريب في أن بونابرت كان في حاجة لشيء من الحظ ليصل الى فرنسا دون أن يقع في قبضة الانجليز ، ولكنه هو وأكثر المؤرخين من بعده غالوا كثيرا . في تقدير هذا الخطر . كانت الفرقاطتان مسلحتين تسليحا ثقيلا ، وما لم تخطئا فتلتقيا بأسطول للعدو يفوقهما ، فهما لن تتعرضا الا لخطر لقاء طوافات انجليزية مفردة تسطيعان بسهولة أن تتفوقا عليها في قذف القنابل . فالخطر اذن ليس أعظم من الكسب المرتقب ، واذا نظرنا الى الامر من زاوية مستقبل بونابرت لم نجد حاله - حتى لو أسره العدو - أسوأ من حاله لو بقي في مصر . ومع ذلك لا يفتأ المؤرخون ، حتى من خصومه ، يرددون القول بأن بونابرت خاطر بحياته في سبيل العودة لفرنسا - وهي دعوات لا تثبت لحظة واحدة أمام التفكير السليم .

وأعظم من هذا الخطر بكثير تلك الأخطار التي واجهها حين عاد الى فرنسا . فهنا المغامرة الحقة . فقد يستقبل استقبال الأبطال ويدفع به لكرسى الحكم في موجة من الحماسة ، أو قد يرمى بالرصاص باعتباره هاربا من الجيش . وكان قد وطن النفس على لقاء أي طارئ ، ولكنه لم يستطع وضع خطته الى أن يحيط بالموقف ويألفه . قال لأصحابه في الرحلة : « ان العظمة معناها الاعتماد على كل شيء . وأنا أعتمد على الأحداث ، والأحداث تعتمد على الصدفة » (٢٩) .

أما الموقف السياسي الذي كان موشكا أن يجده في فرنسا فقد ظل متميعا غاية التميع عدة شهور .

كان يحكم فرنسا بمقتضى دستور ١٧٩٥ - وهو بناء غريب الشكل وضع لحماية السياسة والمستغلين - مجلس تنفيذي من خمسة مديرين يسأل أمامهم أعضاء الوزارة ، وهيئة تشريعية مؤلفة من مجلسين - مجلس « القداماء » ومجلس الخمسمائة . ويختار المجلسين هيئة صغيرة من الناخبين ، يشترط في أفرادها نصاب ملكية ضيق النطاق . ولم يكن هناك جامع بين رجال الادارة سوى الكره والتشكك المتبادلين ، ورغبة الواحد منهم في طرد الآخر من منصبه . أما مجلس القداماء فيسوده الوسط ، واليمين المعتدل الملكي ، وأما مجلس الخمسمائة - الذي كان لوسيان شقيق بونابرت عضوا فيه - فما زال اليسار اليعقوبي يؤلف فيه أقلية قوية تهدد بضم الوسط الى صفها .

وتعرضت حكومة الادارة لنار حامية من اليمين واليسار نتيجة للكوارث الحربية التي منيت بها فرنسا في ربيع ١٧٩٩ ولعدد من الاجراءات المالية التي كرهها الشعب غاية الكره . وفي أثناء ذلك انتخب أكثر نقاد الدستور تنديدا به في ١٦ مايو ليحل محل أحد رجال الادارة ، ونعنى به سييس ، أحد رجال الدين السابقين ، وأهم متحدث باسم الطبقة الوسطى الثائرة في ١٧٨٩ . وكان الرأي الشائع عنه أنه مفكر سياسي متعمق . وقد وجه سييس جهوده كلها

منذ انتخابه لقلب الحكومة التي كان عضوا فيها . وحجته التي ذكرها لخلصائه أن فرنسا أحوج ما تكون الى سلطة أقوى وأثبت . أما القوة التي كان يحاول الحصول على تأييدها فقد أشار تلميحا الى أنها احدى اثنتين ، اما هيئة تنفيذية من ثلاثة أعضاء وهيئة تشريعية تروض وتطوع بشتى الطرق ، واما ملكية دستورية .

وكان يقف في طريق سبيس ثلاثة من زملائه الأربعة في حكومة الادارة ، وكذلك الكتلة اليسارية في مجلس الخمسمائة . وكانت الحركة البارعة التي يريد القيام بها هي استخدام الكتلة اليسارية لعزل أعضاء الادارة الثلاثة . وكان يلزمه لهذا الغرض أداة طيعة في مجلس الخمسمائة ، وقد وجدها في لوسيان جونا برت .

أما رجل الادارة الذي لم يرد سبيس اقصاه فهو بارا ، النبيل القديم ، والعشيق السابق لجوزفين بوهارنيه ، والعشيق الحالي لمدام تاليان ، ولكل فتى وسيم الوجه تصل اليه يده ، والمرتشى الفاسد بطنا وظهرا ، الذي كان يوما يعقوبيا مسعورا ، وأصبح الآن ملكيا مستترا . وقد ظل شهورا يفاوض ملك فرنسا المنفى لويس الثامن عشر ليرده الى عرشه لقاء منحة تبلغ ١٢ مليون فرنك . ولم يذكر سبيس نشاط بارا للوسيان وان كان على علم به ، فقد كان مما يخدم خطته الآن أن يحتفظ ببارا في منصبه ، ولن يكون من العسير شراؤه في أي وقت .

وقام لوسيان بمهمته خير قيام . وأسفرت سلسلة من الهجمات البرلمانية عن احلال جوهييه عضوا في الادارة محل تريار في ١٧ يونيو ، ودوكو محل هرلان في ١٩ يونيو ، والجنرال مولان محل لاريفيلير - ليبو في ٢٠ يونيو . أما دوكو فقد تحالف مع سبيس في الشهور التالية : وأما جوهييه ، الذي كان أهم مؤهلاته تولى وزارة العدل أثناء حكم الارهاب ، فقد أصبح عقبة في طريق سبيس ، ولكنها عقبة لا تستعصى كثيرا على التذليل ، وأما مولان ، الذي كان مجهولا تماما ، فكان يتمتع بميزة هي أن له علاقات طيبة جدا بالجناح المتطرف من اليعاقبة دون أن يشاركهم حماسهم . كذلك غير عدة أعضاء في الوزارة في الأسابيع التالية . فأصبح الجنرال برنادوت وزيرا للحرب ، وهو من الناحية الرسمية يعقوبى متحمس ، وروبرت لنديه ، الذي كان عضوا في لجنة روبسبير للأمن العام ، وزيرا للمالية ، وفوشيه ، الراهب السابق الذي لعب في حكم الارهاب دور غير صغير ، وزيرا للشرطة . وكان سبيس وبارا يأملان من وراء تعيين ثلاثة من اليعاقبة المشهورين في هذه المناصب الوزارية أن يسكتا المعارضة اليسارية ، دون أن يتعرضا لخطر كبير . وكان من أول أعمال فوشيه اغلاق نادي اليعاقبة . ولم يكن اظهار انقلاب يمينى بمظهر الانقلاب اليسارى بالأمر الهين ، ولكن سبيس حققه .

واضطرب وزير رابع الى الاستقالة في ٢٠ يوليو - وهو تاليران . وكان سقوطه - الذي لم يزد في حقيقته على مصرع ملك على خشبة المسرح - نتيجة جهود الدعاية التي قام بها ضده اليعاقبة والانجليز . ذلك أن الحكومة الانجليزية ما برحت منذ انتصار نلسن في معركة « أبو قير » تشجع الرأي القائل بأن حكومة الادارة أرسلت الجنرال بوناپرت وجيشه الى هلاك محقق في مصر لمجرد الرغبة في الخلاص منهما . ولكي يضيف بت شيئا من الوجاهة على هذا الخط من خطوط الدعاية اتخذ الاجراءات لنشر الرسائل التي كتبها الفرنسيون في مصر ووقعت في قبضة الانجليز . ولم يأل المحرر - الذي علق على هذه الرسائل تعليقات فاقت النصوص طولا - جهدا في اقناع قرائه بأن جيش بوناپرت ضحى به عمدا . وابطالا لمفعول هذه الدعاية ، أمرت الحكومة الفرنسية كذلك بنشر هذه الرسائل مع تعليقات تدحض تعليقات المحرر الانجليزى . ولكن على الرغم من جهد الحكومة الفرنسية ، انتهز المتحمسون من اليعاقبة فرصة الهزيمة التي حلت بالجيش الفرنسي في جميع الجهات الأوروبية ليتهموا الادارة بالتراخي والخيانة ، واتهموا في الطريق رجال الادارة بأنهم « نفوا الى الصحارى العربية أربعين ألفا من الرجال - هم زهرة جنودنا ، والجنرال بوناپرت وصفوة علمائنا ، وأدبائنا ، وفنانينا » (٢٨) وانقلب القوم الذين رحبوا بالحملة على مصر بوصفها بداية عصر جديد وثورة في التجارة العالمية (فقد استهوت قناة السويس عقول الجماهير) ، فأصبحوا هم أنفسهم بين يوم وليلة ينددون بها لأنها حماقة ، لا بل مؤامرة مبيتة .

وتاليران هو بالطبع المحرض الأكبر على مشروع الحملة على مصر . على أن الهجوم في أول الأمر وجه أساسا الى بارا ، عضو الادارة الوحيد الذي بقي في منصبه من بين الأعضاء الخمسة الذين وافقوا على الحملة . وأوقف بارا الهجوم عليه بمجرد اشارة لبعض ما وقع في انتخاب لوسيان من مخالفات آثر بارا الاغضاء عنها ولكنها . . . وكان الحديث بينه وبين لوسيان ، وكفت لوسيان اللبيب هذه الاشارة . ومن تلك اللحظة اتخذت حملات الهجوم تاليران هدفا لها . ونفى تاليران عن نفسه كل مسئولية ، زاعما أنه ورث مشروع الحملة المصرية عن سلفه في وزارة الخارجية - وتلك حجة قديمة لا سيما في محيط الوزراء الفرنسيين . ونفى السلف ، وهو شارل دولاكروا ، هذه التهمة بشدة في الصحف كما حق له أن ينفيها . (ومن الطريف المثير أن نذكر أن تاليران الذي نسب المشروع المصري الى دولاكروا كان قد نسبت اليه هو - وعلى أسس أقوى - أبوة المصور أوجين بن دولاكروا) .

واستقال تاليران كارها أن يواصل هذا الجدل . على أنه عين خلفه ، وهو رينار القنصل الفرنسي في سويسرا ، وكان رجلا الوقي قلبا وقالبا . وظل تاليران في منصبه الى ٥ سبتمبر انتظارا لعودة رينار . وفي هذه الفترة

كتب مذكرة صدقت عليها الادارة فى ١٠ سبتمبر ، وأوصى فيها الحكومة بفتح باب المفاوضات مع الباب العالى ، مستخدمة فى ذلك وساطة السفير الاسباني فى الأستانة ، لرد مصر الى السيادة العثمانية ، واجلاء الجيش الفرنسى عنها . وكان قد مضى على الجنرال بونابرت فى ١٠ سبتمبر ثمانية عشر يوما فى رحلة البحر الى فرنسا . وكان هو أيضا قد بدأ المفاوضات مع الباب العالى ، ولكنه لم ينتظر اجلاء .

كان تنفيذ سبيس ، الأسقف السابق ، لانقلابه - أو لاصلاحه الدستوري كما سماه - لا يقتضيه هيئة تشريعية طيبة فحسب ، بل « سيفا » على حد قوله . والسيف يعنى فى لغة ذلك العهد « بلطجيا » ، أى قائدا راغبا فى اعارة عضلاته لمشروعات رجل سياسى لا تتوافر فيها الدستورية تماما . فاذا حانت اللحظة المناسبة خول مرسوم من مجلس القداماء هذا القائد السلطة على القوات الداخلية ، فيستطيع جنوده تشجيع الهيئة التشريعية على التصويت بالطريقة المرغوبة ، واذا تم هذا كافا السياسى القائد بأى شئ ، الا أن يشركه فى الحكم . أما القائد الذى عقد عليه سبيس ولوسيان بونابرت الآمال فهو جوبير ، الذى سلم قيادة القوات الفرنسية بايطاليا فى ٢٨ يوليو . وكان اختيار جوبير ينطوى على الحكمة : فهو فى رأى الناس جمهورى مخلص . وهو يتمتع سرا بثقة المنفيين الملكيين ، وهو راغب فى لعب دوره ، وهو أقل خطرا من برنادوت أو بونابرت . ولكن يشاء سوء الطالع أن يهزم جوبير فى ١٥ أغسطس على يد سوفاروف فى نوفى وأن يقتل فى المعركة . وأضافت فرنسا بطلا جديدا الى سجل أبطالها ، ولكن سبيس خسر سيفه ، وهى خسارة عز فيها العزاء . وقال سبيس وهو يبكى « لقد ضعنا . فلن نجد أبدا قائدا آخر يستطيع أن يفتح ايطاليا ، وفى الوقت نفسه يعيننا على قلب الحكومة بالتضامن مع الملكيين » (٢٩) ونحن نشارك سبيس هذا الشعور ، ذلك أنه وان كان سيف آخر فى طريقه اليه من الاسكندرية الا أن هذا السيف كان أكبر من أن يتقلده سبيس .

وبينما كان بونابرت لا يزال فى مكان ما أمام شاطئ بلاد البربر ، وبارا وسبيس لا يزالان يواصلان مؤامراتهما المنفصلة فى تعاون يشوبه القلق ، كان الجنرال برنادوت وزير الحربية يدبر انقلابا لحسابه الخاص . فأما خطته فهى ببساطة القبض على بارا وسبيس ، واقامة حكومة يعقوبية يضع نفسه على رأسها . وتحقيقا لهذا الغرض استعان هذا الجمهورى المخلص الأمين الذى قدر له أن يختم حياته ملكا على السويد ، بالجنرال جوردان ، وهو نائب فى مجلس الخمسمائة . وفى ١٣ سبتمبر طلب جوردان الى زملائه النواب الموافقة على اقتراح باعلان حالة الطوارئ فى البلاد ، بعد أن رسم لهم صورة مظلمة للموقف الحربى فى الخارج ، وللمؤامرات الملكية فى الداخل . وكانت الموافقة على هذا الاقتراح معناها عزل حكومة الادارة . صحيح ان ثلاثة من أعضاء الادارة الخمسة كانوا

هم أيضا يريدون عزل الادارة ، ولكنهم كانوا يريدون أن يعزلوها بأنفسهم . وكانت لحظة حرجة ، وأنقذ لوسيان بونابرت الموقف . فقد سلم بأن الجمهورية في خطر لا ريب فيه ، ولكن تصريحاً رسمياً بهذا المعنى لا يحل الموقف . « وحين تكون دولة في خطر ، فلا انقاذ لها الا بتقوية حكومتها الراهنة أو بتغييرها » وتعالّت صيحات تقول « أنقيم دكتاتورية ! » ومضى لوسيان في لهجة خطيرة « أسمع كلمة « دكتاتورية » . ليس منا أحد يتردد في أن يطعن بخنجره أول رجل يجرؤ على الرغبة في أن يكون دكتاتور فرنسا » (٣٠) واستقبلت العبارة بتصفيق اجماعى وان جاء أكثره على كره ، وقد استعيدت هذه العبارة بعد شهرين ، بروح مختلفة ، في مناسبة أخرى .

واجتازت الحكومة الخطر ، وأجلت الجلسة دون تصويت على الاقتراح . وقبل منتصف الليل بساعة استقال برنادوت من وزارة الحربية .



في ٣٠ سبتمبر وصل أسطول بونابرت الصغير الى خارج ميناء أجاكسيو بكورسيكا ، وهي مسقط رأسه . وفي اليوم نفسه هزم الجنرال ماسينا في زيوريخ القوات النمساوية الروسية ، فأدار بهذا النصر الدوائر على الحلفاء . وبدأ سوفارف تقهقره الكبير مخترقاً جبال الألب ، وما لبث القيصر بول بعد قليل أن أعلن حياد روسيا . وكان اتفاق الأحداث على هذا النحو من سوء طالع بونابرت : فقد انتقص بعض الشيء من أهمية الرجل الذي لاغنى عنه .

وفي أول أكتوبر ألقت السفينة لامويرون مراسيها عند أجاكسيو . وسرعان ما التف حولها حشد من الزوارق يحمل نصف سكان الميناء . وتدفق الجمع على سطح الفرقاطة ضارباً بقوانين الحجر الصحى عرض الحائط ليهتف لمواطنه البطل . وكان بينه كهلة قصيرة القامة ترتدى ثوباً أسود منفعة أشد انفعال . وصاحت « ولدى العزيز » ، وصاح بونابرت « أمى ! » وكانت المرأة مرضعه : وكانت لحظة مؤثرة . ولكن موظفاً واحداً من موظفى الحكومة لم يظهر . وقيل لبونابرت المدهوش في تعليل غيابهم ان موظفى البلدية والادارة الحكومية قد زج بعضهم البعض في السجن ، وهكذا انعكست الفوضى السياسية المتفشية في باريس على أجاكسيو بطريقة كورسيكية فذة .

وبارح الاسطول أجاكسيو في ٧ أكتوبر ، فلاح له الساحل الفرنسى مساء الغد ، كما لاح له أسطول انجليزى من اثنتين وعشرين سفينة ، هو أسطول الأميرال كيت . ومضى الانجليز في طريقهم دون أن يلقوا بالاً الى الفرنسيين : فقد رأوهم ، ولكنهم في ضوء الغسق المعتم حسبوا الفرقاطتين من فرقائهم . وهكذا يتعلق التاريخ بخيوط كهذا الخيط . وفي صباح ٩ أكتوبر نزل بونابرت

فى فريجى • وتجاهل السكان مرة أخرى قوانين الحجر ، وحملوا بونايرت الى المدينة فى موكب النصر ، وبعد ساعة وقفت مركبة ببابه على أهبة الاستعداد • وبعد أن أنفق بونايرت أسبوعا يركب فى موكب نصره ، وقفت مركبة بباب بيته فى شارع لافيكورا بباريس فى الساعة السادسة من صباح ١٦ أكتوبر • وكانت النشرة التى أذيع فيها انتصاره فى « أبو قير » قد سبقته بأيام قلائل •

وفى مساء ١٣ أكتوبر ، وبينما كانت ليون تتلأل بالأضواء احتفالا بالجنرال بونايرت ، كانت زوجة القائد تتعشى فى باريس مع الرئيس جوهيه عضوا الادارة • وكانا لا يزالان على المائدة حين جىء ببرقية تقول ان بونايرت نزل الى البر • وصعق جوهيه ، وفزعت جوزفين • وقالت متلعثمة « يجب أن أستقبله فى الطريق • يهمنى جدا أن أسبق اخوته الذين أبغضونى دائما » (٣١) ثم انطلقت لاتلوى •

وكان لجوزفين كل العذر فى هذا القلق • فهى فضلا عن غرامها المفضوح مع المواطن شارل ، استدان ما قيمته عدة مئات الألوف من الفرنكات ، ولو طلقها بونايرت لما بقى لها فلس واحد • وبلغ من حرصها على الارتقاء بين ذراعى زوجها أنها اتخذت طريقا غير طريقه فأخطأته •

وفى هذا المساء نفسه (١٣ أكتوبر) ، فى حجرة أخرى من حجرات قصر اللكسمبورج الذى أقام فيه أعضاء الادارة ، تلقى سيسى أيضا البرقية التى تعلن نزول بونايرت الى البر • وقال متمتا للوسيان ، وكان الى جواره « بعد فوات الآوان » ذلك أنهما بعد موت جوبير الباكر ، استقر رأيهما على الجنرال مورو ليستعمله سيف ، ولكن مورو لم يكن تواقا للقيام بهذه المهمة ، فلما حضر بعد قليل وسمع بالنبا ، قال فى جفاء : « حسن ، هاكما الرجل الذى تنشدان • فهو أقدر منى على انفاذ انقلابكما » • وذلك حق لا ريب فيه ، ولكن مع أن سيسى كان فى حاجة الى سيف ، فان « سيف مورو ، أو جوردان ، أو جوبير ، كان يلبنى حاجته ••• أما سيف بونايرت فطويل عليه (٣٢) • على حد قول لوسيان فى مذكراته •

والذى يعتمدون على نقولا الترك فى استقاء المعلومات عن التاريخ الأوربى - ولا بد أنهم نفر قليل - يخرجون من دراساتهم برواية أصيلة جدا لقصة وصول بونايرت الى السلطة ، يقول نقولا : « وحين بلغ وصوله الى روسا المشيخة الكبار ••• فبالحال عملوا ديوان وقطعوا فتاوى بأن بونايرت رجل مفسد بالمملكة وهو الذى هيج على المشيخة الحروب وأنهض الملوك ضدها ، فهذا قصاصه أن يتنزل عن رتبته ويرجع صلدات وتكون وظيفته ورديان على باب ديوان المشيخة ••• فقدم الطاعة لأمرهم ووقف ورديان الى حين ما طبخ له طبخة وعمل له حزب » (٣٣) •

وقد لا يكون هذا تاريخا ، ولكنه لم يبعد عن التاريخ الا قاب قوسين .
ذلك أن الادارة اجتمعت في ١٤ أكتوبر - قبل وصول بونايرت الى باريس بيومين - لتتناقش فيما هي فاعلة به . ودمدم سيبس قائلا : « حسن - انه ليس سوى قائد آخر يضاف الى سابقيه . ولكن ، قبل أن نمضى شوطا أبعد ، هل أذنت الحكومة للجنرال بالعودة ؟ » وعرض النائب بولى دولاميرت ، وكان حاضرا للمناقشة ، أن يقدم اقتراحا باعتبار بونايرت خارجا على القانون .

وقال سيبس كمن يتلوى : « ولكن هذا معناه رميه بالرصاص - وهو أمر خطير وان كان يستحقه » . وأجاب بولى : « تلك تفاصيل لا أريد الخوض فيها . فمتى حكم بأنه خارج على القانون فليقطع رأسه على المقصلة أو فليعدم رميا بالرصاص ، أو فليشنق ، ولا يهمنى أى هذه - فما هى الا طريقة من طرق الاعداء » (٣٤) . (وبعد أسبوع واحد انضم بولى دولاميرت هذا الى لفيف مشيرى بونايرت المخلصين ، الذين ألحوا عليه فى تقلد زمام السلطة) .

أما استجابة مجلس الخمسمائة لنبا عودة بونايرت فكانت حاسمة لا تدع مجالا - على الأقل فى المستقبل القريب - لرمى بونايرت بالرصاص ، أو حتى للحكم عليه بأن يقف ديدبانا ببابه . فقد استقبل النواب فى أروابهم وقبعاتهم الغريبة النبا بالهتاف والتصفيق ، بينما عزفت الموسيقى لحنا وطنيا . (ولا غرابة فهذا البرلمان العجيب كان له أوركسترا على أهبة الاستعداد لمصاحبة فوبات الوطنية التى تصيبه) . وفى مساء ١٤ أكتوبر أضيئت باريس كلها بالأنوار . وكان اسم بونايرت لا يزال يرمز فى أذهان الجماهير للنصر ، وللسلام بصفة خاصة .

ولا يمكن أن يقال ان الحماسة الشعبية انتقلت عدواها الى الادارة . وفى مساء وصول بونايرت الى باريس زار رئيس الحكومة جوهيه . الذى لم يكن ميله لمدام بونايرت يمتد الى زوجها . (وكانت مدام بونايرت أثناء ذلك لا تزال تبحث عن زوجها فى طرق فرنسا) . وقال الجنرال « لقد أفزعنى النبا الذى وصلنى فى مصر ، فلم أتردد فى ترك جيشى لأشارككم أخطاركم » . وأوما جوهيه قائلا نعم ، ان الأخطار كانت كبيرة ، ولكنها لحسن الحظ انتهت . فقد صد الجنرال برون الانجليز فى هولنده ، وهزم ماسينا النمساويين والروس فى زيوريخ ، « وها أنت قد جئت فى الوقت المناسب لتحتفل بانتصارات زملائك فى السلاح » (٣٥) .

وفى اليوم التالى مثل بونايرت فى ثوب عسكري غاية فى البساطة أمام أعضاء حكومة الادارة ليقدم لهم تقريره وهم يرفلون فى عبااتهم الرومانية الزائفة وریش النعام المثلث الألوان . وقال لهم فى تواضع انه يضع نفسه فى خدمتهم - على رأس جيش ان أعطوه جيشا ، أو مدفعيا بسيطا . ولم يذكر

نوبة الديديبان . وكان جواب رجال الادارة فاترا لا التزام فيه ، ولكنهم لم يجرؤوا على التشكيك فى قانونية عودته .

وكانت الأحداث تدخر له مزيدا من المعوقات قبل أن يتحقق له النصر النهائي . وأول هذه فى بيته . فقد عادت جوزفين أخيرا فى ١٨ أكتوبر . أما بونابرت فقد أغلق على نفسه باب حجراته وأمرها بالخروج من البيت بعد أن أمر بوضع أمتعتها كلها فى بهو المنزل . وظلت طوال اليوم تقرع باب حجراته باكية متوسلة . ولكن بكاءها وتوسلاتها ذهبت أدراج الرياح : فهو مصمم على طلاقها . وأخيرا جربت خط هجوم جديدا دفعتها اليه وصيفتها . فقد ألقى ولداها أوجين وأورتنس فى الحنادق ، فأحدثا ثغرة دخلت منها جوزفين ظافرة . وفى الصباح زار لوسيان - أعدى أعداء جوزفين - أخاه وهو يتوقع أن يجد زوجته وقد دحرت ولادتها بالفرار ، ولكنه بدلا من هذا وجدهما فى الفراش معا . هذا على الأقل ما تقوله القصة . ولا يحتاج المرء الا قليل من الخيال ليفترض أن علاقات جوزفين-الودية باثنين من أعضاء الادارة-هما بارا وجوهيه- أعانت على اتخاذ بونابرت موقف المغفرة مؤقتا . وكانت اتصالاتها مفيدة له جدا فى الأسابيع الثلاثة التالية .



فى ٢١ أكتوبر حضر لوسيان بونابرت ليتحدث الى أخيه نابليون نيابة عن سيبس . فقال ان نابليون اذا أيد الانقلاب الذى يعتزمه سيبس سيعين واحدا من القناصل الثلاثة - وهم الهيئة الثلاثية المفروض أنها ستحكم فرنسا . ولم يبد الجنرال رأيه . وكذلك كان موقفه حين عرضت عليه خلال الأسابيع الثلاثة التالية عروض مغرية شبيهة بهذا العرض من المتأمرين الآخرين - بارا عن الملكيين ، وبرنادوت عن اليعاقبة . فهو يأبى أن يكون « سيفا » لأحد . وهو يأبى أن يندمج فى أى حزب . انما سيعمل لنفسه فقط ، أو لفرنسا كلها : وهما نفس الشئ عنده . ومع أن رجال السياسة حسبوه قائدا ، فان القائد كان رجل سياسة . فلم يستعمل القوة لصالح رجل كسيبس أو بارا ، اذا كان يشعر شعور الواثق بأنه هو نفسه قادر على الاضطلاع بالحكم - دون استخدام القوة - بتكتيل أغلبية برلمانية وراءه ؟ ان الذى ينشده بونابرت حقيقة هو نظام حكومة رياسى على النمط الأمريكى (دون الفدرالية) ، يلعب هو فيه دور جورج واشنطن (دون التخلي عن الرئاسة بعد الفترة الثانية) . وكان يؤيده فى هذا الرأى ويشجعه عليه لقيف مشيريه الأخصاء ، الذين كان أمهرهم وأكثرهم نفوذا تاليران والصحفى رودير .

ولكن القائد لم يكن متمرسا بشئون السياسة رغم عبقريته السياسية . وبدا لآخر لحظة أن السياسة المحترفين سيهزمون صحیح انه قد يوفق فى كسب

أغلبية برلمانية نظرية تؤيده ، ولكن ما جدوى هذا اذا أثار مقاومة الادارة .
العنيدة له ؟ واكتشفت هذه الحقيقة فى ٢٣ أكتوبر حين راغ عضوا الادارة ،
جوهيه ومولان ، من اقتراحه الذى عرض فيه الحلول محل سيسى فى الادارة :
فالجنرال أصغر من الأربعين بعشرة أيام ، وهى نصاب السن الذى مضى عليه
الدستور لعضوية الادارة . وكانت أسهم بونابرت قد بدأت فى الهبوط ولما
يمضى عليه بباريس سوى أسبوع واحد . لقد كان ماسينا بطل الساعة ، ونسى
الناس فتح مصر ، أو رمتة بالحقاقة نفس الصحافة اليسارية التى هزلت له قبل
عام . وأشارت صحيفة المساجيه فى عدد ٢٠ أكتوبر الى أن السبب الوحيد
الذى حمله بونابرت على ترك مصر فجأة ، هو الهروب من تمرد وشيك فى جيشه
كله . ولكن أسهم لوسيان كانت فى صعود : ففى ٢٥ أكتوبر انتخب رئيسا
لمجلس الخمسمائة .

ولما لم يجد القائد من الزعماء السياسيين من يرغب فى التعاون معه
بشروط القائد ، لم يكن أمام القائد من سبيل الا أن يغير شروطه . فوافق أخيرا
فى أول نوفمبر على أن يجتمع سرا بسيسى فى بيت لوسيان . ولكن الشروط
التي فاجأ بها سيسى وأخاه لم تكن بالضبط ماتوقعا . قال انه سيتعاون فى
قلب حكومة الادارة ، بل ارتضى أيضا أن يكون أحد القناصل الثلاثة مع سيسى
ودوكو - بشرط أن تكون الحكومة الجديدة مؤقتة . فليس فى وسع سيسى
أن يفرض دستورا جاهزا على الأمة ، ولا بد أن تقوم لجنة تشريعية بوضع الدستور
الجديد . وختم كلامه بقوله انه اذا لم يرض سيسى بهذا « فلا تعتمدا على » .
فليس فى البلاد نقص فى القواد الذين ينفذون أوامر مجلس الخمسمائة .
وصعق سيسى . وقال للوسيان متأوها وهو يغادر الاجتماع « يبدو أن الجنرال
اختار موقع المعركة كما يختاره فى ساحة القتال وعلينا أن نتبع رأيه ، فلو
أنه نكل لضاع كل شئ » (٣٦) .

رلم يكن فى الوقت متسع للابطاء . فكلا بارا وبرنادوت يتخذ العدة
لانتقال خاص يقوم به . وما لبثت تفاصيل المؤامرة أن حيكت فى سلسلة من
الاجتماعات الليلية السرية ، وقام تاليران وروديرر بدور الوسيط بين بونابرت
وسيسى . وكانت مهمة شاقة معقدة ، لأن جميع أعضاء الادارة الخمسة يسكنون
قصر اللكسمبورج ، ويتجسسون على مساكن بعضهم البعض . على أن انضمام
فوشيه وزير الشرطة الى المتآمرين بعث فهم شعورا مريحا بالأمن والطمأنينة .
كذلك ضمنوا التأييد المالى بفضل الصيرفى كوللو ، الذى كان لبونابرت معه
معاملات رابحة للطرفين خلال الحملة الايطالية . ولم تمض خمسة أيام حتى كان
كل شئ معدا . فوضع النص الذى ينقل به مجلس القديماء مقر انعقاد المجلسين
الى سان كلو ، وكذلك نص المرسوم الذى يخول لبونابرت قيادة الجيش . فاذا تم نقل
المجلسين الى سان كلو ، حيث يحيط الجند بقاعتي الاجتماع ، أقنع النواب بعزل
حكومة الادارة والتصويت للنظام المؤقت الجديد : وبدا أن دور بونابرت فى هذه

الثورة هو دور « السيف » لأكثر رغم كل تدبيره . وحدد يوم ١٦ برومير (٧ نوفمبر) موعدا للانقلاب .

وقد تكون المؤامرات أشبه بالدرامات ، ولكنها كثيرا ما يكون لها لحظات مضحكة . ففي ٦ نوفمبر ، وهو اليوم السابق للانقلاب المدبر ، أولم نواب المجلسين ، اللذين كان بونابرت مزعما أن يقلبهما ، وليمة فخمة تكريما للجنرالين بونابرت ومورو في كنيسة سان - سولبيس التي حولت خلال الثورة الى « هيكل للنصر » . ومد الطعام لسبعمائة وخمسين مدعوا في الكنيسة القارسة البرد . وسرعان ما برد الطعام في أوانيهِ ، وظل الضباب يتسلل الى القاعة من خلال أبوابها ، وران على الوليمة جو أكثر برودا حتى من الطعام . وكان عدد من اليعاقبة ، أهمهم برنادوت ، غائبين بشكل ملحوظ . ولم يمس بونابرت من الطعام الا بيضتين مسلوقتين وثمره واحدة من الكمثرى . وكانت فرقة الموسيقى أثناء ذلك تعزف لحنا يدعى « أين يمكن أن يسعد الانسان أكثر من سعادته في حضن أسرته ؟ » ثم جاء دور الانتخاب . وكان النخب الذي طلب بونابرت الى الحاضرين أن يشربوه هو « نخب اتحاد جميع الفرنسيين ! » ثم بارح المكان بعد وصوله بأقل من ساعة . فحياء في الخارج جميع الفرنسيين المتحدنين بخليط من الصغير والهتاف .

وأرجأ بونابرت الانقلاب الى ١٨ برومير بعد أن ثبت همتة فشل الوليمة الذريع . وكان في نيته قبل أن يغامر بهذا كله أن يتخذ بعض الاحتياطات الإضافية في خطته ، لاسيما التأكد من تعاون الجنود وقوادهم معه . كذلك كان يطبع عددا من الكتيبات والنشرات التي فوجئ بها سيبس في اليوم العظيم .

وأنفق سيبس أكثر يوم ١٧ برومير في تلقى دروس في الركوب . وكان في نيته أن يركب في صباح الغد الى قصر التويلري ، حيث يجتمع مجلس القداماء ، على رأس حرس الادارة ، تسبقه الموسيقى . وشده ما أدهشه في فجر ١٨ برومير أن يكتشف أن حرس الادارة قد اختفى من أرض اللكسمبورج : ذلك أن بونابرت نقله في هدوء ، متعجلا استخدام السلطة التي ستخول له في الغد .

تلقى مجلس القداماء في الليل دعوات للاجتماع في التويلري في ساعة مريبة هي الخامسة صباحا . وفي الساعة السابعة والنصف صوت الشيوخ المهزوزون طائعين بالموافقة على نقل الهيئة التشريعية الى سان كلو ، ودعوا الجنرال بونابرت للمثول أمام المجلس لقسم اليمين باعتباره قائدا لقوات الجيش . ووصل المرسوم الى يد بونابرت بعد ساعة تقريبا . فعدله في هدوء ، وأضاف الى قائمة الوحدات الموضوعة تحت قيادته حرس الادارة الذي كان سيبس قد احتفظ به لنفسه . واضطر سيبس الى الركوب وحيدا الى التويلري .

ظل قواد الوحدات منتظرين فى زيهم العسكرى بباب بونابرت ساعة وقد أدهشهم أن يروا أنفسهم بهذه الكثرة وحيرهم السر فى دعوتهم على هذا النحو .
ووصل برنادوت - « الرجل العقبة » كما سماه بونابرت - آخر الكل فى ثياب مدنية مع صهره جوزيف بونابرت . ورفض أن يشارك بأى دور فى المغامرة ، ولكن بعد بضع كلمات حادة سمح بأن يسحب الى بيت جوزيف لتناول الإفطار . فلما أزيحت العقبة ، ظهر بونابرت على عتبة داره ، وتلقى هتاف الضباط المجتمعين ، ثم ركب الى التويلرى .

فى نحو هذا الوقت كان بارا يأخذ حماما . فلما خرج وجد زائرين هما تاليران والأميرال بروى ، فقدا له خطاب استقالة لا ينقصه الا توقيع . وقد أفلح مبعوثا بونابرت فى إرهابه ، فوقعه قبل أن تتاح لهما الفرصة ليعرضا عليه المليونين من الفرنكات اللذين قدمهما كوللو لهذا الغرض .

وألقى بونابرت فى التويلرى خطابا وجيزا بعد أن حلف اليمين . وقال « لا ينبش أحد الماضى بحثا عن أمثلة قد تعوق تقدمنا ! فلاشئ فى التاريخ بأسره يشبه السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، ولاشئ فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر يشبه اللحظة الراهنة » (٣٧) ثم خطب فى الجنود المجتمعين بحدائق التويلرى خطابا أطول ، منددا بالادارة الحكومية وواعدا بتحقيق الوحدة القومية . ولم يكن شئ من هذه الخطب داخلا فى خطط سييس ، وكذلك النشرات التى دبحها روديرر لبونابرت ، والتى بدأت تتداولها الأيدي فى باريس . وهكذا أخذ زمام السيف يفلت من يد سييس .

كان اثنان من أعضاء الادارة - وهما سييس ودوكو - اتخذا مقرهما فى التويلرى ليقبلا الادارة . أما الثالث ، وهو بارا ، فقد استقال استقالة كريمة . وأما العضوان الباقيان - وهما جوهيه ومولان - فلما ذهبا الى التويلرى ليريا ما يحدث ، أخبرهما بونابرت أن حكومة الادارة لم يعد لها وجود . وكرها أن يريا الاوضاع فى هذا الضوء ، فرفضا الاستقالة ، وعادا أدراجهما الى اللكسمبورج ، حيث وضع بونابرت حرسا عليهما .

وعاد الجنرال الى داره بعد منتصف الليل . وقال لبورين « لم تسر الأمور سيرا سيثا جدا . وسنرى ما يأتى به الغد » (٣٨) ثم مضى الى فراشه بعد أن وضع مستسنيين محشوئين بجانب وسادته .

أما الغد فقد سار فى الحق سيرا سيثا جدا . وصل بونابرت الى سان كلو قبيل الظهر . وهتف الجنود حين ظهر « ليحي بونابرت ! » ، وصاح النواب « ليحي الدستور ! » .

وفى الساعة الواحدة والنصف فتح مجلس القداماء جلستهم فى القاعة .

الكبرى بقصر سان كلو . وشعر الكثيرون منهم بأنهم خدعوا بالأمس . وتعالى الصيحات « لادكتاتورية ! » ، ووافق المجلس على اقتراح يدعو كل عضو لحلف يمين الولاء للدستور باجماع الأصوات الا صوتا واحدا .

وكان بونابرت فى هذه الأثناء قد ازداد قلقه وهو فى احدى حجرات الاستقبال بالقصر ينتظر نتائج المداولات . وفى الثالثة والنصف علم أن القدامى وافقوا على قرار يدعو الى انتخاب ادارة جديدة . وبدا لبونابرت كأنه خسر كل شئ . فأسرع الى القاعة الكبرى وقد شرد الدم من وجهه غضبا ، ومن خلفه حرس من الرماة . وأثارت النظرات العدائية التى سندها اليه الشيوخ ذوو العباءات الحمراء سورة غضبه . فتدفق من فمه خطاب مفكك العبارات ما لبثت مقاطعات السائلين العديدين الملحقين أن أحالته رطانة لا تفهم . وصاح فيهم « فاذا اقترح خطيب ارتشى بذهب الأجانب الحكم على بأننى خارج على القانون فلتسحقه صاعقة الحرب من فوره ! . . . انى أوجه الخطاب اليكم أنتم يا زملائي البواسل فى السلاح ، أنتم أيها الجنود الشجعان الذين قدتهم الى انتصارات كثيرة ! . . اذكروا أن اله الحرب واله الحظ يسيران الى جانبي ! » (٣٩) . وهمس بوريين فى أذنه « أخرج من هنا أيها الجنرال ، فانك لم تعد تعرف ما تقول » (١٤٠) . ولكن بونابرت مضى فى هذيانه الغاضب عدة دقائق أخرى قبل أن ينسحب .

وكان الانقاذ الوحيد لبونابرت فى كسب مجلس الخمسمائة . وبينما النواب يناقشون الأحداث المحيرة التى وقعت فى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة اذ ببونابرت يندفع الى القاعة على قعقة السلاح . ووقف الرماة بالباب ، وما ان رأى النواب الجنود حتى قفزوا واقفين على مقاعدهم . وتعالى الصيحات « اطرّدوا الدكتاتور من حماية القانون ! » ؛ بينما حاول لوسيان عبثا من كرسى الرئاسة أن يهدى هذه الثورة . وأمسك عدد من النواب بياقة الجنرال ودفعوه هناك ، بل يبدو أنهم لطموه على وجهه . وأخيرا سحبه أربعة من الرماة بعيدا عن القاعة ليكون فى مأمن ، وكان على خديه خدوش .

وجرى بونابرت الى سبيس لاهتا لا يكاد يبين . وصاح « أيها الجنرال ! انهم يريدون أن يطرّدوني من حماية القانون ! » (٤١) ولا بد أن الأسقف السابق قد استشعر لحظة من الرضا الحبيث حين سمع « الجنرال » يدعو « جنرالا » . ما العمل اذن ؟ ان بونابرت لم يعرف الهزيمة من قبل . لقد شل الموقف تفكيره .

أما فى مجلس الخمسمائة فكان أخوه لوسيان أثناء ذلك يجتاز نصف ساعة عصيبا . وقد نزل من كرسى الرئاسة غير مرة ، وفى كل مرة يأمره المجلس المحنق أن يعود اليه . أفيرأس اذن المجلس وهو يحكم بطرد أخيه من

القانون ؟ وفجأة ظهرت كتيبة من الرماة كأنها نجدة من السماء ، فامسكت به واختطفته . وارتج على النواب أول الأمر لاختفاء رئيسهم فجأة ، ثم ما لبثوا أن عادوا الى مناقشاتهم بدونه .

واندفع لوسيان الى الحجرة التي يجلس فيها سيبس وبونابرت . وقال سيبس في هدوء « أريدون أن تطردونا من حماية القانون ؟ حسن أيها الجنرال ، الحل أن تطردهم من قاعتهم » (٤٢) . وأذهل الاقتراح الآخرين بكل ما في بساطته من قوة . فجريا معا الى أسفل الدار ، وقفزا على جواديهما ، وركبا عدوا الى جنود حرس الهيئة التشريعية ، وكانوا واقفين في طوابيرهم . وخطب فيهم لوسيان أولا قائلا « ان رئيس مجلس الخمسمائة يعلن لكم أن أغلبية المجلس الساحقة يرهبها في هذه اللحظة نفر قليل من النواب المسلحين بالخناجر » . فهذه « الحفنة من المجانين الهائجين » أصبحوا خوارج على القانون . لذلك طلب لوسيان الى الجنود باسم الشعب أن يحموا الأغلبية من الخناجر بسناكيهم .

وأوحى ترديد كلمة « الخناجر » الى الجنرال بونابرت بفكرة ، وبدأ هو نفسه الآن يخطب في الجنود . فصاح : « أردت أن أتحدث الى النواب فأجابوني بالخناجر » (٤٣) . واقتنع الجنود ، فساروا الى الأورانجرى على دق الطبول ، حيث كان الخمسمائة غارقين في فوضى من الجدل في غيبة رئيسهم ، وما أن دخل الجنود القاعة وسناكيهم مثبتة ، حتى قفز النواب من النوافذ وجروا تاركين شمالاتهم في الحديقة .

وانتهى كل شيء فيما خلا تشكيلات قليلة . وصوت القدياء بعد ذلك بساعات بالموافقة على تشكيل حكومة مؤقتة ، وحذا حذوهم فلول الخمسمائة الذين دعاهم لوسيان من جديد لهذا الغرض . وعين بونابرت وسيبس ودوكو قناصل للحكومة المؤقتة . وهنا وصل تاليران من باريس . فقال « دعونا نتناول العشاء » (٤٤) .



حصل الجنرال بونابرت على ما أراد ، ولكن بغير الطريقة التي بيثها . فما هكذا ارتقى الجنرال واشنطن الى منصب الرئاسة ، وطرد خمسمائة نائب من قاعتهم بالسناكي لا يحتاج الى رجل ك نابليون بونابرت . لقد صاح به أحد النواب عصر ذلك اليوم « هل كسبت انتصاراتك أيها الجنرال لتفعل هذا ؟ » (٤٥) وهو سؤال وجيه . فهل من أجل هذا قتل في مصر قرابة ١٥٠٠٠ رجل ، أو شوهوا ، أو ماتوا عطشا ، أو فقدوا بصرهم ؟ وهل من أجل هذا مات أضعاف هذا العدد من الترك والعرب والفلاحين ؟ نعم ولا : فليس من أجل هذا بقدر ما هو من أجل ما يتلوه ، من أجل مجد لا نظير له في العصور الحديثة ، بذلت في سبيله عدة ملايين أخرى من الأرواح .

أكانت معارك مصر والشام ضرورة لا معدى عنها لكسب معركة سان كلو ؟
لا ، اللهم الا من الناحية السلبية الخالصة . فلو لم يذهب بونابرت الى مصر
ويكسب فيها معارك قليلة ، ولو لم يخسر معركة أبى قير البحرية فيطلق بذلك
سلسلة الأحداث التى أفضت الى استئناف حرب عامة ، لجاز أن يشتهر بأنه
الرجل الذى أخفق فى الاستيلاء على الجزر البريطانية لا أكثر ، وهى شهرة
ما كانت لتفتح له الطريق الى السلطة .

والتكهن بما كان يحدث لو . . . تسلية لذيذة طريفة ولكن لا يقل عنها
طرافة أن نذكر حقائق بسيطة أغفلها الآخرون . ومن هذه الحقائق أن بونابرت
كتب الى الجنرال كليبر حين رحل عن مصر يقول : « سأظل معك بالروح والقلب
. . . وسأعد كل يوم من عمري مضيقا اذا لم أفعل فيه شيئا للجيش الذى أتركه
تحت قيادتك » (٤٦) ولكن بونابرت لم يفعل شيئا ولم يقل شيئا على الإطلاق
طوال الشهر الذى انقضى منذ نزوله بأرض فرنسا (فى ٩ أكتوبر) الى تعيينه
قنصلا (فى ١٠ نوفمبر) ليفرج من كرب الجيش الذى خلفه بمصر . لقد كان
فى شغل عنه بأمور أهم ، وظلت شواغله تتزايد يوما بعد يوم .

يروى أن الجنرال كليبر قال حين علم برحيل بونابرت : « أيها الأصدقاء ،
ان هذا ال - تركنا وسراويله مملوءة - وسنعود الى أوربا وندعكها فى
وجهه » (٤٧) . وهو أمل مغر ، وقد يأسف الكثيرون على أن كليبر لم يستطع
تحقيقه .

٤

إذا أسندت القيادة العليا فى جيش من الجيوش الى أحد قواده استشعر
فى العادة السرور أكثر من الغضب ، ولكن الجنرال كليبر استشاط غضبا
حين علم أنه عين لقيادة جيش الشرق . فبونابرت فى رأيه هرب تاركا إياه
ليواجه المشكلات التى خلفها ويدفع ثمن أخطائه . بلى ان بونابرت لم يجرؤ على
مواجهة خلفه الذى كان سيرفض القيادة أو يقبلها بشروط محددة جدا .
وبونابرت حين جعل كليبر ينطلق الى رشيد ليلقاه فى موعد لم يكن فى نيته
الوفاء به لم يغرر به تغريرا رخيصا وحسب : بل انه أثبت جبنه الأدبى ، وقد
غل يد كليبر بمجموعة من التعليمات دون أن يعطيه فرصة مناقشتها أو
تعديلها . فلما درس كليبر التعليمات فخر فاه مكذبا ، لأنها بعدت عن علاج
الموقف بعدا يكاد يكون تاما .

كان الشطر الأكبر من هذه التعليمات يتألف من مذكرات أربع - عن الإدارة
الداخلية ، والتحسينات ، والدفاع ، وموقف مصر السياسى . وكانت تعرض

مبادئ أولية لا ضرورة لذكرها لقائد محنك مثل كليبر ، فضلا عن أن جميع مرعوسى بونابرت سمعوه يرددها ترديدا مملا ، أو كانت تتصل اتصالا هزيلا بالموقف على الطبيعة . ان فى استطاعة كليبر أن يصرفها بدعابة من دعاياته اللاذعة ، ولكن الأجيال القادمة ستعجب بعمق ما فيها من ذكاء وبصر . ان قمبرز ، واجزرسييس ، والاسكندر الاكبر ، وعمرو بن العاص ، وسليم الأول ، كلهم دخلوا مصر ٠٠ من صحراء غزة ٠٠٠٠ ان تركيا لم تعد دولة بل مجموعة من الولايات المستقلة ٠٠٠ ان الطاعون من أخطر أعداء الجيش ٠٠٠ ان مكة قلب الاسلام ٠٠٠ لا يفتك أن الاسكندرية يجب أن تصبح فى النهاية عاصمة مصر ٠٠٠ والتحسينات الدائمة ، والمخازن ، والمستشفيات ، والترسانات ، وطواحين الهواء ، والمصانع يحسن اقامتها فى الاسكندرية ٠٠٠ « (٤٨) وهكذا . ولا يحتاج المرء لجهد كثير ليتصور التعليقات التى حيا بها كليبر ، وهو ذلك الساخر الموهوب ، هذه المجموعة الفذة من البديهيات والأحلام الفارغة . لقد ترك له بونابرت جيشا هبطت قوته المقاتلة الأصلية الى النصف ، وانحطت روحه المعنوية ، وهذه المرضى ، واستحالت ثيابه أسملا ، وتفشى التمرد فى صفوفه ، وترك له عجزا قدره ١٢ مليون فرنك ، دون أمل فى ايرادات منظمة لعدة شهور ، وبلدا يغلى بالسخط المكتوم ، ولا يمكن السيطرة عليه سيطرة فعالة بالقوات التى تحت تصرف كليبر ، وموقفا حربيا يقربه كل نصر فيه من الكارثة أكثر فأكثر ، فانجلترا تسيطر على البحار . وتركيا (مهما وصفها بونابرت بأنها « لم تعد دولة ») تجرد جيشا من ٨٠٠٠٠ مقاتل ضده . فى ظروف كهذه يبدو الكلام فى تقوية أسباب الدفاع ، والاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع الزعماء الدينيين ، وصرف الملابس الجديدة للجيش ، وانشاء المستشفيات والترسانات ، والمصانع ، والاستعداد للبقاء الدائم بمصر - كل هذا يبدو بعيدا بعض الشيء عن الواقع . ولا ريب فى أن بونابرت لم يتوقع أن ينخدع كليبر بهذا كله ، كذلك لم يكن هو يخدع به نفسه : ولكنه وهو يترك لكليبر هذا العبء ، كان يرسى الأساس لأسطورة اتساع أفقه وبعد نظره .

كان من الأمور المعروفة عن كليبر أنه أبرز متحدث باسم القواد والموظفين الذين يعتبرون المغامرة المصرية مشروعا فاشلا لا أمل فيه ، ويحبذون الجلاء عن مصر بأسرع ما استطاع على أن يتم بشروط مشرفة . وكان هذا الحزب يؤلف الكثرة بين كبار الموظفين وعامة الجند على السواء . أما حزب « المستعمرين » - الذين ما زالوا يؤمنون بجعل مصر مستعمرة دائمة غنية - فكان أبرز المدافعين عنه الجنرال دافو ، وهو شاب طموح طموحا مرضيا ، والجنرال مينو المكتهل ، الذى غلا فى حماسه الاستعمارية فاعتنق الاسلام وسمى نفسه جاك عبد الله مينو . ولعل ديزيه ينبغى ألا يعد واحدا من هؤلاء « المستعمرين » ، وذلك رغم أنه كتب مذكرات تستحق الإعجاب عن طرق ادارة اقليم لم يستطع حتى السيطرة عليه ، ولكنه لم يكن أيضا من « أنصار الجلاء » . فلم اختار بونابرت كليبر دون

جميع الناس ليخلفه ؟ والجواب المعقول الوحيد هو أن أضمن طريقة لحمل كليبر على البقاء بمصر ، ومنع حدوث انشقاق علني في القيادة العليا ، هي جعل كليبر قائدا أعلى للجيش . كذلك كان كليبر أكفا القواد وأحبهم الى الجنود باستثناء ديزيه ، وقد رغب بوناپرت في أن يتبعه ديزيه الى فرنسا في نوفمبر ، وأصدر تعليمات محددة بذلك (*) .

وتحت هذه التوابل الكثيرة . من النصيحة الطيبة ، والأحلام العريضة ، والإشارات الى قمبيز والاسكندر الأكبر ، والمواصفات التفصيلية عن تنفيذ مشروعات خيالية ، أخفى الجنرال بوناپرت أرنبا يضطرب حيوية وواقعا : فقد كتب لكليبر يقول ، اذا لم تصلك لغاية مايو القادم معونة ولا أنباء من فرنسا ، واذا فتك الطاعون في العام القادم بأكثر من ١٥٠٠ رجل رغم جميع الاحتياطات . . . فلك أن تبرم الصلح مع الباب العالي ، ولو كان الجلاء عن مصر أهم شروطه « (٤٩) . وقد تحتل هذه الفقرة عدة تعليقات ، وسنعلق عليها بعد قليل . وحسبنا هنا أن ننقل تعليق كليبر عليها في خطاب مشهور أرسله الى حكومة الادارة . قال : « اني ألفت أنظاركم أيها المواطنون أعضاء الادارة الى هذه الفقرة لأنها ذات دلالة من نواح عدة ، ولأنها توضح الموقف الحرج الذي أجدني فيه » (٥٠) .

كان بوناپرت قد أرسل الى كليبر مع تعليماته صورة من خطابه الذي كتبه في ١٧ أغسطس للصدر الأعظم ، والذي أكد له فيه أن فرنسا لم ترد قط انتزاع مصر من السلطان ، وأن كل شيء يمكن تسويته في حديث ساعتين . على أنه أوضح لكليبر أن اتفاقا على الجلاء لا يستتبع بالضرورة الجلاء الفعلي . قال : « يكفي أن تعطل تنفيذ الاتفاق ، ان أمكن ، حتى تبرم معاهدة صلح عامة . ان السولة العثمانية . . . تنهار ، وسيكون الجلاء عن مصر وبالا أعظم على فرنسا ان رأينا هذا البلد الخصيب يقع في يد دولة أوربية أخرى ونحن على قيد الحياة » (٥١) . وهذا بالطبع هو المنطق الذي نبعث منه الحملة المنحوسة بأسرها - وهي حقيقة لم تفت كليبر :

ورأى كليبر أن تعليمات بوناپرت يمكن اغفالها جملة . أولا لأنه من المشكوك فيه أن يكون لقائد أعلى ترك جيشه دون اذن من حكومته الحق في اصدار تعليمات لخلفه ، وقد نقل بوناپرت - بتعيينه كليبر قائدا أعلى - كل

(*) لم يكن لبوناپرت الحق بالطبع في أن يأمر باعادة جنرال الى فرنسا بعد رحيله هو عن مصر ما دام قد أزمع التخلي عن القيادة . ومن ثم فقد استعمل هذه الصيغة الغريبة : « في نية (الحكومة) أن يعود الجنرال ديزيه الى أوربا في نوفمبر » . ولا حاجة بنا للقول ان « الحكومة » لم تعرب عن نية كهذه . وبمثل هذه العبارات الغامضة الملتبسة كان بوناپرت يأمن أن يوحي بأنه عائد الى فرنسا تنفيذا لأوامر الحكومة .

سلطاته اليه ضمنا . ثانيا لأن كليبر لم يستشر ، بل لم يسأل ، أهو راغب فى القيادة . وأخيرا لأن التعليمات قامت على أسس باطلة، وكانت مستحيلة التنفيذ .
والوثيقة الوحيدة - بين الأوراق التى أرسلها اليه بونابرت - التى كان لها فى نظر كليبر دلالة ايجابية هى صورة الخطاب الذى كتبه للصدر الأعظم . لقد فتح بونابرت الطريق للمفاوضات ، وكليبر مصمم على أن يمضى فيها الى ختامها .الموفق بأسرع ما يستطيع . ولكنه رأى أن واجبه الأول ، فى الوقت ذاته ، أن يحقق للجيش دفع رواتبه وتوفير الكساء والغذاء له ولو كلفه ذلك الجور على الفئات التى كانت حتى ذلك الوقت تتمتع بتسامح بونابرت - كالشيوخ ، وكبار التجار ، والجباة الأقباط ، والمستغلين فى ادارته الحكومية . « أيها الجنود ، لا يخامركم شك فى أن حاجاتكم الملحة ستكون على الدوام محل اهتمامى الأول » (٥٢) ، بهذه الكلمات اختتم كليبر أول منشور أذاعه على الجيش ، وكان يعنى ما يقوله .

لقد أكد كثير من الكتاب أن الجنود الفرنسيين فى مصر تلقوا نبأ رحيل بونابرت بالأسف والفرح . فاذا كان الأمر كذلك ، فليس السبب رحيله بل مكثهم بعد رحيله . والشواهد التى بين أيدينا تدل على أن ابتهاجهم حين علموا بأن قائدهم الجديد هو كليبر فاق كثيرا شعورهم بالحزن . فكليبر يحظى على الأقل بما يحظى به ديزيه من حبهم ، وهو يتمتع بثقتهم المطلقة قائدا لهم ، ووقفته القوية فى جانب التخلي عن مصر مشهورة بينهم .

أما عن استجابة السكان - لا سيما الشيوخ - للتغيير الذى طرأ على القيادة ، فقد أثر كليبر ألا يترك شيئا للظروف أو المصادفات . فحين دخل القاهرة فى موكب مهيب فى ٣١ أغسطس ، أبدى أبهة الملوك ، ولاحت على طلعتة صرامة كانت نقيضا واضحا لبشاشة بونابرت « وكان أمامه نحو الخمسمائة قواس وبأيديهم النبابت وهم يأمرون الناس بالقياس والوقوف على الأقدام لمروره » وأحنى الناس رؤوسهم وأيديهم مكتوفة وهو يمر . يقول الجبرتنى انه حين قدم اليه أكابر البلد من المشايخ والأعيان « لم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته ، فانه كان بشوشا يباسط الجلساء ويضحك معهم » (٥٣) .



كانت تعوز الجنرال كليبر موهبة الألفة السهلة التى يمتاز بها كل سياسى .
والتي أوتى منها بونابرت حظا وافرا . لقد كان كليبر - الرجل ذو البنية القوية والطلعة المهيبة ، والقامة المديدة التى تقرب من ستة أقدام ، والذي يميل بعض الشيء الى السمنة ، ويشبه شعره معرفة الأسد ، التيوتونى بلامحه العريضة الصريحة ، القوى الصوت الأمر النظرة بفطرته - كان فى هذا كله صورة صادقة للمحارب الجميل فى سنوات نضجه ، ونقيضا واضحا للكورسيكى

القصور القامة الشاحب الوجه ، المرتبك الحركة . كانت شخصية بونايرت مغناطيسية ، أما شخصية كليبر فتوحى بالاحترام فقط . كان كليبر يبدو للذين عرفوه في صفته الرسمية فقط هادئا ، باردا ، صارما الى حد الخشونة . ولا ريب في أنه كان في استطاعته أن يكون شديد الصرامة سواء مع جنوده أو مع الأمة التي وضع حكمها على كاهله على كره منه . غير أن صرامته كانت تتبدى ضغطا متصلا ، قويا في غير جلية ، لا عن طريق «الأمثلة» الشاذة الوحشية التي أسرف بونايرت في ضربها للناس اسرافا شديدا .

كان دخول كليبر القاهرة في هذه الأبهة مؤذنا بالتغيير الذي طرأ على سياسة الاحتلال الفرنسية . فرأيه منذ بداية الحملة أن أي محاولة لكسب مودة الأهالي المسلمين عن طريق التظاهر بالمودة والأخوة مقضى عليها بالفشل : فلن تنطلي هذه الخدعة على القوم ، فضلا عن أنهم سيخطئون فهم التسامح فيحسبونه ضعفا . أما الشيء الوحيد الذي يحترمونه أو يفهمونه فهو القوة . ولما كان يعتبر احتلال الفرنسيين لمصر مرحلة عابرة لا أكثر ، لذلك لم ير معنى لمحاولة اصلاح أحوال هذا الشعب ، التي هي وليدة آلاف السنين من الظلم والاستغلال والفوضى . وكان يوافق على ما انتهجه بونايرت من سياسة مراعاة العادات والتقاليد الوطنية واحترام الاسلام ، ولكنه لم يوافق على انتحال سلفه صفة المسلم . ومصر في نظره مجرد اقليم تحت الاحتلال العسكري المؤقت ، لا قلب امبراطورية استعمارية يمكن اقامتها . ولعل آمال بونايرت العريضة كانت تعوزه ، ولكنه أبدى تعقلا وحكمة أكثر كثيرا من بونايرت .

على أن سياسته كانت خاطئة في ناحية واحدة . كانت القاعدة التي انتهجها بونايرت أن يقطع ست رؤوس كل يوم ويحتفظ ببشاشته . أما في ادارة كليبر فكانت رؤوس قليلة تقطع ، ولكن لم يكن هناك بشاشة أيضا . وبدا للشطر الأكثر نفوذا من السكان أنه يصنع شرا من قطع الرؤوس : ذلك أنه كان يعتصر الأغنياء بطريقة منتظمة . كان من أول أعماله اكراه الجباة الأقباط على دفع ٨٠٠٠٠٠ فرنك ، استنادا الى أنه يكفيهم أن يربحوا ١٠٪ من تجارتهم هذه . واحتج الأقباط ، وناقشوا ، وبكوا ، ولكن كليبر ظل صلبا لا تلين له قناة . وحدث في مناسبة تالية حين توافرت له كل المبررات لقطع رؤوس عدة شيوخ ، أنه عفا عنهم ولكنه وقع عليهم غرامات باهظة . ومن الحقائق التي تصدق في كل بلاد الله أن الناس يقبلون في غير تردد التعرض لخطر بعيد الاحتمال هو خطر قطع رؤوسهم ، ولا يقبلون - اذا استطاعوا الى عدم القول سبيلا - حقيقة أكيدة ، هي أن تفرض عليهم ضرائب تزيد على ما ألفوا دفعه منها : والثورتان الكبيرتان ، الأمريكية والفرنسية ، مصداق لهذا القانون العام . على أن هذه الحقيقة كانت تصدق على مصر أكثر منها على أي بلد آخر . صحيح ان الفقراء في عهد كليبر اعتصروا أقل مما اعتصروا في عهد أي ادارة سابقة ، ولكن اعتصار

الفقراء لاخطر فيه (على الحاكم في ذلك الوقت) ، في حين أن اعتصار الأغنياء
اعتصارا يجاوز الحدود المقبولة محفوف بخطر أكيد .

على أن كليبر بين أخصائه كان رجلا يختلف تمام الاختلاف عنه في
صفته الرسمية . فهو بينهم ينبذ كل تكلف وتحرج . وأما حفلات عشاءه
فيسودها المرح والنشاط بقدر ما يسود البرود حفلات بونايرت . وقد
تصبح لغته خشنة ، وهو أقل ما توصف به ، في المجال العسكري ومجال
الأدب المكشوف ، ولكن روح الفكاهة فيه لا ذع لا فظ ، وهو يمارسه في سحاء
على حساب بونايرت . وكانت دعاياته عن « البطل » و « القوى القادر » يتناقلها
الضباط ، كما كانت رسومه الهزلية التي يخطها بيد سريعة موهوبة .

أما كراهية كليبر الصريحة لبونايرت فعزاها البعض الى عقائده الجمهورية
وعزاها البعض الآخر الى الغيرة . ومن العسير أن يحكم المرء على مبلغ الاخلاص
للعقيدة الجمهورية في رجل حارب في خدمة لويس السادس عشر وماريا تريزا
قبل أن ينضم الى جيش الثورة الفرنسية . وأما الغيرة فنحن اذا غضضنا النظر
عما في جميع المهن من قدر عادي من التحاسد بين أفرادها ، ولم نجد مبررا
للاعتقاد بأن كليبر كان يخص بونايرت بغيرته في الوقت الذي يعجب فيه بجراته
وعبقريته الحربية . ولما وصل الى « أبوقير » عقب انتصار بونايرت عانقه قائلا
« أيها الجنرال ، انك كبير كهذه الدنيا ، والدنيا أصغر من أن تسعك » (٥٤) -
وهو ثناء جميل ، رغم مسحة من الحبث ربما شابته . ولكن الذي لم يكن كليبر
يطيقه في بونايرت هو طمعه . فليس في وسعه الا احتقار رجل ضحى في
هدوء بآلاف الأنفس التي عهدت اليه في سبيل مستقبله الشخصي . لقد قام
بونايرت بجيش وخسر ثم تسلل هاربا كالجبان ، تاركا الجيش يدفع ديونه ،
وعاد الى فرنسا بطلا ليتجر بانتصاراته الفارغة . كذلك بدأ الأمر على الأقل
للجنرال كليبر . وتحول اشمئزازه من بونايرت الى مقت ايجابي . فلم يعقد
النية على أن يخرج بجيشه من مصر فحسب ، بل حاول الاضرار بسمعة بونايرت
في فرنسا بكل ما في متناوله من وسائل .

ولعل بعض هذه الوسائل كان دون مقامه ، وان تجلى فيها ولا ريب
حبه للفكاهة . من ذلك أنه بدأ تواقا للاستجابة الى ما طلبته مدام فوريه من
اعادتها الى فرنسا : فعودتها ستزعج « البطل والعاشق الذي فقدته » (٥٥) .
وقد أبحرت مدام فوريه فعلا على السفينة الأمريكية « أمريكا » ولكن السفينة
البريطانية ثيسوس نقلتها منها وردتها الى مصر (فحظ بونايرت عجيب حقا) ،
وهناك اضطرت الى البقاء شهورا قبل أن تصل الى فرنسا في النهاية . ولكن
أهم من هذا ذلك الخطاب الذي وجهه كليبر لحكومة الادارة في ٨ أكتوبر ، والذي
وصلت صورة منه الى بونايرت بعد أن أصبح قنصلا أول ، ووقعت صورة أخرى
في يد البريطانيين ، فكان لها نتائج وبيلة لكل من كان له بالأمر صلة .

رسم خطاب كليبر صورة غالت فى التشاؤم . على أن التعليقات التى علق بها نابليون على هذه الصورة بعد ذلك كانت أكثر غلوا فى الاتجاه المضاد . كتب كليبر يقول ان الجيش هبط الى نصف قوته . (فزعم بوناپرت أن هذا غير صحيح ، وانتهى بتقديرات زائفة الى أن لدى كليبر فى ذلك الوقت ٢٨٥٠٠ رجل ، ومع ذلك فان بوناپرت قرر فى خطابه الذى كتبه للإدارة فى ٢٨ يونيو ، أن الجيش سيهبط فى عام ١٨٠٠ الى ١٥٠٠٠ رجل منهم ٣٠٠٠ لا يصلحون للقتال !) وأضاف كليبر أن الأمراض تتفشى فى الجيش ، وأن الجنود يرتدون أسمالا مهلهلة . صحيح ان بوناپرت أمر بصرف ملابس جديدة للجنود ، « ولكنه ترك هذا الأمر كما ترك أمورا كثيرة غيره عند هذا الحد . والافتقار الى المال اضطره ولا ريب الى تأجيل تنفيذ هذا المشروع المفيد » (٥٦) .

أما عن الافتقار الى المال فقال « حين أبحر بوناپرت لم يترك فى الخزانة فلسا واحدا ، ولا ما يعادل النقد . بل ترك على العكس عجزا يكاد يبلغ عشرة ملايين . . . وتقدر متأخرات رواتب الجنود وحدها بأربعة ملايين » (٥٧) . (وعلق بوناپرت على هذا بأن العجز لا يزيد على مليون ونصف من الفرنكات . والواقع أن حساب الرصيد فى ٨ أكتوبر ١٧٩٩ فيه عجز يقرب من ١٢ مليون فرنك . وهذا بالطبع بعد رحيل بوناپرت بشهرين) .

وكتب كليبر ، فى غير مبالغة ، عن الموقف السياسى الداخلى فى مصر بأنه قلق مزعزع على أحسن الفروض . أضف الى ذلك أن جيشا تركيا كبيرا يقوده الصدر الأعظم وصل فعلا الى غزة (واعترض بوناپرت على هذه النقطة أن الصدر الأعظم لم يكن قد دخل سوريا بعد فى ٨ أكتوبر . وهذه مغالطة : فقد وصل الصدر الأعظم الى غزة بعد قليل) .

ويمضى كليبر فيقول ان هذا هو الموقف الذى ورثه عن الجنرال بوناپرت . « لقد رأى الأزمة القاضية وشيكة الوقوع » (٥٨) . وبسبب هذه الأزمة التى لا مهرب منها بدأ بوناپرت المفاوضات مع الصدر الأعظم . فماذا بقى لكليبر الا أن يتابع هذه البداية ، دون أن ينتظر فتك الطاعون بألف وخمسمائة آخرين من رجاله ! ومن ثم فقد كتب كليبر للصدر الأعظم وأرسل له نسخة من خطاب بوناپرت .

أما بوسيليج فقد بز كليبر فى تقريره المالى المنفصل ، الذى يوحى بأن بوناپرت أخذ من الخزانة مليونى فرنك لاستعماله الشخصى .

فلما وصل تقرير كليبر وبوسيليج الى باريس كانت حكومة الإدارة فى خبر كان . ورد بوناپرت - وهو قنصل أول - على كليبر بطريق الجنرال برتية وزير حربيته ، فقال ان معلومات كليبر غير صحيحة ، ويجب على أى حال ألا يوقع معاهدة بالتسليم . وخطاب برتية مكتوب فى ١٢ يناير ١٨٠٠ . ولكنه

لم يصل الى يد كليبر الا بعد مضي بعض الوقت على التوقيع والتصديق على التسليم .



كتب كليبر أول خطابه للصدر الأعظم يوسف باشا في ١٧ سبتمبر . فأعاد ما ورد في خطاب بونابرت المؤرخ ١٧ أغسطس من دعوة للباب العالي بالدخول في المفاوضات لرد مصر الى تركيا ، ولاستئناف التحالف التقليدي بين فرنسا وتركيا . على أن لهجة كليبر كانت أقل حماسة وأكثر لباقة . وبعد ذلك بأسبوع وعد كليبر الجيش في تفاؤل بقرب حلول السلام ، وذلك في منشوره الذي أذاعه عليه في ٢٣ سبتمبر (رأس السنة الثامنة) : « ان أعلامكم يازملاء السلاح تنوء تحت عبء انتصاراتكم . ولا بد لهذا المخاض الشديد من نهاية ، وهذه الأمجاد الكثيرة جديرة بالمكافأة . فتأبروا زمانا يسيرا لأنكم أوشكتم على بلوغ هذه النهاية وقاربتم نيل المكافأة ، وذلك باعطائكم العالم سلاما دائما ، بعد أن حاربتموه هذا الوقت الطويل » (٥٩) .

أما تفاؤل كليبر فيستند الى محادثاته مع الأسير مصطفى باشا كوسا ، قائد الجيش التركي الذي هزم في « أبوقير » . وقد أصبح مصطفى باشا ، الذي أقنعه الفرنسيون بوجهة نظرهم ، وسيطا بين كليبر والصدر الأعظم شهورا بعد ذلك . حقيقة انه ظل في قبضة الفرنسيين - رهينة أكثر منه أسيرا - ولكنه كتب للصدر الأعظم في عدة مناسبات حرجة ، وبروح التوفيق دائما . ولكن الصدر الأعظم كان أقل هوادة . وتبين أن افتراض بونابرت المتفائل بأن الباب العالي تواق الى الانفصال عن حلفائه البريطانيين والروس ، وإبرام الصلح مع فرنسا (وهو افتراض شاركه فيه كليبر أول الأمر) ، ليس الا ضربا من التمني . وكان الترك في مطالبهم أشد صلابة وعنادا من أى من الحليفتين . والعجيب أن السر سدننى سمث هو الذى اضطلع بدور الوسيط ، وأقنع الصدر الأعظم بعد لآى أن جيشا يطلب الهدنة ليس بالضرورة جيشا مهزوما ، وأن على الفريقين أن يتنازلا عن بعض مطالبهما .

بدأ تدخل سدننى سمث في المفاوضات في أواخر أكتوبر بخطاب لكليبر يبين له فيه أن معاهدة الحلف الانجليزية التركية تحظر عقد صلح منفرد ، وأن انجلترا يجب أن تكون طرفا فى أى اتفاق يعقد بين الفرنسيين والأتراك ، وأنه يجب الجلاء عن مصر قبل التوقيع على أى معاهدة صلح عام . وبدأ كليبر رده (المؤرخ ٣٠ أكتوبر) بلهجة لا تخلو من الكبرياء . فأكد أن القوات الفرنسية فى مصر تستطيع أن تقاوم أى جيش مقاومة طويلة ، فاذا تلقت أقل الأمداد استطاعت أن تقاوم الى الأبد . (ولغته مع السر سدننى سمث تناقض تماما لغته

مع الادارة لأسباب واضحة) . وقال ان الفرنسيين لن يجلوا عن مصر رغبة في العودة الى وطنهم لا أكثر ، ولكنهم سيبرحونها « بسرور وسرعة اذا كان جلاؤهم عنها هو الثمن الذى لا بد من دفعه فى سبيل صلح عام » (٦٠) . وهذا يبدو كأنه شرط ، ولكنه فى الواقع تنازل هام . والواقع أن كليبر ، بعد ذلك بسطور ، سلم فى صراحة ووضوح بأن جلاء الفرنسيين عن مصر يجب أن يتم تمهيدا لصلح عام ، وهو بهذا التنازل لم يتجاهل تعليمات بوناپرت فحسب ، وحق له أن يتجاهلها ، بل تجاهل كذلك تأكيداتة للادارة بأنه سيصر على احتلال عدد من المدن والحصون حتى تبرم معاهدة للصلح . أما جميع التنازلات التالية - وهى كثيرة - فكلها أقل أهمية من هذا التنازل .

ولا بد أن كليبر كان على بينة من أن الصدر الأعظم فقط هو الوحيد بين الأطراف الثلاثة المعنية - وهم كليبر ، وسمت ، والصدر الأعظم - الذى يملك سلطة المفاوضة فى أى أمر يتصل بمعاهدة صلح عام . فالسر سدننى ليس الا قبطانا فى البحرية الانجليزية ، له رتبة الكومودور المؤقتة وكل السلطة فى مفاوضة الباب العالى لا الفرنسيين . أما كليبر فليس له أى وضع دبلوماسى وان كان فى استطاعته الاستشهاد بسابقة ، هى تفاوض الجنرال بوناپرت فى عقد صلح تمهيدى مع النمسا فى ١٧٩٧ دون أن يخول هذه السلطة ، ولكن ذلك الصلح كان صلح نصر لا هزيمة . ومعنى هذا أن الجنرال كليبر حين كتب الى الكابتن سمت يقول ان الوقت حان « لتكف الامتان اللتان هما أكثر أهم أوربا حضارة عن مقاتلة احدهما الأخرى » (٦١) كان يغامر بارتياح أرض محفوفة بالخطر . وقواد الجيوش المعادية فى وقت الحرب لا يتبادلون عادة خطابات عن صواب عقد الصلح دون أن يعرضوا أنفسهم لتهمة الخيانة .

ولكن اقتراف الخيانة أبعد الأشياء عن نية كليبر . فقد قاس السر سدننى بدقة تامة ، وعبره رجلا عاطفيا شديد الحساسية والتأثر ، يتحرق شوقا للعب دور يجاوز كثيرا حدود منصبه الراهن . وكل ما يريده كليبر هو أن يجلو عن مصر بشروط مشرفة - أعنى بالسلاح والمتاع ، لا غالبا ولا مغلوبا . فلما لجأ الى سدننى سمت ليحقق بمعاونته هذه النتيجة ويرسى بتحقيقها الأساس لصلح دولى ، حوله من عدوه الى المتحدث المتجسس بلسانه . وبفضل وساطة سمت وافق الصدر الأعظم أخيرا فى ديسمبر ١٧٩٩ على اعطاء المفاوضين الفرنسيين تصريحات مرور .

فى هذه الأثناء صد الجنرال فردييه فى أول نوفمبر ، وهو على رأس ألف رجل أو نحوهم ، قوة غزو تركية أخرى قادمة من البحر تزيد على قوته أضعافا قرب دمياط . وكان الصدر الأعظم يتقدم فى سوريا على رأس جيش قوامه ٨٠٠٠٠ (نصفهم على الأقل من الخدم والطباخين وغيرهم من غير المحاربين) على أن رفض الجزائر باشا التعاون معه على أية صورة (فالباشا عدو لكل

«الدخلاء» ، أتراكا كانوا أو فرنسيين) جعل الجيش في حالة يرثى لها ، فكان الجنود يتضورون جوعا ويموتون ظمأ . ولا بد أن كليبر أدرك أنه قادر على أن يهزم الأتراك هزيمة ساحقة ، رغم زهده في القتال دون ضرورة . ولكنه مع هذا أثر المفاوضة . ورسائله تدل على دوافعه دلالة واضحة : فكل نصر يكسبه مهما كان رائعا سيكون غالى الثمن . ولن تكون نتيجته الا فقد مزيد من الرجال سواء في المعركة أو بالمرض ، ولن يكون له مفر من السقوط ان عاجلا أو آجلا تحت ضربات متتالية من عدو لا تنضب موارده . وخير له أن يفاوض ومركزه قوى من أن ينتظر حتى يموت بالطاعون ١٥٠٠ رجل ، ومثلهم في ساحة القتال .

فى ٢٢ ديسمبر صعد مفاوضا كليبر الى السفينة البريطانية « تيجر » حيث شرعا فورا فى اجراء محادثات تمهيدية مع السر سدننى سمث . والمفاوضان هما المواطن بوسيليج الذى اكتسب بعض الخبرة الدبلوماسية ، والجنرال ديزيه . فأما بوسيليج فهو « جلاثنى » صريح ، وأما ديزيه فقد قبل مهمته على مضض شديد ، وبعد كثير من التأمل والتفكير . وبأن له أنه ان رفض العمل الذى عهد به اليه كليبر فسينعين له قائد من أنصار الجلاء فيرتضى شروطا ربما كانت أقل ملاءمة مما كان ديزيه مستعدا لقبوله . وكان بوسيليج خلال المفاوضات كلها صاحب المبادأة ، فى حين قام ديزيه بدور « انفرملة » بين الحين والحين .

وكل الدلائل تشير الى أن بوسيليج طوى مضيفه على بنصره ، كما يقولون ، فى الأسابيع الثلاثة التى قضاها ضيفا على سمث على السفينة تيجر . كان بين الرجلين مشاركة تامة فى الآراء ، وربما فى الميول أيضا . ورأى السر سدننى فى بوسيليج « جنتلمانا » يستطيع المرء التعامل معه ، رجلا أوتى بصر السياسى ، وكتب له أن يلعب دورا هاما فى فرنسا . وكان كلاهما يبغض الجنرال بوناپرت بغضا شديدا . كذلك أقنع بوسيليج سمث بأن كليبر « رجل سمح كريم الخلق » وهو نوع الرجال الذين تمس اليهم الحاجة فى فرنسا ليخلفوا الحكومة الراهنة . وكان هناك - كما كتب سمث للأميرال كيت المحاربة أساس قوى جدا للقول بأن كليبر ألد الخصوم الذين يخشاهم بوناپرت . . . ولا يمكن أن يصلح من حال فرنسا غير الفرنسيين ، والى أن يصلح حالها فى أجهزة الحكم الداخلية لن يكون لنا سلام (٦٢) ، وكانت فكرة الكابتن سمث - التى شجعه عليها بوسيليج - أنه يستطيع بالمفاوضة لعقد اتفاق محدود النطاق فى الشرق الأوسط ، أن يحدث تغييرا فى الحكومة الفرنسية ، وينهى حربا استعرت سبع سنوات . ويستفاد من تقارير ديزيه أن شوق سمث لدفع عجلة المفاوضات قدما وللخروج منها منقذا لأوربا أصابه بما يشبه الهستيريا : فكانت تنتابه نوبات من الرعدة اذا أبطأ سيرها كثيرا ، ويضرب الأرض بقدمه كأنه « بريمادونا » مغلوبة على أمرها .

وبينما كان الفريق الفرنسى والسر سدننى يتبادلان الرأى على السفينة « تيجر » ، وصل جيش الصدر الأعظم الى غزة . وأصر ديزيه على وقف التقدم التركى فورا اذا أريد للمفاوضات أن تمضى فى طريقها . ووافق سمث وأخطر الصدر الأعظم بما يفيد هذا ، ولكن الصدر الأعظم أغفل رسالة سمث ، وزحف على العريش وهى فى يد حامية فرنسية قوامها نحو ٢٥٠ رجلا . وأمرهم قائدهم الميجر كازال بالمقاومة . ولكن الرجال تمردوا بدلا من أن يقاوموا ، ونهبوا مخزن الخمر ، ومزقوا العلم المثلث الألوان ، ورموا الحبال للأتراك ليسهلوا دخولهم . وشد ما ريع الكولونيل دوجلاس ، وهو ضابط بريطانى ملحق بمقر القيادة التركية ، حين رأى الأتراك يشرعون فى ذبح الحامية التى سلمت أمام عينيه ، وقد أفلح فى انقاذ نحو مائة من رجالها .

ولو أن حادثا كهذا وقع فى ظروف مختلفة لحمل الفرنسيين على قطع المفاوضات . ولكن نتيجةه الفعلية ، ان كانت له نتيجة ، كانت نقيض ذلك تماما ، لا لأن كليبر اعتبر فقد الحصن لطمة قوية ، بل لأن مسلك الجنود كان ممثلا للروح المعنوية فى الجيش الفرنسى . فقد سبقته حركة تمرد فى عدة مدن ساحلية ، وصمم الجنود على عدم القتال . وفى الاسكندرية قاموا بشغب ليمنعوا سفر عدة موظفين الى فرنسا وصاحوا كما يقول نقولا الترك : « اما نموت سوية ، واما نسلم سوية » . أنتم عمالين تهربوا واحد بعد واحد ، وترمونا نحن الصلوات الصغار فى هذه الغربة » (٦٣) لقد خيل اليهم أن الفيران تهجر السفينة الفارقة ، وأن الجنرال بونابرت تصدر موكب الفيران .

وكما يفضى مجرد الكلام فى الحرب بالأمم فى كثير من الأحيان الى الانزلاق للحرب ، فكذلك تولد أحداث الصلح قوة دافعة تنفرد بها . وفى ١٣ يناير وصل ديزيه وبوسبيلج يصحبهما السر سدننى سمث الى معسكر الصدر الأعظم فى العريش ليبدأوا الجزء الأهم من المفاوضات . وهناك تلقى المبعوثان الفرنسيان تعليمات من كليبر بعدم الاصرار على أن ترد العريش للفرنسيين ، بشرط أن يضمن الصدر الأعظم مراعاة وقف اطلاق النار مستقبلا . وكانت أهم شروط المعاهدة قد وضعت بالمراسلة بين كليبر والصدر الأعظم . فوافق الصدر الأعظم على أن يسمح للفرنسيين بالرحيل بسلاحهم ومتاعهم وبالاحتفال العسكرى الكامل ، وبأن يمدهم بالناقلات اللازمة . ولم يبق من النقاط الهامة سوى مطالب كليبر بأن تنسحب تركيا من تحالفها مع انجلترا وروسيا ، وبألا تدخل الجيوش التركية مصر حتى تقدم البحرية التركية الناقلات التى تحمل الفرنسيين الى وطنهم ، وبأن تضمن تركيا فى الوقت نفسه دفع المال اللازم لاعاشة الجيش الفرنسى فى مصر . وتيسيرا لاتصالات كليبر بالصدر الأعظم ، ورغبة فى اشرافه على الدفاع عن الجبهة المصرية فى حالة فشل المفاوضات ، نقل كليبر مقر قيادته الى الصالحية فى منتصف يناير .

وفى العريش وجد بوسبيلج وديزيه الأتراك شديدى التشبث فيما يتصل بالنقطتين الأخيرتين . أما النقطة الأولى فقد لقيا اعتراضا عليها من سدنى سمث ، اذ قال ان انسحاب تركيا من الحلف الثلاثى لا يمكن أن يتم الا اذا وقعت معاهدة صلح عام . وسلم كليبر بجميع النقط الا نقطة المال ، وكتب لمبعوثيه فى ١٩ يناير يقول ان الأهمية التى يعلقها على هذا الشرط بالغة جدا ، « بحيث أجدنى ميالا للاذن لكما بقطع المفاوضات اذا رفض هذا الشرط » . ومضى يقول ان مركزه الحربى قلق مزعزع ، ولكن الموقف المالى يبلغ من السوء حدا يجعله لا يعيش « من يوم الى يوم » بل من ثانية الى ثانية » . وقد أخضع المشكلة كلها « لتقدير حسابى دقيق » . ونتيجة هذا التقدير « أننا يجب ألا نقاتل ، ولكن يجب أن نصل لحل وسط مع أولئك الهمج ونحن لا نزال من القوة بحيث نفرض تنفيذ الشروط المتفق عليها بأمانة » . ثم قال انه قد يعترض على هذا بأن الأمداد قد تكون فى طريقها من فرنسا ، ولكنه لا يشعر أن هناك أى أمل فى وصولها . (وكان فى هذا على صواب تام) . « فقد مضى منذ عودة بونابرت الى فرنسا من الوقت ما يكفى لا لارسال سفينة بريد واحدة ، بل عشر سفن . ولكن واحدة منها لم ترسل ، لأن الحكومة لم يكن لديها ما تعدنى به . فاذا ظفرت بانتصار فكل ما أكسبه هو مهلة ثلاثة أشهر واذا هزمت فأنا مسئول أمام الجمهورية عن ٢٠٠.٠٠٠ مواطن لن يستطيعوا الافلات من الذبح بأيدي الجنود الحانقين المستبشرين . . . (خصوصا) وأنا فى هذا ضربنا لهم مثلا غاية فى السوء يحتفون به » (٦٤) .

ولم يوضح كليبر حجته بأجلى مما وضعها هنا . كذلك تبين هذه الفقرة كرهه للتهويل من مذبة حامية العريش : لأنه كان يذكر مذبة يافا . وحجته لا مغمز فيها عند من يحكمون المنطق . أما الذين يقولون ما قاله الشاعر الانجليزى « ليس المجال مجال منطق ، انما المجال مجال العمل والموت » . (وهى مدرسة فكرية تسود تفكير وزارات الحرب فى العالم اليوم أكثر منها فى أى وقت مضى) فيرون كليبر مذنباً ، وذنبه التفكير المنطقى - وهو ذنب لا يغتفر فى الجندى . أما كليبر فقد دعا مجلس حرب من ثمانية قواد ليعزز موقفه ، فأيده الجميع فيما عدا واحداً (هو دافو) ولو كان مينو حاضرا لعارضه .

ووضعت المعاهدة فى الأيام القليلة التالية ، وصدق عليها كليبر فى ٢٨ يناير . وتقضى شروطها بأن يتعهد الفرنسيون باخلاء قطيا والصالحية وبلبيس بعد عشرة أيام من التصديق ، واخلاء القاهرة بعد شهر . واتفق على أن تنسحب جميع القوات الفرنسية الى الاسكندرية وأبى قير ورشيد وتنتظر فيها وصول الناقلات التركية . وتعهد الأتراك بنقل الجيش الفرنسى بسلاحه ومتاعه الى فرنسا ، وبتقديم نحو مليونى فرنك فى الوقت نفسه لاعاشته فى مصر . ولم يبق سوى نقطة صغيرة واحدة لم تسو قبل رحيل المفاوضين : فقد أصر ديزيه

على أن يرد والى القدس عاملة فرنسية فى أحد مطاعم الجيش وهى أرملة جاويش قتل فى المعركة ، وكان الباشا قد أخذها ليضمها الى حريمه • ووافق الصدر الأعظم - ولكن زوجة الجاويش لم توافق • وأعلنت أنها فى غاية السعادة حيث هى ، وقد ظلت فعلا تعيش فى القدس سعيدة حتى عمرت •



أحس كليبر بشيء كثير من القلق ، لا على ما فعله ، بل على الاستقبال الذى سيستقبل به عمله • وقلقه واضح تماما فى عشرة خطابات أو نحوها كتبها للإدارة (التى لم يكن أحيط بعد بموتها) ولديزيه ولديجا • ولكنه كلما أمعن فى مساءلة ضميره أفضى به الى النتيجة بعينها : فالعقل ، والانسانية ، والفهم الصادق لمصالح بلده - كل أولئك أملى عليه سلوكه ، وقد اقتضاه الثبات على تصميمه على الصلح جهدا وشجاعة أكثر من أى معركة خاض غمارها • وربما كان صوابه أو عدم صوابه فى موقفه هذا مسألة رأى شخصى • ولكن رأى المؤلف القاطع هو أن كليبر على صواب •

وفى الشهر التالى للاتفاقية نفذ كليبر شروطها بدقة ، وذلك بموافقة أغلبية الجيش الساحقة • ومن الأقلية التى لم توافق الجاويش فرانسوا الذى نقل الى سلاح الهجانة ، وأصبح ، منذ نقله ، اذا تحدث عن فرقته لا يذكرها الا بعبارة « نحن الهجانة » - وهى عادة أكسبته كنية هى « هجين مصر » طوال حياته بعد ذلك • يقول فرانسوا : « كنا نحن الهجانة نعلم أن الجنرال ديزيه خجل من الدور الذى اضطر الى القيام به فى تلك المفاوضات » (٦٥) • وفى الأيام الأولى من مارس تحولت الأحداث تحولا بدا مبررا لموقف حزب «الهجن» ازاء «الآدميين» • ذلك أنه فى ٢ مارس وصل اللواء لاتور - موبور الى القاهرة قادما لتوه من باريس وحمل لكليبر نبأ انقلاب ١٨ برومير ، ونسخة من الدستور الجديد الذى نصب بوناپرت قنصلا أول • كذلك جلب معه بضع صحف ونشرات وكتب وترقيات ، ولكنه لم يأت بخطاب تعليمات واحد ، ولا بأقل وعد بإرسال المدد • ويضطرم الخطاب الذى كتبه كليبر لبرتييه ردا على هذا بروح الغضب • وقد كتب الى ديجا يقول : « انهم يستغلوننا » (٦٦) : وكتب لبوسيبيلج يقول : « ان سلطة بوناپرت المطلقة قد تحجب الحقيقة لحظة ، ولكنها ستتكشف ان عاجلا أو آجلا ••• ولو خیرت فى أن أبدا كل شيء من جديد لفعلت بالضبط ما فعلت » (٦٧) • أما الذين رأوا فى تقلد بوناپرت زمام الأمور حجة ضد كليبر فبادروا بالشكر له ، وعلى رأس هؤلاء مينو الذى كتب من فوره الى بوناپرت ، والى برتييه ، والى كل صديق قوى فى باريس ، خطابات لا يكتبها الا كل متملق ذليل • وقال لهم جميعا ان اتفاق كليبر مع سمث والصدر الأعظم « قد أحزن جميع محبى الشرف والوطن أعرق الحزن » (٦٨) • وبينما كان مينو يطعن شرف كليبر على هذا النحو ، رجا كليبر بوسيبيلج أن يرسل اليه محضر مجلس الحرب

الذى وافق على الاتفاقية ، أو يتلفه ، حُشية أن يعرض القواد الذين وقعوه للمؤاخذه .

وتلقى كليبر ، فى نفس الوقت الذى تلقى فيه هذه الرسائل من باريس تقريرا ، نبأ ربما كان أشد ازعاجا حتى من هذه الأنباء ، وقد تلقاه من بوسيبيلج الذى مكث مع السر سدننى سمث مبعوثا خاصا للهدنة . ذلك أن الأميرال كيت أنبأ السر سدننى بأنه تلقى تعليمات مؤكدة من الحكومة الانجليزية باغفال أى اتفاق توصل اليه الصدر الأعظم مع الفرنسيين ، وسيعترض الأسطول البريطانى كل شحنات من الجنود الفرنسيين ويعامل أفرادها معاملة أسرى الحرب . وقد سببت هذه اللطمة للسر سدننى فزعا فاق حتى فزع كليبر : فقد كان مشروعه كله على وشك الانهيار ، وتعرض شرفه وسمعته للخطر . وكتب الى كيت يقول : « سيدى ، اننى أعترف بأننى بوصفى وسيطا فى هذه المهمة لم يدر بخلدى أننا قد نضع أى عقبة فى طريق اتفاق عظيم الفائدة لنا فى جملته ، ولا يمكن بالطبع أن يتم بأى شروط مهينة لجيش محنك لم يهزم ولم يحاصر » (٦٩) . والواقع أن رفض الحكومة البريطانية لاتفاق العريش كان خطأ شنيعا كلفها فى النهاية ثمنا باهظا . وقد أفضى اليه ضرب من هذه التخبطات الخطيرة ، التى يبدو أن الحكومة البريطانية تحتاج اليها بين الحين والحين لكى تؤدي وظيفتها على الوجه الصحيح بعد ذلك . (والهجوم البريطانى على مصر فى ١٩٥٦ هو أحدث أمثلة هذا التخبط) .

كان قد وقع فى أيدي البريطانيين نسخة من الخطاب الذى كتبه كليبر للإدارة فى ٨ أكتوبر ، والذى انتقد فيه بونايرت ورسم صورة متشائمة لمركز الفرنسيين فى مصر . وانتهت الوزارة البريطانية ، استنادا الى هذا الخطاب المتسم بشئ من المبالغة ، الى نتيجة ، هى أن كليبر على شفا الهزيمة الكاملة ، ومن ثم أصدرت تعليماتها الى كيت باغفال أى اتفاق توصل اليه الأتراك والفرنسيون ، وبذا يكره الأتراك على استئناف القتال واطمام إبادة جيش الحملة الفرنسية ، وقد أبلغ اللورد كيت هذه الحماسة الفذة الى سمث دون أن يعبا حتى بسؤال حكومته عنها . وغيرت الحكومة البريطانية أثناء ذلك قرارها ونصحت اللورد الجن ، السفير البريطانى فى الآستانة ، بقبول اتفاق العريش مع تعديلات يسيرة فقط ، وبتأمين مرور ناقلات الجنود الفرنسيين . ولكن لسوء الحظ لا اللورد جرنفيل وزير الخارجية ولا اللورد الجن أحاطا اللورد كيت بهذا التطور الجديد (*) .

(*) اهتم البعض اهتماما كبيرا بمسألة فنية هى : هل كان لسدننى سمث سلطات صحيحة تخول له توقيع اتفاق الرميث ، وباغفال المفوضين الفرنسيين التحقق من سلطات سميت . ولكن هذه المسألة الفنية قليلة الأهمية ، لأن الاتفاق كان اتفاقا عن مسألة خاصة ، تم فى جزء =

ولو شاء سدنى سمث لأخفى مضمون تعليمات كيت عن الفرنسيين حتى يجلوا عن القاهرة ويصبحوا عاجزين عن استئناف القتال . كتب للورد سبنسر يقول : « كان موقف الجيش رهنا بإبلاغى إياهما بعدم التصديق على الاتفاق . . ولكن حتى لو كان حقا وصدقا أن الجيش الفرنسى ، الذى ما زلنا فى صراع معه ، سيصبح هياكل عظمية مبيضة على الرمال اذا قدت رجاله خطوة خطوة الى حتفهم ، وهو ما كان بالطبع والتأكيد فى مقدورى أن أفعله ، فاننى أرثى للرجل الذى يتمنى هذا على حساب شرفنا القومى » (٧٠) والواقع أن السر سدنى أنبأ بوسبيلج فى اخلاص بالعقبة التى قامت . وكتب بوسبيلج لكليبر يقول : « لقد بدأ الابتئاس الصادق على سمث . وأخبرنى أنه يعرض حياته للخطر بمخالفته الأوامر التى تلقاها ، ولكنه يؤثر فقدانها ألف مرة ، عن ألا يبذل كل محاولة لتيسير اتمام تنفيذ الاتفاق » (٧١) . وقد فعل سمث هذا (ولو أنه لم يعرض حياته لخطر كبير) بمحاولته اقناع الصدر الأعظم أن يوقف زحفه حتى تذلل الصعوبة التى أثارها خطاب كيت ، كذلك كتب للورد الجن يطلب اليه تأمين الجنود الفرنسيين المزمع إجلاؤهم . وقال للسفير : « ان الهدف القومى العظيم سيتحقق اذا استطعنا اخراج الفرنسيين من البلاد ، حتى لو حملوا الأهرام معهم » (٧٢) .

وبدا لكليبر كما بدا لسدنى سمث ، وكأننا فى ذلك على حق ، أن سبب العقبة كلها سوء تفاهم يمكن ازالته فى زمن قصير ، بشرط أن يوافق الأتراك على وقف زحفهم . ومن ثم طلب الى الصدر الأعظم أن يسحب جيشه من بلبيس التى جلا عنها الفرنسيون فعلا ، وعرض تجميد موقف الجيشين حتى تذلل العقبة بالمفاوضة . ولكن الصدر الأعظم أبى أن يستمع لشيء من هذا رغم جهود سمث ، وأصر على تنفيذ المعاهدة فى موعدها بالضبط مع ما طرأ على الظروف من تغير ، وواصل زحفه على القاهرة .

وفى ١٨ مارس تلقى كليبر من اللورد كيت خطابا (*) شخصيا ، صيغ بلهجة وحشية مهينة ، وأخطر فيه الجنرال بأن جلالة الملك لا يستطيع الموافقة على أى تسليم بأى شروط ، غير التسليم غير المشروط . وكان الصدر الأعظم فى هذا الحين قد قرب من أبواب القاهرة على رأس ٤٠.٠٠٠ رجل .

هنا انتفض كليبر - كما قال بونايرت - « انتفاضة الأسد » . ويقول

= ناء من العالم ، والأوامر التى تلقاها اللورد كيت صدرت قبل أن تعلم الحكومة البريطانية أن سمث ظف فى المفاوضات ، والتعليمات التى أرسلت الى اللورد الجن أيدت فى أساسها تصرف سمث . وحتى لو كانت مسوغات سمث صحيحة لا مطعن فيها ، لكانت النتيجة واحدة .

(*) أرخ الخطاب ٨ يناير ، على بارجة الأميرال كيت « تشارلوت » الراسية تجاه مينورقة ، وهو تاريخ يسبق توقيع اتفاق العريش .

نقولا الترك ، بتشبيهه مختلف انه « بدا يعج كالجمال الهايج » (٧٣) ولا جدال في أن رد الفعل عند كليبر تجلى رائعا . فلم تمض ثمان وأربعون ساعة حتى كان قد ألغى جميع أوامر الجلاء ، وأخطر الصدر الأعظم بأن الهدنة انتهت ، وأصدر للجنود منشورا لم يزد على نص خطاب كيت الكامل سوى سطرين : « أيها الجنود ، لا جواب لدينا عن هذه الوقاحة الا النصر ، فأعدوا أنفسكم للمعركة » ، وفي الساعة الثانية من صباح ٢٠ مارس ، خرج من القاهرة للقاء الصدر الأعظم . وقبل أن يرخص الليل سدوله كان قد أوقع الهزيمة الساحقة بجيش يبلغ أربعة أضعاف جيشه قرب أطلال عين شمس : وأخذ هجومه الأتراك على غرة . ولم يمض أسبوع حتى كان قد طرد الجيش التركي من مصر .

وهنا الجنرال مينو ، وهو أشد المتعلقين زلفى ، كليبر على انتصاره بعبارات يشوبها شيء من عدم الكياسة ، فكتب « اذا كان اتفاق التسليم الموقع في العريش في رأيي خطأ سياسيا ، فان النصر الباهر الذي حققته ، واعادة فتح مصر الذي أنجزته ، يكللناك بالمجد . ليس لي أيها الجنرال من أمنية سوى مشاركتك مجدك وجهادك . . . فاذكر من أنت ، تصبح مؤسس مستعمرة عظيمة » (٧٤) . وكان جواب كليبر ساخطا : « تلقيت خطابك الآن أيها المواطن الجنرال . وان بي من الغباوة الشديدة ما لا يجعلني أعتقد حتى اليوم ، أن اتفاق العريش كان خطأ سياسيا ، أو أن هناك أي مبرر للتيه بالنصر الذي كسبته بجيشي . فانا الى اليوم شديد الاقتناع بأنني بهذه المعاهدة وفقت في وضع حد معقول لمشروع جنوني . وما زلت الى اليوم مؤمنا بأننا لن نتلقى معونة من فرنسا وأننا لن ننشئ أي مستعمرات في مصر ما لم تنبت أشجار القطن والنخيل جندا ورصاصا . . . ان وجهك أيها الجنرال يتجه صوب الشرق ، أما وجهي فصوب الغرب . ولن يفهم أحدنا الآخر أبدا » (٧٥) .

وقليل من القواد من ظفر بنصر باهر كذلك الذي ظفر به كليبر عند عين شمس ، وقليل منهم من أعاد فتح بلد في مساحة مصر السفلى في أسبوع واحد ، وأغلب الظن أن أحدا منهم لم ينظر قط الى نصره هذه النظرة التي تتسم بالحياد والأسى . ان معركة عين شمس لم تكن في نظر كليبر انتصارا حروبيا مجيدا ، بل نتيجة دامية لغلطة غبية : وما كان يصح قط أن تقع ، ولا مسوغ لها ، شأنها في ذلك شأن الحرب كلها .



على أن انتصار كليبر في عين شمس كان ناقصا رغم كونه انتصارا باهرا . فبينما كان كليبر يطارد الصدر الأعظم اللائد بالفرار ، أفلح ناصف باشا ابنه ، مع شطر من القوات التركية ، في الإفلات من الفرنسيين ويم شطر القاهرة ، وأعلن أن الجيش الفرنسي دحر . وفي لحظة تمرد الأهالي على الفرنسيين ،

وما لبث الجنود القلائل الذين تركوا بالقاهرة أن عزلوا فى القلعة ، وفى حصنين ، وفى مقر القيادة بميدان الأزبكية ، وفى قليل من البيوت المنعزلة . وضربت الفوضى أطنابها فى القاهرة من تلك اللحظة الى أن استولى كليبر على المدينة من جديد بعد خمسة أسابيع . وأغار الغوغاء بتحريض ناصف وعثمان . كتحدا الصدر الأعظم . على الأحياء المسيحية وراحوا يقتلون ويغتصبون وينهبون . ولم يقاوم سوى درب النصارى (القبط) تحت قيادة المعلم يعقوب الباسلة . أما الجنود الترك فبدلا من أن يوقفوا الفوضى شاركوا فى أعمال الاغتصاب والنهب . وسرعان ما ندم ناصف وعثمان على تحريضهما وتسليحهما الغوغاء ، لأنهما فقدتا كل سيطرة على الموقف .

فلما عاد كليبر الى القاهرة فى ٢٧ مارس لم يكده يستطيع شق طريقه الى قصر قيادته من مدخل الحديقة . وبينما كان ينتظر وصول المدفعية اللازمة لقذف الأحياء الثائرة أمر جنوده بتطويق المدينة وعزلها عن موارد الزاد ، ودعا الأتراك فى الوقت نفسه للتسليم : وكان القواد الترك الآن راغبين فى ذلك لولا أن منعهم الغوغاء . وعرض كليبر العفو على الأهالى : ولكنهم قتلوا رسوله . فلم يكن مناص من قذف المدينة بالمدافع وتجويعها حتى تسلم .

وكان جميع البكوات والمماليك الباقين قد دخلوا المدينة من جديد مع الترك الا واحدا . أما هذا الواحد فمراد ، الذى ظل فى الأطراف متفرجا محايدا . فلما دعاه زملاؤه البكوات للانضمام اليهم راوغ فى الجواب ونصحهم بمفاوضة الفرنسيين . وأرسل اليه البكوات واحدا منهم هو عثمان بك ليرده الى رشده . وبعد حديث عثمان مع مراد ، عاد عثمان الى القاهرة مقتنعا تمام الاقتناع برأى مراد .

وتفسير سلوك مراد المحير غاية فى البساطة . ذلك أن كليبر كان قد أرسل فى ١٤ مارس ، قبل استئناف القتال ، الرياضى فورييه ليحس نبض نفيسة زوجة مراد فى ضم مراد الى صف الفرنسيين مقابل تقليده حكم الصعيد . ورحبت السيدة نفيسة بالعرض ، وأبلغته الى زوجها بطريقة خفية . ولم يكن مراد تواقا للقاء الأتراك ، ولا مستاء من هزيمة الصدر الأعظم ، لأنه لم يدفع « الميرى » للباب العالى سنين طويلة . لذلك وافق على العرض الفرنسى ، وأرسل فى ٥ ابريل عثمان بك الى كليبر ليبرم معه تحالفا . وهكذا كملت الدائرة : فقبل عامين هاجم الفرنسيون مرادا باسم حليفهم السلطان ، وقاوم مراد الفرنسيين باسم سيده السلطان بعينه ، وأفلت من مطارديه الفرنسيين قرابة عام وهو يدوخهم خلفه من القاهرة الى أسوان وبالعكس ، وها هو ذا الآن ينضم بقواته الى الفرنسيين تهربا من دفع الضرائب للسلطان الذى حاربهم من قبل باسمه .

ولم يحل منتصف ابريل حتى كانت القاهرة تتضور جوعا ، ويرجع بعض

الفضل فى هذا لمراد بك الذى اعترض قافلة زاد فيها ٤٠٠٠ ر من الغنم . وجر الجوع فى أذياله مزيدا من النهب والتعذيب والابتزاز ، مع قتال من بيت لبيت وقذف بالمدافع لا يننى ليل نهار . وأصبح حتى الأذربكية كله بقصوره وحدائقه أطلالا ، واشتعلت النيران فى المدينة كلها . يقول نقولا الترك : « وكانت النساء والأولاد يتخبون ويجتمعون تحت العقودة الحجر خفا من القنابر ٠٠٠ وكنت تسمع فى الليل صريخ النساء والأولاد » (٧٦) .

ورغم هذا كله استمرت المقاومة ، وكانت حفنة من المهيجين الشعبين الذين طلوعوا من حيث لا يدرى أحد يهددون بقتل كل من يتحدث عن التسليم .

وفى ١٤ ابريل أمر كليبر بهجوم كبير على المدينة . وفى رواية الجبرتى أن الفرنسيين استعملوا نوعا بدائيا من قاذفات اللهب « وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران ، وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التى تشتعل ويقوى لهبها بالماء » . وهذا لا ريب اختراع من بنات أفكار عضو فى اللجنة العلمية - وذلك بالإضافة الى مدافع الميدان (*) . وزاد من الضجيج والرعب مطر غزير ورعد وبرق لا يصيب القاهرة الا فى القليل النادر . يقول الجبرتى ان الفرنسيين : « كانوا يلهبون السقائف وضرب الحوانيت وشبابيك الدور ، ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا . والمسلمون أيضا بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم ٠٠٠ وزلزلوا فى ذلك اليوم واللييلة زلزالا شديدا وهاجت العامة وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان ، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة . هذا والأمطار تسح حصاة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة ، كذلك الرعد والبرق » (٧٧) . وفى وسط هذا الجحيم مضت المفاوضات بين ناصف باشا وكليبر بوساطة مراد . وضعف القتال فى اليوم التالى وما زال أكثر القاهرة فى أيدي الثوار . وركز كليبر جهوده ضد حى بولاق الذى أبى التسليم بعد أن وعد بالعفو . وقاتل الفرنسيون كالمجانين فى بولاق واستولوا عليه عنوة . يقول الجبرتى : « وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » (٧٨) . واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور عليه ، بما فى ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشرونهم معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية .

وأخيرا خضع الثوار لحكم العقل فى ٢٢ ابريل . وكف القوم بعد ما نالهم من اعياء ورعب عن مقاومة قبول ناصف باشا لشروط كليبر السخية . وسمح للجنود الأتراك أن يرحلوا بسلاحهم ومتاعهم يحرسهم الفرنسيون الى الصالحية ومنها يمضون الى سوريا . أما المماليك فيرحلون الى الصعيد ، ولكن أكثر

(*) الجبرتى هو مرجعنا الوحيد فى هذه الآلة ، على أن وصفه لها ولآثارها فيه من التفصيل ما يكفي لجعل روايته مقبولة .

البكوات ، ومنهم ابراهيم ، فضلوا أن يتبعوا الصدر الأعظم الى سوريا . وفي أثناء سير الأتراك المغلوبين تحت الحراسة الى الصالحية أدهشهم أن يروا الجنرال رينييه قائد الحرس الفرنسى يقلم المطايا ليركبها الجرحى والمتخلفون من رجالهم .

ولم يسمح لمصطفى باشا كوسا ، الذى ظل فى أيدي الفرنسيين طوال حصار القاهرة ، بالرحيل مع بقية الأتراك بل أبقى أملا فى تبادل الأسرى . وأرسله كليبر مع آخرين من الضباط الأتراك المأسورين فى أبى قير الى دمياط وهو يتوقع الوصول الى اتفاق سريع عن هذه المسألة . ولكن الأتراك وضعوا كل العقبات فى طريق التبادل ، ومات مصطفى باشا فى دمياط قبل الوصول الى اتفاق « من قهره » كما يقول نقولا الترك وشيعة الفرنسيون باحتفال عسكرى كما يشيع القواد الفرنسيون .



وعد كليبر بالعفو العام عن أهالى القاهرة فى الوقت الذى قبل فيه تسليم الأتراك . وكتب للحكومة العثمانية ، حتى قبل استيلائه على المدينة من جديد ، يعرض عليها استئناف المفاوضات تمهيدا للجلاء عن مصر . ولا أساس اطلاقا لما زعم نابليون من أن « كليبر بعد هذا الانتصار . . . بذل قصارى جهده فى دعم المستعمرة وتقويتها ، وأصبح سلوكه فى كل ناحية نقيض ما كان من قبل » (٧٩) ذلك أن كليبر لم يعدل عن رأيه فى أى شىء .

ومع أن كليبر ثبت على رأيه فى أن الجلاء عن مصر هو هدفه النهائى — على عكس ما زعم نابليون — فانه كان يكره ولا ريب أن يمضى فى المفاوضات دون اذن من حكومته ، بعد علمه بتقلد بوناپرت زمام السلطة ، ونتيجة ذلك أنه شعر بأنه مضطر أن يوطن النفس على المكث بمصر فترة أطول مما نوى . وأمر بتشديد تحصينات محكمة ، وبسط ادارة المالية والتموين (منعا للتبديد قبل كل شىء) . ونظم ديوان القاهرة من جديد . وأعاد عدة شيوخ الى مناصبهم (وأهمهم الشيخ البكرى الذى كاد يفتك به الثوار) ولكنه أمر بفرض غرامات باهظة على آخرين منهم . واذ كان كليبر قد امتنع عن توقيع العقوبات البدنية على الأهالى انتقاما منهم لأنه وعد بالعفو عنهم ، فانه انتهز الثورة فرصة لتزويد خزانة الجيش الخاوية بالمال بوسائل غاية فى الوحشية . فلما قرر الشيخ السادات مثلا أنه عاجز عن دفع الغرامة المفروضة عليه ، أمر كليبر بحبسه فى القلعة الى أن تشفع مراد بك للعفو عن هذا الشيخ الجليل . ويمكن أن يوصف حكم كليبر ، الذى لم يقدر له البقاء طويلا ، بأنه ارهاب مالى . ولم يحل آخر شهر مايو حتى كان الجيش — فى بداية الجاويش فرانسوا — قد تسلم رواتب عشرة أشهر متأخرة . فكليبر كان مصمما على أن « يعصر مصر كما يعصر الشربتلى الليمونة » على حد قوله لا راغبا فى انشاء مستعمرة دائمة فى مصر ، وذلك وفاء بالتزاماته قبل الجيش حتى يأتى يوم الجلاء السعيد .

فى ٣ مارس ١٨٠٠ غادر الجنرال ديزيه الاسكندرية ، مزودا بجواز سفر وقعه الصدر الأعظم والكومودور سيدنى سميث ، على ظهر سفينة تجارية راجوزية أطلق عليها صاحبها هذه التسمية الموجزة المفيدة « بيت نعمة القديس أنطونيوس البادوى » . وتبعه الجنرال جونو على السفينة « ايتوال » . وفى أواخر مارس لاح الشاطئ الفرنسى للسفيتين ، واذا فرقاطة انجليزية توقفهما ورجالها يصعدون اليهما . وقرر قائد الفرقاطة أن جوازي ديزيه وجونو غير قانونيين لأنهما لا يحملان توقيع اللورد كيت ، ثم اقتاد السفينتين الى لجهورن . وهناك أمر اللورد كيت بحبس القائدين الفرنسيين فى أحد المستشفيات ، وكانت معاملته لهما غير كريمة ، ولو علم بها السر سيدنى سميث الشهم لصعق . وأخيرا اضطر اللورد كيت فى ٢٩ ابريل لاخلأ سبيلهما ، بعد أن تلقى أوامر بذلك من لندن . فاستأنفا رحلتهم على سفينتهما ، ومرة أخرى لاح شاطئ فرنسا لديزيه ، ومرة أخرى أوقفت سفينته - ولكن الذى اعترضها هذه المرة وصعد اليها هم القراصنة التونسيون . على أن القراصنة أبدوا من الاحترام لتوقيع الصدر الأعظم ما لم يبله اللورد كيت . فسمحوا لديزيه بمواصلة رحلته بعد أن قدموا له آيات التقدير الكثيرة ، فوصل الى طولون فى ٥ مايو .

وما ان نزل الى البر حتى كتب فى نفس اليوم الى الجنرال بونابرت ، القنصل الأول للجمهورية . قال هذا المحارب الذى لا يعرف الكلل : « أجل أيها الجنرال ، ان بى شوقا شديدا الى القتال - والى قتال الانجليز قبل غيرهم . فقد نذرت لهم كرهى الأبدى . ولن تبرح ذهنى وقاحتهم والمعاملة السيئة التى لقيتها على يدهم . وأيا كانت الرتبة التى تعيننى فيها فأنا راض بها . . . وسأقاتل بنفس السرور ، سواء كنت جنديا متطوعا أو قائدا . . . وكل يوم لا يستغل فى هذا هو يوم ضائع » (٨٠) .

ويرى أحدث كتاب سيرة ديزيه فى هذه السطور « انكارا للذات ، وتنزها عن الغرض ، وتفانيا فى الواجب ، وتعلقا بالقتال » (٨١) . وربما كان الأمر كذلك ، على أننا نشير بتواضع الى أننا قد نرى فيها أيضا شهوة الانتقام ، وشوقا غير كريم للتذرع بالحماسة الوطنية فى ازالة أى شعور بالحق قد يحمله القنصل الأول لواحد من موقعى اتفاق العريش .

وتسلم القنصل الأول هذا الخطاب فى ١٤ مايو بلوزان على بحيرة جنيف . وكان على وشك قيادة جيشه عبر ممر سان برنار الكبير ليلتقى بالقوات النمساوية فى سهول ايطاليا . وبعد أن وبخ بونابرت فى جوابه ديزيه على الدور الذى قام به فى التسليم ، زعم هذا الزعم المدهش ، وهو أنه كان مزمعا ارسال سبت وثلاثين سفينة تحمل المؤن والمدد الى مصر ، ولكن نبأ اتفاق العريش حمله على

الغاء سفر القافلة • أما الواقع فان كل ما فعله هو التفكير العابر في ارسال أسطول صغير الى البحر المتوسط ، أولا لنجدة مالطة – وهو مشروع لم يخرج قط الى حيز الوجود نظرا لاستحالة تنفيذه • وقال بونابرت لديزيه انه مهما يكن من الأمر فان ما فات مات ، ثم أضاف يقول : « تعال والحق بي بأسرع ما تستطيع أينما وجدتني » (٨٢) •

ولم يضيع ديزيه وقتا • فبارح طولون في ٥ يونيو بعد أن مكث بالحجر الصحي شهرا ، يصحبه مملوكه اسماعيل وغلामه الأسود باقل ، وبعد خمسة أيام لحق ببونابرت في مقر قيادته بمونتبيلو • وبعد حديث خاص طويل ، لم يذكر خلاله كليبر بخير كثير دون شك ، عين بونابرت ديزيه قائدا على سلاح من فرقتين • وكان من المتوقع نشوب معركة فاصلة في الأيام القليلة التالية • وقد نشبت في ١٤ يونيو ، وكانت فاصلة حقيقة ، لبونابرت وديزيه جميعا •



في يناير ١٨٠٠ ذهب للحج الى القدس عربى مسلم من سكان حلب اسمه سليمان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، وصناعته « كاتب عربى » • ولا بد أنه كان شابا تقيا ورعا – ان صدقت شهادته في محاكمته بعد نصف عام – لأنه زعم أنه قضى بمكة ثلاث سنين • وفي ابريل ذهب الى أحمد أغا ، وهو ضابط تركى كان يومها بالقدس • يشكو اليه من ضرائب باهظة فرضت على أبيه ، وهو تاجر مسلى • وبعد حديث مع سليمان ، وعده الأغا بأن يذكر أباه بكلمة خير عند ابراهيم باشا والى حلب لقاء خدمة صغيرة ، وكان الطلب خطيرا ، وهو أن يقتل سليمان القائد الأعلى للجيش الفرنسى في مصر • ولم يوافق سليمان الا بعد مقابلتين أخريين • وأوصى أحمد أغا به ضابطا آخر اسمه ياسين أغا في غزة ليعطيه بعض المال • ومن تلك اللحظة – كما قال سليمان فيما بعد – خيل اليه أنه فقد رشده •

وصل سليمان الى القاهرة حوالى منتصف مايو ، وأقام طوال الشهر التالى فى الجامع الأزهر – كما كان يقيم كثير من المجاورين والطلاب – يحاول الاشتغال كاتبا عموميا ويقرأ القرآن على أحد الفقهاء • ومنذ وصوله تقريبا ائتمن على سره ثلاثة من الأزهريين الشبان ، وكلهم من مواطنيه • وأخبرهم فيما روى أحدهم فى شهادته بعد ذلك أنه « كان مراده يغازى فى سبيل الله ، وأن هذه المغازاة هى قتل واحد نصرانى » (٨٣) وزعم ثلاثتهم أنهم حاولوا أن يشنوه عن عزمه ، اذ خامرهم الشك فى أنه الرجل الصالح للقيام بهذا العمل المشكور • على أنهم لم ينبهوا رجال السلطة ، وظلوا كل يوم فى نقاش وجدال حول هذا الفعل المبيت •

على أن تشكك الشيوخ - ان صح - كان في غير موضعه . حقيقة
لقد اقتضى سليمان شهر كامل أن يجد الشجاعة والفرصة المناسبة للقيام
بعمله في سبيل الله ، ولكنه كان رجلا يتحكم فيه قدره . كذلك شاء القدر أن
يلقى كليبر وديزيه حتفهما في نفس الوقت تقريبا ، وان بعدت الشقة بينهما
مسافة ١٥٠٠ ميل . واندفع ديزيه الى مواعده مع الموت كما يندفع عاشق
قلق ذاهب الصبر . أما كليبر ففعل قصارى ما يستطيع ليتجنبه : ولولا تنكر
الادارة الانجليزية لاتفاق العريش لكان في طريقه الى فرنسا بدلا من أن يتعقبه
قاتله كظله .

أما يونابرت فقد بدا أن القدر - أو الموت - يلحظه بعين رعايته .
فاله الحرب واله الحظ - كما زعم - يسيران الى جانبه . وكان ديزيه موشكا
أن يدفع ثمن انتصاراته القادمة ، وكليبر انتصاراته الماضية .

الفصل الحادى عشر

أباطيل الموت

١

فى شهر يونيو ١٨٠٠ سلطت كل العيون على الأحداث الحربية الوشيكة الوقوع على سهول بيدمونت : فلو أن بونابرت خسر المعركة لأصبح سقوطه أمرا لا مناص منه . وكان زعماء المعارضة فى باريس ، من الملكيين الى اليعاقبة ، يترقبون أول هزيمة له ليتخلصوا منه . وفى كوبيه كانت مدام دوستال تستقبل كل ساعة رسلا قادمين من جنيف لشدة شوقها لأول نبأ سيىء .

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر ١٤ يونيو ، بعث الفيلد مارشال ميلاس قائد الجيش النمساوى رسالة تعلن انتصاره ، فقد هزم بونابرت قرب قرية مارنجو . وانتصر ميلاس بخطة بسيطة ، هى قضاؤه خمسة أيام لا يصنع شيئا على الاطلاق : وكان بونابرت ، الذى حيره تحديد مكان ميلاس ، قد قسم جيشه ، وأرسل فرقة فى مختلف الجهات بحثا عنه . وفى صباح ١٤ يونيو فاجأ ميلاس بونابرت ، بدلا من أن يفاجئه بونابرت .

وفى الوقت الذى أرسل فيه ميلاس رسالة النصر هذه ، انضم الجنرال ديزيه بفرقته الى بونابرت بعد أن سار طوال اليوم بحثا عن النمساويين الذين يروغون منه . وبدا أن الفرصة ضاعت ، وأن ديزيه وصل بعد فواتها ، وقال القنصل الأول « حسنا أيها الجنرال ديزيه ، لقد خضنا معركة حامية » . وأخرج ديزيه ساعته من جيبه وقال « انها الساعة الثالثة ، وقد خسرنا المعركة ، ولكن الوقت يتسع لكسب معركة أخرى » (١) .

وكان النمساويون والمجريون ، الذين ما زالوا على مرمى البصر، يسرون وهم يغنون على عزف الموسيقى . ولم يمض نصف ساعة حتى حملت عليهم مشاة ديزيه عدوا وهم يصرخون فى وحشية ، بينما هاجمت خيالة الجنرال كاليرمان (الابن) جناح النمساويين . وقبل أن تغرب الشمس انقلب انتصار النمساويين هزيمة ساحقة . ولكن حين سأل بونابرت عن ديزيه ليعانق هذا المنتقد لم يعثر عليه . وتبين أن ياورا وجاويشا فقط هما اللذان لاحظاه ينزلق من فوق جواده فى بداية الهجوم .

وعثر على جثة ديزيه على ضوء المصابيح بين كومة من الجثث ، وأمكن التعرف عليها من شعره الأسود الطويل الذى كان لا يزال معقودا بشريط . ووجد قلبه ممزقا اربا برصاصة كبيرة . ويروى أن بونابرت قال حين شهد الجثة « لم حرمت حق البكاء ؟ » (٢) . أما باقل غلام ديزيه الأسود ، واسماعيل مملوكه الصغير ، فلم يشعرا بهذا الحرمان وهما ينوحان على سيدهما الميت . ولم ينس نابليون قط دينه لديزيه ، واعترف به فى شهامة ، لأن ديزيه مات . فالقائد الذى كان موته فى الثانية والثلاثين من عمره الدعامة التى ارتكز عليها مجد نابليون جدير بأن تشيد له مقبرة ممتازة . وأعلن نابليون « اننى أريد أن أقدم لكل هذه الفضيلة والبطولة من الاكرام ما لم يلقه رجل آخر . وستكون جبال الالب قاعدة لمقبرة ديزيه . ورهبان سان برنار سدننتها » (٣) . وفى ١٤ يونيو دفن ديزيه باحتفال مهيب فى كنيسة دير سان برنار . وقام بخدمة الجناز الحربى رئيس الدير ، ورافقت طلقات البنادق تراتيل الرهبان . وأبن دينون وبرتييه ديزيه ، فقال برتييه « هاكم الرجل الذى وصفه « الشرق » بـ « العادل » ، ولقبه وطنه بـ « الباسل » ، وسماه قرنه بـ « الحكيم » ، وكرمه نابليون بهذا الأثر » (٤) . ويصعب على المرء أن يتصور قمة تتوج هذه النعوت أسخف من هذه .

بدأ الجنرال كليبر يومه فى ١٤ يونيو باستعراض بعض الجنود فى جزيرة الروضة . وكان يقف فى الجمع الشاب سليمان الحلبي وقد خبا مديته تحت جلبابه . وتبع سليمان الجنرال فى عودته للقاهرة الى بيت الجنرال داما، حيث دعا كليبر نفسه للغداء . وكان جو الطعام مرحا ، وزاده كليبر مرحا برسمه صورة هزيمة لبونابرت يطرد رجال الادارة . أما سليمان فكان يتسكع أثناء ذلك حول بيت داما ، حتى أمر بالانصراف . وفى العصر غادر كليبر الحفلة وكانت مستمرة ، فقد كان على موعد مع المعمارى بروتان ، الذى كان يضع تصميمات لبناء ملحق بقصر الالفى بك . وكان اليوم حارا ، وقرر الرجلان التمشى فى الحديقة . وكان كليبر يرتدى قميصه وسراويله فقط ، ولم يكن هناك حرس على مرأى منه .

واذا عربى فى زى العمال يظهر على المشى ويسير صوب القائد . وظنه كليبر متسولا فأشار له بالانصراف ، بينما مضى بروتان صوب البيت ليدعو ديدبانا . وتقدم سليمان الحلبي ومد يسراه نحو كليبر كمن يريد أن يمسه بيد الجنرال ليرفعها الى فمه - وهى عادة تعودها أصحاب الحاجات . وناول كليبر يده ، وفى لحظة انطلقت يمين سليمان المخفاة ، وطعن بها كليبر فى صدره . وهنا كان بروتان يتلفت وراء كتفه ، فرأى القاتل يسحب مديته ، وبينما كان كليبر يترنح أغمدتها فى بطنه ، ثم فى ذراعه اليسرى وخده الأيمن . وكان أول عمل قام به بروتان أن ألقى بنفسه أرضا . وسمع كليبر يجأر ثم يسقط . وهنا نهض بروتان وجرى نحو القاتل وضربه بعصاه فوق رأسه . وطعن القاتل بروتان بوحشية ست مرات ، وتركه فاقد الوعي تقريبا ، ثم لاذ بالفرار . وانقضت ست دقائق - حسب شهادة بروتان - قبل أن تصل أى نجدة . وما لبث كليبر أن قضى نحبه بعد قليل .

وانطلق من ميدان الأزيكية دوى طبل ينذر بالخطر . ولم تمض دقائق حتى كانت جميع الطبول فى القاهرة تدعو الجنود الى مراكزهم . وانتشر خبر مصرع كليبر بسرعة البرق . ولجأ الأهالى الى بيوتهم محتمين بها خشية العقابة ، بينما اندفع الجنود كالمجانين فى الشوارع يضربون كل من يقف فى طريقهم وقد اشتد بهم الغضب (وربما ظنوا قتل كليبر بداية ثورة جديدة) . ويقول الجاويش فرانسوا فى يومياته ، فى غير حياء كما هو واضح ، « اننا قتلنا بسيوفنا وخناجرنا جميع من صادفنا من الرجال والأطفال ، » (٥) . وانتهمت الفوضى لحسن الحظ بمجرد القبض على القاتل ، ذلك أنه فى هروبه لم يبعد كثيرا عن مشهد الجريمة . وأشارت عليه للجنود امرأة رأت من سطح بيت مجاور ، فوجدوه جاثما الى سور حديقة متهدم ، وقد أصيب رأسه برضوض من ضربات بروتان ، ولوث الدم اللزج ثيابه ، وكان يصلى . ووجدت المديّة بقربه وهى لا تزال ملوثة بالدم مغطاة بتراب قليل .

وقامت بالتحقيق الابتدائي لجنة يرأسها مينو ، الذى خلف بحكم أقدميته كليبر فى القيادة العليا للجيش . وأنكر سليمان أول الأمر أى علاقة له بالجريمة رغم قوة القرائن . ومن ثم ، كما ورد فى نص الاجراءات ، « فلما أن كان المتهم لم يصدق فى جواباته أمر سارى عسكر أنهم يضربونه حكم عوائد البلاد . فحالا انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب ، » (٦) .

والاعترافات التى تنتزع بالتعذيب تحتل الشك ، ولكنها ليست بالضرورة كاذبة . وسجل محاكمة سليمان لا يترك مجالا للشك فى ذنبه ، واعترافه - بما فيه الجزء الخاص بالضابطىن التركيين اللذين كلفاه بهذه المهمة -

هو فى أغلب الظن صحيح . أما المنطق الذى الصقت به المحكمة الخاصة (المشكلة كلها من الفرنسيين) التبعة النهائية فى مقتل كليبر بالصدر الأعظم فمنطق زائف مفتعل لا أساس له فى اعتراف سليمان .

وينقل الشيخ الجبرتى فى تاريخه النص الكامل لمحاكمة سليمان . يقول : « وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة ، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين » .

والذى أدهش الجبرتى هو أن تتاح لرجل ذنبه واضح محاكمة قانونية بدلا من أن يعدم فورا . ولكن الواقع أن الاجراء الذى اتخذ فى هذه الحالة كان يختلف اختلافا كبيرا عن الاجراءات الفرنسية العادية (لسبب واحد هو أن المتهمين لم يمثلهم محام) ، ولم يكن الغرض من المحاكمة انصاف المتهمين ، بل الكشف عن شركائهم فى الجريمة .

وحوكم غير سليمان أربعة آخرون - الأزهريون الثلاثة الذين أفضى اليهم بفكرته ، وشيخ من المقرئين اسمه مصطفى أفندى البرصلى الخطاط كان سليمان يقرأ عليه القرآن . وأثبت الفحص الدقيق والمواجهة أن الأزهرين الثلاثة كانوا شركاء فى الجريمة قبل ارتكابها ، لأنهم لم يتبهاوا السلطات الى أن سليمان ينوى اقتراف جريمة . أما مصطفى أفندى فاتضح براءته وأطلق سراحه . وحكم بقطع رؤوس الشيوخ الثلاثة ، وأما سليمان فقد رأت المحكمة أن تطبق عليه عقوبة تسمح بها تقاليد الحكم فى البلاد ، ولكنها لا تتفق مع مبادئ الجمهورية الفرنسية المستنيرة .

وظلت طلقة مدفع تسمع من القلعة مرة كل ثلاث دقائق طوال أيام ثلاثة عقب موت كليبر . وفى ١٧ يونيو حمل نعش كليبر ، وعليه قبعته وسيفه وسكين قاتله ، الى مدفنه باحتفال عسكري ضخم . وكان الجنرال مينو يتصدر موكب المشهد . ودقت الطبول دقا خافتا وجللت بالكريب الأسود ، وحمل الجنود بنادقهم منكسة ووضعوا أشرطة من الكريب الأسود على أكمامهم . ومشى خلف النعش الرصاصى وفد من فرسان الممالك يمثلون مراد بك ، وأعيان القاهرة مسلمين ومسيحيين . وتوقف المشهد وأنزل النعش على التل الذى كان سليمان وشركاؤه ينتظرون اعدامهم فوقه . وانطلقت المدافع تعلن بداية هذا الشطر من الاحتفال .

ولابد أن هذا اليوم كان أروع يوم فى حياة الرومى برطلمين . فقد بدأ بقطع رؤوس الشيوخ الثلاثة ، وكان الفحم أثناء ذلك يحمى فى مجمرة . ولم يشك سليمان ويده تشوى على الجمر ، ولكن حين انزلت جمرة الى مرفقه ،

نبه برطلمين الى أن الحكم عليه لم يذكر المرفق ، بل اليه فقط . ورأى برطلمين في هذا محاكمة من سليمان . وقال سليمان ان برطلمين نصراني كلب ، وأصر على حقوقه حتى أزيحت عن مرفقه الجمرة . وقد سجل الجساويزش فرانسوا التفاصيل الجراحية لخوزقة سليمان بعد احراق يده ، وهو يزعم أنه راقبها على خمس خطوات : ويستطيع هواة هذه الأشياء الرهيبة أن يرجعوا اليها في يومياته . ومن الطريف أن نذكر أن جميع الحاضرين ، بما فيهم « المريض » ، كانوا فيما يبدو ينظرون الى هذا الاجراء الوحشي على أنه اجراء عادي لا غبار عليه . ولما أتم برطلمين القسم التمهيدى من العملية ، رفع الخازوق قائما وعليه سليمان ثم غرس في الأرض . ورجا سليمان جنديا فرنسيا واقفا بقربه أن يعطيه شربة ماء . وكان على وشك أن يناوله زمزميته لولا أن منعه برطلمين : فان أقل شربة من الماء كفيلا بقتله فورا ، فيتعطل بذلك مجرى العدالة .

واستأنف المشهد سيره تاركا سليمان على خازوقه يصلى . وألقى فورييه على قبر كليبر خطابا طويلا لم يكن في عباراته الطنانة الجوفاء ما يشرف الرياضى الكبير كثيرا . وبعد ساعات قضى سليمان نحيبه . فماذا تراه قد حقق بقتله كليبر ؟ لقد قتل الرجل الذى لم يكن له رغبة سوى انهاء الاحتلال الفرنسى لمصر ، وأحل محله متهوسا استعماريا كان مصمما على احالة مصر الى قطعة من فرنسا . وبالطبع لم يكن سليمان يعرف هذا : فكل ما عرفه أنه « غازى فى سبيل الله » وأن جزاءه الجنة . وفى هذا أبدى من الثقة أكثر كثيرا مما أبداه كليبر ، الذى كتب قبل ذلك بشهور يقول : « ان أقل ما أخشاه هو المعركة ، وأشدّه هو اليوم التالى لها » (٨) .

٢

اذا كان كليبر جنديا لحما ودما ، فان خليفته جاك عبد الله مينو كان ذا مظهر يوحى بأنه صاحب حانة ريفية ، أو رئيس « الجرسونات » فيها ، لحما ودما . ولا ينقص الصورة التى رسمها له دوتيرتر فى مصر سوى الفوطة و « المريلة » . ومن العسير أن نتصوره يقود جيشا — بشعره الناحل الذى وخطه الشيب ، وقسماته العادية ، وبطنه المستكرش ، ووقفته غير العسكرية — ولكننا نستطيع بسهولة أن نتصوره ينحنى لزبائنه ويستبد بمرعوسيه . وهذا التصور يصدق تماما ، صدق معظم الأحكام التى تصدرها على خلق انسان استنادا الى الفراسة ، لولا تفصيل صغير واحد ، هو أن مينو ، الذى ولد فى بيت عريق فى النبالة ، كان ابن مركيز .

وقد تحمس للثورة حين نشبت فى سنة ١٧٨٩ كما تحمس لها كثير من زملائه النبلاء . ومع أنه كان موضع شبهة واتهام بميوله الملكية أثناء حكم

الارهاب ، فقد نجا من العاصفة ، وقاتل الملكيين الثائرين في الفندية ، وجرح ، وعين في ١٧٩٤ قائدا على « الجيش الداخلي » ، وقمع بصفته هذه حركات الشغب التي قام بها العمال في مايو ١٧٩٤ ، ولكنه أحجم عن اتخاذ اجراءات مماثلة لقمع ثورة يمينية في سبتمبر . ونتيجة لذلك فصل من وظيفته هذه وعين بونايرت بدله ، فأنقذ الموقف بحركته المشهورة . التي صوب فيها مدفعيته على الثوار . وظل مينو مطرودا حتى ابريل ١٧٩٨ ، حين عينه بونايرت قائد فرقة في الحملة الفرنسية على مصر .

وكان مينو يوما في الحادية والخمسين - لا يكبر كليبر بأكثر من ثلاث سنوات - ولكن لأمر ما يصفه جميع زملائه في السلاح حين يرد ذكره في يومياتهم بأنه شيخ ، وكذلك يفعل المؤرخون العرب ، كذلك يؤكد نابليون بوضوح في تاريخه للحملة أن مينو كان في الستين . أما سجل مينو الحربي فلا يتفرد بشيء بارز - اذا استثنيت جرحه في الفندية وأثناء الاستيلاء على الاسكندرية ، وليست الاصابة بجرح بالضرورة دليلا على الكفاية الحربية . ومن المشكوك فيه أن بونايرت قصد في أى وقت من الأوقات أن يقود مينو فعلا فرقة من الجيش ، على أى حال أتاح له جرح مينو فرصة نقل قيادة الفرقة الى فيال (ثم الى لان من بعده) وتنصيب مينو حاكما على رشيد . ومن يوليو ١٧٩٨ الى مارس ١٨٠١ لم يشترك مينو في أى عمليات حربية سوى الغارات التأديبية .

وبدأت تبدو على سلوك مينو في فبراير ١٧٩٩ علامات الشذوذ والغرابة . فقبل أن يبرح بونايرت مصر قاصدا سوريا عين مينو حاكما على القاهرة ، وطلب مينو ارجاء نقله بحجة أن الاسطول البريطاني يقذف الاسكندرية بالمدافع وبهذا يكون وجوده على الساحل ضروريا . وتولى ديحا حكم القاهرة مؤقتا ، ثم انتهى الأمر عند هذا . وبعد شهر أمر بونايرت مينو أن يلحق به في سوريا ويتولى حكم فلسطين ، ولو أن قوقعا كان يزحف لوصل الى سوريا بأسرع من مينو ، الذى لم يصل في الواقع حتى الى الحدود . ففي ٣ يونيو كان قد بلغ قطيا ، وهناك لقيه بونايرت في عودته من سوريا . ولم يوبخه بونايرت . فقد جعل تطور الأحداث وجود مينو بفلسطين أمرا لا لزوم له على أية حال ، أضف الى ذلك أن الدوافع التي حملت القائد على المكث برشيد رغم خروجها على العرف كانت تتفق تمام الاتفاق مع خطط بونايرت الخاصة بمصر .

كان مينو على الدوام أشد القواد الفرنسيين في مصر تحمسا لقضية الاستعمار والاندماج . وقد شاركه غيره هذه الحماسة ، ولكن أحدا لم يتصرف بمثل ما تصرف به مينو من تفاؤل حرفي ضيق . فبونايرت أعلن من قبل أنه مسلم بقلبه ولمح بأنه سيعتنق الاسلام ، أما مينو فقد اعتنقه فعلا . ومن العسير الحكم على دوافعه : أهى مجرد الزواج من بنت صاحب حمام في رشيد ، أم هى

دوافع سياسية خالصة ، وعلى كلا الحالين لم يكن للاقتناع الدينى دخل يذكر
فى اعتناقه الاسلام .

وتتضارب الشهادات عن زبيدة عروس مينو . فمن قائل انها شابة مغرية،
وأن مفاتنها أيقظت شهوات مينو المكتهل حتى عبثت بعقله . ومن قائل انه لم
يرها قط قبل العرس ، ثم تبين أنها لم تكن على ما زين له من شباب وجمال
وثراء . أما مينو نفسه فقد أذاع على الملأ أنها سليلة أسرة من الأشراف ، لأن
أباها وأمها منحدران من سلالة الرسول . كتب لديجا يقول : « يجب أن أحيطك
علما يا عزيزى الجنرال بأننى قد اتخذت لى زوجة ، وانى أعتقد أن هذا الاجراء
يخدم الصالح العام » (٩) . أما مارمون ، الذى أنبأه مينو بهذا « الاجراء »
بنفس اللهجة ، فقد رد عليه مهنتا ، وأضاف - متخابثا فى أغلب الظن : « أنت
محق فى قولك ان زواجك سيدهش الكثيرين ، أما أنا يا عزيزى الجنرال ،
فأعتبره علامة على اخلاصك العظيم لمصالح الجيش الفرنسى » . وبعد أسبوع
كتب اليه مارمون يسأله فى صراحة : « انى توافق لأن أعرف هل مدام مينو
جميلة ، وهل فى نيتك فى القريب العاجل أن تتحفها برفيقات لها جريا على
عادة أهل البلاد » . وأجاب مينو « يا عزيزى الجنرال ، ان زوجتى . . . طويلة
القامة ، مبسوطة الجسم ، حسنة الصورة من جميع الوجوه . فلها عينان رائعتان،
ولون بشرتها هو اللون المصرى المألوف ، وشعرها طويل فاحم . وهى لطيفة
الطبع ، وقد وجدتها تتقبل كثيرا من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت . . .
وأنا لم ألع عليها بعد فى الخروج سافرة على الرجال ، فهذا يأتى شيئا فشيئا . .
ولن أنتفع بما أباحه النبى من الزواج بأربع نساء خلاف السرارى : فان فى النساء
المسلمات شهوة حارة عنيفة ، وفى زوجة واحدة أكثر من الكفاية لى » (١٠) .

وحصل مينو على اعفاء من الختان ، ولكنه فى سائر النواحي كان يمارس
شعائر دينه الجديد فى تدقيق كثير . فهو يدرس القرآن ، ويؤدى الصلاة فى
المسجد كل جمعة ، ويصلى الصلوات الخمس فى تعبد ظاهر . ومع ذلك فالجبرتى
فى أغلب الظن محق حين يقول ان اسلام مينو ليس الا تظاهرا لأسباب سياسية .
وواضح من خطابات مينو أن عقائده الدينية ، ان كان له عقائد ، لا تتجاوز
« ربوبية » القرن الثامن عشر ، الغامضة المتسامحة ، التى نشأ عليها .

أما بونابرت فهنا عبد الله مينو على توضيحته فى سبيل القضية الوطنية ، وهو
يدرك أن عمله أضفى شيئا من المعقولية على وعد بونابرت بقرب تحول الجيش
الفرنسى كله الى الاسلام . ولا حاجة الى القول بأن هذه المباركة الرسمية للزواج
لم توقف سيل التعليقات الشديد البذاءة فى الجيش .

فلما خلف كليبر بونابرت فى القيادة العليا لم يكن مناص من الصدام بينه
وبين مينو . اذ بينما كان كليبر يتخذ العدة للجلاء عن مصر ، كان مينو يحرر

المذكرات عن المستقبل الباهر الذى ينتظر مستعمرة فرنسية دائمة فى مصر .
وغاظ كليبر من مينو نصائحه المتعالية ، وجولاته الدعية الحمقاء فى السياسة
الدولية والاقتصاد السياسى ، ولا بد أن ردود كليبر المشوبة بالتهكم جرحت
شعور مينو . وبدأت تبدو على مينو فى هذا الوقت بوادر خفيفة من البرانونيا
(جنون العظمة) . فقد خيل اليه ان اخلاصه لوطنه وللعقيدة الجمهورية موضع
شك عند بعض الناس بسبب انتمائه الى أسرة من النبلاء لسوء حظه . فراح
يكتب الرسائل الكثيرة مدافعا عن عقيدته الجمهورية ، وكتب لبونا بورت وبرنتيه
يندد بسلوك كليبر الذى يتنافى مع الوطنية والشرف . وكتب الى كليبر يرجوه
أن يستخدمه جنديا بسيطا فى فرقة الرماة . وأجاب كليبر فى شىء من الجفاء ،
بأنه كان يعتقد أن مينو فى شغل عن الأعمال العسكرية بكتابة المذكرات عن
تجارة المستعمرات . أما هو ، أى كليبر ، فيهما أن يجد السبل لدفع رواتب
الجيش واطعام الجنود ، أكثر مما يهمله العلم بكميات القطن وقصب السكر
والنيلة التى يمكن زرعها فى مصر . ومع ذلك فسيعين مينو حاكما عسكريا على
القاهرة ، بشرط ألا يشغل نفسه بالجدل والنقاش فى الاقتصاد السياسى .
ورفض مينو هذا العرض ، ولكنه فى أواخر مايو ١٨٠٠ وافق على قبول تعيينه
حاكما على اقليمى بنى سويف والفيوم بمصر الوسطى . وكان على وشك تقلد
منصبه هذا حين دعاه موت كليبر لتسلم زمام القيادة العليا .

ولو أن مينو كان قائدا موهوبا لعانى كثيرا من المعوقات بعد خلافته لكليبر
الذى كان يتمتع بشعبية عظيمة : فقد كان الكل ينظرون اليه نظرتهم الى شخصية
مضحكة ، ولم يكن يحظى بسمعة حربية ، ثم انه المدافع عن قضية بغیضة ، هى
احتلال مصر احتلالا دائما . أضف الى ذلك أن موهبته البارزة هى صنع الأعداء .
وسرعان ما تبين أنه يأبى أن يسخر منه الناس مهما استحق السخرية . فما ان
تقلد منصبه الجديد حتى تخيل نفسه يقوم بدور المطهر ، وكأنه هرقل يظهر
مرابط الخيل الأوجية . ورأى فى ادارة كليبر مزيجا مؤذيا من البلادة والتخاذل
والفساد ، أما هو فسيعيد النظام الى نصابه ، ويعاقب اللصوص (وهم فى
رأيه يشملون الأقباط جميعا عدا المعلم يعقوب ، وكل ادارة الجيش تقريبا عدا
كبير الصيارفة استيف) ، ويبطش بجيوش الأعداء كلها مهما كثر عددها ،
ويحول مصر الى اقليم رخى من أقاليم فرنسا . ولكى ينفذ مينو هذا المشروع
الطموح رأى من حسن السياسة أن يبدأ بتشويه سمعة سلفه ، وبغمز جميع
من تمتعوا بثقة كليبر غمزا مهينا . أما الذين تجاسروا على الدفاع عن أنفسهم
أو الجهر برأيهم الطيب فى زميل لهم ، فكان مينو يوجه اليهم الرسائل المستفيضة
التى ينكر فيها أى عداً شخصى : فهم لا يعرفون أى نوع من الرجال هو ، ولو
عرفوه خيرا مما عرفوا ، لأدركوا أنه لا يهتدى الا بمبادئ الشرف والنزاهة
والوطنية والواجب ، تلك المبادئ التى نشأ عليها منذ طفولته . وهذه الشهوة
لتبرير نفسه تجعله يبدو شخصية ينقصها الاتزان العقلى والعاطفى .

ومع أن عبد الله مينو كان يستجدي استحسان مرعوسيه استجداء لا يليق
بقائد أعلى ، فانه لم يكن يتسامح مع معارضيه . وكان اختصاصه أمرا محفوظا
بالخطر . فقد طرد الجنرال داما (رئيس أركان حرب كليبر) وبوسيليج ،
وتاليان ، ورئيس مندوبي الجيش دور ، كما طرد غيرهم من وظائفهم وأعادهم
الى فرنسا ، وبذلك قضى على مستقبلهم ، بل ان تاليان (الذى أحسن غير مرة
الى مينو خلال حكم الارهاب) قبض عليه بأمر بوناپرت بعد نزوله الى البر .
وبمضى الزمن لم يلتف حول مينو سوى الامعات ، وتبين أنه واهم كل الوهم
فى اعتقاده بأنه أعاد الوحدة والروح المعنوية فى قيادته ، بمجرد أن اصطدمت
ادارته بأزمته الأولى والأخيرة .

لم يمض على اضطلاع مينو بالامر فى مصر طويل وقت حتى تبين تحسنا
باهرا طرأ على الأحوال منذ أيام كليبر . فلم يفوت فرصة لا ينوه فيها بنجاح
سياساته فى خطابهاته وأوامره اليومية . أما التحسن فحقيقى لا ريب فيه ،
وما من شك فى أن بعض الفضل فيه راجع لاجراءاته الادارية ، ومنها ما هو
سليم جدا . على أن أكثر الفضل فى نجاح مينو راجع لسلفه . فقد تمتعت مصر
بفضل انتصار كليبر فى عين شمس بسلام دام تسعة شهور ، وبفضل تحالف
كليبر مع مراد كان الفرنسيون يتسلمون من الصعيد ضريبة ثابتة ، دون أن
يضطروا الى ادارته ، وبفضل هذا التحالف وما يتمتع به مراد من سمعة وهيبة
توقفت الثورات فى القاهرة والوجه البحرى . ومع ذلك أبى مينو فى عماء أن
يتبين الأسباب الحقيقية لهذا السلام والرخاء الفجائيين . فكان فى كل فرصة
يعرب عن أسفه على معاهدة كليبر مع مراد ، تلك المعاهدة التى لم يتظاهر
باحترامها الا لأنه لم يستطع الرجوع فى كلمة كليبر ، وبلغ به الأمر أنه منع
اقامة نصب تذكارى لكليبر . وكان هذا منه أسوأ من الجحود : لأنه اذ نسب
لنفسه كل الفضل أثبت ما بينه وبين الواقع السياسى ، وسار نحو الكارثة سيرا
محققا وان كان بطيئا . والذين يحسبون حظهم الحسن كفاية وجدارة فيهم لابد
أن ينتهوا الى البوار .

قبل أن يقتل كليبر بأقل من أسبوع كتب السر سدننى سمث - الذى تلقى
تعليمات جديدة من حكومته - للقائد الأعلى الفرنسى يقترح المفاوضة لعقد معاهدة
جديدة على أساس اتفاق العريش نفسه . ورفض مينو هذا العرض فورا ، بل
انه لمح تلميحا غريبا ، مؤداه أن سمث ربما كانت له يد فى مقتل كليبر . وكان
يكفى أن يرد بأن الشروط التى كانت مقبولة قبل معركة عين شمس ، لم تعد
صالحة بعد هذا الانتصار ، ولكن ابقاء الباب مفتوحا للمفاوضة كان أبعد الأشياء
عن قصد مينو . واذ مضت الشهور دون أن يقع شئ من الهجوم الانجليزى أو
التركى المتوقع ، بلغت ثقة مينو فى نفسه حدودا جنونية . فكتب الى تاليران
فى يناير ١٨٠١ يقول : « أما عن تملكنا مصر ففى وسع الجمهورية والقنصل

الأول أن يثقا بأنه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تنتزع هذا الفتح من جيش الشرق . وسنقاتل كل جحافل آسيا اذا اقتضى الأمر ونهزمهم ٠٠٠ بل اننى أؤكد لك أننا لن نفاوض الا برصاص البنادق وقنابل المدافع ، (١١) .

واذ كانت أماني مينو عقائد ثابتة ، فقد اعتبر مصر قطعة من فرنسا ، وأعلنها كذلك رسميا ، وراح يغير ملامح البلاد ليصوغها على صورة فرنسا . فأمر بهدم أحياء كاملة فى القاهرة لتتسع لانشاء شوارع فسيحة ، وانتزع جباية الضرائب من يد الأقباط وفرض ضريبة واحدة على الأرض ، وألغى الرسوم الاقطاعية ، وغير قوانين المواريث الاسلامية ، وألغى القانون الجنائى الاسلامى وأنشأ محاكم جنائية تحت ادارة الفرنسيين ، وأمر بقيس المواليه والوفيات اجباريا ، وأنشأ أول جريدة تطبع بالعربية . وكل هذه اصلاحات محدودة ، ولكنه كان يفتقر الى الوسييلتين الوحيدتين اللتين لا يمكن بدونهما أن تصبح هذه الاصلاحات فعالة - ونعنى بهما القوة والاقناع . ورأى الأهالى ، الذين وجهت هذه الاجراءات لنفعهم ، انها ليست سوى محاولات يقترفها مسلم كاذب لاقتلاع جميع نظمهم وتقاليدهم ؛ ولم يكن من نتيجة للمقدمات الفلسفية اللاهوتية المهوشة التى أتعب مينو بها نفسه ليمهد للمراسيم التى أصدرها سوى زيادة حيرة الجميع وبلبله أفكارهم . ولو ظن مينو أن اسلامه سيجعل اصلاحاته المتهورة المرتجلة أكثر قبولا عند الشعب لكان مخدوعا . فقد اعتبره المسلمون دجالا ، وأدركوا بغريزة صادقة أن كل ما يريد هو جعل مصر اقليما فرنسا - وهى رغبة لم يشاطروه فيها . ويقول الجبرتى ، الذى أصبح عضوا فى الديوان فى عهد مينو ، ان المسلمين ساءت أحوالهم عنها فى عهد سلفيه غير المسلمين « واحتجب سارى عسكر عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عظماء الجنرالات » وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول ، واستوحشوا منهم ، ونزل بالرعية الذل والهوان وتناولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام والأروام بالاهانة ، (١٢) .

وما دامت هيبة مراد بك تقف عائقا دون الثورة ، وما دام نظام جيشه وروحه المعنوية وكفاية مينو الحربية - ما دامت كلها فى مأمن من امتحان غاز ، وما دام الزمن لم يفضح بعد خرق اصلاحاته التام ، فقد كان فى وسع مينو - النبيل السابق ، والمسيحى السابق ، والخادم الأمين الحالى لاله المسلمين ولجمهورية بونابرت - أن يهجر الواقع الى عالم من الأحلام الجميلة . فرخاء مصر الفرنسية فى المستقبل ، وقناة السويس ، ومزارع القطن والنيلة المزدهرة ، والتجارة الرابعة مع أواسط أفريقيا فى العبيد السود والعاج والتبر والتوابل ، والاخوة بين الفلاحين الكادحين فى سعادة والمستعمرين الفرنسيين المستغلين فى سماحة - هذه كلها بدت فى عينه حقائق واقعة ، والتشكك فيها خيانة ان جاء من فرنسى ، وكفرا ان جاء من مسلم . كتب الى الديوان ناصحا منبها : « اعلموا

أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية ، فلازم من اعتقادكم ذلك ، وأركزوه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ، (١٣) . وبعد كتابة هذا بأسابيع قليلة ضاعت مصر من يده .

٣

لم تبد من بونابرت بادرة تدلنا على تذكره الجيش الذي خلفه وراءه في مصر الا بعد معركة مارنجو بأسبوع - أى بعد رحيله عن مصر بعشرة شهور . صحيح انه لم يضيع وقته سدى في هذه الشهور العشرة : فقد جعل من نفسه سيدا على فرنسا ، وأعطاهما دستورا جديدا ، ونشر السلام في ربوع فندية الثائرة ، وثبت الفرنك ، وأرسى أساس قانون مدنى جديد ، وظفر بنصر مؤزر . فلما أتم هذا كله ، استطاع أن يفرغ لمشكلات أقل الحاحا ، ومنها مشكلة مصر . ولكن حتى هنا ، وطوال النصف الثانى من عام ١٨٠٠ ، لم تكن المعونة التى أرسلها لجيش الشرق تتناسب مع العهود التى قطعها على نفسه . انما هى بضع سفن بريد تحمل الرسائل ، والصحف ، والكتب ، والدواء ، والخمور ، والحبوب ، والذخيرة ، وحفنة من الاخصائيين ، لا سيما الجراحين ومهرة الصناع - هذا كل ما أرسله . ومع ذلك فهو أكثر كثيرا مما صنعت له حكومة الادارة . ثم طرأ على سياسته المصرية فى يناير ١٨٠١ تغير ملحوظ . فأرسل عدة فرقاطات الى الاسكندرية تحمل قرابة ألف جندى ، وفى ٢٣ يناير ألقع الأميرال جانتوم من برست بأسطول يضم سبع بوارج ، مهمته نقل نحو ٥٠٠٠ ره رجل الى مصر .

وأوضح سبب من الأسباب الكثيرة التى دعت لهذا التغير فى السياسة هو التحسن الباهر الذى طرأ على مركز فرنسا الحربى والسياسى فى الشهور القليلة الماضية . فقد أكرهت مملكة الصقليتين على الخروج من الحرب ، وفتحت موانئها للسفن الفرنسية وأغلقت فى وجه السفن الانجليزية . وأوقع الجنرال مورو هزيمة ساحقة جديدة بالنمسا عند هوهنلندن ، واضطرت النمسا لعقد الصلح . وأمكن استمالة أسبانيا لتوثق عرى حلفها مع فرنسا وتتنازل لها عن لويزيانا ونصف سانتودومنجو الذى تملكه . وأهم من هذا كله أن قيصر الروسيا بول ، وهو رجل غريب الأطوار ان لم يكن مجنونا ، غير موقفه فى الحرب ، وتحول الى الاعجاب الشديد المتعصب ببونابرت . وكان فى هذه المكاسب أكثر من عوض عن الخسارة الهامة الوحيدة التى منيت بها فرنسا ، ألا وهى تسليم مالطة للانجليز فى ٥ سبتمبر ١٨٠٠ .

ولم يبق فى الميدان من الدول الكبرى سوى دولتين - انجلترا وتركيا . وكان بونابرت قد وجه فى ٢٥ يناير ١٨٠٠ خطابا شخصيا الى الملك جورج

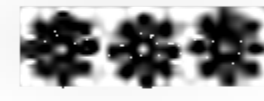
الثالث يعرض عليه الصلح . كذلك فتح باب المفاوضات من جديد مع تركيا وعرض عليها الجلاء عن مصر في النهاية - وهذا في الوقت الذي أعلن الجنرال مينو فيه مصر مستعمرة فرنسية دائمة ، وراح يضع الخطط بثقة في المستقبل لا نظير لها منذ بنيت الأهرام . فلما ساد السلام ربوع أوروبا ، أتيح لبونابرت أن يرسل بضعة آلاف من جنوده لمسرح الحرب في الشرق ، بعد أن أصبح من جديد مركزا للعمليات الحربية .

وأدركت الحكومة الانجليزية ، في وضوح لا يقل عن وضوح ادراك بونابرت ، أن شروط الصلح بين إنجلترا وفرنسا رهن إلى حد كبير بما يتمخض عنه امتحان قوتها في شرقي البحر المتوسط من نتائج . ففي أكتوبر ١٨٠٠ أصدرت الوزارة الانجليزية تعليماتها للأميرال كيث للاستعداد لنقل حملة قوامها ١٧٠٠٠ رجل يقودهم الجنرال السر رالف أبر كرومبي إلى مصر . ورتبت أن تنزل قوة أخرى - قوامها ٣٠٠٠ جندي من الهنود و ٢٠٠٠ جندي ينقلون من الكاب - بالقصير على الساحل المصري للبحر الأحمر ، ويعزز نزول القوات البريطانية جيش تركي يقوده القبطان باشا وزير البحرية العثماني . وقد وضعت هذه الخطط - على قوتها - بناء على تقدير ناقص جدا لقوة الفرنسيين في مصر . ذلك أن الحكومة البريطانية ، التي ضللها من ناحية خطاب كليبر إلى الإدارة ، وضللتها دعايتها هي نفسها تضليلا أشد ، قدرت قوات مينو بما لا يزيد على ثلثي عددها الفعلي ، وغالت كثيرا في تقدير كفاية الجيش التركي . هذا مع التسليم بأن حماقة الجنرال مينو - لحسن حظ إنجلترا - أصلحت الخطأ الذي وقعت فيه التقديرات البريطانية .

وأحيط بونابرت علما بالخطط البريطانية ، ومن هنا العجلة في الأوامر التي أصدرها لجانتوم . على أنه كان يضمّر مشروعا آخر أضخم ، أعطى لمصر أهمية عظمى . ففي ١٦ ديسمبر ١٨٠٠ أبرم القيصر بول مع بروسيا والسويد والدمرك حلف حياد مسلح ، هدفه بكل بساطة تحدي اعتراض بريطانيا للسفن المحايدة في عرض البحار . وأسفر هذا عن حالة حرب فعلية بين بريطانيا والحلف ، انتهت بتدمير البحرية الدنمركية وضرب كوبنهاجن بالقنابل في ١٨٠١ . وكان تأليف الحلف انتصارا دبلوماسيا لبونابرت . على أن القنصل الأول لم يقنع بهذا الانتصار ، فأقنع القيصر الطيع بأن يكيل للسيادة البريطانية لطمة أشد ، وذلك بالموافقة على القيام بهجوم مشترك على الممتلكات الانجليزية في آسيا . واستعدت الجيوش الروسية للزحف على الهند ، ولكن المشروع كله انهار بمقتل بول في ٢٤ مارس .

على أن حلم بونابرت الآسيوي الذي انتعش من جديد كان مآله حتما إلى التبدد والزوال حتى ولو لم يقتل بول ، وذلك بسبب حقيقة واقعة لا تمت للأحلام بسبب ، هي احجام جانتوم ، وخرق مينو ، وسيادة بريطانيا البحرية .

أما اعتقاد بونايرت بأن مصر ذات قيمة في مفاوضات الصلح مع انجلترا (وكانت تجري آنئذ في الجناحين) فهو أيضا مستند الى وهم باطل : فما دام الفرنسيون يملكون مصر ، فلن تعقد انجلترا صلحا . فالذى اعتبره بونايرت شيئا قيما ، والذي أقسم مينو على الدفاع عنه الى آخر رجل من رجاله ، كان في الحقيقة أهم عقبة في طريق الصلح . وهذه القضية البسيطة التي أدرك كليبر عنها قبل سنة أثبتتها أحداث صيف عام ١٨٠١ وخريفه بما لا يدع مجالا للشك . وقد أخفق بونايرت في تبينها الى آخر حياته ، فحتى في أيامه الأخيرة ، وهو يكتب تاريخ الحملة في سانت هيلانة ، لم يفتأ يتكهن بما كان يحدث لو أن جانتوم وصل الى مصر ، ولو أن مينو أحسن الافادة من قواته ، وهكذا . وفي رأيه أن فرنسا كانت بذلك تحصل على شروط صلح أفضل . أما الحقيقة فهي أن فرنسا حين عقدت الصلح في ١٨٠٢ حصلت على أفضل ما تستطيع أن تحصل عليه من شروط ، وأنه لو أن مصر ظلت في قبضة فرنسا لما كان هناك صلح على الاطلاق . لقد كان بونايرت يحكم على معظم الأشياء ومعظم الناس أحكاما ذكية ، الا الانجليز . ويشماركه في هذا بالطبع كثيرون .



تجمعت قوات الحملة البريطانية على مصر بمالطة في أواخر نوفمبر ١٨٠٠ ثم غادرتها بعد شهر - لا الى مصر ، بل الى خليج مارموريس الصغير على ساحل آسيا الصغرى المواجه لرودرس . وكان السر رالف أبركرومبي ، على عكس بونايرت في ١٧٩٨ ، رجلا ذا طريقة محددة ، يتميز بالحيلة والحذر . ففي منطقة الاستراحة بمارموريس استجم رجاله بعد رحلتهم الطويلة المضنية ، وأعطوا تدريبا دقيقا في حركات النزول الى البر . وفي الوقت نفسه أرسل الميجر - جنرال السر جون مور الى يافا لينسق بين الحملة البريطانية وحركات الصدر الأعظم ، الذي لم شعبه جيشه بعد هزيمة عين شمس الساحقة . وكان السر جون واجما حين عاد الى مارموريس في ٢٠ يناير ، وقال في تقريره ان طريقة تموين الصدر الأعظم غاية في الفوضى وأن جيشه حشود لا نظام لها ، وأن الصدر الأعظم نفسه شيخ طاعن في السن لا يعرف أبسط مبادئ الحرب . أضف الى ذلك أن ألف جندي تركي كانوا يموتون كل شهر بالطاعون . فلما سمع السر رالف هذا قرر أن يسقط من حسابه الصدر الأعظم ، وأن يعتمد أساسا على قواته هو وعلى جيش قبطان باشا الأفضل تنظيما ، وأن يركز هجومه على الإسكندرية . وفي ٢١ فبراير أقلع الأسطول الانجليزي من مارموريس .

وفي ٢٠ فبراير أصدر بونايرت منشورا لجيش الشرق ينذر رجاله بغزو قريب من الانجليز والأتراك . قال « ان كل رجل ينزل من سفينته يجب أن يقتل أو يؤسر » . ويجب أن تصبح صحراء قطيا مقبرة للصدر الأعظم ، (١٤) . وفي اليوم ذاته عاد الأميرال جانتوم الى طولون بعد أن رأى أن العبور الى

الاسكندرية محفوف بمخاطر لا يستطيع أن يتحمل تبعاتها . واشتد حنق القنصل الأول ، فكتب الى جانتوم فى ٢٥ فبراير منبها « يجب أن توصل المعونة لجيش الشرق مهما كان الثمن » (١٥) . وشعر جانتوم أن هذا كلام يقال بأيسر مما ينفذ . ومع ذلك أقلع ثانية فى ١٩ مارس ، وصادف فى طريقه أسطول الأدميرال وارن الذى دخل البحر المتوسط قبيل ذلك ، فهرب منه ، ثم عاد الى طولون ثانية . وبينما كان جانتوم يجس البحر المتوسط بإبهام قدمه ، كما يقولون ، فيجده شديد البلل ، كتب بوناپرت للقيصر بول فى تفاؤل يقول « يحاول الانجليز النزول الى بر مصر . ومن مصلحة جميع دول البحر المتوسط والبحر الأسود أن تظل مصر فرنسية . ان قناة السويس : قد كشف عن مجراها القديم فعلا : وهذا مشروع سهل لن يحتاج تنفيذه الا لوقت قصير ، وسيجلب للتجارة الروسية منافع لا حصر لها » (١٦) . ومن العسير أن تحشد مجموعة كبيرة من التأكيدات ، المشكوك فيها - اذا توخيت الاعتدال فى وصفها - أوقع من هذه المجموعة ، ولكن لنذكر أن القنصل الأول كان يخاطب مجنونا . والذى حدث أنه حين وصل هذا الخطاب الى سانت بطرسبورج ، كان المجنون قد قتل رميا برصاص أصدقاء ابنه ، الذى لم يكن وقتها قد شارك بعد أباه فى تحمسه لبوناپرت . كذلك كان جيش السير رالف ابركرومبى قد نزل فى أبى قير فى ٨ مارس .

وقد تم انزال الجنود بطريقة بارعة جريئة . كتب السر جون مور مسجلا هذا الحديث فى يوميته « أطلقت علينا النيران من خمس عشرة قطعة مدفعية بمجرد أن أصبحنا على مرماها ، أولا بالقنابل ، ثم بالرش ، وأخيرا من المشاة . ومضت الزوارق تجذف فى طريقها ، وكان البحارة والجنود يهللون ويهتفون بين الحين والحين . وقتل وجرح منهم عدد ، وأغرقت بعض الزوارق . وكانت نيران الرش والبنادق فى الحقيقة حامية جدا » (١٧) . وقد أثمر التدريب الذى تلقاه الجند فى ماموريس : فعلى الرغم من خسائر الانجليز الثقيلة - وهى تبلغ ٦٠٠ حسب تقدير مور - أقاموا جسرا ساحليا واقتحموا التلال الرملية الوعرة . وانسحب الفرنسيون الذين كان عددهم أقل من أن يسمح لهم بالمقاومة . وتقدم ابركرومبى الى الاسكندرية بعد أن وطد مركزه وأنزل مدفعيته ، تاركا خلفه قوة لتحصن قلعة أبى قير ، وقد سلمت حاميتها البالغ عددها نحو ٢٠٠ رجل فى ٢٠ مارس .

ولقى الجزء الأكبر من الجيش الانجليزى مقاومة شديدة على أميال قليلة غربى أبى قير ، ولكنه أفلح فى زحزحة الفرنسيين من مكانهم بعد قتال عنيف نشب فى ١٣ مارس . وهنا ، وعلى مقربة من أطلال كانوب القديمة ، هاجمهم مينو بعد ذلك بأسبوع .

أُذِر الجنرال مينو شهورا عديدة بأن البريطانيين يزعمون النزول ببر مصر قريبا . ومن العسير أن نعلل له تعزيز وحداته المراقبة على طول الساحل وبقربه . وأصعب من ذلك أن نفهم لم ظل أكثر من أسبوعين لا يفعل شيئا بعد أن تلقى نبأ وصول البريطانيين . فالواقع أن الأسطول الانجليزى لاح فى أفق أبى قير فى أول مارس ، ثم عطل سوء الجو نزول الجنود أسبوعا ، ولكن لا بد أن مينو أحبط بوصوله فى ٣ مارس ، ولكنه لم يبرح القاهرة الا فى ١٢ مارس . ولم تكن السرعة من فضائل مينو البارزة ، ومع ذلك فحتى هذا البطء لم يكن مفضيا الى الكارثة ، لولا أن ضاعف من مغبته فرط ثقة مينو بنفسه .

أما أمثل سبيل كان مينو يستطيع أن ينتهجه فهو الزحف على أبى قير دون إبطاء بكل ما فى متناوله من قوات (وهى أكثر كثيرا من قوات السر رالف ابركرومبى) ، وبعد أن يصد الانجليز يزحف شرقا فيقطع الطريق على الصدر الأعظم . ثم يستطيع بعد ذلك أن يعود الى القاهرة التى يحتفظ له بها مراد بك فى هذه الأثناء ، فيمزق الجيش الانجليزى الهندى الذى يقوده الجنرال بيرد . وحتى لو خانه مراد لكان فى استطاعته أن يسترد القاهرة كما استردها كليبر قبل عام ، وأهم شيء هو ضرب كل من القوات الغازية على التعاقب وبأعداد متفوقة ، مبتدئا بجيش ابركرومبى فى أبى قير . وهذا ما كان بونابرت أو كليبر صانعه ، ولكن مينو بدلا من ذلك ارتكب كل ما يمكن من أخطاء . فأتاح لأبركرومبى وقتا لتوطيد مركزه ، وترك ما يقرب من نصف قواته فى القاهرة بقيادة الجنرال بليار ، وازدرى بتعاون مراد بك . وفى ٢١ مارس - أى بعد ظهور الانجليز على الساحل بثلاثة أسابيع - اشتبك مينو معهم فى معركة قرب موقع مدينة كانوب القديمة بين أبى قير والاسكندرية . وكانت قوات السر رالف تبلغ نحو ١٥٠٠٠ جندي صالح للقتال ، وقوات مينو نحو ١٢٠٠٠ . ومن المشكوك فيه أن خطة مينو للانتصار كانت أن يصل الى الميدان أبطأ ما يكون بأقل القوات . والأرجح أنه حسب الانجليز أتراكا وحسب نفسه بونابرت ، والا فمن الصعب أن نتصور سببا لاختياره مهاجمة ابركرومبى فى الزمان والمكان اللذين هاجمه فيهما .

كانت معركة كانوب فادحة الخسائر للفريقين . فقد بلغت خسائر الفرنسيين حسب تقدير البكباشى ولسن ٤٠٠٠ قتيل وجريح وأسير ، ودفن الانجليز فى اليومين التاليين للمعركة ١٠٤٠ فرنسيا . وبلغت خسائر الانجليز على الأقل ٢٤٠ قتيل و ١٢٥٠ جريحا ، ولكن يبدو أن ولسن قدرها دون حقيقتها . وقد دون السر جون مور هذه العبارة الموجزة المفيدة فى يوميته ، « لم أر ساحة قتال انتشر عليها الموتى بهذه الكثرة » . وجرح السر جون نفسه فى ساقه ، وكذلك القائد الانجليزى الأعلى السر رالف ابركرومبى ، الذى مالبت أن أصيب بهذين الحمى ، وقضى نحبه بعد أسبوع .

أما في الجانب الفرنسي فقد جرح جنرالان جراحا مميتة - وهما رواز ولانوس . وحين دنا مينو من فراش لانوس - في رواية نقولا الترك - لم يبد الرجل المحتضر امتنانه لرعاية رئيسه واهتمامه . وكانت آخر كلماته التي وجهها لمينو تفيد أن مينو لا يصلح «مرمطونا» يقشر البصل في مطبخ الجمهورية . ولا بد أن هذا الرجل الباسل قد أحس بعض الراحة وهو يموت وشفتاه تنطقان بهذه الحقيقة .

فلما خسر الجنرال مينو المعركة وثلت قواته ، صنع ما كان يجب أن يصنعه أول شيء : فتقهقر الى الاسكندرية . وكانت غلظته الكبرى ، كما وصفها البكباشي ولسن الذي اشترك في القتال وصفا مقنعا « حرصه على أن يكون هو المعتدى » . لقد كانت رغبة فرنسا الاحتفاظ بمصر ، لا القتال للحصول على انتصارات تشتري بثمن فادح كثمن الهزيمة » (١٩) . ولو أن مينو انتظر الانجليز في الاسكندرية بدلا من الهجوم عليهم لاضطر الجيش الانجليزى - فى رأى ولسن - الى التخلي عن مغامرته .

ولكن ما كان صوابا فى ٢٠ مارس أصبح خطأ فى ٢٢ مارس فما كان الواجب على مينو ، بعد أن خسر معركته ضد البريطانيين فى كانوب ، أن يحبس نفسه هو وقواته المتناقصة فى الاسكندرية ويتيح للعدو الوقت لمتابعة تفوقه . وبينما كان مينو يجهز أسباب دفاعه ويشتبك فى تبادل الاتهامات المرة مع مرموسيه الذين أنحى عليهم باللائمة فى هزيمته ، أنزل قبطان باشا ٦٠٠٠٠ من الأنكشارية فى أبى قير (٢٥ مارس) واستولى الجنرال هتشنسن ، خلف السر رالف ، على رشيد بقوة انجليزية تركية (٢ أبريل) . وفى ١٣ أبريل قطع المهندسون الانجليز البرزخ الصغير الواقع بين بحيرة المعدية (التى جفت الآن ، ولكنها كانت يوما تصل الى البحر المتوسط) ، وقاع بحيرة مريوط جنوبى الاسكندرية ، وكان جفافه جزئيا . وقد عارض الجنرال هتشنسن هذه الفكرة طويلا لما تنطوى عليه من تدمير شديد للثروة ، ولكنه خضع فى النهاية للاعتبارات الحربية . وقطع البرزخ فى أربعة مواضع . يقول ولسن « وفى الساعة السابعة مساء أزيلت آخر حزمة فعمت البهجة الجنود . واندفعت المياه الى اليابس بانحدار ستة أقدام ، وفى ساعات قليلة أتت يد الانسان المدمرة على مفتحة مصر ، وموضع رعايتها ، ومدخرها فى أجيال طويلة . . . وتدفقت كمية هائلة من الماء ظلت شهرا تدخل الأرض بقوة شديدة » (٢٠) . وعزلت المياه الاسكندرية عزلا تاما ، وسهلت مهمة القوة الانجليزية المحاصرة ، ومكنت عددا من السفن الانجليزية الصغيرة من دخول بحيرة مريوط .

فلما أمكن اعفاء جزء من القوات البريطانية بهذه الطريقة من مهمة الحصار ، زحفت قوة انجليزية تركية مشتركة ، يقودها الجنرال هتشنسن والقبطان باشا ،

على ضفة النيل اليسرى ، وفى ٩ مارس أكرها قوة فرنسية يقودها الجنرال لاجرانج على التقهقر الى القاهرة بعد أن اشتبكا معها عند الرحمانية . وهكذا عزل جيش بليار فى القاهرة (ويبلغ ١٢٠٠٠ رجل بعد انضمام لاجرانج اليه) عن جيش مينو بالاسكندرية . وفى هذا الوقت دخل الصدر الأعظم مصر من سوريا بجيش يبلغ ١٥٠٠٠ رجل ، واستولى على دمياط والصالحية وزحف على ضفة النيل اليمنى .

واذ رأى بليار نفسه منقطع الصلة بالساحل ، ووجد جيشين يزحفان على القاهرة ، والطاعون يتفشى فى مصر السفلى والوسطى ، نظر فى امكان التخلي عن القاهرة والتقهقر الى الصعيد حيث ينضم الى ممالك مراد بك . ولكن هذه الخطة منع تنفيذها موت مراد بالطاعون وهو فى طريقه الى القاهرة . أما خلف مراد ، وهو عثمان بك الطنبرجى ، فقد انضم للبريطانيين فى ٢٨ مايو هو و ١٥٠٠ فارس من الممالك (بينهم عدد من الفرنسيين الهاربين من الجيش) (*) . وفى ١٩ يونيو كانت الجيوش المتحدة ، التى يقودها هتشسنس وقبطان باشا والصدر الأعظم ، والتى تعززها قوات الممالك والبدو ، تعسكر على مرمى المدافع قريبا من القاهرة على ضفتى النيل ، لأن البريطانيين أقاموا على النهر جسرا من القوارب .

وظل الجنرال بليار يتخذ موقفا سلبيا بحثا طوال زحف الانجليز والأتراك والمناورات الممهدة لتطويق القاهرة والجيزة . ويبدو أن شغله الشاغل كان منع نشوب ثورة شعبية . ولهذا بعث فورييه لينذر المشايخ بأنه يتوقع من أهالى القاهرة مراعاة أدق الحياد فى حالة نشوب القتال ، وطلب أن يمكث الكل فى بيوتهم ويلزموا الهدوء ، فان فعلوا لم يصيبهم أذى ، والا لم يكن مفر من « أن يعم البلاء المفسد وغيره » . واعترض المشايخ على منطق العالم الرياضى قائلين « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ولكن فورييه اختتم المناقشة بقوله « ان المدافع والبنبات لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح فانها لا تقرأ القرآن » (٢١) . على أن الأمر لم ينته بنشوب قتال ولا بقيام ثورة . وفى ٢٢ يونيو وصل مبعوث من بليار الى المعسكر البريطانى . وبعد

(*) يبدو من أوراق السر سدنى سمث ، ومن خطاب كتبه عثمان بك ونقل عنه السر روبرت ولسن ، أنه كان فى نية مراد بك قبيل موته أن ينضم للانجليز اذا ضمنوا له أن الصدر الأعظم لن ينتقم منه . كتب عثمان الى سمث يقول « نحن على يقين من أن مراد بك كان شديد الخوف من الباب العالى ، وأنه وضع نفسه تحت حمايتكم . ولسنا أقل منه خوفا ، وأنت تعلم أنه ما من قوة فى الأرض نضع فيها ثقة أتم مما نضعه فى بلاط بريطانيا العظمى . وكلنا اخوان ، نشق أولا فى الله العلى القدير ، ثم فيكم ، ونضع أنفسنا تحت حمايتكم ، ونريدكم أن تمكثوا مع أبنائنا . وأسروا فى القاهرة بأمر الباب العالى وبضمان الانجليز » (ولسن ، تاريخ الحملة البريطانية على مصر ٢ - ٢٠١) . أما المصادر الفرنسية فتجمع على أن مرادا ظل وفيا للفرنسيين الى النهاية . فاذا كانت هذه نيته ، فان الجنرال مينو قد صعب عليه انفاذها .

مفاوضات دامت خمسة أيام وقع بليار شروط تسليم القاهرة دون أن تطلق رصاصة واحدة . والشروط فى جوهرها هى شروط اتفاق العريش ، غير أن الوثيقة الجديدة شملت ضمانات بسلامة الأهالى المصريين الذين تعاونوا مع الفرنسيين . ولم يتم الجلاء فعلا الا فى ١٠ يوليو . وفى أثناء ذلك كان أهم ما يشغل الجنود الفرنسيين تصفية ممتلكاتهم وبيعها نقدا ، بما فى ذلك خيلاتهم .

وفى ٤ أو ٥ يوليو - أى بعد توقيع شروط التسليم بأسبوع - وصل الى الجنرال بليار أمر من الجنرال مينو يقول ان على الجنود الفرنسيين أن يهزموا العدو أو يموتوا . وعلق مالمو على هذا الأمر فى يوميته بهذه العبارة « ان هذا الأمر ما كان ليصدره غير رجل مجنون » (٢٢) . ولعل الأمر كذلك ، ولكن قرار بليار أن يسلم دون مقاومة كان مع ذلك مثار الدهشة وان أقرته عليه أغلبية مجلس حرب عقد لهذا الغرض . وكان القرار مفاجأة تامة للقيادة الانجليزية . ذلك أن مركز القوات الانجليزية التركية لم يكن ممتازا كما بدا فى الظاهر . فقد عطل الرمد والذنتاريا عددا كبيرا من الانجليز ، الذين كانت تنقصهم أيضا مدفعية الحصار ، أما الأتراك فكان أكثرهم حشودا تفتقر الى النظام والتدريب . وكان من رأى معظم ضباط أركان الحرب البريطانيين أن الجنرال هتشينسن تهور بتغلغله فى اليابس الى هذا الحد . وقد اعتبروا تسليم بليار نفحة غير متوقعة من نفحات الحظ .

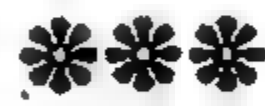
صحيح ان بليار ، رغم جميع الحجج التى تدرع بها لتبرير عمله ، كان يستطيع بسهولة أن يقاوم طويلا ، ان لم يكن فى القاهرة نفسها فعلى الأقل فى القلعة وفى عدة حصون محيطة بالمدينة . ولكنه اذا كان قد سلم دون قتال فان هذا لم يكن جينا منه ، فقد أثبت من قبل بسالته وهو يحارب فى الصعيد تحت قيادة ديزيه . انما سلم لنفس الأسباب التى دعت كليبر للتسليم فى العريش . فالتضحية بآلاف الأرواح فى سبيل قضية خاسرة لم تبد له أمرا مشرفا ، بل جريمة . فقد كان ثلاثون أو أربعون فرنسيا يموتون بالطاعون فى القلعة كل يوم فيما روى الجبرتى . وشح الماء - فاقصر نصيب الجندى على كوب واحد فى اليوم اذا صدقت « جازيت ذو ليد » ، فى روايتها . فهل كان على بليار أن يطيل أمد الحصار فى هذه الظروف ، لا لشيء الا ليتملق أحلام الجنرال مينو الاستعمارية ، معللا نفسه عبثا بقرب وصول الأمداد من فرنسا ؟ لو أنه فعل ، لما كانت النتيجة غير موت عدة آلاف من الرجال يدخلون فى عداد الأبطال ، وضياع مصر من فرنسا كما ضاعت فعلا . والحكم هنا - كما كان فى حالة كليبر - رهن كله بهذا السؤال : هل يعد المنطق فى القائد خيانة ؟

وجلا الفرنسيون عن القاهرة بكل مظاهر الاحتفال الحربى ، حامنين كل سلاحهم وعتادهم وما استطاعوا نقله من ممتلكاتهم . وكان عددهم - باستثناء نسايتهم وأطفالهم - ١٣٠٠٠ رجل منهم ١١٦٨ جنود بربون صالحون للعمل ،

و ١٣٠٠ مرضى ، و ٣٤٤ بحارا ، و ٨٢ مدنيا ، يضاف الى هؤلاء ٧٦٠ من الأقباط والروم والمماليك الذين فضلوا أن يصحبوهم الى فرنسا . وتم الجلاء بغاية النظام دون أن يكدره حادث ، بفضل جهود جميع القواد المعنيين - فرنسيين وبريطانيين وأتراك . كتب مالو فى يوميته يقول : « ان الانجليز يسلكون بغاية اللياقة . أما الترك فسثموا الأمر كله ويريدون انهاء باى ثمن » (٢٣) .

وكان من اللائق أن تقدم الدول المحاربة الثلاثة تحية الاحترام الخاصة لجثة الجنرال كليبر التى حملها الفرنسيون معهم . بينما كان الجنود الفرنسيون يقفون فى صفين يحيون التحية العسكرية عند مرور الجثة ، حيث المدفعية الانجليزية والتركية الموكب . « ان ما أشاع جو الوقار الحزين لم يكن دق الطبول الخافت ، ولا مراسم الاحتفال ، ولا ما خيم على العرض من سكون رهيب ، بل هذه الرجولة الصامته ، الحزن الذى لا تكلف فيه ولا افتعال . لقد كان كل جندى يشعر والنعش يمر ، أن فى هذا النعش ترقد عظام رجل أحسن اليهم ، وكان أبا لهم » (٢٤) . وكاتب هذه الكلمات لم يكن فرنسيا ، بل ضابط انجليزى شهد المنظر ، وهو السر روبرت ولسن . ولكن لسوء الحظ ، كان الحافز الأكبر له على هذا الثناء على كليبر كرهه لبونابرت . ومع ذلك فما كان فى وسع انسان ذكى ، فرنسيا كان أو انجليزيا أو تركيا ، الا أن يفكر ، وجثمان كليبر يمر فى موكبه ، فى عدد رفاقه الذين كان يمكن أن تحقق دماؤهم لو أن رأى كليبر تغلب . والذنب فى فشله واقع بكل صراحة على عاتق الوزارة البريطانية .

وقبيل رحيل الفرنسيين عن القاهرة وجه رئيس الخزانة خطاب وداع للديوان . فوعده أعضائه ، وهو يضيف كذبة جديدة الى الأكاذيب الكثيرة السابقة ، بأن الفرنسيين عائدون سريعا . ولم يكن رد الشيوخ كما نقله أحدهم - وهو الجبرتى - خلوا من العزة والكرامة . فقد قالوا له « ان الأمر لله ، والملك له ، وهو الذى يمكن منه من شاء » (٢٥) .



وجلا الفرنسيون عن الجيزة فى ١٥ يوليو . وكان الجنرال بيرد قد أنزل نحو ٥٠٠٠ جندى هندى وبريطانى فى القصير ، فوصلت طلائعه الى القاهرة ولم يكن لرحلتهم ضرورة ، ولكن بهاء ملابس الهنود العسكرية كان ذا وقع كبير فى نفوس الأهالى .

ولم يكن سير الجنود الفرنسيين من القاهرة الى رشيد ، حيث اتفق على أن يستقلوا الناقلات البريطانية الى فرنسا ، بالعملية اليسيرة . وكان يشرف عليها الجنرال السر جون مور ، لأن الجنرال هتشنسن أقعده المرض عن الاضطلاع بها . ووفق السر جون بكثير من اللباقة والحكمة فى الاحتفاظ بمسافة بين الفرنسيين وحرسهم البريطانيين والأتراك تكفى لمنعهم من الاصطدام . والواقع أنه لم يكن من المؤكد اطلاقا ، اذا وقع صدام ، أى الفريقين يخرج منه ظافرا ،

لأن لدى الفرنسيين ١٠٠٠٠ من الجنود كامل السلاح • وربما كان هذا الموقف فريداً في تاريخ الحروب • على أن الفرنسيين لم يبدؤوا أقل ميل لقتال حراسهم ، واتفقت الروايات على أن حلم العودة إلى الوطن بعد ثلاث سنوات شاقة أثلج صدور الفرنسيين ، فتآخوا مع البريطانيين في جو من الغبطة والسعادة •

وتم بين ٣١ يوليو و ٧ أغسطس ركوب جميع رجال بليار - بما فيهم أتباعهم ، بل وبعض الخيل أيضاً - الناقلات في رشيد ، فوصلوا فرنسا في أكتوبر • ولم يحرم الدخول إلى أرض القارة سوى رجل واحد - هو الجنرال كليبر - فقد نص أمر أصدره بونابرت في ٩ أكتوبر على أن يحجز جثمانه مؤقتاً في قلعة السجن بجزيرة ايف ، المواجهة لمرسيليا ، وقد ترك هناك حتى سقوط نابليون •

كان الصدر الأعظم يحاول في القاهرة أثناء ذلك منع جنوده من أعمال السلب والنهب ، وهي المكافأة التي ظلوا يحلمون بها زمناً • واحترمت بصفة عامة مادة العفو في معاهدة التسليم ، على الأقل فيما يتصل بالرجال ، أما فيما يتصل بالنساء فإن حادث ابنة الشيخ البكري ، التي قطع رأسها بموافقة أبيها لأنها تجاوزت الحد في حب الفرنسيين ، لم يكن الوحيد من نوعه • كذلك لم يعدم الجنود الترك الحيلة في تفادي أمر الصدر الأعظم بتحريم أعمال السلب • ويقول البكباشي ولسن « هناك شبهة في أن الجنود الأتراك ، الذين استغلوا فرادى ذعر الأهالي ، أقنعوا التجار بأنهم سيحمونهم • بشرط أن يعتبروهم شركاء في تجارتهم • ولا شك في أن وجود أنكشاري جالس على مدخل كل متجر يرحب بالزبائن ترحيباً حاراً شاهد محتمل قوي ، ان لم يكن إيجابياً ، على أن ما أشيع حق » (٢٦) • ولا عجب ، فأيا كانت التغيرات التي طرأت على مصر في الألفى السنة الماضية ، فلا ريب في أن المصريين كانوا الغارمين دائماً •

أما مينو فقد قاوم في الاسكندرية إلى نهاية أغسطس • ومع أنه كان تحت تصرفه أكثر من ٧٠٠٠ جندي ، مقابل قوة حصار تبلغ ٤٠٠٠ يقودها الجنرال كوت ، فانه لم يبذل محاولة لمهاجمة العدو ، وقصر عملياته الحربية على العبارات البطولية ، والأعمال البوليسية الخاطفة ضد قواده • واشتد غضبه على الجنرال رينييه الذي يليه في القيادة ، والذي اجتراً على نقد تصرفاته ففي مشهد من أعجب مشاهد الحملة نرى مينو في حرس من الرماة يقبض بشخصه على رينييه بتهمة الخيانة ، ويرحله بالقوة هو والجنرال داما ورئيس المندوبين دور ورئيس إدارة الجيش بوايه وغيرهم إلى فرنسا ليحاكموا • وكتب لبونابرت يقول « ان هؤلاء الرجال ليسوا أصدقاء لا للجمهورية ولا لحكومتها ولا للمستعمرة » (٢٧) • وقبل أن يرحل رينييه ، نفس عن غيظه

فى خطاب كتبه مينو وأرسل صورته لأصدقائه فى القاهرة • قال « اننى شخصيا يسرنى أن أبعد عن منظر عملياتك الذى يثير الاشمئزاز ، وعن ضرورة الاتصال برجل أحقره من كل قلبى • لقد أقمت نظاما شبيها بنظام (حكم الارهاب فى) ١٧٩٣ ٠٠٠ وهبطت بالجيش الى حالة يرثى لها بعنادك واصرارك الذى لا يصدق على ارتكاب كل حماقة يمكن أن تخطر بالبال » (٢٨) • ولا شك فى أن فى لغة رينييه من الشطط بقدر ما فى عمل مينو • على أن المعقول ، بغض النظر عن الخطأ والصواب فى الجانبين ، أن جيشا يمكن أن يقوم فيه هذا النقاش هو جيش مقضى عليه بالهزيمة (*) •

ولم يقنع مينو بما شنه من حرب على رؤسياه ، فخلق نزاعا مع اللجنة العلمية التى طلب بعض أعضائها ترحيلهم الى فرنسا مع مجموعاتهم • وبدأ مينو بأن حظر عليهم أخذ مجموعاتهم معهم ، لأنها « وديعة مقدسة » • وبعد لاي سمح لهم بأن يستقلوا السفينة الصغيرة « وازو » التى أقلت من الاسكندرية فى ١٥ يوليو • فلما رفض البريطانيون السماح لهم بالمرور حاولت دخول الميناء ثانية • ولكن مينو ، الذى أطار صوابه تسليم القاهرة ، أمر فرقاطتين من سفنه بإطلاق النار على السفينة ان عادت • ففى رأيه أن هذه الوازو الصغيرة ، بما حملت من علماء ، كان يجب أن تدافع عن العلم الفرنسى بإطلاق النار على البوارج البريطانية التى اعترضت طريقها وتقع فى أيدي البريطانيين ، خيرا من أن تعود دون قتال • ولكن موقفه كان أسخف من أن يثبت عليه طويلا ، فسمح للعلماء بالعودة •

وفكرة مينو عن الشرف تعكس حالة مرضية فى عقله • وقد كتب عن حادث الوازو خطاب اعتذار طويلا للأميرال كيت • وبعد أيام وجه خطابا استغرق خمس صفحات مطبوعة الى السر سدننى سمث ، وكله عن مسائل تتصل بالشرف فى رأى مينو ، أو قل مسائل تتصل بالغرور التافه اذا أخذنا بمقاييس معقولة أكثر من مقاييس مينو • وقبل ذلك بأيام كتب الى بوناپرت وهو يرتجف سخطا لنبا تسليم بليار فى القاهرة • وختم خطابه بقوله : « سأدافع عن نفسى الى آخر رمق داخل أسوار الاسكندرية • اننى لا أعرف كيف أستسلم ، بل كيف أموت » (٢٩) • وبعد سبعة أسابيع استسلم ، وظل حيا تسع سنوات آخر •

بعد هذا الوعد الذى قطعه مينو على نفسه بالموت دفاعا عن مصر بأسبوعين ، أى فى ٢٣ يوليو ، كتب بوناپرت بايجاز فى مذكرة وجهها للورد هوكسبرى ممثل الحكومة الانجليزية فى المفاوضات يقول : « سترد مصر الى الباب العالى » (٣٠) •

(*) برا بوناپرت رينييه رغم اتهامات مينو •

كان هناك أمل واحد يبرر مقاومة مينو المستمرة في الاسكندرية (غير فكرته عن الشرق) - وهو توقع وصول الأميرال جانتوم بالأمداد . والواقع أن بونابرت أمر الأميرال ، بعد عودته غير المشرفة للمرة الثانية الى طولون ، بأن يأخذ بوارجه السبعة و ٥٠٠٠ ره جندي الى درنة في ليبيا ، ومنها يتخذون طريقهم لمصر برا عبر الصحراء . أما كيف تصور بونابرت أن هؤلاء الجنود يستطيعون ، بعد عذاب ثلاثة أشهر في البحر ينفقونها مكდسين في سفنهم ، أن يحققوا هذه المعجزة من معجزات الجلد والاحتمال . فذلك من الأشياء المحيرة الكثيرة في نابليون ، وأقلع جانتوم من طولون متأخرا بعض الشيء في شهر مايو ، وبعد قليل اضطر الى رد ثلاث من سفنه ، لأن وباء تفشى فيها . ووصل باقى أسطول له الى درنة في ٨ يونيو ، ولكن الموقف العدائى الذى اتخذته السلطات المحلية لم يجعل من الصواب النزول الى البر . وواصل جانتوم رحلته الى كريت ، واستولى على البارجة الانجليزية سويفتشور ، ثم عاد الى طولون في ٢٢ يوليو قائما بهذه الغنيمة . فاذا كان قربه القصير الاجل من مصر مبررا لآمال مينو في قرب تلقيه المدد ، فان كلمة « كاد » لا تكفى ، ومن باب أولى ألا يعتمد الجنرال بليار على جانتوم .

وفى نفس اللحظة التى كان فيها أسطول جانتوم أمام الساحل الليبى على رحلة يوم من الاسكندرية ، ذلك الأسطول الذى ينتظره مينو على أحر من الجمر وتخشاها قوات الجنرال كوت الهزيلة ، اعترض الأميرال كيت مددا آخر قادما من فرنسا . وعرض الأميرال بكل سماحة أن يسمح بمرور الشحنة الى الاسكندرية ، لأنها لم تحتو على جند ولا ذخيرة ، بل على فريق من الممثلين والممثلات أرسلهم القنصل الاول ليرفع من معنوية جيش الشرق . ووصول هذا الفريق فى هذه اللحظة الحرجة بدا كأنه المبرر الذى لا يدحض لمسلك الجنرال كليبر ، وان لم ينجى الا بعد موته . وشكر مينو اللورد كيت فى أدب على عرضه السماح للممثلين بالمرور ، ولكنه ذكر أن الوقت غير مناسب ، ورجاه (« لآنك ولا ريب صديق للفنون ») (٣١) أن يردهم لفرنسا .

وما انتصف أغسطس حتى انضمت القوات الانجليزية الرئيسية التى يقودها هتشينسن ومور الى حصار الاسكندرية ، بعد أن قادت جيش بليار الى رشيد . وسرعان ما دب النشاط فى عمليات الحصار التى كانت الى تلك اللحظة تسير فى شيء من التراخى . وجل تفاصيل الحصار ذات أهمية فنية فقط ، وأهم عملياته انزال جزء من الجنود البريطانيين فى حصن العجمى غربى الاسكندرية ، فتم بذلك تطويق المدينة ، على أن البريطانيين أنفسهم كانت تعوزهم المؤن لا سيما علف الخيل ، مما اضطرهم الى نقل مدفعية الميدان وجميع دواب الحمل - من جمال وخيل وحمير - الى رشيد . وقد رفع نقل الحمير من معنوية البريطانيين أكثر مما كان وصول فرقة الممثلين سيرفع من معنوية الفرنسيين . يقول

البكباشى ولسن : « نقلت هذه الحمير وسط ابتهاج الجميع عدا أصحابها . ولم تكن الموسيقى المنبعثة من ألف صوت على الأقل من أصواتها ، والمتصلة طوال الليل ، من الأشياء المستحبة » (٣٢) . وقد يبدو هذا الحدث الصغير تافها ، ولكن ملكة القصد فى العبارة ، التى أوتىها السر روبرت ، جديرة بالشناء .

ولم تنقل الحمير الناهقة الا ليخلفها اشتداد قصف المدفعية المتبادل ، وهى موسيقى أكثر اتفاقا مع الروح الحربية ، ولكنها ليست أكثر جلبا للنوم . وبعد عدة أسابيع من الضجيج والعجيج ، استقر رأى الجنرال مينو فى النهاية على أن الوقت قد حان للمفاوضة . والواقع أن المراكز الفرنسية الخارجية ظلت فترة قبل ذلك مطمئن الانجليز - الذين كانوا متصلين بها اتصالا غير رسمى - الى أن القسم الذى أقسمه القائد الأعلى للفرنسيين بأنه يؤثر أن يدفن تحت خرائب الاسكندرية على أن يسلم ليس الا حديثا عابرا . وفى ٢٦ أغسطس وصل مبعوث فرنسى الى المعسكر الانجليزى ، وعرض الاتفاق على هدنة ثلاثة أيام للمفاوضة على شروط التسليم . ومدت الهدنة ، وفى ٣٠ أغسطس دخل الجنرال هوب الاسكندرية ليوقع الشروط التى اتفق عليها . ودعا الجنرال مينو الى طعام قوامه لحم الخيل فقط . وفى ٢ سبتمبر نزل الأميرال كيت الى البر ليصدق على المعاهدة .

كانت الشروط التى حصل عليها الجنرال مينو هى بعينها التى حصل عليها كليبر فى العريش قبل تسعة عشر شهرا ، وحصل عليها بليار فى القاهرة قبل شهرين ، وهى بعينها الشروط التى لم ين مينو عن نعتها بأنها شروط مخزية فظيعة . والفرق أن مينو قبلها بعد أن قتل وشوه من رجال الفريقين عدد لا بأس به - وهو فرق يصور فكرته عن الشرف .

وكان ابرام أى اتفاق دون احتداد وجدل شيئا لا يستطيعه الجنرال مينو . فما ان وقعت شروط التسليم حتى تبعها تراشق بالعبارات الجارحة بينه وبين الجنرال هتشنسن عن التصرف فى المجموعات التى يقتنيها العلماء ، وفى عدة آثار من بينها حجر رشيد الذى زعم مينو أنه ملك خاص له . فأما هتشنسن فقد طالب بهذه الأشياء كلها بمقتضى المادة السادسة عشرة من معاهدة التسليم . وأما مينو فكان على استعداد للتنازل عن مجموعات العلماء . ولكن العلماء ، وعلى رأسهم جوفروا سانتيلير ، أعلنوا أنهم يؤثرون أن يتبعوا مجموعاتهم الى انجلترا عن أن يسلموا فيها . ومنحهم مينو سؤلهم على كره ، كما يبدو من خطابه المؤرخ ١٣ سبتمبر للجنرال هتشنسن ، وفيه يقول : « لقد أحطت علما بأن نفرا من أصحاب المجموعات يريدون أن يتبعوا ما جمعوا من حبوب ، ومعادن ، وطيور ، وفراشات ، وزواحف ، الى حيث تريدون شحن أبقاصها . ولست أدري هل يرغبون فى أن يحنطوا هم أنفسهم لهذا الغرض ، ولكنى أؤكد لك

أننى لن أمنعهم ان راقتهم الفكرة • وقد أذنت لهم بأن يخاطبوك فى الأمر » (٣٣) •
وسمح هتشينسن للعلماء بالاحتفاظ بمجموعاتهم ، ولكنه أصر على أخذ حجر
رشيد ، فتخلى عنه مينو على كره ، وكتب له يقول : « انك تريد يا سيدى
الجنرال ، ففى وسعك أن تأخذه ما دمت أقوانا ••• ولك أن تنقله متى شئت » (٣٤)
واذا كان الشرف أهم خليقة عند مينو ، فان الكرامة لم تكن كذلك (*) •

ويقول السر روبرت ولسن انه فى ١٤ سبتمبر ، سارت أول فرقة من
الجنود الفرنسيين الى أبى قير وركبوا الناقلات وعليهم مظاهر الفرع (٣٥) •
وتبعتهما الوحدات الأخرى ومعها الجنرال مينو • أما زوجة مينو وابنه الصغير
فقد استطاعا بعد رحلة مخوفة ببعض الخطر من رشيد الى القاهرة ، ومن
القاهرة الى الاسكندرية ، أن يلحقا به أخيرا ويركبا البحر معه •

وبعد أسبوعين ، أى فى أول أكتوبر ، وقع المفاوضون الفرنسيون والانجليز
معاهدة صلح تمهيدية • وفى أول ديسمبر كتب بوناپرت لمينو اثر عودته الى
فرنسا : « أعلم أنه لو كان الأمر مرهونا بمشيئتك وبحبك لبلاد مصر الجميلة
لاحتفظت الجمهورية بهذا الفتح • وقد كانت مقاومتك الطويلة فى الاسكندرية
ذات فائدة فى المفاوضات » (٣٦) • وهذه العبارة وان قيلت بدافع العطف
والعزاء ، الا أنها لا تضيف الا كذبة للأكاذيب الأخرى الكثيرة • فإذا كان هناك
شئ جعل صلح لندن التمهيدي ممكنا ، فليس هو طول مقاومة مينو بالاسكندرية ،
بل انتهاؤها •

أفصح نابليون وهو يملئ تاريخ الحملة المصرية ، بالتحايل على الاحصاءات ،
أن يوهم الناس بأن خمسة أسداس الجيش الذى أخذه الى مصر عاد الى فرنسا
حيا • وتفسير هذه النتيجة المدهشة التى انتهى اليها بسيط ، وهو أنه أسقط
من حسابه الجنود البحريين والملاحين • أما الأرقام الصحيحة فتروى قصة غير
قصته ان فسرت على الوجه الصحيح • كان لدى بوناپرت فى يوليو ١٧٩٨ أكثر
قليلا من ٣٤ر٠٠٠ جندى برى ونحو ١٦ر٠٠٠ جندى بحرى وملاح فى مصر •
وفى سبتمبر ١٨٠١ كان نحو ٢١ر٥٠٠ جندى برى (منهم ٣ر٠٠٠ مريض أو
جريح) فى طريقهم الى أرض الوطن ، ولكن الجنود البحريين والملاحين البالغ
عندهم ١٦ر٠٠٠ كانوا قد انكمشوا الى ١ر٨٦٦ • ومعنى هذا أنه لم يعد من
جملة رجال الحملة الذين يزيدون على ٥٠ر٠٠٠ سوى ٢٣ر٠٠٠ أو أكثر قليلا ،
بما فيهم ٣ر٠٠٠ مريض • ويمكن تفسير هذه المفارقة بأن عددا كبيرا من القوات

(*) فى رواية الجنرال دينيه ، ومفهوم أنها متحيزة ، أن مينو لم يصر على الاحتفاظ
بالمجموعات الا بعد أن هدد العلماء باتلافها خيرا من تركها للبريطانيين • وليس هناك ما يؤيد هذه
القصة غير المعقولة ، التى ينفيها السر روبرت ولسن على التحديد فى تاريخه للحملة ، وكان
دينيه بالطبع قد رحل عن الاسكندرية حين وقعت هذه الأحداث •

البحرية أدمج في وحدات الجيش بعد معركة أبى قير ، بل ان الحسائر في الرجال يجب أن تقدر بزيادة عدة مئات على ما يستفاد من هذه الأرقام ، لأن مددا من قرابة ألف رجل وصل الى مصر في فبراير ١٨٠١ ، ولأن عددا من المرضى والجرحى ماتوا في طريقهم الى فرنسا (ومنهم المعلم يعقوب) . ثم ان عدة مئات من الجرحى نقلوا الى فرنسا قبل التسليم . فمع أنه من المستحيل وضع قائمة دقيقة بخسائر الفرنسيين ، الا أن في وسعنا أن نقول مطمئنين ان نصف رجال الحملة (بما فيها البحريون) هلكوا أثناء الحملة سواء في ساحة القتال أن من المرض ، وأن عدة آلاف آخر فقدوا بصرهم أو أصيبوا بعجز بدنى .

وأيا كانت المكاسب التي اشترت بهذا الثمن ، فانه لا صلة لها بالأهداف التي جردت الحملة لتحقيقها ، والتي فشلت فيها كلها .

كان الجنود والعجزة لا يزالون في طريقهم الى فرنسا بفضل البحرية الانجليزية ، حين أسقط القنصل الأول للجمهورية الفرنسية مصر من حسابه باعتبارها خسارة ، ووجه نظره لمغانم أخرى على مائدة القمار . وفي ١٣ سبتمبر ١٨٠١ طلب الى وزير بحريته اعداد مذكرة عن مدغشقر . وفي ٢٣ أكتوبر عين صهره الجنرال لكليز قائدا أعلى للحملة على سانتو دومنجو . وفي ٨ نوفمبر وجه منشورا لسكان سانتو دومنجو بأسلوب أتقنه في مصر ، فقال لهم : « تجمعوا تحت لواء الجنرال (لكليز) ٠٠٠ وكل من يجرؤ على الخروج على دعوة القائد فهو خائن لوطنه وسيلتهمه غضب الجمهورية ، كما تلتهم النار حقول قصبكم في فصل الجفاف » (٣٧) .

وهكذا طويت صفحة عميقة من تاريخ الاستعمار ، لتفتح صفحة أخرى . وكانت فظائع الحملة الدومنيكية وأهوالها ذبلا محترما لفظائع الحملة المصرية وأهوالها ، وفي وسعك أن تطبق الكلمات التي فاه بها نابليون في سانت هيلانة على سبيل الرثاء على كلا المخامرتين لتصدق عليهما جميعا : « ان حملة سانتو دومنجو كانت حماقة كبرى ارتكبتها . ولو نجحت لما كان لها من نفع سوى اثرء أسر مثل نواي ولاروشفوكو فوق ثرائها » (٣٨) . وهذه الكلمات تجمل في ايجاز ما أسفر عنه استعمار القرن التاسع عشر من نتائج .

٤

ما الذي حققته الحملة المصرية غير خسارة الأرواح ، والحراب ، والقسوة ؟ أما بونابرت فقد فتحت له الطريق الى السلطة . وأما فرنسا فلم تحقق لها النتائج المرجوة ، بل أفقدتها سيادتها في الشرقين الأدنى والأوسط فأفادت بذلك انجلترا . وأما مصر فكانت الحملة ذات دلالة أبقي بالنسبة لها . فقد

تجطمت قوة الممالك رغم جهود البريطانيين في ردهم الى سابق مكانتهم ، وبعد عشر سنوات أفلح محمد علي في التخلص منهم تماما بطريقة بسيطة ، هي ذبح من بقى منهم على قيد الحياة . وقد نفذ في عهد محمد علي وخلفائه كثير من المشروعات التي بدأ الفرنسيون بالتفكير فيها ليجعلوا من مصر بلدا عصرية ، وظل أثر الفرنسيين الثقافي والتكنولوجي ظاهرا الى اليوم . لقد حرك نابليون في مصر ، كما فعل في ايطاليا وألمانيا وأسبانيا ، قوى تعمل على التغيير رغم شدة جمود تقاليد الماضي .

ومن العبث اطالة الكلام في جميع هذه النتائج التي أسفرت عنها الحملة ، وبعضها ايجابي ، رغم أنها نتائج لا تنكر . فمصر كان مآلها الى التغير ، حتى ولو لم يظهر بونابرت قط في سمائها ، وآيات الفن وروائعه في الأقصر والكرنك كان مصيرها الى الكشف ، حتى ولو لم يزحف ديزيه قط الى الصعيد ، والرموز الهيروغليفية كانت ستفك ، حتى ولو لم يكشف حجر رشيد الا بعد الحملة بسنوات ، وقناة السويس كانت ستحفر ، حتى ولو لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس ، وفي المؤرخين ميل لتبين الخير في كل شيء ، حتى في الحروب العقيمة . صحيح ان كل شر يحمل في ثناياه بعض الخير عرضا ، ولكن هذا لا يعنى دائما أن الشر ضروري لجلب الخير .

وأدخل في موضوعنا أن نعتبر الحملة المصرية أول محاولة أوربية كبرى لاستعمار البلاد التي أطلق عليها حديثا اسم « المناطق المتخلفة » . ولعلها كانت فريدة بين الحملات الاستعمارية كافة ، لا بسبب من شارك فيها من شخصيات فذة فحسب ، ولا بسبب مجال تخطيطها أو ما تثيره مغامرتها في النفوس من انفعالات ، بل أهم من ذلك بسبب الجدية التي حاول بها بونابرت وخلفاءه أن يحققا الاندماج بين الغرب العلماني والشرق الاسلامي على قدم المساواة . فان محاولة كهذه لم تبذل منذ ذلك التاريخ .

فاذا نظرنا الى حملة بونابرت المصرية في هذا السياق ، كنا أميل الى التفكير فيما كانت تفضي اليه من نتائج لو نجحت ، عنا الى رميها بالعقم لأنها فشلت . والمجال يتسع لكثير من الجدل في هذا الموضوع ، ولكن نطاق الفروض يضيق كلما بعدت نظرتنا . فلو أن فرنسا وطدت قدمها في مصر كما وطدتها في الجزائر بعد ذلك بثلاثين عاما لبدا هذا الحدث بالغ الأهمية والخطر لعقول أهل القرن التاسع عشر . ولكنه في سنة ١٩٦٢ (*) يبدو أقل أهمية وخطرا . ذلك أن دول الاستعمار بعد أن ظلت تقتتل قرنا ونصف قرن على امتلاك العالم تصفى الآن امبراطورياتها طوعا أو كرها ، وهي تحاول التقارب من بعضها البعض في أوروبا تحت ضغط الظروف أكثر من سلامة التفكير ، بعد أن عجزت عن

(*) تاريخ نشر الكتاب . (المترجم)

اقتسام الأرض فيما بينها • والخير الذى ينطوى عليه شر التاريخ الاستعماري ، هو الرضى بالعمل المتعاون فى الداخل - خيرا من الاقتتال فى الخارج • وأغلب الظن أن أثر عصر الاستعمار سيكون الاحساس به أبقي فى المستعمرات السابقة منه فى البلاد الاستعمارية : فان أهم نتيجة للتحكم والاستغلال كانت التحرر ، وهى نتيجة ملتوية لم يتوقعها الاستعمار • ولعل انهيار أحلام الاستعمار فى كل بلد فى العالم يبرر انهمازية كليبر التى ربما بدت لمعاصريه سياسة قصيرة النظر •



واذا كانت الآثار البعيدة المدى للحملة المصرية يشوبها قليل من الغموض وعدم اليقين ، فان نتائجها المباشرة على من بقى من أفرادها على قيد الحياة كانت واضحة أكيدة • فبعضهم أصيب بالعجز مدى الحياة ، وبعضهم ظفر بترقيات أو مكاسب مالية أو بكليهما ، وكثيرون منهم عاشوا مغامراتهم من جديد بكتابة مذكرات (مراعين فيها الصدق فى كثير أو قليل) ، أما العلماء فأنفقوا ربع القرن التالى يصفون كشوفهم ، وأما فيفان دينون فأصبح المدير الأول لمتحف اللوفر وأنشأ مجموعة المتحف المصرية ، وذبح الأتراك عددا من بكوات المماليك عقب تأمينهم إياهم مباشرة تقريبا ، وراح الباقون يقتتلون حتى ذبحهم الأتراك هم أيضا ، وقطعت رعوس بضع مئات من النساء المصريات عبرة لغيرهن لكى لا يسلكن مسلك الكفار ، أما المماليك والأقباط والسوريون الذين تبعوا الفرنسيين الى فرنسا وكانوا صالحين للخدمة العسكرية فتألف منهم « سلاح المماليك » وعاش الباقون منهم عيشة الضنك على رواتب ضئيلة •

ولكن أعجب وأطرف من حياة هؤلاء حياة المئات من الفرنسيين الذين آثروا البقاء بمصر ، ومعظمهم هاربون من الجيش • فكبير الصيادلة روايه - وهو الذى أعطى الأفقيون لمرضى الطاعون بيافا - فضل أن يمكث بمصر ، وانتهى به الأمر الى أن يصبح طبيبا لمحمد على • وجمع باشا القاهرة نحو ١٣٠ من الهاربين والمتخلفين ، وأسند اليهم مهمة تدريب المجندين الزنوج والنوبيين ليصبحوا حرسا للباشا (وهى فكرة أخذها عن الفرنسيين) • وأبلى هؤلاء الحرس الذين دربهم الفرنسيون بلاء حسنا فى سنة ١٨٠٣ حين قاتلوا عددا من أمراء المماليك المتمردين ، الذين كان لديهم هم أيضا نفر من الفرنسيين الهاربين ، لا سيما رجل يدعى سليم كومب ، وهو من أهالى أفنيون • أما سليم هذا ، الذى كان يدير مدفعية المماليك ، فقد عاون بعد ذلك الحملة الأمريكية الموجهة ضد قراصنة البربر فى درنة ، وارتدى هو ورجاله الزي العسكرى الأمريكى • ولما دعا محمد على فى سنة ١٨١١ جميع ضباط المماليك الى مأدبة فى القلعة ليوقعهم فى الكمين الذى أعده لهم ، استثنى الفرنسيين من المذبحة ليلحقهم بحرسه • على أن أكثر من وفق فى حياته من الفرنسيين المتروكين فى مصر هو بلا ريب صبى طبال

من طولون قبض عليه البدو في سنة ١٧٩٩ وهو في الثانية عشرة من عمره .
وباعة البدو الى والى طرابلس ، فارتقى في خدمته باسم عبدالله ، واشترك في
فتح الأتراك لفران ، وعين حاكما لاقليم صحراوي ، فأناح له ذلك ان يدفع
ضريبة سنوية فرضت على محصول التمر تبلغ ١٠٠٠٠ قرش أسباني .

وأكبر الظن أن بولين فوريه ضربت الرقم القياسي في طول العمر بين
من ظلوا على قيد الحياة من أفراد الحملة المصرية . وكانت قد أفلحت في العودة
الى فرنسا في عام ١٨٠٠ . ورفض بوناپرت مقابلتها ، ولكنه أهداها قصرا قرب
باريس ومنحا مالية متكررة . وفي السنة التي عادت فيها الى فرنسا لقيت رجلا
يدعى « هنري دورانشو » فتزوجته ، وكان صاغا في الجيش التركي ، فحصلت
له على عدة وظائف قنصلية متواضعة ، أولا في سانتاندر ، ثم قرطاجنة ، وأخيرا
في جوتنبرج . ويبدو أن عواطف مدام دورانشو نحو زوجها الثاني لم تكن
حارة . فبينما كان مسيو دورانشو خاملا في أسبانيا ، والسويد ، كانت تنفق
أكثر وقتها في باريس وتحيا على هواها . فاحترفت الكتابة ، ونشرت رواية في
مجلدين سميتها « اللورد ونتوورث » ، وكذلك بدأت ترسم . وهي تبدو في
صورتها التي رسمتها بريشتها تقطف أقحوانة ، وما زال فيها من الحسن
ما يغري بالحب .

ويروى نابليون في ذكرياته بسانت هيلانه أنه قابل بولين مرة في حفلة
رقص تنكرية في سنة ١٨١١ . فذكرها بأنها كانت تسمى كليوبطرة في مصر ،
وتكلمت هي في حرارة عن قيصر دون أن تتبين حقيقته - اذا صدقت شهادته .
ولكنها قصة بعيدة الاحتمال . ومن المؤكد أن نابليون في هذا العام نفسه أمر
بأن يدفع لها ٦٠٠٠٠ فرنك من حصيلة ملاهي الدولة ، وأن مدام دورانشو ظلت
من ١٨١٢ حتى اعتزال نابليون بعد ذلك بعامين تعيش منفية في مدينة كرابون
الصغيرة في اللوار الأعلى ، وليس بعيدا أن نفترض أن الامبراطور رأى أنه دفع
لها ما فيه الكفاية . وكانت بولين تفجأ أهل كرابون بالجلوس علانية الى نافذتها
تدخن قصبه ، وبالمشي مسافات طويلة وحدها مع كلبها ذي الشعر الحريري
الذي كانت تصحبه الى القداس في كل أحد .

ويبدو أن سقوط نابليون لم يثر أى انفعالات شديدة في نفس مدام
دورانشو ، وكذلك عودته من الباء واعتزاله الحكم لثاني مرة بعد المائة يوم .
ولم تكن تحب أن يذكرها أحد بمغامرتها في مصر ، وكانت في آرائها السياسية
تؤيد بقوة لويس الثامن عشر بعد اعادته لعرشه . ويبدو أنها بدأت حياة جديدة في
١٨١٦ ، حين كانت في منتصف عقدها الثالث . فحصلت على حكم بالانفصال
عن زوجها ، وباعت جميع أثاثها ورحلت الى البرازيل مع رجل يدعى جان -
أوجست بيلار ، وهو ضابط سابق في الحرس الامبراطوري ، وأشييع أنها كانت

ترجو الاتصال بعشيقها القديم على صخرته المهجورة فى المحيط الأطلنطى الجنوبى، وربما مساعدته على الهروب . ولكن لم يكن شئ أبعد من هذا عن أفكارها . ذلك أن هدفها من الذهاب الى البرازيل حسبما تشير كل الشواهد كان تجاريا بحثا : فقد أخذت معها بضائع فرنسية باعتهما فى البرازيل ، واشترت بحصيلتها أخشابا ثمينة عادت بها الى فرنسا . وأخذت تروح وتغلو بين فرنسا والبرازيل وهى تشتغل بهذه التجارة الرابعة حتى ١٨٣٧ ، حين استقرت فى باريس مع مجموعة من القردة والبغاوات تركتها تسرح وتمرح فى مسكنها بكامل حريتها .

وكان نابليون قد ودع الحياة منذ ستة عشر عاما ، أمام مدام دورانشو فكانت لا تزال تفيض حيوية . وكتبت قصة تاريخية أخرى « نبيلة ريفية من القرن الثانى عشر » لم تثر كقصتها السابقة اهتماما يذكر ، وكانت ترسم ، وتعزف على القيثارة عزفا لذيذا . كذلك كونت لها لفيفا من الأصدقاء ، منهم الرسامة روزا بونير التى كانت تحب ارتداء ثياب الرجال . وظلت تحتفظ بقواها العقلية سليمة طوال الأعوام الاثنتين والعشرين التالية . وجلب الملك لويس فيليب جثمان عشيقها السابق من سانت هيلانه الى فرنسا ، وعلبت حكومة الملك لويس فيليب ، وأصبح ابن أخى عشيقها القديم امبراطورا باسم نابليون الثالث ، وراح يحلم بامبراطورية فى الشرق كما حلم عمه قبل نصف قرن . ولكنه لم يقدر حملة حربية على مصر ، بل حصل لفرنسا على حقوق تحكم بها فى قناة السويس التى كان يجرى شقها . وأخيرا افتتح الخديو اسماعيل ، سليل محمد على ، القناة فى ١٨٦٩ . وحقق المالىون والمهندسون ما حاول الجنرال بوناپرت تحقيقه من قبل فى كثير من التعجل بقوة السلاح . فى تلك السنة ماتت بولين دورانشو بعد أن شارفت نهاية عقدها التاسع ، ولو مد فى أجلها عام آخر لشهدت انهيار الامبراطورية النابليونية الثانية ، ولأطلت على قرن كامل من التاريخ .

هوامش الكتاب

الفصل الأول

- (١) مذكرات نقولا الترك ص ٧ .
(٢) Nicolas Turc, p. 9.
(٣) Institut d'Egypte, I, 86.
(٤) Bourrienne, I, 230.
(٥) Ibid., I, 221.
(٦) Gourgaud, II, 56.
(٧) Las Cases, II, 381.
(٨) Rémusat, I, 274.
(٩) Belliard, Histoire, III, 43-44.
(١٠) Tott, II, 44-45.
(١١) Charles-Roux, Origines, p. 88.
(١٢) Ibid., p. 49.
(١٣) Ibid., p. 113.
(١٤) Correspondance, III, 235.
(١٥) Ibid.
(١٦) Wordsworth, «On the Extinction of The Venetian Republic» in
(١٧) Poetical Works, III (Oxford, 1954), 111.
(١٨) Rémusat, I, 267.
(١٩) Correspondance, XXIX, 429.
(٢٠) Ibid., XXIX, 430.
(٢١) Ibid., XXX 231.
(٢٢) Guerrini, p. 52.
(٢٣) Bourrienne, I, 233.
(٢٤) Belliard, Histoire, IV, 70.
(٢٥) Vigo — Roussillon, p. 587.
(٢٦) Wheeler and Broadley, I, 121.
(٢٧) Ibid., I, 129.
(٢٨) Ibid., I, 122.
(٢٩) Ibid., I, 132.

Bath Chronicle, May 3, 1798.

(٢٨)

Warner, p. 45.

(٢٩)

Ibid., p. 75.

(٣٠)

الفصل الثاني

Warner, p. 58.

(١)

Correspondance, XXIX, 370.

(٢)

Ibid, XXIX, 369.

(٣)

Cavaliero, p. 223.

(٤)

Correspondance, IV, 133.

(٥)

François, I, 184.

(٦)

Bourrienne, Vol. I, Ch. v.

(٧)

Desveronis, p. 97.

(٨)

Correspondance, IV, 147

(٩)

Ibid., IV, 174.

(١٠)

Ibid., IV, 176.

(١١)

Nelson, III, 31.

(١٢)

Warner, pp. 57-58.

(١٣)

Nelson, III, 43.

(١٤)

Ibid., III, 47.

(١٥)

Lichtenberger, p. 270.

(١٦)

Bourrienne, I, 250.

(١٧)

Aubry, Monge, p. 240.

(١٨)

Correspondance de l'armée française, pp. 112-13.

(١٩)

Vertray, p. 35.

(٢٠)

Denon, I, 7.

(٢١)

Ibid., I, 5.

(٢٢)

Correspondance inédite, officielle et confidentielle :

Egypte, I, 155.

(٢٣)

Correspondance, IV, 182-83.

(٢٤)

Correspondance de l'armée française, p. 53.

(٢٥)

Nicholas Turc, p. 8.

مذكرات نقولا الترك ص ٦ . (٢٦)

Denon, I, 20.

(٢٧)

Ibid., I, 21.

(٢٨)

Bourrienne, I, 258.

(٢٩)

Correspondance, IV, 190.

(٣٠)

Ibid.

(٣١)

- Thurman, p. 27. (٣٢)
 Vertray, p. 30. (٣٣)
 Nicholas Turc, p. 9. • مذكرات نقولا الترك ص ٧ (٣٤)
 Ibid., p. 24. • مذكرات نقولا الترك ص ١٥ (٣٥)
 (٣٦) تاريخ الجبرتي (الجزء الثالث من الطبعة الشرقية) ص ٣ -
 El-Djabarti, VI, 7.

الفصل الثالث

- Nicolas Turc, p. 13. • مذكرات نقولا الترك ص ١١ (١)
 Ibid., p. 19. • مذكرات نقولا الترك ص ١٢ (٢)
 Ibid. • مذكرات نقولا الترك ص ١٢ (٣)
 Vertray, p. 64. (٤)
 El-Djabarti, VI, 13. • تاريخ الجبرتي ص ٦ (٥)
 Ibid., VI , 13-14. • تاريخ الجبرتي ص ٦ (٦)
 Ibid., VI, 15. • نقولا الترك ص ٦ (٧)
 Desvernois, p. 100. (٨)
 Correspondance, IV, 216. (٩)
 Correspondance de l'armée française, p. 158. (١٠)
 Millet, p. 44. (١١)
 Correspondance de l'armée française, p. 28. (١٢)
 Ibid., p. 29. (١٣)
 (١٤) تاريخ الجبرتي ص ٤ ، ٥ •
 Correspondance, IV, 921-92 ; Nicolas Turc, pp. 10-12.
 Correspondance de l'armée française, p. 40. (١٥)
 Las Cases, I, 504. (١٦)
 Gourgaud, II, 261-62. (١٧)
 Correspondance inédite, officielle et confidentielle :
 Egypte, I, 212. (١٨)
 Correspondance de l'armée française, p. 25. (١٩)
 Correspondance, IV, 217. (٢٠)
 Correspondance de L'armée française, pp. 9, 10. (٢١)
 Millet, p. 45. (٢٢)
 Correspondance de l'armée française, p. 8. (٢٣)
 Thurman, p. 89. (٢٤)
 Denan, I, 27. (٢٥)
 Ibid., I, 28. (٢٦)
 Ibid., I, 29. (٢٧)

Ibid., I, 33.	(28)
Bourienne, I, 261.	(29)
Correspondance inédite, officielle et confidentielle :	
Egypte, I, 102-3.	(30)
Ibid., p. 211.	(31)
Ibid., p. 213.	(32)
Ibid., pp. 216-17.	(33)
Vertray, p. 32.	(34)
Ibid., p. 37.	(35)
François, I, 195.	(36)
Desvernois, pp. 107-8.	(37)
Correspondance, XXIX, 438.	(38)
Desvernois, p. 105.	(39)
Correspondance inédite, officielle et confidentielle :	
Egypte, I, 219.	(40)
Vertray, pp.38-40.	(41)
Correspondance XXIX, 460.	(42)
Ibid., IV, 201.	(43)
La Jonquière, II, 125.	(44)
Ibid., II, 131.	(45)
Millet, p. 50.	(46)
Vertray, p. 42.	(47)
Ibid., p. 44.	(48)
Correspondance XXIX, 439.	(49)
La Jonquière, II, 135.	(50)
Desvernois, p. 110.	(51)
Correspondance, XXIX, 446.	(52)
Las Cases, I, 131-32.	(53)
Bourienne, I, 268-69.	(54)
La Jonquière, II, 144.	(55)
Desvernois, p. 108	(56)
Vertray, p. 48.	(57)
Ibid., pp. 48-49.	(58)
Ibid., 50-51.	(59)
Desvernois p. 118.	(60)
Ibid., p. 116.	(61)
Bourienne, I, 271.	(62)

Nicolas Turc, p. 22.	• مذكرات نقولا الترك ص ١٣	(٦٣)
Correspondance de l'armée française, pp. 62-63.		(٦٤)
Bourrienne, I, 272.		(٦٥)
Nicolas Turc, p. 22.	• مذكرات نقولا الترك ص ١٣	(٦٦)
Vertray, p. 55.		(٦٧)
François, I, 202.		(٦٨)
La Jonquière, II, 162.		(٦٩)
François, I, 203.		(٧٠)
La Jonquière II, 162.		(٧١)
Ibid., II, 170.		(٧٢)
Correspondance, XXIX, 450.		(٧٣)
Vertray pp. 57-59.		(٧٤)
Desevernois, p. 124.		(٧٥)
Millet, p. 52.		(٧٦)
Nicolas Turc, p. 23.	• مذكرات نقولا الترك ص ١٤	(٧٧)
El Djabarti, VI, 16 f.	• تاريخ الجبرتي ص ٨ وما يليها	(٧٨)
Nicolas Turc, pp. 23-24.	• مذكرات نقولا الترك ص ١٤ ، ١٥	(٧٩)
El Djabarti, VI, 20.	• تاريخ الجبرتي ص ١٠	(٨٠)
Correspondance, XXIX, 451.		(٨١)
Nicolas Turc, p. 24.	• مذكرات نقولا الترك ص ١٤	(٨٢)
Malus, p. 65.		(٨٣)
Correspondance, IV, 252.		(٨٤)
Du Casse, Mémoires du roi Joseph, I, 188.		(٨٥)
Ibid.		(٨٦)
Correspondance de l'armée française, p. 3.		(٦٧)

الفصل الرابع

La Jonquière, II, 124.	(١)
Ibid., II, 246.	(٢)
Correspondance, IV, 262.	(٣)
La Jonquière, II, 86.	(٤)
Correspondance de l'armée française, pp. 46-47.	
La jonquière, II, 94, 95.	(٦)
Warner, pp. 166-67	(٧)
Bourrienne, I, 296.	(٨)
Correspondance, IV, 361.	(٩)
Warner, p. 166.	(١٠)

Ibid., p. 101.	(11)
Nicol, p. 187.	(12)
Ibid., p. 189.	(13)
La Jonquière, II, 399.	(14)
Warner, p. 82.	(15)
La Jonquière, II, 400-401	(16)
Lee, p. 90.	(17)
Ibid., p. 91.	(18)
Warner, p. 110.	(19)
Ibid., p. 94.	(20)
La Jonquière, II, 425.	(21)
Correspondance de l'armée française, p. 222	(22)
Correspondance, XXIX, 469	(23)
Ibid., XIX, 469-70.	(24)
La Jonquière, III, 425.	(25)
Correspondance, IV, 362.	(26)
Ibid., XXIX, 471.	(27)
Warner, p. 140.	(28)
Ibid., p. 92.	(29)
Nelson, III, 56.	(30)
Nicol, pp. 186-87.	(31)
Ibid., p. 188.	(32)
Warner, p. 145.	(33)
Nelson, III, 125.	(34)
Warner, p. 141.	(35)
Correspondance, XXIX, 458.	(36)
Nelson, III, 95.	(37)
La Jonquière, II, 600.	(38)
Ibid., II, 602.	(39)
Ibid., II, 600.	(40)
Ibid., II, 603.	(41)
Ibid., II, 607-8.	(42)
Ibid., III, 232.	(43)
Ibid., III, 233.	(44)

- Correspondance, IV, 252. (١)
 Charles Roux, Bonaparte, p. 254. (٢)
 Ibid., p. 256. (٣)
 Denon, I, 82 (٤)
 Correspondance, IV, 273. (٥)
 La Jonquière, II, 468-69. (٦)
 Ibid., III, 114. (٧)
 Ibid., III, 61-62. (٨)
 Correspondance, IV, 475. (٩)
 Ibid., IV, 286. (١٠)
 El-Djabarti, VI, 26-27. • تاريخ الجبرتي ص ١٢ (١١)
 Correspondance, V, 574. (١٢)
 El-Djabarti, VI, 36. • تاريخ الجبرتي ص ١٨ (١٣)
 Belliard, Histoire, cited in Ivray, p. 33. (١٤)
 Correspondance, V, 574. (١٥)
 Pelet, p. 223. (١٦)
 Correspondance, III, 24. (١٧)
 Ibid., IV, 420. (١٨)
 Ibid., IV, 243-44. (١٩)
 • مذكرات نقولا الترك ص ١٨ (٢٠)
 Nicolas Turc, cited in La Jonquière, II, 474-75.
 La Jonquière, III, 398-99. (٢١)
 Correspondance, V, 203. (٢٢)
 Nicolas Turc, p. 5. • مذكرات نقولا الترك ص ٣ (٢٣)
 Ivray, p. 19. (٢٤)
 Courrier de l'Egypte, 12 Fructidor, Year VI. (٢٥)
 La Jonquière, II, 481. (٢٦)
 Ibid., II, 481-82. (٢٧)
 Cited in Malus, p. 90. (٢٨)
 Correspondance, IV, 283. (٢٩)
 El-Djabarti, VI, 36 • تاريخ الجبرتي ص ١٧ (٣٠)
 Bourrienne, II, 167. (٣١)
 Courrier de L'Egypte, 6 Vendémiaire, Year VII. (٣٢)
 Ibid. (٣٣)
 El-Djabarti, VI, 40. • تاريخ الجبرتي ص ١٩ (٣٤)

Correspondance, V. 1.	(٣٥)
El-Djabarti, VI, 40.	(٣٦) تاريخ الجبرتي ص ١٩
Ibid., VI, 69.	(٣٧)
Ibid., VI, 86.	(٣٨)
Malus, p. 92.	(٣٩)
François, I, 213.	(٤٠)
Ibid.	(٤١)
Correspondance de l'Armée Française, pp. 98-102.	(٤٢)
Vertray, p. 63.	(٤٣)
El-Djabarti, VI, 23.	(٤٤) تاريخ الجبرتي ص ١١
La Jonquière, III, 91.	(٤٥)
El-Djabarti, VI, 26.	(٤٦) تاريخ الجبرتي ص ١٢
Ibid., VI, 86.	(٤٧) تاريخ الجبرتي ص ٤٢
Correspondance de l'armée française, pp. 157-58.	(٤٨)
El-Djabarti, VI, 306.	(٤٩) تاريخ الجبرتي ص ١٧١
Ibid., VI, 304-5.	(٥٠)
Charles-Roux, Bonaparte, p. 258.	(٥١)
Millet, p. 53.	(٥٢)
La Jonquière, III, 163-65.	(٥٣)
Ibid., V. 251.	(٥٤)
Belliard, Histoire, IV, 113-15	(٥٥)
La Jonquière, III, 49.	(٥٦)
El-Djabarti, VI, 92.	(٥٧) تاريخ الجبرتي ص ٤٥
Ibid., VI, 93.	(٥٨) تاريخ الجبرتي ص ٤٦
Correspondance, V, 224.	(٥٩)
Courrier de l'Egypte, 18 Frimaire, Year VII.	(٦٠)
Vertray, p. 68.	(٦١)

الفصل السادس

Jollois, p. 50.	(١)
La Jonquière, III, 80.	(٢)
Charles-Roux, Bonaparte, p. 144.	(٣)
Ibid., p. 137.	(٤)
La Jonquière, II, 454.	(٥)
Aubry, Monge, p. 256.	(٦)
Charles - Roux, Bonaparte, p. 219.	(٧)

Ibid., p. 159.	(٨)
Ibid., p. 225.	(٩)
El-Djabarti, VI, 70-71	• تاريخ الجبرتي ص ٣٥ - ٣٦ (١٠)
Correspondance, XXIV, 493.	(١١)
El-Djabarti, VI, 70-71.	• تاريخ الجبرتي ص ٣٤ - ٣٥ (١٢)
Charles-Roux, Bonaparte, p. 163.	(١٣)
Ibid., p. 364.	(١٤)
Ibid., p. 163.	(١٥)
La Jonquière, III, 692.	(١٦)
Ibid., p. 164.	(١٧)
Correspondance, XXIX, 427.	(١٨)
Ibid., V. 32.	(١٩)
El-Djabarti, VI, 50.	• تاريخ الجبرتي ص ٢٤ (٢٠)
Ibid., VI, 51.	• تاريخ الجبرتي ص ٢٤ (٢١)
Ibid., VI, 54.	• تاريخ الجبرتي ص ٢٥ (٢٢)
Ibid., VI, 55.	• تاريخ الجبرتي ص ٢٦ (٢٣)
Correspondance, III, 367.	(٢٤)
Stael, p. 373. See also Marquiset, p. 71, and Pelet, p. 223.	(٢٥)
Correspondance, V., 574.	(٢٦)
Ibid., XXIX, 478.	(٢٧)
Ibid., XXIX, 479.	(٢٨)
Ibid., XXIX, 481.	(٢٩)
Ibid., XXIX, 481-82	(٣٠)
Ibid., XXIX, 482-83.	(٣١)
Gourgaud, II, 151.	(٣٢)
Correspondance, XXX, 64.	(٣٣)
Gourgaud, II, 435-36.	(٣٤)
Caulaincourt, I, 315.	(٣٥)
Charles-Roux, Bonaparte, p. 73	(٣٦)
Ibid., p. 74.	(٣٧)
Ibid., p. 73.	(٣٨)
La Jonquière, III, 81.	(٣٩)
Ibid., III, 92.	(٤٠)
Ibid., III, 91.	(٤١)
Correspondance, IV. 448-49.	(٤٢)
Correspondance inédite, officielle et confidentielle, Egypte, II, 75-76.	(٤٣)

La Jonquière, III, 92-93.	(٤٤)
Correspondance, V, 30-31.	(٤٥)
Nicolas Turc, p. 43.	(٤٦) مذكرات نقولا الترك ص ٣٠
Ibid., p. 45.	(٤٧) مذكرات نقولا الترك ص ٣١
Ibid., p. 40.	(٤٨) مذكرات نقولا الترك ص ٣٧
Martin, I, 243.	(٤٩)
Charles-Roux, Bonaparte, p. 198.	(٥٠)
El-Djabarti, VI, 39.	(٥١) تاريخ الجبرتي ص ١٨
Nicolas Turc, p. 41.	(٥٢) مذكرات نقولا الترك ص ٢٨ ، ٢٩
El-Djabarti, VI, 66.	(٥٣) تاريخ الجبرتي ص ٣٢
Denon, I, 105-6.	(٥٤)
Aubry, Monge, p. 257.	(٥٥)
La Jonquière, III, 281.	(٥٦)
Correspondance, V, 88.	(٥٧)
El-Djabarti, VI, 56-57.	(٥٨) تاريخ الجبرتي ص ٢٧
Ibid, VI, 57.	(٥٩) تاريخ الجبرتي ص ٢٧
Vertray, p. 86.	(٦٠)
Correspondance, XXIX, 502-3.	(٦١)
Rémusat, I, 279.	(٦٢)
Correspondance, V, 89-90.	(٦٣)
Ibid., XXIX, 502.	(٦٤)
El-Djabarti, VI, 58-59.	(٦٥) تاريخ الجبرتي ص ٢٨
Ibid., VI, 122-23.	(٦٦) تاريخ الجبرتي ص ٦٤
Denon, I, 107.	(٦٧)
Ibid., I, 108.	(٦٨)
Correspondance, V, 96.	(٦٩)
Ibid., V, 221-22.	(٧٠)
El-Djabarti, VI, 79-80.	(٧١) تاريخ الجبرتي ص ٢٩
Ibid., VI, 78.	(٧٢) تاريخ الجبرتي ص ٢٨
Ivray, pp. 79-80.	(٧٣)

الفصل السابع

Masson and Biagi, II, 277.	(١)
Rémusat, I, 267.	(٢)
Napoléon I, Lettres / Joséphine, pp. 24-25.	(٣)
Ibid., pp. 31-33.	(٤)

Masson, Napoléon, p. 44.	(٥)
Napoléon I, Lettres / Joséphine, PP. 44-45.	(٦)
Ibid., pp. 46-47.	(٧)
Maurois, p. 22.	(٨)
Damas Hinard, p. 21.	(٩)
Gourgaud, II, 170.	(١٠)
El-Djabarti, VII, 44.	(١١) تاريخ الجبرتي ص ٢٠٢
Masson Napoléon, p. 60.	(١٢)
Bourrienne, Vol. II, CH. xi.	(١٣)
Nicolas Turc, p. 39.	(١٤) مذكرات نقولا الترك ص ٢٧
Ibid., p. 40.	(١٥) مذكرات نقولا الترك ص ٢٧
Correspondance inédite, officielle et confidentielle :	
Egypte, II, 105.	(١٦)
Las Cases, I, 409.	(١٧)
O'Meara, II, 82.	(١٨)
Correspondance, V, 239.	(١٩)
Desegenettes, Souvenirs, III. 202, cited in La Jonquière, IV, 28.	(٢٠)
Correspondance, V, 282.	(٢١)
O'Meara, II, 82.	(٢٢)
Millet, pp. 61-62.	(٢٣)
Thurman, p. 74.	(٢٤)
La Jonquière, IV, 38.	(٢٥)
Ibid., IV, 39.	(٢٦)
Ibid., IV, 40.	(٢٧)
Ibid., IV, 41.	(٢٨)
Desgenettes, Histoire Médicale, I, 33.	(٢٩)
La Jonquière, IV, 33.	(٣٠)
Ibid., IV, 34.	(٣١)
Correspondance, V, 192.	(٣٢)
Ibid., V, 470.	(٣٣)
Ibid., V, 490.	(٣٤)
Correspondance inédite, officielle et confidentielle :	
Egypte, II, 88.	(٣٥)
Correspondance, V, 491.	(٣٦)

La Jonquière III, 387.	(٣٧)
Gourgand, I. 305-6.	(٣٨)
Bourrienne, Vol. II, Ch. xiv.	(٣٩)
Correspondance, V, 41.	(٤٠)
Ibid., V, 42 .	(٤١)
La Jonquière, III, 266-68	(٤٢)
Correspondance, V. 148.	(٤٣)
Ibid., V, 213.	(٤٤)
La Jonquière, III, 444.	(٤٥)
El-Djabarti, VI, 81.	(٤٦) تاريخ الجبرتي ص ٨١ .
La Jonquière, IV, 63.	(٤٧)
Correspondance, V, 240.	(٤٨)
La Jonquière, IV, 63.	(٤٩)
Ibid., IV, 18.	(٥٠)

الفصل الثامن

Sauzet, p. 18.	(١)
Ibid., p. 131.	(٢)
Ibid., p. 132.	(٣)
Ibid., p. 144.	(٤)
O'Meara, I, 153-54.	(٥)
Sauzet, p. 188.	(٦)
Ibid., pp. 245-246.	(٧)
El-Djabarti, 314.	(٨) تاريخ الجبرتي ص ١٧٦ .
Ibid., VI, 318.	(٩) تاريخ الجبرتي ص ١٧٩ .
Denon, I, 118.	(١٠)
La Jonquière, III, 206.	(١١)
Ibid., III, 213.	(١٢)
Denon, I, 127.	(١٣)
La Jonquière, III, 212.	(١٤)
Ibid.	(١٥)
Ibid., III, 224-25.	(١٦)
Desvernois, p. 153.	(١٧)
Ibid., p. 154.	(١٨)
Ibid., p. 138.	(١٩)
Denon, I, 92.	(٢٠)
Ibid., I, 98.	(٢١)

Ibid., I, 71-72.	(۲۲)
Ibid., I, 117.	(۲۳)
La Jonquière, III, 506-7.	(۲۴)
Ibid., III, 509.	(۲۵)
Denon, I, 252-53.	(۲۶)
La Jonquière, III, 51, 2.	(۲۷)
Denon, I, 159, 158.	(۲۸)
Correspondance, V, 71.	(۲۹)
La Jonquière, III, 515.	(۳۰)
Ibid., III, 513.	(۳۱)
Denon, I, 163 f.	(۳۲)
Ibid., I, 165.	(۳۳)
La Jonquière, III, 517.	(۳۴)
Desvernois, p. 162.	(۳۵)
La Jonquière, III, 531.	(۳۶)
Ibid., III, 607.	(۳۷)
Denon, I, 138.	(۳۸)
Ibid., I, 147.	(۳۹)
Ibid., I, 153.	(۴۰)
Ibid., I, 172-73.	(۴۱)
Ibid., I, 182.	(۴۲)
Ibid., I, 178 ff.	(۴۳)
Ibid., I, 183.	(۴۴)
Ibid., I, 184.	(۴۵)
Desvernois, p. 169.	(۴۶)
Denon, I, 186.	(۴۷)
La Jonquière, III, 539.	(۴۸)
Ibid., III, 566.	(۴۹)
Ibid., III, 578.	(۵۰)
Ibid., III, 592-93.	(۵۱)
Denon, I, 205.	(۵۲)
Ibid., I, 206.	(۵۳)
La Jonquière, III, 547.	(۵۴)
Denon, I, 219.	(۵۵)
La Jonquière, III, 545-46.	(۵۶)
Denon, I, 238.	(۵۷)

La Jonquière, III, 598.	(٥٨)
Denon, I, 240.	(٥٩)
La Jonquière, III, 598.	(٦٠)
Ibid., III, 608.	(٦١)
Ibid.	
Ibid., III, 610.	(٦٢)
Desvinois, p. 186.	(٦٣)
La Jonquière, III, 644.	(٦٤)
Charles-Roux : Bonaparte, p. 341.	(٦٥)
Ibid., p. 340.	(٦٦)
La Jonquière, III, 664.	(٦٧)
Ibid., III, 665.	(٦٨)
Ibid., III, 673.	(٦٩)
Denon, I, 301.	(٧٠)
Ibid, I, 310.	(٧١)
Nicolas Turc., p. 48.	(٧٢)
	(٧٣) مذكرات نقولا الترك ص ٣١ .

الفصل التاسع

Correspondance, XXX, 6.	(١)
El-Djabarti, VI, 94.	(٢) تاريخ الجبرتي ص ٤٦ ، ٤٧ .
Correspondance, V. 278.	(٣)
Ibid., XXX, 14.	(٤)
Ségur, I, 251.	(٥)
Bourrienne, Vol. II, Ch. XII	(٦)
Correspondance, XXX, 14.	(٧)
Ibid., V, 311.	(٨)
La Jonquière, IV, 180.	(٩)
Ibid., IV, 118.	(١٠)
Staël, p. 436.	(١١)
La Jonquière, IV, 166.	(١٢)
Correspondance, XXX, 17.	(١٣)
Malus, p. 119.	(١٤)
La Jonquière, IV, 195.	(١٥)
Ibid., IV, 203.	(١٦)
Mallus, p. 122.	(١٧)
Ibid, p. 124.	(١٨)

El-Djabarti, VI, 100.	(١٩). تاريخ الجبرقي ص ٥٠
Correspondance, V, 334.	(٢٠)
La Jonquière, IV, 237.	(٢١)
Degenettes, Histoire Médicale, I, ٤5.	(٢٢)
La Jonquière, IV, 248..	(٢٣)
Ibid., IV, 263-64.	(٢٤)
Malus, p. 135.	(٢٥)
Correspondance, XXX, 27 ,	(٢٦)
Bourrienne, Vol. II, Ch. XV.	(٢٧)
La Jonquière IV, 270.	(٢٨)
Ibid., IV, 271-72.	(٢٩)
Correspondance, II, 195.	(٣٠)
Ibid., V, 352.	(٣١)
Ibid., V, 355.	(٣٢)
La Jonquière, IV, 284.	(٣٣)
Desgenettes, Souvenirs, III, 221, cited in La Jonquière, IV, 284.	(٣٤)
La Jonquière, IV, 285.	(٣٥)
Correspondance, VI, 4.	(٣٦)
Malus, p. 142.	(٣٧)
Ibid., pp. 140-43 passim.	(٣٨)
Tott, II, 97.	(٣٩)
La Jonquière, IV, 315.	(٤٠)
Ibid., IV, 649.	(٤١)
Correspondance, V, 373.	(٤٢)
La Jonquière, IV, 320.	(٤٣)
Desgenettes, Histoire Médicale, I, 8١.	(٤٤)
Ibid., I, 86.	(٤٥)
Ibid., I, 88.	(٤٦)
La Jonquière, IV, 315.	(٤٧)
Ibid, IV, 336.	(٤٨)
Miot, p. 164.	(٤٩)
Cited in La Jonquière, IV, 343.	(٥٠)
Miot p. 176.	(٥١)
Ibid., pp. 177-78.	(٥٢)
Misset, p. 104.	(٥٣)

Lavalette, I, 311.	(٥٤)
Nicolas Turc, p. 57.	(٥٥) مذكرات نقولا الترك ص ٤١ .
Millet, p. 105.	(٥٦)
Lavalette, I, 312.	(٥٧)
Desgenettes, Souvenirs, III, 237, cited in La Jonquière, IV, 423.	(٥٨)
Lavalette, I, 312.	(٥٩)
Desgenettes, Souvenirs, III, 237, cited in La Jonquière, IV, 425.	(٦٠)
Ibid., Ibid.	(٦١)
Correspondance, XXX, 36-37.	(٦٢)
Ibid., V, 405	(٦٣)
La Jonquière, IV, 453.	(٦٤)
Villiers du Terrage, p. 184.	(٦٥)
Belliard, Histoire, III, 345.	(٦٦)
Bourrienne, Vol. II, Ch. xv.	(٦٧)
Barrow, I, 291.	(٦٨)
La Jonquière, IV, 496.	(٦٩)
Ibid., IV, 497.	(٧٠)
Ibid., IV, 632-33.	(٧١)
Ibid., IV, 528.	(٧٢)
Correspondance, V, 202.	(٧٣)
La Jonquière, IV, 519.	(٧٤)
Desgenettes, Souvenirs, III, 256, cited in La Jonquière, IV, 555.	(٧٥)
Correspondance, V, 428.	(٧٦) تاريخ الجبرتى ص ٧١ .
Ibid., V, 429-30.	(٧٧)
La Jonquière, IV, 539.	(٧٨)
Ibid., IV, 543-44.	(٧٩)
Barrow, I, 307.	(٨٠)
La Jonquière, IV, 548.	(٨١)
Bourrienne, Vol. II, Ch. XVI.	(٨٢)
Ibid.	(٨٣)
Correspondance, V, 436.	(٨٤)
Barrow, I, 311-12.	(٨٥)
Correspondance, V, 440.	(٨٦)

Bourrienne, Vol. II, Ch. XVI.	(٨٧)
La Jonquière, IV, 577.	(٨٨)
Barrow, I, 313.	(٨٩)
Ibid, I, 312.	(٩٠)
Vigo-Roussillon, p. 608.	(٩١)
La Jonquière, IV, 596.	(٩٢)
Richardot, Nouveaux Mémoires, p. 178.	(٩٣)
La Jonquière, IV, 609.	(٩٤)
Ibid., IV, 625.	(٩٥)
Ibid., IV, 625-26.	(٩٦)

الفصل العاشر

La Jonquière, IV, 634.	(١)
Bourrienne, Vol. II, Ch. XIII.	(٢)
Nicolas Turc, p. 65.	(٣) مذكرات نقولا الترك ص ٤٩
La Jonquière, V, 51.	(٤)
Ibid., V, 87.	(٥)
Masson and Biagi, II, 19.	(٦)
La Jonquière, V, 231.	(٧)
Ibid.	(٨)
Ibid., V, 233.	(٩)
Victoires, conquêtes, X, 313.	(١٠)
Staël, p. 334.	(١١)
La Jonquière, V, 406 n ; Correspondance, Vol. V, Nos. 4323 and 4334 ; Barrow, I. 364, 373 ; Rousseau, 82.	(١٢)
La Jonquière, V, 405.	(١٣)
Correspondance, V, 537, 541.	(١٤)
François, I, 359.	(١٥)
Barrow, I, 364.	(١٦)
Ibid	(١٧)
Niolas Turc, p. 78.	(١٨) مذكرات نقولا الترك ص ٦٠
Roederer, pp. 212-240.	(١٩)
La Jonquière, V, 166.	(٢٠)
Ibid., V, 576.	(٢١)
Correspondance, V, 565.	(٢٢)
Jomard, p. 54.	(٢٣)
Roustam, p. 35.	(٢٤)

Ibid., p. 43.	(٢٥)
Correspondance, V, 569.	(٢٦)
Ollivier, p. 131.	(٢٧)
Ibid., p. 124.	(٢٨)
Ibid., p. 130.	(٢٩)
Ibid., p. 137.	(٣٠)
Gohier, I, 199.	(٣١)
Ollivier, j. 152.	(٣٢)
Nicolas Turc, p. 120.	(٣٣)
Barras, IV, 29.	(٣٤)
Ollivier, p. 156.	(٣٥)
Jung, I, 295.	(٣٦)
Correspondance, VI, i.	(٣٧)
Bourrienne, Vol. III, Ch. VII.	(٣٨)
Correspondance, VI, 4.	(٣٩)
Bourrienne, Vol. Ch. VII.	(٤٠)
Ollivier, p. 215.	(٤١)
Ibid., p. 218.	(٤٢)
Ibid., p. 220.	(٤٣)
Ibid., p. 224.	(٤٤)
Ibid., p. 214.	(٤٥)
Correspondance, V, 575.	(٤٦)
La Revellière-Lépaux, II, 348.	(٤٧)
Correspondance, XXX 84-93	(٤٨)
Ibid., V, 577.	(٤٩)
Rousseau, p. 80.	(٥٠)
Correspondance, V. 577.	(٥١)
Rousseau, p. 8.	(٥٢)
El-Djabarti, VI, 154	(٥٣) تاريخ الجبرتي ص ٨٣ •
Denon, I, 351.	(٥٤)
Rousseau, p. 70.	(٥٥)
Ibid., p. 78.	(٥٦)
Ibid.	(٥٧)
Ibid., p. 80.	(٥٨)
Ibid., p. 59.	(٥٩)
Ibid., p. 102.	(٦٠)

Ibid., p. 104.	(٦١)
Barrow, I, 380, 385, 387.	(٦٢)
Nicolas Turc, p. 86.	(٦٣) مذكرات نقولا الترك ص ٦٦ .
Rousseau, pp. 197, 198	(٦٤)
François, I, 284.	(٦٥)
Rousseau, p. 231.	(٦٦)
Ibid., p. 233.	(٦٧)
Ibid., p. 226.	(٦٨)
Barrow, I, 348-85.	(٦٩)
Ibid., II, 55, 51.	(٧٠)
Rousseau, pp. 238-39.	(٧١)
Barrow, II, 22.	(٧٢)
Nicolas Turc, p. 97.	(٧٣) مذكرات نقولا الترك ص ٧٨
Rousseau, p. 299.	(٧٤)
Ibid., pp. 301-2.	(٧٥)
Nicolas Turc, p. 107.	(٧٦) مذكرات نقولا الترك ص ٨٧
El-Djabarti, VI, 193-94.	(٧٧) تاريخ الجبرتي ص ١٠٦
Ibid., VI, 194.	(٧٨)
Correspondance, XXX, 125.	(٧٩)
Sauzet, pp. 267-168.	(٨٠)
Ibid., p. 268.	(٨١)
Correspondance, VI, 273.	(٨٢)
El-Djabarti, VI, 231.	(٨٣) تاريخ الجبرتي ص ١٢٧ .

الفصل الحادي عشر .

Sauzet, pp. 289, 290	(١)
Ibid., p. 296.	(٢)
Ibid., p. 308.	(٢)
Ibid., p. 309.	(٤)
François, I, 430.	(٥)
El-Djabarti, VI, 227.	(٦) تاريخ الجبرتي ص ١٢٤ .
Ibid., VI, 223-24.	(٧) تاريخ الجبرتي ص ١٢٢ .
Rousseau, p. 195.	(٨)
La Jonquière, V, 15.	(٩)
Ibid., V, 662-63.	(١٠)
Rousseau, p. 394.	(١١)

El-Djabarti, VI, 255.

Ibid., VII, 13.

Correspondance, VII, 40

Ibid., VII, 48.

Ibid., VII, 50.

Moore, II, 2.

Ibid., II, 16.

Wilson, I, 62-63.

Ibid., I, 87.

El-Djabarti, VI, 281.

Malus, p. 218.

Ibid., pp. 218-219.

Wilson, I, 230.

El-Djabarti, VII, 29.

Wilson, I, 236.

Rousseau, p. 408.

Wilson, II, 203, 205.

Rousseau, pp. 412-13.

Correspondance, VII, 203.

Rousseau, p. 410.

Wilson, II, 15.

Rousseau, p. 427.

Ibid., p. 424.

Wilson., II, 174.

Correspondance, VII, 346.

Ibid., VII, 315.

Gourgaud, I, 402.

(١٢) تاريخ الجبرتي ص ١٤٢

(١٣) تاريخ الجبرتي ص ١٨٩

(١٤)

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

(٢١) تاريخ الجبرتي ص ١٥٦

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

(٢٥) تاريخ الجبرتي ص ١٥٩

(٢٦)

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢)

(٣٣)

(٣٤)

(٣٥)

(٣٦)

(٣٧)

(٣٨)

فهرس

مقدمة المؤلف	٧
الفصل الأول : طولون	٩
الفصل الثاني : الى الاسكندرية	٤٨
الفصل الثالث : الى الأهرام	٧٣
الفصل الرابع : خليج أبو قير	١١٢
الفصل الخامس : سياسة التعايش السلمى	١٤٦
الفصل السادس : المجمع العلمى والأزهر	١٧٦
الفصل السابع : الغازى بين الترويح والتكدير	٢١٣
الفصل الثامن : الى الشلالات	٢٣٧
الفصل التاسع : الجزارون فى الأرض المقدسة	٢٧٦
الفصل العاشر : اله الحرب واله الحظ	٣٢٤
الفصل الحادى عشر : إباطيل الموت	٣٧٦
هوامش الكتاب	٤٠٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٠٠٣

١ - ١٠٣٦ - ٠١ - ٩٧٧ - ISBN

يقول المؤلف في مقدمة كتابه : «لم يكن هدفي حين شرعت في تأليف هذا الكتاب إلا أن أروى مغامرة من أشد مغامرات العصور الحديثة إثارة للمشاعر ، متوخياً الصدق في هذه الرواية ما استطعت إليه سبيلاً » .

ويعتمد الكتاب على تحليل حصيلة الشواهد المستقاة من الوثائق التي ينبغي النظر إليها بغاية الحذر أينما تعارضت مع الإدراك الفطري السليم .

وسواء اتفقنا أو اختلفنا مع المؤلف ، فإن هذا الكتاب يؤرخ للحملة الفرنسية على مصر وكفاح الشعب المصري ضد الاستعمار الفرنسي . . . والتأثيرات التي تمخضت عنها هذه الحملة سلباً أو إيجاباً .